الأويـغـور

(تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى وحضارتهم)

تـورغـون آلـمـاس
TURGHUN ALMAS

الأويـغـور
UYGHURS

(تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى وحضارتهم)

ترجمه إلى العربية
تحت إشراف
الأستاذة الدكتورة ماجدة مخلوف

دار تكلماكان الأويغوري

تـورغـون آلـمـاس

الأويـغـور
(تـاريخ الأتـراك فى آسيـا الـوسطى وحضارتـهم)

ترجمه إلـى الـعربـيـة
تحت إشراف
الأستـاذة الـدكـتـورة مـاجدة مخلـوف

اشترك فى الـتـرجمـة
د. محمد جاد (علـيـه رحمة الـلـه)
د. ميـاده احـمد
د. اسلام صـالـح
أ. نـعـمـة جبـلـى

الـطبـعـة الأولـى
٢٠١٨

الـتـرقـيـم الـدولـي: ٩٧٨٦٠٥٤٩٤٤١٤٩

دار تَـكْـلـمـاكـان الأويـغـوري
اسطنـبـول - تـركـيـا

الفهرس

تورغون آلماس ٥
المقدمة ٧

القسم الأول : سلطنة أورخون الأويغورية

الفصل الأول : الوطن الأم للأويغور ١٣
المصادر التاريخية المكتوبة ٢٠
الفصل الثاني: الأصل العرقي للأويغور ٣٧
الأساطير والروايات ٣٨
طوطم الذئب ٤٧
الوثائق التاريخية ٥٣
الفصل الثالث : الأويغور قبل سلطنة أورخون ٦٢
الهون والأويغور ٦٢
السيانبي والأويغور ٩٢
الآوار والأويغور ١٠٠
الكوك تورك والأويغور ١١٠
الفصل الرابع : تأسيس سلطنة أورخون الأيغورية ١٣٢
«توميد أولُغ إلتبر» ١٣٢
سلطنة الأويغور والأتراك ١٣٣
الفصل الخامس : سلطنة أورخون الأويغورية وأسرة «طانغ» ١٤٦
قُوتلق بيلكه قاغان ١٤٦
تَمَرُّد «اونلق» (ان لوان) ١٤٩
الفصل السادس : الحرب مع التبت ١٥٦
إرسال أميرات الصين للزواج من سلاطين الأويغور ١٥٨
تجارة الخيول والحرير بين الأويغور والصينين ١٦٧
الفصل السابع : سلطنة الأويغور والتبت ١٧٢

العلاقات بين التبت والأويغور.. ١٧٢
حملات «آي تنكري - خان».. ٤٧١
هجرة أويغور الشرق ١٧٧
عاقبة الأويغور الفارين نحو الجنوب.. ١٨٠
الفصل الثامن : الاقتصاد والثقافة في عهد سلطنة الأويغور.. ١٨٥
البنية الاجتماعية ومؤسسات الدولة.. ١٨٥
شجرة النسب.. ٢٠٧

القسم الثانى : القراخانيون

الفصل التاسع : آسيا الوسطى قبل الدولة القراخانية الأويغورية.. ٢١٩
الخصائص الطبيعية.. ٢١٩
آسيا الوسطى في عهد الأكمنيديين.. ٢٢٣
الغزاة المقدونيون وآسيا الوسطى ٨٢٢
آسيا الوسطى في عهد الهون والكوشان والآقهون.. ٢٣٥
آسيا الوسطى والعرب ٢٤٣
وشبه الجزيرة العربية هى مهد الدين الإسلامي.. ٢٤٤
الفصل العاشر : قيام الدولة القراخانية ٢٥١
الياغما.. ٢٥١
«كُل بيلكه قراخان» وأبناؤه.. ٢٥٤
ساتوق بوغراخان واعتناق الأويغور الإسلام.. ٢٥٩
الفصل الحادى عشر : السامانيون والقراخانيون.. ٢٧١
الدولة السامانية.. ٢٧١
تحرك القراخانيين ضد السامانيين ٢٧٢
الفصل الثاني عشر : الغزنويين والقراخانيون ٢٨٢
سلطنة غزنة ٢٨٢
حروب القراخانيين والغزنويين.. ٢٨٦
خوارزم من زاوية القراخانيين والغزنويين ٢٩٠
السلطان يوسف قادرخان ومحمود الغزنوي.. ٢٩٣
انقسام القراخانيين.. ٣٠٢
الفصل الثالث عشر : دولة السلاجقة الكبار.. ٣٠٧
موقعة دندانقان.. ٣٠٧

«طُغْرُل بك» (١٠٤٠م - ١٠٦٣م) ١١٣
السلطان آلبِ أرسلان ٣١٦
السلطان مَلِكْشاه ٣٢٠
الفصل الرابع عشر: الكيدانيون والقراخانيون ٣٢٥
نشأة الكيدانيين ٣٢٥
الفصل الرابع عشر: القراخانيون الشرقيون والكيدانيون ٣٢٧
أصل الكيدانيين ٣٢٧
القراخانيون الغربيون والكيدانيون ٣٣٠
الفصل الخامس عشر: إدارة الدولة عند القراخانيين ٣٤١
طبقة الحكام ٣٤١
النظام الحربي ٣٤٩
الفصل السادس عشر: الثقافة فى زمن القراخانيين ٣٥٩
العلماء بناة الحضارة ٣٥٩
النهضة الأدبية ٣٦٢
يوسف خاص حاجب ٣٦٤
محمود الكاشْغَرى ٣٦٨
ويقول الكاشْغَرى عن سبب تدوين كتابه ٣٧٢
أسباب النهضة الثقافية فى عهد القراخانيين ٣٧٥

القسم الثالث: سلطنة إديقوت الأويغورية

الفصل السابع عشر: تأسيس إمارة إديقوت الأويغورية ٣٨٧
وهجرة الأويغور الشرقيين إلى الغرب ٣٨٧
پانتكين ١٩٣
الفصل الثامن عشر: القراخانيون وسلطنة إديقوت الأويغورية ٣٩٥
الفصل التاسع عشر: سلطنة إديقوت الأويغورية وإمبراطورية سونغ ٣٩٩
الفصل العشرون: دخول إمارة إديقوت الأويغورية تحت حكم الكيدانيين الغربيين ٤٠٧
الفصل الحادى والعشرين: المغول وإمارة إديقوت الأويغورية ٤١٠
چنكيزخان و«بارچوق آرت تكين» ٠١٤
حملات المغول على الشرق والغرب ٤١٣
دووا ـ خان وقوچيغار تكين ٤٣٢
نهاية سلطنة إديقوت ٤٣٦

الفصل الثانى والعشرون : دور الأويغور فى إمبراطورية المغول ٤٣٧
الفصل الثالث والعشرون: الإقتصاد فى سلطنة إديقوت ٤٤٣
الزراعـــة ٤٤٣
الصيد وتربية الحيوان ٤٤٤
التجارة والفنون ٤٤٥
مستوى الرفاهية الإجتماعية ٤٤٧
الفصل الرابع والعشرين : الثقافة فى عهد سلطنة إديقوت ٤٤٩
العمران ٤٤٩
الأدب ٤٥٢
الفنون ٤٥٦
الفصل الخامس والعشرون : إمارة أويغور قانصو ٤٥٩
قيام إمارة أويغور قانصو ٤٥٩
الفصل السادس والعشرون : قوة سلطنة أويغور قانصو ٤٦٢
الحروب بين سلطنة أويغور قانصو والطانغوت ٤٦٤
علاقات التجارة الخارجية لسلطنة أويغور قانصو ٤٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تورغون آلماس

ولد «تورغون آلماس» في كاشْغَر عام ١٩٢٤م، وتوفي في «أورومچي» في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م. وبعد أن أنهى آلماس تعليمه الابتدائي في «كاشْغَر» استقر مع عائلته في غولجا سنة ١٩٣٧، ثم أتم تعليمه الثانوي في معهد المعلمين في أورومچي، ثم تخرج فيما بعد من كلية الألسن والآداب. عاش المؤلف حياة في غاية الاضطراب، وساء حاله بسبب الاضطهاد السياسي والنفي إلى خارج البلاد، وظل في السجن فترة طويلة بين عامي ١٩٤٠، ١٩٧٠ م.

وبينما كان مؤلفنا يعمل في حقل التدريس، اعتقله «كومينطانغ» (البُرجوازِيَّة) سنة ١٩٤٢. ورغم إطلاق سراحه في سنة ١٩٤٦، فقد تمت مداهمة بيته وحبسه في السجن العسكري في محافظة يني شهر بكاشْغَر. وبعد إطلاق سراحه في الثامن من إبريل سنة ١٩٤٩عاد إلى أورومچي، وعُيِّن في اتحاد الثقافة الأويغوري الثاني، ثم عمل في العام نفسه ناشرا لمجلة alga (الثورة) في غولجا. كما عمل مديرا لمديرية الأمن في «كاشْغَر» و«أورومچي» بين عامي ١٩٥٠، ١٩٥٣، وبعد ذلك ترك هذه الوظيفة وعمل مترجما ورئيس تحرير في اتحاد الكتاب في مقاطعة الأويغور ذات الحكم الذاتي، ثم اعتقلته الحكومة الصينية الشيوعية مرة

أخرى فى شهر أغسطس سنة ١٩٧٠، وأجبر على العمل فى مناجم الفحم على مدار سبع سنوات فى ظروف بالغة الصعوبة. وبعد إطلاق سراحه بدأ فى كتابة مؤلفاته وكَتب أشعاراً كثيرة جداً كانت بداياتها تحت اسم «الأسير» و«جسمى ورق شجر» و«من أجل الوطن الأم» ثم دعا الشعب الأويغوري إلى الكفاح ضد الإدارة العامة.

وفضلا عن مؤلفاته الأدبية، كتب تورغون آلماس المقالات العلمية الكثيرة ومؤلفات عديدة مثل «مختصر تاريخ الهون»، و«الأويغور» و«سلطنة إيديقوت الأويغورية» و«تاريخ الأويغور القديم».

وبعد نشر كتاب «الأويغور» الذى بين أيدينا صودرت كل مؤلفاته بقرار الحكومة الصينية وتعرض للاعتقالات السياسية المجحفة، وفى النهاية فارق الحياة فى الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١.

المقدمة

في ظننا أن القسم الأعظم من كتب التاريخ في العالم، كُتب عن الأتراك والشعوب التركية، ولهذا أسبابه. وقد نُشرت وسوف تنشر مؤلفات عديدة بلغات كثيرة، عن الأويغور الذين يتبوأون مكانة مهمة جداً بين الشعوب التركية.

وقد نشرت في تركيا بعض الأبحاث المتعلقة بالأويغور والدول الأويغورية التي تشكلت عبر التاريخ. وقسم من هذه الأبحاث يتعلق بالأويغور، والقسم الآخر عبارة عن فصول تحتل مكانها داخل كتب التاريخ الأخرى. وفي الصين أيضا، أجرى مؤرخون صينيون أبحاثا عن الأويغور، وكان من الطبيعي الا تلق هذه الأبحاث اهتماماً من الأويغور لكونها تعكس الرؤية الرسمية للصين. وهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو أهم ما كتبه المؤرخون الأويغور، بعد «تاريخ التركستان الشرقية» لمحمد أمين بُوغرا.

وهذا الكتاب الذي كتبه تورغون آلماس اعتمادا على المصادر الصينية لكونها مصادر لها وزنها إلى جانب المصادر الروسية والمؤلفات المترجمة عن اللغات الأوروبية، فضلا عما هو مكتوب بلهجات تركية مختلفة، هذا الكتاب أزعج المسئولين الصينيين بدرجة لا يستهان بها، وتم منعه في الصين. ذلك لأن ما رواه تورغون آلماس في هذا الكتاب لم يتطابق مع ما رواه المؤرخون الصينيون.

وكتاب «تورغون آلماس» هذا الذي بين أيديكم، ترجمه حامد حمراييف إلى اللغة الروسية.

إن تحليلات تورغون آلماس للشخصيات التركية التاريخية فى المصادر الصينية القديمة تختلف على وجه العموم مع تحليلات المؤرخين الأتراك والروس والغربيين. وعلى سبيل المثال فإن تورغون آلماس حينما يتحدث عن أقوام الهون فإنه لا يستخدم على الإطلاق اسم «مته» أو «ماوطون». ويستخدم بدلاً منه اسم باتور تانريقوت الذى يبدو عندما نقرأ تاريخ «أسرة هان» أنه كان محقا فى هذا، إذ يرى الأويغور أنفسهم أحفادا مباشرين للهون، وهذه هى الحقيقة التاريخية. وخير مثال على هذا أن محمود الكاشْغَري فى كتابه [ديوان لغات الترك] لم يتكلم عن السلاجقة مطلقا. رغم أنه تكلم كثيرا عن القراخانيين، وذلك بسبب أن الأويغور يرون أنفسهم أحفادا لأفرآسياب.

وإذا كان عدم تخرج «تورغون آلماس» من نظام أكاديمى بالمعنى الحقيقى قد تسبب فى كثير من التكرار فى كتابه دون ضرورة ملحة، فقد حرصنا على ألا يشعر القارئ بهذا فى هذه الترجمة. وحسبنا أن الآراء التى أوردها الكاتب وكذلك تحليلاته المختلفة والمتميزة وبراهينه التى تدحض ما هو محفوظ فى الذاكرة، تجعلنا نضع هذا الكتاب بين المصادر الأساس من الدرجة الأولى أكثر من كونه بحثاً أكاديمياً متفردا. ومع ذلك فليس بوسعنا أيضا أن نوافق الكاتب فى كل آرائه. لكننى أظن أن آراءه المختلفة ستوضع فى عين الاعتبار من جانب المؤرخين الأتراك، وستكون موضوعا المناقشات.

إن الكاتب حينما كان يكتب أسماء الحكام الهون والكوك ترك والأويغور وألقابهم، لم يراع على وجه العموم الدقة فى ترجمتها الموجودة بالصينية واللغات الأوروبية. وبما أن هذا سوف يسبب بعض المشاكل للقراء الذين يحققون تاريخ الأتراك القديم والعام على أساس الترجمات الموجودة فى المصادر الروسية والغربية والصينية، فقد وجدنا من المناسب وضع الترجمة الغربية للعديد منها بين (حاصرتين) ونحن مسئولون عنها كاملة. وفضلا عن ذلك كان ينبغى وجود بعض الخرائط على الأقل فى الكتاب، لذا رأينا أن عدم وضع خريطة واحدة هو نقص

اجتهدنا فى تلافيه.

* * * * *

إن تركستان الشرقية والأويغور الذين صاروا نهبة للصين من جراء الكوارث التى حلت بالعالم التركي، هم واحد من بين العديد من الدول والعديد من الشعوب التى لازالت رسمياً تحت سيطرة الاستعمار فى يومنا هذا،

أما الحكام الموجودون على رأس الجمهوريات التركية. التى تعانى كل منها ألمها، فإنهم وياللأسف لايريدون حتى أن يتذكروا وجود تركستان الشرقية.

إن ضعف رد الفعل البادى فى تركيا إزاء المظالم التى اقترفتها الصين فى تركستان الشرقية العام المنصرم، لهو أكبر نموذج وأكبر مثال على هذا. إن الفريق الشكلي والمنافق ومن يمثله من السياسيين والذين يظنون أن الإسلام يعنى الوضوء والصلاة، بينما ينامون مع الفلسطينين ويستيقظون معهم، فاتهم سماع صراخ المسلمين فى تركستان الشرقية. لأن تركيتهم حسب قولهم لا تساوى خمسة قروش، أما إسلامهم فسطحي. وعالمهم المظلم أصلاً هو اللحية والملاءة والحجاب والدوران مع فلسطين...عندما نسأل عن سبب اهتمامهم الزائد بفلسطين يقولون إنهم بوصفهم مسلمين مجبرون على الاهتمام بآلآمهم لكونهم مسلمين... حسن جداً... إننا حتى لو نحينا كونهم أتراكا جانبا، أليس الناس فى تركستان الشرقية مسلمين وفوق ذلك فكلهم سنيون أحناف. وهم يشتكون من أن الغرب يطبق سياسة الكيل بميكالين إزاء تركيا لكنهم رغم ما فى أيديهم من سلطة سياسية وإمكانات مادية عملاقة، يطبقون نفس سياسة الكيل بمكيالين فى موضوع تركستان الشرقية، لدرجة أن أحد زعماء الطرق الصوفية قدم فى الجريدة وقنوات التلفاز التى يمتلكها فى تركيا، أخبارا صادمة تتعلق بموضوع تركستان الشرقية لأنه كان يفكر أنه ربما يضطر إلى الاستقرار فى الصين فى يوم ما، لذا

فضل أن يظهر الصين كصاحبة حق. ويا أسفاه فإن الشبان الأويغور الذين ذهبوا من تركستان الشرقية إلى تركيا للدراسة، هم اليوم فى موقف من وقعوا فى قبضتهم.

ونعتقد أن مصطفى كمال أتاتورك، جانبه الصواب عندما أطلق على هذه الدولة اسم الجمهورية التركية، ونتصور أن أفضل اسم يطلق على هذه الدولة حينذاك وفى تلك الظروف هو «تركستان الغربية» ولو كان هذا قد تم آنذاك وليس الآن، لكان من السهل أن تتحد تركيا مع آذربيجان وآذربيجان الإيرانية وقطاع شمال العراق وتقوم «تركستان الغربية» التى تستوعب داخلها مساحة جغرافية واسعة حتى بحر الخزر. ولو أن اسم الدولة التى نعيش داخل حدودها فى يومنا هذا هو «تركستان الغربية»، لشكلت نموذجاً لقيام تركستان شرقية التى تستوعب داخلها إخواننا الذين يعيشون فى الجانب الآخر من الخزر؛ تركمانستان وأوزبكستان وقازاقسان وقيرغيزستان وبالأحرى أويغورستان، ولأصبحت عاملاً مشجعاً.

والتاريخ التركى مليئ بنماذج كهذه. فقد انقسمت دولة الهون إلى دولتين، دولة الهون الجنوبية، ودولة الهون الشمالية (أو الشرقية والغربية) كذلك انقسمت دولة «الكوك تُرك» إلى دولتين هما«دولة الكوك»ترك الشرقية والغربية وغير ذلك. ولا ينبغى أن ينسى من يدَّعون أن القرن الواحد والعشرين سيكون قرن الأتراك، أنه يمكن تكوين دولتين قويتين وكبيرتين لايمكن ابتلاعهما؛ تركستان الشرقية وتركستان الغربية، وليس سبع دول هزيلة ضعيفة مفصولة عن بعضها مهيأة للإبتلاع، ويجب أن يعلم المثقفون الأترك الذين يحلمون بالوحدة التركية أن الشعوب التركية التى تستحوذ على رقعة شاسعة لا يمكن تحويلها إلى كتلة واحدة، بل اعتقد أنه سيكون من الأسهل تقسيمها إلى اتحادين منفصلين وفى صورة كتلتين (مركزهما أنقرة وطاشكند). ويجب ألا ننسى أنه مهما كانت الأسباب التاريخية فإن السبب الأصلي الذى ارتكز عليه انقسام «الهون» و«الكوك ترك» و«السلاجقة» هو امتلاكهم لمساحة شاسعة لم يكن من الممكن إدارتها من مركز واحد. والادعاء بإن العثمانيين كانوا

وحدهـم أصحـاب مسـاحة شاسـعة بالمعنـى الحقيقـي، ليـس شـيئاً مختلفـاً عمـا نتوهمـه، ذلـك لأن سـيطرة العثمانيـن علـى شـمال أفريقيـا ومصـر وليبيـا كانـت رمزيـة فحسـب، وعندمـا بـدأت الثـورات لـم يتمكـن العثمانيـون مـن فعـل شـيء.

ويـرى البعـض وجهـة نظـرى هـذه مثاليـة مبالغـا فيهـا، لكـن؛ ألا يجـب علـى الأقـل فـى مرحلـةٍ تحـاول فيهـا القـوى العظمـى أن تضعنـا فـى القالـب الـذى تريـده كمـا تشـكّل الشـمع، ألا يجـب علينـا أن نسـبق نحـن ونحيـي مشـاريع عالمنـا الخـاص بنـا ونصـوغ أنفسـنا فـى قالـب مختلـف.

و يجـب ألا ننسـى أن اليهـود فـى الأيـام التـى تملكهـم فيهـا حلـم الدولـة التـى فكـروا فـى إنشـائها فـى فلسـطين سـألوا أنفسـهم سـؤالين؛ إذا لـم ننفـذ هـذا اليـوم فمتـى ننفـذه؟ وإذا لـم نفعـل هـذا نحـن، فمـن الـذى سـيفعله؟

د. أحسن باتور

Dr.Ahsen Batur

القسم الأول: سلطنة أورخون الأويغورية

الفصل الأول: الوطن الأم للأويغور

لاجدال في أن الوطن الأم للأويغور [أى موطنهم الأصلى]، هو آسيا الوسطى. لكننا- قبل التوقف عند هذا الموضوع بطريقة أكثر تفصيلاً، يجب أن نوضح الحدود الجغرافية لمصطلح آسيا الوسطى.

فرغم أن علماء الشرق والغرب لم يتوصلوا إلى اتفاق حول الحدود الجغرافية للمنطقة المسماه آسيا الوسطى، فإنه يمكن تقسيم هذه المنطقة، اعتمادا على بعض الآراء التى لها وزنها.

يقسم الجغرافيون قارة آسيا إلى ثلاثة أقسام، شرق آسيا، ووسط آسيا، وغرب آسيا. وفى رأينا أن وسط آسياتشمل المنطقة الممتدة من جبال «هنجان» (شانج - باى - شان) فى الشرق، حتى بحر الخزر فى الغرب، ومن جبال «آلطاي» فى الشمال حتى جبال «الهمالايا» فى الجنوب. ومركز هذه المساحة الجغرافية الشاسعة هو تركستان الشرقية، و «يدى صو» (في قازاقستان)، وأوزبكستان وقيرغيرستان وطاجيكستان.

لقد عاش الأويغور منذ أزمنة سحيقة فى حوض نهر تاريم الواقع بين جبال «طانري» وجبال «قره قوروم»، وحوض نهر «جونغار» الواقع بين جبال «طانري» وجبال «آلطاي»، و «وادي إيلي»، وفى الأراضى الواقعة بين «نهر إرتش» و «بحيرة بايقال»، بجوار أنهار «سلانكا وأورخون وطوغلا وكورولون» الواقعة داخل حدود منغوليا الحالية في سيبريا

الجنوبيـة، وفـى «قانصـو» وفـى المناطـق الشـمالية مـن ولايـات «سـان - شـى» و «سـن - شـي» الحاليـة.

لقـد اخترعـت الكتابـة قبـل ٦٠٠٠ عـام، فـى بـلاد الرافديـن التـى هـى مـن أقـدم مراكـز الحضـارة العالميـة. وكان المؤرخـون اليونانيـون القدامـى قـد أطلقـوا اسـم بـلاد الرافديـن علـى الأراضي الواقعـة فـى العـراق بيـن الفـرات ودجلـة، وكلمـة «مازبوتاميـا» اليونانيـة هـذه تعنـى «بيـن النهريـن»، ونهـرا دجلـة والفـرات اللـذان ينبعـان مـن داخـل حـدود تركيـا وينتهيـان فـى خليـج البصـرة، والأراضـى الواقعـة حولهمـا هـى أراض فـى غايـة الخصوبـة وهمـا يسـاعدان تمامـا علـى قيـام الزراعـة. وسـكن فـى الـوادي الواقـع بيـن هذيـن النهريـن حينـذاك، «السـومريون» الذيـن اخترعـوا الكتابـة، وقـد بـدأ تاريـخ مصـر وشـعوب الشـرق الأدنـى مـع اختـراع الكتابـة.

أمـا تاريـخ أجدادنـا فقـد بـدأ قبـل الميـلاد بألفـي عـام، عندمـا بـدأ أجدادنـا فـى اسـتخدام الأبجديـة الأراميـة اسـتفادوا مـن الكتابـة التـى اخترعهـا السـومريون، أمـا التشـابه القائـم بيـن أبجديـة «الصُغْـد» وأبجديـة «الكـوك تـرك» (الأبجديـة الأرخونيـة الأويغوريـة)، فسـببه أن كلاً منهمـا عبـارة عـن شـكل مختلـف للأبجديـة الأراميـة.

لقـد أقـام أجدادنـا وأهلونـا عبـر المرحلـة التاريخيـة الطويلـة الممتـدة مـن عصـر التاريـخ المكتـوب وحتـى القـرن السـابع عشـر، أقامـوا دولاً قويـة مثـل إمبراطوريـة «الهـون» (٢٢٠ ق.م - ٢١٦م)، وامبراطوريـة «هـون أوروبـا» (٣٧٥ - ٦٤٨م)، وإمبراطوريـة «الآق هـون» (٤٢٠ - ٥٦٥)، وسـلطنة «الكـوك تُـرك» (٥٥١–٧٤٥م)، وسـلطنة «أورخـون الأويغوريـة» (٦٤٦ –٨٤٥م)، وسـلطنة «ايديقـوت الأويغوريـة» (٨٥٠ - ١٣٣٥م)، و«الدولـة القراخانيـة» (٨٥٠ - ١٢١٢م)، و«الدولـة الغزنويـة» (٩٦٠– ١١٨٧م)، و «دولـة السـلاجقة» (١٠٤٠ - ١١٥٧م) و«الدولـة الخوارزميـة» (١١٧٢ - ١٢٣١م)، و«السـلطنة السـعيدية» (١٥٠٤–١٦٧٨م) وقدمـوا اسـهامات جليلـة لتاريـخ الإنسـانية.

واعتمـاداً علـى النتائـج الجيولوجيـة والأثريـة، سـنحاول إثبـات أن الموطـن الأم للأويغـور هـو آسـيا الوسـطى.

رغم أن آسيا الوسطى هى الموطن الأم للأويغور منذ الزمن السحيق، فإنها فى نفس الوقت، أحد المهود الذهبية للحضارة العالمية، ولهذا السبب قال المؤرخ مورجان «لقد دفن مفتاح الحضارة العالمية فى حوض «نهر تاريم»، وحينما نعثر على هذا المفتاح سوف ينكشف سر الحضارة العالمية»[١].

لقد فضل الإنسان على مدار تاريخ البشرية السكنى فى سفوح الجبال المغطاة بالأنهار والبحيرات والبحار والغابات والبراري والأشجار حتى يحافظ على مقومات حياته واحترف الناس حرفاً مختلفة مثل الصيد والرعي والزراعة والأشغال اليدوية والتجارة وفق حالة الترحال أو التوطن، وبما يتوافق مع ظروف المنطقة التى عاشوا فيها. وإذا نظرنا من الناحية الجيولوجية فإن آسيا الوسطى كانت تمتلك الظروف الجغرافية التى تضمن حياة البشرية منذ أقدم العصور.

ونتيجة للأبحاث الجيولوجية التى أجريت فى تركستان الشرقية (شنجيانغ)، فقد اكتشفت فى حوض «نهر تاريم» وحوض «نهر جونغار» منذ فترة وجيزة، آبار للبترول مدهشة من حيث الجودة والكمية. وبكلمة واحدة فإن تركستان الشرقية التى مجموع مساحتها مليون وستمائة ألف كم مربع هى مصدر ثروات طبيعيةٍ نفيسة مثل البترول والفحم، وكذلك اليورانيوم والراديوم النادرين جداً فى العالم وثرواتها فوق الأرض وتحت الأرض.

وتثبت وفرة الغاز الطبيعى والبترول فى أراضيٍ تركستان الشرقية أن حوض نهر جونغار وحوض نهر تاريم، كانا بحاراً داخلية كبيرة فى الأزمنة الغابرة، وأنها كانت مغطاة بجبال وسفوحها غطاة بغابات كثيفة، ونتيجة للتغيرات الطبيعية، تضاءل البحران الداخليان الكبيران فى منطقة تركستان الشرقية واتسعت الأراضي. فبحيرات «صايرام» و«باغراش» و«لوب نور» الحالية هى بحيرات صغيرة تخلفت عن البحار الداخلية التى كانت فى العصور القديمة. ونتيجة لتحول البحر إلى يابسة فقد دفنت الأحياء المائية فى اليابسة وتحولت عبر ملايين السنين إلى بترول، وكذلك

دفنت الأشجار التى لا حصر لها والتى تغطى الجبال، وتحولت بعد آلاف السنين إلى فحم.

ولم يكن المناخ الطبيعى للقسم الغربي من آسيا الوسطى فى الأزمنة القديمة، يختلف كثيرا عما ذكرناه سالفاً.

ووفقا لما أسفرت عنه الأبحاث الجيولوجية، فإن المنطقة الشمالية لقارتي آسيا وأوروبا، كانت فى الزمن القديم مغطاة بالثلج مما أثر بشكل جدي في مناخ وسط آسيا، وبسببها كانت قمم «جبال البامير»، و«قره قورم» و«طانري» و«آلطاي» فى آسيا الوسطى مغطاة بطبقة كثيفة من الثلج والجليد بدرجة لا يمكن مقارنتها بوضعها الحالي.

وأحد الأماكن الثلجية فى البامير حاليا، يبلغ طوله حالياً سبعا وسبعين كيلو متراً، ويصل سُمكه إلى خمسمائة متراً. أما فى ذلك الزمان القديم فقد كان طوله مائة وثمانية كيلومتراً وسمكه ألف متر، وكان الحد الأدنى لهذه الأماكن الثلجية فى آسيا الوسطى يرتفع ثلاثة آلاف ومائتي متر عن سطح البحر[٢].

وكان المناخ الطبيعي لوسط آسيا قبل عشرات الألوف من السنين، أمطاره أكثر غزارة، وأكثر رطوبة، مما هو عليه اليوم، ولهذا السبب فإن المياه الناتجة عن ذوبان القمم المغطاة بالجليد والثلوج فى جبال آسيا الوسطى فى العصور القديمة بتأثير حرارة الشمس، أوجد الأنهارَ غزيرة المياه والبحار الداخلية الكبرى والبحيرات. وكونت هذه الظروف الطبيعية، بيئةخصبة للزراعة والرعى، كما أدت إلى تكون الغابات وتربية الحيوانات. والقسم الشرقي من آسيا الوسطى (حوض نهر تاريم على وجه العموم)، والقسم الغربي من آسيا الوسطى السوفيتية هى أكثر الأراضى الأسيوية خصوبة. وحينئذ لم تكن «صحراء تكلامكان» فى حوض «نهر تاريم»، وصحراء «قربان طونغوت» في حوض «نهر جونغار»، وصحراء «قيزيل قورم» فى تركمانستان وصحراوات قره قوم فى اوزبكستان، لم تكن قد ظهرت بعد. وكانت بحيرات «صايرام»، و«لوبنور»، و«باغراش»، و«باركول»، و«بالقاش»، و«آرال» الحالية، أكبر مما هى عليه الآن، وأنهار «تاريم»

و«إيلـي» و«جـو» و«طـلاس» و«سـيرداريا» و«آموداريـا» أغـزر مـاءً ممـا هـي الآن، وكانـت الأفـرع التـى تصب فيهـا تحيـط آسـيا الوسـطى مثـل الشـبكة.

وطبقـاً للأبحـاث التـى قـام بهـا علمـاء الجيولوجيـا والآثـار فـى المنطقـة، فإنــه قــد حدثـت تغيـرات كبـرى فـى منــاخ آسـيا الوسـطى قبـل حوالـى ثمانيـة آلاف عـام، وحـدث القحـط؛ ولهـذا السـبب إضطـر قسـم مـن أجدادنـا للهجـرة إلـى مناطـق شـرق آسـيا وغربهـا، فهاجـر قسـم مـن أجدادنـا الذيـن كانــوا يعيشـون قــرب «واحــة تاريــم» آنــذاك، إلــى جبـال آلطــاي واسـتقروا حـول بحيـرة «بايقـال» ومنغوليـا الحاليـة. والأويغـور الشـرقيون الذيـن هاجـروا سـنة ٨٤٠م مـن منغوليـا إلـى منطقـة تركسـتان الشـرقية، هـم فـى الأصـل أحفـاد أجدادنـا الذيـن هاجـروا مـن حـوض نهـر تاريـم قبـل ثمانيـة آلاف عـام إلـى أطـراف بحيـرة بايقـال.

لقـد كان لأجدادنـا الذيـن هاجـروا مـن حـوض «نهـر تاريـم» إلـى شـمال الهنـد عبـر طريـق «لاداق» فـى الهجـرة الكبيـرة التـى حدثـت قبـل ثمانيـة آلاف سـنة،

هـم و«الداروِيديـون» الذيـن يعـدون الشـعب الأصلـي للهنـد، إسـهامات كبيـرة فـى تشـكيل حضـارة بـلاد الهنـد. فمـن خـلال الأبحـاث التـى قـام بهـا الأثريـون فـى العشـرينيات مـن القـرن العشـرين، فـى أطـلال مـدن قديمـة مثـل هارابّـا فـى وادى نهـر «إنـدوس» (فـى ولايـة البنجـاب الحاليـة)، و«موهنجـودارو» (فـى ولايـة السـند)، عثـروا علـى تمثـال شـعره مربـوط بخيط علـى النمـط التركـي فـى آسـيا الوسـطى. ويرجـع هـذا التمثـال إلـى الفتـرة التـى عـاش فيهـا أجدادنـا الذيـن هاجـروا مـن حـوض نهـر تاريـم إلـى شـمال الهنـد قبـل ثمانيـة آلاف عـام، وعاشـوا فيهـا مـع «الداراويـد» وهـم الشـعب أو السـكان المحليـون بالمنطقـة، وذلـك قبـل عـدة آلاف السـنين مـن هجـرة «الآريانييـن» إلـى الهنـد.

عثـر مركز أبحـاث أكاديميـة البحوث الاجتماعية بـ «سـينكيانج/ شـنجيانغ» علـى جثتـى إمـرأة وطفـل فـى مقبرتيـن قديمتيـن قـرب نهـر «كونجـي» سـنة ١٩٧١ ولقـد أكـدت كليـة الجغرافيـا بجامعـة «نانجينغ»باسـتخدام عنصـر

الكربون، أن هاتين الجثتين قد دفنتا قبل ٦٤١٢ سنة من هذا التاريخ، ونشر هذا الخبر فى جريدة (الشعب)،كما نشر بجريدة «سينكيانج» فى عدد باللهجة الأويغورية بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٨١؛ ومعه تعليق بأنه «تم استخراج هاتين الجثتين بحفر تلال «قوم» المرتفعة قليلا عن مستوى الأرض. وقد وضعت بين كل رأس في كل مقبرة من المقبرتين شجرة، وبرزت أطراف الشجرتين فوق الارض، وقد حفرت المقبرة بشكل عمودي، ووضعت كل جثة منهما على الجانب الأيمن، ووضعت فوقها ألواح من الأشجار فوقها جلد غنم وحصير من القصب، ولف الجسدان فى قطع من القماش الصوفي الغليظ، ووضع على رأس جثة المرأة عمامة صوفية [قالباق] والمرأة يمتد شعرها الأصفر الطويل حتى كتفها، وهى ذات عينين كبيرتين وأهداب طويلة وأنف مستقيم، كما يوجد ضمن الأشياء المدفونة مع الجثة ؛ سلة من القصب المشغول بشكل جميل ووضعت داخل السلة بعض الحبوب لكن هذه الحبوب تحولت مع الوقت إلى تراب، أما فى السلة القصبية المجاورة لجثة الطفل فكانت توجد حبات من القمح.

وهاتان الجثتان المكتشفتان لهما أهمية كبيرة عند دراسة الخواص العرقية والحضارية لأجدادنا أثناء الهجرة الكبرى التى وقعت قبل ثمانية آلاف عام قبل أن يتركوا أرضهم التى كانوا فيها ويضطروا إلى مواصلةحياتهم فى حوض نهر تاريم.

ونستطيع أن نقول باطمئنان أن السكان المحليين القدامي الذين كانوا فى حوض نهر تاريم (الذين هاجرواإلى الهند مرورا من فارس فى حوالى ١٧٠٠ ق.م)

لم يكونوا ينتسبون إلى الجنس الأصفر أو الآريانيين، لأن السكان المحليين الذين عاشوا فى تلك المنطقة كانوا أجداد الأويغور.

فقبل هجرة الآريانيين أجداد الشعوب الفارسية والألمانية والهندية الحالية من المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بحر الخزر إلى

الهند بين عامى ٢٠٠٠- ١٧٠٠قبل الميلاد، كان يعيش هناك الدراويديون ذوو الشعر الأسود والأنف الأفطس المنتسبون إلى الجنس الأسترالي الآسيوي الهندى. لقد دخل الآريانيون الهند وطردوا السكان المحليين إلى الجنوب، ولا زال أجدادهم يعيشون فى الجنوب إلى الآنً. لقد لعبت أقوام الـ «شيانج» الذين هم أجداد التبتيين دوراً ملموسا فى بعض الحروب التى وقعت فى المناطق المتاخمة للتبتيين فى الجنوب وفى «كوك نور» (چنخەي) الواقعة فى جنوب شرق حوض نهر تاريم وذلك فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. وعلاوة على ذلك فإن بعض المبشرين المنتسبين للشعوب التى انضمت إلى اللغات الهندوأوروبية (البوذيون والمجوس والمانيون والنسطوريون) والبعض القليل جداً من الناس من التجار وبعض العسكريين والموظفين الحكوميين، جاءوا إلى حوض تاريم فى السنوات الأخيرة قبل الميلاد والسنوات الأولى بعد الميلاد. وكانت العلاقات التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التى بين الدول، سبباً فى مجئ مثل هؤلاء إلى حوض نهر تاريم. مثال ذلك إمبراطورية «كوشان» (٥٠ ق.م - ٤٢٠ بعد الميلاد) التى حكمت الهند فى عهد «قانيشقا الثانى» (٧٨- ١٢٣م)، وضمت إليها إمارت»خوتن» و«ياركند» و «كاشْغَر» قبيل أواخر حكمها. وكان «قانيشقا الثاني» من أسرة الياوجي العظام (دا يواجي)، ولم يكتف «قانيشقا» بكونه الحامى الأمين للبوذية، فبذل جهداً كبيراً لجعل الشعوب المختلفة التى تعيش داخل حدود أمبراطوريتة، تعتنق البوذية. وهكذا جاء فى عهده كثير من البوذيين الهنود، ضمن الأويغور الذين فى حوض تاريم، ويمكننا القول أنه قد جاء إلى حوض نهر تاريم مع هؤلاء البوذيين كثير من الموظفين الذين يتحدثون التركية والهندية.

وخلافاً لذلك فإنه اعتباراً من عهد «أفختالانوس» إمبراطور الهون البيض، ظلت إمارات أويغورية مثل «خوتن» و«ياركند»، و«كاشْغَر» و«آقصو» و«كوچار» مرتبطة بإمبراطورية الهون البيض فى زمن حكام آخرين طوال سبعة وثمانين عاماً (٤٨٠ -٥٦٧)، وفى نفس الوقت جاء

العديد من التجار والموظفين البوذيين الهنود إلى حوض نهر تاريم، بسبب وقوع الهند تحت حكم «الهون البيض»

في عهد «الكوشان» و«الهون البيض» الذين ذكرناهم سالفاً، شكّل النازحون من الهند إلى حوض نهر تاريم مجموعات صغيرة يمكن اعتبارها أقلية بين الأويغور الذين يعتبرون السكان المحليين لتلك المنطقة.

وفي الأزمنة القريبة كان الموتى (رجلا كان أو امرأة) في المقابر الموجودة قرب نهر كونجي وبعض الأماكن الموجودة في حوض نهر تاريم، وقرب جرجن وجارقيليق، يوسدون القبور وقد اتجه رأس الرجل او المرأة ناحية الشرق وأقدامه إلى الغرب، فماذا أن يعني هذا؟.

كان أجدادنا الأويغور في الأزمنة السحيقة على العقيدة الشامانية، والشامانيون بوجه عام يؤمنون بآلهة الشمس والقمر والسماء والأرض والماء، وبموجب هذا النوع من عقائد الشامانيين كان أجدادنا يجعلون أبواب الخيام صوب مشرق الشمس، وكان سلاطين الترك والأويغور الشرقيون (سلطنة أورخون الأيغورية) في بعض الاحتفالات يجلسون ويولون وجوههم صوب الشمس، وكانوا يلقون التحية بانحناءة بالرأس تسع مرات. حتى أن أسماء السلاطين تعكس هذا النوع من التقاليد، وعلى سبيل المثال كان لقب «جونديخان» وهو من سلاطين أورخون الأويغور هو «كون تانرى ده اولوق بولمش آلب كوچلك بيلكه سلطان.» [ويعني السلطان بيلكه إله الشمس العظيم القوى]

المصادر التاريخية المكتوبة

تحتوى مؤلفات قدامى المؤرخين الصينيين واليونانيين الرومان والعرب وكذلك الرحالة، على بعض المعلومات الصريحة الموثوق بها عن الأماكن التى عاش فيها الأويغور.

ففى حين أن «سيماجين» وهو من المؤرخين الصينيين القدامى

(ولد عام ١٤٥ ق.م) بيَّن فى القسم المتعلق بالهون من كتابه المعنون بـ «شيه جي» أى «مذكرات تاريخية»، أن أجداد الأويغور هم أقوام «دينغ- لنغ»، أما «بانقو» (٣٢ - ٩٢م) فيذكرهم فى الباب المتعلق بالهون من كتابه المسمى «هان- شو» باسم «دي- لي». وسواء اسم «دينغ- لنغ» الذى كتبه «سيماجين»، أو اسم «دي لى» الذى كتبه «بانقو»، فكلاهما ترجمة الصينية لكلمة «تورا»، وأقوام «تورا» المذكورة هم أجداد الأويغور الشرقيين الذين عاشواقبل الميلاد بعده قرون قريبا من بحيرة «بايقال» الحالية، ونظراً لأن «سيماجين» و«بانقو» لم يكونا يمتلكا معلومات عن أقوام تورا الغربية التى كانت تعيش بجوار «بحيرة بايقال» و«نهر ارتش» قبل عدة قرون من الميلاد، فلا يوجد فى كتابيهما شيئ عن هذا الموضوع؛ لكن فى مقابل ذلك نجد لدى كل منهما معلومات عن الأوغوز الذين عاشوا فى نفس الفترة فى حوض «نهر جونغار» الحالي. فكتب»سيماجين»اسم الأوغوز «هوجي»، بينما كتبه بانقو «ووجي». إن «الأوغوز»المذكور اسمهم هنا عاشوا فى جنوب غرب جبال «آلطاي» الحالية، وفى نواحى «جوجك» قبل الميلاد بعدة قرون.

ويقول عالم التركيات الأستاذ الدكتور ماجانغشو: أن هذا الشعب الذى يذكر باسم «ووخو» و «ووخي» فى عهد أسرتي سوي وطانغ الحاكمتين، والذى عاش في حوض «نهر جونغار»؛ هو شعب «الأوغوز»، وكان يقال عنهم فى عهد أسرة «هان» الحاكمة (ووجي)[٣].

وطبقاً للمعلومات التى أمدنا بها «بانقو» في الفصل الخاص بالهون من كتابه المسمى»هان-شو»، فإن «باتور تانريقوت» سلطان الأوغوز(٢٠٩ ق.م-١٧٤ ق.م) وسلطان امبراطورية الهون العظمى [والمشهور باسم اوغوز خان]، كان قد أخضع أقوام تورا التى كانت تعيش قرب بحيرة «بايقال» قبل الميلاد بمائتي سنة، فيقول «أوغوز خان» فى الخطاب الذى كتبه إلى هان وندي إمبراطور« أسرة هان» الحاكمة، سنة ١٧٦ قبل الميلاد:

«لقد أخضعت أقوام «لولان» (كيروران) و«أويصون» و«الأوغوز» (كان الأوغوز حينئذ يعيشون فى جنوب غرب الآلطاي بجوار جوجك وزايصان)

وكذلك ست وعشرين إمارة مجاورة لهم. ودخلوا كلهم داخل حدود إمبراطورية الهون، لقد أصبحت كل الشعوب التي تضرب بالقوس أسرة واحدة، والدول التي في الشمال (بجوار بحيرة بايقال) صارت تحت حكمنا»[٤].

ويذكر عالم التركيات البروفسور «سنجونغ - مين» معتمداً على الروايات الواردة في الأوستا الكتاب المقدس للزرادشتية، أن أحد سلاطين الترك في العصر القديم كان اسمه «تورا»، ولهذا السبب أطلق الترك على أنفسهم اسم أقوام تورا نسبة إلى هذا السلطان[٥].

ويتحدث الشاعر الفارسي الكبير أبو القاسم الفردوسي في كتابه المسمى «الشاهنامة»، عن الدولة التي كانت تحت حكم جدنا الكبير «آلب أرتونغا» (آفرآسياب) والتي حاربت الفارسيين مرات كثيرة، ويذكرها باسم «توران». كما يرد في الكتاب المسمى الفن الكوشاني، ذكر أقوام تورا الأبطال وهم من أقوام «صاقا» بآسيا الوسطى.

لقد تحدث كل المؤرخين المشهورين بدءاً من المؤرخ «سيماجيان»الذى عاش قبل الميلاد بعدة قرون وحتى مؤرخي القرن السابع الميلادي، عن أقوام «تورا» الذين هم أجداد الأويغور وذكروهم بأسماء مختلفة مثل «دينغ - لينغ»، و«تيلي»، و«جي له»، و«دي لي». وكل هذه المسميات هي أشكال الكتابة لكلمة تورا طبقاً للنطق في اللغة الصينية. لقد قسم المؤرخون الصينيون القدامى أقوام «تورا» وهم أجداد الأويغور، إلى قسمين أقوام «تورا» الشرقيون واقوام «تورا» الغربيون طبقاً للمنطقة والإقليم الذى عاشوا فيه. وكانت أقوام تورا الشرقيون يعيشون في المنطقة الممتدة بدءاً من بحيرة بايقال في الشرق حتى جبال «آلطاي». إن الشعب المقصود بشعب تورا المذكور في الأبواب المتعلقة بالهون في كتابي «ملاحظات تاريخية» و«هان شو» هم شعب تورا الشرقيون الذين كانوا يعيشون في هذه الأراضي قبل الميلاد بعدة قرون. وليست لدى «سيماجين» أو «بانقو» أية معلومات عن شعب «تورا» الغربيين. أما عن الكتابات المتعلقة بأقوام تورا الغربيين، فإننا نصادفها في المصادر

الصينيــة اعتبــاراً مــن القــرن الثالــث فقــط، وهــؤلاء كانــوا يعيشــون بجــوار «ســهول جونغــار» و«نهــر إرتــش» فــي الشــرق، وفــي المناطــق الممتــدة حتــى غــرب «بحيــرة بايقــال» فــي الغــرب.

ويتحــدث «يوهــوان» (١٩٦– ٢٥٠م) مــؤرخ القــرن الثالــث عــن أقــوام تــورا الغربييــن فــي كتابــه المســمى «التاريــخ الموجــز لأســرة «وي» الحاكمــة قائــلا:

«لــدى دولــة «الأوغــوز» التــي تتخــذ مكانهــا فــي شــمال غــرب أقــوام «أويصــون» وشــمال شــرق «إمــارة قانغلــي»، أكثــر مــن عشــرة آلاف جنــدي. ويعيــش الاوغــوز فــي حالــة ترحــال. ويربــون فــي أوطانهــم جيــادا ممتــازة. ومــن الحيوانــات المتوحشــة يوجــد لديهــم النمــر الأرقــط، وتقــع دولــة القيرغيز(يقصــد القيرغيــز القاطنيــن فــي المجــرى الأعلــى مــن نهــر ينيســاى) فــي شــمال غــرب شــعب «قانغلــي». ولديهــم ثلاثــون ألــف جنــدي، ويشــتغلون بالرعــي، يوجــد فــي بلادهــم النمــر الأرقــط بكثــرة، ولديهــم جيــاد ممتــازة، وتأخــذ دولــة شــعب تــورا مكانهــا فــي شــمال شــعب قانغلــي. ولديهــا جيــش قوامــه ســتون ألــف شــخص ويعمــل شــعبها بتربيــة الحيوانــات. ويجــب قطــع طريــق طولــه ٧٠٠٠ لــي٦ للوصــول مــن مركــز دولــة القيرغيــز - وهــي إحــدى الــدول الثــلاث التــي ذكــرت أســماؤها - إلــى قصــر امبراطــور «الهــون» بجــوار «نهــر أورخــون». كمــا يجــب قطــع طريــق طولــه ٥٠٠٠ كيلومتــرا، للوصــول مــن جنــوب أقــوام القيرغيــز إلــى «ألتــا قوشــو» و«ألتــا دولــت» (الإمــارات الســت). والمســافة مــن جنــوب غــرب أقــوام القيرغيــز حتــى حــدود أقــوام «قانغلــي» ٣٠٠٠ كيلــو متــرا، كمــا أن المســافة مــن غــرب بــلاد القيرغيــز حتــى عاصمــة «القانغلــي» (وهــي كــش القديمــة التــي تقــع شــمال غــرب طاشــكند الحاليــة) تقــدر بــ ٨٠٠٠ كيلــو متــرا[٧].

وتمدنــا هــذه الســجلات التاريخيــة بمعلومــات عــن أحــوال شــعب تــورا الغربييــن فــي القــرن الثالــث، أمــا الأوغــوز الشــرقيون الذيــن يكونــون الفــرع الأصلــي للأويغــور فــي القــرن الثالــث و«بحيــرة زايســان» الحاليــة و«جبــال آلطــاي» والقيرغيــز فكانــوا يعيشــون بجــوار «نيســي» و«نهــرِ أوب». وكان شــعب «تــورا» الغربيــون يعيــش فــي الأراضــي الممتــدة بــدءاً مــن غــرب بحيــرة

بالقاش حتى المنابع العليا لنهر «إرتش»، وإذا بدا للعيان طبقاً للمعلومات سالفة الذكر أنه كان يوجد جيش مكون من ستين ألف شخص، على اعتبار ان هناك جندي بين كل خمسة أشخاص فإنه لابد يزيد شعب تورا الغربية فى القرن الثالث على ثلاثمائة ألف شخص، ولم يكن عدد شعب تورا الشرقية بأقل من هذا العدد. ويرد في باب قصة «سوو» من مذكرات أسرة هان أن تعداد شعب تورا الشرقية قبل الميلاد بعدة قرون كان عشرات الآلاف. ويعتقد أنه مع مجئ القرن الثالث، زاد عددهم ووصل إلى نفس عدد شعب تورا الغربية، واستنادا إلى هذه المعلومات فإن عدد أجدادنا الذين أطلق عليهم شعب تورا الشرقية والغربية قد فهم أنهم كانوا آنذاك أكثر بكثير من إخوانهم (أقوام قانغلي والقيرغيز).

إن المعلومات التى أمدنا بها مؤرخو الصين القدماء تحمل أهمية تاريخية كبيرة، ولكنها لم توضح حدود الأراضي التى عاش فيها شعب «تورا»، وقد ملأ هذا الفراغ علماء الآثار السوفيت. ونتيجة للأبحاث الآثرية التى أجريت سنة ١٩٤٠ فى جنوب سيبريا فقد ثبت أن شعب تورا سكن المنطقة الشاسعة التى تمتد من جبال الأورال فى الشرق حتى جبال «آلطاي» فى الغرب وذلك قبل الميلاد بعدة قرون، هذا فضلا عن الأراضي التى تمتد من بحيرة «بايقال» فى الشرق وبحيرة «بالقاش» فى الغرب، وهكذا عاش شعب تورا فى حوض نهر «جونغار» الواقع بين جبال «آلطاي» وجبال «طانري» قبل الميلاد بعدة قرون[٨].

ورغم أن المؤرخين الصينيين القدامي أمدونا بالمعلومات عن شعب تورا الشرقية والغربية، إلا أنه لا توجد فى مؤلفاتهم معلومات صريحة عن الخصائص العرقية للأويغور الذين عاشوا فى حوض نهر تاريم. وتعتمد المعلومات التى أمدنا بها سيماجين وبانقو عن آسيا الوسطى، على التقارير التى أرسلها الإمبراطور «جوو جين» إلى «الخان ووتي» (١٤٠ ق.م - ٨٧ م).

وطبقاً لما كتبه هذان المؤلفان فقد كانت الغالبية العظمى من شعوب آسيا الوسطى تعيش فى المدن وتعمل بالزراعة وتربية الحيوانات

والحـرف، وطبقـاً لنفـس المؤلفيـن أيضـا، كان فـي آسـيا الوسـطى حوالـي عشـرين أو ثلاثيـن سـلطنة صغيـرة، ومـع ذلـك فـإن كلا المؤلفيـن لـم يتـركا لنـا معلومـات صريحـة عـن الخصائـص العرقيـة للأويغـور الذيـن عاشـوا فـى آسـيا الوسـطى فـى المنطقـة المسـماه «باطـي أوجـي»[1] وعلـى وجـه الخصوص فـى حـوض «نهـر تاريـم»، أوعـن لغاتهـم وعاداتهـم، وإذا اعتقدنـا أن معلومـات المؤرخيـن الصينييـن عـن «باطـي أوجـي» اعتمـدت فقـط علـى المعلومـات التـى أمدنـا بهـا السـفراء والتجـار الذيـن سـافروا إلـى تلـك المنطقـة، فسـوف تتبيـن أن هـذا شـيئا طبيعيـا.

لقـد ورد ذكـر شـعب تـورا الشـرقية فـى البـاب المعنـون «أصحـاب العربات ذات العجـلات العاليـة» مـن كتـاب «دوريـة أسـرة وي الحاكمـة» المكتـوب فـى القـرن السـادس، علـى إنـه (شـعب تـورا صاحـب العجـلات العاليـة). لقـد كان شـعب تـورا الشـرقية أى الأويغـور الشـرقيون يسـتخدمون منـذ القـدم العربـات ذات العجـلات العاليـة بمـا يتفـق مـع الظـروف الطبيعيـة لمنغوليـا، وخـلال الفتـرة مـن القـرن الرابـع الميـلادي وحتـى القـرن السـادس فـإن الصينييـن الذيـن عاشـوا فـى الأماكـن القريبـة مـن الحـدود، رأوا شـعب تـورا وهـم يسـتخدمون بشـكل عـام العربـات ذات العجـلات عاليـة التـى تحمـل متاعهـم أثنـاء تجولهـم فـى فـى السـهول، فأطلقـوا عليهـم (أصحـاب العربـات ذات العجـلات العاليـة)[٩].

وبعـد أن ارتحـل الهـون الغربيـون مـن وادي إيلـي إلـى الغرب وإلى سـواحل بحيـرة بلقـاش وآرال فـى الخمسـينيات مـن القـرن الأول الميـلادي، تأسسـت إمبراطوريـة «السـيانبي» (١٥٠ –٢٣٥م) فـى الأراضـى القديمـة لامبراطوريـة الهـون. وبعـد موت الإمبراطـور «طانشـقوي» (١٤٧–١٨١م) انقسـم «السـيانبي» فيمـا بينهـم. وفـى عهـد إمـارات مثـل «غـوران» (١٨١– ٢١٦ م) «بودوكيـن» (٢١٦ –٢٣٣م) «قيبانـن» (٢٣٣ - ٢٣٥) لـم يبـق أى أثـر مـن السـلطنة التـى كانـت فـى زمـن «طانشـقوي»، وانهـارت الإمبراطوريـة بمـوت قيبانـن سـنة ٢٣٥م. وكان شـعب «تـورا» فـى تلـك الفتـرة تحـت حكـم «السـيانبي».

---

(١) تعنى الديار الغربية أو الثغر الغربى (المترجم العربى)

وبعـد أن انهـارت امبراطوريـة السـيانبي تأسسـت دولـة «طوبـا»، لكنهـا أيضـاً انتهـت علـى يـد الأوار المتتركيـن حوالـى سـنة ٣٩٤م، وفـى سـنة ٣٩٤م أصبـح شـعب «تـورا» الشـرقية المسـمى» أصحـاب العربـات ذات العجـلات العاليـة» عرضـة للهجمـات المسـتمرة مـن جانب سـلطنة طوبـا والأوار التـى تشـكلت علـى أراضيهـم (هـى منغوليـا الحاليـة وأراضـى إيالـه منغوليـا الداخليـة بالصيـن).

لقـد رفـع شـعب «تـورا» الشـرقية لـواء العصيـان ضـد «الأوار» تحـت قيـادة «آى أوجـرو» حاكـم قبيلـة «بوركلـي» فـى سـنة ٤٨٧ م، وهاجـروا مـن منغوليـا إلـى الغـرب فـى صـورة جماعيـة مكونـة مـن ١٢٠ ألـف خيمـة، وعبـروا جبـال «آلطـاي» واسـتقروا فـى حـوض «نهـر جونغـار» وشـرق «نهـر ايلـي» وبجـوار «طورفـان» و«قـارا شَـهِر»، ولمـا نمـا ذلـك إلـى علـم حاكـم الأوار السـلطان»طولون الثانـي» وعمـه السـلطان»ناغاي»، جـردا جيوشـهما خلـف أصحـاب العجـلات العاليـة الذيـن هاجـروا إلـى جنـوب «جبـال طانري»، وانتصرشـعب تـورا الشـرقية، علـى طولـون خـان الثانـي فـى الحـرب التـى خاضهـا مـع الأوار جنـوب جبـال آلطـاي، واتحـد أقاربهـم الذيـن يعيشـون جنـوب جبـال «طانـري» مـع شـعب تـورا الغربيـة وأسسـوا «سـلطنةأصحاب العجـلات العاليـة» (كاو- كـوي) ولقـد حافظـت هـذه السـلطنة علـى وجودهـا سـتين عامـاً حتـى سـنة ٥٤٦م. وهنـاك معلومـات فـى حوليـة أسـرة «وي» الحاكمـة بشـأن هجـرة أقـوام تـورا مـن منغوليـا إلـى القطاعـات الشـمالية والجنوبيـة مـن جبـال طانـري، أمـا فـى حوليـة أسـرة «جـي الجنوبيـة» فتتضمـن المعلومـات التاليـة المتعلقـة بـالأوار:

«فـى العـام الثانـي لــ شـنمغ (٤٨٧م)، أرسـل «ليـو سـونج» والـي مدينـة «ييجـو» (مدينـة سـيجوان جنغتـو اليـوم)، سـفيره «جانـج جينـغ شـونغ» إلـى شـعب تـورا بهـدف عـرض قوتـه. وكان السـفير سـيصل إلـى بيشـام شـان (جارقليـق) الحاليـة وأودون (خوتـن الحاليـة)؛ ولكـن شـعب تـورا فـى تلـك الآونـة كان قـد احتل»بيشـام شـان» وشـتت شـعب بيشـام شـان فـى الأطـراف. وكان شـعب أودون (شـعب خوتـن) بوذيـاً، أمـا شـعب تـورا فـكان يقـدم نفسـه

بوصفهم أبناء الرب (تانريقوت) واستقبل شعب تورا «جانغ جينغ شونغ» ونصحوه بالعودة مرة أخرى إلى بلاده»[١٠].

وبناء على هذه المعلومات طرد «أي أوجرو» كل «الأوار» في سنة ٤٨٧ م وكانوا في جنوب وشمال جبال «طانري»، وأنتزع «بيشام شان» من يد التتتبين.

ويمدنا ويجنغ (٥٨٠ –٦٤٣ م) مؤلف حولية أسرة سوي الحاكمة في الباب الخاص بشعب تورا، بمعلومات قيمة جدا عن أسماء ما يزيد على أربعين قبيلة من قبائل تورا التى كانت تعيش في الأراضي الممتدة بدءاً من «جبال هنغان» في الشرق إلى البحر الميت (بحيرة آرال في الغرب) وعن أماكن توطنهم وعلاقاتهم مع الأتراك، وعن حالتهم الاقتصادية. وطبقاً لما قد ورد في هذا المؤلف فإن موقف شعب تورا بعد القرن السادس كانت كالتالي:

أن أجداد شعب «تورا» هم أحفاد الهون، وقبائلهم وبطونهم كثيرة»[١١].

وطبقاً لنفس المصدر فإن المناطق التى عاشت فيها شعب طور أو أسماء قبائلهم هي كالتالي:

١ –شعب طوبا في جنوب بحيرة «بايقال».

٢ –شعوب «بوگو وطونرا وأويغور وبايرقو وبوركلي» التى تتخذ اسم أركين على سواحل «أنهار سلانكه» و«طولا» و«أورخون» بمنغوليا، وكذلك تعيش قبائل مثل «مونجين» و «طورغور» و«قوغورصو» في منغوليا.

٣ –شعب جبني في الأراضي الممتدة من شرق «جونغاريا» حتى «وادي إيلي»، وأقوام «بورج» و«الآز» و«صغناق» و«الأوغوز» و«القيرغيز» وال«أون أويغور».

٤ –شعب «صورطاردوش» (سيرطاردوش) في شمال غرب جبال «آلطاي» وأقوام «جاروق» و «زبندر» و«توركيش».

٥ –أما في شمال سَمَرقَنْد وفي جوار نهر «ايديل» فهناك شعوب «آديز» و «الخزر» و«البلغار» و«البنجاق» و«القوغاي» و«القبجاق» و«الصوار»

و«البوتاص» و«اليماق».

٦ – وشعب «صاري غور» في شرق نهر «يايق» (الأورال) والأجزاء الغربية منه، وقبائل «الصاقصين» و«الموقشا» و«الجركس».

٧ – وقبائل «الأوغوز» و«الآلان» و«الباشقورت» و«الهون» في شرق الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة).

ورغم وجود قبائل كثيرة جداً لشعب تورا فقد كلها بشكل عام شعب تورا، وحسب الجهة التى استقروا فيها؛ فأطلق اسم أتراك الشرق على الذين في الشرق، وأتراك الغرب على الذين في الغرب. واخضع «ايسته مي يابغو» أخو «طومان خان» حاكم سلطنة الكوك ترك العظمي التي تأسست سنة٥٥١م، قبائل شعب تورا التي عاشت في الأراضي الممتدة من «جبال هنغان» في الشرق حتى البحر الميت(بحيرة آرال) في الغرب، وذلك في سنة ٥٥٢م. ولما انقسمت سلطنة «الكوك ترك» إلى قسمين في سنة ٦٠٠م، كانت قبائل تورا داخل حدود سلطنة «الكوك ترك» الشرقية (٦٠٠ – ٧٤٤م) وسلطنة «الكوك ترك» الغربية (٦٠٠ – ٧٦٥ م).

ويذكر في الباب الخاص بأقوام تورا من حولية «أسرة سوي» الحاكمة ما يلي:

«كان شعب تورا الذى استقر في الطرف الغربي يعمل على وجه العموم بزراعة الفاكهة والزراعة بشكل عام، وكانت خيولهم كثيرة، وخرافهم قليلة» ولكن ليست هناك معلومات متعلقة بهذا الموضوع في باب الأويغور من حولية أسرة «طانغ» الحاكمة. ولكن المؤرخين الذين كتبوا حولية أسرة «طانغ» القديمة وحولية أسرة «طانغ» الجديدة، وجهوا الأنظار إلى الأويغور الشرقيين الذين عملوا بالرعي وكانوا يعيشون في حالة من البداوة ولكنهم لم يذكروا أية معلومة عن الأويغور الغربيين، ولكن المنطقة المسماة الطرف الغربي (أو الناحية الغربية) في حولية «أسرة سُوي» الحاكمة تبين الأراضي الواسعة التي تتضمن بداخلها

حـوض «نهـر تاريـم» بآسـيا الوسـطى.

ويذكـر فـى القسـم الخـاص بأقـوام تـورا فى حولية «أسـرة سـوي» الحاكمة أيضـاً أن عـادات وتقاليـد شـعب تـورا تشـبه تلـك الخاصـة بالتـرك، واعتبـاراً من القـرن السـادس بـدأت لفظـة «أويغـور» تحـل محـل لفظـة «تـورا» فـى كتـب التاريـخ الصينيـة. إن أجدادنـا الذيـن ذُكـروا بأسـماء مختلفـة فـى كتـب التاريخ الصينيـة قبـل الميـلاد بعـدة قـرون حتـى القـرن السـادس بعـد الميـلاد وهـى؛ «شـعب تـورا»، و«ذوو العجـلات العاليـة» قـد أصبحـوا يعرفـون باسـم «الأويغور» وهـو الإسـم المشـترك لقبائـل تـورا الشـرقية والغربيـة، لأنـه مـن القـرن السـابع بـدأ يكتـب فـى صـورة قبائـل الأويغـور.

ورغـم انقسـامٍ شـعبٍ تـورا الغربيـة والشـرقية إلـى عـدة قبائـل وبطـون إلا أنهـم كانـوا شـعباً واحـداً مـن حيـث العـرق واللغـة والعـادات والتقاليـد وخلافـاً لذلـك فإنـه كان بيـن قبائـل تـورا، قبيلـة تحمـل اسـم الأويغـور، وكانـت هـذه القبيلـة الأكبـر والأقـوى بالنسـبة للآخريـن، وبـدأت تتزعـم قبائـل تـورا اعتبـاراً مـن القـرن الخامـس. أمـا فـى سـنة ٤٩٨ م فقـد اختـار قسـم مكـون مـن سـت قبائـل مـن شـعب تـورا الشـرقية، «شـوقان» أميـر قبيلـة الأويغـور خانـا لهم.كمـا أن خـروج هـذا الاتحـاد علـى حكـم سـلطنة «طوبـا» (٤٩٤ - ٥٣٤م)، يبيـن هـذا.

اتحـدت قبائـل الأويغـور مـع شـعب تـورا الشـرقية فـى القـرن الخامـس وأسسـوا دولـة الأويغـور الأورخونييـن، وكان يطلـق علـى القبائـل التـى اتخـذت مكانهـا فـى بنيـة الدولـة «أون أويغـور» و «طقـوز أوغـوز»، ولكـن فـى هـذا التاريـخ اتحـدت كل قبائـل تـورا تحـت اسـم مشـترك هـو «الأويغـور».

ويذكـر «شـونزانغ» الراهـب البـوذي الشـهير فـى القـرن السـابع (٦٠٢ – ٦٦٤م)، فـى كتابـة المسـمى «مذكـرات رحلـة علـى الطـرف الغربـي فـى عهـد «طانـغ» العظيـم، يذكـر مـا يلـى بشـكل صريـح: «يسـتخدم أهـل «كاشْـغَر» و«خوتـن» و«كوچـار» الكتابـة الهنديـة، أمـا ألسـنتهم فليسـت اللغـة الهنديـة»[١٢]، بمـا يعنـى أن الأويغـور اسـتخدموا االكتابـة الهنديـة فـى الفتـرة التـى اعتنقـوا فيهـا البوذيـة، إلا أنهـم اسـتمروا فـى التحـدث بلغاتهـم الأصليـة. ومثـال آخـر

لذلك أنه بينما كان المؤرخون الصينيون يكتبون أسماء الأماكن والجبال المختلفة في تركستان الشرقية في زمانهم إلا أنهم استخدموا الحروف الصينية وفقً نطقها الأصلي في لغة الأويغور، أو أنهم كانوا يكتبون ترجمة معاني تلك الأسماء باللغة الصينية.

وكان شعب «قوشوو» وهم أجداد الأويغور، يعيشون قبل الميلاد في المنطقة الممتدة من «قمول» (حامي) في الشرق وحتى «مناص» في المغرب وطورفان في الجنوب الغربي. وكانوا قبل الميلاد بعدة قرون قد أطلقوا اسم «بارِصْكول» على باركول الحالية، وترد «بارِصْكول» بمعنى بحيرة الأسد (كَان يطلق على الأَسد في الأويغورية القَديمة «بارِصْ») وقد أطلقوا عليها اسم «بارِصْكول» لأن بحيرة بارِصْ كانت تشبه الأَسد، أو لأن الأسود كانت تعيش في الأحراش الكثيفة حولها، وكان مؤرخو الصين القدماء يسمون هذه البحيرة «بوشي هاي»، أما «بوشهاي» فهي المقابل الصيني لكلمة بارص أماكلمة «هاي» فتعني البحيرة.

كانت منطقة باركول منذ الأزمنة السحيقة واحة كبيرة شديدة الخضرة، أراضيها خصبة وماؤها وفير، وساحة زراعية وحيوانية مشهورة بتربية الخيل والأغنام والإبل. فضلا عن أنها منطقة مهمة جداً من الوجهة العسكرية، وقبل الميلاد بعدة قرون حاربت أسرة «الهان» الحاكمة وقبائل الهون لمرات عديدة من أجل الاستيلاء على المنطقة. ولهذاالسبب أعطى المؤرخون الصينيون أهمية خاصة لهذه المنطقة في كتاباتهم.

لقد ترجم مؤرخو أسرة «الهان» الحاكمة اسم الجبل المسمى جبال «طانري» في اللغة الأويغورية القديمة، ترجموه بشكل يناسب معناها في اللغة الأويغورية الأصلية فكتبوه «تيان شان». وكذلك ترجموا اسم جبال «آلطاي» بشكل يتناسب معناها الأصلي في اللغة الأويغورية وكتبوها «جين شان» بحروف تعني في اللغة الصينية آلتون طاغ [جبل الذهب]، كما اتخذوا من الثلوج ناصعة البياض التي لا تذوب أبداً على مدار السنين على القمم العليا لجبال جبال «طانري» وكتبوها في الصينية

بحروف «باي شان» وتعنى (آق طاغ) أي الجبل الأبيض.

ووضع مؤرخو الصين فى حسبانهم أن الأويغور أطلقوا على كاشْغَر الحالية «صوله» أى المكان غزير الماء، وكذلك وضعوا فى حسبانهم أن اسم (صو – له) فى اللغة الصينية قد صار «رمالاً فى نهر آقصوا». أما «جوموا» أى حوض نهر أقصو، فقد كتبوها «ون- صو»وهى الترجمة الصينية لكلمة «أون صو» فى اللغة الأويغورية.

وهذه الأمور من الناحية اللغوية هى دليل إثبات أن الأويغور هم السكان الأصليون لنهر «جونغار» وحوض «نهر تاريم»، وإذا لم يكن الأويغور هم الذين عاشوا فى هذه المناطق، ولو كانوا شعوباً تتكلم بلغة أخرى، لما كانت هذه البحيرات والجبال والأماكن والأنهار تسمى باللغة التركية الأويغورية «بارصكول» و«طانري طاغ» و«آلطاي» و«قوم» و«أونصو» و«صوله».

ولقد ترك لنا علماء اليونان القدامى والعلماء العرب والرحالة أيضا معلومات قيمة جداً عن الأويغور. ويصرح العالم الكبير بطليموس الذى عاش فى القرن الثاني الميلادي، فى باب دولة ساريك (أى دولةالخز) من كتابه المسمى «الجغرافيا» والمكون من عشرة أجزاء، يصرح بأن الشعوب التى عاشت فى حوض نهر تاريم الحالي، هى الشعوب الأويغورية، وأنهم كانوا يربون دودة القز وينسجون أجود الأقمشة الحريرية، ولقد أمدنا «بطليموس» بمعلومات مفصلة عن الظروف الطبيعية لحوض نهر تاريم. هذا فضلا عما تركه لنا مؤرخون يونانيون ورومان مثل «إكتيسياس» و«سترابون» و«بليني» و«يوميني ميلا» من معلومات قيمة عن دولة الحرير فى حوض «نهر تاريم» وعن نشاط الأويغور الذين عاشوا فى هذه الدولة وبنيتهم العرقية وأزيائهم.

وفى سنة ٧٥٠م أرسل أبو العباس عبد الله، أول خليفة عباسي (٧٥٠ - ٧٥٤م)، رسوله تميم بن بحر إلى قصر سلطان «بايانجور» (٧٤٧ –٧٥٨م) حاكم دولة أويغور «أورخون» الكائنة على أفرع نهر «أورخون». وبعد أن حكى «تميم بن بحر» فى سياحته عن طرز حياة الأتراك

الوثنيين الذى يعتنقون البوذية والشامانية، وعن الطرق التى تبدأ من مدينة «بارسخان» وتصل حتى «كاشْغَر» و«أقصو» و«كوچار» و«قارا شَهَرْ» و«طورفان» وعن القرى المرتبطة ببعضها على جوانب هذه الطرق. وعن الثكنات والأحياء يقول أن مبعوث السلطان التركى كان يرتحل جيئة وذهاباً من «بارسخان» وحتى «أورخون».

وأرجح الاحتمالات أن الخليفة العباسي أرسل هذا الرسول بهدف دعوة «بايانچور» حاكم الأويغور إلى الإسلام، لكنه رفض أن يسلم.

وفى سنة ٨٢١م، أرسل امبراطور «أسرة طانغ» أميرة صينية تسمى «طاي- هو» إلى «بيلكه خان» حاكم الأويغور، فأرسل السلطان عشرات الآلاف من الجنود من «كوچار» و«بشباليق» لتدعيم القائمين على حراسة الحدود بهدف عرقلة محاولات جيرانهم التبتين إفساد أمر هذا العرس. وتوضح لنا هذه المعلومات أن حوض نهر «جونغار» و«تاريم» كانا داخل حدود دولة «أويغور أورخون» وأنه لهذا السبب وضع السلطان وحدات حماية حدود كبيرة فى هذه الأماكن.

وفى الفترة (٧٤٥ م إلى ٨٣٠ م)،قويت دولة «أويغور أورخون» وامتدت حدود الإمبراطورية حتى منغوليا الحالية، وقسم من ولاية منغوليا الحالية بالصين، وحوض نهر «جونغار» و«تاريم»، و«بحيرة بالقاش» والمناطق المجاورة لفَرْغانة وقيرغيزيا ونهر إيلي. وطبقاً للمعلومات التاريخية الموثوق بها فإن الحاكم الصينى تعرض لهزيمة فادحة فى الحرب التى وقعت فى «طلاس» بين امبراطورية «طانغ» والعرب سنة ٧٥١م، وفضلا عن لذلك فقد ظلت الإمبراطورية مهددة بالإنهيار بسبب تمرد «أونلوق صويغوم»(١) الذى استمر بضع سنين (من ٧٥٧ م إلى٧٦٢م) فى الجزء الداخلي من الإمبراطورية، وسرعان ما فقد حاكم طانغ تأثيره فى آسيا الوسطى، واستفادت دولة «أويغور أورخون» من هذه الفرصة واستولت على آسيا الوسطى وأصبحت المالك الحقيقى لطريق الحرير العالمي. وعندما استولت سلطنة التبت على «قانصو» سنة ٧٦٠م، اضطرت

(١) وتكتب فى المصادر الصينية آن لوشان (المترجم العربى)

امبراطورية «طانغ» لإقامة علاقات مع «باطى أوجي» الثغر الغربي على الطريق الدولى المسمى «طريق الأويغور»، وحتى يصل سفير امبراطور «طانغ» وتجاره إلى دول الغرب،كانوا يجتازون سور الصين العظيم من «جانغ آن» فى الاتجاه الشمالي ويعبرون جبال «الآلطاي» باستقامة الغرب من قره بلاساغون عاصمة دولة أويغور أورخون، ويصلون إلى «بشباليق» الكائنة فى حوض نهر جونغار، وكان الطريق من «بشباليق» ينقسم إلى قسمين أحدهما يتجه إلى أقصى الغرب ماراً بفروع نهر «إيلي» ويصل حتى الطرف الغربي، أما الآخر فيتجه إلى الجنوب ويمر من جبال «طانري» ويصل إلى دول الغرب من طورفان وقارا شَهَرْ وأقصو وكوچار وكاشْغَر، وكان يطلق على هذا الطريق فى عهد دولة أويغور أورخون «طريق الأويغور»، وكان الأويغور قد دخلوا فى حروب كبرى كثيرة مع التبتين من أجل انشاء هذا الطريق الدولى.

مات سلطان الأويغور «قُتْلُق بيلكه آيچور» فى سنة ٧٩٥م، ولأنه لم يحدد ولي عهده أثناء حياته فقد اعتلى عرش الدولة وزيره الأول «قُتْلُق»، وبعد هذا انتقلت السلطنة من قبيلة «ياغلاق» فى دولة «أويغور أورخون» إلى قبائل الـ (آديز) وكانت قبيلة «ياغلاق» أحد الفروع القوية كثيفة العدد بين القبائل المسماة «أون أويغور» أى الأويغور الشرقيين التى منها السلاطين عادة. ولهذا كانت قبائل الـ «ياغلاقار» قد تزعمت قبائل الأويغور اعتباراً فى سنة ٦٠٠ م، وكونت دولة «أويغور أوخون» فى سنة ٦٤٦ م واعتباراً من سنة ٧٩٥م وحتى سنة ٨٣٩م حكم سلطنة الأويغور من قبائل الـ آديز ستة سلاطين القابهم هى ؛«آي تنكريده قوت بولمش آلب[1] قُتْلُق بيلكه سلطان (٧٩٥ -٨٠٥ م)،ثم «آي تنكريده قوت بولمش قُتْلُق بيلكه سلطان» (٨٠٥ - ٨٠٨)، ثم «آي تنكريده قوت بولمش آلب كوجلك بيلكه سلطان» (٨٠٨ - ٨٢١م)،ثم «كون تنكريده أولوق بولمش[2] آلب كوجلك بيكله سلطان (٨٢١ - ٨٢٤م) ثم «خزر

(١) وتعنى اله القمر المبارك (المترجم العربى)

(٢) وتعنى اله الشمس العظيم (المترجم العربى)

تكين» (٨٢٤ – ٨٣٢م) و«آي تنكريده قوت بولمش كوجلك بيكله سلطان».

ونجحت دولة «أويغور أورخون» بين عامي ٧٩٥ - ٨٣٠م في حماية بنية الدولة القوية تحت إدارة سلاطين جاءوا من قبيلة «آديز». لكن نشب صراع العرش بين «الآديز» وقبيلة «ياغلاقار» في عهد «آي تنكريده قوت بولمش كوجلك بيلكه سلطان» وفي سنة ٨٣٩م، شن «قره بولوك» من قبيلة «ياغلاقار» الحرب ضد السلطان بمساعدة الأتراك، وانتحر السلطان بعد أن خسر الحرب، واعتلى «قره بولوك كيجيك تكين» أمير الياغلاقار عرش السلطنة، وفي هذه الأثناء هرب «بولوك باغا» وهو من أمراء آديز إلى القيرغيز الذين كانوا على مقربة من «نهر ينسي»، وطلب منهم العون، وفي تلك الأيام أطلت آفة طبيعيةٍ برأسها في أراضي الأويغور، وانهارت الزراعة وتربية الحيوانات تماماً بسبب الثلج الكثيف والبرد القارص والأمراض المعدية ونفقت حيوانات كثيرة ومات بشر كثيرون. وأعلن القيرغيز الذين لم يريدوا تفويت الفرصة العصيان، وهجموا على العاصمة «قره بلاساغون»، وقتلوا «قره بولوك» و«كيجيك تكين» وأحرقوا قصر السلطان ونهبوا الخزينة. ونتيجة لتمرد القيرغيز انهارت دولة أويغور أورخون العظيمة التي كانت تمتلكفي أقوى عهودها ٢٢١ ألف فارس، وهاجر قسم كبير من الأويغور الشرقيين من المناطق الشرقية منغوليا الحالية إلى آسيا الوسطى التي تحتل مكانها في المنطقة الغربية.

ووصل قسم من الأويغور الذين هاجروا إلى الغرب إلى باركول تحت قيادة «بان تكين» ثم إلى طورفان وقارا شَهَرْ وإلى أطراف «كوچار» واستقروا هناك ولم يكن عددهم آنئذ يزيد عن ٢٠٠ ألف، أما عدد الأويغور المتوطنين فكان قرابة المليون.

تلك هي الحقائق التاريخية، أما بعض المؤرخين المحدثين فقد توصلوا إلى حكم خاطئ مؤداه أن الأويغور لم يسكنوا هذه الأراضي على الإطلاق قبل الهجرة إلى تركستان الشرقية عام ٨٤٠م، ودليل هؤلاء ومن على غرارهم هوٍ الكتب «السنسكرتيتية» و«الكاروشتيه» و«البوذية الهندية» الكثيرة جداً التي عُثر عليها في الحفريات التي تمت في

«خوتـن» و«كوچـار» و«قـارا شَـهَرْ» و«طورفـان»، ولكـن رغـم تعـدد الكتـب المؤلفـة بهـذه اللغـات إلا أنهـا لا تكفـى لإثبـات أن السـكان الأصليـين لهـذه الأراضـي كانـوا شـعوباً ترجـع للجنـس «الآري».

فـى فتـرة مـا قبـل الميـلاد ومـا بعـده انتشـرت البوذيـة مـن الهنـد إلـى خوتـن وكاشْـغَر وكوچـار وقـارا شَـهَرْ وطورفـان الكائنتيـن فـى حـوض نهـر تاريـم، ولأن الكتـب التـى تخـص البوذيـة فـى تلـك الحقبـة لـم تترجـم إلـى اللغـة الأويغوريـة، فـإن الأويغـور قـرأوا الكتـب المؤلفـة باللغـة السنسـكرتية والهنديـة وأقاموا عباداتهـم بهـذه اللغـات. وهـذا الموقـف يشـبه قـراءة عـدد متواضـع مـن الأويغـور للقـرآن الكريـم والأحاديـث الشـريفة باللغـة العربيـة وفهمهـم لهـا، بعـد اعتناقهم الإسـلام. وإذا كنـا لا نسـتطيع أن نطلـق علـى المعلميـن الذيـن كانـوا يدرسـون فـى الجوامـع والمـدارس كلمـة عـرب وعجـم لاسـتفادتهم مـن الكتـب المؤلفـة باللغـة العربيـة والفارسـية، فإننـا لا نسـتطيع أيضـاً أن ننظـر الـى الأويغـور البوذييـن فـى تلـك الفتـرة علـى أنهـم هنـود بسـبب الكتـب المؤلفـة بالسنسـكرتية والهنديـة. وكل المؤرخيـن متفقـون علـى أن الأويغـور الذيـن عاشـوا فـى هـذه الأراضـي (تركسـتان الشـرقية) انتقلـوا إلـى طـرز الحيـاة المسـتقرة منـذ أقـدم العصـور، وكان هـؤلاء الأويغـور عندمـا وصلـوا إلـى تركسـتان الشـرقية بعـد هجرتهـم مـن منغوليـا سـنة ٨٤٠م، متفوقـون علـى الأويغـور الشـرقيين سـواء مـن ناحيـة الكثـرة العدديـة أو الحضـارة. وبالإضافـة إلـى ذلـك فـإن الأويغـور الذيـن هاجـروا مـن منغوليـا كانـوا علـى العقيـدة المانويـة، أمـا الأويغـور المحليـون فكانـوا بوذييـن، أمـا إذا كان هنـاك شـعب آخـر غيـر الأويغـور يعيـش فـى هـذه الأراضي حتـى هجـرة الأويغـور سـنة ٨٤٠م مثلمـا يدعـى بعضهـم، فكيـف اسـتطاع القادمـون مـن الخـارج أن يسـتوعبوا السـكان المحلييـن بهـذا البلـد فـى زمـن قصيـر كهـذا، ويحولونهـم كلهـم إلـى أويغـور بغـض النظـر عـن الاختـلاف الدينـي والعرقـي، رغـم التفـاوت بينهمـا فـى عـدد السـكان.

إن المؤرخيـن الذيـن تحدثنـا عنهـم لـم يتمكنـوا مـن الإجابـة علـى هـذا السـؤال بطريقـة منطقيـة، وهدفهـم هـو لـيّ وتزييـف الحقائـق التاريخيـة

بنظـرة مغرضـة.

ونقطـة أخـرى محـددة جـداً هـى أن قسـماً مـن الأويغـور الشـرقيين الذيـن هاجـروا سـنة ٨٤٠م قـد اسـتقروا فـى البدايـة فـى «باركـول» ثـم فـى «طورفـان وكوچـار وقـارا شَـهَرْ»، وفـرع آخـر هاجـر إلـى «يـدي صـو» واتحـد مـع الأويغـور الغربييـن المحلييـن مـن آسـيا الوسـطى الذيـن كانـوا يزيـدون عنهـم بأضعـاف مضاعفـة وزادت قوتهـم فـى فتـرة قصيـرة، وطـردوا التتبيـن مـن تركسـتان الشـرقية، وكونـوا فـى البدايـة سـلطنة «ايديقـوت الأويغوريـة» ومـن بعدهـا كونـوا «دولـة القراخانييـن». وباعتبـار النتيجـة، فـإن المعلومـات الجيولوجيـة والأثريـة التـى عرضناهـا فـى هـذه البـاب، وكذلـك المؤلفـات التـى كتبهـا المؤرخـون الصينيـون، والقدامـى المنتسـبون إلـى جنسـيات أخـرى بشـأن المناطـق التـى عـاش فيهـا الأويغـور منـذ القـدم تثبـت بشـكل واضـح أن أقـدم وطـن أصلـي للأويغـور هـو منطقـة آسـيا الوسـطى، خاصـة سـنكيانغ (تركسـتان الشـرقية).

الفصل الثاني: الأصل العرقي للأويغور

كان أجدادنا من الشعوب التى عاشت فى قارة آسيا، كما أنهم أحد الشعوب التى اضطلعت بأدوار مهمة على مدار التاريخ. وعبر الزمان تزايد عدد أجدادنا الذين كانوا من السكان المحليين القدامى لوسط آسيا منذ أقدم الأزمنة، وعاشوا فى الأراضى الممتدة من البحر الميت فى الغرب حتى المحيط الهادي فى الشرق من(بحيرة آرال).

إن المجتمعات التى عاشت فى مناطق مختلفة من العالم فى الأزمنة السحيقة، استطاعت أن تحقق اتصالا محدودا للغاية بين بعضها البعضٍ بسبب تخلف المواصلات آنذاك وعاشت منفصلة عن بعضها. ونظراً لاختلاف المناخ بين المناطق التى عاش فيها البشر، فقد ظهرت فروق مختلفة تتناسب مع خصائص كل منطقة منها. فعلى سبيل المثال تبدوالفصول الأربعة واضحة فى قطاع كبير من المناطق الشمالية والوسطى بآسيا فى حين أن شهور الشتاء فى المناطقٍ الشمالية حينئذ كانت شديدة البرودة، أما فصل الصيف فكان معتدلاً. وفى المقابل نجد انه فى المناطق الاستوائية من آسيا مثل ذلك شبه الجزيرة العربية، لم تكن الفصول الأربعة تبدو واضحة. ولهذه الأسباب ظهرت أعراق وشعوب ولغات مختلفة. وفى أيامنا هذه، هناك ثلاثة أعراقٍ رئيسة هى؛ الأبيض والأصفر والأسود. وتتميز الأعراق عن بعضها طبقاً للون البشرة وشكلٍ الشعر، وبنية الوجه والجسم. وقد انقسمت شعوب آسيا الحالية طبقاً للخصائص العرقية إلى نوعين هما؛ الأبيض والأصفر. ويُنسب الهنود والباكستانيون والأفغان والإيرانيون والأتراك والعرب والطاجيك إلى الجنس الأبيض.

وطبقـاً للإشـارات الأنثروبولوجيـة فالمنتسـبون للجنـس الأبيـض هـم ذوو بشـرة بيضـاء وأنـف طويـل وعيـون زرقـاء أو عسـلية وشـعرهم بنـي أو أشـقر. والهنـدوس الحاليـون بشـرتهم سـمراء. أمـا الآريـون أجـداد الهنـود والإيرانييـن والألمـان، فعندمـا هاجـروا إلـى الهنـد سـنة ٢٠٠٠ قبـل الميـلاد، لـم تكـن بشـرتهم كمـا هـى اليـوم. وبعـد أن اسـتقروا فـى الهنـد صـاروا علـى هـذا الحـال مـع الوقـت بتأثيـر المنـاخ الحـار للهنـد.

إن الشـعوب التـى تنتسـب إلـى الجنـس الأصفـر الـذى يعيـش فـى قـارة آسـيا هـى؛ الصينيـون واليابانيـون والكوريـون والمغـول والمانجـو ومـن يشـبهونهم. وجلـود هـؤلاء تميـل للصفـرة وشـعرهم أسـود ومسـتو وعيونهـم مسـحوبة وأنوفهـم فطسـاء.

يتحـدث «ج. جريمايلـو» عـن أقـوام تـورا التـى عاشـت فـى جنـوب سـيبريا فـى الأزمنـة القديمـة قائـلاً: «إن أقـوام تـورا علـى وجـه العمـوم متوسـطو القامـة وذوو بنيـة قويـة وهـم أصحـاب قـوة ووجوههـم طويلـة وبيضاء وشـعرهم أشـقر وأنوفهـم طويلـة ومسـتوية، وبنيـة الأنـف علـى وجـه العمـوم مقوسـة وعيونهـم زرقـاء»[١٣].

ولقـد ثبتـت صحـة هـذا الـرأي المعتمـد علـى السـجلات التاريخيـة، وثبتـت صحتـه مـرة أخـرى بواسـطة الأبحـاث الأثريـة التـى أجريـت مؤخـراً.

ولكـي نصـل إلـى معلومـات مفصلـة عـن الأصـل العرقـي للأويغـور فإنـه يجـب أن نلقـى نظـره علـى علاقـات الأخـوة بينهـم وبيـن «الهـون» و«الصاقـا» والأتـراك.

الأساطير والروايات

هنـاك سلسـلة مـن الأسـاطير والروايـات فـى الملاحـم العبرانيـة القديمـة والإغريقيـة والفارسـية والتركيـة والوثائـق التاريخيـة الصينيـة عـن أصـل أجداد الأويغـور، ومـن المؤكـد أن إصـدار حكـم متعلـق بالأحـداث التاريخيـة المهمـة اعتمـادا علـى هـذه الأسـاطير والروايـات ليـس صحيحـاً، ولكنهـا تلقـى الضـوء

ولـو بشـكل بسـيط علـى بعـض الحقائـق التاريخيـة ولذلـك فأننـى مقتنـع بجـدوى التعـرف علـى هـذه الأسـاطير والروايـات المتعلقـة بأصـول أجدادنـا.

والأتـراك طبقـاً للروايـات العبرانيـة، مـن نسـل تـرك ابـن النبـى نـوح عليـه السـلام. ويذكـر اليهـود أن التـرك جـاءوا مـن نسـل يهـودي، اعتمـادا علـى هذه الروايـة. أمـا بالنسـبة للروايـات الفارسـية فـإن «آلـب أرتونغـا» (أفرآسـياب)أقدم أجدادنـا، هـو أخـو سـياوش البطـل الفارسـي الأسـطوري. لكـن فهـذه الروايـات لا تحظـى بأيـة قيمـة علميـة لأنهـا تعتمـد علـى التـوراة و«الشـاهنامه».

وفـى قناعتنـا أن «ملحمـة الأوغـوز» مـن بيـن الروايـات الـواردة بشـأن أجدادنـا هـى الأكثـر اتسـاقا مـع الحقيقـة.

لقـد عاشـت إمبراطوريـة الهـون (٣٠٠ ق.م - ٢١٦م) أقـوى عصورهـا فـى الفتـرة مـا بيـن ٢٤٠ ق.م - ٤٨م، والفتـرة مـا بين عامـى (٢٠٩ – ١٧٩ق.م) هي فتـرة «باتـور تانريقـوت» (متـه خـان). ولقـد أبـدع الشـعب التركـي «ملحمـة الأوغـوز» بهـدف مـدح باتـور تانريقـوت، وحولـوه إلـى بطـل أسـطوري. ويظهـر «باتـور تانريقـوت» فـى هـذه الملحمـة حاكمـا علـى الصيـن والهنـد وأوروبـا وكل القسـم الشـمالي مـن العالـم. وفـى الحقيقـة كان «باتـور تانريقـوت» قـد شـن حربـاً ضـد غـرب آسـيا ووسـطها فـى عـام ١٧٧ق.م وأخضـع الـدول فـى تلـك المناطـق لطاعتـه ووصـل حتـى «بحـر الخـزر».

ومقدمة ملحمة الأوغوز على النحو التالى:

«ذات يـوم ولـدت «آيخـان» غلامـا وكان لـون شـعر الغـلام وحاجبيه أسـود، وعيونـه زرقـاء. وفمـه أحمـر كالجمـر، وكان أجمـل حتـى مـن الملائكـة. وكانت سـاقاه تشـبه سـيقان البقـرة، وخصـره كخصـر الذئـب، وأكتافـه كأكتـاف الثـور الاسـود، أمـا صـدره فـكان كصـدر الـدب. وكان يرعـى الحيوانـات ويركـب الخيـل ويخـرج للصيـد. وهكـذا أخـذ يكبـر شـيئاً فشـيئاً وصـار فتـى. وفـى يـوم مـن الأيـام بينمـا كان «أوغوزخـان» يدعـو ربـه، اسـودت الدنيـا فجـأة مـن حولـه، ونـزل مـن السـماء ضـوء أزرق. وكانـت الضـوء أكثـر لمعانـاً مـن ضـوء الشـمس وأكثـر ضيـاء مـن ضـوء القمـر واقتـرب منـه «أوغوزخـان» ورأى

داخـل النــور فتــاة جميلــة وحيدة،علــى جبينهــا شــامة بوهــج النــار وتشـبه النجـم القطبـي، وكانـت الفتـاة بارعـة مـن الجمـال بحيـث أنهـا إذا ضحكـت، ضحـك رب السـماء وعندمـا تبكـي يبكـى معهـا.

ومــا أن وقعــت عينــا «أوغوزخــان» علــى الفتــاة، حتــى جُــن بهــا، وصــار عاشـقاً لهـا وتزوجهـا، وبلـغ مـراده. وحملـت الفتـاة وجـاءت لحظـة وضعهـا، فولـدت ثلاثـة أبنـاء فسـمت ابنهـا الأكبـر «كـون» (أى الشـمس) والأوسـط «آي» (أى القمـر) والأصغـر «يلـدز» (أي النجـم).

ذات يــوم خــرج «أوغوزخــان» للصيــد، ورأى شــجرة وســط البحيــرة التــى أمامـه. وكانـت تجلـس داخـل الشـجرة فتـاة وحيـدة. كانـت الفتـاة غايـة فـى الجمـال وعيونهـا فـى غايـة الزرقـة وشـعرها طويـل كالأنهـار وأسـنانها مثـل اللؤلـؤ. ورآهـا أوغوزخـان فهـام بهـا حبـاً وتزوجهـا ووصـل إلـى مـراده، وحملت الفتـاة وولـدت ثلاثـة أبنـاء وقامـت بتسـمية كبيـر أبنائهـا «كـوك» (أى السـماء) والأوسـط «طـاغ» (أى الجبـل) والأصغـر «دنيـز» (أى البحـر)».

تبيــن هــذه العبــارات إلــى أي مــدى كان يتــم تأليــه أوغوزخــان. وفــى الملحمـة يظهـر الأخـوة السـتة الذيـن أنجبتهـم زوجتـا أوغوزخـان هاتيـن على أنهـم أجـداد قبائـل الأوغـوز الأربـع والعشـرين الذيـن هـم أخـوة للأويغـور مـن الـدم. ويشـار إلـى أبنـاء أوغوزخـان السـتة فـى ملحمـة الأوغـوز التـى تحتـل مكانهـا فـى الأثـر المسـمى «جامـع التواريـخ» لرشـيد الديـن، بوصفهـم أجـداد قبائـل الأوغـوز الأربـع والعشـرين:

«عندمـا بلـغ «أوغوزخـان» مـن العمـر أرذلـه، سـمع الرؤيـة العجيبـة التـى رآهـا وزيـره العـارف «أولـوغ تـوروك». فقـد رأى «أولـوغ تـورك» فـى منامـه قوسـاً ذهبيـاً وثلاثـة سـهام فضيـة، القـوس يسـحب مـن الشـرق إلـى الغـرب، أمـا السـهام الفضيـة الثلاثـة فاتجهـت ناحيـة الشـمال. وبعـد أن اسـتيقظ أولوغ تـوروك حكـى الرؤيـا التـى رآهـا إلـى أوغوزخـان. واسـتناداً إلـى تفسـير «أولـوغ تـوروك» لهـذه الرؤيـا، أرسـل اوغوزخـان أبنـاءه الثلاثـة «كـون» [األشـمس] و«آي» [القمـر] و«يُلـدز» [النجـم] إلـى الشـرق، كمـا أرسـل أبنـاءه الثلاثـة «كـوك» [السـماء] و«طـاغ» [الجبـل] ودنيـز» [البحـر] إلـى الغـرب. وقـام

الأبناء الستة بالصيد فى الأماكن التى ذهبوا إليها وتنزهوا وواجهوا أشياء كثيرة لم يروها فى حياتهم قط. وعثر «كون» و«آي» و«يلدز» على قوس ذهبي فى الطريق فأحضروه لأبيهم.كما عثر «كوك» و«دنيز» و«طاغ» على ثلاثة سهام وأحضورها لأبيهم. وقسم أوغوزخان السهم الذهبى إلى ثلاثة وأعطاهم إلى «كون» و«آي» و«يُلدز»، كما أعطى السهام الفضية الثلاثة إلى «كوك» و «طاغ» و«دنيز» (ملحمة الأوغوز).

وتنقسم القبائل الأوغوزية الأربع والعشرون إلى فرعين رئيسين [كل فرع منهما يضم اثنتى عشرة قبيلة] أحدهما «البوز أوق» (بوزوق) وهم أبناء «كون» و«آي» و«يلدز» الذين قسم أوغوز خان السهم بينهم، والآخر التى أطلق عليه اسم «أوچ أوق»، وهم من نسل أبناء «أوغوزخان» الذين أعطى لهم السهام الفضية الثلاثة.

تبدو قبائل الأوغوز الأربع والعشرون فى القائمة التى وردت فى كتاب المؤرخ الفارسي رشيد الدين «جامع التواريخ» على هذا النحو:

تشكل قبائل «بوزأوق» الفرع الأيمن للأوغوز، أما قبائل «أوج أوق» فتشكل الفرع الأيسر.

وتوضح هذه المعلومات أن الأويغور الشرقيين يشكلون مجموعة قبائل «الأوغوز» الكبرى وقبائلها ذائعة الصيت، وأن الأوغوز الشرقيين يتخذوا مكانهم فى بنية سلطنة الأويغور. وفى أيامنا هذه يرى بعض المؤرخين المشهورين أن «قراخان» والد أوغوزخان فى ملحمة أوغوز هو نفسه «طومان» والد «مته».

عندما هاجر الأويغور الشرقيون سنة ٨٤٠ ميلادية من منغوليا إلى آسيا الوسطى، استقر الأوغوز الشرقيون على سواحل نهر «ايرتش» وبحيرتي «بالقاش» و«آرال»، ويمدنا محمود الكاشْغَري بهذه المعلومات المتعلقة بالأصل العرقي لهؤلاء «الأوغوز» فى فتره مجدهم:

«الأوغوز هم أحد شعوب الترك، والأوغوز تركمان وهم اثنتان وعشرون قبيلة، ولكل قبيلة منها شعارها الخاص»[١٤].

ويظهر الأوغوز في قائمة محمود الكاشْغَري اثنتين وعشرين قبيلة مع أسماء القبائل التي ذكرناها سابقاً، عدا اسم قبيلتين تخلو منها قائمة الكاشْغَري.

وتثبت ملحمة الأوغوز أن الهون والأويغور والأتراك هم شعوب شقيقة تنحدر من نفس الأصل.

إن «آفراسباب» الذي مر ذكره في الروايات الفارسية والتركية هو أشهر أبطالنا الذين عاشوا قبل الميلاد بسبعمائة عام، وقد أطلق عليه أجدادنا اسم «آلب أر رتونغا». فهو الحاكم الشهير لامبراطورية الصاقا العظمى التي أسسها أجدادنا في الأراضي الواسعة الممتدة من آسيا الوسطى حتى البحر الأسود قبل الميلاد بسبعمائة عام، وكان الفرس يطلقون كلمة «توران» على هذه الإمبراطورية التي حافظت على وجودها حتى القرن الأول قبل الميلاد. وتحتل المعلومات الأولية عن «آلب أر تونغا» مكانها في «الأفستا» الكتاب المقدس للمجوس، ويجرى الحديث في هذا الكتاب عن امبراطور «توران» بصفته «آفرآسياب». ويمدنا شاعر الفرس العظيم أبو القاسم الفردوسي في مواضع مختلفة من كتابه المسمى «الشهنامه» الذي كتبه بأمر السلطان محمود الغزنوي (٩٩٧ – ١٠٣٠م) عن الحروب التي خاضها «أفرآسياب» ضد ملوك فارس. وطبقاً لمحمود الكاشْغَري فقد كان آلب طونغا يسكن في «أوردوكنت»(١) ذات الطقس الجميل (كاشْغَر)١٥، وفي ذلك الحين كان الفرس قد كونوا امبراطورية قوية. وفي القرن السابع قبل الميلاد كان كيسخرو حاكم أسرة «الأخمنيين» الفارسية(٧٠٠ق.م - ٣٣٠ م) التي قامت في القرن السابع قبل الميلاد، قد هزم «أفرآسياب» حاكم «توران». وكان قد انسحب إلى الشرق وعادة مرة أخرى إلى جبال «آلطاي»؛ ولكنه مات بسهم أطلق عليه في الحرب الثانية التي خاضها ضد الفرس في أذربيجان عام ٦٢٥ ق.م.

إن الروايات التركية والفارسية المتعلقة بـ« آلب أرٍ تونغا «أثارت في عقلنا بعض التساؤلات، هل كان آلب أر تونغا بطلاً تاريخياً عاش في

(١) وتعنى مدينة الجيش (المترجم العربى)

الواقـع أم أنـه شـخصية أسـطورية؟ هـل «الإسـكيت» عنـد اليونـان والشـعب الـذي أطلـق عليـه الصاقـا عنـد الفـرس، هـل كانـوا أتـراكاً أم كانـوا أقـارب الفـرس.

إن لدينـا الأدلـة الكافيـة عـن أن آلـب أر تونغـا كان شـخصية تاريخيـة حقيقيـة.

لقـد نقـل محمـد الكاشْـغَري فـى كتابـه بعـض النصـوص مـن الأشـعار (الرثـاء) المكتـوب عـن آلـب أر تونغـا:

هل مات «ألب أر تونغا»
وهل بقيت الدنيا السيئة
هل أخذ الفلك ثأره
فالآن القلب يتمزق [١٦]
الرجل يعوى كالذئاب
يشق ملابسه ويصرخ
ويئن كمن سحق
ويغطى الدمع عينيه[١٧]

وفيمـا يلـى أشـعار تبيـن الحالـة الروحيـة للأمـراء الذيـن حضـروا وفـاة «آلـب أر تونغـا»:

لقد أتعب الأمراء خيولهم
وأوقفهم الحزن
وقد اصفرت سيماهم و وجوههم
كأنما فقعت مرارتهم[١٨]

هـذه القطـع الشـعرية الثـلاث الـوارادة بالكتـاب هـى جـزء مـن الملاحـم

التـي كتبهـا أجدادنـا فـي وفـاة «آلـب أر تونغـا» وهـذه المرثيـات المكتوبـة عـن «آلـب أر تونغـا» هـي دليـلٍ علـى أنـه كان بطـلاً حقيقيـاً عـاش فـي التاريـخ وأنـه كان حاكمـاً عظيمـاً ذكـره أجدادنـا دائمـاً بالاحتـرام والتقديـر.

ومـن المعـروف أنـه بعـد مـوت «آلـب أر تونغـا» سـنة ٦٢٥ ق.م حكـم امبراطوريـة «تـوران» خانـات يتخـذون أسـماء علـى غـرار «آمـورغ» وملكـة «طومـارس» (طومريـس).

بعـد أن مـات «كيخسـرو» اعتلـى العرش أخـوه اسـتياج (٥٥٥ - ٥٨٤ ق.م). ومـن بعـده هجـم «كيـكاوس» (فـي اليونانيـة كيـروس) الـذي كان علـى رأس أسـرة «الأخمنييـن» الحاكمـة، علـى التورانييـن وأسـر »آورج» حاكـم تـوران. ويسـجل المـؤرخ اليوناني «كيتآسـياس» أن زوجـة حاكـم تـوران «سـيمافيترا» جهـزت جيشـاً مـن الرجـال والنسـاء وحاربـت الفـرس وهزمـت «كيـكاوس» وأنقـذت زوجهـا «آمـورج». وطبقـاً لنفس الكاتـب أنـه بعـد هـذه الحـرب عقـد التورانيـون معاهـدة مـع «كيـكاوس» ولكـن «كيـكاوس» لـم يحتـرم المعاهـدة وهاجـم آسـيا الوسـطى. وطبقـاً للمعلومـات التـي أمدنـا بهـا «هيـردووت» فـإن الملكـة «طومـارس» كانـت علـى رأس «الصاقـا» العظـام (ماصاجيـت) فـي تلـك الفتـرة. وفـي الحـرب التـي قـام بهـا «كيـكاوس» ضـد آسـيا الوسـطى،ضل طريقـة فـي الصحراءعنـد النواحـي التـي وراء «نهـر آمـو»، وانفصل عـن الصفوف الخلفيـة وتعـرض للهزيمـة ومـات فـي الحـرب. ويمدنـا «هيـرودوت» بمعلومـات مفصلـة متعلقـة بهـذه الحـرب و«بكيـكاوس». ونتبيـن منهـا أن «هيـرودوت» أخـذ بعـض التفصيـلات مـن الروايـات التـي تتعلـق بـ«طومـارس». ومنهـا أنهـا مـلأت قربـة بالـدم ووضعـت بداخلهـا رأس «كيـكاوس» الـذي مـات فـي الحرب وقالـت «إنـك لـم تكـن تشـبع مـن الـدم فخـذ واشـرب مـن الـدم مـا تشـاء»[١٩].

و«طومـارس» أم شـعوب آسـيا الوسـطى كانت عاقلة، ذات فراسـة، وشـجاعة، ونموذجـا لبنـات تـوران المحبـات للوطـن، ويقـال أنهـا كانـت حفيـدة «آلـب أر تونغـا». وطبقـاً لـرأي «بـول ويتـك» فـإن الاسـم الأصلي لطومـارس هـو «تومـور»، أمـا المؤرخـون اليونانيـون فقـد أوردوه فـي صـورة «طوماريـس» و«تومـورس».

وقد أوردنا قبل قليل نماذج من روايات متعلقة به لدى اليونانيين والايرانيين، فضلا عن بعض أجزاء من الملحمة المتعلقة بآلب تونغا في ديوان لغات الترك، أما الآن فسوف نورد بعض النماذج مما دوَّنه مؤرخو الصين في العصور الوسطى.

في عام ٧١٤م أرسل «قاباغان خان» سلطان الترك الشرقيين ابنه «تونغا تكين» بجيش لاسترداد «بشباليق» من أسرة «طانغ». وحاصر «تونغا تكين» مدينة «بشباليق»، وذات يوم اقترب من أسوار المدينة بمفرده ليستطلع المكان، فقتله الأعداء الذين كانوا ينتظرونه في كمين[٢٠]. ومنذ ذلك اليوم أصبح الاحتفال بذكرى وفاة «تونغا تكين» تقليدا بين الترك. والقدر المفهوم من هذا أن «آلب أرتونغا» يذكر بأنه «تونغا تكين» وهو الإسم الذي أطلق على آلب تونغا جد الأتراك القديم.

يذكر محمود الكاشْغَري أنه عندما اقترب جيش الاسكندر من حدود آسيا الوسطى سنة ٣٢٩ ق.م، أرسل سلطان الترك الجنودَ ضده.

«ولما اقترب الاسكندر من بلاد الأويغور أرسل ضده سلطان الأويغور جيشاً من أربعة آلاف شخص، وكانت أجنحة قبعات هؤلاء الجنود تشبه أجنحة النسر، وكانوا يتقنون قذف السهام سواء للأمام أو للخلف بنفس البراعة ورآهم الإسكندر فتملكته حيرة شديدة[٢١]».

إن هذه الرواية التي نقلها محمود الكاشْغَري تتفق مع الأحداث التي وقعت أثناء مجيء الاسكندر إلى آسيا الوسطى.

خرج الإسكندر إلى الحرب في عام ٣٣٤ ق.م صوب الشرق وفي معيته ثلاثون ألف جندي مشاة وخمسة آلاف فارس، واحتل خلال عشرة أعوام آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا ومصر وفارس ووسط آسيا والهند. وفي إحدى هذه المعارك، أنزل الإسكندر هزيمة فادحة بجيش «دارا الثالث» أحد ملوك أسرة «الأكمينين» الحاكمة بفارس، في مكان يسمى «جاوجاميلا»، وقتل داريوس (دارا)، وعليه هرب أخوه «بسوسي» إلى الشرق. ووصل «بسوسي» فيما بعد إلى آسيا الوسطى وطلب العون

من «الصاقا». وكان على رأس «الصاقا» في آسيا الوسطى حينئذ حاكم يدعى «شو». وطبقاً لرأى محمود الكاشْغَري فإن «شو» الذى كان من أحفاد الملكة التركية طومارس هو نفسه الشخص المتحدث عنه هنا، وهو نفسه «شو» الحاكم التركي الذى أرسل جيشاً مكوناً من أربعة آلاف جندى ضد الإسكندر عندما جاء إلى آسيا الوسطى، ليس بطلب «بسّوسي» بل لحماية استقلاله. لكن المقدونيين هزموا «الصاقا». وتقدم الأعداء حتى كاشْغَر من جهة «ايسيق كول». ووصل أجدادنا الذين نطلق عليهم «صاقا» إلى الشرق أى إلى جبال «آلطاي» للمرة الأولى بعد الهزيمة التى مُنى بها «تونغا آلب» أمام «كيخسرو» فى القرن السابع قبل الميلاد وحدثت الهجرة الثانية للصاقا مع مجئ الإسكندر إلى آسيا الوسطى.

وكان موطن «الصاقا» الأصلي غرب سيبريا، وفى القرن العاشر ق.م تعرض الصاقا لهجوم «الصارمات» وهم أقاربهم الذين كانوا يعيشون فى الأطراف الغربية مثلهم، فتركوا أراضيهم ووصلوا حتى البحر الأسود. واعتباراً من هذا التاريخ تحول قسم من الصاقا ببطء إلى القومية الفارسية بتأثير الفرس، لكنهم استمروا فى الحفاظ على بعض الخصائص المتعلقة بالشعوب التركية. ويُعرف «الياقوت» الذين كانوا من القبائل التركية القديمة أنفسهم بالصاقا، كما أن عقائد «الصاقا» الدينية وعاداتهم وتقاليدهم هى نفسها التى لدى الهون والترك.. وكانوا أيضاً يعتنقون بالشامانية، وتتطابق بدرجة كبيرة المعلومات التى أمدنا بها هيرودوت عن أخلاق الصاقا وعاداتهم وتقاليدهم مع المعلومات التى نقلها المؤرخون الصينيون عن عادات وتقاليد الهون والترك. كان الصاقا يعيشون على تربية الحيوانات وكانت المواد الغذائية الأساسية لديهم اللحوم ومشروبهم الخمر، وكانوا كالهون والترك يستخدمون جماجم البشر كؤوسا للشراب، وحينما يموت الأب يتزوجون زوجات أبيهم وحينما يركبون خيولهم، فالسهام التى يطلقونها لا تخطئ هدفها. وكان الصاقا كالهون والترك يعبدون الشمس أو القمر، وكان إله القمر يبدو أكثرقداسة، بينما كان

«الصاقا» يعتبرون إله الشمس أعلى قدسية من إله القمر، وهكذا فإن خروج الهون للحرب بشكل عام يكون فى الليالي التى يكون فيها القمر بدراً، ويبدأون فى الانسحاب حينما يبدأ القمر فى الصغر، ونحن نفهم أن القمر والشمس مقدسان لدى الأويغور بسبب استخدامهم ألفاظ القمر والشمس kun فى ألقاب السلطان على وجه الخصوص، وعلى سبيل المثال فقد كان لقب أحد سلاطين الأويغور «كون تنكريده اولوق بولمش كوجلوك(١) بيلكه قاغان»

أما لقب «إيل تكين» فكان «آى تنكريده قوت بولمش إيل توتمش قوچ قولوق(٢) بيلكه قاغان»

وتثبت هذه الأمثلة أن عادات وتقاليد الأتراك و«الصاقا» ترجع إلى أصل واحد، وقد عاش الصاقا أعظم عصورهم فى التاريخ فى زمن «ألب تونغا» فى القرن السابع قبل الميلاد.

لقد تحول قسم من «الصاقا» الى القومية الفارسية مثل تحول فرع من الأويغور وهو «أويرات» إلى القومية المغولية فى منغوليا، ويذكر بعض المؤرخين بعد دراسة الموضوع بشكل جاد أن «الصاقا» كانوا ذوي أصل فارسي ولكن هذا ليس صحيحاً، حتى أن المؤرخ الروماني أتالاتا الذى عاش فى القرن الأول الميلادي يقول أن الأسكتيت (الصاقا) والترك من نفس الأصل[٢٢].

طوطم الذئب

لقد ارتضت الشعوب منذ القدم أشياء كثيرة بوصفها «طوطم» (أى تميمة).

ترد كلمة «طوطم» فى لغة الپاپوا الذين يعيشون فى أستراليا فى يومنا هذا بمعنى المنحدر من أصله. وكان الناس فى العصور البدائية يظنون أن بعض الحيوانات أو بعض الأشجار هى أجدادهم، فاستخدموها

(١) وتعنى اله الشمس العظيم القوى (المترجم العربى)
(٢) وتهنى إله القمر المبارك حاكم الإقليم القوى (المارجك العربى)

كرمـز يميـزون بـه أصلهـم عـن الآخريـن ونحـن سـوف نسـتخدم «الطوطـم» هنـا بهـذا المعنـى.

لقـد عجـز البشـر فـى العصـور القديمـة مـن تفسـير أحـداث الطبيعـة مـن حولهـم مثـل شـروق الشـمس وغروبهـا وكسـوف الشـمس وخسـوف القمـر وحركـة النجـوم وتقلـب الليـل والنهـار والريـح والمطـر والثلـج وفيضـان الأنهـار والـزلازل وتغيـر الفصـول، فخافـوا مـن أحـداث الطبيعـة هـذه وعبدوهـا.

إن عقيـدة الطوطـم (أى التميمـة) هـى ديانـة بدائيـة. فقـد آمـن بهـا البشـر الذيـن عاشـوا فـى مناطـق متباينـة المنـاخ، عبـدوا تمائـم مختلفـة، وعلـى سـبيل المثـال اتخـذ أجدادنـا مـن الذئـب تميمـة واتخـذ الهنـود الثـور، أمـا الصينيـون فاتخـذوا مـن التنيـن تميمـة لهـم.

إن تاريـخ الصينييـن يعـج بالأسـاطير والروايـات الغريبـة، ومـن بينهـا روايـات عـن اتخـاذ التنيـن «طوطمـا». وطبقـاً لإحـدى الروايـات فـإن نهر«خوانـغ خـيٍ» (النهـر الأصفـر) كان يفيـض مـن وقـت إلـى آخـر، ويلحـق بالنـاس أضـراراً بالغـة، لـذا فـإن النـاس الذيـن كانـوا يحلمـون بالتحكـم فـى ميـاه «خوانـغ خـي» واسـتخدامه فـى أعمـال الـري المنتظـم ابتدعـوا بعـض الأبطـال الأسـطوريين فـى هـذا الموضـوع، ورفعوهـم إلـى مرتبـة الآلهـة، «ويو» هـو واحـد مـن الأبطـال المبتدعيـن.

وطبقـاً للروايـة فـإن «يـو» أراد شـق ممـر بيـن جبليـن ليكـون مجـرى لنهـر «خوانـغ خـي» بغيـة السـيطرة علـى فيضـان النهـر. وبينمـا كان يشـق جبـلا قاسـيا لهـذا الغـرض صـادف مغـارة عميقـة داخـل الجبـل، وقابـل فـى المغـارة مخلوقـاً لـه رأس إنسـان وجسـم ثعبـان، وأعطـى هـذا المخلـوق لــ «يـو» صولجانـاً مـن البلـور فأطلـق عليـه «يـو» اسـم «يـو - شـي» واتخـذه جـداً لـه، وهكـذا فقـد اتخـذ الصينيـون مـن هـذا الثعبـان تميمـة بـدءاً مـن قبيلـة «شـيا» القديمـة وحولـوه مـع الزمـن إلـى تنيـن لـه أربعـة أرجـل، والنتيجـة أن طوطـم الصينييـن تحـول مـن الثعبـان إلـى التنيـن.

لقـد اتخـذ أجدادنـا مـن الذئـب طوطمـا فـى العصـور القديمـة وطبقـاً

للروايات القديمة فإن «جوموفانج» حاكم «جو الغربيين» غنم من الهون في إحدى الحروب التي خاضها ضدهم، ذئبين أبيضين وثورين، وأيضاً طبقاً لنفس الروايات فإن هذه الحادثة وقعت في سنة ألف قبل الميلاد.

وقد اكتشفت في منطقة «آروس» في «وادي أوردوس» في وسط منغوليا الحالية في شهور الشتاء من سنة ١٩٧٢م، قبور تخص الهون، بداخلها ميراث حضاري من الذهب والفضة. ومن بين هذه الحاجيات الذهبية تاج من الذهب، حفر فوق طرفه العلوي صورة صقر كامل من الذهب. ويحيط بالصقر من جانبي التاج نفسه ذئبان يشاهدان حملين يتصارعان، والصقر في وضع استعداد للطيران. وطبقاً لرأي الأثريين الصينيين فإن هذا التاج يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وتبين هذه التصاوير الموجودة على هذا التاج الذهبي، حب الهون للذئب بدرجة كبيرة، كما تبين أنهم عملوا بالتعدين أيضاً قبل الميلاد بألف عام. ولاسيما أنه في «ملحمة الأوغوز» يقال أن ذئباً أغبر أرشده إلى الطريق خلال الحملات التي شنها نحو الغرب كما يرد أنه تكلم مع أوغوزخان كما يتكلم البشر، فيقال:

«انسحب الأويغور إلى داخل أحد الجبال بعد أن انهزموا أمام العدو في احدى الحروب، ولم يتمكنوا من العثور على طريق للخروج وشارفوا على الهلاك، فرأوا ذئباً ظهر فجأة في الجبل وأمر سلطان الأويغور رجاله بالسير وراء الذئب. وبعد أن وصل الذئب إلى عمق الجبل دخل مغارة كبيرة، فانتظروا أمام المغارة يترقبون خروجه ولكن الذئب لم يخرج، وبعد أن قطع الجنود طريقاً طويلاً في المغارة وصلوا إلى الطرف الآخرمنها، وظهرت أمامهم ساحة جميلة مغطاه بالعشب الأخضر ماؤها غزير، وبها أنواع كثيرة جداً من الطيور، وتقف فيها الثيران والغزلان تداعب بعضها بعضا. فعادوا على الفور وقصوا ما رأوه على أوغورخان، فتحير الأويغور وفرحوا بسماع هذا الخبر، وبعد ذلك مروا من المغارة التي مر منها الذئب ووصلوا إلى ساحة واسعة وجميلة ونجوا من الخطر».

واعتباراً من هذا التاريخ اعتبر الأويغور الذئب مقدساً وعبدوه.

وهناك عدة روايات فى كتب تاريخ الصين القديمة تتعلق باتخاذ أجدادنا من الذئب طوطما وسنقدم هنا بعض النماذج من الروايات المشار إليها:

فى زمن ما كان لسلطان الهون إبنتان جميلتان، وكانت الفتاتان جميلتين لدرجة أن السلطان لم يرغب فى تزويجهما لأحد من البشر، وقرر أن يزوجهما لإله. وحتى يبعد ابنتيه عن البشر، فقد أمر ببناء قلعه عالية فى مكان لم تطأه قدم انسان فى منطقة شمالية من دولته وأسكن إبنتية هناك. وبعد أن مرت عدة سنوات أرادت الأم أن ترى إبنتيها، ولكن السلطان أفهمها أنه سيكون من الخطأ أن يرى الناس إبنتيه ولم يأذن لها. وفيما بعد ظهر ذئب بجوار القلعة، وحفر أسفل سور القلعة واتخذ من ذلك المكان مأوى له، وخرجت صغراهما من القلعة وأرادت الزواج من الذئب لكن الأخت الكبرى قالت لها : «إن الذئب حيوان فكيف ستتزوجين من حيوان؟ وإذا فعلت ذلك فستكونين قد لوثت شرف أجدادنا»، أما هى فقالت: «إن هذا ليس ذئباً، إنه إله متخف فى شكل ذئب» ونزلت إلى أسفل وتزوجت من الذئب وولدت أطفالاً، وبمرور الزمن إزداد عدد الأطفال وأطلق على أحفادها «أصحاب العجلات العالية» وهكذا ظهر الأويغور إلى الوجود[٢٣].

وفي رواية أخرى مشابهة لهذه تزوجت ابنتا سلطان الهون من ذئبين جاءا فى صورة إلهين ويروى أنهما ولدتا أقوام «أون أويغور» و«طقوز أوغوز» أى «الأويغور العشرة» و«الأوغوز التسعة».

وفيما يلى رواية أخرى:

«الأتراك هم قبيلة من الهون، ولقبهم الأصلي «أسينا». فى البداية كانوا قبيلة مستقلة عن الهون، ثم تعرضوا لهجوم دولة مجاورة ابادت كل القبيلة بالسيوف حتى وصلوا إلى طفل فى العاشرة من عمره، فلما رأى جنود العدو أن الولد صغير جداً لم تطاوعهم قلوبهم على قتله،

وفـى النهايـة قطعـوا رجليـه وألقـوه فـى مسـتنقع مغطـى بالعشـب، وكانـت بداخـل المسـتنقع ذئبـة فربـت الطفـل علـى اللحـم وهكـذا ترعـرع الطفـل وكبـر وقـام بمعاشـرة الذئبـة فحملـت منـه، فلمـا علـم ملـك الدولـة المجـاورة أن الطفـل مـا زال حيـاً أرسـل رجالـه مـرة أخـرى لقتلـه، فلمـا رأى الرجـال الذئبـة بجانـب الشـاب أرادوا قتلهـا أيضـاً وبنـاء علـى ذلـك هربـت الذئبـة إلـى جبـل فـى شـمال دولـة قاويجانـج (طورفـان) واختبـأت، وكانـت هنـاك مغـارة فـى الجبـل، ومـن داخـل المغـارة يمتـد واد متسـع جـداً يكتسـى بالعشـب، وكان الـوادى الـذى يتسـع للمئـات محاطـاً بالجبـال، فاختبـأت الذئبـة فـى الجبـال، وهنـاك ولـدت عشـرة أولاد فلمـا كبـر الأطفـال خرجـوا مـن المغـارة وتزوجـوا بنسـاء مـن خـارج (المغـارة) فولـدن أطفـالاً كثيـرة العـدد واتخـذت كل قبيلـة لهـا اسـماً أصليـاً واتخـذت إحداهـن لهـا اسـم أسـينا وتزايـد عـدد أبنائهـا وأبنـاء أبنائهـا حتـى أصبحـوا مئـات مـن العائـلات.

وبعـد عـدة أجيـال، صـاروا تابعيـن لــ«لأوار»، ثـم خرجـوا مـن المغـارة ليقومـوا بخدمتهـم وبـدأوا فـى العيـش فـى السـفوح الجنوبيـة لجبـال «آلطاي» وعملـوا فـى خدمـة الأوار كحداديـن مهـرة»[٢٤].

وهناك رواية أخرى تقول:

«إن أجـداد التـرك ينحـدرون مـن أقـوام الصاقـا الذيـن عاشـوا شـمال أقـوام الهـون. وكان زعيـم القبيلـة «هـو آيانـج بـو» (آيابـك) فـى السـابعة عشـرة مـن عمـره، وكان اسـم أحـد إخوتـه الذيـن ولدتهـم الذئبـة «إيجـي ينشـوتو». وكان كل الإخـوة وآيانـج بـو وإخوتـه قـد ولـدوا ناقصـى الأعضـاء، ولهذا السـبب تعرضـت دولهـم فـى النهايـة للعـدوان مـن الآخريـن وانمحـت. ولكـن مَلَـكا لمـس «إيجـي نيشـوتو» لمسـة، وبهـا أكسـبه مهـارة، فـكان يمكنـه اسـقاط المطـر إرسـال الريـح، وتـزوج مـن امرأتيـن. وطبقـاً للروايـة كانـت إحـدى النسـاء بنتـا لإلهـة الصيـف والأخـرى بنتـا لآلهـة الشـتاء وولـدت إحداهمـا أربعـة أطفـال ذكـور، وكان واحـد مـن الأولاد قـد تحـول إلـى أوزة بيضـاء، وكـون الآخـر دولـة فـى الأراضـى الواقعـة بيـن «آفـو» (آباقـان) ونهـر «قامـا» (اولوكـم) وأطلـق علـى الدولـة (كـي قـو) قيرغيـز، وحكـم الابـن الثالـث عنـد

شـاطئ نهـر (ينسـى) أمـا الرابـع فعـاش علـى سـفح جبـل «شـيانجوجي» (غـرب صايـان) وكان الولـد أكبـر الأطفـال الأربعـة، وكانـت البطـون الأخـرى لقبيلـة «آيانـج بـو» تعيـش على قمـة هـذا الجبـل، وبسـبب بـرودة الجـو فـى تلـك الأماكـن، كان أكبـر الإخـوة يوقـد النـار لتدفئـة أفـراد القبيلـة والإبقـاء عليهـم أحيـاء، وهكـذا تمكنـوا مـن الاسـتمرار فـى الحيـاة، وعيـن أكبـر الإخوة زعيمـاً وأطلقـوا عليـه اسـم (تـرك)[٢٥].

ولأن أجدادنـا عاشـوا بوصفهـم جيرانـاً للتورانييـن والصينييـن، فقـد حفظت الحوليـات الصينيـة القديمـة أكثـر الروايـات المتعلقـة بأصولهـم. وكان سـفراء وتجـار الأسـر الحاكمـة التـى كانـت تحكـم الصيـن، يذهبـون فـى كل عـام إلـى الأراضي التـى يعيـش فيهـا الهـون ويتعرفـون على طـرز حياتهـم هنـاك وعلـى آدابهـم وفنونهـم وحكاياتهـم الشـعبية، وعندمـا يعـودون إلـى بلادهـم، يقدمـون إلـى حكامهـم تقريـرا بـكل هـذا.

وإذا لـم نأخـذ بعيـن الاعتبـار الفـروق الصغيـرة التـى بيـن الروايـات السـالفة فإنهـا تبـدو لنـا متشـابهة بشـكل عـام. فبينمـا يظهـر الذئـب كأب فـى الأسـطورة المتعلقـة بأصـل الأويغـور فإنـه يظهـر كأم فـى الروايـة المتعلقـة بأصـل الأتـراك، وهـذا التشـابه وهـذه الفـروق تكمـل النواقـص فـى كل منهـا.

إن أجدادنـا فـى هـذه الروايـات يربطـون أصولهـم بمصـدر إلهـي عـن طريـق إظهـار الذئـب ليـس كحيـوان بـل كإلـه متخـف فـى شـكل ذئـب. وهذه الروايـات ترجـع إلـى عهـد القرابـة الأبويـة والقرابـة الأموميـة بمجتمـع الهـون البدائـي. واسـتخدام اسـم أسـينا [آشـينا] الـذى هـو اسـم أم الأتـراك كإسـم قبيلـة، لهـو دليـل علـى ذلـك. وعندمـا شـيد الأتـراك والأويغـور دولهم،كانـت الرايـات مـن القمـاش الأزرق المربـع، ورأس الذئـب الذهبـي الـذى ينظـر ناحية الشـرق تتخـذ مكانهـا فـى وسـطها تمامـاً، وكان الأتـراك والأويغـور يطلقـون علـى حـراس القصـر مـن الأتـراك والأويغـور «ذئبـا».

وكمـا شـاهدنا فـإن أجدادنـا اتخـذوا مـن الذئـب ربـاً مُخَلِّصـاً (ملحمـة الأوغـوز، الروايـات الأويغوريـة) وربـاً بذاتـه (حوليـه أسـرة وي، بـاب أصحـاب العربـات ذات العجـلات العاليـة) والإلـه الأم (حوليـه أسـره جـو، بـاب الأتـراك)

وكذلك اتخذوه تميمة، والروايات المتعلقة بإتخاذ الذئب تميمة تثبت علاقة الأخوة بين الهون والترك والأويغور والقيرغيز.

الوثائق التاريخية

تحتوى الحوليات الصينية القديمة وآثار أورخون معلومات ذات قيمة كبيرة عن نشأة أجدادنا.

يذكر المؤرخ الصينى «وي – سهو» الذى عاش فى القرن السادس ما يلى:

«ينحدر «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» (الأويغور الشرقيون) من نسل التورا الذين كانوا فى العصور القديمة. وكان يقال عنهم فيما قبل «التورا». لكن الشماليين (الأسر الحاكمة الشمالية) بدأوا يطلقون عليهم اسم «أصحاب العربات ذات العجلات العالية». وبالرغم من الفروق البسيطة فإن لغتهم هى نفس لغة الهون، وأجدادهم هم أحفاد «الهون»[٢٦].

لقد كان الأويغور الشرقيون يستخدمون العربات ذات العجلات العالية تلاؤماً مع الظروف الطبيعية للمنطقة التى عاشوا فيها، ولهذا السبب أطلق عليهم المؤرخين الصينين الذين عاشوا فى القرن السادس،اسم «أصحاب العربات ذات العجلات العالية».

إن الحروب الداخلية التى وقعت فى التسعينيات من الميلاد، انتهت بهزيمة قطاع كبير من الهون الشماليين (والغربيين)، فاستغلت الشعوب المعادية لهم هذه الفرصة وشنت عليهم الهجمات، مما دفعهم إلى الارتحال من سهول منغوليا الحالية غربا إلى آسيا الوسطى. وعاشوا فى الأراضى التى تمتد من «باركول» حتى «بحيرة بالقاش» حتى سنة مائة وخمسين ميلادية. لكنهم ارتحلوا إلى غرب آسيا فى عهد «طانشقوي» امبراطور «السيانبي» (كان شي هواي) ١٤٨ – ١٨١م، ربما بسبب توجسهم منهم. وبالرغم من ذلك فقد استوطن قسم منهم فى سهول «تكس

وكونس» الحالية، وكونوا دولة حافظت على وجودها من القرن الثانى الميلادي حتى القرن الخامس سميت بدولة «صيبوار» (سابير). ويقول المؤرخ الصينى «ليان شو» الذى عاش فى القرن العاشر فى دراسته لشعب «صيبوار» : «إن عادات شعب صيبوار وتقاليده ولغاته تتطابق مع مثيلاتها لدى «أصحاب العربات ذات العجلات العالية»[٢٧]. أما المؤرخ الصينى «ليوسونج» الذى عاش فى القرن العاشر أيضاً فيقول: «إن أجداد الأويغور هم أحفاد الهون وكانوا فى عهد «أسرة وي» الحاكمة ٣٨٦ - ٥٣٤م يسمون شعب تورا، لم تكن قامتهم زائدة الطولٍ ولكنهم أقوياء جداً وشجعان، وكانوا يرتحلون فى عربات ذات عجلات عالية، وكانوا تحت حكم الأتراك، ثم أطلق عليهم فيما بعد اسم شعب تورا[٢٨].

أما «قويانج سيو» المؤرخ الصينى الذى عاش فى القرن الحادي عشر فيقول ما يلى: «أجداد الأويغور هم الهون، إنهم يرتحلون على وجه العموم على «عربات ذات عجلات عالية». وفى عهد «يَن وي» كانت بداية اطلاق اسم شعب «تورا» على أصحاب العربات ذات العجلات العالية(قاو قوي أو جي له)[٢٩].

ويمدنا «وي-جينيج» (٥٨٠ - ٦٤٣) وهو من مؤرخي الصين العظماء فى القرن السابع، بمعلومات أكثر تفصيلاً عن الوضع العام لشعب تورا فى أواخر القرن السادس حيث يقول: «إن أقوام «تورا» هم أجداد الهون، ولهم عدة قبائل وبطون، وقد استقروا فى سفوح الجبال التى تبدأ من شرق البحر الغربي (بحر الخزر)»[٣٠].

إن شعب تورا الذى نتحدث عنه فى هذا المقام كان يعيش فى الأراضى الممتدة من بحيرة البايقال فى الشرق حتى البحر الأسود فى الغرب.

أما فى نقش «بيلكة سلطان» فيذكر:

«كان «الطقوز أوغوز» شعبى، فلما أصبح العالم فوضى ووقع الحسد بينهم صاروا أعداءا لي».[٣١] و«الطقوز أوغوز» موضوع الحديث هنا ليسوا

سوى الأويغور الشرقيين. وفى عهد سلطنة الأويغور، كان الأويغور الشرقيون يتشكلون من الـ «أون أويغور» و«الطقوز أوغوز». وهذه المعلومات التاريخية التى ذكرناها هى دليل على أن الأويغور والهون والأتراك ينحدرون من أصل عرقي واحد.

➤ الأدلة الأثرية

اكتشفت قبور وأدلة تاريخية تخص أجدادنا فى جبال «آلطاي» وفي السفوح الشمالية والجنوبية من جبال «طانري» وبالقرب من «شيآن».

وقبور الهون والأتراك الموجودة فى «ألطاى بازيريق» ترجع لعصور ما قبل الميلاد. ويستشف من الجثامين الموجودة فى القبور التى تعود لأزمنة سحيقة أن الهون والأتراك كانوا ذوى مناكب عريضة وقامة طويلة وبنية قوية وأنف مستقيم ووجه طويل وأبيض. وقد دفنت هذه الجثامين في أماكن باردة عالية فى جبال آلطاي. وقبل القيام بدفن هذه الجثامين، أتوا بالحجارة الصلبة الموجودة فى مواضع باردة وعالية من الجبال، وبنوا قبوراً من الحجارة الطبيعية تشبه القصور وصقلوا جدرانها بطريقة جميلة وغطوها بالخشب المسطح ودفنوا بها الجثامين التى وضعوها داخل تابوت خشبي، وأغلقوا باب القبر بإحكام لمنع تسرب مياه الثلوج التى تذوب من القمم العالية صيفاً، وهكذا حفظت هذه الجثامين صيفاً وشتاء دون أن تفسد على الإطلاق بسبب برودة الجو.

وتثبت الوثائق الصينية التاريخية القديمة أيضاً أن «الهون» كانوا ذوى مناكب عريضة وقامات طويلة.

هُزم الهون فى الحرب التى وقعت بينهم وبين الصينيين سنة ١٢١ ق.م وتم جلب أحد أمراء الهون إلى قصر أسرة هان الحاكمة، وأطلق «هان فوتي» على أمير الهون اسم «جنيج من تي»، وكلفه بمهمة تربية خيول الحرب. كان طول الأمير الهوني ثمانية جي واثنان سونج وهى تقابل فى زماننا هذا مترين وعشرة سنتيمترات[٣٢]، ويتطابق طول

القامـة الموضـح هنـا مـع طـول قامـة الجثاميـن الموجـودة فـى مقابـر الهـون الموجـودة فـى جبـال «آلطـاي»، وتوضـح هـذه المعلومـات أن الهـون كانـوا ذوى مناكـب عريضـة وقامـات طويلـة.

لقـد أطلـق المـؤرخ الرومانـي الشـرقى «بروسـكوبيوس» الـذى عـاش فـى القـرن السـادس الميـلادي علـى أقـوام الهـون التـى عاشـت فـى شـرق بحيـرة آرال، اسـم الهـون البيـض بسـبب بيـاض وجوههـم.

وفـى دراسـة أجراهـا مركـز الأبحـاث الأثريـة بأكاديميـة العلـوم الصينيـة بيـن عامـي ١٩٥٥ – ١٩٥٧ فـى مـكان يدعـى «شـانج - لينـج - فـان» قريبـا مـن نهـر «سـي آن» الكائـن فـى إيالـة - «سانشـيى»، اكتشـفت مقبـرة خاصـة تـم التأكـد مـن أنهـا ترجـع إلـى عهـد «أسـرة هـان» الحاكمـة، وظهـرت بيـن الأشـياء الموضوعـة مـع الجثمـان داخـل المقبـرة لوحتـان مـن الصلـب تأخـذان شـكلاً عموديـاً مربعـاً صُـور فوقهـا رجـلان وحصانـان، وكان الشـخصان اللـذان فـى هـذه الصـورة واللـذان صـورا فـى وضـع المصارعـة وكل منهمـا يمسـك بخصـر الآخـر، ذوي بنيـة ضخمـة وشـعر طويـل وكل منهمـا يرتـدي سـروالا، وطبقـاً لـرأي الأثرييـن الصينييـن فهـؤلاء هـم سـفراء أرسـلهم الهـون إلـى «أسـرة هـان» الحاكمـة أو أنهـم معاونـو السـفراء، وهـذه اللوحـة تمدنـا بمعلومـات مـن ملابـس الهـون والمظهـر الخارجـي لهـم وشـكل شـعرهم إلـى آخـره.

فـى سـنة ١٩٧٢ اكتشـف الأثريـون بتركسـتان الشرقية(سـينكيانغ)* مقبـرة الأميـر الهونـي «قوتقـو پانتـاي»، الـذى كان واليـاً علـى طورفـان فـى القـرن الخامـس، وذلـك فـى مدفـن «أسـتانه» فـى ولايـة طورفان.فضـلا عـن ذلـك كانـت توجـد سـتة تماثيـل مـن الطيـن فـى قبـر «قوتقـو پانتـاي» الـذى مـات ودفـن سـنة ٤٤٥م، وعلـى الرغـم مـن أن التماثيـل كانـت تبـدو سـليمة، وكانـت التماثيـل ذات وجـوه طويلـة وأنـف مسـتقيم وشـعر طويـل، ومـن المحتمـل أن صانعـي هـذه التماثيـل قـد صنعوهـا بالتطابـق مـع مظهرهـم الطبيعـى. إن أجدادنـا كانـوا ذوو وجـوه طويلـة، وأنـف مسـتقيم وشـعر طويـل وقصيـر الرقبـة علـى الصـورة التـى شـرحناها بعاليـه.

ويعـرف مـن لديهـم معلومـات تاريخيـة قليلـة أن قوتقـو پانتـاي «كان ابـن «قوتقـو مونسـو» (٣٩٧م - ٤٦٠م) حاكـم إمـارة الهـون بـ«قانصـو»، وكانـت إمـارة هـون «قانصـو» التـى عاشـت أقـوى عصورهـا فـى عهـد «قوتقـو مونسـو»، تضـم قطاعـاً مـن «هـوس وتسـي» وجـزء مـن «كوكنـور» وقطاعـاً مـن جنـوب تركسـتان الشـرقية (داخـل طورفـان) حتـى أن «قوتقـو پانتـاي» عيـن واليـا علـى طورفـان.

إن هـذه الإكتشـافات الأثريـة التـى ذكرناهـا تتطابـق مـع المظهـر الخارجي لجثاميـن النسـاء المتحصـل عليهـا فـى «لـوب نـور» و«قمـول» وكذلـك مـع الشـكل الجسـماني للأويغـور الشـرقيين فـى منغوليـا وقيرغيـز ينيسـي.

لقـد كان الأويغـور الشـرقيون ذوي وجـوه بيضـاء وأنـف مسـتقيم وشـعر بنـي، وكان قيرغيـز ينيـس لهـم نفـس الصفـات الجسـمانية[٣٣].

وفيمـا يلـى بيـت مـن الشـعر للشـاعر الصينـى «لـي لـو وانـج» الـذى عـاش فـى القـرن الثامـن :

يرقص أويغور «ليانج جو» بسعادة

أنوفهم المستقيمة ووجوههم البيضاء تشبه حجر اليشم[٣٤]

➤ الموسيقى والرسوم الصخرية

لاحـظ الموسـيقيان الصينيـان اللـذان يدعيـان «ليويـا - وسـونج» و«جانـج ليـو» وجـه الشـبه بيـن الأغانـي الكلاسـيكية للأويغـور الصُفـر الذيـن يعيشـون فـي قانصـو وبيـن الموسـيقى المجريـة الكلاسـيكية، وكتبـا مقـالات كثيـرة جـداً فـى هـذا الموضـوع، وقـد جذبـت المقالـة العلميـة التـى كتبهـا «ليويـا وسـونج» علـى وجـه الخصـوص، اهتمـام الموسـيقيين الصينييـن والأجانـب.

درس «ليويـا وسـونج» الموسـيقى فـى أحدالمعاهـد فـى الصيـن، أمـا «جانـج ليـو» فقـد درس فـى المجـر، وبينمـا كان هـذان الموسـيقيان يقومـان بأبحاثهما الموسـيقية فـى المناطـق التـى عـاش فيهـا الأويغـور الصُفـر فـى «قانصـو»، وبعـد أن قارنـا البنيـة الأصليـة لهـذه الموسـيقى اكتشـفا أن النغمـات الصوتيـة

فـي الموسـيقى الكلاسـيكية المجريـة تشـبه النغمـات الصوتيـة فـي الموسـيقى الكلاسـيكية فـي تلـك المناطـق.

وفضـلا عـن قيامهمـا بعمـل مقارنـة بيـن البنـاء الأولـى لهـذه الموسـيقى، فقـد درسـا الموضـوع مـن زاويـة التاريـخ والإثنولوجيـا وعلـم اللغـة وحسـب رأيهمـا فـإن شـعب تـورا هـم أجدادالأويغـور الصفـر وممثلـى الشـعب الـذى عـاش مـع الهـون فـى نفـس المنطقـة آنـذاك. وكانـت لغاتهـم قريبـة مـن بعضهـا، واللغـة التركيـة تنتسـب إلـى مجموعـة آلطـاي اللغويـة، كمـا أن قسـما مـن الهـون هاجـر إلـى أوروبـا فـى القـرن الأول الميـلادي. أمـا أجـداد الأويغـور الصفـر الحالييـن فقـد اسـتقروا بممـر «خيشـى» فـى (قانصـو) فـى القـرن الرابـع، وكمـا حافـظ الأويغـور الصفـر علـى الموسـيقى الشـعبية لشـعب تـورا، فـإن قبائـل الهـون المهاجـرة إلـى الغـرب نقلـت إلـى المجـر موسـيقى الهـون وأحيوهـا هنـاك حتـى يومنـا هـذا. وهكـذا فقـد أطلـق اسـم «منطقـة الموسـيقى «ذات النغمـات الخمـس» علـى المنطقـة الواسـعة التـى عـاش فيهـا «الأويغـور الصفـر» الحاليـون، والممتـدةً مـن منغوليـا حتـى البحـر الأسـود فـى الشـرق بمـا فيهـا بحـر الخـزر وآسـيا الوسـطى، ومـن هنـا ظهـر التشـابه بيـن هـذه الأغانـى الشـعبية فـى الشـرق والغـرب لكونهمـا جـاءا مـن مصـدر واحد[٣٥].

كان لنظريـة «ليوياوسـونج» و«جانـج ليـو» صـدى كبيـراً لـدى العلمـاء فـى المجـر وأمريـكا وكنـدا والأرجنتـن وفـى دول أخـرى وقـد اسـتقبل هـؤلاء العلمـاء التأثيـر الثقافـي بيـن الشـرق والغـرب بوصفـه اكتشـافا هائـلا.

لقـد توصـل أثريـو تركسـتان الشـرقية (سـينكيانغ) إلـى اكتشـافات فـى غايـة الأهميـة منـذ عـدة أعـوام نتيجـة للأبحـاث التـى قامـوا بهـا فـى المناطـق الشـمالية والجنوبيـة مـن جبـال طانـري، وتحتـل الطبقـة الصخريـة الموجـودة علـى سـاحل نهـر مولجـر الـذي يصـب بيـن مضيقـى «قـره قـوروم» و«آلتـون طـاغ» الجبلييـن، تحتـل موقعـاً هامـاً، ومـن بيـن هـذه الرسـوم تحتـل الرسـوم الحيوانيـة (مثـل الحصـان والجمـل والثـور) ورسـوم البشر(البشـر ذوو الأقنعـة) الذيـن يرقصـون ويقومـون بالصيـد، والإنسـان ذو الذنـب، تحتـل أماكنهـا وإلـى جانبهـا صـور أخـرى مثـل الصيـد ومناظـر الحـرب وهـذه الرسـوم الصخريـة

شاهد على أن أجدادنا عاشوا فى وادي تاريم فى الماضى البعيد.

هناك أسباب كثيرة جداً وراء التدقيق فى دراستنا للأشكال الصخرية فى وادي مولجر، ويأتي على رأس هذه الأسباب أنها تظهر طرز حياة الشعوب البدائية.

ويجذب انتباهنا من بين هذه الرسوم البشر المقنعون والبشر ذوى الذنب على وجه الخصوص، فقد كان أجدادنا الذين عاشوا على سواحل منطقة تاريم فى الماضي البعيد لا يعملون بالزراعة والصناعة فقط، بل كانوا يعملون بالصيد أيضاً، وتبين تصاوير الأفراد ذوى الذئب وذوى الأقنعة أنهم حينما يخرجون للصيد كانوا يرتدون أذنابا وأقنعة حتى يخفوا أشكالهم البشرية. إن أجدادنا الذين عاشوا فى تلك الفترة استخدموا كافة اساليب الصيد، فأحياناً كانوا يصطادون بالسهم وأحياناً يحاصرون الصيد ويوقعون به فى الشرك، وقاموا بالصيد أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات، وأثناء الصيد كانوا يتخفون أحياناً فى صورة الحيوان، وعن طريق تقليد أصوات الحيوانات أيضاً كانوا يصطادون الغزلان والحملان والحمام عن طريق تدريب الطيور الجارحة. إن تصاوير الكلاب الموجودة على التصاوير الصخرية هى على الوجه الأرجح لكلاب الصيد. وهناك مزية أخرى تجذب الإنتباه فى هذه التصاوير ألا وهي المظهر الحى والسعادة البادية على الأشخاص الذين يرقصون. ولقد كان الناس فى العصور البدائية يظهرون سعادتهم عن طريق الرقص، فكانوا يرقصون على أثر صيد جيد وعلى إثر انتصار تحقق فى الحرب؛ وكذلك أثناء حفل العرس الذى كان يقام بشكل بدائي. وتحتل أيضاً تصاوير الحرب مكانها بين الرسوم، وكانت تحدث صدامات للإستيلاء على منطقة بنفس قدر الصدامات التى كانت تسببها اللغة والعادات والتقاليد وعلاقات القرابة، ومناظر الحرب المنقوشة على الصخور على ساحلي نهر «مولجر»، من المحتمل أنها اتخذت من هذه الصراعات موضوعاً.

وهناك وجوه للتشابه بين التصاوير الصخرية الموجودة فى منغوليا فى جبل هانجاي، وفى منغوليا الداخلية «جبل جوغاي»، وجبال الآلطاي

وشمال شرق جبال طانري والمكتشفات الصخرية الموجودة فى جبال قره قوروم وجنوب جبال «طانري» فى السنوات الأخيرة، وكذلك بين الرسوم الصخرية المتحصل عليها فى آسياالوسطى ووجوه الشبه هذه دليل على أن أجدادنا المشتركين عاشوا فى المناطق التى تحدثنا عنها فيما سبق.

إن التصاوير الصخرية لها قيمة تاريخية كبيرة فى إمدادنا بمعلومات عن موضوعات مهمة مثل طرز حياة أجدادنا وأصلهم العرقى وحضارتهم فى عهد المجتمع البدائى.

وبالنظر إلى الرسوم الحجرية التي على طرفي نهر «مولچر»وهى فرع هام من فروع الفن في الماضي السحيق، نندهش لما تكشفه هذه الرسوم الحجرية عن العصور التي عاش فيها أجدادنا ونمط الحياة الأمومي (أى القائم على عائلة الأم)، ونرى مستوى التطور الواضح. وهذه الرسوم الحجرية المنقوشة على الصخور عمرها التاريخي ٨٠٠٠ عام تقريباً. وتثبت أن الأويغورينحدرون من نفس الأصل العرقي لشعوب الترك والصاقا والهون وتورا الذين عاشوا في سالف الزمان في مناطق مختلفة من آسيا الوسطى وجبال «آلطاي» وجبال «چوغاي» وهضاب «أوردوس» وأودية «كورولون» [كيرولين]و «أورخون» و«سلانجا» وسهول سيبريا الجنوبية.

إن الحضارة التي أسسها الأتراك والصاقا والهون والطوريين كانت حضارة قومية إلى حد ما وقد أثبت العلم الحديث صحة هذا الرأي.

امتزج الأويغور طيلة تاريخهم مع الشعوب التي من أصل مغولي مثل شعوب «سيانپى و«آوار» و«قيطان» (من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي)، أما فيما بين القرن الثالث عشر والقرن السابع عشر فقد امتزجوا على نحو واضح بالمغول أنفسهم واستوعبوهم ولكنهم حافظوا على مظاهر العرق الأبيض الخاصة بأجدادهم وهى (الأنف الشامخ والعين الزرقاء والشعر الأصفر).

إن الأتـراك و«الصاقـا» و«القانلـي» و«الأوسـون» وشـعب «ياوچـى» (دا - يوچـى) وشـعب «تـورا» و«الهـون» الذيـن ينتمـون لنفس الأصل مـن حيـث رابطـة الـدم واللغـة والعـادات والتقاليـد، يشـكلون الشـعوب التركيـة المتقاربـة فيمـا بينهـا والتـي تتحـدث اللغـة التركيـة والتـي امتزجـت بدرجـة واضحـة بالشـعوب المنغوليـة فـي الشـرق مـن ناحيـة، وبالشـعوب ذات الأصل «الآري» التـي تعيـش فـي وسـط وغـرب آسـيا مـن ناحيـة أخـرى. وتلـك الشـعوب هـى عبـارة عـن القيرغيـز الذيـن ينتمـون لقبائـل «ينيسـاي» و«الياقـوت» الذيـن بجـوار «لينـا» فـي شـرق سـيبريا وشـعوب «طـووا» و«بوريـات» التـي تعيـش فـي جنـوب بحيـرة بايقـال، وهـى أيضاعبـارة عـن شـعوب «صـالار وصـاري أويغـور» فـي «قانصـو»، والأويغـور فـي شـرق التركسـتان، وشـعوب «چـوواش والمولـداو والتركمـان والتاتـار والباشـقورت والأوزبـك والقيرغيـز والقـازاق» الذيـن فـي غـرب تركسـتان، وعبـارة أيضـا عـن شـعوب «آغـا أوغـوز» التـي فـي أوكرانيـا، و«الچركـس» فـي القوقـاز، وتاتـار داغسـتان، والأذربيجانييـن والآوار وآغـا أوغـوز والتركمـان والأذارييـن فـي فـارس، والمغـول والتركمـان والأوزبـك فـي أفغانسـتان، والتركمـان فـي العـراق، والأتـراك فـي تركيـا.

هـذه الشـعوب التركيـة التـي عددنـا أسـماءها تعيـش فـي منطقـة جغرافية واسـعة تمتـد مـن شـرق آسـيا إلـى غربهـا وحتـى جنوبهـا. وفـي أيامنـا هـذه نجـد أغلبيـة الشـعب التركـي مسـلم سـني. ويتجـاوز تعـداده ١٥٠ مليـون نسـمة[٣٦]. ولغـة الشـعب التركـي، وفقـاً للتصنيـف اللغـوي فـي أيامنـا هـذه تنتمـي إلـى أسـرةاللغات آلطائيـة، أمـا مـن ناحيـة العـرق فهـم ينتسـبون إلـى الجنـس التورانـي (الهـون - التـرك) الأبيـض.

الفصل الثالث: الأويغور قبل سلطنة أورخون

الهون والأويغور

لقد لعبت أقوام «الهون» أجداد الأويغور المباشرين، دوراً مهماً في تشكل الشعوب التركية الأخرى في أقدم العصور.

إن أقوام الهون خلال عصور طويلة تقدر بألفي عام بدءاً من سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد حتى أواخر القرن الخامس الميلادي، تركت في آسيا الوسطى وأوروبا آثاراً مهمة خالدة في ذاكرة البشرية. إن أقوام الهون الذين عاشوا جيرانا لدولة الصين في عهد الأسر الحاكمة التي تأسست طوال تاريخ الصين وهي أسر «شيا» (٢١٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)، «ين» (١٦٠٠- ١١٠٠ ق.م) «جو» (١١٠٠ - ٢٥٦ ق.م) «تسين» (٢٢١ ق.م - ٢٠٧ ق.م)، «هان» (٢٠٧ ق.م - ٢٢٠ م)، شنوا هجمات عديدة على السهول الوسطى، وسببوا لها أضراراً جسيمة، وخلاف ذلك فإن الهون ساهموا في تطور اقتصاد الصين وثقافتها، ولهذا فإن ما قام به الهون في آسيا يشغل مكانة مهمة في تاريخ الصين.

اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد وعلى وجه الخصوص في القرن الثالث، اتخذ«الهون» مكانهم على ساحة التاريخ كقوة سياسية كبيرة، إذ كونوا امبراطورية الهون، ومثلوا خطراً كبيراً على الصين. إن امبراطورية الهون الكبرى التي حافظت على وجودها حوالي خمسمائة عام، ومن بعدها دولة «الهون» الغربيين التي استمر حكمها ٣٢٨ عاماً، وكذلك إمبراطورية «هون أوروبا» الذين حافظوا على وجودهم خمسة وتسعين عاماً وكذلك أقوام الهون، كلها تركت آثاراً لا تمحى من تاريخ آسيا وأوروبا.

لقد ورد ذكر الهون بأسماء مختلفة فى فترة تطور الصين المبكرة، لكنهم ذكروا فى فترة الحكام المحاربين باسم الهون (الهيونغ – نو) فقط.

لقد روى المؤرخ الصينى «سيماجين» (المولود ١٤٥ ق.م تقريباً) أقدم معلومات عن الهون، وروى الأحداث التى وقعت فى عهد الإمبراطور «هوانجٍ تي» الذى طردهم نحو الشمال، ويَعتقد أن «هوانج تي» كان حاكماً أسطورياً عاش فى الصين فى فترة المجتمع البدائي، ويحكي أنه عاش قبل خسة آلاف عام من هذا. ونتبين من هذه المعلومات أن «الهون» عاشوا منذ القدم جيراناً للصينيين، وأنهم كانوا يمثلون عدواً خطيراً على جيرانهم.

كان الهون - الذين عاشوا منذ أقدم العصور بجوار «نهر أورخون» وفى المناطق الجنوبية والشمالية من «جبال جوغاي» (ين شان) وعلى سفوح «جبال الآلطاي» و«طاني». وأيضا الأويغور والشعوب التركية الأخرى، كانوا يعتنقون الشامانية، وكما هو معروف فإن الشامانية عقيدة ذات آلهة كثيرة، وإله الشمس هو أعظم الآلهة فى هذه العقيدة و منه جاء اسم «كُون» kun، قد طرحت وجهة نظر مؤداها إن لفظ «كُون» kun قد صار لفظا هونياً، إلا أنها لم تلق القبول.

إن البشر فى فترات عدة على مدار التاريخ، اضطروا إلى العيش مجتمعين فى فترة المجتمع البدائى بسبب بعض صعوبات مثل صيد الحيوانات الكبيرة ؛ وقطع الأشجار فى الغابات وزراعة الحقول. وكان هذا النوع من المجتمعات البدائية يتكون على وجه العموم من عدة مئات من الأشخاص، يغلب عليها نظام العمل الجماعي، فهم شركاء فى استخدام الآلات، وفى استهلاك المنتجات. ثم تتلاقى المجتمعات المتجاورة التى تتحدث نفس اللغة فتتكون قبيلة. وكانت عاداتها وتقاليدها قريبة جداً من بعضها، ويدير القبيلة رؤساء يتم اختيارهم من قبل المجلس الذى يشكله أفراد القبيلة.

لقد عاش الناس فى صورة مجموعات وقبائل طوال عدة قرون

وانتقل الهون مثل الشعوب الأخرى من المجموعة إلى القبيلة ومن القبيلة إلى اتحاد القبائل وبعد أن عاشوا المراحل الواضحة للمجتمع البدائي كونوا القوة المسلحة التى كانت البنية الأساسية للدولة، وكانت القبائل فى تلك الفترة على وجه العموم تتحارب مع بعضها بهدف الإستيلاء على الأراضي اللازمة للصيد وتربية الحيوانات والزراعة وهكذا ظهر اتحاد القبائل وكان لرابطة الدم واللغة المشتركة وتشابه العادات والتقاليد العامل الأكبر فى تشكيله. وكانت القوات المسلحة التى تملكها هذه القبائل المتحالفة والتى تشكلت لحمايتها ضد جيرانها هى أكبر العوامل فى ظهور الدولة.

فى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد كانت هناك عداوة بين «الهون» الذين كانوا يمتلكون جيشاً خاصا بهم وبين «أسرة ين» الحاكمة، ودارت بينهما معارك استمرت ثلاثة أعوام فى عهد «قوتينج» حاكم «ين» (١٣٦٦ ق.م - ١٣٢٤ ق.م). وفى النهاية انهزم الهون[٣٧]، لكنهم استعادوا قوتهم فى عهد أسرة «جو» الحاكمة وهاجموا الصين مرة أخرى، حتى أجبروا شعب «جو» على الهجرة من أراضيهم فى القرن العاشر قبل الميلاد. وهكذا وصل شعب «جو» إلى «جو يو وان» التى كانت بها أراضى واسعة وخصبة تقع بالقرب من جبل «كي-شان» (القطاع الشمالي الشرقي من منطقة لي شان فى شانسى) واستقروا هناك حتى أنه يرد فى رباعية قديمة جداً تخص الصينيين:

لقد خرجنا من بيوتنا بلا مأوى
بسبب أقوام الهون
وهاجرنا بسبب خوفنا
بسبب أقوام الهون

وبالرغم من تفوق أقوام «جو» فى البداية فى الحرب الدامية التى وقعت بين الهون وأسرة جو الحاكمة سنة ٨٣٣ ق.م فى شمال نهر

«هوانج–هـو» إلا أن الهـون انتصـروا وأزالـوا «أسـرة جـو» الحاكمـة مـن الوجـود.

لقـد اعتمـد الهـون الذيـن حاربـوا سـوان وانـج حاكـم «جـو» (٨٢٧ - ٧٨٢ ق.م) علـى أسـوار «هاوجينـج» العاصمـة (الآن هـى فـى غـرب شِـآن) وفـى الحـرب التـى وقعـت بجـوار «سانشـى» أثنـاء الحركـة الانتقاميـة التـى بدأهـا «سـوان وانـج» ضـد الهـون فـى سـنة ٨٢٧ ق.م، انتحـر «جيـن قونـج» بعـد أن تمكـن الهـون مـن تشـتيت جيـش «جو»الـذى كان يقـوده.

تعرضـت السـهول الوسـطى لكـوارث طبيعيـة شـديدة فـى عهـد «يووانـج» مـن أسـرة «جـو» الحاكمـة (٧٨١ - ٧٧١ق.م) وجفت الأنهـار والينابيع، واصفرت الأشـجار والخضـرة وتشـققت الحقـول وأصابهـا البـوار مـن قلـة الميـاة، وأثنـاء تشـتت النـاس هنـا وهنـاك لينجـوا بأرواحهـم، وقعـت زلازل عنيفـة فـى سـنة (٧٧٩ ق. م) فـى الوديـان الواقعـة فـى مجـاري ميـاه العاصمـة «هاوجنـج» ونهـر «هوانـج هـو»، و«جـن» و«لويـي».

بعـد اعتـلاء «يووانـج» حاكـم الصيـن العـرش بثـلاث سـنوات، عشـق فتـاة تدعـى فوتيتـس وتزوجهـا، وأنجـب منهـا طفـلا أطلقـوا عليـه اسـم «بيفـو»، ورفـض «جويووانـج»، أن يكـون «يـي جـو» ابـن زوجتـه الكبـرى «سـين هو»وليااللعهـد، وعيـن «بيفـو» وليـاً للعهـد بـدلاً منـه. وبنـاء علـى ذلـك غضـب «يووانـج» والـد «سـين هـو «ولجـأ إلـى الهـون وحرضهـم علـى مهاجمـة شـعب«جو»، وأيقـن الهـون أن شـعب «جـو» فـى موقـف صعـب، فاعتـدوا علـى حـدود عاصمتهـم «هاوجنيـج» وقتلـوا «جويووانـج»، وأسـروا الأميرة «فوتتيسـى شـي»، وسـوّى الهـون «هاوجانـج» بـالأرض واحتلـوا «شانسـى»، وهكـذا انمحـى مـن التاريـخ ذكـر أسـرة «جـو» الحاكمـة التـى عاشـت مائتين وسـتين عامـاً. إلا أن «يينـج وانـج» وهـو مـن أمـراء «أسـرة جـو»، انسـحب إلـى مدينـة «لويانـج» مـع بعـض القبائـل، واتخـذ مـن ذلـك المـكان عاصمـة وأرسـى أسـاس أسـرة حاكمـة جديـدة هـى أسـرة «جـو» الشـرقية.

دخلـت أقـوام الهـون فـى القـرن السـابع قبـل الميـلاد مـن القطـاع الشـمالي لمحافظتـى «خوبـي» و«شـان سـي» الحاليتيـن، وتقدمـت نحـو الجنـوب وبـدأت فـى تهديـد «لويانـج»، لدرجـة أنهـم دخلـوا «لويانـج» مرتيـن

وطردوا «سيانج وانج» حاكم «أسرة جو» الحاكمة الشرقية ووصلوا بالدولة إلى نقطة الإنهيار.

بعد تأسيس «أسرة جو» الحاكمة، قويت الإمارات التابعة لها، واتحد قسم منها مع بعضه وانمحي القسم الآخر من ذاكرة التاريخ، وضعف قسم ثالث. ويطلق المؤرخون الصينيون على هذه الفترة «قون هو» (أى الصلحٍ العام) وفى هذه الفترة حافظت «أسرة جو» الحاكمة على وجودها اسماً فقط ولكنها فى الواقع كانت حكومة صورية.

ظهرت فى القرن الخامس قبل الميلاد فى الصين سبع إمارات لم تنقطع الحروب بينها حتى أطلق على هذه الفترة فى كتب تاريخ الصين «عصر الحكام المحاربين» (٤٧٥ - ٢٢١ ق.م).

ومن هذه الإمارات إمارة «چى» (فى ولاية شان تونغ) وإمارة «ين» (فى خبى) وإمارة «جاو» فى (شن سى) وإمارة «چين» فى شانسى وكانت فى وادى «هوانج هو»، وكانوا جميعا جيرانا للهون. أما الإمارات الثلاث المسماة «هان» و «فو» و«وى» فلم تكن على اتصال بالهون مباشرة، لأنها كانت فى وادى «يانج تسى» وبسبب ذلك كانت إمارات «چى» و «ين» و «جاو» و «چين» فقط عرضة لهجمات الهون المستمرة.

واستفاد الهون من الفرصة التى سنحت لهم فى عهد الحكام المحاربين، فقووا صفوفهم وجمعوا كل قواهم العسكرية فى برارى «أوردوس» والسفوح الجنوبية لجبال «چوغاى» ثم أخذوا فى شن هجماتهم على جيرانهم فى المناطق المجاورة.

وإزاء هذا الخطر بدأت إمارات «ين» و «چاو» و «چين» فى بناء الأسوار الشمالية، بهدف الاحتماء من هجمات الهون، إلا أنها لم تُجد نفعا.

فقد عبر فرسان الهون نهر «هوانج هو» فى عام ٣١٠ قبل الميلاد واحتلوا الأراضى الواقعة جنوب «أوردوس» (وهى ايكى جاو الواقعة وسط منغوليا) وتوغلوا من حدود إمارات «چين» و «چاو» و «ين» إلى المناطق الداخلية، ومنهم إمارة «چاو» التى أجدبت أراضيها بطول حدودها

الشـمالية بسـبب هجمـات الهـون المسـتمرة.

وفـى النهايـة نجح جيش «چـاو» المكـون مـن مائـة ألـف جنـدى تحت قيـادة «لـى مـو»، فـى توجيـه ضربـة لقبائـل الهـون فـى سـنة٢٦٥ قبـل الميـلاد، وبنـاء علـى ذلـك سـحب سـلطان الهـون (مجهـول الاسـم) جيشـه علـى الفـور إلـى الشـمال.

وفـى عـام ٢٢١ ق.م قضـى حاكـم الصيـن (يـن چنـج - چيـن شـيخوانج) علـى سـت إمـارات أخـرى، ووحَّـد الصيـن. وفـى عـام ٢٥ق.م وجـه نفـس الحاكـم جيشـا ضـد الهـون يتكـون مـن ثلاثمائـة ألـف رجـلا بقيـادة «منـج تيـان». وكان سـلطان الهـون «تومـان خـان» يسـتريح فـى ذلـك الحيـن فـى بـرارى «أوردوس» غيـر عالـم بالخطـر وانهـزم الهـون الذيـن لـم يتمكنـوا مـن التماسـك أمـام هجـوم جيـش الصيـن المباغـت ووجهـوا قطعانهـم وشـعبهم إلـى الهجـرة إلـى الشـمال. وبعـد أن اسـترد جيـش «چيـن شـيخوانج «أوردوس مـن الهـون، وطَّـن هنـاك الأهالـى مـن الصينييـن وأسـس أربـع وأربعيـن ناحيـة، وهكـذا شـكل نهـر «هوانـج هـو» حـدا فاصـلا بيـن الطرفيـن.

قـرر «چيـن شـيخوانج» مـد الأسـوار التـى كان أمـراء «يـن» و «چـاو» و «چيـن» قـد أمـروا مـن قبـل ببنائهـا بطـول الحـدود الشـمالية فـى سـنة (٢١٥ ق.م)، فقـرر مدهـا مـن الناحيـة الغربيـة، وكلـف «منـج تيـان» بهـذا العمـل. كان «منـج تيـان» قـد سـخر مئـات الآلاف مـن العمـال الذيـن جمعهـم قهـرا مـن مناطـق مختلفـة مـن الدولـة. وعـلاوة علـى ربـط الأسـوار القائمـة بطـول الحـدود الشـمالية لثـلاث إمـارات ببعضهـا، بـدءا مـن «شـان هـاى هـوان» فـى الشـرق، ومدهـا إلـى «ليـن تـاو» فـى الغـرب (بلـدة يـن شـان الواقعـة فـى ولايـة قانصـو)، وتلـك هـى الاسـوار المعروفـة بسـور الصيـن العظيـم.

إن ارتفـاع سـور الصيـن العظيـم تقريبـا ثمانيـة أمتـار أمـا طولـه فيبلـغ خمسـة آلاف كيلـو متـرا تقريبـا وعرضـه سـبعة أمتـار - وقـد تعـرض الصينييـن لهجمـات الهـون مـن وقـت إلـى آخـر طـوال هـذا العهـد، حتـى أقـام «چيـن شـئ هوانـج» هـذه الأسـوار.

لقد زادت قوة الهون بشكل كبير وأسسوا امبراطورية الهون العظمى التى حكمت خمسمائة عام من ٢٤٠ ق.م حتى عام ٢١٦م. وبلغت قوة الإمبراطورية ذروتها فى عهد «متـه» (باتور تانريقوت) وامتدت حدود امبراطوريتهم من المحيط العظيم فى الشرق حتى نهر «لينا» فى سيبيريا و«البايقال» و«ينسى» فى الشمال وسور الصين العظيم فى الجنوب، ومن جبال «آلتاي» الغربية فى الشمال الشرقى حتى بحر «الخزر» فى الشمال الشرقى وحتى الحدود الشمالية للهند والإيرانيين.

كان «متـه» (باتور تانريقوت) مؤسس هذه الإمبراطورية العظيمة، الابن الأكبر لطومان، ووليا للعهد منذ صغره. لكن فى النهاية عين «طومان» ابنه من زوجته الصغرى وليا للعهد، وأرسل «باتور تانريقوت» رهنيةً لدى أقوام «ياوچى» (دا - يواجى)العظمى، ففى تلك الفترة عُقدت معاهدة بين الدولتين تضمنت تبادل الرهائن بينهما ضمانا لعدم نقض اى من الدولتين شروط المعاهدة، وهكذا تم إرسال «باتور تانريقوت» رهنية لأقوام «ياوچى» العظمى تقريبا فى سنة ٢١٦ ق.م، وفى الأصل لم يكن «باتور تانريقوت» سعيدا بهذا الأمر ذلك لأن عاقبة الأمراء الرهائن لم تكن تنتهى بخير على وجه العموم، وكان الأمراء يقتلون لأن المعاهدات لم تكن تحترم بين أطرافها. ولهذا السبب كان «باتور تانريقوت» يتتبع العلاقات بين الـ «ياوچى العظماء» و«الهون» عن كثب. وعمل خطط للهرب فى حالة نشوب حرب، وحقيقة فقد نجح أخيرا فى الهرب وعاد إلى وطنه ثقة منه فى مساعدة الفرسان الذين كان قد دربهم بنفسه. ولما قتل والده بسهم أثناء خروجه للصيد اعتلى «باتور تانريقوت» العرش(٢٠٩ ق.م).

ترد عبارة «تانريقوت الهون»[٣٨] حوالى عام ٢٦٥ قبل الميلاد، فى الأبواب الخاصة بالهون فى المصادر الصينية مثل «رشيه چى» (ملاحظات التاريخ) و«هان شو»[٣٩]. ويتضح من هذه المصادر أن الهون كانوا يطلقون على حكامهم منذ أقدم العصوراسم «تانريقوت» بمعنى ابن الرب، ويُظهر

«سيماچين» الخان المسمى «چونج وى» أنه جد الهون فى سنة ١٧٦٤ ق.م[٤٠]، ويجعل البعض تسمية «تانريقوت» الهون تبدأ بـ «تومان» (٢١٠ – ٢٤٠ ق.م) اعتمادا على الحوليات التاريخية الموثوق بها.

لقد قسم «باتور تانريقوت» إدارة الدولة إلى عشرين مؤسسة وعيَّن الأمراء وموظفى الطبقة العليا طبقا لهذا النظام. ونظام هذه الأسرة الحاكمة على النحو التالي:

أمير الميسرة[٤١].
أمير الميمنة.
الوزير الأعظم.
إمارة الميسرة.
إمارة الميمنة.
بنوة الميسرة.
بنوة الجناح الأيسر.
حاكم الجناح الأيسر.
حاكم الجناح الأيمن.
أمير الميسرة الأعظم.
أمير الميمنة الأعظم.
أمير الحراس الأعظم للجناح الأيسر.
أمير الحراس الأعظم للجناح الأيمن.
أمير الخزينة الأعظم للجناح الأيسر.
أمير الخزينة الأعظم للجناح الأيمن.
الخان الغربى.
قائد الفيلق (القائد الأعظم).
البكباشى (آمر الألف جندى).
آمر المائة جندى.
آمر العشرة جنود.

كان حاكم الهون يصرف الأمور العسكرية والسياسية والمتعلقة بالسياسة الخارجية للدولة بمساعدة الوزير الأعظم وأبناء الميسرة والميمنة، وكان الأبناء على وجه العموم يختارون من هذه القبائل الثلاث الكبرى؛ «غويان» و«لان» و«صوبو» (شايو)، وكان أبناء السلطان أيضا يمكنهم الزواج من هذه القبائل الثلاث فقط فالأبناء المختارون من قبيلة «قويان» يجلسون على يسار السلطان، أما الذين من قبيلتى «لان» و«صويو» فكانوا يجلسون على يمينه.

كانت عاصمة الإمبراطورية فى عهد «باتور تانريقوت» هى «تانري باليق» الواقعة جنوب شرق مدينة «كوك خوتو» ضمن حدود منغوليا الحالية، أما فى مرحلة لاحقة فقد انتقلوا إلى نواحي بحيرة «خوشو صايدام» على الطرف الشرقى من نهر «ادرفون»، أما الحاكم والخاتون فكانا يقيمان فى قصورهما فى العاصمة.

قسم «باتور تانريقوت» الدولة إلى أربع ولايات، وكان هو نفسه يدير القسم الأوسط منها، وابنه أمير الميسرة يدير القسم الشرقى. وكانت خيمة أمير الميسرة عند المصب الأعلى لنهر «كيرولين» (فى منغوليا الحالية) وتمتد الأراضى الواقعة تحت إدارته حتى ساحل المحيط الأعظم. ويتبعه «الطونغوز» (أجداد المانچو) و«المغول» و«الپوروم» (أجداد الكوريين الحاليين). أما القطاعات الغربية من الإمبراطورية فكانت تحت إدارة أمير الميسرة.

وكان أمراء الميسرة والميمنة يعينون على وجه العموم من بين أبناء الحاكم (الشان يو). وتقوم خيمة أمير الميمنة على سفح جبل «هانغاى» الكائن فى منطقة «قوبده اولاس طاى»، وتخضع له قبائل «آلاسان» و«ارسين» بولاية وسط منغوليا الحالية وحوض نهر «جونغار» الكائن شمال جبال «طانري» والمناطق الشمالية لحوض «نهر تاريم» وكذلك المناطق الكائنة بجوار «قوبدو» الواقعة فى الطرف الغربى لنهر سلانكه (داخل حدود منغوليا). وبخلاف أمراء الميسرة والميمنة فإن خان الغرب (الخان الذى يدير المنطقة التى تغرب فيها الشمس) له

سلطات مهمة جدا وكانت المناطق الغربية من الامبراطورية (الأراضى الممتدة من حوض «نهر تاريم»حتى ساحل الخزر) تحت إدارة «خان» الغرب وتقوم خيمته بجوار «كورلا» الحالية.

وفى زمن الحرب كان كل شخص من السلطان حتى أمير الخزينة العظمى يتخذ موقعه فى صفوف الجيش كقائد وكانت العسكرية هى الشغل الشاغل لأمراء الفيالق (قادة الألوية) والبكباشية (أمراء الألف جندى) واليوزباشية (أمراء المائة جندى) والأونباشية (أمراء العشرة جنود). وطبقاللنظام العسكرى الذى طوره «تانريقوت»، انقسم الجيش إلى فرسان ومشاة. وكان فتيان الهون على وجه العموم فرسانا ولون الفرس الذى تركبه كل كتيبة مختلفا عن الأخرى. ويمكن أن يصل جيش «تانريقوت» إلى أربعمائة ألف شخص. وانقسمت خيول الجيش إلى أربعة مجموعات طبقا لألوانها الأبيض والأسود والرمادى والأحمر، وعدد الضباط ذوى الرتب المختلفة العاملين فى الجيش يقدر بأربعين لواء وأربعمائة «بكباشى» وأربعة آلاف «يوزباشى» وأربعين ألف «أونباشى» أى أربعة وأربعين ألف وأربعمائة وأربعين شخصا.

وحسبما ذكر بعض المؤرخين فإن الهون فى تلك الفترة لم يكونوا فى مرحلة بدائية أو فى مستوى اجتماعى بدائى بل على العكس كانوا بمستوى دولة أبوية ونصف إقطاعية، وكان السلطان أكبر سلطة عليا فى الدولة، وصاحب نظام إقطاعى على مستوى الدولة[٤٢].

وتظهر تشكيلات الدولة والجيش أن «الهون» كانوا أصحاب نظام اقطاعى متفوق، وهناك بعض الأدلة التى تثبت ذلك.فعلى سبيل المثال كانوا قد حققوا تقدما كبيرا فى التعدين قبل الميلاد بعدة قرون وكانت الخطابات التى كتبها سلاطين الهون لأباطرة أسرة هان الحاكمة، ذات مستوى رفيع من ناحية الأسلوب الأدبى والمحتوى، وكان الهون يستخدمون أيضا أبجدية «أورخون ينيسى»[٤٣] قبل الميلاد بعدة قرون[٤٤].

لقد أزعج «باتور تانريقوت» دول شرق آسيا بهجماته المستمرة على الشعوب المجاورة بين سنة ٢٠٧ - ٢٠٠ ق. م. إذ قام «تانريقوت» بهجمة

مفاجئة على «الطونغوز» جيرانه الشرقيين الأقوياء المغرورين فأخضعهم ثم أخضع المغول من بعدهم ثم اتبع هذا باعتداء ضد «الياوچى» العظام الذين كانوا يعيشون فى ممر «خشى» حتى ولاية قانصو. وبعد أن أخضع «باتور تانريقوت» قبائل «الياوچى» العظمى، حول أنظاره إلى الصين جارته الجنوبية، وفى تلك الأثناء اندحرت امبراطورية «چين» فى الصين وتأسست بدلا منها «أسرة هان» الحاكمة. كانت هناك صدامات داخلية فى إمبراطورية «هان» التى آل إليها ميراث منهار اقتصاديا، ولم يتمكن من تأسيس هيبة للدولة بصورة كاملة. ففى البداية استفاد «باتور تانريقوت» من هذه الفرصة فانتزع من يد الصينيين سهوب «اوردوس» التى فقدت فى سنة ٢١٥ ق.م، لكنه لم يتمكن من كظم غيظه فتوغل داخل حدود امبراطورية هان سنة ٢٠٠ قبل الميلاد واحتل بلدة «چاوشيان» فى ولاية «شن سى» الحالية.

وأعلن «هان وانج سين» القائد الصينى المسئول عن الدفاع عن هذه المنطقة تسليمه للهون. وتقدم الهون أكثر، وهاجموا مدينتى «طايوان» و«جنج يانج» الواقعتين فى شانسى. وأمام هذا الوضع الصعب قرر «هانقاوتسو» أول حاكم لأسرة هان الحاكمة إعلان الحرب ضد الهون، لكن وزيره «ليوچنج» اعتقد أن الحرب مع الهون ستسفر عن نتائج خطيرة وحذر الحاكم بشكل جاد،فلم يأخذ «قاوتسو» تحذيره هذا مأخذ الجد، وأمر بحبس وزيره، وسار ضد الهون بجيش قوامه ثلاثمائة وعشرين ألف جندى.

علم «باتور تانريقوت» بالأمر فنصب كمينا عندسفح جبل «پاى تنگ» الواقع جنوب مدينة «ينج چنج» (تاتونج الحالية)، وانتظر اقتراب جيش «هان». ولما جاء «قاوتسو» امبراطور الهان مع قسم من جيشه إلى «پنج چانج»، وهو لا يعلم شيئا عن خطط «تانريقوت»، حاصره جيش الهون. وطبقا لما ذكره المؤرخ سيماچيان، ان فرسان الهون الذين يركبون الخيول السوداء فى الشمال، والزرقاء فى الشرق، والبيضاء فى الغرب والرمادية فى الجنوب، حاصروا جيش «هان». واندحر جيش هان

الـذى انقطعـت صلتـه بالعالـم الخارجـى، وقاسـى الجـوع والعطـش ليـل نهـار طـوال سـبعة أيـام. ووصلـت نصائـح «چنـج پينـج» وهـو احـد وزراء «قاوتسـو» لإغاثتـه بعـد ان وقـع فـى الشـرك لأنـه لـم يصـغ لنصائـح «ليوچنـج». ذلـك أن «چنـج پنـج» دخل سـرا إلـى خيمـة الزوجـة الكبـرى لباتـور تانريقـوت وأقنعها بـأن كسـب زوجهـا الحـرب لـن يفيدهـا فـى شـئ وأقنعهـا بـأن وزراء أسـرة هـان وأمرائهـا سـيقدمون الفتيـات الجميـلات لتانريقـوت إذا كسـب الحـرب، وإنـه سينسـاها بعـد رؤيـة هـذه الفتيـات فائقـة الجمـال وطلـب منهـا أن تقنـع زوجهـا بـأن يرفـع الحصـار وأعطاهـا مقـدارا كبيـرا مـن الذهـب والفضة.فوعدتـه زوجـة «باتـور تانريقـوت» بهـذا. والحقيقـة إنهـا بعـد فتـرة قصيـرة أقنعـت زوجهـا برفـع الحصـار علـى الفـور وأقسـمت باسـم آلهتـه الشـامانية إنـه ان لـم يفعـل فسـيحل عليـه غضـب إلـه السـماء. وصـدق «باتـور تانريقـوت» كلمـات زوجتـه ورفـع الحصـار جزئيـا، وخـرج جيـش» هـان» مـن الممـر الـذى فتـح ونجـا بجيشـه. وهكـذا انتهـى حصـار «ينـج چنـج»الشـهير الـذى يحتـل مكانـة مهمـة جـدا فـى تاريـخ الشـرق الأقصـى. وقـد كتـب الشـعراء الصينيـون بعـد ذلـك أشـعارا عـن هـذا الحصـار.

يا «پنج چنج» كم كان هذا مرعباً
ومصائب مخيفة وراء بعضها
جوع وعطش طوال سبعة أيام
ولم تعد هناك طاقة لسحب القوس[٤٥]

فـى عـام ٢٠٠ قبـل الميـلاد عُقـدت معاهـدة بيـن «الهـون» و«أسـرة هـان» الحاكمـة المهزومـة. وبموجبهـا كانـت «أسـرة هان»مجبـرة علـى أن تعطـى للهـون كل عـام مقـدارا كبيـرا مـن قمـاش الحريـر والقمـح. وقـد اجتهـد مؤرخـو الصيـن القدمـاء لإظهـار هـذا النـوع مـن الضرائـب المدفوعـة بشـكل منتظـم علـى انهـا هديـة. وبموجـب هـذه المعاهـدة كان يجـب علـى «أسـرة هـان» أن تـزوج أميراتهـا وبناتهـا لحـكام الهـون بجهـاز كبيـر. وفضـلا عـن

ذلك كانوا يسمحون بتبادل التجارة مع «الهون» في المناطق الحدودية. واضطرت «أسرة هان» الى دفع الضرائب كبيرة للهون كل سنة لمدة سبعين عاما امتثالا للاتفاقية ودفعا لشرهم.

ورغم رعاية أسرة هان للاتفاقية المبرمة إلا أن الاتفاقية لم تراع بجدية في عهود سلاطين الترك «باتور تانريقوت» و«كوك تانريقوت» و«كون تانريقوت»، فقام الهون بهجمات لاتنقطع على الحدود الصينية.

زادت قوة «باتور تانريقوت» الذى أجبر «أسرة هان» إلى دفع الجزية بعد حصار «پاى تنج»، وبعد وفاة «قاوتسو» عام ١٩٥ ق.م أعتلى العرش ابنه «هواتى» الذى كان يبلغ من العمر فقط سبع سنوات لكن كل السلطات كانت في يد أمه «لوهو» (كاو هو). وفى سنة ١٨٨ ق. م مات الامبراطور عن ثلاثة عشر عاما.

أما الأمير الذى كان يجب جلوسه على العرش بدلا منه،فقد قتل فى سنة ١٨٧ ق.م حيث أنه لم يكن ابن لو - هو أم الأمير المقتول، وهكذا أصبحت «لوهو» امبراطورة فعلية لأسرة «هان» الحاكمة.

فى سنة ١٩٢ ق. م كتب «باتور تانريقوت» (مته) الذى تزوج من «ماو چونج» ابنة «ليو بان»، الخطاب التالى إلى «لوهو» ملكة أسرة هان:

«إننى حاكم أعيش وحيدا، ولقد ولدت وسط المستنقعات وكبرت حيث يرعى الجاموس الوحشى والخيل وكم من مرة وصلت إلى حدود دولتكم، إننى أريد التنزه في دولتكم.

جلالتك تعيشين وحيدة وكلانا حاكم غير سعيد ولم يتبق لكلينا شئ نستمتع به، ولذلك فأنا أريد أن أعطيك ما ليس عندك.

أراد «باتور تانريقوت» بخطابه هذا، الحط من شأن «لوهو» والزواج بها، ولما ادركت الإمبراطورة ماهية الخطاب الذى حمله إليها سفير الهون استشاطت غضبا وعلى الفور جمعت مستشاريها لأخذ رأيهم، واقترح «فان قواى» السير ضد الهون على الفور بجيش قوامه مائة ألف

جنـدى. لكـن الوزيـر «چـى يـو» عـارض هـذا الـرأى قائـلا: «إن رأى «فـان قـواى» يزعـزع الوطـن ويـؤدى إلـى شـتات الأمـر، فالهجـوم بجيـش قوامـه مائة ألـف محـض خيـال، فضـلا عـن أن الهـون يشـبهون الحيـوان الوحشـي فـلا ينبغـى ان نسـعد لكلماتهـم الجميلـة كمـا أن كلماتهـم البذيئـة لا تسـتحق الغضـب»[٤٦].

واستحسـنت «لوهـو» رأى «چـى يـو» لأن امبراطوريـة «هـان» آنـذاك كانـت فـي وضـع لاتقـارن فيـه بالهـون. ولهـذا السـبب كظمـت غيظهـا وأمـرت بكتابة هـذه الرسـالة إلـى «باتـور تانريقوت»:

«أيهـا الحاكـم، إنـك لـم تنـس دولتنـا فتكرمـت بإرسـال رسـالة. إن بلـدى فـى خـوف واضطـراب. وكلمـا مضـت الأيـام أفكـر فـى نفسـى. لقـد هرمـت وضـاق صـدرى وإن شـعرى وأسـنانى تتسـاقط وعندمـا أسـير تتعثـر خطواتـى. أيهـا الحاكـم لابـد أن مـا سـمعته كان خطـأ. أيهـا الحاكـم لا تسـئ فهمـى، ولا تغضـب منـى، فليـس لبلـدى ذنـب فـى هـذس، والتمـس عفـوك. وأقـدم لكـم عربتيـن امبراطوريتيـن تجرهمـا طاقمـان مـن الجيـاد التـى تمتلكهـا عبدتـك وإن كان هـذا لايليـق بمقامكـم، وأرجـو أن تتفضـل بقبولهمـا».

إن هـذا الخطـاب الـذى كتبتـه «لوهـو» إلـى «باتـور تانريقـوت» هـو إشـارة إلـى أن أسـرة هـان لـم تكـن أمامهـا حيلـة سـوى أن تسـتعطف الهـون.

فـى سـنة ١٦٦ ق. م فـى عهـد «كـوك خـان» قاغان(سـلطان) الهـون، شـن اتحـاد الهـون الـذى تشـكل مـن مائـة واربعيـن ألـف شـخص، الحـرب علـى الصيـن واقتربـوا لمسـافة مائتـى كيلـو مـن العاصمـة «چانـأن» وأحرقـوا واحـداً مـن قصـور الإمبراطوريـة.

رأت «أسـرة هـان» أن عاصمتهـا اصبحـت مهـددة تهديدا خطيرا فاسـتطاعت أن تضمـن سـلامتها بقبـول كل طلبـات الهـون. وبعـد هـذا الحـادث بأربعـة أعـوام طلـب «كوكخـان تانريقـوت» مـن الإمبراطـور «ونتـى» زيـادة الجزيـة المدفوعـة للهـون والبضائـع المرسـلة خاصـة الأقمشـة الحريريـة[٤٧]، وأرسـلت «أسـرة هـان» أميرتيـن مـن القصـر الصينـى إلـى باتـور ليتزوجهمـا؛ إحداهمـا

فـى سـنة ١٥٦ق.م والأخـرى فـى سـنة ١٥٢ق.م [٤٨].

وهكـذا تطـورت العلاقـات بيـن الهـون وامبراطوريـة «هـان»، أمـا العلاقـات بيـن الهـون والأويغـور فصـارت علـى النحـو التالـى.

عندمـا تأسسـت امبراطوريـة الهـون العظمـى كانـت بعـض الخانيـات التـى أسسـها أجـداد الأويغـور والشـعوب القريبـة لهـم، قائمـة بالفعـل وكان بعضهـا بجـوار البايقـال وفـى قانصـو وبعضهـا الآخـر فـى وسـط وغـرب آسـيا. ويمكننـا قـراءة المعلومـات المتعلقـة بهـذه الخانيـات فـى الأبـواب المتعلقـة بالهـون وفَرْغانـة فـى كتـب «سـيماچيان» المسـماة «ملاحظـات تاريخيـة، وهـو مـن مؤرخـى الصيـن فـى تلـك الفتـرة، وكذلـك فـى بـاب «المعلومـات المتعلقـة بشـعوب الغـرب» فـى الكتـاب المسـمى «هـان شـو» لـ «پانقـو» أيضـا. وطبقـا لهـذا كانـت سـلطنة الأويغـور الشـرقية قائمـة بجـوار بحيـرة البايقـال فـى القـرن الثالـث قبـل الميـلاد، وسـلطنة القيرغيـز فـى المصبـات العليـا لنهـر «ينيسـى». وسـلطنة الأوغـوز بجـوار «بحيـرة زايسـان» الحاليـة وفـى آلطـاي، وكذلـك سـلطنات» ياوچـى العظـام» و«الأويصـون» فـى ممـر «هوسـى» فـى «قانصـو» وفـى وادى «إيرسـين» الواقـع فـى «نينـج سـيتان»، وخـلاف ذلـك فقـد كانـت هنـاك إمـارات موجـودة فـى كاشْـغَر التـى تحتـل مكانهـا فـى حـوض نهـر تاريـم فـى آسـيا الوسـطى وكوچـار وآقصـو، كاشْـغَر و«ياركنـد» و«خوتـن» و«لـولان». كمـا كانـت هنـاك دول صغيـرة فـى القطـاع الغربـى مـن آسـيا الوسـطى مثـل سـلطنة فَرْغانـة وسـلطنة «قانغلـى» وسـلطنة «آلال» فـى غـرب آسـيا، وكانـت حـدود دولـة «قانغلـى» تمتـد مـن سَـمَرقَنْد حتـى بحيـرة البلقـاش وبحيـرة «الآلال». أمـا أقـوام «الآلان» فقـد اسـتقرت فـى شـمال بحـر الخـزر.

وفـى سـنة ٢٠٢ ق.م أخضـع «باتـور تانريقـوت» أقـوام القيرغيـز الكائنـة فى المصبـات العليـا للينيسـى وكذلـك الأويغـور الشـرقيين بجـوار بحيـرة بايقـال. أمـا «الياوچـى العظـام» و«الأويصـون» فـكان قـد تـم فتـح بلادهـم أصـلا قبـل فتـرة «حصـار پـاى تنـج». أمـا خانيـات الأويغـور فـى آسـيا الوسـطى والإمـارات الأخـرى فـى غـرب آسـيا فقـد دخلـت فـى طاعتـه سـنة ١٧٧ ق.م.

فـى عـام ١٧٦ ق.م أرسـل «الخـان متـه» هـذا الخطـاب إلـى «ون–تـى» إمبراطـور أسـرة هـان الحاكمـة :

«يسـأل حاكـم الهـون الأعظـم الجالـس علـى العـرش بـإرادة السـماء عـن حـال امبراطـور «هـان» بـكل احتـرام، وكان الإمبراطـور قـد تحـدث مـن قبـل عـن مسـألة تدعيـم الصداقـة بالمصاهـرة، وأن أمنيتـه الـواردة فـى رسـالته قـد أسـعدت الطرفيـن.

عندمـا تحـرك حـرس حـدود «دولـة الهـان» وهاجمـوا «صـاغ بلكيـه»، تحالـف «صـاغ بلكيـه» بـدون إذن منـى مـع «هولوبيـك نانجـى» وآخريـن غيـره. ووقعـت مصادمـات بينهـم وبيـن موظفـي الهـان، فأفسـد المعاهـدة بيـن الحاكميـن، ومـزق رابطـة الأخـوة بينهمـا. فلمـا وصلـت رسـالة الإمبراطـور المفعمـة بالشـكوى، أرسـلت خطابـاً مـع السـفير ردا عليهـا، ولكـن السـفير الـذى أرسـلته إليكـم لـم يرجـع، كمـا لـم يأت سـفير مـن دولـة «هـان». وكان تصـرف دولـة «هـان» فـى هـذا الأمـر تصرفـا عدوانيـا. ومـن جـراء هـذا فـإن الـدول المجـاورة سـترفع رايـة العصيـان. واليـوم أرسـلت الموظـف «بيلكـه» عقابـا لـه للبحـث عـن «الياوچـى» الذيـن فـى الغـرب ومهاجمتهـم. وأنزلنـا بالياوچـى هزيمـة فادحـة بفضـل مسـاعدة السـماء وجنودنـا الأكفـاء وخيولنـا القويـة، وقتلناهـم جميعـاً وجعلناهـم تابعيـن لنـا وهكـذا تـم حـل هـذه القضيـة. وأصبحـت أقـوام «لـولان» و«أويصـون» و(الأوغـوز) وسـت وعشـرون دولـة مجـاورة لهـا أصبحـت كلهـا خاضعـة للهـون. وتجمعـت كل الشـعوب التـى تضـرب بالقـوس فـى عائلـة واحـدة. وهكـذا تحقـق الأمـن فـى المناطـق الشـمالية، والآن أريـد لجنـودى أن يرتاحـوا وأطعـم خيولـى وأنحـى الأحـداث السـالفة جانبـاً، وأجـدد معاهدتنـا لأحقـق أمـان الشـعوب التـى علـى الحـدود، كمـا أريـد أن يكبـر الصغـار كمـا كان فـي الماضـى، وأضمـن للشـيوخ ان يعيشـوا فـى أمـن حيثمـا يكونـون. وأن أديـم السـلام وتلـك السـعادة مـن جيـل إلـى جيـل. إننـى لـم أتمكـن بعـد مـن معرفـة مـا يتمنـاه الإمبراطـور، ولهـذا السـبب أود أن ترسـل حاجبـك الصغيـر حامـى القصـر «سـهوجيان» برسـالة لأعـرف رأيـك. وبعـد فأنـا أهديـك جمـلاً وفرسـيَّ ركـوب وخيـولا لسـتِّ

عربات. وإذا لم يكن إمبراطور الصين يريد اقتراب الهون من الحدود، فليأمر إذن موظفيه وشعبه بأن يقيموا بعيداً. وعندما يأتى سفيرى فلا تأسروه وأعيدوه فوراً.

وصل «باتور تانريقوت» فى مسيرته التاريخية التى قام بها نحو الغرب فى سنة ١٧٧ ق.م، حتى بحر الخزر، وأخضع خانيات آسيا الوسطى و«يدى صو» فى غرب آسيا. وازدادت قوة إمبراطورية الهون إلى أقصى حد وأدهشت جيرانها الأقوياء فامتدت فى الشرق حتى المحيط ومن الغرب حتى بحر الخزر.

وبعد عام من الحرب المظفرة التى شنها «باتور تانريقوت» على الغرب، فإن النتائج ينبغى استخراجها من الرسالة السالفة التى أرسلها إلى إمبراطور أسرة»هان ون تى». إن الرسالة تعرض الأحداث المثيرة التى وقعت فى تلك الفترة، كما تعرض قوة الهون وقدرتهم المشهودة.

بينما كان «باتور تانريقوت» الأول مشغولاً بالحرب الطويلة والمرهقة التى شنها على الغرب فى سنة ١٧٧ ق.م وقعت بعض المعارك بين الهون وإمبراطورية هان.مثال ذلك؛ لم يسمح أمير ميمنة الهونٍ لقائد وحدات المحافظة على الحدود فى «أسرة هان» بأن يتخذ سلوكاً عدائياً تجاه الهون، وهاجم «بولينج» الكائنة فى ولاية «شانسى» ولهذا السبب ظهرت بعض الخلافات بين الطرفين.

فى سنة ١٧٦ ق.م أعلن «الياوچى العظماء» العصيان فى «قانصو»، وكلف أمير الميمنة بالتنكيل بهم. وطبقاً لرواية «بانقو»، فإن أمير الميمنة بعد أن أذاق «الياوچى العظام» هزيمة منكرة قطع رأس ملوكهم وغطاها بالذهب، واستخدمها كؤوساً للشراب. إن «الياوچى العظماء» و«الهون» و«الأويصون» وهم أخوة، كانوا جيرانا منذ القدمً. لقد كان «الياوچى العظماء» و«الأويصون» يعيشون فى «ممر خشى». أما الهون فيعيشون فى الجهة الشرقية منهم أى فى وسط منغوليا الحالية، وهجم «الياوچى العظام» على «الأويصون» فى القرن الثالث قبل الميلاد وقتلوا «نادومى» سلطان «الأويصون» واحتلوا أراضيهم، ولجأ فهاجر الأويصون

إلـى الشـرق ولجـأوا إلـى الهـون. وأصطحـب «بوغـو» حاكـم «الأويصـون» فـى معيتـه أميـر «الأويصـون» المولـود حديثـاً ويدعـى «راجومـى». فشـمل «باتـور طانـرى قـوت» أميـر الأويصـون برعايتـه وتربيتـه واشـركه فـى الحـروب مـعٍ الهـون وبعـد أن أظهـر بطـولات عديـدة عيينـه «باتـور طانـرى قـوت» خانـاً علـى «الأويصـون».

وأعيـدت الأراضـى القديمـة إلـى أقـوام «الأويصـون» ولكـن قبـل أن تمـر فتـرة طويلـة نشـبت حـرب جديـدة بيـن «الأويصـون» و«الياوچـى العظـام» وخسـر «الأويصـون» الحـرب وهاجـروا إلـى الغـرب مـن «وادى أيرسـين» و«ممـر خشـى» واسـتقروا بجـوار نهـر «إيلـي». أمـا الواقعـة المشـروحة فـى الخطـاب وهـى الهجـوم الـذى شـنته وحـدات الهـون بقيـادة أميـر الميمنـة سـنة ١٧٦ ق. م فـإن «الياوچـى العظـام» الذيـن خسـروا الحـرب فـى النهاية، تحركـوا إلـى الغـرب تحـت قيـادة الملكـة التـى تحكمهـم، وطـردوا الأيصـون مـن وادى ايلـى واسـتقروا هنـاك، وبعـد خمسـة وعشـرين عامـاً حصـل «الأويصـون» علـى المسـاعدات مـن «كـون جيـن» حاكـم الهـون، وأعـادوا الهجـوم علـى الياوچـى العظـام وطردوهـم. وبعـد هـذه الواقعـة تقـدم الياوچـى العظـام فـى الطـرٍف الجنوبـى الغربـى ووصلـوا حتـى كاشْـغَر لكنهـم لـم يمكثـوا هنـاك طويـلاً وتقدمـوا نحـو الغـرب وانتشـروا علـى سـواحل «باكتريـا» و«أمودريـاً».

يذكـر «باتـور تانريقـوت» فـى خطابـه أنـه أثنـاء حربـه علـى الغـرب فـى سـنة ١٧٧ ق.م، أخضـع لسـيطرته شـعوب «لـولان» و«أويصـون» و«الأوغـوز» وسـتة وعشـرين سـلطنة كانـت فـى جوارهـم. وهـذا دليـل علـى اسـتيلاء «الأويصـون» فـى «يـدى صـو»، وأقـوام «قانقلى» فـى سَـمَرقَنْد وبحيـرة البلقاش وبحيـرة الأوال والأرض الواقعـة بجـوار الخـزر وإمـارات أخـرى فـى آسـيا الوسـطى. والأكثـر أهميـة هنـا هـو إخضـاع الهـون للإمـارات الأيغوريـة التـى كانـت فـى حـوض «نهـر تاريـم «خـلال هـذه الحـرب؛ ذلـك لأن الأويغـور الغربييـن فـى آسـيا الوسـطى يظهـرون تحـت حكـم الهـون بعـد هـذا التاريـخ.

ويعلـن «باتـور تانريقـوت» فـى خطابـه الـذى أرسـله إلـى «ونتـى» أن كل

الشعوب التى تضرب بالقوس اتحدت فى عائلة واحدة، مهددا إمبراطور «هان». فكان جواب «ونتى»على هذه:

«إمبراطور الهان، حاكم الهون الأعظم، تحية واحتراما؛

كان لرسالتك التى أرسلتها مع «بيبى هوجيان» تقول فيها: فلنُرح جنودنا ونطعم جيادنا ونزيد الرفاهية والسعادة الأجيال المقبلة ولنبدأ عصرا جديدامن الأمن، هذه الكلمات كان لها أطيب الأثر فى نفسى »[٤٩] وقد أرسل «ونتى» مع الرسالة هدية عظيمة إلى الحاكم عبارة عن ملابس قيمة متعددة، وحزام ذهب وأقمشة حريرية متعددة الأنواع.

ويفهم من الرسائل المتبادلة بين حاكمى الهان والهون أن العلاقات بين الدولتين اتجهت إلى التحسن فى سنة ١٧٥ ق.م. لكن فى واقع الأمر كانت أسرة هان قد بدأت سرا فى استعدادت طويلة الأمد لمقاومة الهون فى المجالات الاقتصادية والعسكرية وغيرها. حتى أنهم فى عهد «فوتى» (١٤٠ - ٨٧ق.م) بدأوا حروب دامية ضد الهون استمرت لسنين طويلة، وأهمها الحرب التى وقعت فى سنة ١٢٧ ق.م. وفى النهاية هجم «وى جينج» على الهون بجيش قوامه عدة مئات من الآلاف وانتزع برارى أوردوس من يدهم، وفى سنة ١٢١ ق.م حدثت حرب مهمة أخرى، وفيها استولى جيش الصين الضخم بقيادة «هوجيونج» على السهول الواقعة بسفوح جبال طانرى فى قانصو (جليان شان الحالية) وسفوح جبال الجى (ين شى ثان الحالية)، كما غنموا من الهون «ممر خيشى» وجلبوا مائتى ألف شخص من مناطق الصين الداخلية وأسكنوهم بتلك المناطق. وأقام الهان الرحل المزارع فى المناطق التى استقروا فيها واشتغلوا بالزراعة، وكانت أهم طريقة لتقوية الدفاع عن الحدود فى نظر الخان «فوتى»، هى تهجير أكبر عدد من الأهالى إلى مناطق الحدود وتوطينهم فيها. وقسم المنطقة إلى ولايات «فوفى» و«يوجوان» و«جانج لي هان» و«طون هوانج». وأبدع الهون هذه المرثية بسبب حرمانهم من السهول فى «ممر خشى».

فارق الباقون جبال طانرى
ولم تعد تزداد حيواناتنا
وفارق الباقون جبال «آلجى»
وملت نساؤنا

إن ارتباط شطرة «وملت نساؤنا» بجبل آلجى فى المرثية تعبير يتضمن معنى ًعميقاً جداً. وذلك أن نساء الهون كن يصنعن دهانا من الزهور الحمراء والصفراء التى تنبت هناك للعناية بالوجه وأطلق الهون على هذا الدهان اسم آلجى (بمعنى الأحمر)، كما كانوا يطلقون اسم آلجى على زوجة الحاكم.

وتركز المرثية على أن نساء الهون اللاتى ابتعدنً عن جبل «آلجى» فقدن سعادتهن وجمالهن بسبب أنهن أصبحن لا يتمكن من وضع هذا الدهان.

بعد أن أتم «ووتى» احتلال «ممر خيشى» بعامين،استأنف حروبه العسكرية على الهون فى سنة ١١٩ ق.م. وكان لدى جيش الصين مائة ألف فارس بقيادة «وى جينج» و«هوجوينج» (كان تحت أمر كل منهما خمسون ألف فارس)، وكان هناك بضع مئات الآلاف من الجنود المشاة بخلاف مائة وأربعون ألف حصان احتياطى. إن جيش الصين الذى اجتاز سور الصين العظيم توغل داخل حدود إمبراطورية الهون. وكان جيش الهون الذى يقوده القائد «الشانيو»ينتظر العدو فى صحراء منغوليا. وإذا كان جيش هان قد حاصر وحدات الهون إلا أن قائدها نجح فى النجاة. وفقد جيش هان فى هذه الحرب الدفاعية مائة ألف جندى ومائة وعشرين ألف حصان، أما الهون فقد خسروا تسعين ألف مقاتل وعشرات الآلاف من الجياد. والحقيقة أن جيش هان لم يكترث باستمرار الحرب وانسحب،كما أن الهون لم يقدروا على المخاطرة بملاحقة العدو.

وانتحر «لى هوانج» أحد قادة جيش الصين لخوفه من أن يعدم لتخلفه عن ميدان المعركة. وفى النهاية وبعد ثلاثة حروب وقعت بين

«أسرة هان» وبين الهون تحول جيش الصين من الدفاع إلى الهجوم، وبعد ذلك جلب «ووتى» سبعمائة ألف صينى وأسكنهم فى المنطقة الحدودية.

وقبل دخول «ووتى» فى حرب مع الهون، لم يهمل استغلال سلاح الدبلوماسية، فقد كانت سياسة الصين تقوم على مبدأ «توافق مع البعيد، وحارب القريب» حتى أرسل القائد «جانج جيان» مرتين إلى أقصى الغرب فى سنتى ١٢٧ - ١١٥ ق.م بهدف تقوية روابط الصداقة مع البعيدين. وبعد أن قدم «جانج جيان» تقريراً مفصلاً للإمبراطور عن الحكام والأراضى التى فى الطرف الغربى، استمال «ووتى» الأويصون فى البداية بإرسال هدايا قيمة وعدة أميرات للزواج من القصر الصينى. هكذا صار «الأويصون» الذين أفسدوا التحالف مع الهون، أصدقاء لأسرة هان.

ورغم أن «ووتى» شن عدة هجمات جديدة على الهون، بعد أن استمال الأويصون إلى جانبه، فإن هذه الهجمات انتهت بهزيمة جيش الصين. وعلى سبيل المثال، إن جيش المشاة التابع لأسرة «هان» والمكون من خمسة آلاف جندى تحت قيادة «لينج» سنة ١٠٠ ق.م، بعد أن قطع هذا الجيش مسيرة ثلاثين يوماً، قتلهم «فوتيجو» «جوته - هو «حاكم الهون على ساحل «طولة»، فلما وقع «لى لينج» فى أسره، تخلى «ووتى» عن إخراج الجيش الأساسي للحملة (على الهون).

فى سنة ٩٧ ق.م قاد الإمبراطور «ووتى» جيشا ضد الهونً قوامه ١٨٠ ألف شخص من الفرسان والمشاة قيادة «لى هوانج - لى» ضد جيش «لى» الذى دخل أراضى الهون والمكون من مائة وأربعين ألف شخص وسبعين ألف فارس وسبعون ألف مشاة). قابله «فوتيجو شانيو»على الساحل الجنوبى لنهر طولة، وأسفرت الحرب التى استمرت عشرة أيام عن هزيمة منكرة لجيش «هان»، ولم تكن لدى «فوتى» نية الاستسلام، فجرد جيشاً جديداً تحت قيادة «لى هوانج لى» فى سنة ٩١ ق.م بهدف الثأر لهزيمتة مرتين من الهون. تمركز «هولوشاينو» الذى كان على علم بالموقف، عند سفوح جبل «هانكاى» بجيش من الهون مكون من

خمسين ألف شخص. كما أمر بحفر خنادق عميقة فى الناحية الجنوبية وأحكم حصارهم. وخلال ذلك تحرك جيش الصين المكون من سبعين ألف ووصل أمام العدو وهو لا يعلم شيئا عن الخنادق المعدة. فتسلل الهون من خلف العدو فى ظلمة الليل وشنوا عليه هجوما مفاجئا. فأصاب جيش الصين الرعب، وشرعوا فى الانسحاب فسقطوا فى تلك الخنادق وتكبدوا خسائر فادحة، وطبقاً للرواية فإن أحداً لم ينج من جيش الصين وحقق الهون أيضاً نصراً مؤزرا.

أمر حاكم الهون (الذى انهزم من قبل فى حملتين شنهما على فَرْغانة) بقتل «لى هوانج لى» القائد البائس الذى أسر فى هذه الحرب قربانا لأمه المتوفاة. ونال الانتصار الذى حققه فى سنة ٩١ ق.م، أهمية كبيرة فى أرجاء الدنيا.

استمالت إمبراطورية «هان» الأويصون إلى صفها اعتباراً من سنة ١٠٤ق.م وبدأت محاولات تكوين حلف ضد الهون، وخلال ثلاثين عاماً،أرسلت الأميرتين «شى يون» و«جايو» كعرائس لحكام الأويصون.

لم تتمكن الأميرة «شى يون» التى تزوجت حاكم الأويصون «راجومى» فى سنة ١٠٤ق.م، من إدراك أهمية وظيفتها الاستراتيجية التى كلفت بها وكان «راجومى» طاعناً فى السن ولم تكن الأميرة تعرف لغة «الأويصون»، ولهذا لم تعتاد على تقاليد الأويصون المختلفة، ولما كانت تعيش الحنين إلى الوطن قالت هذه الأبيات :

أرسلونى إلى مكان بعيد
كزوجة لحاكم الأويصون
منازلهم غرف من خيام مستديرة
وطعامهم اللحم وشرابهم أحمر
وعيونى تدمع كلما اشتقت إلى وطنى
ليتنى أصبح طائراً وألقاه

يـزوج «راجومـى» نظـرا لشـيخوخته الأميـرة «شـى يـون» بحفيـده «قـون شـومى» وتـرزق الأميـرة منـه بطفلـة لكنها تمـوت بعـد فتـرة قصيـرة.

عندمـا علـم إمبراطـور الهـان بهـذا، يـزوّج «شـومى» (سـنة ١٠٠ ق.م) هـذه المـرة أميـرة أخـرى تدعـى «جايـو». وعمومـاً فـإن «قـون شـومى» يمـوت بعـد فتـرة قصيـرة. ولمـا كان ابـن «قـون شـومى» مـن زوجتـه الهنديـة والـذى يدعـى «أونغومـى» لا يـزال طفـلا، فـإن «ووينـج جومـى» وهـو مـن أقاربـه اعتلـى عـرش الأويصـون. وطبقـاً للتقاليـد، تزوجـت الأميـرة «جايـو» مـن «وو ينـج» وولـدت لـه خمسـة أطفـال ثلاثـة صبيـان وبنتيـن.

كان «هـو - يـن - تـى» إمبراطـور الهـون غاضبـا بسـبب العلاقـات التـى بين أسـرة «هـان» الحاكمـة وبيـن «الأويصـون»، يرسـل إمـارة «قوشـو» المنتسـبة للأويغـور الغربييـن، وإمـارات أويغوريـة أخـرى ضـد «الأويصـون» فـى سـنة ٧٤ ق.م. كمـا أرسـل سـفيراً وطلـب تسـليمه «جايـو» أميـرة «هـان»، وقطـع العلاقـات مـع إمبراطوريـة هـان. وبنـاءً علـى ذلـك كتـب حاكـم الأويصـون «أونغومـى» وزوجتـه «جايـو» إلـى الصيـن وإلـى الإمبراطـور الجديـد «سـوان» رسـالة طلبـوا فيهـا المسـاعدة. ووجـه إمبراطـور الهـان «ووتـى» فـى سـنة ٧١ ق.م جيشـاً مـن ١٦٠ ألـف شـخص مـن خمسـة أفـرع مختلفـة ضـد الهـون لإنقـاذ الأميـرة «جايـو». وعبـر جيـش «الهـان» سـور الصيـن العظيـم ودخـل أراضـى الهـون إلا أنـه اضطـر للانسـحاب عندمـا لـم يتمكـن مـن مواجهـة قـوات العـدو الرئيسـية؛ ذلـك أن «هوينتـى» فضـل الانسـحاب لعـدم الإضـرار بالقـوات الرئيسـية لجيـش الهـون، لهـذا السـبب لـم يحـدث صـدام. ولكـن فـى تلـك الآونـة هاجـم «الأويصـون» الهـون مـن الناحيـة الغربيـة ودمـروا قصـر أميـر الميمنـة وغنمـوا أربعيـن ألـف أسـير وسـبعمائة ألـف رأس مـن الحيوانـات. وفـى نفـس العـام شـن الحاكـم «هويـن تـى» حربـاً انتقاميـة علـى الأويصـون، لكنـه بعـد ضـرب الأويصـون، تعـرض أثنـاء عودتـه لخسـائر فادحـة بسـبب الثلـوج الشـديدة والعواصـف. ولـم تقـف الكارثـة عنـد هـذا الحـد، ذلـك أنـه لمـا علمـت أقـوام «تـورا» الشـرقية بـأن «الهـون» ضعفـوا بمـا حـل بهـم مـن كـوارث، هاجموهـم مـن الشـمال سـنة ٧١ ق.م، بينمـا كانـت إمبراطوريـة

«هـان» منشـغلة بسـحق أقـوام «قوهـو وان» فـى الجنـوب.

وكمـا كانـت أقـوام تـورا الشـرقية تعيـش مسـتقلة عـن الهـون بيـن عامـى ٧١ - ٥٠ ق.م، فقـد شـنوا هجومـاً جديـداً علـى الهـون سـنة ٦١ ق.م وأرسـل حاكـم الهـون «شـولوى قانقـوي» (هـو لـو جـوان جـو) جيشـاً مكونـاً مـن عشـرة آلاف شـخص للثـأر، إلا أن الحـرب بـاءت بالفشـل.

عقـب وفـاة الحاكـم «شـولوى قانقـو» سـنة ٦٠ ق.م بـدأ صـراع شـديد علـى العـرش لـدى الهـون واسـتمر ثمانـى سـنوات بيـن أمـراء الهـون وهـم؛ «قوغوشـار» (هوهـان يـه) و«قوتـى أوش» (جـى جـى) و«طوجـو» (طوجـى) و«أغـوز» (هوجيـه) و«جيلـى»، وقـد سـمى هـذا الصـراع بـ «صـراع الحـكام الخمـس».

وخـلال أربعـة أعـوام، انتصر«قوتـى أوش» ابـن الحاكـم «شـولوى قانقـوي» (هولـو جـوان جـو) بجيـش قوامـه ٥٠ ألـف فـارس، علـى كل الأمـراء مثـل «قوغوشـار» الـذى أعلـن نفسـه حاكمـاً وكانـت مـدة حكمـه بيـن (٥٦ - ٥٢ ق.م) و«طوجـو» و«أوغـوز» و«جيلـى». ومـات خلـق كثيـر فـى هـذه الحـرب الداخليـة التـى اسـتمرت عـدة أعـوام وتحولـت أراضـى الإمبراطوريـة إلـى بحيـرة مـن الـدم، وكانـت الذئـاب الملطخـة أفواههـا بالدمـاء تعـوى فـوق الجثـث. وصرخـات الطيـور التـى تـأكل الجيف تمـلأ الأرجـاء. وامتلأت السـهول الخضـراء فـى الأماكـن التـى دارت بهـا الحـروب بعظـام البشـر البيضـاء، ونفـق تسـعون بالمائـة مـن القطعـان وصـار النـاس وجهـاً لوجـه أمـام خطـر المجاعة، وتمكـن ٥٠ ألـف فقـط مـن البقـاء علـى قيـد الحيـاة مـن ٣٥٠ ألـف محـارب شـاركوا فـى الحـرب الداخليـة.

دخـل «قوتـى اوش» [جـى جـى] أوتوكـن عاصمـة الهـون بعـد أن أزاح منافسـيه، وجلـس علـى العـرش فـى مراسـم مهيبـة. احتـار «قوغوشـار» فيمـا ينبغـى عملـع بعـد الهزيمـة أمـام أخيـه الأكبـر، فجمـع المقربيـن منـه وسـألهم، فنصحـه مستشـاره «إيلقـو سـاى» أن يلجـأ إلـى إمبراطـور «هـان» وأن يهـزم «قوتيـاوس» بمسـاعدته ويسـتولى علـى عـرش الهـون. لكـن أمـراء الهـون الآخريـن وقفـوا ضـد هـذا الـرأى.

وقالـوا : «إن الهـون مهـرة فـى ركـوب الخيـل وليـس فـى العالـم مـن يدانيهـم فـى الحـرب. إن الهـون يعرفـون أن البطولـة شـيء مقـدس، أمـا الخضـوع فيعرفـون أنـه عـار والمـوت فـى الحـرب دليـل البطولـة، أمـا مـا يحـدث الأن فهـو صـراع علـى العـرش بيـن الإخـوة. إن عـرش الهـون ليـس فـى يـد أعدائنـا، بـل انتقـل إلـى يـد أخوتنـا [٥٠].

وجـد الأميـر «قوغوشـار» رأى الوزيـر صحيحـاً، فاقتـرب فـى عـام ٥٢ ق.م مـن الحـدود الشـمالية لإمبراطوريـة هـان وفـى معيتـه بضعـة آلاف مـن الفرسـان وأرسـل ابنـه سـفيراً إلـى «جانـأن» فغضـب «قوتـى اوش يابغـو» (جـى جـى) مـن تصـرف «قوغوشـار يابغـو» هـذا، وتسـبب مجـىء «قوغوشـار يابغـو» الـذى خـرج صـوب «جانـأن» فـى سـنة ٥١ ق. م. ووصـل حتـى جسـر «وى خـي» الكائـن فـى غـرب العاصمـة، فـى إربـاك «سـوان تـى» إمبراطـور هـان اليابغـو وهـو فـى كامـل معيتـه وتباحـث «قوغوشـار يابغـو» مـع الإمبراطـور فـى موضوعـات التفـوق علـى «قوتـى اوش يابغـو» بالقـوة العسـكرية التـى سـيوفرها، وقبـل الإمبراطـور كل رغباتـه وودعـه فـى غـرب «باوطـو» الموضـح أنهـا مقـر مؤقـت، وخصـص عـدداً مـن الجنـود لحمايتهـا. وأرسـل مـرة أخـرى إبـن «قوتـى اوش»الـذى كان قـد أرسـل مـن قبـل كرهينـة إلـى «جانـأن». وكان هـذا يعنـى أن اتفاقيـة الصداقـة التـى أبرمتهـا إمبراطوريـة هـان مـع «قوتـى أوش يابغـو» (جـى جـى) قـد ألغيـت.

اعتقـد «قوتـى اوش يابغـو» أنـه تصـرف تصرفـاً عكسـياً فتـرك العاصمـة «اوتوكـن» سـنة ٤٩ ق.م وتوجـه نحـو الشـمال وأخضـع فـى البدايـة الأوغـوز الذيـن كانـوا يعيشـون بالقـرب مـن «جوجـك» ٥١. ثـم قـوى صفوفـه وسـار ضـد القيرغيـز القاطنـة فـى المنابـع العليـا للينيسـى واخضعهـم لطاعتـه، ثـم أخضـع أقـوام «تـورا» القاطنـة بجـوار «البايقـال». وبعـد أن أخضـع هـذه الإمـارات الثـلاث، شـن «قـو تـى اوش يابغو»-الـذى بلـغ حـدا كبيـرا مـن القـوة -هجومـا علـى الأويصـون. وأبـدى «الأويصـون» مقاومـة شـديدة إلا أنهـم فـى النهايـة وجـدوا مـن الخيـر أن يستسـلموا. إن الأويصـون- الذيـن عاشـوا - مسـتقلين عـن الهـون مـن سـنة ٧١ حتـى ٥٠ ق.م بعـد ان أخضعهـم «قوتـى

اوش يابغـو» سـنة ٤٩ ق.م عاشـوا تحـت حكمهـم حتـى سـنة ٨٥ بعـد الميلاد.

بعـد مغـادرة «قوتـى اوش يابغـو» اوتوكـن انسـحب «قوغوشـار» مـرة أخـرى دون أن يصغـى إلـى تحذيـر إمبراطـور الهـان، وجلـس علـى عـرش إمبراطوريـة الهـون ثـم قـام بزيـارة «جانـأن»، وتباحـث مـع «هـان يانتـى» إمبراطـور هـان فـى موضـوع العلاقـات بيـن الدولتيـن - ذلـك لأنـه بعـد قتـل «قوتـى اوش يابغـو» علـى يـد القائـد «جينـج» فـى طـالاس سـنة ٣٦ ق.م، كان يـرى فـى نفسـه الإمبراطـور الأوحـد لـكل الهـون قاطبـة حتـى أنـه بعـد مـوت «قوتـى اوش»، لجـأت أقـوام تـورا والقيرغيـز والأوغـوز والإمـارات الأويغوريـة الكائنـة فـى «حـوض تاريـم» لجـأت إلـى «قوغوشـار». وكان حاكـم الهـون قـد تـزوج بالأميـرة الصينيـة «وانـج جـاو جـون» فـى سـنة ٣٣ ق.م. وكانـت هـذه آخـر مصاهـرة بيـن «أسـرة هـان» وبيـن الهـون.

حدثـت تطـورات مثيـرة فـى دولـة الهـون خـلال تسـعين عامـاً، اعتبـاراً مـن «قوغوشـار يابغـو» حتـى «هوتـو ارشـى طاوغانوتـى» (يـو) (٤٣ ق.م- ٤٦م). فبعـد أن عـاد «قوغوشـار يابغـو» إلـى عاصمـة الهـون فـى سـنة ٤٣ ق.م تخلـى عـن ارتباطـه بإمبراطوريـة الهـان. وفـى البدايـة أصلـح اقتصـاد الدولـة الـذى انهـار بسـبب الحـروب الداخليـة والكـوارث الطبيعيـة، واسـتعاد الهـون مجدهـم الغابـر فـى آسـيا الوسـطى وغـرب آسـيا بعـد أن قـوا اقتصادهـم ونظمـوا صفـوف جيوشـهم.

وفـى الأيـام التـى تجمعـت فيهـا إمبراطوريـة الهـون وزادت قوتهـم، انتـزع عـرش إمبراطوريـة «الهـان» مـن يدعـى «وانـج مانـج» الـذى ينحـدر مـن أسـرة الإمبراطـور مـن ناحيـة الأم، وأعلـن نفسـه إمبراطـوراً وهكـذا بـدأت العلاقـات بيـن الإمبراطوريتيـن تفسـد مـرة أخـرى.

كـوّن «وانـج مانـج» جيشـاً قوامـه ٣٠٠ ألـف مـن المحكـوم عليهـم بالإعدام فـى الصيـن، ومـن الفقـراء الذيـن اضطـروا للتمـرد بسـبب ظـروف الحيـاة ومـن المتمرديـن الشـبان. وقسـم «وانـج مانـج» جيشـه إلـى اثنتـى عشـرة فرقـة تحـت امـره اثنـى عشـر قائـداً وفـى السـنة العاشـرة بعـد الميـلاد قـاد جيشـه

ضد الهون من اثنتى عشرة جهة وتجمع بجوار سور الصين العظيم ينتظر الأمر بالهجوم.

تمركز جيش الهون المكون من عدة مئات من الآلاف تحت قيادة «كيانوتي يابغو» (چه په نوتي)، شمال سور الصين العظيم. ورغم أن كلا الطرفين استغل الفرصة للهجوم على الآخر، إلا أن أى صدام لم يحدث، لكن الهون الذين لم يكونوا سعداء بسبب موقف«وانج مانج» هذا - اجتازوا سور الصين العظيم وتوغلوا من داخل حدودأسرة هان، وهكذا تحولت الصداقة القديمة إلى عداء.

فى العام الثالث عشر للميلاد هجم «وانج مانج» على أقوام الأويغور الذين يعيشون على الحدود الغربية للهون، ووفرت «إمارة قراشَهَرْ» المساعدات للهون وأعملت القتل فى إحدى وحدات جيش «هان» التى كانت تحت قيادة «تنج – تسين». وقتل جيش أسرة هان خلال المعركة، لكن لم تكن لدى «وانج مانج» نية للإستلام. وقاد جيشاً ضد قارا شَهَرْ فى السنة السادسة عشرة للميلاد إلا أن وحداته العسكرية أبيدت من آخرها، وبعد هاتين الهزيمتين المتعاقبيتن اللتين منى بهما «وانج مانج» من قبل الأيغور الغربيين، أغلق الطريق الأساسي بين امبراطور «أسرة هان» وبين آسيا الوسطى، ذلك لأن الهون لم يكونوا يريدون ل«وانج مانج» أن يضع هذا الطريق تحت سيطرته.

ومهما يكن من شيء فإن «وانج مانج» لم يكن أحد ممن يستسلمون بسهولة، فقام فى عام تسعة عشر ميلادية بجمع جيش مكون من عدة مئات من الآلاف وبدأ الإعداد للهجوم على الهون، لكنه قتل خلال التمرد الذى قادته ثورة الفلاحين، والذى بدأ فى سنة ٢٤م فى الصين بدون أن يجد الفرصة لتنفيذ خطته.

بدأت علامات انقسام الهون مع مجئ سنة ٤٦م عندما مات «طاوغانوتي». فى ذلك العام حل محله ابنه «اورانغو» (واطاته هو) لكنه أيضاً مات فى نفس العام فاعتلى عمه «يانو» (يونو) العرش وأطلت الكوارث الطبيعية الشديدة برأسها فى أراضى الهند فى تلك الأيام،

وحدث قحط شديد استمر عدة أعوام أعقب ذلك غزو الجراد فتحولت كل المزارع والسهول والمراعي إلى صحراء قاحلة ومات نفر كثير من الناس والدواب بسبب الأمراض المعدية والجوع. واستفادت امبراطورية هان من ضعف الهون هذا، فتراجع «بانو» عن هجومه على إمبراطورية «الهان»، وأرسل سفيراً إلى القصر الصيني، وقرر إقامة العلاقات الدبلوماسية لتخفيف التوتر بين الدولتين. فأرسل الإمبراطور «كوانج وو - تي» وفداً برئاسة «لي ماو» إلى عاصمة الهون. وفي تلك الأثناء أرسل أمير الهون المسمى «باي» إلى إمبراطور الهان خريطة إمبراطورية الهون مع شخص صيني يُدعى «هو هينج»، وأعلن أنه سيقف بجانب جيش الصين في مواجهة «بانو». فقبل إمبراطور «هان» بسعادة اقتراح «باي» بالتحرك لأنه رأى أن الفرصة التي كان ينتظرها منذ سنيين عديدة قد واتته أخيراً، وفي ذات الوقت رفض طلب بانو بالزواج من إحدى الأميرات.

وفي عام ٤٨ م أعلن «باي» نفسه حاكماً (يابغو) باسم «إيل هو - هان يه» الثاني. وهذ العام يعتبر نقطة تحول في تاريخ امبراطورية الهون، فقد انقسمت الإمبراطورية رسمياً إلى(شرقية) في الشمال، و(غربية) في الجنوب.

عاشت إمبراطورية الهان الغربية(٤٨ - ٣٥٠م) فترة اضطرابات كبيرة في عهد «بانو» (٤٨ - ٨٣م) أول حاكم لها. ففي عام ٤٩م رفعت قبيلتا «أوغان» [وو - هوان] و«سيانبي» راية العصيان واتحدوا مع أعداء الهون. وعمل إمبراطور «هان» كل ما في وسعه من أجل تفتيت الهون الغربيين، واحتلال أراضهيم والقضاء على دولتهم. حتى أنه أراد أن يقطع علاقاته مع الأويغور الغربيين الذين كانوا يعيشون على الحدود الغربية لهون الجنوب، لكنه لم يحقق النجاح الذى كان يتمناه.

لم يستطع الهون الجنوبيون أن يتحملوا الكوارث الطبيعية التي استمرت عدة أعوام، ولم يتحمل الهون الشرقيون هجمات قبيلتي «أوغان» و«سيانبي»، فبدأوا بالانسحاب رويداً رويداً نحو الغرب. وبرغم هذا الموقف البائس، نجح»بانو يابغو» في بسط سيطرته مرة أخرى

على المناطق الغربية للهون. وناضل من ناحية من أجل الاحتماء من هجمات إمبراطورية «هان»، ومن ناحية أخرى لقطع العلاقات بينه وبين هون الشرق. ولتحقيق هذا الهدف أرسل السفراء إلى عاصمة «هان» أربع مرات فى أعوام ٥١، ٥٢، ٥٥، ٦٤ ميلادية، وجدد اقتراحه بتطوير العلاقات التجارية، والزواج بأميرة من القصر الصيني. وفى النهاية أرسل إمبراطور «هان» سفيراً في عام ٦٤م يحمل رسالة إلى «بانو يابغو»، وأعلن أنه يوافق على تطبيع العلاقات التجارية، لكن هذه العلاقات قُطعت أثناء الحرب التى اندلعت بين الطرفين في عام ٧٣م.

وشن «بانو يابغو» الحرب على إمبراطورية هان بعد أن استجمع قوته فى الداخل والخارج. ولم تتوان إمبراطورية هان عن صد الهجوم، واتحدت مع الهون الشرقيين وقبيلتي «أوغان» و«سيانبي»، وقادت الوحدات المكونة من عشرات الآلاف من الفرسان ضد الهون الغربيين من جهات مختلفة. وبدأو السير من «يو - تشوآن» في «جانسو»، وقضى الجيش المتحد المتوجه نحو الغرب على حاكم الهون الغربيين، «غويان هان» فى شمال «طورفان» (بالقرب من جيميسار) واستولى على «قومول». أما الوحدات الأخرى التي خرجت ضد الهون من جهة أخرى، فقد عادت أدراجها ولم تواجه قوات الهون الأصلية.

بعد ان استولت إمبراطورية «هان» على «قومول» الإستراتيجية الواقعة على مشارف طريق الحرير في عام ٧٣، سعت إلى قطع العلاقات التي بين الهون والإمارات الأخرى فى حوض «نهر تاريم». وذلك لأن جزءا كبيرا من احتياجات الهون الغذائية كان يتم الحصول عليه من هذه المنطقة. وأرسل الإمبراطور «منج - تي»، «بان تشاويو» سفيراً إلى حوض نهر تاريم مع وفد مكون من ٣٦ شخصاً. وقام «بانتشاو» الذي مكث ثلاثين عاماً في حوض نهر تاريم، بسلسلة أعمال تستهدف مصلحة الإمبراطورية متجاوزاً بذلك صلاحيات السفارة.

وبينما كان «بانتشاو» مستمراً فى جهوده ضد الهون فى حوض «نهر تاريم»، ضمن «بانو تانريقوت» مساندة إمارتي «كوچا» و«قارا شَهَرْ»،

ووجـه ضربـة شـديدة لوحـدات «هـان» فـى أراضـى إمارتـي «أرقـه قوشـو» (أرقـه جـه شـيه) فـى قومـول (بالقـرب مـن جيميسـار)، و«أون قوشـو» (طورفـان). وأمـام ضغـط «بانـو تانريقـوت»، سـحب الإمبراطـور «تشـانج - تـي»، «بانتشـاويو» وجيـش المتمرديـن الـذي نشـره إلـى قومـول. وهكـذا قطـع الهـون طريـق القوافـل الـذى ظـل مفتوحـاً بيـن أعـوام ٧٣ – ٧٧م، وظـل مغلقا(حتـى عـام٩١م). وأثنـاء اسـتعداد «بانتشـاو» للعـودة إلـى بلـده بأمـر الإمبراطـور، طلـب أميـر «خوتـن» منـه عـدم الذهـاب. وقـرر بقـاء «بانتشـاو» فـى إمـارة خوتـن بصفتـه سـفيراً. وطلـب فـى الخطـاب الـذى أرسـله إلـى الإمبراطـور «تشـانج - تـي» فـى عـام٨٠م إرسـال الجنـود إليـه قائـلا: «سـيصير مـن مصلحـة إمبراطوريتنـا القضـاء علـى أعدائنـا مـن البربـر بيـد أعـداء البربـر أيضـاً». ووافـق الإمبراطـور علـى طلبـه وأرسـل إليـه وحـدة مكونـة مـن ألـف جنـدي تحـت إمـرة قائـد يُدعـى «هـوي - هـان».

كان «بانتشـاو» الـذى اسـتغل المشـاحنات بيـن الإمـارات الأويغوريـة فـى حـوض نهـر تاريـم، وأحـدث الوقيعـة فيمـا بينهـم، وتسـبب فـى وقـوع أحـداث داميـة كثيـرة فـى المنطقـة. وعـلاوة علـى ذلـك فقـد اسـتغل فرصـة الهزيمـة المنكـرة التـى منـى بهـا الهـون أمـام قبيلـة «سـيانبي» فـي سـاحل أورخـون فـي عـام ٨٧م، وحـرض إمـارات «خوتـن» و«ياركنـد» و«كاشْـغَر» علـى محاربـة إمارتـي «كوچـا» و«قاراشَـهَرْ» اللتيـن كانتـا صديقتيـن للهـون، وأعـد العـدة لسـحقهما.[٥٢]

وفيمـا بيـن أعـوام ٨٥، ٨٧، ٩٠، ٩١م أذاقـت إمبراطوريـة هـان، الهـون الغربييـن الهزيمـة أكثـر مـن مـرة اعتمـادا علـى قـوة الهـون الجنوبييـن وقبيلتـي «سـيانبي» و «تـورا» (اللتـان تمردتـا علـى الهـون عـام ٨٥م). وبرغـم قتـال الهـون الشـرقيين ببسـالة فـي صفـوف إمبراطوريـة «هـان» للقضـاء علـى إخوانهـم الهـون الغربييـن، فقـد قضـى «سـاو سـاو» عليهـم فـي النهايـة عـام ٢١٦م.

وبعـد الهزيمـة التـى تعـرض لهـا الهـون الغربييـن أمـام أعدائهـم فـى عـام ٩١م، منحـوا «قومـول» (حامـي) لإمبراطوريـة «هـان»، وهكـذا انفتـح ثانيـة

طريـق القوافـل الـذي ظـل مغلقـاً أربعـة عشـر عامـاً. واعتبـاراً مـن هـذا التاريخ ظـل طريـق القوافـل الدولـي مفتوحـاً طـوال سـتة عشـر عامـاً. وعليـه فعندمـا اضطـر قصـر «هـان» إلـى اسـتعادة السـفير «بانتشـاويو» فـي عـام ١٠٦م، اسـترد الهـون الغربييـن «قومـول»، وسـيطروا علـى طريـق الحريـر، وتقربـوا مـن جديـد مـن الإمـارات التـي فـي حـوض نهـر تاريـم.

وفـي ١٢٣م أرسـلت إمبراطوريـة هـان «بـان يونـج» إلـى حـوض نهـر تاريم مـع وحـدة مكونـة مـن ٥٠٠ جنـدي. وسـعى «بـان يونـج» الـذى مـارس نشـاطه قـرب «لوكجـون»، إلـى القضـاء علـى نفـوذ الهـون فـى المنطقـة مـن خـلال مسـاندة بعـض الإمـارات. وبرغـم احتـلال «بـان يونـج» لقومول، اسـتطاع الهـون بزعامـة «كويـان خـان» أن يتحـدوا مـع إمـارة «أرقـة قوشـو»، وانقضـوا علـى قـوات هـان فـى قومـول فـي عـام ١٢٤م، وقتلـوا قائدهـم «هـسوبان». ثـم أخضعـوا إمـارة «أون قوشـو»، واسـتولو علـى موقـع الممـر الكائـن بيـن الشـرق والغـرب. وقـد اسـتدعى امبراطـور هـان «بـان يونـج» سـنة ١٢٧م إلـى العاصمـة، وأمـر بحبسـه بحجـة ارتكابـه جريمـة عسـكرية بعـدم ذهابـه إلـى الجبهـة فـي الوقـت المناسـب.[٥٣]

حـارب الهـون الغربيـون إمبراطوريـة «هـان» ٥٠ عامـاً (٧٠ - ١٢٧ م)،مـن أجـل المحافظـة علـى هيمنتهـم علـى آسـيا الوسـطى. وكانـت أكبـر نقطـة خـلاف بيـن الأطـراف هـى «قومـول». ولـم يتحقـق مشـروع اسـتيلاء إمبراطورية«هان»علـى حـوض نهـر تاريـم لأسـباب عديـدة، والحقيقـة أن الهـون هـم الذيـن أعاقـوا تحقيـق هـذا المشـروع.

السيانبي والأويغور

«السـيانبي» فـى الأصـل إحـدى قبائـل «الطونغـوز». وبعـد أن أخضـع «باتور تانريقـوت» حاكـم الهـون، «الطونغـوز» الذيـن كانـوا يعيشـون فـى الأراضـى الممتـدة مـن شـرق منغوليـا الداخلية(الولايـة الصينيـة الحاليـة)، ومنغوليـا الحاليـة حتـى المحيـط الأعظـم، فـي عـام ٢٠٦ قبـل الميـلاد، جـاء فـرع منهـم مـن السـفوح الشـمالية لجبـال «قديرخـان» إلـى جبـال «سـيانبي»، واسـتقروا

فـي المنطقـة التـي تسـمى حاليـاً بــ (ليـاو - تونـج)، واعتبـاراً مـن ذلـك التاريـخ اتخـذوا لأنفسـهم اسـم «سـيانبي» نسـبة إلـى اسـم الجبـل الموجـود فـى المنطقـة التـى سـكنوها.[٥٤]

عـاش «السـيانبى» مرتبطيـن بالهـون منـذ عـام ٢٠٦ ق.م وحتـى عـام ٤٨م؛ ولكنهـم رفعـوا رايـة العصيـان فـي عـام ٤٨م، مسـتغلين انقسـام الهـون إلـى قسـمين، وحصلـوا علـى اسـتقلالهم. ثـم هاجـروا مـن السـفوح الشـمالية لجبـال «قديرخـان» إلـى المناطـق القريبـة مـن بحيـرة «هولـون بـر». وبعـد هـذه الهجـرة التـى جـرت فـي عـام ٦٠م تحركـوا مـن وادى «قـارا - موريـن» نحـو الغـرب، واسـتقروا فـى منطقـة «قوبـدو» فـي منغوليـا الحاليـة.

هاجـر «السـيانبى» فـي أواخـر القـرن الثانـى الميـلادي مـن «قوبـدو» باتجـاه الجنـوب الشـرقي تحـت قيـادة زعيمهـم «تشـي - بـان خـان». وتقـول إحـدى الروايـات إن حيوانـاً مقدسـاً يُسـمى «سـايبي»، لـه شـكل الحصـان وصـوت الثـور، كان يرشـدهم خـلال هـذه الهجـرة الشـاقة. وتبـع «السـيانبى» هـذا الحيـوان المقـدس، وبعـد عـام مـن المسـير بيـن الوهـاد الخطيـرة، وصلـوا إلـى الأراضـي التـي طالمـا اشـتاقوا إليهـا؛ واعتبـاراً مـن هـذا التاريـخ اطلقـوا علـى أنفسـهم اسـم «سـايبي» بسـبب هـذا الحيـوان الـذى اتخـذوه رمـزاً مقدسـاً.[٥٥] وتوضـح هـذه الروايـة أن اسـم سـيانبي جـاء مـن اسـم «سـايبي».

وكمـا رأينـا فـإن هنـاك روايتيـن مختلفتيـن بشـأن اسـم سـيانبي، أحدهما تقـول إنـه نسـبة لاسـم جبـل، بينمـا تقـول الروايـة الأخـرى إنـه نسـبة لاسـم حيـوان مقـدس يُسـمى «سـايبي». ولكـن لـم يثبـت حتـى الآن صحـة أي منهمـا.

ونظـراً لأن «السـيانبى» عاشـوا خاضعيـن لحكـم الهـون علـى مـدى ٣٠٠ عـام، مـن عـام ٢٠٦ ق.م حتـى عـام ٥٠م، أصبـح جـزء كبيـر منهـم أتـراك أو تـم تتريكهـم.

وعندمـا انقسـم الهـون فـي عـام ٤٨م إلـى قسـمين، أعلنـت قبيلـة «أوغان» (وو - هونلر)التـى شـكلت جـزءًا مهمـاً مـن «الطونغـوز» العصيـان، وحصلـت على

اسـتقلالها. وانتهـزت إمبراطوريـة «هـان» هـذه الفرصـة، وسـعت إلـى تحريـض السـيانبي ضـد الهـون. ولجـأت قبيلـة أوكان التـى مُنيـت بالهزيمـة علـى يـد «بيـان - هـو» الحاكـم السـيانبي، إلـى إمبراطوريـة «هـان»، وهاجـرت إلـى مناطـق سـور الصيـن العظيـم الداخليـة. وعندئـذ بـدأ نجـم «السـيانبى» فـى التألـق.

وفـي عـام ٨٥م هجمـت قبيلتـا «تـورا» و«سـيانبي» علـى الهـون بتحريـض مـن إمبراطوريـة «هـان». وانتهـت الحـرب التـى شـنها السـيانبى قـرب «نهـر أورخون»عـام ٨٧م، بهزيمـة الهـون الغربييـن. وأسـر «السـيانبى» أميـر الهـون الغربييـن وقتلـوه، فثـأروا بذلـك لأنفسـهم ثـأراً تاريخيـاً. إذ عندمـا هـزم «باتـور تانريقـوت»، الطونغـوز فـي عـام ٢٠٦ ق.م، دمـر مقابـر حـكام الطونغـوز، ولكـن السـيانبى الذيـن جاءوا مـن نسـلهم لـم ينسـوا هـذه الواقعـة علـى الإطـلاق.

بعـد أن تعـرض الهـون الغربيـون لهزيمـة فادحـة أمـام جيـوش إمبراطوريـة هـان وجيـوش السـيانبى والهـون الشـرقيين المتحـدة، فـي عامـي ٨٩ و٩١، هاجـر قسـم منهـم إلـى آسـيا الوسـطى، أمـا الذيـن لـم يرغبـوا فـي تـرك وطنهـم(وكان عددهـم حوالـي ٦٠٠ ألـف نسـمة)، فقـد قبلـوا البقـاء تحـت سـيطرة السـيانبى، وغيـروا هويتهـم. وهكـذا حـل السـيانبى محـل الهـون، وأخـذت قوتهـم تـزداد يومـاً بعـد يـوم.

انزعجـت إمبراطوريـة هـان مـن تطـور الأحـداث علـى هـذه الشـاكلة، فاتحـدوا مـع الهـون الشـرقيين و «الأوغـان» اعتبـاراً مـن القرن الثانـى الميلادي، وبينمـا كانـوا يخططـون للقضـاء علـى «السـيانبى»، لمـع مـن بيـن السـيانبى فـى نفـس القـرن شـخص يُدعـى «طانشـيجوي» [طـان شـيه - هـواي]. وهنـاك روايـات كثيـرة ومختلفـة عـن «طانشـيجوي» هـذا.

تقـول إحـدى الروايـات إنـه كان هنـاك شـاب مـن السـيانبى يُسـمى «طوروغـور»، يخـدم فـي جيـش الهـون فـي عـام ١٣٠م، وبعـد إنتهـاء خدمتـه العسكريةٍ التـي اسـتمرت ثلاثـة أعـوام، عـاد إلـى بيتـه فوجـد زوجتـه ولـدت لـه طفـلاً، وأطلقـت عليـه اسـم «طانشـيجوي». فقـرر «طوروغـور» الـذى اعتقـد أن زوجتـه خانتـه،أن يقتلهـا. وروت المـرأة، التـي خشـيت مـن قتـل زوجهـا

لهـا، هـذه الواقعـة لـه: «ذات يـوم سـاء الطقـس، وبـدأت الصواعـق المخيفـة ترعـد فـى السـماء. وأنـا خائفـة وأنظـر إلـى السـماء، وفجـأة بـدأت السـماء تمطـر بشـدة، ودخلـت فـى فمـي حبـة مطـر كبيـرة. فابتلعتهـا. وحملـت بعدهـا، ثـم ولـدت هـذا الطفـل». فصـدق «طوروغـور» حكايـة زوجتـه وتراجـع عـن قتلهـا.

وطبقـاً لمـا هـو مسـجل فـي المصـادر التاريخيـة الموثـوق بهـا، فـإن «طانشـيجوي» ولـد عـام ١٣٥م، لكـن قـول امـه بإنـه جـاء نتيجـة حبـة مطـر كبيـرة ابتلعتهـا، جعـل منه أسـطورة. وفي سـن الرابعة عشـرة بدأ»طانشـيجوي» فـي جـذب الأنظـار إليـه بشـجاعتة وحكمتـة. وعندمـا اسـتولى أحـد أمـراء السـيانبي علـى قطيـع حيوانـات خـاص بأحـد أقاربـه، امتطـى «طانشـيجوي» فرسـه وتعقـب هـذا الأميـر بمفـردة واسـتعاد القطيـع كلـه. وبذلـك نـال احتـرام الجميـع، وعندمـا بلـغ الخامسـة عشـرة مـن عمـره أجلسـه «السـيانبى» علـى العـرش.

شـكل «طانشـيجوي» الـذى أقـام مقـره بجـوار «جانج - جيـا - كـو» الحالية، جيشـاً قوامـه مائـة ألـف جنـدي، وأسـس دولـة سـيانبي، واجتمـع تحـت لوائـه أمراء»السـيانبي» الأخريـن فـى منغوليـا ومنغوليـا الداخليـة والمناطـق الواقعـة فـي شـرقهم وغربهـم. وفـي القسـم الخـاص «بالسـيانبى» مـن كتـاب «وي - شـو»، بشـأن الإمبراطوريـة التـى أسسـها «طانشـيجوي» الـذى خضـع لـه «الطوريـون» الذيـن بجـوار بايقـال وشـعوب الشـرق، والهـون الذيـن لـم يتركـوا وطـن الأجـداد، وأقـوام أويصـون فـى الغـرب فـي الفتـرة مـا بيـن أعـوام ١٥٠ – ١٧٠م، يـرد مـا يلـي:

«كانـت حـدوده الجنوبيـة تجـاور حـدود إمبراطوريـة هـان. وقـد شـن «طانشـيجوي» الهجمـات علـى الطوريـيـن فـى الشـمال، وقبائـل «بـوروم» فـى الشـرق (أسـلاف الكورييـن حاليـاً) وقبائـل «وو - صـون» فـى الغـرب، وأخضعهـم لسـيطرته، وحـل محـل الهـون. وكانـت حـدود الإمبراطوريـة تمتـد بطـول عشـرة آلاف كيلـو متـر مـن الشـرق إلـى الغـرب، وبطـول سـبعة آلاف كيلـو متـر مـن الشـمال إلـى الجنـوب.»

وتوضح هذه المعلومات أن حدود إمبراطورية السيانبي التى أسسها «طانشجوي» خلال الأعوام (١٥٠ - ٢٣٥ م)، كانت تمتد إلى الحدود الغربية لكوريا فى الشرق، وتقترب من «بايقال» في الشمال، وحتى سور الصين العظيم في الجنوب وحتى الأجزاء الشرقية لقازاقستان فى الغرب.

وشن «طانشيجوي» بعض الحروب على إمبراطورية «هان» خلال الفترة من ١٥٦ - ١٧٨م وألحق أضراراً بالغة بالأهالي الذين يعيشون فى»يو - تشوان» في «قانصو» والمناطق الشمالية لـ «خو - بي» و«شان - سي» و«شين - سي هويي».[٥٦] وخضع قوم «أوغان» (وو - هونلر) لسيطرة «طانشيجوي» وكانوا قد لجأوا من قبل إلى إمبراطورية هان فى سنة ١٦٦م. وأرسل «هوانٍ - تي» إمبراطور «هان» الذى كان فى موقف فى غاية الصعوبة سفيرا إلى «طانشيجوي»، يخبره برغبته فى منحه أميرة من هان كزوجة له، والعيش في سلام مع السيانبى، لكن «طانشيجوي» رفض العرض. فهجم «هوان - تي» الذي أعيته الحيلة، على السيانبى في عام ١٧٧م بجيش قوامه عشرة آلاف جندي منٍ الصينيين والهون؛ لكن أبيد جيشه بالكامل باستثناء عدد قليل جداً من الجنود.

وتسبب خلو العرش بموت «طانشيجوي» في عام ١٨١م بعد ٣٢ عاماً فى السلطة، فى ظهور الحرٍوب الداخلية بين أمراء «السيانبي» وفتح الطريق لتقسيم السيانبى أولا، ثم إنهيار الدولة فيما بعد.

وبعد موت «طانشيجوي» اعتلى العرش ابنه «غارانٍ»، لكنه لم يكن حاكماً قدير كأبيه، فقد كان يركن إلى الراحة وغداراً. لهذا السبب قُتل بعد فترة قصيرة.

واعتلى العرش بعده ابن أخيه «قوي - تو»، وفي عهد انفرط عقد السيانبى وتفرقت صفوفهم عندما طالب «تشيان - مان»، «بن غاران» بحقه في العرش. ومات «قوي - تو» فى عام ٢١٦م واعتلى العرش بعده شقيقه «بودوكين». وفى عهده استعادت إمبراطورية «سيانبي» قوتها رغم وقوع بعض الصدامات الداخلية. وعندما مات «بودوكين» في عام ٢٣٣،

اعتلى ابنه «قبنين» العرش. وكان «قبنين» مفكرا استراتيجياً وجندياً جيداً، كما كان أيضاً دبلوماسيا ناجحاً. فقد هزم إمبراطورية «وي» أكثر من مرة، وقضى على جميع وحدات «وي» العسكرية في الحرب التي دارت في شمال «شان - سي» في عام ٢٣٤م، واحتل جزءًا من «شان - سي» و«شين - سي». وفي هذه الحرب آزرته جيوش دولة «شو - هان» التي أسست علاقات صداقة معه.

وأثناء حصار جيش «وي» بالقرب من مدينة «هي - شان» الواقعة غرب قانصو، توجه «جوكليانغ» أحد وزراء «شو - هان» سفيراً إلى «قبنين»، وطلب منه المساعدة، فجاء «قبنين» بنفسه على رأس جيشه، واشترك بالفعل في الحرب التي دارت بجوار مدينة «جاو - ليانج». وأثار سير الأحداث على هذا النحو، قلق إمبراطورية «وي». فسعى قادة «وي» لدعم وحدات حرس الحدود من ناحية، وبدأوا من ناحية أخرى في البحث عن وسيلة تمكنهم من القضاء على قبنين باغتياله. فأرسل والي بكين قناصا يقال له «خلونغ» سراً، نجح في اغتيال «قبنين» في عام ٢٣٥م.

بعد موت «قبنين» تأسست إمارة «طوبا» سيانبي التي حلت محل إمبراطورية سيانبي. وكان يُطلق على «طوبا سيانبي» منذ القدم، سيانبي فقط؛ ولكن اعتباراً من عام ٢٠٦ق.م تشكل شعب يسمى «طوبا سيانبي» نتيجة امتزاج الهونين مع السيانبي. ونعرف من التاريخ أن انصهار شعب بأكمله داخل شعب آخر يستغرق زمناً طويلاً. واستغرق التماذج التام بين الهون والسيانبي مائتي عام تقريباً، بداية من خمسينات قبل الميلاد، وحتى عام ١٥٠م، وهكذا ظهر شعب جديد باسم طوبا سيانبي.

وتتضمن كتب التاريخ معلومات صريحة حول أصل كلمة «طوبا». تقول هذه المعلومات إن الأطفال الذين يولدون من أب سيانبي وأم هونية كانوا يسمون طوبا[٥٧]. وباختصار فإن شعب طوبا سيانبي هم أساساً من السيانبي الذين تم تتريكهم، وظهروا على مسرح التاريخ بعد انهيار إمبراطورية سيانبي. واستقروا عند سفوح جبال «چوغاي»، وأسسوا إمارة

«طوبا سيانبي». وقد قضى «الأواريون» في النهاية على طوبا سيانبي في عام ٣٩٤م، بعد أن استمر وجودهم ١٦٠ عاماً.

أما أقوام تورا فنجد إنهم حافظوا على وجودهم في الفترة من ١٥٠ – ٢٣٥م تارة مرتبطين بالسيانبى وتارة أخرى مستقلين. وتتضمن المصادر المكتوبة فى القرن الثالث ق.مٍ معلومات تتحدث عن أقوام تورا التي عاشت قريبا من بايقال. مثلا فى المؤلف المسمى «التاريخ الموجز لإمارة وي» الذى كتبه «وي - هوان»، وردت في باب «أقوام رونج الغربية»، معلومات عن أقوام «تورا» التى تعيش فى الأراضى الممتدة من نهر إرتيش، حتى ساحل بحيرة «بالقاش».

وتقول هذه المعلومات إنه اعتباراً من ذلك التاريخ أصبح من المعتاد تسمية الذين يعيشون بالقرب من بايقال بـ «شعب تورا» الشرقية، وتسمية الذين يعيشون في الأراضي الواقعة بين نهر «إيرتيش» وبحيرة «بالقاش» بـ «شعب تورا» الغربية. وهاجر قوم تورا الشرقية في أواخر القرن الثالث الميلادى لأسباب غير معروفة، من المنطقة القريبة من بحيرة «بالقاش» إلى أقصى الجنوب، وانتشروا بالقرب من نهر «أرخون».

وكما أوضحنا من قبل أن «الأوار» قضوا على إمارة «طوبا سيانبي» في عام ٣٩٤م. واعتباراً من عام ٣٨٦م وحتى أواخر القرن الرابع الميلادي، أسس شعب يسمى طوبا - والمعتقد أنه ذو أصل سيانبي - «دولة وي»، وكانت عاصمتها «طا - طونج» الحالية، وفى نفس الوقت تشكل شعب باسم «الأوار» فى منغوليا. أما قوم تورا الشرقية فقد انحصروا بين هاتين الدولتين، ولم تكن هناك فى تلك الآونة وحدة بين قوم تورا الشرقية.

وفي عام ٣٩٠م شن «طوباقوي» وهو أول حكام «طوبا» هجوماً على شعب «تورا الشرقية» بجيش كبير، ووصل حتى سواحل «نهر أورخون». وفى تلك الآونة لم يستطع شعب»تورا الشرقية» الذي يُسمى «أصحاب العربات ذات العجلات العالية»، مواجهة شعب طوبا. وخلال هذه الحرب هجم «طوباقوي» على الأويغور، وبلغت غنائمه في هذه الحرب حوالي ٢٠٠ ألف رأس من الحيوانات ٥٨، وأسر مائة ألف أسيرا من شعب تورا

الشرقية، وقام بتوطينهم بالقرب من «طا - طونج». وخلال هذه المسيرة العسكرية دفع أمامه غنائمه من الحيوانات التي بلغت أكثر من مليون.

في عام ٤٧١م، نقلت»طوبا» عاصمتها من مدينة «طا - طونج» إلى «لو - يانج»، وبعد العمل على تقوية الدولة بالاستفادة من القوة البشرية لشعب تورا الشرقية، وإمكاناتهم المادية، بدأت في الاستعداد للقيام بعملية عسكرية واسعة النطاق ضد «تشي» الجنوبية وذلك في عام ٤٩٨م. وفي تلك الآونة أرسل «شاو وين - تي» (٤٧١- ٤٩٩م)، حاكم أسرة «وي» الشمالية، سفيراً إلى تورا الشرقية، وطلب منهم الانضمام إلى الحروب التي سيشنها ضد أسرة»تشي» الجنوبية. لكن تورا الشرقية التى اختارت شُوقا أمير قبيلة الأويغور حاكماً لها، رفضت اقتراح «شاو وين - تي». فأرسل «شاو وين - تي» بعد رفض طلبه، جيشاً ضخماً تحت قيادة «يو وين - بو» ضد تورا الشرقية. وقضت تورا الشرقية تحت قيادة «شوقا» على وحدات «وي» الشمالية، وترك «يو وين - بو» ميدان القتال وهرب.

لم يقبل «شاووين - تي» الهزيمة التى تكبدها، وتوجه بجيش كبير بقيادة «جانج فانج - وانج» ضد تورا الشرقية للمرة الثانية، وانتصرت تورا الشرقية في هذه المرة أيضاً. وبعد هزيمة «شاو وين - تي» الثانية هذه راجع نفسه، وأرسل سفيراً إلى تورا الشرقية وقدم اعتذاره. والواقع أن تماسك تورا الشرقية ووحدتها الداخلية ضمن لها الانتصار على الأعداء؛ كما أن هزيمة «وي» الشمالية أنقذتهم من هجوم قوم «تشي» الجنوبيين. وعاشت تورا الشرقية مستقلة بعد أن اختارت شوقاً أمير الأويغور حاكماً لها، وتطورت بمرورالأيام. واستمر هذا الوضع حتى عام ٥٥م. وخلال هذه العهود لم تتمكن «طوبا» ولا «الأوار» من إخضاع تورا الشرقية، إذ أخذ الضعف يدب في كلتا الدولتان.

بعد أن نقلت «طوبا» عاصمتها من «طا - طونج» إلى «لو - يانج كما أوضحنا من قبل»، غيرت اسم الدولة إلى «يوان». وتخلت عن تقاليدها بعد أن استحسنت العادات والتقاليد الصينية، واستمر وجودها ٦٥عاماً، وفى النهاية امتزجت بالصينيين وانمحت من التاريخ.

الآوار والأويغور

بـدأ «الآوار» فـي الظهـور فـى أراضـي منغوليـا الحاليـة فـى أواخـر القـرن الرابـع الميـلادي. وكانـوا يعيشـون فـي العهـود القديمـة بالقـرب مـن جبـال «قديرخـان». وفـي أواخـر القـرن الرابـع الميـلادي هاجـروا إلـى الطـرف الشـمالي الغربـي مـن السـهول المنغوليـة، وانتشـروا بجـوار سـواحل نهـري «أورخـون» و«طـولا».

كان كتـاب الوقائـع الصينيـون يذكـرون الآوار فـي لغتهـم الصينيـة برمزيـن همـا «رو - رو»، و«رو - ران». واُسـتعملت هـذه الرمـوز التـي تعنـى الذئـب المتعفـن أو الذئـاب المتأهبـة، فـي الأصـل لتحقيـر الآوار. فـى حيـن أن كلمـة «أوار» تعنـي فـي اللغـة الآواريـة، «المتمـرد الشـجاع»[٥٩]. وهنـاك أراء مختلفة عن منشـأ الآوار. يقـول بعـض المؤرخيـن إنهـم فـي الأصـل أسـلاف «الطونغـوز»، ويقـول البعـض الآخـر إنهـم أسـلاف المغـول الذيـن تـم تتريكهـم. ولذلـك كانـت عـادات الآوار وتقاليدهـم فـي الفتـرة التـى ظهـروا فيهـا لاتختلـف كثيـراً عـن عـادات وتقاليـد الأويغـور.

تقـول إحـدى الروايـات إن فـي عهـد «ليفـي» السـيانبي، تـم القبـض علـى طفـل مجهـول الاسـم والأصـل وصـار عبـداً، وأطلـق عليـه اسـم «مغولـوي»، وتعنـي (صاحـب الـرأس الأقـرع). وبعـد أن كبـر مغولـوي أُعتـق وجـرى ضمـه إلـى الجيـش. وذات يـوم فـر «مغولـوي» مـن الجيـش، وجمـع حولـه الهاربيـن مثلـه؛ وبعـد موتـه جمـع ابنـه «چولوغـوي» مـن كانـوا حـول أبيـه فـي جماعـة، وصـار رئيسـاً للأواريـين. أمـا ابنـاء مغولـوي فقـد اختـاروا اسـم أبيهـم، واتخـذوه لقبـاً لهـم.

فـى عـام ٣٩٤م أطلـق الآوار الذيـن حلـوا محـل طوبـا سـيانبي، لقـبٍ «قاغـان» علـى حكامهـم. وحافظـت الإمـارة «الآواريـة» علـى وجودهـا ١٥٨عامـاً، وقويـت شـوكتها فـى عهـد «طولـون - قاغـان»، ونجحـت فـى توسـيع حدودهـا حتـى بلغـت كوريـا فـي الشـرق، و«قاراشَـهَرْ» فـي الغـرب، وسـواحل بحيـرة «بايقـال» فـي الشـمال، وصحـراء منغوليـا فـي الجنـوب.

ويمكننا أن نستقي المعلومات عن العلاقات التي كانت بين إمارة الآوار والأويغور والقبائل الأخرى، من خلال ما سجل فى باب «الآوار» في حولية سلالة «وي»، وباب «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» بنفس الأثر، وأيضاً فى باب «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» في تاريخ السلالة الشمالية، وباب «الآوار» فى حولية سلالة «تشي» الجنوبية، وأيضاً من مصادر أخرى. ويتضح من هذه المصادر أنه مع نهاية القرن الرابع، فى الفترة التي بدأ فيها صعود «الآوار»، انقسمت تورا الشرقية التى تكونت من مجموع ثماني عشرة قبيلة إلى قسمين. وفيما يلى أسماء القسم المكون من ست قبائل، وهم :

١ – أقوام تورا الحمراء[٦٠]
٢ – أقوام الأويغور
٣ – خوغورصو
٤ – جبني
٥ – أقوام القيرغيز
٦ – إيل تكين

ويتكون القسم الآخر من أقوام تورا الشرقية من ١٢ قبيلة، وهم :

١ – چيبولي
٢ – تورا
٣ – إيلجان
٤ – طارلان
٥ – قوغا
٦ – طاربوقان
٧ – آيرون
٨ – بايان

٩ – أركين
١٠ - بوركلي (طوماغلق)
١١ - كي أوي
١٢ - يوشوپي

وكما ذكرنا فيما سبق فإن الآوار بدأو فى الظهور فى الفترة التي انقسم فيها قوم تورا الشرقية إلى قسمين. وكما فهمنا من هذا أيضاً أن قوم تورا الشرقية فى تلك الآونة، لم يكونوا متحدين.

وبعد هزيمة الآوار في عام ٣٩١م على يد «طوباقوي» حاكم طوبا، تقهقر «طولون» حاكم الآوار إلى شمال صحراء منغوليا في عام ٣٩٤م، وأسس الإمارة «الآوارية». وهجم «طولون - خان» الأول على تورا الشرقية في عام ٤٠٢م وأخضعها. ورغم أن إمارة الآوار قويت شوكتها اعتباراً من ذلك التاريخ، فإن قوتها آنذاك لم تبلغ الذروة بعد. وفي عام ٤٠٢ م أخضع طولون - خان الأول تورا الشرقية، لكن «بك قولي» زعيم قبيلة «خوغورصو» رفض الخضوع، واصطدم مراراً بالآوار. وفيما بعد استطاع «بجقولي» الذي صار اسمه «السلطان باتور»، تحقيق انتصارات كبيرة على الآوار، لكنه انهزم في الحرب التي شنها ضدهم في عام ٤٣٠، ولجأ إلى إمارة «طوبا»، ومات هناك بعد فترة قصيرة. وأعلن «طوباقوي» الحداد عليه، ورتب له جنازه مهيبة. حتى أنه فى تلك الآونة لُحنت أغنية بين قوم تورا الشرقية عنه تقول:

أواه، حين تقول الأم أن بك قولي آت
ينقطع حينئذ بكاء الأطفال
حينما كانت الفتيات تغني كن يقلن
ليت فتياننا في شجاعة بك قولي

هذه الأغنية هى مدح في بطولة «بك قولي» وبسالتة، فالأويغور منذ القدم يبجلون الأبطال والمحاربين. ولهذا السبب كانت فتيات الأويغور

يفضلـن الـزواج مـن محاربيـن وأبطـال.

تعـرض الآوار فـى عهـد «طـالان - خـان» (٤١٤ - ٤٣١) لهجـوم إمـارة «طوبـا»، وانهزمـوا هزيمـة فادحـة. فرفـع «بـك قولـي» رايـة العصيـان ضدالآوار فــي عـام ٤٣٠، وفـى نفـس الفتـرة وتـزوج «أوتيـا - خـان» سـلطان «الآوار» (٤٣١ – ٤٤ م) مـن إحـدى بنـات حاكـم طوبـا. وفـى نفـس العـام تمـت خطبـة شـقيقة «أوتيـا - خـان» لــ «طـاي وو - تـي» حاكـم طوبـا.

فـي عـام ٤٣٠م تمـردت تـورا الشـرقية بقيـادة «بـك قولـي» علـى الآوار، ووجهـت لهـم ضربـة شـديدة، ولكنهـا انهزمـت علـى يـد قائـد الآوار «وو - تـي». وفـي تلـك الآثنـاء تـم القضـاء علـى ٨٠٪ مـن قبيلـة «خوغورصـو» التـي سـاندت «بـك قولـي» الـذى تزعـم العصيـان، كمـا تعـرض بـك قولـي أيضـا لهزيمـة فادحـة ولجـأ إلـى إمارة«طوبـا».

بعـد أن سـيطر الآوار علـى تـورا الشـرقية وأتـراك «الآلطـاي» (خضـع الأتـراك لـلأوار فـى عـام ٤٣٨م)، اسـتفادوا مـن قوتهـم العسـكرية والاقتصاديـة فـي تدعيـم جيشـهم لأن الأتـراك كانـوا ماهريـن فـي صنـع الأسـلحة، وقويـت شـوكة الآوار إلـى حـد كبيـر فـي عهـد «طـالان - خـان»، وكانـت حـدود إمـارة الآوار تمتـد حتـى بـراري «تاكـس» الواقعـة فـي «وادي إيلـي» فـي الغـرب، وحتـى «قومـول وطورفـان وقـارا شَـهَرْ وكـوچا وآقصـو».[٦١]

وسـعى الآوار إلـى إحـكام سـيطرتهم علـى وادى تاريـم فـى عهـد «چولـوق - قاغـان» (٤٤٤ - ٤٦٤م) و«يوچيـن قاغـان». وقـام «قوطقـو آرجونـي» حاكـم دولـة «قوطقـو - هـون» التـي أسسـها فـي عـام ٤٦٠م علـى أسـاس نظـام دولـة الهـون، بتأسـيس إمـارة طورفـان بعـد أن اسـتقر بهـا، وعيـن حليفـه «كنبايجيـون» خانـا عليهـا. وفـي عـام ٤٧٠م هجـم الآوار علـى إمـارة «خوتـن»، وحاصـروا عاصمتهـا حتـى يتيسـر لهـم إخضاعهـا. وبينمـا سـعى «أودون» حاكـم [خوتـن] مـن ناحيـة لجمـع جيشـاً للمقاومـة، قـام مـن ناحيـة أخـرى بإرسـال سـفير إلـى «وي» الشـمالية، طلبـاً للمسـاعدة. فامتنـع «طوباهـون» حاكـم «وي» الشـمالية عـن مسـاعدته متعلـلاً بطـول الطريـق[٦٢]. واسـتغل الآوار الفرصـة، واسـتولوا علـى الأراضـي الخصبـة الواقعـة فـي وادي تاريـم.

وفـي عـام ٤٨٠ دخـل الآوار فـي فتـرة حرجـة جـداً. لأنـه مـن ناحيـة كان الهـون البيـض قـد دخلـوا وادى تاريـم، ومـن ناحيـة أخـرى رفعـت «تـورا» الشـرقية رايـة العصيـان ضـد الآوار.

دخـل «الهـون البيـض» وادى تاريـم مـن جبـال «قـره قـوروم» فـى عهـد الإمبراطـور «أفتالانـوس» (٤٧٠ - ٤٩٦). وتحاربـوا مـع الآوار، وتقدمـوا فـى اتجـاه الشـرق، وانتزعـوا منهـم كوچـا وأقصـو وكاشْـغَر وخوتـن.[٦٣]

وبينمـا كان طولـون الثانـي (شـالون) حاكـم الآوار يسـتعد للهجـوم علـى أسـرة «وي» الحاكمـة الشـمالية فـي عـام ٤٨٧ م، طلـب مـن تـورا الشـرقية إرسـال جنـود لـه. ولكـن تـورا الشـرقية لـم تكـن تميـل إلـى هجـوم الآوار على «وي» الشـمالية، لـذا رفعـت رايـة العصيـان وقـررت تأسـيس دولـة مسـتقلة. وكان «آي أوجـرو» (أ - فـو - تشـي - لـو) وشـقيقه «چونجـي»، وهمـا مـن أمـراء قبيلـة بوركلـي يقـودان حركـة الاسـتقلال هـذه. إذ تقدمـا علـى رأس ١٢ قبيلـة مـن قبائـل «تـورا» الشـمالية تجـاه الغـرب قادميـن مـن صحـراء منغوليـا الحاليـة، ووصلـوا إلـى «وادي جونغـار» الكائـن بيـن جبـال الآلطـاي وجبـال «طانـرى». وكان عددهـم حينئـذ عبـارة عـن ١٢٠ألـف خيمـة أي حوالـي ٦٠٠ ألـف شـخص. وانضـم قـوم «تـورا» الشـرقية التـى هاجـرت إلـى «وادي جونغـار» إلـى قـوم تـورا الغربيـة التـى تعيـش شـمال وجنـوب جبـال طانـرى، فـأدي هـذا إلـى زيـادة قوتهـم. رفـض السـلطان «طولـون» وخالـه «ناغـاي» هـذه الحركـة، وخرجـا بجيـش كبيـر لمطـاردة «آي أوجـرو» وچونجـي. ودارت رحـى الحـرب فـي جنـوب جبـال آلطـاي، وانهـزم فيهـا السـلطان طولـون الثانـي هزيمـة فادحـة أمـام «آي أوجـرو» وهـرب إلـى وجهـة غيـر معلومـة، وبعـد فتـرة قصيـرة قتلـه أمـراء «الآوار».

بعـد انتصـار «آى أوجـرو» (أ - فـو - تشـي - لو)علـى الآوار، نصـب خيمتـه بجـوار مانـاص الحاليـة، وأسـس إمـارة أويغوريـة (٤٨٧ – ٥٤٦م) باسـم «أصحـاب العجـلات العاليـة». واتخـذ «آي أوجـرو» لقـب «أولـو تانـر يقـوت»، واتخـذ «چونجـي» لقـب «أولـو بـك». واسـتطاعت هـذه الإمـارة الأويغوريـة التـى ظهـرت علـى مسـرح التاريـخ كدولـة قويـة جـداً، أن تكـون بمنتهـى السـهولة

جيشـاً قوامـه ١٢٠ ألـف مقاتـل. وكانـت حـدود الإمـارة تضـم القطاعـات الشـرقية لـوادي إيلـي، و«قومـول» الشـرقية، وجبـال «آلطـاي» الشـمالية، والسـواحل الجنوبيـة لبحيـرة «لـوب - نـور» فـى الشـمال الشـرقي، والقطـاع الجنوبـي الغربـي مـن قـارا شَـهَرْ. وبعـد أن هـزم «آى أوجـرو» الآوار وأسـس دولتـه المسـتقلة قتـل «قانشـوغوي» حاكـم إمـارة «طورفـان» المرتبـط بـالآوار، وأجلـس مكانـه علـى العـرش شـخصاً يُدعـى «چانـج منـج - ميـن» (منقـول عـن الصينيـة علـى نحـو خاطـئ). وهكـذا اقتطـع «آي أوجـرو» إمارتـي «طورفـان» و«لـولان» مـن «الآوار»، وبعـد أن أخضعهمـا لحكمه،اسـتولى علـى إمـارة «چرچن» الواقعـة فـي جنـوب «لـوب - نـور» مـن يـد «قـوم طويجـون» [طوجـون/ طـو - يـو - هـون] وهـى (دولـة التبـت الموجـودة حاليـاً فـي جينهـاي).

بعـد أن اتخـذ «آي أوجـروٍ» التدابيـر العسـكرية اللازمـة لحمايـة إمـارة الأويغـور، التـي تأسسـت حديثـاً مـن ضربـات الأعداء، باشـر جهـوداً دبلوماسـية كبيـرة. فقـد كان هنـاك عـدوان قويـان للإمـارة حديثـة العهـد، وهمـا «الآوار» و«الهـون» البيـض. وظهـر فـي القطـاع الشـمالي مـن بحـر الخـزر فـى القـرن الخامـس، قـوم «آبـدال» (يطلـق الأوربيـون عليهـم أفتاليـت)، الذيـن ينحـدرون مـن فـرع ده - يـاوچي (الياوچـى العظـام) ومـن الهـون، وتقدمـوا ناحيـة الشـرق وسـحقوا قـوم «كوشـان».

أمـا قـوم آبـدال الذين يسـميهم المـؤرخ البيزنطـي «بريقوبيـوس القيصري» الـذى عـاش فـى القـرن السـادس «الهـون البيـض»، فقـد أسسـوا إمبراطوريـة الهـون البيـض تحـت إدارة «آقشـونوار». وكانـت أراضيهـا تضـم أفغانسـتان وباكسـتان الحاليـة، وعاصمتهـا القديمـة ماراكنـت (سَـمَرقَنْد الحاليـة)، لكنهـم فيمـا بعـد نقلـوا العاصمـة إلـى بلـخ. وقويـت شـوكة الهـون البيـض منـذ عـام ٤٨٠م وهزمـوا الحاكـم الفارسـى «فيـروز» فـي عـام ٤٨٤، وبعـد أن فرضـوا عليـه الجزيـة، أخضعـوا لسـلطانهم الإمـارات التـي بجـوار جبـال «قـره قـوروم»، مثـل «خوتـن»و «ياركنـد» و«كاشْـغَر» و«كوچـار» و«قـارا شَـهَرْ».

أخـذ «آي أوجـرو» هـذا الوضـع فـي الإعتبـار، وأرسـل شـقيقه «چونچـي»

بقسم من الجيش إلى قارا شَهَرْ ليتخذ تدابير التصدى للهون البيض». أما هو فقد انتظر مستعداً بجيش كبير لحماية الطرف الشمالي للسلطنة من اعتداءات الآوار.

كانت إمارة الأويغور محاطة بشعوب غير صديقة، ففي شمالها يوجد الآوار، وفي جنوبها الشرقي هناك الهون البيض، وفي جنوبها يوجد قوم «طوغون». وبعد أن اتخذ «آي أوجرو» التدابير اللازمة للدفاع عن بلاده، أرسل سفيراً إلى «لو - يانج» عاصمة إمبراطورية «طوبا» واتصل بهم. وبعد أن اطلع إمبراطور طوبا على الوضع الذي شرحه السفير، أرسل من فوره سفيراً بالرد، كما أرسل إلى «آي أوجرو» و«چونجي» ملابس قطيفة و١٠٠طومار من القماش الفاخر. ونتيجة للعلاقات الودية التي نشأت بين «وي» الشمالية وإمارة الأويغور في عام ٤٨٧م، تم عقد تحالف ضد الإمارة الآوارية. أما في عام ٤٨٨م، فقد نشأت علاقات بين «تشي» الجنوبية الواقعة في وادي «تشانج - تشيان» وبين «آي أوجرو». وأحجم «الآوار» عن شن أي هجوم واضعين نصب أعينهم البنية القوية لإمارة الأويغور، والعلاقات الودية التي بين «وي» الشمالية و«تشي» الجنوبية.

بيد أن «الهون البيض» جاءوا فجأة من ناحية «كوچار» في عام ٥٠٨م وهجموا على «قارا شَهَرْ»، وفقد «چونجي» حياته في هذه الحرب. كما أسر الهون البيض ابناء «چونچي» الاثنين وهما «باتور» و«إيلبك» وحبسوهما، وبعد هذه الواقعة توجه جزء من الأويغور الموجودين في «قارا شَهَرْ» إلى طورفان، بينما اجتاز الجزء الآخر جبال «طانرى» ووصلوا إلى أطراف»جيميسار». بعد أن استولى الهون البيض على «قارا شَهَرْ» قتل أمراء الأويغور «آى أوجروا» ونصبوا أحدهم المسمى «باريان» حاكماً. ذلك لأن «آي أوجرو» بعد أن صار حاكماً، حدث له خلل عقلي، وأصبح دكتاتورا جبارا وكرهه الشعب.

وفي عام ٥٠٩م أيضا شن «الهون البيض» هجوماً على إمارة الأويغور من الناحية الجنوبية. وقتل أمراء الأويغور«باريان» بعد أن أدركوا أن «باتور بن چونجي» موجوداً بين جيش الهون البيض واستقبلوا «باتور» ونصبوه

علـى العـرش. وهكـذا انتهـت الحـرب بيـن الأويغـور والهـون البيـض ونشـأت علاقـات وديـة بينهـمٍ. وسـعى الهـون البيـض إلـى إحـكام سـيطرتهم علـى «وادي تاريـم» إعتبـاراً مـن عهـد الحـكام «إيفتالانـوس» والسـلطان «طورامـان» و«ميهركـولا». وبرغـم قيـام الهـون البيـض بمهاجمـة إمـارة الأويغـور مرتيـن فـي عهـد «ميهيركـولا»، فقـد تأسسـت علاقـات وديـة بينهـم مـع جلـوس «السـلطان باتـور» علـى العـرش.

وفـي عهـد السـلطان «باتـور» [مـي - وو - تـو] (٥١٠ - ٥١٦)، تطـورت العلاقـات الوديـة بيـن إمـارة الأويغـور وإمبراطـور «وي» الشـمالية، «وو - تـي». وفـي عـام ٥١٠ أرسـل السـلطان باتور سـفيراً إلـى إمبراطوريـة «وي» الشـمالية محمـلاً بالهدايـا عبـارة عـن صُرَّة مـن الذهـب وصرة مـن الفضـة، وصولجانيـن مـن الذهـب، وهدايـا أخـرى تحملهـا سـبعة جيـاد وخمسـة عشـر جمـلاً. وفـي مقابـل ذلـك أرسـل «وو - تـي» بعثـة مـن السـفراء معهـا ٦٠ طومـارا مـن حريـر أطلـس تعبيـرا عـن إمتنانـه،

بعـد تنظيـم العلاقـات بيـن الهـون البيـض وإمـارة الأويغـور، صـار مـن الممكـن أن يسـتكمل السـلطان باتـور الاسـتعدادات لبـدء الحـرب ضـد الآوار، ثـم بـدأت الحـروب العنيفـة بيـن الأويغـور و«الآوار».

انطلق»طـوق - خـان» [فـو - تـو] حاكـم الآوار للهجـوم علـى السـلطان باتـور فـي عـام ٥١١م. فقابلـه السـلطان «باتـور» الـذى كان مسـتعداً فـي شـمال «باركـول». وانتهـت الحـرب بهزيمـة السـلطان باتـور، وانسـحابه مسـافة ٣٠٠ كيلومتـر، حتـى بلـغ مشـارف «جيميسـار». أمـا السـلطان «طـوق» [فـو – تـو] فانحسـب إلـى الجبـل الكائـن فـى شـمال «قومـول».

وصـل إلـى قومـول [حامـي] فـي تلـك الأثنـاء جيشـاً قوامـه عـدة آلاف جنـدي، أرسـلته إمبراطوريـة «وي» الشـمالية بقيـادة أحـد الأمـراء واسـمه «مينـج - وي» بنـاءً علـى حلـف الصداقـة القائـم بينهمـا. فلمـا رأى «طـوق - خـان» ذلـك تملكـه الخـوف، وبينمـا كان يحـاولٍ الهـرب، انتهـزٍ السـلطان «باتـور» [مـي - وو - تـو] الفرصـة وجـاء مسـرعاً وشـن حربـاً أخـرى فـي شـمال «باركـول»، وانتهـت الحـرب بانتصـار الأويغـور. وأسرالسـلطان باتـور

«طـوق - خـان» حيـاً وقطـع رأسـه، وأرسـلها هديـة إلـى إمبراطـور «وي» الشـمالية. وعـلاوة علـى ذلـك أرسـل بعـد الحـرب خمسـة جيـاد مرصعـة بالذهـب والفضـة برفقـة سـفير للتعبيـر عـن شـكره وامتنانـه. واسـتقبل«وو - تـي»، سـفير الأويغـور بـكل الاحتـرام، وأرسـل مـن جانبـه سـفيراً و٨٠ عازفـاً يجيـدون العـزف علـى الآلات الموسـيقية، و١٠ طومـار مـن الحريـر الأحمـر، و٢٠ طومـار مـن الحريـر المنقـوش بالأزهـار، وهنـأه بالانتصـار الـذى حققـه ضـد الآوار.

ولكـن بعـد سـتة أعـوام انهـزم السـلطان باتـور فـى الحـرب التـي شـنها ضـد سـلطان الآوار، «چونـو - خـان» [تشـه - وو - نـو]. وربـط «چونـو - خـان» السـلطان «باتـور» مـن قدميـه ويـده اليمنـى إلـى جواديـن، وبعـد أن جـره علـى الأرض قطـع رأسـه. وهكـذا ثـأر لأبيـه، ولـم يكتـف بهـذا بـل قـام بتغليف جمجمـة السـلطان باتـور بالذهـب، وجعلهـا كأسـاً لشـرب الخمـر.

وحـاول الأويغـور الذيـن تعرضـوا لهزيمـة فادحـة علـى يـد الآوار فـي عـام ٥١٦م، حشـد قوتهـم بمسـاعدة الهـون البيـض بمقتضـى معاهـدة الصداقـة التـى عقـدت بيتهمـا مـن قبـل. وبعـد مقتـل السـلطان «باتـور» قـام الهـون البيـض بتنصيـب شـقيقه الأصغـر «إيلبـك» علـى عـرش إمـارة الأويغـور. سـعى «إيلبـك خـان» بعـد تنصيبـه إلـى تحسـين الوضـع، فأرسـل سـفيراً إلـى إمبراطوريـة «وي» الشـمالية، ودعـم علاقاتـه معهـا. ثـم بـدأ الحـرب ضـد الآوار بعـد ذلـك فـي عـام ٥٢١، وهـزم «براهمـان - خـان» [پـو - لـو - مينـج]، ففـر براهمـان خـان إلـى «وو - وي» الكائنـة فـي قانصـو الحاليـة. وبعـد عاميـن أرسـل إمبراطـور«وي» الشـمالية سـفيراً إلـى إيليـك - خـان محمـلاً بهدايـا عديـدة.

انهـزم «إيلبـك - خـان» فـي الحـرب التـي شـنها ضـد «آيناجـاي» [آناهـوان]، حاكـم «الآوار» فـي عـام ٥٣٠م، وقتلـه ابـن أخيـه «يوقـو» (ابـن چونجـي الصغيـر). وكان أهـم سـبب لهزيمـة الأويغـور أمـام الآوار هـو انحيـازٍ حلفاؤئهـم القدامـى الهـون البيـض الـى جانـب الأوار. ذلـك لأن «الآوار» اعتبـاراً مـن عـام ٥٢٠م بـدأوا فـى عـدد مـن الفعاليـات الدبلوماسـية حتـى يتركـوا

الأويغـور بـلا حليـف؛ ففـي نفـس العـام قـام «آيناغـاي» [آنـا هـوان] بتزويـج ابنتـه لحاكـم الهـون البيـض «مهيركـولا» ونجـح فـي ضمـه لصفـه. وفـي نفـس العـام أيضـاً زار «آيناغـاي» «لـو - يانـج» عاصمـة إمبراطوريـة «وي» الشـمالية. وفيمـا بعـد صـار «آيناغـاي» صهـراً لإمبراطـور «وي» الشـمالية فـي عـام ٥٣٣، وفـي عـام ٥٣٨م صـار صهـراً لإمبراطـور «وي» الشـرقية، ووقـع معاهـدة صداقة مـع الهـون البيـض.

كان حاكـم الآوار «آيناغـاي» يوطـد علاقاتـه بـكل مـن «وي» الشـرقية، و«وي» الشمالية والهـون البيـض، فـي حيـن لـم يكـن للأويغـور حليـف واحـد مـن حولهـم، لذلـك انهـزم الأويغـور فـي كل حـرب خاضوهـا ضـد «الآوار».

عندمـا انهـزم «يوقـو» فـي عـام ٥٣٧ علـى يـد «آيناغـاي»، قتلـه «بكجـى» [پـي - تـي] بـن إيلبـك، لكنـه هـو نفسـه لـم ينـج مـن تـذوق ألـم الهزيمـة علـى يـد «الآوار». وإذا كانـت المصـادر التاريخيـة تقـول إن «چوبيـن بـن يوقـو» اعتلـى عـرش إمـارة الأويغـور بعـد «بكجـى»، فمـن المعـروف أنـه عندمـا انهزم «بكجـى» أمـام «الآوار» فـي عـام ٥٣٧م، هـرب «جوبيـن» إلـى إمبراطوريـة «وي» الشـرقية، ومـرض هنـاك ومـات.

وبينمـا تسـتعد جيـوش الأويغـور للحـرب مـع الآوار فـي عـام ٥٤٦م (غيـر معـروف مـن كان حاكـم الأويغـور فـي تلـك الفتـرة)، تفـرق شـملها نتيجـة هجـوم غيـر متوقـع شـنه «طومـان - خـان» و«إيسـتهمي - خـان» سـلاطين «الكوكتـورك» الذيـن ظهـروا خلفهـم عنـد جبـال «آلطـاي». وخضعـت إمـارة الأويغـور المذكـورة فـي كتـب التاريـخ باسـم «إمـارة أصحـاب العجـلات العاليـة» [كاو كـوي] لسـيطرةٍ أقاربهـم «الكوكتـورك» بعـد أن حافظـوا علـى وجودهـم لمـدة سـتين عامـاً.

وقـد اضطلعـت إمـارة الأويغـور هـذه التـي تحدثنـا عنهـا بـأدوار مهمـة فـي التاريـخ. ويتـم إثبـات الـدور التاريخـي الـذى لعبتـه الإمـارة مـن ناحيتيـن: فمـن ناحيـة أقامـت إمـارة الأويغـور منـذ تأسيسـها علاقـات صداقـة مـع إمبراطوريـة «وي» الشـمالية التـى ظهـرت فـي وادي «هوانـج - هـو» وقـام الاثنـان معـا بمحاربـة «الآوار» باسـتمرار. وتحاربـا معـا بصـورة مسـتمرة مـع

الأوار، ومـن ناحيـة أخـرىٍ لـم تنقطـع الحـروب بيـن سـلطنة الأويغـور و الأوار وطـوال سـتين عامـاً بـدءاً مـن تاريـخ تأسيسـها ولـم تسـتطع سـلطنة «الأوار» القويـة التـى امتـدت حدودهـا سـنة ٤٠٠م شـرقا حتـى كوريـا وغربـا حتـى كازاخسـتان وفـى الجهـة الجنوبيـة الغربيـة حتـى «قـارا شَـهَرْ»، لـم تسـتطع ان تخضـع «أصحـاب العجـلات العاليـة» الأبطـال والشـجعان واليقظيـن. لقـد طـرد الأويغـور»الأوار» مـن الأراضـى التـى سـكنوها (مـن بيـن جبـال طانـرى ومـن طورفـان وقـارا شَـهَرْ ولـولان وجرجـن الـخ) ووجهـوا لهـم ضربـات شـديدة، وخـلال فتـرة تقـدر بسـتين عامـاً تمتـد مـن ٤٨٧م إلـى ٥٤٦م بـذل الأوار كل طاقاتهـم مـن لأجـل الحـرب مـع الأويغـور. ومـن ناحيـة أخـرى لـم تتـح لهـم فرصـة للهجـوم علـى «وادي هوانـج هـو» بسـبب الصراعـات داخليـة وهكـذا اتيحـت الفرصـة لتطـور «وادي هوانـج» مـن الناحيـة الاقتصاديـة.

ومـن ناحيـة أخـرى فـإن حـروب الأويغـور المسـتمرة مـع الأوار أتاحـت الفرصـة لتعاظـم قـوة «الكـوك تـورك» بصـورة بطيئـة تحـت سـلطة «الأوار»، كما أتاحـت الفرصـة لهزيمـة سـادتهم فـى النهايـة، ومهـدت الطريـق لتأسـيس دولـة «الكـوك تـرك».

الكوك تورك والأويغور

أسـس «الكـوك تـورك» سـلطنة قويـة وعظيمـة اسـتمرٍ حكمهـا قرنيـن مـن الزمـان بدايـة مـن القـرن السـادس وحتـى أربعيـن عامـاً مـن القـرن الثامـن. وقـد توسـعت حـدود السـلطنة بعـد تأسيسـها واتسـعت علـى مـدى ٦٠ عامـاً حتـى بلغـت سـاحل «آرال» فـي الشـرق، والبحـر الأسـود فـي الغـرب، وأطـراف «بايقـال» والقطـاع الأوسـط لــ «ينـي سـاي» فـي الشـمال، ووصلـت حتى سـور الصيـن فـي الجنـوب، والأجـزاء الشـمالية مـن هندسـتان فـي الجنـوب الشـرقي.

صـارت سـلطنة «الكوكتـورك» أقـوى مـن الإمبراطوريـة الرومانية(البيزنطية) فـي الشـرق والإمبراطوريـة الساسـانية فـي فـارس، اللتيـن كانتـا أقـوى دولتيـن فـي العالـم فـي ذلـك الوقـت. وفـي هـذا الموضـوع يقـول البروفيسـير «بارتولد»: «إن السـلطنة التركيـة التـي ظهـرت قبـل المغـول كانـت أقـوى امبراطوريـة

تتشكل من قبائل رُحل.»٦٤ «واعتباراً من العام ٥٧٠ الميلادي تمركزت القوات الحربية التركية في المنطقة الممتدة من المحيط الهادي حتى البحر الأسود.»٦٥

وكان عدد جنود الجيش في العهد الذي بلغت فيه السلطنة التركية أوج قوتها لايقل عن ٤٠٠ ألف جندي. وبلغت هذه السلطنة مكانة غاية في الأهمية في تاريخ العالم. وفي العهد التركي تطورت العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين شعوب آسيا وأوروبا إلى حد ما بالنسبة لهذا الزمن الماضي. وفي العهد التركي أيضا تأثرت الشعوب الغربية والشعوب الشرقية ببعضهما البعض، وبعد ذلك، في «العهد القراخاني» بدأت النهضة في آسيا الوسطى. فالنهضة التي سادت في العهد القراخاني بدأت (في القرن الحادي عشر) أي قبل ٣٠٠ عاماً من النهضة التي بدأت في أوروبا. وكان من رواد حركة النهضة يوسف خاص حاجب ومحمود الكاشْغَري. فظهور كتب عظيمة وخالدة مثل «قوتادغو بيليك» و«ديوان لغات الترك» وأهميتها للحضارة في عهد سلطنة الأتراك و «أويغور أورخون»، كان نتيجة قبول جوهر الحضارة الأوروبية القديمة (اليونانية أساساً) التي نُقلت إلى آسيا الوسطى عن طريق العالم الإسلامي.

لعب الأويغور دوراً هاماً في تأسيس سلطنة «الكوك تورك» وتطورها، ولعب «أورخون» صاحب الآثار الأدبية والتاريخية المنقوشة على أحجار «منجو» دوراً هاماً في تاريخ الحضارة في العالم.

وثمة أراء مختلفة حول معنى كلمة «تورك»، والرأي الذي اتفق عليه أكثر المؤرخين هو أن معناها صاحب القوة والقدرة. وبالإضافة لذلك فإن كلمة «كوكتورك» تعني «الأتراك الإلهيين»، ذلك لأن الأتراك كانوا يتفقون على أن الإله قد وضع سماءهم في أعلى مكان. ولهذا فإن كلمة «كوك» لاتعني لون بل تعني «الإله».

واسم «الترك» له معنى عرقي من حيث كونه اسما يُطلق على الأتراك الذين عاشوا في العصور القديمة في منطقة معينة، وفي ظروف

تاريخيـة معينـة. مثـلاً هـذا الاسـم يشـير إلـى الأتـراك الذيـن عاشـوا بجـوار نهـري «إيديـل» و«يـاييـق» (أورال) قبـل ٦٠٠ عـام مـن الميـلاد، وأُطلـق فـي النهايـة علـى الأتـراك الذيـن يعيشـون فـي آلطـاي. وكان مؤرخـو اليونـان وروما قـد بـدأوا اسـتخدام كلمـة «تـورك» مـن قبـل فـي آثارهـم التـي كتبوهـا قبـل ٥٠٠ عـام مـن الميـلاد. وقـد بحـث المـؤرخ اليونانـي «هيـرودوت» عـن الأتـراك (قبـل خمسـة قـرون مـن الميـلاد) باسـم «تـوركاي». أمـا المؤرخـان اليونانيان»بلانيـوس سـاكندوس» (٢٣-٧٩ميـلادي)، و«بومبينـي ميـلا» فقـد كتبـا هـذه الكلمـة فـي شـكل «تـوركاي». والأتـراك الذيـن تشـير إليهـم كلمـة هذيـن المؤرخيـن، هـم الأتـراك الذيـن عاشـوا فـي «إيديـل» و«أورال». وبـدأت كلمـة «تـورك» تُسـتخدم فـي حوليـة «سـلالة جـو» - وهـي مـن الحوليـات التاريخيـة العالميـة - (فـي أوائـل القـرن السـابع الميـلادي) أي بعـد ١١٠٠ عـام مـن «هيـرودوت».

كان الأتـراك شـعبا محاربـا وجسـورا يعشـق الصيـد وركـوب الخيـل. والمثـل القائـل: «إن التركـي عندمـا يمتطـي جـواده لايعـرف جـده» ليـس مجـرد قـول بـلا معنـى. فقـد عـاش الأتـراك حياتهـم لاجئيـن لـدى «الهـون» و «الأوار» إلـى أن أسسـوا سـلطنة «الكـوك تورك».

فكلمـة «تـورك»، فـي العصـر الـذي تأسسـت فيـه سـلطنة الكـوك تـورك (فـي القـرن السـادس)، كانـت بالنسـبة للآخريـن تحمـل معنـى العـرق الـذي يضـم الأتـراك الذيـن يعيشـون فـي آلطـاي فقـط. لأن كلمـة «تـورك» فـي ذلـك العصـر أصبحـت تعنـى اسـم الملـة الوثنيـة لشـعوب «الأويغـور» و«الأوغـوز» و«القيرغيـز» و «القبجـاق» و«چيجيـل» و«باسـميل» و«توركـش» و«القيطانييـن» الذيـن تتركـوا، وشـعوب أخـري تتشـابه أو قريبـة الشـبه مـن بعضهـا البعـض مـن ناحيـة العـرق والعـادات والتقاليـد وتتحـدث اللغـة التركيـة. يعنـي كلمـة «تـورك» تحولـت إلـى اسـم يميـز الأغلبيـة القوميـة السياسـية لـكل الشـعوب التـي عاشـت داخـل حـدود السـلطنة التركيـة.

كان أتـراك آلطـاي يجيـدون منـذ القـدم تشـكيل معـدن الحديـد. وكانـوا ماهريـن جـداً فـي صنـع أسـلحة الحـرب مثـل السـيف والرمـح والـدرع والخوزة

والتـرس والقـوس والسـهم، كمـا كانـوا ماهريـن أيضـا فـي صنـع أدوات الزينـة والأدوات المنزليـة المتنوعـة مـن معـدن الذهـب مثـل (العـرش الذهبـي والطبـق والقـدح والكسـرولة والخاتـم والأبـرة وكسـوة الـرأس والمسـلة والسـوار والحـزام ودبـوس الشـعر والمشـط والحلـق والتاج...الـخ) وكمـا عرفنـا مـن قبـل، أن الأتـراك فـي العصـور التـي عاشـوا فيهـا تحـت سـيطرة الآوار كانـوا يصنعـون أدوات الزينـة والأدوات ذات الاسـتخدام المتنـوع ويقدمونهـا للأمـراء الآواريـين، كمـا كانـوا يصنعـون الأسـلحة الخاصـة بالجيـش الآواري، حتـى أن سـلاطين الآوار كانـوا يذكرونهـم بقولهـم «عبيدنـا الحداديـن».

وهكـذا فـإن الأتـراك الذيـن صـاروا غيـر قادريـن علـى تحمـل المزيـد مـن الخضـوع قامـوا بالسـيطرة علـى أقاربهـم الأويغـور الموجوديـن بالقـرب منهـم و(السـير تاردوشـلر) الذيـن فـي «آلطـاي»، وبعـد أن زادت قوتهـم تخلصـوا مـن ظلـم «الآوار»، وسـعوا إلـى تأسـيس سـلطنة تركيـة كبيـرة. وصـارت السـلطنة التركيـة التـي تأسسـت بشـرط قبـول حكـم الآوار وتحقيـق هـذا النمـوذج الكبيـر، مـن نصيـب «طومـان» و«إيسـتامي خـان» أبنـاء «يابغـو طـوروم».

فـي عـام ٥٥٠ أرسـل «طومان-خـان» مبعوثـاً إلـى «آيناغـاي» [أناهـوان] سـلطان الآوار يخبـره برغبتـه فـيٍ الزواج مـن ابنته. وبعـد أن اسـتمع «آيناغاي» إلـى طلـب المبعـوث، قـال مبديـاً احتقـاره لطومـان - خـان: ألا يعـرف عبيدنـا الحداديـن حدودهـم حتـى يطلبـوا طلبـا كهـذا؟ فغضـب «طومـان - خـان» مـن هـذا الـرد الوقـح مـن «آيناغـاي»، وقتـل مبعـوث «الآوار» الـذي أبلغـه هـذه الرسـالة. وبعـد ذلـك أرسـل مبعوثـاً إلـى «ويـن- تـي» حاكـم «وي» الغربيـة ينهـى إليـه رغبتـه فـى الـزواج مـن أميـرة. وكان حاكـم «وي» الغربيـة يريـد محاربـة سـلطنة الآوار بالاشـتراك مـع الأتـراك، فقـدم إلـى «طومـان» الأميـرة «چانـج لـو» عروسـا لـه فـي الشـهر السـادس مـن ذلـك العـام. وضـم «طومـان خـان» إلـى صفـوف الأويغور(الطوريـين) كل شـاب يسـتطيع حمـل السـلاح، عـدا مسـاعدته فـي دعـم جيـش «وي» الغربيـة، وعقـد معاهـدة معهـا. وبعـد ذلـك قـاد جيشـه فـيٍ عـام ٥٥٢م وهاجـم الآواريـين. فجمـع «آيناغـاي» سـلطان الآوار جيشـاً كبيـراً، وخـلال شـهرين جـاء إلـى المـكان الـذي سـتدور

فيـه الحـرب مـع «الكـوك تـورك». فجـاء جيـش الكـوك تـورك بقيـادة «طومـان - خـان» وأخيـه «إيسـتامي - خـان» وتمركـز خلـف سـور الصيـن الـذي يقـع الآن فـي شـمال منطقـة «هـو - پي»، وانتهـت الحـرب الدمويـة التـي اندلعـت بيـن الطرفيـن بانتصـار الأتـراك. وانتحـر «آيناغـاي» الـذي مُنـي بهزيمـة ثقيلـة للغايـة، وبهـذا قـام الأتـراك بتأسـيس السـلطنة التركيـة الكبيـرة.

وواصـل بعـض سـلاطين الآوار الحـرب ضـد الأتـراك، لكـن فـي عـام ٥٥٣م اسـتطاع الأتـراك أن يجردوهـم تمامـاً مـن نفوذهـم. وهـرب جـزء مـن الآوار تجـاه الغـرب لـدى حكومـة «بايـان - خـان»، وفـي عـام ٥٥٨م اسـتقروا فـي الطـرف الشـمالي مـن البحـر الأسـود. وبعـد ذلـك أسسـوا السـلطنة الآواريـة فـي أوروبـا (٥٦٥م- ٨٣٥م)، واسـتمر وجودهـم ٣٣٠ عامـاً.

بعـد أن قضـى «طومان-خـان» علـى سـلطنة الآوار، لقـب نفسـه بــ «إيـل-خـان»، وأعلـن «أوتـوكان» عاصمـة لـه. أمـا أخـوه «إيسـتامي» فقـد تزعـم القسـم الغربـي مـن السـلطنة، ولقـب نفسـه بلقـب «يابغـو»، واسـتقر جيـش «إيسـتامي- خـان» بجـوار نهـر «تـكاس».

مـات «طومـان - خـان» فـي عـام ٥٥٣م وتـرك ثلاثـة أبنـاء أسـماؤهم، «قـره - خـان» و«مـوكان - خـان» و«تـاوار - خـان». وبعـد وفاتـه اعتلـى ابنـه الكبيـر «قـره - خـان» عـرش السـلطنة. لكنـه توفـى بعـد أن قضـى عامـاً فـي السـلطة، ليعتلـى العـرش «تـوكان - خـان» الابـن الأوسـط ل«طومـان - خـان».

ومـن بيـن السـلاطين الأتـراك الذيـن جـاءوا «بعـد طومـان - خـان» نـال «موكان-خـان» شـهرة كبيـرة فـي التاريـخ العالمـي بعقلانيتـه ودهائـه الدبلوماسـي وذكائـه الحـاد وقدرتـه الحربيـة. وفـي عهـده (٥٥٤ - ٥٧٤ م) بلغـت سـلطنة «الكوكتـورك» أوج قوتهـا. ويتعيـن علينـا تسـميته بــ «أتيـلا الأتـراك» فهـو أشـهر قائـد ظهـر بعـد سـبعة قـرون مـن «باتـور تانريقـوت»، وخمسـة قـرون مـن آتيـلا.

فـي عـام ٥٥٤ م شـن «مـوكان - خـان» الحـروب فـي الشـرق، واسـتطاع السـيطرة الكاملـة علـى أسـلاف شـعب مـانچو والمغـول. وتوسـعت حـدود

السلطنة الشرقية حتى بلغت سواحل المحيط، وأضاف إلى حدوده جزيرة صاهال والجزء الشمالي من كوريا. بعد أن عاد «موكان - خان» من حرب الشرق، وجه جيشه نحو الشمال، وسيطر على الأويغور الشرقيين الذين يعيشون في قبائل على نهر «أورخون» و«طولا» و«سالانجه»، وبجوار بحيرة «بايقال»، والقيرغيز الذين يعيشون في الأقليم الأعلى لـ«يني ساي». وفي تلك الفترة سيطر «إيستامي - خان» على الأويغور الغربيين ومن ضمنهم الأويغور الذين في وادي تاريم. وبعد أن ضم الأتراك الأويغور إليه، شكل جيشاً قوامه حوالي ١٠٠ألف جندي اعتماداً على القوة العسكرية والمادية لهم، وأشركهم في حركات الفتح التي نظمها تجاه الشرق والغرب.

وبدأ «موكان - خان» الاستعدادات العسكرية الجادة للقضاء على إمبراطورية «آق هون» (الهون البيض) في الغرب. وفي عام ٥٥٤م أرسل مبعوثاً إلى شاهنشاه فارس الساساني «خسرو آنو شروان»، وعقد معه اتفاقا ضد آق هون. ومن أجل التأكيد على هذا الاتفاق أرسل إيستامي - خان ابنتة «أسينا بيكه» عروسا لأنوشروان. وبعد ذلك عقد اتفاق مع امبراطور «وي» الغربية، ونظم حرباً ضد سلاطين «كوكنور» (تويغون) (٣١٧ – ٦٦٣م) وأدخلهم في طاعته. وفتحت سيطرة الأتراك على سلاطين كوكنور (تويغون)، الطريق أمامهم إلى وسط آسيا وغربها.

أصبح الاتفاق الذي عقده «موكان - خان» في عام ٥٥٤ مع الساسانيين في فارس، بمثابة أمل لإنقاذهم من نير «الآق هون». واستناداً إلى الاتفاق المبرم بين الساسانيين و«الكوكتورك» قام الساسانيون فجأة بقطع الجزية التي كانوا يدفعونها لـلآق هون، ثم هجموا عليهم واستولوا على أفغانستان. وفي نفس العام وبأمر «موكان - خان»، هجم «إيستامي - خان» على «الآق هون» وأخرجهم من «وادي تاريم».

وكما أوضحنا من قبل، فإن «موكان خان» بعد أن أنهى أعماله بدأ حرباً فعلية ضد «الآق هون» اعتباراً من عام ٥٥٧م، وتقدم الجيش التركي ناحية الغرب عن طريق وادي تَكَس، ودخل آسيا الوسطى من

أعلى «يدي صو» لكن قسم كبير من الصدامات التي اندلعت بين الطرفين دارت على الأراضي الأفغانية، وفي غضونٍ خمس سنوات قضى «موكان - خان» على إمبراطورية «الآق هون» تماماً، وعاد إلى «أوتوكان» بعد أن أحال إلى «إيستامي يابغو» أمر القضاء على أخر بقايا «الآق هون».

بعد أن كسر «إيستامي - يابغو» شوكة ما تبقى من جيش «الآق هون»، ضم أراضيهم إلى سلطنة الكوك تورك، وبذل محاولات كثيرة من أجل تهدئة التوتر الذي تصاعد بينه وبين فارس(لأن فارس كانت قد سيطرت من قبل على جزء من أراضي «الآق هون»)، وسعى للسيطرة على الشعوبِ التي تعيش في المنطقة الممتدة حتى ساحل البحرِ الأسود بادئاً من أطراف بحيرة «آرال» وبحيرة «بالقاش» (وهى أساساً شعوب تركية) ووضع بصمته على أهم الأحداث التاريخية حتى عام ٥٦٥م.

وفي عام ٥٦٢م بعد أن انتهى الأتراك من أمر «الآق هون» ساءت علاقاتهم بفارس، وتحول حلفاء الأمس فجأة إلى أعداء. وبينما سيطر «الكوك تورك» على شمال هندستان ووادي تاريم وآسيا الوسطى وهي من ميراث «الآق هون» بقيت خُراسان في أيدي الفرس، ولكن الأتراك لم يرضوا عن ذلك. بقي أن فارس لم تكن تنوي الاكتفاء بخراسان فقط، لهذا السبب سعت للسيطرة على بعض المناطق من أراضي الآق هون. ومن ناحية أخرى كان الأتراك يسعون للسيطرة على طريق الحرير الممتد حتى بيزنطة، أما فارس فكانت تريد إعاقة هذه التجارة. وذلك لأن جزءًا من خط سير القافلة يمر من الأراضي الفارسية، وكانت شعوب آسياالوسطى وما جاورها - قبل سلطنة «الكوكتورك» - تتناحر من أجل تأمين سيطرتها على طريق الحرير الممتد حتى بيزنطة. ولهذا السبب بدأت فارس في خوض صراع مع الأتراك.

وأرسل «إيستامي - خان» إلى الساسانيين وفدا برئاسة «مانيه» بأمل عدم إفساد العلاقات الودية التي تربطه بفارس من قبل. ولكن تم

إحـراق عينـات الحريـر التـي أحضرهـا مبعـوث التـرك أمـام عيـون الشـعب بنـاءً علـى توصيـة وزراء «خسـرو آنوشـروان» شـاه فـارس.

فعـاد وفـد البعثـة التركيـة الـذي أصيـب بخيبـة الأمـل نتيجـة المعاملـة التـي عُومـل بهـا فـي فـارس. فقـام إيسـتامي - خـان مـرة أخـرى بإرسـال وفـداً ثانيـا إلـى فـارس بعـد أن أغضبـه ماحـدث. ويقـول «ميناتـادروس» مـؤرخ الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية، إن وفـد البعثـة التركيـة الـذي ذهـب إلـى فـارس للمـرة الثانيـة قـد أصـاب الفارسـيين بالضيـق الشـديد، فقامـوا بقتلهـم بإضافـة السـم إلـى طعامهـم، ولكـن تـم إنقـاذ بعضهـم. وقـال «خسـرو آنـو شـروان» الـذي خشـى أن تنكشـف سـوء نيتـه «إن الأتـراك أنـاس ولـدو وتربـوا فـي مناطـق بـاردة وثلجيـة، وهـم لا يسـتطيعون العيـش بعيـداً عـن مناطقهـم البـاردة. وإن أفـراد البعثـة التركيـة الذيـن جـاءوا إلـى فـارس لـم يسـتطعوا تحمـل الجـو الحـار الجـاف، فماتـوا.»

وبعـد مؤامـرة قتـل بعـض أفـراد البعثـة التركيـة الثانيـة، أرسـل إيسـتامي - خـان فـي عـام ٥٦٨م وفـدا برئاسـة «مانيـه» إلـى القسـطنطينية عاصمـة الإمبراطور«جوسـتنيان» إمبرطـور رومـا الشـرقية (بيزنطـة)، وهـى (اسـتانبول الحاليـة). وخـلال حديـث المبعـوث التركـي مـع الإمبراطـور أوضـح لـه أن مهمتـه التـي جـاء مـن أجلهـا هـى عقـد معاهـدة مـن أجـل حمايـة العلاقـات التجاريـة بيـن بيزنطـة والأتـراك، وبنـاءً عليـه أرسـل «جوسـتنيان» بعثـة برئاسـة «زيماركهـوس» إلـى إمبراطوريـة الكـوك تـورك برفقـة البعثـة التركيـة. وأعجـب مبعوثـوا رومـا الشـرقية الذيـن جـاءوا مـع وفـد البعثـة التركيـة إلـى مقـر «إيسـتامي - يابغـو» بجـوار نهـر «تـكاس»، بالعـادات والتقاليـد التركيـة وبجيـش «إيسـتامي - خـان». اسـتقبل إيسـتامي - خـان مبعوثـي بيزنطـة بوجـه باسـم وبـود صـادق. وقبـل إحضـار وفـد بعثـة بيزنطـة إلـى مقـر اليابغـو تـم تطهيرهـم بـأن مـروا فـوق النـار. وسـلم وفـد البعثـة علـى إيسـتامي - خان وفـق التقاليـد التركيـة وقدمـوا إليـه تحيـات «جوسـتنيان» وسـلامه، وانبهـروا بالأشـياء رائعـة الجمـال التـى رأوهـا فـي الخيمـة. ومـن ضمنهـا أشـياء تأخـذ العيـن مثـل الأطبـاق والأوانـي والأقـداح المصنوعـة مـن الفضـة والذهـب ذات

الأحجـام المختلفـة، وعـرش ذهبـي ذو عجلتيـن يسـحبه حصـان، وسـرير مـن ذهـب. وكانـت أرجـل العـرش الذهبـي علـى شـكل طائـر الطـاووس. وتحـدث «إيسـتامي - خـان» مـع مبعوثـي بيزنطـة وهـو جالـس فـوق هـذا العـرش. وناقـش إيسـتامي - خـان ومبعوثـي بيزنطـة باسـتفاضة مسـألة تجـارة الحريـر بيـن الدولتيـن، ومسـألة التحـرك المشـترك ضـد فـارس. كمـا ناقشـوا مسـألة «الأوار» وتـم عقـد معاهـدة بهـذا الشـأن، وبعـد ذلـك بـدأت حـروب طويلـة لاهـوادة فيهـا.

وكمـا أوضحنـا مـن قبـل أنـه بعـد أن قضـي «الكـوك تـورك» علـى سـلطنة الأوار فـي عـام ٥٥٢م، هـرب قسـم مـن الأوار ناحيـة الغـرب. وهـؤلاء ظهـروا فـي عـام ٥٥٨م فـي القطـاع الشـمالي للبحـر الأسـود، وأسسـوا سـلطنة آوار فـي أوروبـا عـام ٥٦٥م بزعامـة «بايـان - خـان»، وكانـوا يشـنون هجمـات شـديدة علـى الإمبراطوريـة البيزنطيـة. وخـلال النقـاش الـذي دار مـع «إيسـتامي - خـان» أثـار المبعـوث البيزنطـي مسـألة الأوار. فأيـده «إيسـتامي - خـان» قائـلا إنـه يلـزم التحـرك معـا ضـد الأوار «إذا كان الأوار طائـراً فـوق السـماء، أوسـمكة فـي أعمـاق البحـار فلـن يسـتطيع أن يهـرب مـن سـيفي.» وعندمـا ودع إيسـتامي - خـان مبعوثـي بيزنطـة قـدم هدايـا قيمـة لتوصيلهـا إلـى «جوسـتنيان الثانـي» وأيضـا هدايـا قيمـة لـكل فـرد مـن أفـراد الوفـد العشـرين الذيـن فـي معيـة «زيماركهـوس». كمـا أهـدى «إيسـتامي يابغـو» إلـى زيماركهـوس جاريـة تسـمي قيرغيزيـة. خـرج البيزنطيـون مـن هضـاب «تَكَـس» صـوب القسـطنطينية علـى متـن أجمـل خيـول «تـوران».

وبعـد أن عقـد الأتـراك المعاهـدة مـع بيزنطـة قامـوا بالهجـوم علـى فـارس. ودخـل «إيسـتامي - خـان» خُراسـان فـي عـام ٥٦٩م وشـتت جيـوش فـارس، واسـتولى علـى جميـع الأراضـي التـي سـبق أن اسـتولت عليهـا فـارس مـن «الآق هـون». واضطـرت فـارس إلـى طلـب الصلـح، ووافقـت بموجـب المعاهـدة المبرمـة علـى دفـع جزيـة سـنوية مقدارهـا ٤٠ ألـف جنيـه ذهبـي بيزنطـي إلـى «الكوكتـورك»[٦٦].

وفـي عـام ٥٧١م فقـد بـدأت المعـارك مـن جديـد بيـن بيزنطـة وفـارس.

وبينما أخذت فارس في الضعف، زادت قوة الأتراك واستمر التعاون الدبلوماسي مع بيزنطة واستمرت زيارات السفراء المتبادلة. وبعد موت «موكان - خان» و«إيستامي - خان» (عام ٥٧٦م)، لانعرف إن كانت قد شنت أية حرب ضد فارس في عهد «تاوار - خان» (٥٧٦ – ٥٨١م) الذي تولى العرش بعدهما، أوفي عهد «ساوارلو» ويُسمى أيضا «باغا إيشبارا - قاغان» (٥٨١ - ٥٨٧م). أما في عهد «چورباغا - قاغان» (قاراچور) (٥٨٧ - ٥٨٨م) فقد وقعت معارك بين الطرفين وانتصر جيش فارس بقيادة «بهرام چوبين» على الجيش التركي بقيادة «چورباغا - سلطان» وقوامه ٣٠٠ ألف جندي في منطقة تقع بين هرات وبلخ. ومات «چورباغا سلطان» أثناء القتال. وهجم «بهرام چوبين» على مدينة «بايكنت» المجاورة لبُخارى وأسر «بارمودا - تكين» ابن «چورباغا - سلطان»، وأرسل إلى شاهنشاه فارس هرمزد (أمه هى ابنة إيستامي - خان) ـــ الثروات القيمة التي في خزينة بايكنت محمولة على ألف ناقة. وفي نفس الوقت انتصرت فارس أيضا على جيوش بيزنطة في الجبهة الغربية في القفقاس، ولكنها لم تنجح في تأمين سيطرتها على طريق التجارة الدولية.

وفي تاريخ السلطنة التركية اتخذت العلاقات بين الأتراك والصين منحى آخر.يعرف المهتمون بالتاريخ الصيني أنه منذ تقويض أسرة خان وحتى تأسيس أسرة «سوي» (أي حتى عام ٥٨٠م) لم تكن هناك دولة قوية طيلة تلك الفترة. ولكن تخللتها عهود مهمة.هي عهد («ويي وشو - خان»، و«وو» بين أعوام ٢٢٠ - ٢٨٠م) وعهد الأسرة الصينية الغربية والشرقية (بين أعوام ٢٦٥ - ٤٢٠م) وعهد الإمارة الـ ١٦ (بين أعوام ٣٠٤ - ٣٣٩م)، وعهد أسرة الجنوب (بين أعوام ٤٢٠ - ٥٨٩م)، وأسرة الشمالِ (بين أعوام٣٨٦ - ٥٩١م). طيلة هذه العهود صارت هناك ثلاث وأحياناً عشر دول تعيش في نفس الوقت على أرض الصين الأساسية (هوانجٍ - هو ووادي يانجتسي). هذه الدول تقاتلت فيما بينهما قتالاً شديداً، وهذا الوضع أدى إلى تدعيم قوة جيران الصين وخاصة جيرانها الشماليين (كانوا يعيشون في شمال سور الصين)، مما سبب للصين

متاعب وأزمات كثيرة. وفي عهد تأسيس سلطنة «الكوك تورك» كانت هناك عدة دول في الصين: «وي» في الغرب (٥٣٥ - ٥٥٧م)، و«جي» في الشمال (٥٥٠ - ٥٧٧م) وجين (٥٥٧ - ٥٨٩م). وفي عام ٥٥٧م بعد القضاء على دولة «وي» في الغرب، تم تأسيس دولة «جو» في الشمال (٥٥٧ - ٥٨١م). هذه الدول (وخاصة «جي» الشمالية و«جو» الشمالية) حاربت بعضها البعض باستمرار. ونجحت سلطنة الكوك تورك في تقدير قيمة هذا التحول الذي حدث في شرق الصين وعملت على دعمه.

لم يعتمد الأتراك على جيشهم فقط عند ضم أراضي الآخرين إلى دولتهم، بل اعتمدوا أيضا على المناورات الدبلوماسية، وعلى مساعدة الدول الأخرى. وأحد أصول الدبلوماسية القديمة لدى الأتراك هو إقامة صلة قرابة عن طريق الزواج. وهذ النوع من القرابة بصفة عامة، كان خطوة دبلوماسية مطروحة. مثلاً في عام ٥٥١م تزوج «طومان - قاغان» من الأميرة «چانج - لو» من أميرات قصر «وي» الغربية، وفي عام ٥٥٤م زوج «إيستامي - يابغو» ابنته «أسينا» من خسرو آنو شروان شاهنشاه فارس، وفي عام ٥٥٨م أرسل «موقان - خان» ابنته الأميرة «أسينا» لتكون زوجة لإمبراطور «جو» الشمالية «مينج - تي»، وفي مقابل هذا أرسلت أسرة «طانغ» وأسرتي «جو» و«سوي» الأميرات إلى سلاطين الأويغور والترك، وبهذه الطريقة استطاعت الدول الوليدة المحافظة على الصداقة والسلام فيما بينهم، فتقف إحداهما بجانب الأخرى ضد الدولة العدو. وعموماً فإن علاقات القرابة التي تأسست بين الحكام كانت مبنية على مصالح دبلوماسية وسياسية، ولكن هذا الوضع لم يحقق الصداقة بين الشعوب، والوقائع والأحداث التاريخية تؤكد صحة رأينا هذا.

ولم يتبع «موقان - خان» نفس السياسة في علاقاته مع دولتي «جو» الشمالية و«جي» الشمالية في وادي «هوانج - هو»، فإذاتقرب إلى «جو» الشمالية اتخذ جبهة ضد «جي» الشمالية، ولهذا قامت «جي» الشمالية التي كات تخشى الأتراك، بجمع مليون وثمانمائة ألف شخص وأرسلتهم لبناء سور الصين العظيم على طول الحدود الشمالية للدولة (بطول ٩٠٠

كـم)[٦٧]. وعندمـا سـيطر موقـان - خـان علـى «طويغـون» [طوغـون] فـي عـام ٥٥٦م، شـعرت «جـي» الشـمالية بمزيـد مـن القلـق، ولهـذا أمـر الإمبراطـور «كاوجـي» ببنـاء سـور الصيـن العظيـم، ليبـدأ مـن مـكان اسـمه «شـخي»، ويمتـد حتـى البحـر فـي الشـرق بطـول ثلاثـة الآف كيلـو متـر. وأمـر أن يقـف الحـرس خلـف السـور. وكلفهـم بإقامـة نقطـة عسـكرية كل عشـرة كيلـو مترات بطـول السـور، ووضـع مفرزتيـن فـي النقـاط المهمـة والمناطـق العسـكرية[٦٨]. وعندمـا زوج «موقـان - خـان» ابنتـه «أسـينا» لحاكـم «جـو» الشـمالية فـي عـام ٥٥٨م، قامـت «جـي» الشـمالية علـى الفـور بتحصيـن أطـراف أراضيهـا الشـمالية، وباشـرت إصـلاح سـور الصيـن العظيـم وتعميـره. وقـد مـات أثنـاء بنـاء هـذا السـور مـا يزيـد علـى مائـة ألـف شـخص. وبرغـم صعوبـة بنـاء هـذا السـور وتكلفتـه الماليـة العاليـة، فقـد أصـرت حكومـة «جـي» الشـمالية علـى بنائـه لـدرء خطـر الأتـراك.

وبينمـا يدعـم «موقـان- خـان» علاقاتـه مـع «جـو» الشـمالية التـي قامـت علـى أنقـاض «وي» الغربيـة كانـت تبـدو «جـي» الشـمالية غيـر مكترثـة كسـابق عهدهـا، إذ لـم تؤيـد الأتـراك فـي الحـرب التـي خاضوهـا ضـد «الأوار»، بـل قدمـت مسـاعدة عسـكرية لـلأوار ضدهـم. والواقـع أن «جـو» الشـمالية و«جـي» الشـمالية قـررا أن تقضـي إحداهمـا علـى الأخـرى مـن أجـل فـرض السـيطرة علـى «وادي هوانـج»، ولكـن تحقيـق هـذا الهـدف كان يسـتدعي كسـب تأييـد السـلطنة التركيـة. وجـرب «موقان-خـان» كل وسـيلة ممكنـة مـن أجـل إشـعال العـداوة والتنافس بيـن هاتيـن الدولتيـن، فعندمـا يتـودد إلـى «جـو» الشـمالية، كان يتحفـظ فـى علاقتـه مـع الأخـرى.

وبعـد أن قضـى «موقـان - خـان» علـى إمبراطوريـة «آق هـون» فـي عـام ٥٦٢م، توجـه مـن الغـرب إلـى الشـرق وجـاء إلـى العاصمـة «أوتـوكان»، وشـن بالاشـتراك مـع جـو الشـمالية حربيـن شـديدتين ضـد «جـي» الشـمالية، إحداهمـا فـي عـام ٥٦٣م والأخـرى فـي عـام ٥٦٤م. ولكـن لـم يحـرز الأتـراك نجاحـاً ولـم ينتصـرا فـي أي مـن الحربيـن. والأرجـح ان الأتـراك لـم يريـدون القضـاء تمامـاً علـى «جـي» الشـمالية، ولهـذا السـبب كانـوا يحافظـون علـى

وجـود كلتـا الدولتيـن («جـو» و«جـي»)، مـع الحـرص علـى اسـتمرار العـداوة بينهمـا.

ومــن الطبيعــي أن هــذا كان لمصلحــة الأتــراك. لكــن شــنهم الحــروب فــوق أرض «جـي» الشـمالية أدى إلـى بقـاء الدولـة فـي وضـع صعـب، ممـا أدي إلـى إضعافهـا بشـكل كبيـر. وفـي نفـس الوقـت كان الأتـراك يحرصـون علـى وجـود دولـة «جيـن» فـي القسـم الجنوبـي مـن الصيـن، ونجحـوا فـي توحيـد جنـوب الصيـن. ولكـن العـداوة التـي بيـن «جـو» و«جـي» الشـمالية جعلتهمـا فـي وضـع لايساعدهما علـى التنسـيق فيمـا بينهمـا للعمـل علـى إعاقـة الأتـراك عـن دخـول الآراضـي الصينيـة. ومـن ناحيـة أخـرى فـإن زواج حاكـم «جـو» الشـمالية مـن ابنـة موقـان - خـان «أسـينا» فـي عـام ٥٥٨م جعـل هـذه الدولـة تقـدم للأتـراك كل عـام مائـة ألـف ثـوب حريـر، وأحكـم الأتـراك الذيـن يعيشـون فـي «جانـغ - آن» عاصمـة «جـو» الشـمالية سـيطرتهم علـى المدينـة، وكان يتـم تخصيـص عشـرة آلاف جنيـه ذهبـي مـن أجـل ملابسـهم وطعامهـم. و كانـت «جـي» الشـمالية تقـدم الهدايـا إلـى الأتـراك بشـكل مسـتمر فـي حـدود امكانياتهـا لتجنبـت هجومهـم عليهـا».[٦٩]

فــي عــام ٥٧٤م، مــات موقــان - خــان فخلفــه شــقيقه «طومــان»أو «تــاوار - خــان». وفــي عهــده كان الأتــراك الذيــن قويــت شــوكتهم يشــعرون بالقلــق الشــديد مــن الصيــن. وعملــت «جــي» الشــمالية و«جــو» الشــمالية مــا فــي وســعهما لنيــل رضــا الأتــراك حتــى يعيشــوا فــي أمــان. حتــى أن «تــاوار - خــان» قــال ذات مــرة للمحيطيــن بــه بغــرور: «لا أخشــى مــن أي بــلاء ولا حتــى أعتــى الــزلازل، فإبنــيّ المخلصيــن فــي الجنــوب»[٧٠]. والدولتــان اللتــان وصفهمــا «تــاوار - خــان» بإبنيــه فــي الجنــوب همــا دولتــي «جــو» الشــمالية و«جــي» الشــمالية. فهاتــان الدولتــان فــي الواقــع كانتــا خاضعتيــن للأتــراك، والهدايــا المرســلة منهمــا إلــى ســلطنة الأتــراك كل عــام لــم تكــن ســوى جزيــة.

كانـت دولـة «جـو» الشـمالية تهاجـم «جـي» الشـمالية اعتمـاداً علـى قـوة ودعـمٍ «تـاوار - خـان» ودعمـه. فـي تلـك الأثنـاء أرسـلت «جـي» الشـمالية رسـولاً إلـى مقـر «تـاوار - خـان» ووضحـت لـه حقيقـة الوضـع، لكـن حـدث

الكثير بعد ذلك. وعلى أية حال فإنه خلال استعداد جيش الأتراك للحرب، قامت «جو الشمالية» بالقضاء على جارتها «جي» الشمالية، والتجأ الأمير «كاو شاو» إلى تاوار - خان. هذه المرة قام الأتراك في عام ٥٧٩م بتجهيز «كاو شاو» للحرب ضد «جو» الشمالية، وكان تاوار - خان يسعى لإحياء «جي» الشمالية من جديد. فقد كان من مصلحة الأتراك أن تكون هناك دولة أخرى في الصين. وعندما أرسلت «جو» الشمالية الأميرة «جين جينج» عروسا إلى تاوار–قاغان في عام ٥٧٩م، تخلي بسبب هذه الأميرة عن فكرة إحياء «جي» الشمالية، وأرسل «كاو شاو» إلى «جانج - آن» عاصمة «جو» الشمالية.

واعتباراً من عام ٥٨٠م بدأت تغيرات مهمة داخل حدود شرق آسيا، ففي عام ٥٨١م ظهرت أسرة «سوي» (٥٨١–٦١٨م) مكان «جو» الشمالية. واعتباراً من ذلك التاريخ سوف تحمي امبراطورية «سوي» التي أقامت دولة قوية في الصين وجودها لفترة طويلة. وفي ظرف ٥٠ عاماً (بين أعوام ٥٥٠ – ٦٠٠م) منذ حكم «طومان - قاغان» وحتى «توران - سلطان»، قويت شوكة السلطنة التركية وعلا مقامها. لكن ظهور أسرة»سوي» ودعمها (وهى الأسرة التي قضت على دولة «جن» في عام ٥٨٩م) كانت من العوامل التي بدأت تنبئ بضعف السلطنة التركية وانقسامها.

بعد وفاة «تاوار - خان» في عام ٥٨١ بدأ صراع على السلطة بين أولاد كل من «تاوار - خان» و«موقان - خان». وفي النهاية أصبح «سافارلو [صاپوليو] ابن «أوار - خان»، السلطان الكبير. أما «آپا - خان» بن «موقان - خان» الذي خسر الصراع على السلطة، فقد أحس بالإحباط. واقتنص الإمبراطور «وين - تي» (يانج جين) الذي كان يخشى الأتراك فرصة الخلافات التي تصاعدت بين الحكام الأتراك، وبدأ فورا في تحصين سور الصين العظيم وحشد الجيش.

واستفاد الإمبراطور «وين - تي» من النزاع الداخلي بين الأتراك، فانخرط في العمل على زيادة انقسامهم وخلافهم مع بعضهم البعض،

ثـم القضـاء عليهـم جميعـاً بعـد ذلـك. وكان المخطـط لهـذا الأمـر هـو القائـد الذكـي، الفطـن «جانـج سـون - شـينغ». يقـول «سـون - شـينغ»: «إن هـذه الأيـام تفـرض علينـا أن نصبـح أصدقـاء للأتـراك البعيديـن عنـا وأن نهجـم علـى هـؤلاء القريبيـن منـا. وبهـذا نسـتطيع أن نفتـت وحدتهـم وقوتهـم ونعمـل علـى إضعافهـم... وفـي غضـون عشـرة أعـوام يصبـح الوقـت ملائمـاً للهجـوم علـى الأتـراك والقضـاء علـى دولتهـم.»[٧١]

وبـدأ «ويـن - تـي» فـي اسـتقبال الوفـود المختلفـة حسـبما يخطـط لـه «جانـج سـون شـينغ» مـن أجـل تقسـيم الأتـراك وإضعافهـم ثـم إسـقاطهم بعد ذلـك. فـكان يبـدي التقـرب مـن بعـض الحـكام الأتـراك ويقـدم لهـم المحظيات والهدايـا القيمـة والأمـوال والمقتنيـات الثمينـة، ومـن ناحيـة أخـري ينظـم للهجـوم عليهـم. مثـلاً قـام [جانقان/جانجـار] باسـتمالة «كـي - ميـن تـورا بـن سـاوارلو - خـان» إلـى صفـه، وحرضـه ضـد السـلطان الكبيـر«تونغـا تـوران - خـان» (٥٨٨ – ٦٠٠م) وقـدم لـه اثنيـن مـن الأميـرات ليتـزوج بهمـا، الأولـى فـي عـام ٥٩٧م واسـمها «آن - آي» والأخـرى اسـمها «يـه - جينـج».

ولهـذه الأسـباب التـي ذكرناهـا وقعـت حـرب بيـن الأتـراك والصيـن فـي عـام ٥٨٢م. ففـي ذلـك العـام هجـم «سـاوارلو - خـان» علـى الصيـن بجيـش قوامـه ٤٠٠ ألـف جنـدي. وبقيـت أسـرة «سـوي» فـي وضـع صعـب للغايـة، واقتربـت وحـدات الفرسـان مـن «جانـج - آن». وفـي الوقـت نفسـه لـم يصـغ «تـاردو - خـان» (سـلطان القسـم الغربـي) لأوامـر السـلطان الكبيـر، ومنـع جيشـه مـن الاشـتراك فـي الحـرب.

ومـن ناحيـة أخـرى خـدع الدبلوماسـيون الصينيـون «آپا - خـان»، ويُسـمى أيضـا [آ - پوخـان/ طوراميـان] - الـذي شـارك فـى الحـرب رغـم احباطـه، وذهـب إلـى «جانـج - آن» وانضـم إلـى «يانـج جيـان». وأرسـل «جانـج سـون - شـينغ» مبعوثـاً إلـى «زام - خـان» [زامـا - خان]الـذي بقـي مرتبطاً بـ«سـاوارلو» وأخبـره أن الطوريـين [ونعنـي بهـم الأويغـور الشـرقيين] ينـوون العصيـان ضـد «سـاوارلو - خـان». ونُشـرت أيضـا شـائعات كاذبـة مثـل إنهـم يريـدون الإغـارة علـى مقـر سـلطانهم[٧٢]. صـدق «سـاوارلو - خـان» هـذه الشـائعات الكاذبـة التـي

وصلت إليه عن طريق «زام - خان»، فجمع جيشه وانسحب. وهكذا تم إنقاذ أسرة «سوي» من خطر كبير. وبعد ذلك اليوم بدأت حرب داخلية داخل السلطنة التركية. وخذل «آپا - خان» [طورامان] «ساوارلو - خان» وهرب إلى جانب «تاردو - خان». وخاض «آپا - خان» عدة محارك ضد «ساوارلو - خان» مدعوماً بالجنود الذين قدمهم له «تاردو - خان».

وبسبب الحروب الداخلية التي وقعت خلال ٢٠ عاماً ـــ بداية من زمن «ساوارلو» (٥٨١ - ٥٨٧م) و«چورباجا خان» (٥٨٧ - ٥٨٨م) وحتى «تونغا توران - خان» (٥٨٨ - ٦٠٠م) ـــ وأيضا بسبب دسائس أسرة «سوي» انقسمت السلطنة التركية إلى قسمين: السلطنة التركية الشرقية والسلطنة التركية الغربية.

وفي عام ٦٠٠م أرسل «وين - تي» جيشاً كبيراً دعماً لـ كي «مين تورا - خان» ضد السلطان الكبير «تونغا توران - خان». وبهذا الدعم الذي قدمته الصين انهزم «توران - خان». في تلك الأثناء أعلن «تاردو - قاغان» نفسه سلطاناً كبيراً واتخذ لنفسه لقب «بيلكا تاردو - خان». وفي عام ٦٠٣م دعمت أسرة «سوي» «بيلكه تاردو - خان» أمام «كي - مين - خان» لكنه انهزم. وهرب «بيلكه تاردو - خان» إلى «كوكنور» ومات خلال صدام وقع هناك. وفي عام (٦٠٣م) صار فيه «كي - مين تورا - خان» «السلطان الكبير» للأتراك، فأعلن سلاطين الأتراك الغربيين استقلالهم وعدم اعترافهم به، واعتباراً من هذا التاريخ بدأ أبناء «آپا - خان» يحكمون السلطنة التركية الغربية. ودخلوا وادي إيلي وآسيا الوسطى وغرب آسيا وأفغانستان ضمن حدود السلطنة التركية الغربية. أما السلطنة التركية الشرقية فقد بدأت من منطقة أرض المغول في الغرب المعروفة اليوم بـ «قوبدو» وامتدت حتى المحيط في الشرق. وصارت «أوتوكان» عاصمة الأتراك الشرقيين، أما عاصمة الأتراك الغربيين فكانت «مينبولاق» (التي تقع حالياً داخل حدود قيرغيزستان).

ولم تنجح إمبراطورية «سوي» في القضاء علي الأتراك الذين انقسموا فيما بينهم في عام ٦٠٠م. وفي عام ٦٠٩م مات «كي - مين تورا

- خـان» سـلطان الأتـراك الشـرقيين. وكان لديـه ثلاثـة ابنـاء وهـم: «سوار» و«چولـوق» و«قـره - خـان»، حكمـوا السـلطنة بعـده علـى التوالـي.

وفـي عهـد سوار - خـان (٦٠٩ - ٦١٩) صـارت السـلطنة التركيـة الشـرقية أقـوى دولـة فـي شـرق آسـيا. وبلـغ عـدد جيـش السـلطان حوالـي مليـون رجـل. وفـي عـام ٦١٥م خـرج إمبراطـور الصيـن «يانـج - تـي» فـي إحـدى رحلاتـه، وعندمـا سُـرب خبـر اقترابـه مـن حـدود بـلاده الشـمالية تـم الاسـتعداد لمهاجمتـه بجيـش فرسـان تركـي قوامـه حوالـي مائـة ألـف جنـدي بغـرض أسـره. بيـد أن الأمِيـرة الصينيـة «يـي - جينـج» زوجـة السـلطان التركـي، أرسـلت رجـلا سـراً إلـى «يانـج - تـي» لأخبـاره بالأمـر. وعندمـا سـمع «يانـج - تـي» هـذه الأخبـار تملكـه الخـوف وعـاد أدراجـه إلـى مدينـة «يـان - ميـن». لـم يُضـع «سوار - خـان» أي وقـت وذهـب فـي إثـره ودخـل إلـى مدينـة «يـان - ميـن». وسـيطر الأتـراك علـى ٣٩ محافظـة مـن محافظاتهـا الـ ٤٠ فـي قلـب «يـان - ميـن». وكان «يانـج - تـي» يجهـل مـا يجـري بعـد مـوت أتباعـه، ويقضـي وقتـه مضطربـاً باكيـاً ليـلاً ونهـاراً بصحبـة ابنـه الصغيـر «يانـج كاو». وأثنـاء، هـذا الوضـع الصعـب الـذي يعيشـه الإمبراطـور أرسـل أحـد وزراء الإمبراطـور ويدعـى «شـاويو»، هدايـا كثيـرة عبـارة عـن مشـغولات فضيـة وذهبيـة إلـى الأميـرة «يـي - جينـج» وأفهمهـا أن تسـتغل هـذه الهدايـا فـي اتخـاذ التدابيـر اللازمـة لإنقـاذ «يانـج - تـي» مـن هـذا الحصـار. وكانـت الأميـرة «جينـج» تتسـم بالمكـر والـذكاء فأرسـلت رجـلاً إلـى «سوار - خـان»، تنفيـذاً لتعليمـات «شـاويو» ليخبـره قائـلاً: «لقـد ظهـرت تـواً مشـكلة مهمـة خلفنـا فـي الطـرف الشـمالي». صـدق «سوار - خـان» كلام الأميـرة وانخـدع بـه وظـن أن هنـاك عصيانـا تركيـا فـي المنطقـة، فرفـع الحصـار عـن «يـان - ميـن» وعـاد إلـى بـلاده. وهكـذا تـم إنقـاذ «يانـج - تـي» مـن الوقـوع أسـيراً فـي أيـدي الأتـراك.[٧٣]

وبسـبب العصيـان الداخلـي، تقوضـت إمبراطوريـة «سـوي» فـي عـام ٦١٨م، وانطـوت صفحتهـا وهـى تجتـر الآلام كطائـر فـى مهـب الريـح. ورأت إمبراطوريـة «طانـغ» الـذي اسـتمر وجودهـا حوالـي ٣٠٠ عـام(٦١٨ - ٩٠٧م)

المساعدة والدعم من «سوار - خان» خاصة في مرحلة تأسيسها في عهد إمبراطورها الأول «لي يوان».

وكان الأتراك يقدمون لهم الدعم العسكرى من أجل السيطرة على مدينة «جانج - آن». وتصرف مبعوثو الأتراك الشرقيين الذين جاءوا إلى «جانج - آن» بغرور، وتعاملوا مع دولة «طانغ» وكأنها دولة تابعة لهم. غير أن الإمبراطور «لي يوان» أوضح منذ البداية أنه نفسه مرتبط تماماً بـ سوار - خان.

وعندما مات «سوار - خان» في عام ٦١٩م خلفه «چولوق - خان» الذي سار على نفس تقاليد السلاطين الأتراك، وتزوج هو أيضا من أميرة صينية. لكن الأميرة «يي - جينج» دست له السم. وبعد السلطان «چولوق - خان» اعتلى العرش «قره - خان» (٦٢١ - ٦٣٠م)، وفي عهده ظلت الصين مجبرة على السير في ركاب الأتراك. ولم تكن سلالة «طانغ» قد أبيدت حتى ذلك الوقت برغم جميع أعدائها في الداخل. أما «قره - خان» فقد استفاد من خلافاتها، وكان دائم التهديد لها. وفي عام ٦٢٢م شن «قره - خان» هجوماً على الصين بجيش قوامه مائة ألف جندي تقريباً. وأرسل «لي - يوان» مبعوثاً إلى السلطان التركي ورجاه أن يعقد معاهدة صلح، فوافق على ذلك. وبموجب للمعاهدة المبرمة أجبرت الصين على دفع الجزية التي كانت قد توقفت عن دفعها منذ زمن طويل، وأجبرت أيضا على إرسال مقدار كبير من المال كل عام (بالإضافة إلى السلع القيمة مثل الشاي وغيره). ثم انسحب «قره - خان» مرة أخرى إلى حدوده وخشى «طانغ» من تكرار «قره - خان» هجومه على الإمبراطورية، ففكر في نقل العاصمة من «جانج - آن» إلى مكان آخر. وكان المؤيدون لفكرة نقل العاصمة يرون أن إخلاء «جانج - آن» من ثرواتها الهائلة وجعلها مدينة خربة سيجعل الأتراك لا يفكرون في دخولها مرة أخرى. ولهذا السبب كان لابد من نقل العاصمة إلى مكان بعيد عن الأتراك. ورحب الإمبراطور «لي يوان» بهذه الفكرة، لكن ابنه «لي شيه - مين» (٦٢٦ – ٦٢٩م) رفضها، ولذلك تم إرجاء موضوع

نقـل العاصمـة.

وفــي عــام ٦٢٦م قــام «قـره - خـان» بتمزيـق المعاهـدة المبرمـة مـن قبـل، وهجـم علـى الصيـن واسـتولى علـى المناطـق التـي تبعـد عـن العاصمـة «جانـج - آن» بنحـو ٤٠كـم. فقـام «لـي شـيه - ميـن» بمنـح قـره - خـان مقـدارا كبيـرا مـن الذهـب والفضـة والقمـاش، فأنقـذ العاصمـة مـن الوقـوع فـي يـد الأتـراك ونهبهـا. وفـي نفـس العـام حاسـب «لـي شـيه - ميـن» أعـداءه فـي الداخـل، ونجـح فـي المحافظـة علـى وحـدة الصيـن. وعمـل علـى صـرف «قـره - خـان» عـن تحقيـق مطامعـه، وفـى ذات الوقـت بـدأ فـي التجهيـز الجـاد لمواجهـة الأتـراك.

واعتبـاراً مـن عـام٦٢٧م ظهـرت فـي السـلطنة التركيـة الشـرقية مشـاكل كثيـرة وصعبـة. فقـد قضـت الكـوارث الطبيعيـة علـى جـزء كبيـر مـن رعايـا السـلطنة، وأُضيـرت ثروتهـا الحيوانيـة ضـرراً كبيـراً. وبـدأ النـاس يعانـون مـن المجاعـة بعـد نفـاد آخـر مايملكـون مـن طعـام. وفضـلا عـن هـذا ظهـرت الاضطرابـات الداخليـة. وكان أبرزهـا أعمـال التمـرد الشـديدة التـي قـام بهـا الأويغـوري الشـرقيون. وكان الأويغـور الشـرقيون آنـذاك يتكونـون مـن ١٥ قبيلة: الأويغـور و«سـورتاردوش» [سـيرتاردوش]، و«چيبيـن» و«طوبـا» و«قوريقـان» و«تالانغـوت» و«بوكـو» و«بايرقـو» و«طونغـرا» و«هـون» و«إيزجيـل» و«فوغورسـو» و«قومـوق» و«آديـز» و«بولسـاري» (بايسـاري). وهـذه القبائـل جميعهـا أصـلاً مـن شـعوب السـلطنة التركيـة الشـرقية، وكانـت تسـتقر آنـذاك فـي منغوليـا وأطـراف بايقـال.

وبـدءا مـن عـام ٦٠٠م أخـذ الأويغـور فـي تقويـة أنفسـهم. وقبـل «تكيـن أركـن (؟ - ٦٠٥م) و«پوسـا» (؟ - ؟) وهـم الأمـراء الياغـلاق أحـد عشـائر الأويغـور الشـرقيين، قبلـوا سـيادة الأتـراك الشـرقيين.

وعندمـا أعلـن الأويغـور عصيانهـم فـي عـام ٦٢٨م، أرسـل «قـره - خـان» ابنـه «يوقـوق - شـادي» مـع «تـورا بـن سوار - خـان»، علـى رأس جيـش قوامـه ١٠٠ ألـف جنـدي للقضـاء علـى العصـاة. لكـن الجيـش التركـي انهـزم علـى يـد الأميـر الأويغـوري «پوسـا» وألقـى «قـره - خـان» بمسـئولية الهزيمـة

علـى عاتـق «تـورا - خـان» وقـام بسـجنه لفتـرة. وعندمـا سـمع «لـي شـيه - ميـن» بهـذا أعلـن تأييـده لــ «تـورا - خـان» ودعمـه لمواجهـة «قـره - خـان». وفــي نفـس العــام (أي فــي عــام ٦٢٨م) الــذى انتصـر فيــه الأويغـور علــى الأتـراك الشـرقيين، أسسـوا سـلطنة «سـيانتو» بالاتحـاد مع «السيرتاردوشـلر (السـيناتوريين مـن قبائـل تـلا). واسـتقبلت إمبراطوريـة «طانـغ» خبر تأسـيس هـذه السـلطنة (٦٢٨–٦٤٨م) بالفرحـة واعترفـت بهـا رسـمياً، وأرسـلت هدايـا كثيـرة مـع سـفيرها إلـى «إينـان» الموجـود علـى رأس السـلطنة. وعندمـا صـار الأتـراك الشـرقيون فـي هـذا الوضـع الصعـب بسـبب التمـرد والنزاعـات الداخليـة، قـام «لـي شـيه - ميـن» بحملـة عسـكرية ضدهم.سـار «الجنـرال لـي جينـج» علـى رأس جيـش صينـي كبيـر قوامـه أكثـر مـن مائـة ألـف جنـدي ضـد الأتـراك الذيـن كانـوا عبـارة عـن ٢٠ كتيبـة فقـط واسـتولى علـى أراضيهـم. وفـي عـام ٦٢٩م انتهـت الحـرب التـي اندلعـت عنـد جبـال «جوغـاي» بهزيمـة الأتـراك، وهـرب «قـره - خـان» إلـى الغـرب صـوب «نينـغ - شـيا».

وفـي عـام ٦٣٠م قبـض أميـر خائـن يُسـمى أسـينا[آچينا] سـونيش علـى «قـره - خـان» وسـلمه إلـى «لـي جينـج» قائـد الجيـش الصينـي. كمـا أسـر الجيـش الصينـي فـي تلـك الأثنـاء المئـات مـن الأتـراك نسـاء ورجـالا. وتـم ترحيـل هـؤلاء الأسـرى إلـى داخـل نطـاقٍ سـورٍ الصيـن. أمـا المجموعـة التـي علـى رأسـها «قـرا - خـان» وتضـم أميـراً قريبـاً لــ «أسـينا» [آچينـا] فقـد تـم ترحيلهـم إلـى «جانـج - آن». وأثنـاء الحـرب هـرب قسـم مـن الأتـراك الذيـن نجـوا مـن الوقـوع فـي الأسـر إلـى آسـيا الوسـطى، وقسـم آخـر انضـم إلـى الأويغـور. وفـي عـام ٦٣٤م مـات «قـرا - خـان» فـي «جانـج - آن».

وفــي عــام ٦٣٦م قــام «لــي شــيه - ميــن» بتنصيــب أحــد الأشــخاص ويُدعـى «أسـينا سـيربا» - الـذي صـار اسـمه «لي سسـي - مـا» وفقـاً للمصـادر الصينيـة - سـلطاناً علـى الأتـراك الشـرقيين الذيـن سـقطوا فـي الأسـر. لكـن الأتـراك الذيـن يحرصـون علـى حرياتهـم لـم يتقبلـوا أن يصبح «أسـينا سـيربا» سـلطاناً عليهـم، لأنهـم كانـوا يعتبرونـه ألعوبـة فـي يـد الصيـن. وأسـس هـؤلاء

الأتـراك فيمـا بينهـم سـلطنة تركيـة مسـتقلة، وبـدأت حركـة اسـتهدفت إنقـاذ الأتـراك مـن نيـر الصيـن. وكان علـى رأس هـذه الحركـة «كورشـاد بـن سيوار - خـانٍ» الصغيـر. وأسـس «كورشـاد» تنظيمـاً مختـاراً بعنايـة يضـم أربعيـن شـخصاً مـن الأتـراك المحتجزيـن فـي «جانـج - آن»، وفـي الاجتمـاع السـري للتنظيـم تقـرر اختيـار «كورشـاد» سـلطاناً فـي حـال بلـوغ الهـدف، وإقامـة السـلطنة التركيـة، ولكنـه لـم يوافـق علـى هـذا، ورشـح أحـد أبنـاء أخيـه ليتولـى هـذا المنصـب ولقـي ترشـيحه قبـولاً مـن الجميـع.

وتقـرر أن تبـدأ حركـة إنقـاذ الأتـراك الشـرقيين فـي شـهر ابريـل عـام ٦٣٩م. فـي تلـك الأثنـاء كان «لـي شـيه - ميـن» علـى رأس أسـرة «طانـغ». وكمـا أوضحنـا مـن قبـل إنـه كان مايزيـد عـن مائـة ألـف تركـي كان قـد تـم أسـرهم فـي عـام ٦٣٠م محتجزيـن فـي أحـد المناطـق المعروفـة فـي شـمال الصيـن.

وبعـد الكثيـر مـن المناقشـات الجـادة، نظـم هـؤلاء الذيـن انضمـوا إلـى حركـة التمـرد بزعامـة «كورشـاد» خطـة تحـرك مـن مرحلتيـن. وتسـتهدف هـذه الخطـة فـي المرحلـة الأولـى الوصـول إلـى مقـر الأتـراك الذيـن أسـرهم الإمبراطـور «لـي شـيه - ميـن» مـن قبـل، وضمـان تحريـر الأتـراك المحتجزين فـي عاصمـة إمبراطوريـة «طانـغ»، أمـا فـي المرحلـة الثانيـة فيتـم توحيـد الأتـراك وإحيـاء السـلطنة التركيـة الشـرقية المسـتقلة مـن جديـد. وكان «كورشـاد» يعلـم أن «لـي شـيه - ميـن» اعتـاد التنكـر والإنخـراط بيـن أفـراد شـعبه فـي شـوارع «جانـج - آن» للاسـتماع إلـى مشـاكلهم، فقـرّرأن يسـتغل هـذه الفرصـة ويقـوم بخطفـه. لكـن هبـت عاصفـة غيـر متوقعـة فـي ليلـة تنفيـذ الخطـة فلـم يخـرج الإمبراطـور مـن قصـره.

وانتابـت «كورشـاد» الوسـاوس والقلـق مـنٍ أن تكـون الخطـة قـد إنكشـف أمرهـا، وفكـر أن يذهـب إلـى القصـر مباشـراً ويقـوم باختطـاف الإمبراطـور.

وفـي نفـس المسـاء حـزم «كورشـاد» أمـره ومعـه ٤٠ شـخصاً ممـن يتصفـون بالشـجاعة والقـوة وهجـم علـى القصـر، وبـدأ صـدام دامٍ. ومـات حوالـي مائـة مـن رجـال الحـرس مـن جـراء ضربـات المتمرديـن، ولكـن

عندمـا وصـل «كورشـاد» إلـى المـكان المتوقـع أن يكـون قليـل الحـرس، وجدهـم اكثـر ممـا يتوقـع فأمـر رفاقـه بالانسـحاب بعدمـا أيقـن أنـه لـن يسـتطيع خطـف «لـي شـيه - ميـن». وبعـد أنسـحاب كورشـاد ومـن معـه مـن الطـرف الخلفـي للقصـر، اتجهـوا مباشـرة نحـو نهر«ويـي - هـو»، وامتطـوا جيادهـم الموجـودة هنـاك. وخـلال المعـارك التـي تعرضـوا لهـا طـوال الطريـق لقـي هـؤلاء المتمـردون جميعـا حتفهـم.

وظلـت جثـث «كورشـاد» ورجالـه ملقـاة فـي منحـدرات نهـر «ويـي - هـو» الصفـراء. وهـذا ماذكرتـه المصـادر التاريخيـة الصينيـة عـن كورشـاد.[٧٤]

وبالرغـم مـن فشـل التمـرد الـذي قـاده البطـل القومـي التركي «كورشـاد»، لـم تخمـد نـار الحريـة والاسـتقلال فـي صـدر الأتـراك الشـرقيين. وصـار اسـم «كورشـاد» رمـزاً للحريـة والاسـتقلال، وبقـي هـو فـي قلـب كل مـن يتـوق إلى الحرية.

الفصل الرابع: تأسيس سلطنة أورخون الأيغورية

«توميد أولُغ إلتبر»

لما فشل العصيان التي قاده «كورشاد» عام ٦٣٩م، بدأت أسرة «طانغ» الحاكمة فى تغيير سياستها تجاه مملكة «صورطاردوش» التى كانت بمثابة العمود الفقري للأويغور الشرقيين، والتى سبق لها وأن دعمتهم ضد «قرا خان»، واتبعت تجاههم سياسة تتسم بالعداء. ولهذا نقلت مائة ألف أسير تركي وقعوا فى الأسر إلى خارج سور الصين فى عام٦٢٩م. وكما أوضحنا من قبل فإن أسرة «طانغ» عينت «أسينا سيرباى» سلطانا علي هؤلاء الترك وحرضته ليكوِّن جبهة ضد أسرة «صور طاردوش» وقد توالى عليها اعتبارا من هذا التاريخ عدد من السلاطين.

وكما دفعت أسرة «طانغ» بسلاطين الترك الموالين لها للقضاء على مملكة «صورطاردوش» سعت أيضا للاستفادة من الأويغور الشرقيين.

وفي تلك الأثناء حاول أجداد الكوريين الحاليين أن يستميلوا الأويغور الشرقيين إلى صفهم بهدف التصدى لسيطرة أسرة «طانغ».

وفي عام ٦٤٣م حاول حاكم كوريا (ين -كو صو- وينج) أن يحقق تعاوناً مع أسرة «صور طاردوش» ويضم إليه السلطان «بوركلي» للتصدى للصينيين .

وعندما علم (لي شيه من) بهذا قرر أن يقضى على أسرة «صور طاردوش». وفي عام ٦٤٦م تمكن «لي شيه -من» بالتعاون مع سلطان الأويغور (توميد أولغ إلتبر) من القضاء على مملكة (صور طاردوش).

وأعقب هذا سلسلة من الفعاليات لإخضاع الأويغور الشرقيين لطاعته.

لكن «أُولُغ التَبر» أعلن نفسه سلطانا على الأويغور في عام ٦٤٦م، وهى السلطنة التي استمر وجودها ٢٠٠عام، و دخلت التاريخ بوصفها سلطنة أورخون الأويغورية.

ورغم أن «لي شيه مين»اضطر للاعتراف رسميا بقيام هذه الدولة الفتية، فقد أضمر فى نفسه قتل سلطان الأويغور. فدس جواسيسه ونجح في الاتصال بابن أخي «توميد إلتبر» ويدعى «سيد أويغور». وحرضه على قتل السلطان» تُوميد» مع الوعد بأنه سيضمن له أن يكون سلطانا على كل الأويغور.

في مساء اليوم الذي قُتل فيها السلطان «تُوميد» وصل «السيد أويغور» إلى إلى «يانغ لى جى» وهو أحد رجال«لي شيه مين» الموثوق فيهم، وأبلغه البشرى. اغتال (يانغ لي جى) «السيد أويغور» وتخلص منه ليخفى عن الناس السبب الحقيقى لوفاة السلطان. لكن الناس عرفوا الحقيقة، ورفعوا «بايان» ابن السلطان «توميد» إلى العرش، وسرعان ما سيطر السلطان الجديد علي الوضع.

سلطنة الأويغور والأتراك

مع تأسيس سلطنة أورخون الأويغورية في عام ٦٤٦م، على أراضي سلطنة الترك الشرقية، تم أيضا تاسيس سلطنة تركية عند الحدود الجنوبية التى كانت بمثابة صحن العسل لأسرة «طانغ».

وكما أوضحنا سابقا، فإن الاتراك لم يعترفوا بهذة الدولة الدُّمية، وكانوا يعملون فى الخفاء للقضاء عليها. ولهذا السبب ثار الأتراك في عام ٦٧٩م لكي يعيدوا تأسيس سلطنة الترك الشرقية ورفعوا الأمير «أسينا نيزاق» على العرشً، وفي القتال الذي دار عام ٦٨٠م انهزم جيش الأمير «أسينا نيزاق» أمام جيوش أسرة «طانغ»، وقُتِل مع رجاله. وفي هذة المرة أعلن الاتراك «أسينا إينان» سلطانا مكانه. ولكنه قُتل

بـدوره سـنة ٦٨١م فـي مؤامـرة دبرهـا جواسـيس أسـرة «طانـغ». وبنـاء علـى مـوت هذيـن السـلطانين نجـح أميـر تركـي يُدعـى «أسـينا قُتْلُـق» فـى إعـادة تاسـيس سـلطنة التـرك الشـرقية مـن جديـد فـي عـام ٦٨٢م. ورجعـت كل الجيـوش التـى أرسـلها ضـد أسـرة «طانـغ»، بـل انـه خـرج منتصـرا مـن عـدة حـروب ولقبـه الاتـراك بلقـب «أل تريـش قُتْلُـق» (بمعنـى السـلطان القـوى الـذي اسـتعاد الشـعب والأرض). وفـي سـنة ٦٨٢م انتصـر «إلتريـش قُتْلُـق» علـي الأويغـور بالقـرب مـن بحيـرة «انكيليـر». واسـتولى علـى «أُتُوكَـن».

فـي عهـود «قُتْلُـق إلتيـرش» (٦٨٢ – ٦٩٢م) والسـلطان «قابغان (٦٩٢ -٧١٦م) والسـلطان «بيلكـه» (٧١٦ – ٧٣٤م)، قويـت شـوكة سـلطنة التـرك الشرقية، وظهـرت فـي تلـك الأثنـاء ثـلاث دول قويـة فـي الجـزء الشـرقي لآسـيا هـى: «سـلطنةالترك الشـرقية» (٦٨٢ - ٧٤٤م) و«امبراطوريـة طانـغ» (٦١٨ – ٩٠٧م) و«الخلافـة العربيـة».

وإذا كانـت سـلطنة التـرك الشـرقية تأسسـت متأخـرةً نسـبيا، وسـيطرت فعليـاً علـى دولـة أورخـون الأويغوريـة اعتبـاراً مـن عـام ٦٨٢م، فقـد نجـح الأويغـور فـي المحافظـة علـي اسـتقلالهم.

وقـد سـاق الأتـراك الشـرقيون الجيـوش إلـى وسـط آسـيا لطـرد العـرب مـرة فـي عـام ٧٠٩م ومـرة أخـرى فـى ٧١١م. وكان «كـول تكيـن» الإبـن الأصغـر لألتيريـش قُتْلُـق قائـدًا لهـذه الحمـلات العسـكرية. اشـتبك «كـول تكيـن» مـع القائـد العربـي قتيبـه بـن مسـلم فـي المعـارك التـي وقعـت بجـوار بُخـارى، لكنـه ولأسـبابٍ مختلفـة لـم ينجـح الاتـراك الشـرقيون فـي إخـراج العـرب مـن آسـيا الوسـطى.

وكان أويغـور الشـرق يدفعـون الضريبـة لأتـراك الشـرق منـذ عـام ٦٨٢م، ولكنهـم لـم يتخلـوا قـط عـن الكفـاح للخـروج مـن تحـت هيمنتهـم، وكسـب اسـتقلالهم مـرة أخـرى. وفـي عـام ٧١٥م تدهـورت العلاقـات بيـن الطرفيـن تمامـاً، وبعـد عـام واحـد وقـع (قباغـان خـان) سـلطان أتـراك الشـرق فـى كميـن فـي إحـدى الغابـات نصبـه لـه مقاتلـون ينتمـون الـي قبيلـة «بايرقُلـر»

الأويغوريـة، وقُتِـل بالقـرب مـن نهـر (كرولـن kerulen).

وبعـد «قباغـان» خـان اعتلـى عـرش خانيـة أتـراك الشـرق «بيلكـه سـلطان» وأعقبـه «أسـينا بيلكـه «علـى التوالـى، وفـى زمـن هذيـن الخانيـن اسـتطاعت خانيـة اتـراك الشـرق تحافـظ بصعوبـة كبيـرة علـى مكانتهـا كأكبـر دول آسـيا. وفـي هـذة الفتـرة كان لخانيـة الأتـراك الشـرقيين جيـش مكـون مـن مائتيـن وعشـرين ألـف مقاتـل. وفـي عـام٧٣٥م حشـد امبراطـور «طانـغ» اكثـر مـن أربعمائـة ألـف جنـدي علـى الحـدود الشـمالية تحسـبا للتهديـدات المسـتمرة مـن قبـل جيرانـه االشـماليين[٧٥].

فـي عـام ٧٤٥م خرجـت السـيطرة علـى السـهوب مـن يـد سـلطنة التـرك الشـرقية وانتقلـت فعليـاً إلـى دولـة أورخـون الأويغوريـة.

كنـا قـد وضحنـا سـابقا العلاقـات التـى بيـن سـلطنة التـرك الشـرقية والأويغـور فـي الفتـرة التـي انقسـمت فيهـا إمبراطوريـة «الكـوك تـرك» عـام ٦٠٠م إلـي قسـمين همـا سـلطنة التـرك الشـرقية والغربية.أمـا الآن فلنتطـرق بالحديـث بشـكل مختصـر عـن العلاقـات بيـن الأويغور(سـلطنة أورخـون الأيغوريـة فـي الاصـل) وسـلطنة التـرك الغربيـة.

وبعـد وفـاة السلطان(اسـتمي) الـذي حكـم المناطـق الغربيـة بصفتـه (يابغـو[٧٦]) ونائبـاً للقائـد الأعلـي لمملكـة التـرك، تولـى السـلطان «بيلكـه تـاردو» هـذه المهمـة وتحملهـا مـن عـام ٥٧٦م إلـي عـام ٦٠٠م. وحكـم مملكـة التـرك معـه (أبـا ابـن السـلطان موقـان) لمـدة ١٧عـام. وبعـد السـلطان (أبـا) حكـم السـلطان(إينال) السـلطنة الغربيـة بالتعـاون مـع (بيلكـه تـاردو - خـان) لمـدة سـبع سـنوات مـن عـام (٥٩٣ - ٦٠٠م). ولكـن بعـد وفاتـه عـام ٦٠٠م انقسـمت السـلطنة الـي قسـمين شـرقي وغربـي، وظهـر مـن جديـد ابنـاء السـلطان (أبـا) علـى رأس سـلطنة التـرك الغربيـة.

وأول مـن تولـى عـرش مملكـة التـرك الغربيـة بعـد السـلطان (أبـا) وابنـه السـلطان إينـال هـو السـلطان «جولـو» حفيـد السـلطان «إينـال خـان» وذلـك مـن عـام (٦٠٠ - ٦١١م). وفـى هـذه الفتـرة كانـت تقـع مـن حيـن لآخـر

معـارك بيـن سـلطنتي التـرك الشـرقية والغربيـة، وفـي إحـدى هـذه المعـارك قُتِـل السـلطان «تشُـلُو» سـلطان التـرك الغربييـن علـى يـد سـلطان التـرك الشـرقيين السـلطان «سـيوار» أو «سـبِر».

وهكـذا اصبحـت مملكـة التـرك الغربيـة فـي عهـد السـلطان «تشُـلُو» والسـلطان «شَـاهُ» (٦١١_٦١٨م) وابنـه السـلطان «طُنـغ يابغـو» (٦١٨_٦٣٠م) واحـدة مـن اقـوى دول آسـيا، يحدهـا مـن الشـمال الشـرقي «سلسـلة جبال آلطـاي»، ومـن الجنـوب نهـر «جيحـون» أو «آمـو داريـا» وفـارس، وتمتـد مـن «باركـول» شـرقا حتـى بحـر الخـزر غربـاً.

وفـي عهـد (السـلطان شـاهُو) سـلطان أتـراك الغـرب، كانـت تقـع بيـن الفـرس والأتـراك معـارك أحيانـا، وفـى أحيـان أخـرى تقـوم بينهمـا علاقـات صداقـة. فـي السـنوات العشـر بيـن عامـي ٦٠٩ - ٦١٩م اسـتطاع القائـد الساسـاني «خسـرو برويـز» بفضـل الصداقـة التـي أقامهـا مـع الأتـراك أن ينتـزع مـن أيـدي البيزنطييـن بـلاد كثيـرة مثـل مصـر واليمـن وفلسـطين ورودس وآسـيا الصغـرى ويُضمهـا اليـه، أمـا الأمبراطـور البيزنطـى «هيروقليـس» فقـد نجـح فـي إقامـة علاقـات صداقـة نسـبية مـع الاتـرك وذلـك بعـد مـا فـرطَ فـي أراض كثيـرة لفـارس. ولكـن هـذه العلاقـات تفسـد مـع تولـى «بيلكـه تـاردُو» عـرش سـلطنة التـرك الغربيـة سـنة(٥٧٦م)، وتقـع بيـن الدولتيـن بعـض المناوشـات المحـدودة.

يحتـل السـلطان «طُنـغ يابغـو» مكانـة مهمـة فـي تاريـخ الاتـراك ولا تقـل أهميتـه أبـدا عـن السـلطان «مٌقـان» مـن حيـث بالشـجاعة، والفتـوة، والوفـاء، والاسـتراتيجية والتكتيـك الحربـى، فبعـد أن أقـام علاقـات وديـة مـع الامبراطوريـة البيزنطيـة، نقـل عاصمـة سـلطنة التـرك الغربيـة مـن «يلـدز» إلـى «مِيـن - بُـولاق» الواقعـة علـى وادي «طـالاس». وهاجـم فـارس مـن ناحيـة الشَرق(من ناحيـة مـن خُراسـان) بالاتفـاق مـع هيرقـل الأول إمبراطـور بيزنطـة. وبعـد أن أعمـل السـيف فـى الجيـش الفارسـي فـي خُراسان،استولى علـى طهـران واصفهـانٍ ثـم واصـل تقدمـه واتجـه الـى عاصمـة البـلاد «كَتَسـيفون» الـري حاليـاً. وفـي نفـس الوقـت هاجـم الإمبراطـور البيزنطـى

هيرقل الأول فارس من الغرب (من ناحية سوريا). وبشكل متزامن هاجم جيش سلطنة «الخزر» (٤٨٦ - ٩٦٠م) التابع لمملكة الترك الغربية، فارس من ناحية أذربيجان بجيش مكون من أربعين ألف شخص تحت قيادة (السلطان أوباچ). واستولى الترك وجيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) معا علي مدينة (كتسيفون). وأجلسوا «كيقباد الثاني» على العرش بدلا من «خسرو الثاني»؛ بهدف المحافظة على الأسرة الساسانية الفارسية التى انتهت بالفعل. وكان السلطان «تونغ - يابغو» الذي استولي علي جزء من أراضي فارس وخاصةخُراسان قد ولى عليها «إلتبر» و«تودون». واسترد «هيرقل» الاراضي التي انترعتها فارس من بيزنطة فى وقت ما وأسس من جديد الإمبراطورية الرومانية الشرقية قوية كسابق عهدها. وضعفت فارس التى تلقت ضربات ثقيلة وفقدت الكثير من أراضيها، مما سيجعل فتحها على يد العرب أمرا سهلا.

وبعد أن أتم السلطان «تونغ يابغو» حملته علي فارس بنجاح في عام ٦٢٤م (فى مصادر أخرى فى عام ٦٢٨م)، ذاع صيته وعاد مرة أخرى الي «مِين - بولاُق». ولكنه قُتل بعد فترة قصيرة، تحديداً في عام ٦٣٠م على يد ابنه الاصغر «السلطان بيلكه تاردو» المعروف باسم السلطان «باغاتور». ومهد هذا الحادث السبيل أمام أبناء «السلطان إستمي» لمحاولة انتزاع الحكم من ابناء السلطان «طومان». ولكن «صيابغو» ابن السلطان «طُنغ يابغو» أنزل ضربة عسكرية ثقيلة بالسلطان «باغاتور» وأصبح القائد الأعلى لأتراك الغرب. وبهذا ارتفع لهيب الحروب الداخلية بين أتراك الغرب بعد وفاة السلطان الكبير «تونغ يابغو». وخسرالسلطان «يابغو» الحرب التي خاضها مع السلطان «باغشاد طولو» حفيد(آبا - خان) عام ٦٣٣م وفر إلي (قانغلي). وبعد فترة قصيرة، قسَّم «باغ شاد طُولو» (٦٣٤ - ٦٣٩م) الكتلة الأساسية للقبائل التركية إلي فرعين كبيرين وذلك في سنة ٦٣٤م. كل فرع يضم خمس قبائل، وسُمي أحد هذين الفرعين باسم «نُوشيبي». وهم يعيشون اليوم في الأراضي التي تقع فيما بين نهري «جو» و«ايلي» بدولة قيرغيزستان الحالية.

وقام السلطان «إشبارا تَريش طُنغا» بتعيين سلطان علي رأس كل قبيلة من القبائل الخمس تلك وأعطى هؤلاء الامراء لقب «أُلُغ اركين». أما الفرع الآخر والذي ينقسم بدوره الي خمس قبائل فَسُميى بـ«تولِس - طُلو»، واستقر هؤلاء أيضاً بين نهري «جو» و«إيلي»، وكان آل(توركيش) ضمن مجموعة (توليس) تلك. وعين على رأس كل قبيلة من القبائل الخمسة هذه خانات، ويلقب الواحد منهم بلقب «أُلُغ تُشر». ويُمكن أن يُقال أن جماعة «نُشيبي» عاشت في القسم الغربي لبحيرة «إصِق»، كما عاش «التوليس» في القسم الشرقي من البحيرة نفسها، واُطلق على كلتا المجوعتين أسم «أون أوقلار» [أي السهام العشرة]».

بعد أن هزمت الصين سلطنة الترك الشرقية في عام ٦٣٠م كما بينا فيما سبق، صار الأتراك الغربيين فى موقف صعب وأدخل الأويغور فى دوامة استمرت طوال خمسين سنة إلى عام ٦٨٠م حتى تمكن الأتراك الشرقيون أن يعيدوا تأسيس دولتهم، ويحققوا استقلالهم. وبعدما قام «لي شيه مين» في عام ٦٣٠م بأسر سلطان اتراك الشرق «قراخان»، بادر بعدها بعدة تحركات للإستيلاء على أرضى جيرانه من ناحيتى الشرق والغرب. وقال «وي تِشينج» كبير مستشارى «لي شيه مين»: «اذا أرادت الصين أن تعيش في راحة فينبغي ألا يكون هناك اي دولة قوية حولها، وعليها أن تخلق الأسباب لكي تصبح جميع الدول المجاورة تحت حكمها»[٧٧]. الحق أن ماقاله «لي شيه مين» ومستشاره العاقل جرى تطبيقه بحذافيره.

كنا قد ذكرنا أن الحرب الداخلية التي نشبت بين اتراك الغرب بعد مصرع سلطان «طُنغ يابغو» استمرت عدة سنوات. وهكذا لم تفوت الصين هذه الفرصة التى سنحت لها للقضاء على سلطنة الترك الغربية؛ لأنها كانت تخشى فى حالة استعادة سلطنة الترك الغربية قوتها القديمة، سيمكنها عندئذ المطالبة بحقها فى أراضي سلطنة الترك الشرقية، والاتحاد معهم ويُقيموا من جديد سلطنة الترك القوية العزيزة. والحق أن سلاطين الترك الغربيين كان لديهم ذات الفكر.

خططـت ادارة «طانـغ» للاسـتيلاء أولا علـى حـوض «تاريـم» الواقـع فـي جنـوب جبـال «طانـري» ثـم المناطـق الشـمالية لنفـس السلسـلة الجبليـة، وذلـك للقضـاء عـل سـلطنة التـرك الغربيـة التـي تشـكل خطـرا كبيـرا عليـه. ووضعـت ادارة «طانـغ» لهـذا الامـر خطـة اسـتراتيجية محكمـة هـي «قمـع البربـر بالبربـر».

وبعـد أن خـرب (لـي شـيه ميـن) سـلطنة التـرك الشـرقية عـام ٦٣٠م، أعـد جيشـا قويـا مكونـا مـن ١٠٠ ألـف شـخص مـن الأسـري؛ وأسـند قيادتـه إلـى الأمراءالتـرك المنحازيـن إلـى أسـرة «طانـغ» مثـل «أسـينا طـور». كذلـك الجيـش الأويغـوري الـذى تـم تشـكيله بقيـادة «جبنـي ألـب» أميـر آل «جَبنـي» احـد قبائـل الأويغـور التسـعة. وقـد لعـب هـذان الجيشـان اللـذان يقودهمـا «أسـينا طـور» و «جبنـي آلـب» دورا فـى غايـة الأهميـة فـي حمـلات آل «طانـغ» الغربيـة.

كان «أسـينا طـور» الأبـن الأوسـط لــ «جولـو» سـلطان التـرك الغربيـة قـد صـار تحـت سـيطرة امبراطوريـة طانـغ فـي عـام ٦٣٦م، وخـدم السـادة الصينييـن بإخـلاص حتـى وفاتـه عـام ٦٥٥م. وعمـل قائـدا أعلـي فـي الحملـة التـى نظمـت ضـد أتـراك الغـرب. أمـا (جبنـي آلـب) فقـد كان أويغوريـا. ودخل فـي خدمـة امبراطـور «طانـغ» فـي سـنة ٦٣٢م بجيـش مكـون مـن عـدة الآف شـخص إختارهُـم مـن قبيلتـه، وبـذل قصـارى جهـده لخدمـة الامبراطـور حتـى وفاتـه سـنة ٦٧٦م.

وبعـد عـام ٦٤٠ بـدأ «لـي شـيه-ميـن» بشـن الحمـلات العسـكرية ضـد أتـراك الغـرب. وفجـأة قـام الجيـش الصينـي بقيـادة «هوتشونغ-تشـي» (وكان فـي صفـه مقاتلـو «أسـينا» التـرك، ومقاتلـو «جَبنـي ألـب» الأويغـور) بالهجـوم علـي سـلطنة التـرك الغربيـة وانتزعـوا منهـا إمـارة طرفـان التـي اسـتمر وجودهـا مـن عـام ٦٤٠م حتـى ٦٦٠م. وفضـل الوالـى العـام «اليابغـو» لـ«إبـي طُلـو طرفـان» سـلطان التـرك الغربيـة فـى «باشـباليق» طاعـة «هـو تشـنغ تشـي» بـدل تقديـم العـون لإمـارة طرفـان ضـد الصيـن، واحتـل جيـش الصين قاراشـهر فـي سـنة ٦٤٤م. وعقـب هـذا فـي عـام ٦٤٨م قـام الجيـش التركـي

المكون من مائة الف شخص بقيادة «أسينا طور» (وكان هذا الجيش يتكون من الترك والأويغور بوصفهما مركز الثقل)، بالاستيلاء علي إمارات (كوجا، وكاشْغَر وخوتن)، ورغم ما بذله أتراك الغرب من جهد في التضيق علي الجيش الصيني لحماية امارة الأويغور الموجودة في حوض «نهر تاريم» لكن جهدهم ذهب بلا جدوى. وفي عام ٦٥٠م فقد أتراك الغرب حوض نهر تاريم.

وفي عام ٦٤٠م وجه «لي شيه مين» حملة ضد أتراك الغرب الذين في السفوح الجنوبية لجبال «طانري»، كما بدأ إعداد حملة ضد «كوريا» في الشرق، وقد سبق وأن أشرنا الي هذا باختصار.

بعد استيلاء امبراطورية «طانغ» على حوض «نهر تاريم» من أتراك الغرب في مدة ١٠ سنوات، تحركوا للاستيلاء علي «وادي جونغاريا».

وأثناء هذا نجح «أسينا آلب» في توحيد صفوف أتراك الغرب بانتصاره علي (اولوغ اشبارا - خان)؛ وفي عام ٦٥٢م نظم حملة إلي الشرق واستعاد من امبراطور «طانغ» مدينة «بشبالق» التى تعتبر أهم موقع استراتيجي علي طريق القوافل.

انزعج امبراطور «طانغ» من هذا الحادث فاعتمد علي جيش «بايان» ملك أويغور أورخون والمكون من خمسين ألف شخص، فضلا عن اعداده جيشا مكون من عشرين ألف شخص بقيادة «كاو كاي» وأنزل ب«أسينا آلب» ضربة مؤلمة، وعادت مدينة «بش باليق» الى امبراطورية «الطانغ» مرة أخرى. وفي سنة٦٥٧م جمع «أسينا ألب» جيوشه، واستعد للاستيلاء علي السفوح الشمالية لجبال «طانري». وكان هدفه هو توحيد أتراك الشرق والغرب. وأثناء هذا قام (بايان) خان دولة أويغور أورخون بتوحيد جيشه المكون من خمسينألف شخص مع جيش مشاة صيني مكون من ٣٠ ألف شخص بقيادة (صو-تنغ-فانغ su - ting - fang)، وخاض حربا ضد جيش «أسينا آلب» المكون من مائة ألف شخص في منطقة تحمل الآن اسم (بوروتولا Borotola). وخسر أسيناآلب معركة (خاليجHallig)؛ وانسحب ناحية الغرب بمن بقي معه من جنود.

وقام «بايان» و «هسي ياو سيه يا» بملاحقة «أسينا آلب» حتى مدينة «شاش» الواقعة الآن في شمال غرب «تاشكند». إلا أن «اينال طارخان» حاكم مدينة «شاش» غدر به بعد أن تظاهر بالخروج لمقابلته فقبض على «أسينا آلب» – بغتةً - وسلمه لعدوه.

وحققت إمبراطورية طانغ بعض الانتصارات على الاتراك بهدف السيطرة علي وسط آسيا مستخدمةً القوة العسكرية للأويغور، وأسست إمارات تحت مسميات مختلفة في المنطقة وعينت عليها خانات من أمراء الترك. ورغم أنها استولت علي الحكم في وسط آسيا، إلا اراضي سلطنة الترك الغربية لم تكن تحت سيطرتها بعد. وعندما وقع (أسينا آلب) في الأسر عام ٦٥٧م. نجح سلاطين الترك الغربيين في المحافظة علي استقلال مملكتهم، وهم (أسينا ميش (٦٥٧ – ٦٦٢م)، وأسينا بوركين (٦٦٦ - ٦٦٨م) وأسينا طورجي (٦٧١ - ٦٧٩م)، أسينا نيزوق بك (٦٧٩ - ٦٨٠م)، وأسينا بالجين (٦٨٥ - ٦٩٣م)، وأسيناخو جيلو (٦٨٦ - ٦٩٠م)، أسيناأون اوق سلطان (٦٩٤، ؟)، وأسينا هو خوجيلو (فى المرة الثانية). إلا ان «أسينا قايدو» و«أسينا شان» (٧٠٤ - ٧١١م) هما من حكام أتراك الغرب رضيا بحكم امبراطورية «الطانغ» لهم. وبعد عام ٧١١م انتقلت السلطة من أسرة «أسينا» من اتراك الغرب الي أسرة طوركش. التى استطاعت أن تحكم سلطنة الترك الغربية حتى عام ٧٤٢م فقط، بعدها عاد الحكم الى أسرة «أسينا»... كانت هناك عوامل أخرى حالت دون سيطرة امبراطورية «طانغ» على وسط آسيا رغم قيامها بتقويض سلطنة الترك الغربية، فدولة (التبت Tibet) (٦٢٩ - ٨٤٨م) - على سبيل المثال - واحدة من القوى التى اعاقت آل «طانغ» من السيطرة علي هذه المنطقة بشكل تام. وهناك سبب آخر هو اعادة تأسيس سلطنة الترك الشرقية علي يد(قُتْلُق التريش)، وكان اجتياح العرب ووصولهم الى وسط آسيا اعتباراً من عام ٦٥١م سبباً ثالثا حال دون سيطرة أسرة «طانغ» علي وسط آسيا. وفي عام ٦٧٠م استولت دولة (التبت) على قاراشَهرْ، وكوچار kuga وكاشْغَر kasgar وخُتن Hoten.

ومـع ان امبراطوريـة «طانـغ» نجحـت فـى اقتـلاع «قاراشَـهَر» و«كوچـار» و«كاشْـغَر»، و«خُتـن» مـن التبـت عـام ٦٩٢م، الا أن التبتيـون والعـرب قامـوا بانتـزاع حـوض «تاريـم» منهـم قبـل ان يمضـي وقـت طويـل علـي الاتفاقيـة التـي أبرموهـا مـع ال «طانـغ». وفـي عـام ٧٥١ حدثـت حـرب داميـة بيـن الصينيـن والعـرب عنـد سـواحل نهـر طـالاس الواقعـة داخـل حـدود قيرغيزسـتان للاسـتيلاء علـي وسـط آسـيا. وانتصـر العـرب بقيـادة زيـاد بـن صالـح علـي الجيـش الصينـى بقيـادة (كاو-شـن - جـى)، وهـرب (كاو - شـن - جـي) بثلـث جيشـه الـذي بقـي علـي قيـد الحيـاة. وبهـذه الحـرب انتهـى حلـم الصيـن فـي السـيطرة علـي وسـط آسـيا.فبعد معركـة «طـالاس» وقـع حـوض «تاريـم» فـي يـد دولـة أورخـون الأويغوريـة.

ويمكـن ان نتنـاول سـلطنة «الكـوك تـورك» التـي تمكنـت مـن المحافظـة علـى حكمهـا وسـيطرتها طـوال ١٣٩ سـنة علـى ثـلاث مراحـل رئيسـية:

المرحـة الأولـي: اسـتمرت ٥٠ عامـا مـن (٥٥٢م حتـى عـام ٦٠٠م)وهـي فتـرة تأسـيس دولـة الكـوك تـورك. وامتـدت حـدود دولـة «الكـوك تـورك» فـي هـذه الفتـرة من»سـاخالين» فـي الشـرق حتـى سـاحل البحـر الأسـود فـي الغـرب. و«بايقـال»، «بلخـاش»، «آرال» فـي الشـمال، أمـا فـي الجنـوب فقـد امتـدت حتـى فـارس، فكانـت دولٍ «افغانسـتان»، و«كشـمير»، و «التبـت»، وولايـة «قانصـو» الموجـودة حاليـاً فـي الصيـن ضمـن حدودهـا.

المرحلـة الثانيـة: وهـي المرحلـة التـي انقسـمت فيهـا دولـة «الكـوك تـورك» إلـي «سـلطنة التـرك الشـرقية»، و«سـلطنة التـرك الغربيـة» وحافظـت سـلطنة التـرك الشـرقية علـى كيانهـا طـوال ١٤٥ سـنة خـلال الفتـرة مـا بيـن اعـوام (٦٠٠ - ٧٤٥م) الـى أن اسـتحوذ عليهـا أويغـور الشـرق. وعـاش أتـراك الشـرق مسـتقلون طـوال خمسـين عامـا مـن ١٤٥عـام أي مـن الفتـرة مـا بيـن اعـوام(٦٣٠ - ٦٨٠م). وفـي عـام ٦٨٢م نجـح «أسـينا قُتْلُـق» مـن أمـراء الأتـراك الشـرقية فـي تحقيـق اسـتقلال المملكـة مـرة أخـرى.

المرحلـة الثالثـة: وهـي فتـرة حكـم «التريـش قُتْلُـق» واحفـاده والتـي اسـتمرت ٦٣ عامـا خـلال أعـوام (٦٨٢ - ٧٤٥م).

أمـا مملكـة التـرك الغربيـة التـي اسـتمر وجودهـا مـن عـام ٦٠٠م حتـى عـام ٧٤٢م عندمـا انهزمـت أمـام اتحـاد جيـوش الأويغـور وإمبراطوريـة طانـغ. وفقـدت جـزءاً مـن أراضيهـا وانتهـي كيانهـا كدولـة مسـتقلة عـام ٧٤٢م.

وهنـا يمكـن أن يُطـرح سـؤال علـى النحـو التالـى: لمـاذا انهـزم الأتـراك في الحـروب التـي خاضوهـا مـع الصينييـن طـوال هـذه الفتـرة؟ وإن كان هنـاك أسـباب كثيـرة لهـذا إلا انـه مـن الممكـن أن نجمعهـا فـى عامليـن رئيسـيين.

السـبب الأول: الانقسـام بيـن الأتـراك : فـإن لـم تنقسـم مملكـة «الكـوك تـورك» إلـي قسـمين (مملكـة شـرقية وأخـري غربيـة) عـام ٦٠٠م،لمَـا تَعَرضُـوا لتلـك الهزائـم يقينـا. لجـأت الصيـن (سـواء فـي عهـد أسـرة «صـوي» أو أسـرة «طانـغ») إلـى طريقـة غيـر الحـل العسـكري فـي مواجهـة الاتـراك، فعَمِـدت إلـى اسـتخدام كل الوسـائل الممكنـة للايقـاع بينهـم ومـن ثـم إضعافهـم. كمـا أنهـا حاولـت إبـادة الأتـراك بالأتـراك أنفسـهم. وخيـر دليـل علـى هـذا مـا قالـه وزيـر سـلالة صـوي «تشـانغ صُـن شـينغ» لـ «سـوي ونـدي» سـنة ٥٨٢م.

يقـول (بينـج وان - ليـن ping - wen - lien) عـن هزيمـة مملكـة «الكـوك تـورك» - لـو حافـظ الأتـراك علـي وحدتهـم ولـم ينقسـموا إلـي دولتيـن شـرقية وأخـرى غربيـة، لمَـا اسـتطاعت إمبراطوريـة «طانـغ» أن تكسـر شـوكتهم، وكذلـك إذا لـم تنقسـم مملكـة التـرك الغربيـة ايضـاً إلـي قسـمين قسـم شـرقي وآخـر غربـي لمـا اسـتطاعت ايضـاً إمبراطوريـة «طانـغ» أن تقضـي عليهـم. وعندمـا ظهـر اختـلاف وجهـات النظـر بيـن أتـراك الغـرب، اسـتغلت امبراطوريـة «الطانـغ» هـذا فـي تعديـل وتقويـم مصالحهـا الخاصـة ومنفعتهـا الشـخصية.

السـبب الثاني:اسـتغلال «امبراطوريـة طانـغ» الانقسـامات - التـي وقعـت بيـن التُـرك سـواءً سـلطنة التـرك الشـرقية او الغربيـة - فـي تقويـض هاتيـن الدولتيـن، واسـتفادوا مـن الأويغـور - الخاضعيـن لسـلطنة التـرك - بشـكل محتـرف، غيـر خـاف أن الجنـس الأويغـوري كان الاكثـر قـوةً وقتـالاً وجـراءةً بيـن الشـعب التركـي آنـذاك.

لذلـك حشـد اعداءالتـرك كافـة امكانياتهـم لاسـتغلالهم فنجـد «بايـان» سـلطان دولـة أورخـون الأويغوريـة، يوحِّـد جيشـه مـع جيـش آل «طانـغ» أكثـر مـن مـرة بهـدف سـحق الأتـراك. نعـم ولكـن لمـاذا فعـل هـذا؟ ربمـا كان هنـاك سـبب مهـم وراء مسـاندته للصيـن، وكان «بايـان قاغـان» يعـزِم علـى ضـم أراضـي سـلطنة التـرك الغربيـة بعـد تقويضهـا وزيـادة مـوارده ومَكاسـبِه، ولكـن لـم يسـتفد الحلفـاء (الصينيـون والأويغـور) مـن انهيـار سـلطنة التـرك الغربيـة.

نسـتطيع ان نقـول ان الأويغـور مثلمـا كان لهـم دور مهـم فـي تأسـيس سـلطنة «الكـوك تـورك» والإرتقـاء بهـا، فإنهـم ايضـاً لعبـوا دوراً كبيـراً فـي تقويضهـا وإنهيارهـا.

وينبغـي كذلـك الإشـارة الـى سـمات الحـروب بيـن الاتـراك والصنييـن. إن الحـروب التـي كانـت بيـن الدولتيـن مـرَت بظـروف مختلفـة كثيـرة، إذ لا يمكـن تقييمهـا مـن ناحيـة واحـدة وإدخالهـا فـي قالـب واحـد. فتـارةً يدخـل الاتـراك الـى الاقسـام الداخليـة للصيـن متجاوزيـن سـد [سـور] الصيـن. وتـارةً أخـرى يرسـل الصينيـون جيشـهم الـى مـا وراء السـور الكبيـر ويهاجمـون الاتـراك.

قـد لا يكـون هـدف الصيـن هـو إنـزال ضربـة عسـكرية بالاتـراك فحسـب، ولكـن كان هدفهـا هـو الاسـتيلاء علـى أراضيهـا متـى أُتيـح ذلـك كأهـداف مسـتقبلية. وغيـر خـاف أن الحـروب والهجمـات التـى وقعـت بأهـداف ومقاصـدً عدوانيـة كانـت حروبًـا جَائـرة.

وانطفـأت نيـران الحـرب بيـن الطرفيـن نسـبيا ولـم يتبـادل الطرفـان الثقـة بالمعنـى الحقيقـي حتـى فـي الفتـرة إلـي وقعـت فيهـا اتفاقيـة السـلام والصداقـة بينهمـا. وأرسـل (قابغـان) سـلطان التـرك الشـرقيون عـام ٦٩٧م سـفيراً إلـي قصـر (وخـوو) إمبراطـورة «الطانـغ» مطالبـاً إياهـا بإعـادة الآلاف الأسـر التركيـة، وطلـب فضـلا عـن ذلـك مائـة ألـف (بـود) ضريبـة غـلات القمـح، و٥٠ ألـف قطعـة قمـاش قيمـة، وكذلـك عـدد ثـلاث الآلاف آلـة زراعيـة و٤٠ ألـف «تشـنغ» حديـد (٢٠ ألـف كيلـو جـرام)، وعلـي الرغـم مـن أن

«وخـوو» إمبراطـورة «طانـغ» لبّت مرغمـة طلبـات الملـك «قابغـان» إلا أنـه لـم يكـن هنـاك ود وصداقـة بيـن الطرفيـن.

ولهـذا السـبب ارسـل «قاباغـان خـان» رسـولا لتوصيـل رسـالة إلـى امبراطـورة الصيـن سـنة ٦٩٨م،جـاء فيهـا:

أولا: إن بـذور القمـح التـيٍ قمـت بإرسـالها لنـا لـم تثمـر بعـد زراعتهـا؛ وذلـك لأنهـا كانـت فاسـدة. ثانيـاً: حاجيـات الذهـب والفضـة اتضـح انهـاً مزيفـة. ثالثـاً: جميـع الآلات الزراعيـة كانـت مـن النـوع ردئ الجـودة. رابعـاً: الأميـرة التـي تـم إرسـالها علـى أنهـا زوجـة (إذ تـم إرسـال أميـرة للقصـر لإبـن «قاباغـان خـان») ليسـت فـي مُسـتوانا. ولهـذا سـأتي عليكـم بـكل جيشـي).

وطبقـاً لهـذه الوثيقـة التـي نقلناهـا، لـم يكـن (وو - هـوو) صافـي النيـة. والأميـرة المرسـلة كعـروس لـ«ابـن قابغـان» لـم تكـن مـن عائلـة (لـي) فـي إمبراطوريـة «طانـغ»، ومـن المحتمـل أنهـا تنسـب لعائلـة (وو) (أو كانـت قريبـة «وو»).

الفصل الخامس: سلطنة أورخون الأويغورية وأسرة «طانغ»

قُوتلق بيلكه قاغان

بلغت سلطنة أورخون الأويغورية أوج قوتها فى الفترة بين أعوام (٧٤٢ - ٧٤٧م) أثناء حكم «قُتْلُق بيلكه قاغان». وكما أوضحنا من قبل أن دولة الأويغور كانت تحت زعامة الياغلاقار وهي إحدى قبائل الأويغور الشرقية. ولم تتفق مع سلطان أتراك الشرق بل أصبحت في حالة حرب دائمة معه. وفي عام ٧٤٢م اتحد «قُتْلُق بيلكه سلطان قارلوق» مع «الباصميل» هاجموا أتراك الشرق.

كانت أسرة «قارلُوق» واحدة من الأُسر الأكثر عدداً بين قبائل الترك. فضلا عن كونهم من أفضل المحاربين. ووفقاً لرواية وردت في «أُوغُوز نامه» أن أوغُوز خان» هو من أُطلق عليهم اسم «قارلُوق». وقيل أن «أوغُوز خان» أثناء عودته من احدى غزواته في الغرب هرب حصانهُ الأشهب إلى داخل الجبل. فخرج أحد أمراء أوغوزخان للبحث عن الحصان ووجده بعد ثلاثة أيام. وأثناء هذا هطلت الأمطار بشدة وغطي الثلج رأس هذا الأمير تماماً. وعندما رأي أوغوزخان هذا لقبه «بقارلُوق بك» (الأمير الثلجي karlubelk) وعينه أميراً علي القبائل التى في تلك المنطقة. ومنذ ذلك اليوم أطلق على هذة القبيلة لقب (قارلوق)[٧٨].
وفي القرن الثامن نصادف لقب» قارلوق» بين القبائل التي عاشت بين الأورخون، وانقسمت قبائل «القارلوق» إلي ثلاث مجموعات رئيسة كبيرة هي:بويلا Boyla، صاباص Sabas، وطاشلي (تاشلك) Tasli. في البداية عاش القارلوق في القسم الجنوبي الغربي لجبال «آلطاي» وبعد ذلك توجهوا

إلـي جبـال «أتوكـن» ومـن ثـمَ اتصلـوا عـن قـرب بأويغـور الشـرق. وفـي عـام ٧٤٢ إتحـد «قُتْلُـق بيلكـه قاغـان» مـع «القارلـوق» وأسـرة «باصميـل» وقضـي علـي «أوزمـش» سـلطان أتـراك الشـرق. ولكـن فـي هـذه المـرة ثـار «الباصميـل» للاسـتيلاء علـي عـرش المملكـة. وصـار «أسـيناس» اميـر آل «باصميـل» ملـكاً. وفـي هـذه الحالـة كان ملـوك القارلـوق والأويغـور مضطريـن أن يكونـا قائديـن لجناحـى الميمنـة والميسـرة، ولكـن هـذا لـم يُـرض «قُتْلُـق بيلكـه خـان» وقـام باتخـاذ تدابيـر للقضـاء علـي ملـك «باصميـل».

عاشـت أسـرة «باصميـل» مـن قبـل فـي منطقـة «أُتوكـن»، علـى السـاحلِ الجنوبـي لبحيـرة «بايقـال» وفـي جنـوب شـرق القرغيـز. و كان يُقال لهـم قديماً (جَـدَه اتلـر). وأثنـاء فتـرة سـلطنة «الكـوك تـرك» كان حاكـم الباصميـل» هـو «طـوُدون» الـذي عينـهُ سـلطان التـرك. وبعـد ذلـك زحـف الباصميـل» ناحيـة الغـرب رويـداً رويـداً، واسـتقروا فـي منطقـة «جيميسـار» الحاليـة. وفـي عـام ٧٤٤م قـام «قُتْلُـق بيلكـه» بقتـل «بولمـش» سـلطان التـرك الشـرقية. ولقـب نفسـه «بقُتْلُـق بيلكـه سـلطان»، ثـم هاجـم «أسـيناس» سـلطان باصميـل وقتلـه ومـن ثـم أخضـع أسـرة «باصميـل» لسـيطرته.

وبعـد أن أخضـع «قُتْلُـق بيلكـه قاغـان» الاتـراكَ الشـرقيين سـيطرته سـنة ٧٤٤م قـام بتقسـيم قبائـل الأويغـور الشـرقيين التسـعة عشـر إلـى قسـمين أحدهمـا عُـرفَ «بالأويغـور العشـرة» والاخـر «بالأويغـور التسـعة»...

قبائل أويغور العشرة: -

ياغلاق
قوتورغور
بوقاسقر
آوجاغ
هازار
خوغورسو

ياغما
آياور
تورلام ويبور
آديز

قبائل الأويغور التسعة:

أويغور
بايرغو
خون
بوكو
تونغرا
جبنى
إزكيل
قارلوق
باسميل

ويمكن أن نقسم تاريخ سلطنة الأويغور الي ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى: وهي مرحلة تكوين الدولة المستقلة: واستمرت هذه المرحلة قرابة قرن من الزمان وهى مرحلة العلاقات المتبادلة التى أشرنا اليها بين الأويغور والترك.

المرحلة الثانية:وهى فترة ظهور امبراطورية «أورخون الأويغورية» الكبرى والقوية فى شرق آسيا، وتمتد هذه الفترة ثمانين عاما، وتبدأ ب«قُتْلُق بيلكه قاغان» (٧٤٤م) حتى تولى آلب بيلكه طانرى» سلطان الأويغور الحكم (٨٢٥ - ٨٣٢م) وفى هذه الفترة ارتفع عدد جند سلطنة أورخون الأويغورية الى ٢٢١ ألفا، وكان عددهم عند بدايتها ٥٠ ألفا. وكان هذا الجش يتالف من سبع عشرة فرقة خيالة، فى كل فرقة ثلاثة عشر

الـف مقاتـل. وكانـت سـلطنة أورخـون الأويغوريـة فـى هـذه الفتـرة يحدهـا مـن الشرق السـفوح الشـرقية لـ«هنغـان» ومـن الشـمال «بايقـال»، أواسـط نهـر «ينيسـاى»، ومـن الجنـوب «سـد الصيـن العظيـم» وفـى الجنـوب الغربـى «آلتـون داغ» وفـى الغـرب إلـى وادى «فَرْغانـة» و«يـدي سـو».

وسـيطر الأويغـور الشـرق علـى «الكيدانييـن» فـى الشـرق و«القرغيـز» فـى الشـمال وامـارة «تاريـم» الأويغوريـة فضـلا عـن قبائـل التـرك التـى فـى «فَرْغانـة» و«يـدي سـو»، وقـام «قُتْلُـق بيلكـه قاغـان» بالحفـاظ علـى بنيـة الدولـة التـى أسسـها «توميـد سـلطان» عـام ٦٤٦م واتخـذ «قـارا بالاسـاغون» عاصمـة البـلاد.

المرحلـة الثالثـة : وهـى مرحلـة ضعـف خاقانيـة أويغـور أورخـون لأسـباب مختلفـة. وفـى هـذه المرحلـة التـى اسـتمرت عشـر سـنوات تحولـت عاصمـة البـلاد مـن مدينـة «اتوكـن» الـى سـفوح جبـل «طانـري»، وفيمـا يلـى سـنتوقف قليـلا عنـد الاحـداث التاريخيـة التـى حدثـت فـى خاقانيـة أويغـور أورخـون فـى المرحلتيـن الثانيـة والثالثـة.

تَمَرُد «اونلق» (ان لوان)

كانـت العلاقـات بيـن «سـلطنة أورخـون الأويغوريـة» وأسـرة «طانغ» تسـير بشـكل ودِّى منـذ جلـوس «قُتْلُـق بيلكـه خـان» علـى العـرش. والحـق أن هـذه العلاقـات لـم تكـن جيـدة قبـل ذلـك. وبعـد وفـاة «قُتْلُـق بيلكـه خـان» سـنة ٧٤٧م تولـى ابنـه «بايـان چـور» العـرش ولُقـب بــ «تنغيـرده بولمـش التوتمش بيلكـه خـان» [الإلـه الحاكـم بيلكـه خـان] وفـى سـنة (٧٤٧ - ٧٩٥م) سـاعد الأويغـور أسـرة «طانـغ» بقمـع عصيـان «اونلـق» و«صوغـوم». وكانـت أسـرة «طانـغ» فـى زمـن «طانـغ تسـونغ» قـد تعرضـت لأيـام عصيبـة سـواء داخـل البـلاد او خارجهـا وتوتـرت العلاقـات بينهـا وبيـن الـدول المجـاورة وكمـا أشـرنا، اضطـر «طانـغ - تسـونغ» سـنة ٧٤٠م لحشـد أكثـر مـن أربعمائـة ألـف جنـدى فـى شـمال وشـمال غـرب الصيـن للتصـدى لتهديـدات أتـراك الشـرق والتبـت فيمـا بعـد، علـى أن سـد احتياجـات جيـش جـرار مثـل هـذا فـى حـد

ذاتـه سـبب مشـكلة كبيـرة لأسـرة «الطانـغ».

وكانـت التبـت تدعـي بحقهـا فـي ولايـة «قانصـو» الصينيـة وبنـاء عليـه كانـت خـلال الفتـرة (٦٧٠ - ٧٣٠م) تقـوم باسـتمرار بحشـد جيوشـها لمواجهة الصيـن والاسـتيلاء علـى «قانصـو»، ولـم يقتصـر الأمـر علـى ذلـك فقـد انهزمـت أسـرة «الطانـغ» أمـام العـرب فـي معركـة «طـالاس» (فـي قيرغيزسـتان حالياً)، واسـتطاع جنـرال الصيـن ومعـه عـدد مـن الجنـود النجـاة بصعوبـة وتركـوا آسـيا الوسـطى.

بعـد هزيمـة «طـالاس» لـم تتمكـن الصيـنِ طـوال ألـف سـنة من السـيطرة علـى زمـام الامـور فـي آسـيا الوسـطى وخاصـةً فـي حـوض نهـر «تاريم».

وتعرضـت الصيـن لمشـكلات وأهـوال عصيبـة أدت إلـى ضعفهـا وضيـاع هيبتهـا، كمـا أن امبراطـور الصيـن «طانـغ تسـونغ» انصرف عـن شـؤون البلاد، أمضـى أوقاتـه فـي اللهـو والشـرب وتـرك مهـام البـلاد لمستشـاره الرئيـس «يانـغ تشـي وان»، واكتفـى هـو بمداعبـة «يانـغ كـوي فـي» أخـت المستشـار. فـي تلـك الأثنـاء فـإن «أونلـق» أو «آن لـو شـان» وهـو تركـي الأصـل وكان متواجـداً فـي ولايتـي «خوبـي» و«شـان سـي» علـى الحـدود الشـمالية للدولـة ضمـن قـوات حـرس الحـدود - فقـد قـدر الموقـف العـام وخطـط للإسـتيلاء علـى الحكـم بتوجيـه ضربـة إلـى القصـر. وكان «أونلـق» يبـدو فـى الظاهـر متواضعـا ومُخلصـا، لكنـه كان فـى الاسـاس قائـدا ماهـرا وحاذقـا، واسـتطاع أن يسـتميل «يانـغ كـوي فـي» وأن يحظـى بثقـة «طانـغ تسـونغ»، وكان الجيـش الـذي يتزعمـه «أونلـق» يضـم عناصـر أخـرى غيـر الصينيـن مثل«التـرك» و«القالمـوق» و«القطانييـن» و«الشـيبين». وبرر«اونلـق» للملـك «تشـنغ» سـبب وجـود تلـك العناصرغيـر الصينيـة فـي صفـوف الجيـش بأنهـم مقاتلـون بارعـون وأولـى بـأس فـي معاركهـم.

وبـدأ «أونلـق» التمـرد والعصيـان سـنة ٧٥٥م، بعـد أن سـلح جنده تسـليحا كامـلا، وانضـم لـه القائـد «صـوي غـوم» أو «شـيه سـيه مينغ» وهـو أيضـاً تركي الأصـل، ومـن قـواد أسـرة «الطانـغ» واتجـه «أونلـق» ومعـه جيـش مكـون مـن مائـة وخمسـين ألـف مقاتـل نحـو شـرق ولايـة «خوبـي»، واسـتطاع أن يهـزم

جيوش «الطانغ» التى ارسلت إليه بهدف الحيلولة دون تقدمه بالقرب من «لو يانغ» ثم استولى عليها واثناء ذلك انسحب صويغوم للدفاع عن «خوبى». وبعد أن سيطر اونلق على «لويانغ» أعلن نفسه الأمبراطور الاعظم.

وبعد انسحاب جيش طانغ من «لويانغ» اتخذ موضعا عند «طون هوانغ» فى غرب «جانغ آن» وتم قتل أثنين من خير قادة هذا الجيش بأمر من الإمبراطور «خوسوان توسونغ» فقدعاقب «يونغ تشانغ تشنغ» بتهمة أنه بالغ فى تقدير قوةَ جيش العدو وحط من الروح المعنوية لجيشه، كما اتهم «كاوسيان تش» بالتفريط في الأراضي الواسعة في «شين سي»، وتخفيض رواتب الجند ليثرى هو». وتولى قوشو خان (وهو من القارلوق) قيادة الجيش الذى فى «طون هوانغ» وبعد أن قمع «أونلوق» الفوضى التي ظهرت بين جيوشه، تحرك لمهاجمة جيش «الطانغ» المتواجدة في «طون هوانغ» بقيادة «قُشغو خان»، وهزمهم بسهولة، ووقع «قُشو خان» فى أسر أحد الضباط الذى حمله إلى «أونلوق». وبعد أن خسر الإمبراطور خوسوان طسونغ الحرب فى طون هوانغ ترك العاصمة «جانغ آن» ولاذ بالفرار الى مدينة «تشنغ تو» بولاية «سيه تشوان».

بعد أن استولى «أونلق» على «جانغ آن» ازدادت قوته ونفوذه بشكل كبير، وأمر «طانغ تسونغ» بقتل «يانغ كو تشونغ» مستشاره الرئيس الذي انشق عنه وذلك بعد أن جاء الى منطقة «شنغ في» بولاية «شين سي». وطالب الجنود كذلك بقتل «يانغ كو في» ابنة المستشار ورفيقة «طانغ تسنغ» التي غدرت به وانضمت لـ «اونلق»، فكانت بالنسبة للجنود هي أس المصائب التي حلت بهم.

انفصل الأمير «لي خينغ» عن والده الامبراطور«طانغ تسنغ» وذهب الي ولاية «قانصو» وأعلن نفسه امبراطوراَ للبلاد ولقب نفسه بـ «سو تسنغ» بمساندة أحد كبار رجال الولاية المعروف بـ «كوتسا». وفي تلك الأونة وقعت فوضى بين صفوف المتمردين وقُتل «أونلق» علي يد ابنه،

ورفـض القائـد «صـوي غـوم» طاعتـه والامتثـال لـه، بـل وأمـر بقتـل إبـنٍ «أونلـق» الـذي عـزم علـى الاسـتعانة بسـلطنة الأويغـور لقمـع العصيـان نهائيـاً والسـيطرة علـى الحكـم وعـودة الحيـاة لطبيعتهـا فـي أقـرب فرصـة.

فـى سـنة ٧٥٧م أرسـل «طانـغ تسـونغ» مبعوثـا هـو «كوزيـي» برفقـة وفـد كبيـر الـى «قـارا بالغاسـون»، وكان ضمـن الوفـد الأميـر الأويغـورى الكبيـر «بوكـو قايـن» الـذى عمـل لـدى أسـرة «طانـغ».

واضطـر المبعـوث الصينـى أن يقبـل مكرهـا الشـروط الثقيلـة التـي وضعها «بايانجـور» سـلطان الأويغـور آنـذاك مقابـل تقديـم المسـاعدة العسـكرية. وطبقـاً لمـا جـاء فـي نصـوص الاتفاقيـة، يقـوم الأويغـور بتطهيـر عاصمـة الصيـن «جانـغ آن» ومدينـة «لـو يانـغ» مـن المتمرديـن علـى أن تتـرك أسـرة «الطانـغ» الصينيـة جميـع الثكنـات والاشـياء غيـر المنقولـة الموجـودة فـي تلـك المـدن، وأن يبقـى الذهـب والفضـة والنسـاء والفتيـات عنـد الأويغـور، وأن يتـزوج سـلطان الأويغـور مـن إحـدى أميـرات الصيـن اللائـى فـي القصـر. وقـام امبراطـور «الطانـغ» بالتوقيـع علـى الاتفاقيـة مـن أجـل أن يسـتعيد بـلاده مـن المتمرديـن وأن تعـود لسـابق عهدهـا فـي أقـرب فرصـة ممكنـة. ولكنـه لـم يفكـر قـط كيـف أن هـذه الاتفاقيـة وهـذه الشـروط أسـاءت الـى دولتـه، وكيـف أن شـعبه سـيدفع ثمـن هـذا؟.

وبنـاءً علـى الاتفاقيـة المبرمـة سـنة ٧٥٧م ارسـل «بايانجـور» الاميـر إبنـه «يابغـو تكيـن» الـى الصيـن بجيـش يضـم فـي صفوفـه خمسـين ألـف جنـدي، وانضمـت اليـه عناصـر مـن المشـاة الصينيـة، وتحركـوا لمواجهـة المتمرديـن. وفـي خريـف ذلـك العـام انتصـرت هـذه القـوات المتحالفـة علـى جيـوش المتمرديـن فـي غـرب «جانـآن»، وانسـحب المتمـردون الـى «طُـن هوانـج». ودخـل «يابغـو تكيـن» العاصمـة «تشـانغ آن» وفقـاً للإتفاقيـة، لكـن اتضـح أن تفعيـل شـروط تلـك الاتفاقيـة فـي ذلـك الوقـت فـي «جانـآن»، قـد يكـون لهـا تأثيـر سـيئ علـى شـعب «لويانـغ» وربمـا سـيدفعهم ذلـك للإنضمـام لصفـوف المتمرديـن لمـا فـي الاتفاقيـة مـن اذلال وعـدم تقديـر لهـم ولتاريخيهـم، لـذا طلـب امبراطـور الصيـن أن يتـم تفعيـل شـروط الاتفاقيـة بعـد أن يقضـوا علـى

التمـرد تمامـاً ويُغـادر الأويغـور «جانـآن»، ولكـن «يابغـو تكيـن» رفـض هـذا الاقتـراح ممـا دفـع الصينيـن بالتوسـط لـدى والـدة «يابغـو تكيـن» الـذي لـم يكـن ليرفـض أي طلـب لهـا واسـتجابت والدتـه لنـداء امبراطـور الصيـن وقبـل «يابغـو تكيـن» ذلـك الاقتـراح. وبعـد أن تـم تخليـص مدينـة «لويانـغ» مـن المتمرديـن فـي زمـن قصيـر، بـدأ «يابغـو تكيـن» تطبيـق الشـروط المدونـة فـي الاتفاقيـة.

مـن ناحيـة أخُـرى إنهـارت معنويـات المتمرديـن بعـد هزيمـة «جانـآن» و«لويانـغ»، ولاح لديهـم نـوع مـن الإعـراض عـن القتـال، وفـي سـنة ٧٥٩م قـام «صـوي غـوم» بقتـل «آن تشـنغ شـوي» إبـنِ «أونلـق»، وضـم جيشـه لنفسـه، ولكـن بعـد فتـرة قتـل «صـوي غـوم» أيضـاً علـى يـد إبنـه «شـيه تشـاوي» ولقـب نفسـه بـ «الامبراطـور الاصفـر» وكان سـيحتل «لويانـغ» فوجـدت أسـرة «طانـغ» نفسـها وجهـا لوجـه أمـام الخطـر مـرةً أخـرى.

وفـي تلـك الأثنـاء كان «بوكـو قاغـان» علـى رأس خاقانيـة أويغـور أرخـون، إذ اعتلـى العـرش عقـب وفـاة «بايانجـور» سـنة ٧٥٩م.

واسـتناداً للمعلومـات التاريخيـة يمكـن القـول أن «يابغـو تكيـن» بعـد أن طهـر سـواحل «جانـآن» و «لويانـغ» مـن المتمرديـن، رجـع الـى العاصمـة «قـارا بالغاسـون» على سـاحل أرخـون. وبعـد فتـرة وجيـزة تـم إعدامـه لجـرم اقترفـه (مـن المحتمـل انهـا محاولـة قتـل الملـك «بايانجـور)».

وكان علـى رأس سـلطنة الأويغـور آنـذاك «بوكـو سـلطان» الـذي تولـى العـرش بعـد وفـاة «بايانجـور» سـنة ٧٥٩م، واتخـذ لنفسـه لقبـا هـو «آى تنغريد قـوت بولمـش، أل توتمـوش كـوج كولـوغ بيلكـه قاغـان» (وتعنـى بلكـه قاغـان إلـه القمـر، الحاكـم المسـيطر، ذو البطـش). ولبوكـو اسـم آخـر هـو «ألتكيـن».

وأرسـل امبراطـور الطانـغ «سـو تسـونغ» ابنه «طـاي تسـونغ» (٧٦٢ - ٧٧٩م) رسـولا إلـى «بوكـو سـلطان»، وطلـب منـه مسـاندته لإخمـاد المتمرديـن، وعليـه توجـه «بوكـو سـلطان» الـى الصيـن سـنة ٧٦٢م. وبـدوره قـام امبراطـور الطانـغ «سـو تسـونغ» بتعيـن «لـي شـيه» الابـن الاكبـر لــ «طـاي تسـونغ»

لقيـادة الجيـش وأرسـله مـع قـواد أخريـن لمقابلـة «بوكـو سـلطان». وعندمـا ذهـب الوفـد الصينـي الـى سـلطنة الأويغـور لـم يلـق منهـم حفـاوة، حتـى أن «بوكـو سـلطان» لـم يعـر ممثـل أسـرة «طانـغ» التفاتـا وتصـرف بغـرور زائـد. وحسـب مراسـم الاسـتقبال كان علـى اميـر الطانـغ ومـن معـه عندمـا يمثلـون فـى حضـور «بوكـو قاغـان» أن يلقـوا عليـه التحيـة وينحنـوا أمامـه اجـلالاً وتوقيـراً لـه ثـم يقـوم هـذا الوفـد بأكملـه بتقديـم رقصـة أويغوريـة. ورغـم ان قـادة جيـش طانـغ رقصـوا رقـص الأويغـور، فـإن ليـه شـى لـم يرقـص. بنـاء عليـه دعـا أحـد قـواد «بوكـو سـلطان» «لـي شـيه» قائـد جيـوش الطانـغ للرقـص، وعلـى الفـور هـب أحـد القـواد الصينييـن مـن مكانـه بغيـر احتـرام بدعـوى أن الأميـر لايـزال صغيـراً ولا يسـتطيع أن يرقـص رقـص الأويغـور. فانزعـج سـلطان الأويغـور مـن هـذا الموقـف وأمـر بالقبـض علـى عـدد مـن كبـار قـواد «الطانـغ» وأمـر بضـرب كل واحـد منهـم مائـة ضربـة بالعصـا. وفـى تلـك الليلـة فقـد بعـض القـواد الصينييـن حياتهـم مـن جـراء الضـرب ومـن بينهـم «وچـي غـوي». وغضـب «لـي شـي» غضبـاً شـديداً مـن تصـرف الأويغـور هـذا، وفكـر فـي فسـخ الاتفاقيـة، ومحاربـة «بوكـو سـلطان» ولكنـه أدرك أن هـذا التفكيـر لـن يسـفر عـن شـيئ فتغاضـى عمـا حـدث.

وفـي سـنة ٧٦٢م اسـتردت أسـرة طانـغ مدينـة «لويانـغ» مـن المتمرديـن بدعـم الأويغـور، وفـرَ «شـيه تشـاو» الـى «خوبـي» وبهـذا تـم القضـاء نهائيـاً علـى حركـة «أونلـق» و«صـوي غـوم»، ودخـل الأويغـور «لويانـغ» واسـتولوا علـى غنائـم هائلـة، واندلـع حريـق بالمدينـة أسـتمر عشـرين يومـا، واحترقـت المنـازل والأبنيـة حتـى احترقـت المدينـة بأكملهـا. وعـاد الأويغـور لبلادهـم، وخـلال فتـرة وجيـزة تمكنـت الصيـن مـن اسـترجاع نفسـها واعـادة بنـاء دولتهـا، وازدادت الحركـة الإنتاجيـة مـن جديـد وهـدأ الشـعب.

إن التمـرد الـذي اسـتمر سـبع سـنوات كاملـة، خلـف خسـائر بشـرية وماديـة ومعنويـة هائلـة، فـكان عـدد سـكان امبراطوريـة الطانـغ سـنة ٧٥٤م قُبيـل التمـرد ثلاثـة وخمسـين مليـون شـخص تقريبـاً، وعنـد إخمـاد التمـرد كان عددهـم سـبعة عشـر مليونـا فقـط. أي أن قرابـة سـتة وثلاثيـن مليـون

شـخص لقـوا حتفهـم أثنـاء ذلـك التمـرد البغيـض، بسـبب الأمـراض والأوبئـة والجـوع والفوضـى وانعـدام الأمـن وغيرهـا مـن الأسـباب المختلفـة.

الفصل السادس: الحرب مع التبت

بعد إخماد تمرد «أونلق» صارت إمبراطورية «طانغ» أمام كارثة كبيرة، إذ صارت الحدود الشمالية الغربية للدولة بلا حماية بسبب أن القسم الأكبر من جيش «طانغ» أُرسل لمحاربة المتمردين. فحرس الحدود الموجودين في المنطقة كان عددهم قليل وضعفاء. واستغل جيش التبت هذه الفرصة واستولى على مضيق «خشي» في ولاية «قانصو»، وفي عام٧٦٣م تقدم جيش التبت وقوامه ٢٠٠ ألف جندي من ناحية «لونج - هسي» في ولاية «قانصو»، وتوجه مباشرة نحو الشرق، ودخل «شين - سي». واقترب من العاصمة «جانغ - آن». ولم يكن جيش «طانغ» في وضع يؤهله للدفاع عن العاصمة من جراء معاناته واضطرابه بسبب الحرب الداخلية. ولهذا السبب غادر الإمبراطور «طاي - تسونج» العاصمة، وانسحب إلى منطقة تدعي «شانج - تصو». واجتاحت جيوش التبت «جانغ - آن» وأضرموا فيها النيران، وجمع التبتيون الشباب والفتيات والصناع الموجودين في المدينة، واستعدوا للعودة إلى بلادهم. في تلك الأيام لم يحسن التبتيون تقدير حقيقة الوضع الداخلي لجيش «طانغ»، لذلك غادروا تشانج آن باعتبار إنه ليس هناك ما يثير القلق بشأنها. وانسحبوا تجاه هو - يانج (جو - ين) الموجودة في «نينج - هسي - يانج» وناحية «تشين - يانج» و«فنج - لي يانج» الموجودة في «قانصو» وانتظروا الوقت المناسب للهجوم مرة أخرى. وفي تلك الآونة حدث احتكاك بين «بوكو - قاين» ذو الأصل الأويغوري وهو أحد القادة المعروفين من أسرة «طانغ»، وبين الإمبراطور «طاي - تسونج». وشعر «بوكو قاين» بالأسى بسبب عدم تقدير الإمبراطور له بشكل كافٍ، رغم

ماقدمه من خدمات جليلة في سبيل إخماد التمرد، حيث تم استدعاؤه الي العاصمة، وعين الإمبراطور «كوتسي» مكانه. وعندما علم «بوكو - قاين» بهذا جاء الي منطقة «نينج - شيا» ومعه مائة فارس، وجمع جيشاً هناك. وبعد ذلك طلب المساعدة من سلطنة الأويغور، واتصل بالتبتيين وخطط للانقلاب على أسرة «طانغ». فقام «بوكو سلطان» زعيم الأويغور بإرسال «آلب كولوك طوطوق تكين» من قبيلة ياغلاقار، ومعه مايقرب من عشرة آلاف فارس لتقديم المساعدة. وتوجه «بوكو - قاين» سنة ٧٦٤م صوب «جانغ - آن» بجيش مكون من مائة ألف جندي تقريباً، شكله من المساعدات التي تلقاها من دولة التبت ومن الجنود المرسلة من سلطنة الأويغور وذلك بالإضافة إلى جيشه. وصار وضع العاصمة صعباً للغاية. في تلك الأثناء أخذ القائد الصيني «كوتسي» يذكّر القائد الأويغوري «آلب كولوك طوطوق تكين» بعلاقات الصداقة السابقة التى كانت بين سلطان الأويغور وأسرة «طانغ». فاستماله لجانبه وأقنعه بالهجوم معا على جيش التبت. وبناءً على هذا انسحب جيش التبت المكون من ١٠٠ ألف جندي بعد أن كان على مشارف العاصمة «جانغ - آن»، وعسكروا بعد انسحابهم في مكان اسمه «لينج - ووه» في «ننج شيا». وفي أكثر أيام الشتاء برودة (في شهر يناير) من عام ٧٦٥م اقترب قائد الأويغور «آلب كولوك طوطوق تكين» على رأس الجيش الأويغوري، من مركز قيادة جيش التبت الموجودة في «لينج - ووه». وفي ليلة قارصة تساقط فيها الثلج قام «آلب كولوك» بتنظيم هجوم ضد جيش التبت اثناء استغراقه في النوم، واستطاع تجريد مايقرب من خمسين ألف جندي من سلاحهم وأسر الباقي. واستولى الأويغور الذين هزموا التبتيين على أكثر من مليون رأس من الإبل والخيول والأبقار والأغنام. وقدم الجيش الصيني العون لهم أثناء هذا الهجوم. وعندما بُشر إمبراطور طانغ «طاي - تسونج» بهذا النصر، أهدى الأويغوريين مائة ألف طومار من قماش الحرير.

وقد تلقى «بوكو - قاين» المساعدات من التبت وسلطنة الأويغور

للانقلاب على أسرة طانغ، لكنه مات وهو فى طريقه إلى «جانغ - آن» على رأس جيش قوامه مائة ألف جندي، نتيجة إصابته بمرض مجهول وذلك في عام ٧٦٤م.

إرسال أميرات الصين للزواج من سلاطين الأويغور

في عام ٧٥٠م كانت هناك ثلاث دول عظمى فى شرق آسيا، وكانت علاقاتهم متينة وذات ابعاد متعددة، وهذه الدول هى: «سلطنة الأويغور» و«إمبراطورية طانغ» و«إمارة التبت». في تلك الأثناء كانت إمبراطورية «طانغ» قد فقدت سطوتها السابقة، بينما بلغت قوة إمبراطورية «أورخون الأويغورية» الذروة في عهد «قُتْلُق بيلكه سلطانٍ» (بداية من عام ٧٤٤م)، أما دولة التبت التي استطاعت أن تشكل جيشاً قوامه مائة ألف جندي، فقد كانت تشن الهجوم باستمرار ضد جيرانها، وخاصة الصين، وتلحق بهم أضراراً جسيمة. وكانت العلاقات بين أمبراطور «طانغ» وسلطنة الأويغور ودولة التبت مُتباينة وليست على نفس المستوى. فكانت التبت تهدد الصين وتسعى للسيطرة على مناطقها الغربية والشمالية الغربية في حين لم تكن هناك نية لدى سلطنة الأويغور لانتزاع أراض من الصين آنذاك. ولهذا أبرم إمبراطور «طانغ» اتفاقية مع سلطان الأويغور وقرر المضي نحو التبت.

لم يستعن إمبراطور طانغ بدولة التبت لقمع تمرد أونلق وصويغوم (وذلك بسبب سوء نواياها) بل طرق باب مملكة الأويغور. واعتباراً من ذلك اليوم لم تكن العلاقات بين إمبراطور «طانغ» وملك الأويغور مجرد علاقة جوار جيدة فحسب، بل كانت بينهما صلة نسب وقرابة. وكان من بنود الاتفاقية التي أُبرمت بين إمبراطورية «طانغ» وسلطنة الأويغور سنة ٧٥٦م عقب إخماد حركة التمرد في «أونلق»، بند ينص على ضرورة إرسال أميرات من إمبراطورية طانغ الصينية لتزويجهن بسلاطين الأويغور، فضلاً عن قيام الصين بتقديم عشرين ألف طومار من الحرير كل عام لسلطنة الأويغور. والحق أن أسرة «طانغ» نفذت تلك الشروط

علي مدى مائة عام تقريباً خلال الفترة ما بين أعوام (٧٥٧ الي ٨٤٠م). وسُجِلتْ هذه الضريبة في «الوقائع نامه» أي كتاب الوقائع الصينية تحت اسم «هدية»؛ ولكن تغريم الصينين تقديم عشرين ألف طومار من الحرير سنوياً، لم يكن في الأساس سوى جزية مفروضة.

وفي عام ٧٥٨م أرسل إمبراطور أسرة طانغ «صو - تسونج» ابنته «نينج - كو» كعروس إلى سلطان الأويغور «بايانچور» حسب الاتفاقية المبرمة بين الدولتين. وأرسل السلطان «بايانچور» بدوره ألفين من الخيول الأصيلة من أجل مراسم العُرس. كما أرسل ألفي شخص على رأسهم كبير مستشاريه ويسمى «أديز» ليكونوا في شرف استقبال الأميرة. وكانت أخت السلطان «بايانچور» وزوجات وبنات أمراء الأويغور و٥٦ جارية من بين مستقبلي الأميرة.

الحق أن الأميرة «نينج - كو» لم يخطر ببالها إطلاقاً أنها قد تصبح في يوم ما عروسا لحاكم دولة أخرى بعيدة هكذا. ولهذا قبل أن تغادر إلى «قارا بالغاسون» ذهبت لأبيها الإمبراطور ووضعت رأسها علي صدره وبكت وقالت: «إن مصلحة الدولة أمر مهم، لذا لن أحزن ولو كان مَصيري هو الموت». وهذه الكلمات توضح مدى إدراك الأميرة للمسئولية السياسية التي أُلقيت علي عاتقها. وينبغي أن نشير هنا الي أن الأميرة «نينج - كو» كانت قد تزوجت مرتين قبل زواجها من «بايانچور».

ولم تمض سنة واحدة على زواج الأميرة «نينج - كو» من «بايانچور» حتى فارق سلطان الأويغور الحياة. وطالب الأويغور بأن تُدفن الأميرة «نينج - كو» مع زوجها السلطان طبقاً لما هو متبع في عاداتهم. ولكنها توسلت إلى الأيغور لإعفائها من تلك العادة المتبعة في اسرة السلطنة، ونجحت في الحفاظ على حياتها بشق الأنفُس. واضطرت حداداً على بايانچور، أن تُسيل دمائها وتذرف دمعها. ثم سُمح لها في النهاية بالعودة إلى وطنها الصين، لأنها لم تُنجب من «بايانچور»، وبعد وفاة «بايانچور» تولى العرش ابنه الأصغر «بوكوخان».

وتـزوج «بوغـو - سـلطان» بالأميـرة «شـاو نينـج - كـو» التـي كانـت قـد جـاءت مـع الأميـرة «نينـج - كـو» إلـى «قـارا بالغاسـون» وهـي ابنـة أحـد المنتميـن لأسـرة «طانـغ» الحاكمـة. وقضـت هـذه الأميـرة عشـرين عامـاً مع»بوغـو - سـلطان». وبعـد مقتلـه ظلـت أرملـة لمـدة ثلاثـة وثلاثيـن عامـاً فـي «قـارا بالغاسـون» حتـى تُوفيـت عـام٧٩١م. وكان للأميـرة «شـاو نينـج - كـو» طفـلان مـن الملـك «بوكـو - سـلطان» ولكنهمـا قُتـلا عـام ٧٧٩م علـى يـد «طـون - باغـا».

وحدثـت تغيـرات مهمـة فـي أحـوال الأويغـور فـي عهـد «بوكـو - سـلطان». فبعـد أن كان الأيغـوري يعيـش حيـاة بسـيطة، صـار إنسـاناً ينشـد الفخامـة والرفاهيـة ويشـيد المبانـي العاليـة.

وفـي سـنة ٧٧٨م تـم الهجـوم علـي مدينـة تيـوان الحاليـة، فجـاء «طانـغ - تشـانج هـوان - شـينج» الوالـى العـام لمنطقـة «داي» بجيشـه فانسـحب الأويغـور. واسـتمرت أسـرة «طانـغ» تبـدي الاحتـرام لبوكـو - سـلطان وكأنٍ شـيئاً لـم يحـدث. وفـي سـنة ٧٧٩م أراد «بوكـو - سـلطان» أن يشـن هجومـاً علـي الصيـن، ولكـن كبيـر مستشـاريه «طـون باغـا طارقـان» (وتقـول بعـض المصـادر أنـه خـال بوغـو - قاغـان، بينمـا تقـول مصـادر أخـرى أنـه أخـوه غيـر الشـقيق) أوصـاه أن يقيـم علاقـات صداقـة مـع أسـرة «طانـغ» وذكَـرَهُ كيـف أن الهجـوم الـذي شـنه علـى «تيـوان» فـي الأعـوام الماضيـة أسـفر عـن هزيمـة مُنكـرة. ولكـن «بوكـو - سـلطان» لـم يصـغِ لنصائـح «طـون باغـا». والواقـع أن «طـون باغـا طارقـان» كان يخطـط منـذ زمـنٍ طويـل للاسـتيلاء علـى الحكـم، فاتخـذ مـن عنـاد «بوكـو - قاغـان» حُجَـةً وقـام بقتلـه وقتـل ألفيـن آخريـن مـن أقاربـه واسـتولى علـى الحكـم.

وبعـد أن أصبـح «طـون باغـا طارقـان» سـلطاناً، تدهـورت العلاقـات بيـن إمبراطوريـة «طانـغ» وسـلطنة الأويغـور. ففـي تلـك الأثنـاء اعتلـى «تي تسـونج» (٧٨٠ - ٨٠٥م) عـرش الصيـن. و«تـي - تسـونج» كان هـو نفـس الشـخص الـذي رفـض هـو والأمير «لـي - شـيه» الرقـص فـي مراسـم الاحتفـال عندمـا جـاء لزيـارة «بوكـو - قاغـان» فـي عـام ٧٦٢م، وأخطـره أن الأويغـور قتلـوا

بعـض قــادة «طانــغ».

وكان «تــي - تســونج» أيضـا مثــل «هســوان - تســونج» و«صــو تســونج» حانقــاً علــي الأويغــور ولــم تكــن فــي نيتــه اســتمرار العلاقــات الوديــة معهــم. ومــن ناحيــة أخــرى كانــت قــد بــدأت فــي عهــده الانقســامات وحــركات التمرد داخــل الدولــة. وأرســل «تــي - تســونج» ســفيراً إلــى التبــت وطلــب منهــم المســاعدة مقابــل منحهــم مســاحة مــن الأرض[٧٩].

وفــي عــام ٧٨٠م عــاد «تــودون» أميــر الأويغــور مــن «جانــغ - آن» إلــى «قارابالغاســون» وبصحبتــه أكثــر مــن ألــف تاجــر. كان «تــودون» يقــوم بتنظيــم أمــور ســلطنة الأويغــور التجاريــة التــي فــي الصيــن. وقــد أنهــى نشــاطه التجــاري هنــاك، وفــي طريــق عودتــه إلــى بلــده فــي قافلــة تتكــون مــن ألــف جمــل وحصــان، وعنــد اقترابــه مــن الحــدود أوقــف حــرس حــدود بلــدة «هــوان - شــينج» فــي «تشــانج» القافلــة بدعــوى أنــه يقــوم بتهريــب فتيــات صينيــات فــي الصناديــق، ولذلــك قامــوا بقتــل أكثــر مــن ألــف تاجــر أويغــوري، واســتولوا علــى الألــف جمــل وحصــان ومائــة ألــف طومــار مــن الحريــر وغيرهــا مــن الأمتعــة. وأعــادوا الفتيــات المختبئــات داخــل الصناديــق إلــى «جانــغ - آن». وهكــذا تحولــت العلاقــات الوديــة بيــن الدولتيــن إلــى علاقــات عدائيــة.

وقــد أخطــأت الصيــن خطــأ كبيــراً بتقاربهــا مــع التبــت الــذي أدى إلــى إضعــاف العلاقــات بيــن «تــي - تســونج» والأويغــور. وانتهــزت التبــت الفرصــة واســتفادت مــن خطــأ «تــي - تســونج» هــذا، فســعت للقضــاء علــى أســرة طانــغ. وبســبب أنشــطة القــوى الداخليــة الانفصاليــة اضطــر «تــي - تســونج» إلــى مغــادرة العاصمــة «جانــغ - آن»، لكنــه عــاد مــرة أخــرى فــي عــام ٧٨٤م. وأعــد «لــي - ميــه» وهــو أحــد نبلاء»تــي - تســونج» خطــة. وبموجــب الخطــة يتــم القضــاء علــى التبــت عــن طريــق عقــد اتفــاق مــع ســلطنة الأويغــور فــي الشــمال، ودولــة «نــان - تشــاو» (اليونــان حاليــاً) فــي الجنــوب، ودول الخلافــة العربيــة ودولــة هندســتان فــي الغــرب[٨٠]. وإن كان «تــي - تســونج» لــم يرغــب فــي إقامــة علاقــات صداقــة مــع الأويغــور، فقــد اضطــر بتأثيــر «لــي - ميــه» ألا يظهــر عداوتــه لهــم.

وفي عام ٧٨٧م أرسل «تي - تسونج» سفيراً إلى سلطان الأويغور. في ذلك العام كثر هطول الثلج، واضطرت البعثة الدبلوماسية التي جاءت إلى «قارا بالغاسون» إلى الانتظار فترة طويلة تحت الثلج المنهمر بكثافة أمام خيمة «طون باغا طارقان». وفي النهاية جاء أحد المستشارين إلى البعثة الدبلوماسية الصينية نيابة عن «طون باغا طارقان» وقال لهم: «أنتم قمتم بقتل أكثر من ألف رجل من رجالنا الذين كانوا تحت قيادة «تودون». وقانون أجدادنا يقول الدم لا يمحوه إلا الدم. لكن سلطاننا قرر أن يمحو الدم بالماء هذه المرة.»[٨١]، وعندما سمع سفراء طانغ كلام سلطان الأويغور على لسان مستشاره، صمتوا وأطرقوا برؤوسهم. وهكذا تحسنت العلاقات العدائية بين سلطان الأويغور وإمبراطور «طانغ».

في الشهر الثامن من عام ٧٨٧م، أرسل «طون باغا طارقان»سلطان الأويغور إلى «تي - تسونج» وفدا دبلوماسيا برئاسة «بكچور طرخان» لينقل له رغبته في الزواج من أميرة صينية، ورأي «تي - تسونج» أن طلب سلطان الأويغور منطقي، ووافق على إرسال «الأميرة شون - أن». وأرسل الأويغور عشرة آلاف جواد إلى الصين لإجراء مراسم الزواج. وأرسل الإمبراطور «تي - تسونج» الأميرة إلى «قارا بالغاسون» مُحملةً بالكثير من الهدايا القَيمَة. ومات «طون باغا طارقان»بعد عامين قضاهما مع الأميرة «شون - أن». وهذه الأميرة تُعد ثالث أميرة يتم إرسالها لسلاطين الأويغور، ومن المعلوم أن هذه الأميرة تُوفِيَتْ سنة ٨٠٨م. ولكن ليس هناك معلومة تُبين هل ماتت في «قارا بالغاسون» أم في الصين.

وبعد أن مات «طون باغا طارقان» الملقب ب«ألب قُتْلُق بيلكه سلطان»، حل مكانه ابنه «طاراس». وهو أيضا يلقب بـ «تنكريده بولمش كولوك بيلكه سلطان»، ولكن بعد موته بالسم على يد زوجته الصغيرة في عام ٧٩٠م، قام أمراء الأويغور بتولية العرش لابنه «آي چور» الملقب بـ قُتْلُق بيلكه سلطان. وتولى إدارة الدولة رئيس الوزراء لأن «آي چور» كان لايزال طفلاً حينئذ. وفي عهد «آي چور» (٧٩٠ - ٧٩٥م) تدهورت

العلاقات الخارجية لسلطنة الأويغور كثيراً. وانهزم الأويغور في الحرب التي خاضوها ضد التبت. وسيتم الحديث عن هذا الموضوع لاحقاً.

مات آي چور سنة ٧٩٥م، وأصبح رئيس الوزراء «قُتْلُق» سلطانا. وطوال عشر سنوات من تولي «قُتْلُق» العرش وحتى وفاته سنة ٨٠٥م، كانت قبيلة «ياغلاقار» الأويغورية هي العنصر الحاكم في الدولة، واشتد ساعد قبيلة «أديز» التي ينتمي إليها «قُتْلُق».

بعد وفاة «قُتْلُق» سنة ٨٠٥م اعتلى ابنه العرش. واتخذ لنفسه لقب «آي تنكريده قوت بولمش كولوك بيلكه سلطان». وبعد ذلك في عام ٨٠٨م تولى العرش شخص يسميه المؤرخون الصينيون «پو - إي قاغان»، وتلقب بـ «آي تنكريده قوت بولمش كوچ بيلكه قاغان». ولكن نحن نعرفه باسم «آي تنكري - خان». ويعتبر «آي تنكري - خان» (٨٠٨ - ٨٢١م) من أكثر سلاطين الأويغور شجاعةً وتفوقاً. وفي عام ٨١٩م طلب «آي تنكري - خان» الزواج من أميرة من أميرات طانغ. ووجد إمبراطور طانغ «هيسياو - تسونج» (٨٠٦ - ٨٢٠م)، أن من المناسب أن يرسل له الأميرة «يون - آن». ولكنه أعلن بعد مشاورات مطولة مع مستشاريه أن الأوفق إجراء مراسم زواج «يون - آن» بعد عدة أعوام. ووافق «آي تنكري - خان» على هذا الاقتراح.

فقد كان الإمبراطور «طانغ» يعرف مدى عظمة وشجاعة «آي تنكرى - خان»، وإنه ينبغي أن يصرف من الخزينة مبالغ مالية كبيرة لكى يرسل الأميرة محملة بالهدايا التي تليق بعظمته، ولذلك أعلن أن إرسال الأميرة يحتاج إلى عدة أعوام. والواقع أن إمبراطور «طانغ» كان في موقف صعب، ولكن للأسف مات «آي تنكري - خان» سنة ٨٢١م، وبالتالي لم يتحقق زواجه من الأميرة «يون - آن». وعقب وفاة آي «تنكري - خان» صارت الأميرة «يون - آن» راهبة.

وتذكر المصادر التاريخية الصينية أنه بعد وفاة «آي تنكري - خان»، اعتلى العرش شخص يُدعى «تشونج - تي». وكان يُلقب بـ «كُن تينكرده

أولـغ بولمـش كـوچ كوچلـك بيلكـه سـلطان» [إلـه الشـمس السـلطان القـوي]. وفـي فتـرة حكمـه(٨٢١ - ٨٢٤م) أرسـل إمبراطـور «طانـغ»، «مـي - تسـونج» أختـه «طـاي - كـو» كزوجـة لـه فـي عـام ٨٢١م. ونجـد فـي الأثـر المُسـمى «تاريـخ أسـرة طانـغ» فـي بـاب «معلومـات متعلقـة بالأويغـور»، تفاصيـل كثيـرة حـول مراسـم الزفـاف تلـك. حيـث ذُكـر أن الإمبراطـور «مـي - تسـونج» جعـل أختـه» طـاي - كـو» ترتـدي ملابـس العيـد، وقـام بوداعهـا حتـى بـاب «تونـج - هـو أميـن» الواقـع شـرق «جانـغ - آن»، وأُجريـت مراسـم الـوداع أمـام معبـد «تشـانج - تشـينج» برفقـة مائـة جنـدي وكبـار موظفـي الدولـة. وبعـد وداع الأميـرة أرسـل مرسـوما لحـكام وأمـراء الولايـات والمناطـق الواقعـة علـى طـوال خـط السـير حتـى الحـدود، أمرهـم فيـه أن يتـم اسـتقبال الأميـرة بجيـشٍ مكـون مـن ثلاثـة الآف شـخص وأيضـاّ بتنظيـم احتفـلات لتوديعهـا. أمـا مًـن ناحيـة الأويغـور فقـد انضـم لحفـل اسـتقبال الأميـرة السـلطان «تشـونج - تـي» بنفسـه والأمـراء وكبـار رجـال الدولـة. وكان مـن بيـن هـؤلاء «إينـانچو» و«أولـوغ طوطـوق» و«إيزجيـل» و«طارخـان» المسـئول عـن الشـئون الخارجيـة و«يابغـو» و«بيكـه» و«أسـرة طارخـان» وغيرهـم مـن كبـار موظفـي الدولـة. وتـم إرسـال أكثـر مـن ألـف جـواد وجمـل وعربـة أحمـال إلـى منطقـة تُسـمى «صـاري قاميـش قايناغـي» (وهـى منطقـة موجـودة داخـل أراضـي سـلطنة الأويغـور) لأجـل اسـتقبال الأميـرة. وعندمـا وٍصلـت الأميـرة «طـاي - كـو» إلـى قـارا بالغاسـون عاصمـة سـلطنة الأويغـور، أُقيمـت مراسـم الـزواج حسـب تقاليـد الأويغـور؛ ففـي أثنـاء مراسـم الـزواج صعـد سـلطان الأويغـور علـى ربـوة عاليـة حتـى بلـغ أعلـى مـكان تجـاه الشـرق، وهنـاك اسـتدار تجـاه الشـمس وجثـا. وكان أمـام تلـك الربـوة بيـت مـن اللبـاد كان لراهبـات الأويغـور فدخلتـه الأميـرة وبـدأت الراهبـات يشـرحن لهـا العـادات التـي ينبغـي أن تؤديهـا، واسـتجابت الأميـرة «طـاي - كـو» لهـذة العـادات فقامـت بخلـع ملابسـها وارتـدت ملابـس أويغوريـة. ثـم صعـدت إلـى الربـوة مـع سـيدة أويغوريـة تُسـمى باللغـة التركيـة «ينكَـه»[٨٢]، وبـدأت الدعـاء ثـم اسـتدَارَتْ صـوب مَشـرقْ الشـمسِ وعظّمتـه. وشـاهد السـلطان مـن المـكان

الـذي يجلـس فيـه مـا تؤديـه الأميـرة مـن طقـوس. وأمالـت الأميـرة رأسـها تجاه السـلطان، ثـم جثـت وأخـذت تتلـو الدعـاء ودخلـت إلـى الخيمـة، وقبـل الدعـاء قامـت بخلـع الملابـس التـي كانـت ترتديهـا، وارتـدت ملابـس تليـق بزوجـة السـلطان، ووضعـت علـى رأسـها تاجـا ذا مشـط مذهـب يبـرز إلـى الأمـام كالقـرن. وخرجـت أمـام البنايـة وانحنـت مـرة أخـرى احتراماً للسـلطان. وأشـار مستشـاروا سـلطان الأويغـور للأميـرة «طـاي - كـو» بالجلـوس فـي مـكان صغيـر أُعـد لهـا فـي القسـم الأمامـي للمَحَفـة الكبيـرة، ثـم قـام «تسـعة مـن أسـرة طَارخـان» الأويغوريـة (وهـم موظفـون، يعمـل ثلاثـة منهـم فـي الشـئون الداخليـة وسـتة يعملـون فـي الشـئون الخارجيـة)، بحمـل المحفـة علـى أكتافهـم ثـم الـدوران بهـا تسـع مـرات بادئيـن مـن اليسـار إلـى اليميـن، بعـد هـذا نزلـت الأميـرة «طـاي - كـو» مـن المحفـة وصعـدت إلـى المبنـى. واسـتدارت بوجههـا صـوب الشـرق ثـم جلسـت بجـوار السـلطان. ثـم قـدم المستشـارون تهانيهـم للأميـرة[٨٣].

وعاشـت الأميـرة «طـاي - كـو» عشـرين عامـاً فـي «قـارا بالغاسـون» بعـد وفـاة «تشـونج - تـي» فـي عـام ٨٢٤م. وليـس هنـاك أي معلومـة تُبيـن هـل تزوجـت بعـد ذلـك بـأي سـلطان أويغـوري آخـر أم لا.

ينبغـي فـي هـذا المقـام الإدلاء ببعـض المعلومـات حـول التوجـه السياسـي لعلاقـات المصاهـرة بيـن الصيـن وسـلطنة الأويغور.

مـن الثابـت تاريخيـاً أن العلاقـاتِ بيـن الشـعوب تسـتند أساسـاً وبصفـة عامـة علـى أهـداف سياسـية. فعندمـا يرسـل قياصـرة الصيـن فتياتهـم كزوجـات أو جـواري لحـكام دول أخـرى كانـوا بذلـك يسـعون لتحقيـق ثلاثـة أهـداف وهـي:

١ - التأكيـد علـى الاتفاقيـة التـي يتـم توقيعهـا مـع الدولـة الأخـرى. فعندمـا أعطـى إمبراطـور «طانـغ» أميـرة تنتمـي لقصـره لسـلطان الأويغـور، كان يهـدف بذلـك إلـى ضمـان انحيـاز سـلطنة الأويغـور لـه فـي الحـرب التـي سـيخوضها ضـد دولـة التبـت، ولنتذكـر مقولـة الأميـرة «نينـج - كـو» وهـي تبكـي أثنـاء ذهابهـا إلـى «قـارا بالغاسـون» عـام ٧٥٨م حيـن قالـت: «... إن

مصلحــة الدولــة أمــر مهــم، لــذا لــن أحــزن ولــو كان مصيــري هــو المــوت».

٢ - كان حــكام الصيــن يتلقــون معلومـات تخـص الشـئون الداخليـة للـدول الأخـرى عـن طريـق العرائـس أوالجـواري اللاتـي يتـم إرسـالهن إلـى تلـك الــدول.

وكانـت الأميـرات والمستشـارون السياسـيون الذيـن تـم إرسـالهم برفقتهـن يقومـون بتحويـل مسـار بعـض الأحـداث ليجعلوهـا تصب فـي مصلحـة بلادهم، وكانـت الأميـرات يخدعـن أزواجهـن ويدبـرن المكائـد المختلفـة. ومثـال ذلـك مـا حـدث فـي عـام ٦١٥م عندمـا حاصـر «سيوار» سـلطان الأتـراك الشـرقيين «يانـج - تـي» إمبراطـور «صـوي» فـي منطقـة «يـن - ميـن»، فقـد قامـت الأميـرة «يـي - چينج» التـي كانـت قـد أُرسـلت كزوجـة للسـلطان مـن قبـل - بإرسـال رجـل إلـى «سيوار» يحمـل لـهُ خَبَـرٌ كَاذِبٌ مَفَـادُه: «إن ثمـة مشـاكل خطيـرة تحـدث الآن فـي شـمال البـلاد»، فاعتقـد سـلطان الأتـراك أن هنـاك حركـة تمـرد وقعـت فـي أراضيـه، فشـعر بالقلـق ورفـع الحصـار وعـاد ألـى بـلاده؛ وبذلـك ولـى الإمبراطـور الصينـي هاربـاً.

٣ - وثمـة هـدف آخـر دفـع حـكام الصين إلـى إرسـال الأميـرات الصينيات للـزواج مـن حـكام الـدول الأخـرى، وهوالاسـتفادة مـن أبنـاء تلـك الأميـرات فـي المسـتقبل عندمـا يتولـون حكـم تللـك البـلاد، حيـث يقومـون بربـط تللك الـدول بالصيـن والاتحـاد معهـا. عـلاوة علـى ذلك فـإن وارثـي العرش يسـتغلون الصـراع علـى العـرش فـي إشـعال الحـروب الداخليـة فـي تلـك الـدول ممـا يـؤدي إلـى انقسـامها وإمـكان القضـاء عليهـا فـي النهايـة. ومثـال ذلـك الأميـرة الصينية»جيـه - يو»التـي عاشـت فـي دولـة «أويصـون» خمسـين عامـاً قبـل مائـة عـام مـن الميـلاد، حيـث تزوجـت مـن ثلاثـة ملـوك مـن ملـوك دولـة «أويصـون» وهـم (قـون شـو - مـي «١٠٤ - ٩٣ق.م»، و«ونـج قـو - مـي» ٩٣ - ٦٠ق.م، و«ونـي - مـي «٦٠ - ٥٢» ق.م)، وكانـت تقـدم الاخبـار والمعلومـات المهمـة لإمبراطـور الصيـن باسـتمرار؛ وفـي سـنة ٥٣ خاضـت صراعـاً سيآسـيا مـن أجل ان يتولـى ابنهـا «يانـج كومـي» الـذي انجبتـه مـن «ونـج كـو - مـي» العـرش، وكانـت النتيجـة انقسـام دولـة «أُويصـون» الـى دولتيـن؛ وتولـى «يانـج

كـو - مـي» ابـن الأميـرة الصينيـة، حكـم «كـون بيـك»، وتولـى «يوكـوت» ابـن أميـرة الهـون حكـم «كوچـوك كـون»؛ وضـم «يانـج كـو - مـي» أكثـُر مـن سـتين ألـف أسـرة، بينمـا انفـرد «يوكُـوت» بخمسـين ألـف أسـرة. وأُقيمـت حـدود فاصلـة بيـن أراضـي كلا الملكيـن. وأعتقـد أن سـلاطين الأويغـور قـد تعلمـوا درسـاً مهمـاً مـن التاريـخ، فكانـوا شـديدي الدقـة والحظـر تجـاه دسـائس أميـرات الصيـن وفسـادهن المثيـر للفتنـة. فعلـى سـبيل المثـال مـا حـدث عـام ٧٧٩م عندمـا قـام «طـون باغـا» بقتـل «طارخـان بوغـو - خـان» قـام أيضـاً بقتـل أبنائـه الاثنيـن اللذيـن أنجبهمـا مـن الأميـرة الصينيـة «شـاو نينـج - كـو» ومـن المحتمـل أن خوفـه مـن مطالبـة هذيـن الطفليـن بحقهمـا فـي العـرش فيمـا بعـد هـو مـا دَفَعَـهُ لارتـكاب فِعلتـهُ تلـك.

وجـاء بعـد الأميـرة الصينيـة «شـاو نينـج - كـو» أميـرات أخريـات مـن الصيـن للـزواج مـن سـلاطين الأويغـور مثـل الأميرتـان «شـونج - آن» و«طـاي - كـو» ولكـن لـم يكـن لهـن أبنـاء مـن أولئـك االسـلاطين، ولعـل هـؤلاء السـلاطين لـم يرغبـوا فـي ذلـك. وبالنظـر إلـى الأمـر مـن الناحيـة الموضوعيـة نجـد أن الأميـرات الصينيـات اللاتـي تزوجـن مـن سـلاطين الأويغـور، لـم يكـن يهدفـن إلـى التقريـب بيـن الدولتيـن، بـل علـى العكـس كـن يعملـن علـى التباعـد بينهمـا.

تجارة الخيول والحرير بين الأويغور والصينين

كانـت تربيـة الحيوانـات هـى وسـيلة الإنتـاج الأساسـية لسـلطنة الأويغـور. وقـد أولـت أهميـة خاصـة لتربيـة الخيـول، لأن المحاربيـن الفرسـان كانـوا يلعبـون الـدور الأهـم فـى الحـروب. وكانـت الخيـول آنـذاك بشـكل عـام باهظـة الثمـن. فالسـيادة والتفـوق في الحـروب مرهون بوحـدات الفرسـان. وكان أويغور الشـرق يحبـون الخيـول وتربيتهـا. ومـن بيـن مليـون حصـان يختـارون مائـة ألـف فقـط، وكونـوا جيشـا مـن الفرسـان مؤلفـا مـن ٢٢١ ألـف شـخص. وكان الفرسـان يمثلـون مركـز الثقـل فـى جيـوش الهـون والتـرك والأويغـور، وبينمـا عـدد المشـاه قليـلاً نوعـاً مـا. وكان الهـون، والتـرك، والأويغـور عنـد ذهابهـم

للحـرب، يأخـذون معهـم مئات الآلاف مـن الجيـاد الاحتياطيـة. فالحصـان كان حيوانـا لامثيـل لـه بوصفـة وسـيلة سـريعة لتبـادل الأخبـار. كان لـكل قبيلـة وعشـيرة فـي الأويغـور الشـرقيين أختامهـا التـى تطبعهـا علـى أفخـاذ الخيـول الخاصـة بهـا، لـكل منهـم مراعيهـا الخاصـة. ولهـذا نجـد الأويغـور يطلقـون علـى الخيـول اسـم «الخيـول المدموغـة».

وسـعى قياصـرة الصيـن منـذ القـدم إلـى تأسـيس جيـوش الفرسـان وليتمكنـوا مـن منافسـة جيرانهـم المحاربيـن فـي الشـمال؛ علـى أن قياصـرة «طانـغ» كانـوا أكثـر منهـم اهتمامـاً بالخيـول، وقـد اكتشـفوا السـهول الغنيـة بالمراعـي والميـاه فـي كل مـن «لونـج - يـو» و«لان - تشـو» و«فينـج - ليـن» و«تايـن - شـو» بولايـة «قانصـو»، وأيضـا فـي ممـر «خشـى»، وأسسـوا وحـدة خاصـة للمحافظـة علـى هـذه السـهول، يرأسـها أحـد كبـار موظفـي الدولـة[٨٤].

وعلـى مـدى أربعيـن عامـاً، خـلال الفتـرة مـا بيـن (٦٣٠ - ٦٧٠م) ترعـرع فـي هـذه السـهول أكثـر مـنٍ ٧٠٠ ألـف جـواد. وأدت الصراعـات التـي وقعـت بيـن الصيـن والتبـت اعتبـاراً مـن عـام ٦٧٠ إلـى تعـرض تلـك المراعـي بمـا فيهمـا مراعـي قانصـو لكثيـرٍ مـن أعمـال التخريـب.

ونتيجـة تحـول تلـك المراعـي لأراض جدبـاء هلكـت كثيـرٌ مـن الخيـول. حتـى عددهـا وصـل فـي عـام ٧٥٤م الـى ٣٢٠ ألـف جـواد، منهـم ٢٠٠ ألـف فقـط صالحـاً للعمـل. ولهـذا السـبب تعرضـت إمبراطوريـة «طانـغ» لأزمـة كبيـرة فـي الخيـول سـواءً التـي تُسـتخدم فـي الحـروب أو تلـك التي تُسـتخدم لأغـراض أخٌـرى كالزراعـة والنقـل. ناهيـك عـن الأزمـة الحقيقيـة التـي تمثلـت فـي تمـرد أٌونلـوق عـام ٧٥٥م واسـتيلائها علـى ولايتـي «لـو - يانـج» و «جانـغ - آن»، وتعـرض الصيـن ككل للفوضـى بسـبب هـروب الإمبراطـور «طانـغ - تسـونج» إلـى «سـيه - تشـوان»؛ ولـم يبـق مـع الإمبراطـور سـوى ثلاثيـن ألـف جـواد[٨٥]. ومـع تولـى «طانـغ تسـونج» عـرش «طانغ» عـام ٧٥٦م اسـتولت التبـت علـى قسـم كبيـر مـن ولايـة «جانسـوٍ»؛ ونظـراً لتعـرض مراعـى المنطقـة للدمـار أصبحـت تربيـة الخيـول فيهـا أمـراً مسـتحيلاً. واضطـرت إمبراطوريـة «طانـغ» أن تحصـل مـن سـلطنة الأويغـور علـى عـدد كبيـر مـن الخيـول. فـي

تلك الأثناء كان القسم الأكبر من جيش «طانغ» من المشاة في حين أن المتمردين كان معظمهم من الفرسانِ. ولو لم تقم سلطنة الأويغور آنذاك بتقديم المساعدة لإمبراطورية «طانغ» لما كان لها وجود. بموجب الاتفاقية الموقعة فيما بين الطرفين كان يتم مقايضة الحرير بالخيول فيما بين الصينيين والأويغور. فاذا كانت الصين في حاجة الى خيول الأويغور، فالأويغور في الوقت ذاته كانوا في حاجة الى حرير الصين. وكان الأويغور يستخدمون كمية كبيرة من الحرير التي يحصلون عليه من الصين، ويقومون ببيع ما تبقى منه في الأسواق العالمية بأسعار عالية. وبلغ ثمن الجواد الأويغوري ما يعادل خمسينٍ طومارا من الحرير. وكانت عملية المقايضة تجري على هذا النحو نظراً لإحتياج إمبراطورية «طانغ» الشديد إلى الخيول في الحروب.

كان الأويغور يمدون الصين كل عام، وعلى مدى مائة عام اعتباراً من تاريخ تمرد «أونلوق»، بأعداد من خيول الحرب تراوح عددها مابين الألف كحد أدنى إلى العشرين ألف والثلاثين ألف والمائة ألف كحد أقصى. مثلاً بينما كان عدد الخيول التي تم بيعها إلى الصين في عام ٧٧٣م عشرة آلاف جواد، وصل هذا الرقم في عام ٨٧٢م إلى مائة ألف. وإذا كان متوسط ثمن الحصان الواحد يبلغ ٤٠ طومار من الحرير، يتعين على الصين أن تقدم للأويغور ٤ مليون طومار من الحرير من أجل شراء ١٠٠ ألف جواد. وكانت الصين عاجزة عن االوفاء بهذه الديون لسلطنة الأويغور بسبب حروبها الداخلية التي أدت إلى اضطراب نظامها وتدهور حالها الاقتصادي.

ولهذا السبب لم يتمكنوا آنذاك (في عام ٧٨٢م) من دفع سوى ١٠٠ ألف طومار من الحرير، و١٠٠ألف صار من الذهب والفضة، (الصار يساوي ٣١،٢٥ جرام) (٨٦). ولم تستطع إمبراطورية «طانغ» الوفاء بكامل ديونها للأويغور حتى عام ٨٤٠م الذي شهد الإنقسام والهجرة الكبيرة.

وبهذا لم ترق عملية تبادل الخيول والحرير بين سلطنة الأويغور وإمبراطورية طانغ إلى مستوى يرضي كلا الطرفين حتى بداية القرن

التاسع. فقد كان هناك عدم تنظيم وخلافات حول كم البضائع التى تبادلوها فيما بينهما ونوعها. فكل دولة فيها كانت تفكر في مصالحها الخاصة، فقد كانت حكومة «طانغ» تقوم بجمع الحرير الذي تُقدمه للأيغور عنوةً من الشعب وليس من مصانعها. وكان حكام الأويغور يخلطون الخيول التي تُستخدم في عمليات النقل والبغال بالخيول الحربية وذلك بهدف توفير الكمية المطلوبة. وعليه كانت الصين تتعامل بالمثل فخفضت من معايير جودة الحرير من حيث عرض الحرير وطوله ونعومعته. ولم تكن ٦٠ - ٧٠٪ من الخيول التي يقدمها الأويغور مطابقة للمواصفات المحددة. وقد ألحق هذا الأمر ضرراً كبيراً بإمبراطورية «طانغ». حتى أن الشاعر» باو تشو» وهو من شعراء تلك الفترة (٧٧٢ - ٨٤٦م)، عبر عن ذلك بقصيدة اسمها «طرق چوغاي». ففي شعره الذي يبدأه بقوله: «طريق چوغاي، طريق چوغاي.. يالك من طرق طويلة....»، بعد أن يصور حال الخيول التي قام الأويغور بإرسالها الي الصين. وكيف كانت هزيلة ومريضة ولا تستطيع الوقوف على قدميها، وكيف تعرضت للمعاناة في طريق لاتوجد فيه مراعي فمات الكثير منها، صور غضب الأويغور من ذلك الحرير الرديء المُرسل من الصين؛ فأرسل سلطان الأويغور رسولاً إلى إمبراطورة الصين يطلب منها التحقق من هذا الأمر، وعلى الفور قامت إمبراطورية الصين بإرسال جميع أصناف الحرير ذات الجودة العالية الموجود في المخازن إلى سلطنة الأويغور بواسطة الخيول، ومن ذلك الحين توقفت الصين عن إرسال الحرير رديء النوعية.

وفيما يلي نقدم قائمة بكميات الحرير المرسلة من إمبراطورية طانغ إلى سلطنة الأويغور مقابل الخيول، اعتباراً من عام ٧٨٢م[٨٧]:

عام ٧٨٢	١٠٠ ألف طومار
عام ٧٨٧	٥٠ ألف طومار
عام ٧٩٠	٣٠٠ ألف طومار
عام ٧٩٢	٧٠ ألف طومار

عام ٨١٥	١٦٧ ألف طومار
عام ٨١٦	٨٥ ألف طومار
عام ٨٢٢	٢٠٠ ألف طومار
عام ٨٢٧	٤٦٠ ألف طومار
عام ٨٢٩	٢٣٠ ألف طومار
المجموع	١ مليون و ٦٦٢ ألف طومار.

وينبغي أن تذكر مرة أخرى أن إمبراطورية «طانغ» اضطرت أن تقدم أربعة مليون طومار من الحرير مقابل مائة ألف حصان اشترتها من الأويغور. غير أنها قامت بتسديد مائة ألف طومار فقط. وحدث نفس الشيء في عام ٨٢١م عندما اشترت ٢٠ ألف حصان وكان عليها أن تقدم ٨٠٠ ألف طومار من الحرير مقابل هذا، لكنها لم تسدد سوى ٢٠٠ ألف طومار فقط. وهذا يعنى أن إمبراطورية «طانغ» كانت مَدينة دوما لسلطنة الأويغور.

في عام ٧٨٠م أرسلت سلطنة الأويغور وفداً دبلوماسيا الي قصر «طانغ» بخصوص تسديد الديون، ولكن القصر في الصين طلب إرجاء تسديد الدين لفترة أخرى مُعللا أن الوضع الاقتصادي في البلاد متدهور. وكانت أسرة طانغ في مأزق فهي تفكر من ناحية في تسديد هذه الديون التي تثقل كاهلها ومن ناحية أخرى كان عليها تجهيز الهدايا لرسُل الأويغور الذين كانوا يقومون دوماً بزيارة العاصمة طانغ. ولا سيما أن الوفد المُرسل يضُم على الأقل مائة رسول. وأحياناً كان الوفد يتشكل من أكثر من ألف شخص. وكانت هذه الهدايا التي يتم إرسالها مع وفد سلطنة الأويغور كبيرة وكثيرة للغاية لدرجة أن ألف عربة كانت تسعها بالكاد. وفي سنة ٧٧٣م بذل إمبراطور «طانغ» جهداً كبيراً لكي يرسل هدايا مُقنعة لسلطنة الأويغور.

الفصل السابع: سلطنة الأويغور والتبت

العلاقات بين التبت والأويغور

بعد أن سيطر «سونج - زان كام - بو» في عام ٦٣٠م،على قبيلتي «جانغ» و«دي» (أجداد التبتيين) اللتين كانتا تعيشان في أراضي التبت بالقرب من «كوكنور» داخل حدود التبت قام بتأسيس «إمارة التبت». ونجح في الحفاظ على وجود هذه الدولة لأكثر من قرنين (٦٣٠ - ٨٤٥م). وأعلن «سونج - زان كام - بو» مدينة «لهاسا» عاصمة للسلطنة. وأسس البيروقراطية ونظم الجيش ووضع الدستور. ثم بعث برسول خاص إلى مدينة «خوتن» لتعلم الأبجدية من الخوتن الأويغور (يحتمل أن تكون الأبجدية السنسكريتية)، واستخدم هذه الأبجدية في الكتابات الرسمية. وفي عام (٦٤١م) أرسلت أسرة «طانغ» الأميرة «وين - چينج» كعروس لـ«سونج - زان كام - بو» لإقامة علاقات طيبة مع التبت، ولاستخدامه ضد أعدائهم. وبعد وفاة «سونج - زان كام - بو» عام ٦٥٠م ضعفت العلاقات بين أسرة «طانغ» و«التبت» على نحو ملموس. وبعد ذلك اندلعت حرب طويلة بين الصين والتبت في عهد «مانغ - زونغ مانغ - زان» حاكم التبت(٦٥٠ - ٦٧٩م). ثم بدأ سلطان التبت يستولى على الدول المجاورة عندما تعرضت أراضي التبت لسوء الأحوال المناخية ونقص المحاصيل. غير أنه لم تكن لديه نية للإغارة على جيران سلطنة الأويغور. وهذا ما قاله «ليو ين – شنغ» قائد جيش «طانغ» لـ «شانج تي - شينج» قائد جيوش التبت في عام ٨٣٠م:

«عندما حَلت علينا المصائب قام الأويغور بمساندتنا، وإنقاذنا من

تلك الأهوال، ولم يتطلعوا أبداً لشبر واحد من أراضينا. أيصح ألا نتوجه بالشكر لشعب أحسن إلينا ؟» (٨٨).

وكنا قد أوضحنا من قبل أن أسرة «طانغ» قررت الخروج ضد التبت بعد أن عقدت اتفاقاً مع سلطنة الأويغور.

واعتباراً من عام ٧٦٠م اشتدَ ساعد التبت بشكل ملحوظ. وتمكنت بسرعة من خلال حروب مستمرة مع الصين من احتلال جزء كبير من ولاية ما تسمى اليوم «سيه - تشوان» وولاية «قانصو» بأكملها. ووقع إمبراطور «طانغ» معاهدة سلام مع التبت في عام ٧٨٣م. واضطرت إمبراطورية «طانغ» التي فقدت هيبتها وقوتها القديمة أن تترك للتبت بموجب الاتفاقية المناطق التى أحتلتها، وأن تكف عن التصرفات العدائية ضد إمبراطورية التبت. وبفقدان الصين ولاية قانصو إنقطع اتصالها بالشعوب الموجودة في غرب البلاد. وكان خط السير الوحيد الذي يضمن الاتصال بين المناطق الغربية والصين، يمر من الحد المسمى «أويغور يولي»أي طريق الأويغور. وكان تُجار الصين وسفراؤهم الذين يخرجون إلى الطريق من «جانغ - آن» عندما يريدون التوجه ناحية الشمال يدخلون داخل حدود سلطنة الأويغورٍ بعد أن يعبروا سور الصين العظيم؛ ثم يتقدموا نحو الشمال وتحديداً نحو «قارا بالغاسون» ومن هناك يتوجهون نحو الغرب ليصلوا إلى «بشباليق» مروراً بآل الطاي. ويمر خط السير بعد «بشباليق» من «وادي إيلي» و«يدي صو» في اتجاه الغرب ويمتد حتى غرب ووسط آسيا. وسمي خط السير هذا في كتب التاريخ بـ «أويغور يولي» أي طريق الأويغور، لأن جزءا كبيرا منه يمر عبر أراضي سلطنة الأويغور.

وفي عام ٧٨٣م قيدت التبت الصين وأضعفتها بالمعاهدة التي عقدتها مع إمبراطورية «طانغ»، ودخلت في حرب مع سلطنة الأويغور. وفي عام ٧٩٠م هاجمت التبت الأراضي الأويغورية، واستولت على وادي تاريم. وفي عهد «آيچور» ضعفت سلطنة الأويغور بدرجة كبيرة. وفي عام ٧٥٦م تمردت قبيلة «قارلوق» - وهى من قبائل الأويغور - التي دخلت ضمن

اتحـاد الأوغـوز التسـع - علـى ظلـم قبيلـة «ياغلاقـار» وعلـى السياسـة التـي تنتهجهـا، وانسـحبت إلـى الغـربِ وذهبت إلـى منطقة «بشـباليق» و«يـدي صو» وسـاندهم أعـداء الأويغـور اعتبـاراً مـن هـذا التاريـخ. مثـال ذلـك، كانـت التبـت تقـوم بتحريـض قبيلـة «قارلـوق» المسـتقرة علـى حـدود «بشـباليق» ضـد الأويغـور بصفـة مسـتمرة. وفـي النهايـة هاجمـت التبـت مدينـة «بشـباليق» عـام ٧٩١م واسـتولت عليهـا.

وإثـر ضيـاع «بشـباليق» سـار رئيـس الـوزراء صاحـب السـلطة فـي الدولـة والملقـب بـ«حاكـم الولايـة»، علـى رأس جيـش قوامـه ٥٠ ألـف جنـدي نحـو «بشـباليق». والواقـع إن ضيـاع «بشـباليق» لـم تكـن خسـارة لسـلطنة الأويغـور فحسـب، ولكنهـا كانـت خسـارة كبيـرة أيضـا لإمبراطوريـة «طانـغ». غيـر أن حاكـم المدينـة انهـزم فـي الحـرب التـي خاضهـا ضـد التبـت وعـاد إلـى «قـارا بالغاسـون». ولكنـه لـم يـدر أمـور الدولـة بـل جمـع جيشـاً قوامـه خمسـين ألـف مقاتـل وعـاود الهجـوم علـى «بشـباليق». و«بشـباليق» هـذه تربـط بيـن الـدول الغربيـة والشـرقية وتمثـل آخـر نقطـة فـي طريـق القوافـل الدولـي المسـمى «أويغـور يولـي». وانهـزم حاكـم الدولـة فـي صدامـه الثانـي مـع التبـت وفقـد الأويغـور نصـف جيشـهم. ولـم يتلـق الأويغـور أيـة مسـاعدة مـن إمبراطوريـة طانـغ أثنـاء مـا بيـن الحربيـن اللتيـن شُـنتا مـن أجـل اسـترداد «بشـباليق». وذلـك لأن إمبراطوريـة طانـغ كانـت تواجـه فـي تلـك الفتـرة مشـاكل داخليـة عديـدة. فضـلاَ عـن أن أسـرة طانـغ كانـت تـرى أن هـذا الصـدام الـذي يقـع بيـن الدولتيـن يَصُـبُ فـي مصلحـة الصيـن. وخـروج سـلطنة الأويغـور مهزومـة مـن الحربيـن اللتيـن خاضتهمـا مـن أجـل إنقـاذ «بشـباليق» أدى إلـى إضعـاف الدولـة أكثـر.

حملات «آي تنكري - خان»

ظلـت مدينـة «بـش باليـق» وفقـاَ للمعطيـات التاريخيـة، فـي يـد دولـة التبـت طـوال ١٧عامـاً فـي الفتـرة مابيـن(٧٩١ - ٨٠٨م). وبـدأ «آي تنكـري - خـان» فـي عهـد «قُتْلُـق بيلكـه سـلطان» (٨٠٥ - ٨٠٨م) بتنظيـم وضـع

سلطنة أويغور الأورخون. وتمكن «قُتْلُق بيلكه» في عام ٨٠٨م من طرد التبت من «بش باليق» واستولى على مدينة «يو - مين» الواقعة في «قانصو». وتقول كُتب التاريخ الصينية أن الدولة الأويغورية اشتد ساعدها مرة ثانية في عهد «آي تنكري - خان» المعروف بـ«بو - إي سلطان» (٨٠٨ - ٨٢١م). ونظرا للمعلومات التي في حوليات الصين وفي كتابة طقوز أويغور «آي تنكريده قوت بولمش آلب بيلكه سلطان» [إله القمر المبارك آلب بيلكه سلطان] نستطيع أن نقول أن الشخص الذي نسميه «آي تنكري - خان» إختصاراً، قد عُرف في التاريخ بفتوحاته المظفرة.

سار «آي تنكري - خان» بجيش جرار يضم ٢٠٠ ألف مُقاتل الي التبت وإلى القبائل التي لم تكن خاضعة له. وفي عام ٨١٠م هجم على القيرغيز عند المنابع العليا لنهر «يني ساي» وكان القيرغيز من قبل خاضعين لسلطنة الأويغور.

فقد تمردوا في نهاية الأمر وسعوا للحصول على استقلالهم. ولكن الأويغور لم يمنحوا للقيرغيز الفرصة للانفصال عنهم، وشنوا عليهم الحملات العسكرية واحدة تلو الأخرى وأخضعوهم. لكن القرغيز أعلنوا استقلالهم في عام ٧٩٠م عندما انشغل الأويغور بمشاكلهم بسبب الصراعات التي خاضتها مع المحتلين التبتيين. وعندما جاء «آي تنكري - خان» إلى قبائل «يني ساي» فإنه لاقى مقاومة شديدة من القيرغيز، لكنه قمع مقاومة هذه القبائل بقسوة وأراق الكثير من الدماء.

وفي عام ٨١٥م خرج«آي تنكري - خان» بقسم من جيشه لحملته المشهورة الى الغرب. فهاجم جيوش التبت الذين عاودوا احتلال «بشباليق» ولقى التبتيون هزيمة ثقيلة في منطقة «جيميسار» الحالية. وبعد ذلك توجه إلى مدينة «كوچار». وفر التبتيون إلى «قاراشهر»، وتعقب«آي تنكري - خان» العدو تجاه الغرب حتى أدركهم عند منطقة «أشمه» الحالية أو «چرچي» وأعمل فيهم القتل. وتحمل الانتصارات التي حققها «آي تنكري - خان»في «بشباليق» و«كوچار» و«قاراشهر» لها أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، لأنها ساهمت في استقرار الأوضاع في

المنطقـة، وإعـادة الصلـة بيـن الشـرق والغـرب، ومـن ثَـم تـم السـيطرة علـى طريـق القوافـل.

وبعـد أن هـزم «آي تنكـري - خـان» التبـت فـي «قاراشـهر» اسـتدار ناحيـة الغـرب، ومضـى مـن فـوق «كاشْـغَر» إلـى «فَرْغانـة» و«يدي صـو». وأعـاد اخضاع قبيلتـي «قارلـوق» و«توركـش» لسـيطرته، وبعـد أن عيـن الـولاة لإدارة شـئون البـلاد ثـم عـاد منتصـراً إلـى بـلاده، وإلـى العاصمـة قـارا بالغاسـون علـى سـاحل «أورخـون». وبهـذا أصبـح «آي تنكـري - خـان» مـنٍ أعظـم سـلاطين سـلطنة «أويغـور الأورخـون» وأرسـل فـي عـام ٨١٨م رسـولاً إلـى «جانـغ - آن» لنقـل رغبتـه فـي الـزواج مـن إحـدى أميـرات الصيـن. فبـادر إمبراطـور «طانغ» بإرسـال الأميـرة «يـون - آن» إليـه فـي عـام ٨١٩م، وذلـك بموجـب المعاهـدة المبرمـة وذهبـت الأميـرة إلـى بـلاد الأويغـور بعـد إقامـة الاحتفـالات ومراسـم الـزواج التـي أشـرنا إليهـا مـن قبـل، ولكـن سـلطان الأويغـور مـات عـام ٨٢١م.

واسـتناداً للمعلومـات التاريخيـة نجـد أن التبتييـن لـم يجـرؤوا علـى الدخـول الـى أراضـي سـلطنة أويغـور الأورخـون مـرة أخـرى طـوال ثلاثيـن عامـاَ خـلال الفتـرة مـا بيـن (٨١٥ - ٨٤٨م)؛ ولكـن إثـر هجـرة أويغـور الشـرق عـام ٨٤٠م نحـو الغـرب، ومـع ظهـور حالـة الفوضـى داخـل حـدود السـلطنة، أعـاد التبتيـون الاسـتيلاء علـى «بشـباليق» و«طورفـان» وبعـض المـدن الأُخرى، ولكـن تصـدى لهـم هـذه المـرة «بوكـو - تكيـن» وردّهـم علـى أعقابهـم. وسـنوضح لاحقـاً هـذه الوقائـع بالتفصيـل.

لنعـد الأن لتعقـب الأحـداث وفقـاً لتسلسـلها الزمنـي. فـي عـام ٨٢١م تزوجـت «طـاي - كـو» أميـرة طانـغ مـن «كـون تنكريـدا أولـوق بولمـش سـلطان الأويغـور» (٨٢١ - ٨٢٥م). وقـام السـلطان باصطحـاب «طـاي - كـو» إلـى قارابالغاسـون»، ودعـم حاميـة «كوچـار» و«بشـباليق» بوضـع جيـش قوامـه عشـرة الآف جنـدي علـى كل مدينـة؛ تحسـباَ لأي هجـوم مـن قِبـل التبـت.

وفـي عهـد السـلطان «كـون تنكـري» دارت معركـة حاميـة بيـن الأويغـور والتبـت؛ وصـار التبتيـون علـى مسـافة خمسـة أيـام مـن «قارابالغاسـون». ولكن الصدامـات التـي جـرت أوقفـت قدمهـم.

عاشت سلطنة الأويغور أضعف سنواتها في عهد السلطان «تشونج - تي» و«هزار تكين» (٨٢١ - ٨٣٢م) دون أن تنهار. فقد كانت إمبراطورية «طانغ» تدعمها، وأرسلت لها على سبيل الجزية ٢٠٠ ألف طومار من الحرير في عام ٨٢٢م و٤٦٠ ألف طومار في عام ٨٢٧م، و٢٣٠ ألف طومار في عام ٨٢٩م.

وفي النصف الأول من القرن التاسع أخذت دولة التبت القوية هي الأخرى في الاضمحلال والضعف، حيث سقط جيش التبت الذى أنهكتهاالحروب المتواصلة مع الأويغور؛ ومع هذا ظلت دولة التبت محتفظة بقوتها حتى عام ٨٤٥م، أما سلطنة الأويغور فكانت قد أخذت اعتباراً من عام٨٣٠م فى فقدان قوتها وهيبتها يوماُ بعد يوم وبشكل سريع.

هجرة أويغور الشرق

➤ أسباب الهجرة

عاشت سلطنة الأويغور على مدى عشر سنوات (٨٣٠ - ٨٤٠م) المرحلة الثالثة من عمرها التي انتهت بهجرة أويغور الشرق إلى الغرب، وانتقال عاصمة البلاد من «قارا بالغاسون» إلى سفوح جبال «طانري».

وفي عهد سلطان الأويغور «هزار تكين» الملقب بـ «آلب بيلكه تنكري» اشتد النزاع على العرش وبدأت الصراعات الداخلية. وظلت السلطة لفترة طويلة لحكام ينتمون لقبيلة «ياغلاقار». ولكن بعد وفاة الملك «آيچور» في عام ٧٩٥م، انتقل الحكم الى قبيلة «آديز» المنتمية لاتحاد القبائل الأويغورية العشر، وتولى «قُتْلُق سلطان» حكم البلاد. قبل وفاة «آيچور» لم يكن هناك وليٌّ للعهد لذا تولى ادارة الدولة بعد وفاته رئيس وزرائه «قُتْلُق». والواقع إن مجيء «قُتْلُق» المنتمي لقبيلة آديز على رأس الدولة لم يؤدِ إلى وقوع صدام جدي بين قبيلة آديز وقبيلة ياغلاقار. وفي عهد السلاطين الذين ينتمون لقبيلة آديز كانت دولة الأويغور قوية

حيث استطاعوا أن يطردوا التبت من مدن «بشباليق» و«كوچار» فضلاً عن سيطرتهم على قبائل «قارلوق» و«توركيش» و«القيرغيز» الذين أعلنوا عصيانهم بغية الانفصال عن السلطنة الأويغورية، وإخضاعهم تحت حكمهم مرة أخرى. بيد أن في عهد السلطانين «هزار تكين» و«هو تكين» (٨٢٤ - ٨٣٩م) وهما من قبيلة «آديز»، دخل بعض أمراء الأويغور من قبيلة ياغلاقار في صراعات دموية مع قبيلة «آديز» للسيطرة على الحكم، ونجحوا في ذلك نجاحا جزئيا.

وقُتل «هزار تكين» أثناء الصدام الذي وقع في عام ٨٣٢م. واشتدت الحرب الداخلية أكثر في عهد خليفته «هوتكين». وفي عام ٨٣٩م اتحدت قوات «شونقار تكين» و«أرچون آلب» الملقب بـ «آلب كولوك بيلكه سلطان»، وهما من أعداء «هو تكين» وأرادا قتله. ولكن «هوتكين» كشف أمرهما وأمر بقتلهما. فغضب «قره بولوك» وهو أحد وزراء الدولة، ورفع راية العصيان ضد «هوتكين»، ولجأ إلى الأتراك المتواجدين في الصحراء وطلب العون منهم. وكان أتراك الصحراء يتألفون من قبيلتي «چومول» و«چيجيل» اللتان تعيشان عند السفوح الشرقية لجبال طانري. وكان المچومليون قد انتشروا في المنطقة الشرقية بين «قومول» و«أورومجى» الحالية، أما «الچيجيليون» فقد انتشروا في المنطقة الواقعة بين غرب «ماناس» وشرق «أورومچى». كان مؤرخو الصين الأقدمون يسمون الأتراك الذين يعيشون أمامهم في الصحراء الجرداء بـ «أتراك الصحراء». وهكذا ظهر اسم المعروفين بأتراك الصحراء» [أتراك شاتو]. وبعد ذلك اتجهت قبيلة «چيجيل» جهة الغرب لأسباب عدة وجاءت إلى «يدي صو» واستقرت بـ «وادي طلاس»؛ أما قبيلة «چومول» فقد هاجرت من المنطقة التي كانت تقطن فيها عام ٧٩٠م إلى أطراف «جيميسار» واستقرت في منطقة «وو - وي» بولاية قانصو، وفي منطقة «لونج - بو» بولاية «نيغشيا»، وانضمت إلى إمبراطورية «طانغ». ومنحت إمبراطورية طانغ أمراء تلك القبيلة لقب «لي». وأتراك الصحراء هؤلاء هم الأتراك الذين أسسوا دولة طانغ الأخيرة في «هوانج - هو» و«يانجتسي» بعد ذلك. غير أن هذه

الدولـة لـم تبـق سـوى أربعـة عشـر عامـاً فقـط، وتـم إدمـاج أتـراك الصحـراء تمامـاً علـى يـد الصينيـن.

فـي عـام ٨٣٩م توجـه «قـره بولـك» [كـورا - بـر] بمسـاعدة أتـراك الصحـراء لمواجهـة «هوتكيـن». وانتحـر «هوتكيـن» بعـد هزيمتـه فـي الحـرب. وهكـذا أجلـس «قـره بولـك» أحـد أمـراء قبيلـة «آديـز» ويُدعـى «كيجيكتكيـن» علـى العـرش، واعتقـل بعـض أمـراء «ياغلاقـار». فهـب «كولـوك باغـا طارخـان» (مـن قبيلـة ياغلاقـار) وهـو المستشـار الحربـي للبـلاد للاسـتيلاء علـى العـرش. فـي تلـك الأثنـاء كانـت تتعاقـب علـى سـلطنة الأويغـور الكـوارث الطبيعيـة الشـديدة الواحـدة تلـو الأخـرى. فقـد ذُكـر فـي القسـم المتعلـق بالأويغـور فـي حوليـة أسـرة طانـغ أن الثلـوج هطلـت بشـدة فـي عـام ٨٣٩م فتعرضـت

البـلاد لموجـة مـن الصقيـع الشـديد ممـا أدى إلـى نفـوق الكثيـر مـن الخيـول والثيـران والأبقـار. وأودت الأوبئـة بحيـاة الكثيـر مـن البشـر، وتناقـص الإنتـاج الزراعـي والحيوانـي وواجـه النـاس خطـر المجاعـة، وصـار الشـعب لايـدري مـاذا يفعـل، فالحـرب الداخليـة مـن ناحيـة، وانتشـار الأمـراض والكـوارث الطبيعيـة مـن ناحيـة أخـرى أدخلـت الشـعب كلـه فـي دوامـة اليـأس.

وبينمـا تمـر سـلطنة الأويغـور بتلـك الأيـام العصيبـة، قـرر «قولـوك باغـا» زعيـم قبيلـة «ياغلاقـار» أن يطلـب مسـاعدة القيرغيـز فـي نـزع العـرش مـن أيـدي قبيلـة «آديـز»، فهـرب إلـى القيرغيـز فـي «ينـي سـاي» عـام ٨٤٠م وشـرح لهـم أحـوال بـلاده. فوافـق خـان القيرغيزـــ الـذي كان قـد تمـرد مـن قبـل علـى سـلطنة الأويغـور وحقـق اسـتقلاله، وافـق علـى اقتـراح «قولـك باغا» وقـرر انتهـاز هـذه الفرصـة لتقويـض سـلطنة الأويغـور والحصـول علـى الغنائـم والثـروة الكبيـرة الموجـودة فيقصـر السـلطان فـي قـارا بالغاسـون. وعليـه توجـه إلـى «قارابالغاسـون» علـى رأس جيـش مـن فرسـان يضـم مائـه ألـف مقاتـل بقيـادة «آپـا».

واسـتناداً للمعلومـات التـي جـاءت فـي القسـم المتعلـق بالقيرغيـز مـن «حوليـة طانـغ القديمـة»، نجـد أنـه قيرغيز»ينـي سـاي» كانـوا أقـارب

الأويغـور، فلغتهـم وهيئتهـم الجسـمانية تشـبه الأويغـور. فقـد كانـت بشـرتهم بيضـاء، وعيونهـم زرقـاء وشـعرهم أشـقر. وظـل القيرغيـز تحـت حكـم «الهـون» و«الكـوك تـرك»، و«الأويغـور» لفتـرة ليسـت بقصيـرة. وكان القيرغيـز قـد انضموا بشـكل عـام إلـى الأويغـورٍ فـي عهـد سـلطنة أويغـور الأورخـون، ولكنهـم كانـوا يعلنـون عصيانهـم كثيـراً، وفـي النهايـة اسـتطاعوا الحصـول علـى اسـتقلالهم عـام ٨٣٩م مـن خـلال حركـة تمـرد كبيـرة.

وفـي عـام ٨٤٠م تمكـن جيـش فرسـان القيرغيـز المكـون مـن مائـة ألـف مقاتـل بقيـادة «آپـا» أن يسـتولى علـى «قـارا بالغاسـون» عاصمـة سـلطان الأويغـور. وقـام القيرغيـز بقتـل سـلطان الأويغور«كيچيـك تكيـن» وقتلـوا أيضـا «قـره بولـوك». ونهبـوا كل مـا فـي خزينـة السـلطنة مـن ثـروات وأضرمـوا النيـران فـي قصـر السـلطان حتـى صـار رمـاداً تـذروه الريـاح. وكانـت الحـروب الداخليـة، وتفشـي الأمـراض والأوبئـة، ونـزول الكـوارث الطبيعيـة بسـلطنة الأويغـور، فضـلاً عـن سـيطرة القيرغيـز عليهـا، سـبباً فـي انهيـار تلـك السـلطنة التـي حافظـت علـى بقائهـا زهـاء قرنيـن مـن الزمـان، وتركـت بصمـة واضحـة وهامـة للغايـة فـي التاريـخ وخاصـةً فـي تاريـخ آسـيا. فلـم تكـن سـلطنة الأويغـور فـي وضـع يمكنهـا مـن التصـدي للقيرغيـز، وبعـد هـذه المحنـة هاجـر قسـم كبيـر مـن أويغـور الشـرق الـى الغـرب، إلـى السـفوح الشـمالية والجنوبيـة لجبـال «طانـري»، والقسـم الأخـر هاجـر الـى مناطـق «هـو - بـي» و«شـان - سـي» شـمالي الصيـن.

وهكذا لم يحقق «كولوك باغا» رغبته في أن يصير سلطاناً للأويغور.

عاقبة الأويغور الفارين نحو الجنوب

نجـد فـي أجـزاء حوليـة «طانـغ» القديمـة تحـت عنـوان «أخبـار خاصـة بالأويغـور» و«معلومـات متعلقـة بـ «لـي تـي - يـو»، معلومـات مهمـة عـن الأويغـور الذيـن فـروا إلـى الجنـوب. ففـي عـام ٨٤٠م بعـد انهيـار سـلطنة الأويغـور، فـرَّ جـزء كبيـر مـن أويغـور الشـرق بزعامـة «بـان تكيـن» نحـو الغـرب. وسـوف نتطـرق فيمـا بعـد إلـى خـط السـير الـذي سـلكه هـؤلاء والمناطـق

التـي اسـتقروا فيهـا، والأدوار التـي لَعبوهـا فـي التاريـخ.

فـي أغسـطس عـام ٨٤٠م جـاءت طليعةالأويغـور الذيـن فـروا إلـى الجنوب تحـت قيـادة «هورمـوزد تكيـن» الـى منطقـة «طاتونـج» داخـل مغولسـتان حاليـاً. واقتـرب جـزء كبيـر منهـم فـي ربيـع عـام ٨٤١ممـن الأطراف الشـمالية لولايتـي «هـو - بـي» و«شـان - سـي» الصينيتيـن. وكان زعيـم الأويغـور الذيـن هربـوا تجـاه الجنـوب آنـذاك هـو السـلطان «أوجـه» مـن قبيلـة آديـز. فقـد تـم اختيـار «أوجـه تكيـن» سـلطاناً بعـد سـقوط «قـارا بالغاسـون». وكان»أوجـه تكيـن» ينـوي إنقاذالأويغـور مـن هـذه المحـن والمصائـب وتأسـيس السـلطنة مـرة أخـرى، ولهـذا كان يفكـر فـي طلـب المسـاعدة مـن إمبراطوريـة طانـغ. فاصطحـب معـه فـي طريقـه نحـو الجنـوب ١١أميـراً، و٨ طارخـان (المسـئول عـن الشـئون الداخليـة والخارجيـة للبـلاد) وسـيدتين (إحداهمـا زوجتـه والأخـرى أُختـه) و١٠ جنـرالات و١٣ قبيلـة كانـوا يعيشـون بالقـرب مـن «قـارا - بالغاسـون». وأرسـل»أوجه تكيـن» وفـدا دبلومآسـيا برئاسـة رئيـس الـوزراء الـذي فـي مقـام «حاكـم الولايـة» إلـى «جانـغ - آن» عاصمـة إمبراطوريـة «طانـغ»، وطلبـوا المسـاعدات الماديـة والعسـكرية لإعـادة تأسـيس السـلطنة. ووافـق إمبراطـور «طانـغ» علـى تقديـم المسـاعدات الغذائيـة بقـدر كاف إلـى الأويغـور، وذلـك بنـاءً علـى توصيـة «لِي تـي - يـو» أحـد مستشـاري الإمبراطـور، وأوضـح أنـه بهذايـؤدى دينـاً تاريخيـاً فـي عنقـه، وعـاد الوفـد الأويغـوري الذي رأسَـه رئيـس الـوزراء مـن «جانـغ - آن» يائسـاً. وعـاش الأويغـور أيامـاً سـيئة وصعبـة مـرة أخـرى مـع «أوجـه تكيـن» الـذي كان مجتهـدا ونشـيطاً، ولكـن حالفـه سـوء الحـظ. فقـد كان «أوجـه تكيـن» يعتقـد أن إمبراطوريـة «طانـغ» سَـتَّدعِمُه بقـدر كبيـر.

لا سـيما أن الأويغـور جـاءوا إلـى الصيـن للمسـاعدة اثنـاء تمـرد «أونلـوق - صويغـوم» بيـن أعـوام (٧٥٦ - ٧٦٢م) وأنقـذوا إمبراطـور «طانـغ». فـي حيـن أن امبراطوريـة «الطانـغ» رفـض مسـاعدة «أوجـه تكيـن» الـذى انهـى الأمـر. والخلاصـة نجدهـا فـي المثـل القائـل : «نـزل الثلـج علـى الجبـال التـي رَجُوهَـا».

لـم يكـن عـدد االأويغـور الفاريـن نحـو الجنـوب مـع «أوجـه تكيـن» يقـل عـن ٣٠٠ ألـف شـخص. وكانـت تلبيـة احتياجـات هـذا العـدد، وتوفيـر المـأكل والملبـس والمسـكن لهـم تمثـل مشـكلة بحـد ذاتهـا. وفـي شـهر ديسـمبر مـن عـام ٨٤١م أرسـلت إمبراطوريـة طانـغ كميـة كبيـرة مـن القمـح للأويغـور كديـن يُسـدد فـي صـورة خيـول فيمـا بعـد. غيـر أن فـي تلـك الأيـام كان ديـن إمبراطوريـة «طانـغ» إلـى الأويغـور لا يسـتهان بـه.

وكانـت الظـروف التـي يمـر بهـا الأويغـور الذيـن اتجهـوا إلـى الجنـوب مـع «أوجـه تكيـن» صعبـة للغايـة، زاد عليهـا أن «هورمـزد تكيـن» أبـى الخضـوع لــ «أوجـه تكيـن» وأخـذ معـه ثلاثـة قبائـل وانضـم لأمبراطوريـة طانـغ؛ وقـام إمبراطـور «طانـغ» بمنحـه هـو والأمـراء الأويغـور الذيـن كانـوا بصحبتـه أسـماء تحمـل لقـب لـي علـى النحـو التالـي.

هُورمزد تكين صار اسمه (لي سيه - تشونج)

آروچي (لي سيه - تشنج)

صارڨوچور(لي سيه - تشو)

آياڨير (طارقان) أصبح (لي هوي - شوي)

ولـم يصفـح «أوجـه تكيـن» أبـداً عـن هـؤلاء الخونـة الذيـن تنصلـوا مـن وطنهـم ومـن شـعبهم، وفـي عـام ٨٤٢م طلـب مـن إمبراطـور «طانـغ» اعادتهم لـه. ولكـن الإمبراطـور «ووتسـونج» رفـض طلبـه هـذا. وعليـه قـرر السـلطان «أوجـه» معاقبـة هـؤلاء الذيـن لجـأوا إلـى أسـرة طانـغ بقيـادة «هورمـوزد». كان مـن بيـن الأويغـور الذيـن فـروا إلـى الجنـوب «نائـل چورتكيـن» رأس المتمرديـن الـذي كان السـبب فـي الخـروج عـن طاعـة السـلطان وحـدوث النـزاع الداخلـي بيـن الأمـراء. فقـام السـلطان «أوجـه» بمهاجمـة «نائـل چور» وقتلـه. فـي الوقـت نفسـه قـام الأويغـور الذيـن هربـوا إلـى الجنـوب والذيـن كانـوا يمـرون بظـروف صعبـة، بمهاجمـة جماعـات اللاجئيـن لأسـرة «طانـغ». ولكـن فـي تلـك الأثنـاء شـن القرغيـز هجومـاً مـن ناحيـة الشـمال. وأيضـا فـي نفـس الوقـت قامـت وحـدات حـرس حـدود ولايتـي «هـو - بي» و«شـان - سـي

«التابعتين لإمبراطورية «طانغ»، بشن هجوم آخر على الأويغور.

وحاول القرغيز أثناء هجومهم في عام ٨٢١م اختطاف الأميرة الصينية «طاي - كو» وإعادتها إلى «جانغ - آن» لكن «أوجه تكين» تمكن من تخليصها؛ وظلت معه بعد هذا الحادث، ولا ندري هل بقيت معه برغبتها أم كان ذلك مجرد إرضاءً له. وفي عام ٨٤٣م قام القائد الصيني «شيه - صوي» أثناء هجومه على «أوجه تكين» بخطف «طاي - كو» واستعادتها.

وعندما قُتل«أوجه تكين» في عام ٨٤٦م على يد» ماين» أحد وزرائه، تولى العرش شقيقه الصغير» إينان تكين». لكن مصيره صار في مهب الريح، لذلك ذهب إلى «آل شيراي» [شيه - وي]المنقادين لسلطنة أويغور سابقا، ولكن «آل شيراي» اعتقلوه وأرادوا تسليمه إلى أعدائه. في تلك الأثناء كان قد بقي على قيد الحياة حوالي خمسمائة شخص فقط من مجموع الـ ٣٠٠ ألف أويغوري الذين فروا تجاه الجنوب، وذلك بسبب الصراعات الداخلية وهجوم العدو عليهم من الشمال والجنوب وأيضا بسبب المجاعة. وانضم قسم من الأويغور الفارين نحو الجنوب (حوالي ألف شخص) إلى إمبراطورية طانغ، ومجموعة أخرى وقعت في أسر القرغيز. وفي ظل هذه الظروف الصعبة، لجأ «إينان تكين» إلى أسرة «شيراي» الحاكمة. ولكنه عندما علم بنوايا «آل شيراي» السيئة هرب إلى الغرب هو وزوجته «قارلو» وابنه «دوست تكين» وتسعة من أصدقاء السلاح. ولا توجد في المصادر التاريخية أي معلومة توضح مصير السلطان «إينان» بعد ذلك. ولكن بعض المصادر تقول أنه توجه الى سَمَرقَنْد.

ولم يستطع الأويغور الذين هربوا تجاه الجنوب بزعامة السلطانٍ «أوجه» تحقيق فكرة إعادة تأسيس السلطنة، وتفرقوا يميناً ويساراً، ولهذا سببين، السبب الأول هو أن قسما من الأويغور الذين هربوا تجاه الجنوب،خاضوا الحروب بشكل فردي وليس جماعي. ودخل قسم منهمِ تحت حماية إمبراطورية طانغ، فانقسمت قوة الجماعة مما أثر سلبياً على الأويغور. أما السبب الثاني: فيتمثل في رفض إمبراطور طانغ تقديم

المساعدة العسكرية للسلطان «أوجه». فلو أن الأويغور اتحدوا تلك الأيام العصيبة، ولو قامت إمبراطورية طانغ بتقديم المساعدات لهم، لتمكنوا من مهاجمة القرغيز وردعهم، ومن ثَم إعادة تأسيس سلطنتهم، ولم ينقسموا إلى شعوب شتى.

وعندما نأتي للحديث عن الأويغور الفارين نحو الغرب بقيادة «بان تكين» نجد أنهم لم يحاولوا القضاءعلى بعضهم البعض، بل سعوا إلى توحيد صفوفهم ما أمكن، وبدأوا يحلمون معا بإعادة تأسيس سلطنة الأويغور.

ولذا بعد أن ذهب قسم منهم إلى» بش باليق» و«كوچار» اتحدوا مع ذويهم من القبائل الموجودة هناك، أما الذين ذهبوا إلى «قانصو» فقد أسسوا إمارة «قانصو الأويغورية» (٨٧٠ - ١١٢٥م)؛ وأسست المجموعة الثالثة إمارة «إيديقوت» الأويغورية. وبادرت قبيلة «ياغما» التي تُعد أشد القبائل الأويغورية بأسا بعد أن هاجرت الى الغرب بإقامة الدولة «القراخانية» الأيغورية.

الفصل الثامن : الاقتصاد والثقافة في عهد سلطنة الأويغور

البنية الاجتماعية ومؤسسات الدولة

يقـول بعـض المؤرخيـن إن سـلطنة أورخـون الأويغوريـة اسـتمرت مائـة عـام (٧٤٤ - ٨٤٥م)، بينمـا يقـول البعـض الآخـر إنهـا اسـتمرت مائتـي عـام(٦٤٦ - ٨٤٥م). ويُذكـر فـي الكتابـة المحفـورة علـى النصب التـذكاري لسـلطان الأويغـور» بايـانچور» مـا يلـي: «..لقـد حكمنـا شـعوب الأويغـور العشـرة وشـعوب الأوغـوز التسـعة الذيـن اسـتمروا أكثـر من مائـة عـام». وتقول كتابـة «بايـانچور» التـي كُتبـت عـام ٧٥٧م إن سـلطنة الأويغـور قـد تأسسـت عـام ٦٤٦م. واسـتنادا إلـى مـا ورد فـى الجـزء الـذى يتضمـن معلومـات عـن الأويغـور فـى «حوليـة طانـغ القديمـة» نجـد أن سـلطنة الأويغـور تأسسـت سـنة ٦٤٦م، وكان «توميـد أُولـوغ إلتبـر» هـو سـلطان الدولـة فـي تلـك الأثنـاء. واذا سـلمنا بصحـة هـذه المعلومـات التاريخيـة، فيمكـن القـول أن سـلطنة أورخـون الأويغوريـة اسـتمر وجودهـا ٢٠٠ عـام.

وليسـت هنـاك أى معلومـة بشـأن تحـول أويغـور الشـرق مـن البنيـة القبليـة إلـى نظـام يعتمـد علـى العبوديـة. ولقـد مـرَ الشـعب الأويغـوري كبقيـة الشـعوب التركيـة الأخـرى بمرحلـة الإقطـاع فـي مرحلـة مبكـرة نسـبيا. ويقول بعـض رجـال العلـم إن دولـة الهـون قبـل الميـلاد اسسـت بنيـة مجتمـع أبـوى وعاشـت فـي ظـل مجتمـع شـبه إقطاعـي. وعندمـا نأتـي للحديـث عـن الأتـراك، نجـد أنهـم كانـوا فـي القـرن الرابـع لايزالـون فـي بدايـة المرحلـة الإقطاعيـة، أمـا أويغـور الشـرق الذيـن حلـوا محلهـم فـى عـام ٧٤٤م فقـد كان نظامهـم الإقطاعـي قـد بلـغ مرحلـة النضـج.

واعتبـاراً مـن بدايـة القـرن السـابع كان لـدى أويغـور الشـرق نظـام السـلطنةوفيه ينتقـل الحكـم مـن الأب إلـى الابـن. ويـدل هـذا علـى التطـور الإثنـي - السياسـي عنـد الأويغـور. إن اتخـاذ الشـعب لنفسـه اسـم «أويغـور» فـى أول الأمـر يُعـد أحـد أهـم خصائـص الوحـدة العرقيـة والسياسـية. وليـس موضوعنـا هنـا الحديـث عـن أنـواع التحالـف لـدى الأويغـور الذيـن كانـوا فـي حالـة فيدراليـة قبليـة واتحـاد عشـائري فـي مرحلـة مبكـرة مـن تاريخهـم. غير أن الإئتلافـات الجديـدة توضـح أنـه قـد بـدأ التشـكيل الإثنـي، فظهـرت نتيجـة لهـذا مؤسسـة «السـلطنة» التـي ارتضـى بهـا كل فـرد عـرّف نفسـه باسـم الأويغـور. ومـن هنـا يمكـن القـول إن مفهـوم «الشـعب» حـل محـل اتحـاد القبيلـة أو العشـيرة. وإذا نظرنـا لهـذا الأمـر مـن ناحيـة التطـور المجتمعـي يمكـن القـول إن وحـدة العشـيرة قـد تخلـت عـن مكانهـا للنظـام الإقطاعـي[٨٩].

واعتبـاراً مـن القـرن الخامـس نجـد أن قبيلـة الأويغـور التـي لعبـت دوراً رئيسـاً فـي فيدراليـة القبائـل التـي شـكلتها قبائـل تـورا الشـرقيون، قـد صـارت فـي أواسـط القـرن السـابع اسـماً مشـتركاً لجميـع قبائـل تـورا الشـرقية. وكانـت القبائـل المتقاربـة خاصـة مـن الناحيـة العرقيـة هـى القبائـل التـي تسـمت بــ «الأويغـور العشـرة» أو «الأوغـوز التسـعة»، والتـي احتلـت مكانـاً فـي الفيدراليـة الإثنيـة السياسـية فـي عـام ٧٤٠م. ولهـذا السـبب اتحـدوا، وعلـى الفـور وبشـكل سـريع ارتضـوا اسـم «الأويغـور».

وفـي هـذه الفتـرة كانـت البنيـة الإقطاعيـة عنـد الأويغـور تتكـون مـن مجموعتيـن أو طبقتيـن وهمـا طبقـة النبـلاء وطبقـة المواطنيـن العادييـن. وكانـت طبقـة المواطنيـن تعمـل علـى توفيـر وتلبيـة احتياجـات الأمـراء مـن المـواد الغذائيـة والحاجـات المنزليـة، فضـلاً عـن أدائهـم للخدمـة العسـكرية، ويقومـون بتجهيـز المُعـدات الحربيـة كالسـيف والرُمـح والتـرس وغيرهـا مـن أدوات الحـرب، كمـا يجهـزون أيضـا خيـول الحـرب. وكان الأمـراء يحصلـون علـى الجـزء الأكبـر مـن غنائـم الحـرب. فالأمـراء فـي نظـر السـلطان متميزيـن، ويعـدون حـكام الشـعب. والفتيـات اللائـي يتـم جلبهـن مـن الصيـن يقُمـن بجميـع الأعمـال المنزليـة لـدى أمـراء الأويغـور. وكان السـلطان هـو الحاكـم

الأعلى. وبرغم وجود نظام «الديمقراطية العسكرية» في دولة أورخون الأويغورية كما هو الحال عند دولة الهون والكوك تورك، لم يكن السلطان يتم انتخابه من طرف مجلس النواب. وكان السلطان يُعين في حياته ولياً للعهد، ولذلك لم يكن هناك صراع على العرش بعد وفاته.

والترتيب الإداري لحكام الدولة في السلطنة الأويغورية على النحو التالي:

السلطان
السلطانة
الوزير الأعظم

الطرخانات (الوزراء) التسعة (ثلاثة منهم مسئولين عن الشئون الداخلية، وستة مسئولين عن الشئون الخارجية)
اليانغون (يانغونتار) (وهم موظفون يهتمون بأحوال الشعب وهمومه)
تكين (أمير)
طوطوق
طودون (الوالي العام)
أركين
باش سانغون (المستشار العسكري)
بويروق (الوزير المسئول عن القضاء)
المچور
إيلتابر
السانغون: الجنرال

كانت زوجة السلطان وتُسمى «خاتون» بمعنى السلطانة، صاحبةٍ الكلمة في الدولة بعد السلطان. ولعبت السلطانات أدواراً مهمة، وأحياناً كثيرة كان لهن القول الفصل في إدارة أمور الدولة. وهذا تقليد شائع عند الأويغور منذ القدم، ومحتمل أن يكون السبب هو الإحساس

بالاحترام التقليدي تجاه الأمهات. ولم تتدخل السلطانات في الشئون العسكرية، ولكنهن يشاركن في الحروب في أحيان كثيرة. على سبيل المثال عندما جاء سلطان الأويغور «بوغا» إلى الصين لإخماد تمرد أونلوق في عام ٧٦٢م، رافقته زوجته «بيلكه خاتون» . واشتركت «بيلكه خاتون» في المعارك ضد المتمردين وأظهرت بطولة في التصدي لهم.

وكان «آبا طرخان» أي «حاكم المدينة» يُدير الشئون الداخلية والخارجية لسلطنة الأويغور. ويشارك حاكم المدينة في الحروب ضد الأعداء إذا تطلب الأمر ذلك. وكان يعمل تحت إمرأته «الطرخان» أو الوزراء التسعة الذين يديرون الشئون الداخلية والخارجية للبلاد. ويتولى ستة وزراء من أولئك التسعة الأمور الخارجية، وهذا مؤشر على مدى اهتمام سلطنة الأويغور بالدبلوماسية. ويتولى المُلقبون بـ«طوطوق» و«طودون» الأمور الهامة التي يكلفهم بها الوزير. فالطوطوق معنيين بالمسائل العسكرية بصفة عامة، أما الطودون فيعنون أكثر بإدارة أمور شعب السلطنة. مثلاً «الكيدانيون» الذين عاشوا في الأجزاء الشرقية للسلطنة (في الولايات الموجودة في شمال شرق الصين حالياً)، كان يتولى إدارة شئون قبائل «شيه - وي» الوالى العام الأويغورى(طودون). وكان «البويروق» هم المضطلعون بالشئون القانونية، أما السانغون أي الجنرالات فهم أبناء السلطان وكانوا يُلقبون بـ «تكين». وبصفة عامة كان هؤلاء التكين هم ورثة العرش.

➤ الاقتصاد

كان الأويغورفي الجزء الشرقي من السلطنة (منغوليا الحاليةَ ومنغوليا الداخلية) يشتغلون أساسا بالرعى، فى حين كانوا في الجزء الغربي من البلاد (وسط آسيا) يشتغلون أكثر بالزراعة. وكانت الجبال الواقعة في الجزء الشرقي للسلطنة مثل جبال (هنغان، وخانجاي، وچوغاي، آلطاي الشرقية)، والمراعي والسهول الجدبة بل والصحراء، كانت جميعها صالحة للرعي وتربية الماشية. وكان الأويغور بصفة عامة يُربون الخيول والأبقار

والإبـل والماشـية. وكان للخيـل دور مهـم فـي أوقـات الحـروب وأيضـا فـي الانتقـالات. ولذلـك نلاحـظ وجـود مـراع صالحـة لتربيـة ملاييـن الجيـاد. وكُنـا قـد بَيَّنـا فيمـا تقـدم كيـف أن الأويغـور قامـوا ببيـع الخيـول لإمبراطوريـة طانـغ مقابـل حصولهـم علـي الحريـر والقمـاش. وهـذا يعنـي أن الخيـول الأويغوريـة احتلـت مكانـة رئيسـية فـي عمليـة التجـارة.

أمـا حرفـة الرعـى فقداحتلـت مكانـة مهمـة فـي الجـزء الغربـي للسـلطنة وخاصـة فـي وادي تاريـم، وأيضـاً فـي جبـال طانـري الواقعـة فـي الشـمال (جونغاريـا حاليـاً). وازدهـرت الزراعـة فـي وادي تاريـم، فـكان يُـزرع فيـه الأرز والقمـح والشـعير والـذُرة والحمـص والقطـن. كمـا كان لزراعـة العنـب بصفـة خاصـة أهميـة كبيـرة فـي هـذا الـوادي. وكانـت توجـد فـي ذلـك الوقـت الكثير جـداً مـن البسـاتين المليئـة بأشـجار الفاكهـة متنوعـة الثمـار، إذ كانـت تحـوي علـى مـا لايقـل عـن عشـرين نوعـا. لعـل أبرزهـا الفسـتق والرمـان واللـوز والخـوخ والتيـن والعنـب. كمـا كان يُـزرع فـي هـذا الـوادي أيضـاً محاصيـل مثـل القطـن والقِنّـب والكتـان والسمسـم والخـردل.

وازدهـرت الزراعـة أيضـا فـي الجـزء الشـرقي للسـلطنة. وكانـت تربيـة الحيـوان هـي الحرفـة الأساسـية لأويغـور الشـرق، أمـا الزراعـة فنجدهـا فـي الأوديـة التـي ترويهـا أنهـار «سـلانجا» و«أورخـون» و«طـولا» و«كورولـن».

قـام علمـاء الآثـار الـروس بعـدة أبحـاث فـي قـارا بالغاسـون عاصمـة الدولـة الأويغوريـة وفـي مـدن أخـرى، فوجـدوا أنهـم كانـت لديهـم طواحيـن يدويـة مصنوعـة مـن الحجـر، ووحـدات أوزان يسـتخدمونها فـي وزن الدقيـق. وكشـفوا أيضـا عـن وجـود قنـوات ري فـي أطـراف «قـارا بالغاسـون» وعـن آثـار جـداول المـاء القديمـة.

«وقـد أدى اسـتخدام قنـوات الـري، إلـى اسـتقرار قسـم كبيـر مـن الأويغـور الرُحـل، وإنشـاء القـرى والمـدن. وفـي وتيـرة التحـول إلـى نظـام الاسـتقرار الـذي سـاد القـرى والمُـدن، حلـت علاقـة المدينـة محـل العلاقـات القائمـة علـى صلـة القرابـة.»[٩٠]

وبدأ جزء من أويغور الشرق الذين تحولوا إلى حياة الاستقرار يشتغلون بالزراعة والصناعة اليدوية والتجارة. واحتياجات الطلب الداخلي والتجارة الخارجية أدى إلى تطور الصناعة اليدوية. وشعر سلاطين الأويغور باحتياجهم إلى الحديد من أجل تجهيز جيش فرسان قوامه مائة ألف فارس. واكتشف علماء الآثار الروس في خرائب «قارا بالغاسون» مناضد حدادة وآلات معدنية وأشياء معدنية في أشكال مختلفة. ويُلاحظ أن «وادي تاريم» كان أكثر إنتاجاً للحبوب في عهد الهون، كما كان لديهم في جبال «آلطاي» و«طانري» الأفران الحديدية وكانوا يشكلون معدن الذهب. أما في عصر سلطنة الأويغور فقاموا باستخراج الحديد وصهره، وحظيت صناعة الأسلحة والآلات الزراعية ولوازم المنزل مكانة هامة.

وفي المناطق الغربية للسلطنة ازدهرت صناعة السجاد وصناعة الحرير(خاصةَ في مدينة خوتن)، وازدهرت صناعة أدوات الزينة وصناعة النسيج القطني والحريري في مُدن «كاشْغَر وياركند وكوچاروخوتن وطورفان». واحتلت التجارة موقعاً مهماً في الحياة الاقتصادية للسلطنة. وكُنا قد بَيَّنا سابقا عملية تبادل الحرير والخيل بين سلطنة الأويغور والصين. وفيما يلي سنتوقف مرة أخرى عند التجارة الخارجية في السلطنة.

كان تجار الأويغور ماهرين إلى حد كبير في التجارة بين سلطنة الأويغور وإمبراطورية طانغ. فكان لتجار الأويغور متاجر في المدن الصينية الكبيرة مثل (جانغ - آن، ولو - يانغ، وطا - طونج، وها - يانج، وتشين - يان، ويان - تشو)، ويمكننا القول إن تجار الأويغور كانوا متواجدين في كل مُدن الصين تقريباً.

وكانوا يعدون بالمئات وربما بالآلاف. وفي المقابل نجد تجار الصين يزاولون نشاطهم التجاري داخل حدود سلطنة الأويغور. وكانت لسلطنة الأويغور سفارة في الصين، كما كانت للصين سفارة في سلطنة الأويغور. وكانت مهمة السفارة تنظيم العلاقات التجارية بين الدولتين.

كان الأويغور يقدمون الخيول للصين، ويأخذون منها الحرير والشاي،

ويقومـون بتصديـره إلـى طهـران ودلهـي والقاهـرة والشـام والقسـطنطينية؛ ويبيعونـه بأربـاح عاليـة ويحققـون أرباحـا طائلـة. وكان الأويغـور يسـتبدلون بالحريـر والقمـاش والسـجاد وغيرهـا مـن المـواد المتنوعـة التـي يصدرونهـا إلـى بـلاد آسـيا وأوروبـا الذهـب والمـواد الأخـرى التـي يحتاجونهـا فـي حياتهـم اليوميـة (واللؤلـؤ والمـاس والعـاج والمرايـا واالمصنوعـات الزجاجيـة وغيرهـا).

➤ الثقافة

بلغـت ثقافـة الشـعب الأويغـوری فـی عهـد سـلطنة أورخـون الأيغوريـة مسـتوى رفيعـا نسـبياً. وفـى عهـد إمبراطوريـة الصيـن(٣٨٦ - ٥٨١م) المعروفة باسـم سـلالة الشـمال، تـم تدويـن موسـيقي للأغانـي الشـعبية التـي كان لهـا مكانتهـا فـي تلـك الفتـرة، كمـا احتلـت ترجمـات أغانـي أويغـور الشـرق مكانهـا بيـن هـذة التدوينـات. والحقيقـة أنـه برغـم وجـود أغانـي كثيـرة لأويغـور الشـرق فـي هـذا العهـد، لـم يبـق منهـا إلـى يومنـا هـذا سـوى القليـل بسـبب عـدم تدويـن الكثيـر منهـا.

وتـم حفـظ بعـض تلـك الأغانـي فـي الأثـر المسـمى «نمـاذج مـن الشـعر الموسـيقي لأسـرة الشـمال».

وبقيت حزينا
امتلأ قلبي بالغم وبقيت حزينا
إذا ارتبكت فى سيرك، فكأنما سوط حصان يلهبني
أنا فوق جدران القلعة قريب منك أناصرك
بشجاعتي ومعصمك نحارب سوياً من أجل «تورا»

ومـن بيـن الأغانـي المدونـة فـي هـذا الأثـر، أغنيـة تكشـف أن نسـاء الأويغـور كانـت لديهـن منـذ القـدم شـجاعة وإقـدام، وكـن يحاربـن فـى جميع المعـارك ضـد الأعـداء مـع الرجـال جنبـا الـى جنـب.

➤ منظومة بك قولو

نجد فى نفس الأثر المذكور آنفا أن أويغور الشرق كتبوا فى بداية القرن الخامس أغنية عن أحد الأمراء الأبطال ويُسمى «بك قولو». وكان «بك قولو» زعيم أويغور الشرق، أميرا من خوغورسو، وهى إحدى قبائل الأويغور. ففى عام ٤٠٢ انهزم «طولون الأول» أمير «الآوار» على يد «طو - باكوي» حاكم دولة «طوبا» فهرب «طولون» إلى الأطراف الشمالية لصحراء مغولستان وهاجم الأويغور، فهزم «بك قولو» الآوار. لكنه انهزم بعد ذلك في الحرب التي دخلها ضد «طولون» ولجأ إلى حكومة «طوبا». وفي النهاية مات هناك ودُفن بمراسم رسمية أمر بها «طوباكوي». وهكذا كتب أويغور الشرق أغنية لإحياء ذكرى هذا الأمير، تقول الأغنية:

عندما تقول الأم أن بك قولو قادم
يكف الطفل عن بكائه بسرعة

وعندما يغني الفتيان والفتيات أثناء قطف المحصول يقولون

ياليتني شجاع مثل «بك قولو»

ثمة عادة لدى الأويغور منذ القدم وهى إبداء الاحترام لمن يتصف بالشجاعة والإقدام. وهذا ليس بالشيء الجديد، وذلك لأن الشعوب جميعها منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا تحترم وتثق في جيوشها التي تتكون من الأبطال الذين ينقذون بلادهم من الأعداء. وكان الأويغورفي العصور القديمة يحترمون وحدات الفرسان الخاصة بهم. فقد كانت تلك الوحدات تهجم على جيش العدو الكبير الذي قد يكونٍ خمسة أو عشرة أضعافهم ويهزمونه. كما أن الجيش الأويغوري الذي أُرسل لمساعدة إمبراطور طانغ على إخماد عصيان «أونلوق وصويغوم» فيما بين أعوام

٧٥٦ - ٧٦٢م لـم يتجـاوز خمسـين ألـف مقاتـل.

فـي العصـور القديمـة عندمـا كانـت الفتـاة الأويغوريـة تنتقـي زوجـاً كانـت تعطـي أهميـة لبطولتـه، وكان هـذا ناجمـاً عـن عـادة تتعلـق بـروح المحـارب وحـب الوطـن المتأصلـة فيهـم.

➤ منظومة تورا

فـى القـرن السـادس قـام واحـد مـن أويغـور الشـرق يُدعـى «خوغورسـور ألتـون» (٤٨٧ - ٥٨٧م) بكتابـة منظومـة أطلـق عليهـا اسـم «أغنيـة تـورا»، تقـول الأغنيـة:

يشق نهر الطوريين
صدر جبال چوغاي متموجاً
تقف تلك الهضبة كخيمة
يغطيها جبين السماء
سماء صافية، شديدة الزرقة
وهضاب لامتناهية، لايبدو لها حدود
وتظهر للعيان أحياناًمثل أشياء مكدسة
وتحني الأعشاب رؤوسها عند هبوب الرياح

فـي منظومـة «تـورا» تصويـر بديـع ومؤثـر لمـا تحويه الهضـاب مـن مناظر؛ فهـى تصـف جبـال «چوغـاي» التـي يكسـوها العشـب الأخضـر والتـي تتحـد أطرافهـا مـع الأفـق، وتمايـل الأعشـاب فـي هضابـه وتماوجهـا مـع هبـوب الريـاح. فقـد كان الأويغـور منـذ القـدم يرعـون الأبقـار فـي هضـاب «أوردوس» الموجـودة فـي قلـب جبـال «چوغـاي». وكانـت المراعـي الأصليـة للأويغـور توجـد فـي سـواحل «سـلانغا» وحـول أنهـار «أورخـون» و«طـولا» و«كيرولـون» التـي تغذيهـا ويضـم هـذا الـوادي مـراع غنيـة وأنهـار متدفقـة وغابـات وهضاب فسـيحة.

كتب «خوغورسور ألتون» منظومة «تورا» في القرن السادس، وكان ينبغي أن تُسمى هذه المنظومة باسم «منظومة الأويغور». خاصة أن «خوغورسور» كان يقصد بلفظ تورا الأويغور الشرقيين. وأوزان هو الاسم الحقيقي لـ «خوغورسور» لقب «خوغورسور» بهدف الإشارة إلى قبيلته، والاشتهار بلقب أسرته. وتقول بعض المعلومات التاريخيةإن «خوغورسور» كانت إحدى قبائل الأويغور العشرة في عهد سلطنة أويغور الأورخون.

واستناداً إلى هذه المعلومات التي وردت في تاريخ أسرة «جي الشمالية» والتي تتناول «خورغورسور ألتون» بالبحث، يمكننا القول إن «أوزان» كان أحد أركان الدولة. وقد كتب «خورغورسور ألتون» أغنيته باللغة الأويغورية القديمة، وبالأبجدية الأورخونية كأمر طبيعي؛ وتُرجم شعره فيما بعد الى اللغة الصينية.

بعد هجرة أويغور الشرق إلى الغرب في عام ٨٤٠م ظهرت ملحمة الهجرة، مستندة على الأحداث والوقائع التي حدثت في ذلك العصر الطويل، مع الأخذ في الاعتبار أن دولة أويغور أورخون استمرت قرنين من الزمان. وتقول الملحمة:

«... كان هناك مكان يُسمى «قوملانجو» في النقطة التى يلتقي فيها نهرا «طولا» و«سلانجا» النابعان من جبال «قره قورم». وكانت هناك شجرتان ملتصقتان، أحدهما اسمها فستق وتُشبه شجرة البق، أما الشجرة الأخرى فشجرة الدُلب وكانت شديدة الإخضرار. وكانت شجرة البق كثيفة الأغصان، أما الشجرة الثانية فكانت شجرة برية. وفي يوم من الأيام ظهر تل صغير بين هاتين الشجرتين، وأخذ يكبر يوماً بعد يوم. كان يتحرك على هذا التل ضوء يُشبه ضوء الشمعة. وجاء الأويغور أمام التل وعظموا ذلك الضوء. وكانت تأتي أصوات من داخل التل كأنها أغنية واستمر هذا كل مساء. أما الضوء الذي فوق التل فكان يشتد تدريجياً، وأخذ يُضيء مسافة ثلاثين خطوة وذات يوم فُتح باب أعلى هذا التل. وخلف هذا الباب، كانت خمس غرف مثل غرف البيت. وفي كل غرفة عرش من فضة ويعتلي تلك العروش أطفال صغار. وفي

فـم كل طفـل قـارورة يرضـع منهـا اللبـن. وعندمـا شـاهد أمـراء الأويغـور هـؤلاء الأطفـال اقتربـوا منهـم وقامـوا بتعظيمهـم. وبمجـرد أن استنشـق هـؤلاء الأطفـال الهـواء اشـتد سـاعدهم وخرجـوا مـن الغـرف. واسـتدعى الأويغـور النسـاء اللائـي قمـن بإرضاعهـم. وعندمـا تكلـم هـؤلاء الأطفـال سـألوا عـن أجدادهـم. فأشـار الأويغـور إلـى هاتيـن الشـجرتين.

نظـر الأطفـال الخمسـة إلـى الأشـجار وعظموهـا، ونَطقـت الأشـجار وتكلمـت كالإنسـان ونصحتهـم بـأن يكونـوا علـى خُلـق وتمنـت لهـم العمـر المديـد. وأبـدى الأويغـور الاحتـرام لهـؤلاء الأطفـال، واعتبروهـم مثـل الحـكام. وأطلقـوا علـى أكبرهـم اسـم «شـونقار تكيـن» والثانـي «كولچورتكيـن» والثالث «بوقـا تكيـن» والرابـع «أور تكيـن» والخامـس «بوغـو تكيـن». وقـرر الأويغـور أن يختـاروا أحـد هـؤلاء الأطفـال السـماويين ليكـون سـلطاناً عليهـم. وكان «بوغـو تكيـن» طفـلا وسـيما،ذكيا، بارعـا، ويعـرف لغـات عديـدة، لذلـك اختـاره الأويغـور ليكـون سـلطاناً عليهـم. وبعـد أن أصبـح «بوغـو تكيـن سـلطاناً عليهم، نهـض بالبـلاد مـن جديـد؛ وازداد عـدد الشـعب بشـكل سـريع. وأهـدى اللـه لـ«بوغـو تكيـن» ثلاثـة طيـور، وكانـت تلـك الطيـور تعـرف لغـات عديـدة. فكان «بوغـو تكيـن» يرسـلهم دومـا الـى جميـع أنحـاء العالـم، فتأتـى لـه بالأخبـار ومعلومـات عمـا وقـع فـي العالـم.

وذات ليلـة، بينمـا كان «السـلطان بوغـو» علـى وشـك أن ينـام فـي مرقـده تمثلـت أمامـه روح علـى شـكل فتـاة. فأوجـس فـي نفسـه خيفـة وتظاهـر بأنـه نائـم، ولـم يسـتطع أن يتفـوه بكلمـة. وفـي الليلـة التـي تلتهـا حـدث نفـس الشـيء معـه. وفـي اليـوم الثالـث قـص السـلطان «بوغـو» هـذه الواقعـة علـى رئيـس وزرائـه، وقـال أن حوريـة قادتـه إلـى داخـل جبـل يُسـمى قوتتـاغ «قوتلـو داغ»، وظـل معهـا حتـى بـزوغ الفجـر. وبعـد ذلـك تكـرر نفـس هـذا الأمـر كل ليلـة لمـدة سـبع سـنوات وسـتة أشـهر، واثنيـن وعشـرين يومـاً.

وأثنـاء حديـث السـلطان «بوغـو» مـع الحوريـة قالـت لـه: «سـيخضع لـك جميـع النـاس مـن حيـث تشـرق الشـمس إلـى مغربهـا. وعندئـذ احكـم الشـعب بالعـدل». واختفـت الحوريـة بعـد أن انتهـت مـن حديثهـا. فجمـع

السلطان «بوغو» جيشه، وعين أخاه الأكبر «شونقار تكين» على رأس جيش قوامه ثلاثمائه ألف جندي، وأرسله الى المناطق التي يعيش فيها المغول والقرغيز. كما أمد أخاه الثاني «كولچورتكين» بجيش قوامه مائة ألف مقاتل، وأرسله لملاقاة «الطانغوت». وأرسل أخيه الثالث، «بوقا تكين» إلى الصين بجيش يتكون من مائة ألف مقاتل. أما أخوه الرابع «أوارتكين» فتركه بجواره لكي يحمي أراضيهم. وفتحت هذه الجيوش التي أرسلها بلدانا كثيرة، ثم عادت إلى ساحل «أورخون» ومعها الكثير من الأسرى والغنائم. وقامت تلك الجيوش بتأسيس مدينة «أوردو باليق» في الأماكن التي فتحوها. وهكذا خضعت جميع بلدان الشرق للسلطان. وذات ليلة رأى السلطان «بوغو» رؤية غريبة في منامه. إذ رأى إنه يرتدي ملابس بيضاء، وتقدم نحوه ملاك يحمل في يده عصا بيضاء أعطاه له قطعه من الماس، وقال له: «إذا حافظت على هذا الحجر الكريم، سيتيسر لك فتح العالم كله». ورأى رئيس وزراءه نفس هذه الرؤية. وعليه نظم السلطان «بوغو» جيشه وأرسله نحو الغرب. وذهب هذا الجيش حتى تركستان؛ وشاهد هناك أنهاراً غزيرة ومراع غنية بالعشب. فتركوا قطعانهم ترعى فيهاوأسسوا مدينة بالاساغون. ثم تفرقوا بعد ذلك جماعات وتوجهوا إلى جهات مختلفة. وفي خلال عشرين عاماً فتحوا بلداناً كثيرة حتى ذهبوا إلى الأراضي التي يعيش فيه أناس بدائيون. وجاء كثير من ملوك الدول لرؤية السلطان «بوغو» وأحضروا معهم الهدايا وأبدوا احترامهم له...فصرفهم السلطان «بوغو» إلى دولهم، وعاد من «بالاساغون» الي مسقط رأسه بعد أن حقق انتصارات عظيمة.

وبعد وفاة السلطان بوغو تولى العرش أحد ابنائه... وعاصر الأويغور في تلك الأيام احداثا عجيبة. وكان الجميع في هذا الوقت وحتى الأطفال والحيوانات أيضاً سواء البرية أو المستأنسة يسمعون صوتا يردد «الهجرة.. الهجرة..». ولذلك هاجر الأويغور من أراضيهم، ولكنهم أينما حلوا كانوا يسمعون نفس الأصوات. وفي النهاية حلوا في أحد الأماكن فانقطعت الأصوات التي تردد «الهجرة.. الهجرة». وعليه شيد الأويغور في ذلك

المكان خمس قلاع، وأطلقوا عليه اسم «بشباليق».

ويتحدث المؤرخ الفارسي الجويني الذي عاش في القرن الثاني عشر، عن ملحمة هجرة الأويغور في مؤلفه «تاريخ جهانكشاي».

تتضمن الملحمة وقائع رائعة، وكان السلطان «بوغو» هو بطل الملحمة والشخصية الأسطورية. وتناولت هذه الملحمة القصيرة تاريخ أويغور الشرق بشكل أدبي.

وتستند ملحمة الهجرة في «قسم الأويغور» في «طانغ - شو» على وقائع تاريخية حقيقية. فبطل الملحمة السلطان «بوغو» كان أحد سلاطين سلطنة أويغور الأورخون، وهو من أبناء السلطان «بايانچور». واسمه الحقيقي «إلتكين» وخلال حكمه الذي استمرفي الفترة ما بين أعوام ٧٥٩ - ٧٧٩م،كان يُعرف بلقب «آي تنكرى قوت بولمش، ألتوتمش آلب قولوك بيلكه قاغان» [وتعنى إله القمر، وصاحب السعادة، والحاكم آلب بيلكه قاغان]».

ويتضح في الملحمة أن السلطان «بوغو» مكث مع الحورية سبع سنوات وستة أشهر وأثنين وعشرين يوماً، و «إنه بعد أن أقام مدينة بالاساغون، فتح بلداناً كثيرة خلال عشرين عاماً..». واذا قمنا بحساب السنوات المذكورة في الملحمة، يكون الحاصل هو الرقم عشرون.

وكان السلطان بوغو هو أحد السلاطين الأقوياء، عاش في الفترة (٧٤٥ - ٨٣٠م) في عهد صعود سلطنة أويغور الأورخون، وقد ظل في الحكم عشرين عاماً. وتوضح الملحمة أيضاً أنه كان أصغر خمسة أبناء، وتورد أسماء كل واحد منهم، والحروب التي قاموا بها. كما تذكر الملحمة اسماء أبناء السلطان «بايانچور» المذكورة في حولية أسرة «طانغ» المتعلقة بالتسلسل التاريخي للأحداث إذ تقول: «... كان لبايانچور خمسة أبناء..» وهم: «يابغو تكين» و «كولجور تكين» و«آلب كولوك» طوطوق ياغلاقار تكين» و«طون باغا» (تقول بعض المصادر إنه عم السلطان بوغو) و«بوغو تكين».

واذا قارنـا بيـن حـروب هـؤلاء الابنـاء الخمسـة والوقائـع التاريخيـة التـي ذُكـرت فـي «حوليـة أسـرة طانـغ»، نجـد أن الوقائـع المذكـورة فـي «ملحمـة الهجـرة» أحداثـاً واقعيـة.

وكمـا بينـا مـن قبـل أن الأويغـور أرسـلوا إلـى الصيـن جيشـا يضـم أكثـر مـن ألـف جنـدي لمساعدة أسـرة طانـغ إثـر عصيـان «أونلـوق» الـذي اندلـع هنـاك بيـن الأعـوام ٧٥٦ - ٧٦٢م. وبموجـب المعاهـدة الموقعـة بيـن حـكام الصيـن وسـلطان الأويغـور دخـل «يابغـو تكيـن» ابـن «بايانچـور» الصيـن بجيشـه، أمـا فـي عـام ٧٦١م فقـد جـاء السـلطان بوغـو إلـى الصيـن علـى رأس جيشـه واسـتطاع قمـع عصيـان «أونلـوق» و«صويغـوم» الـذي اسـتمر عـدة سـنوات. وحقـق «آلـب تكيـن» الابـن الآخـر للسـلطان «بوغـو» نصـراً سـاحقاً علـى جيـش التبتييـن (الطانغوتييـن فـي الملحمـة) وقوامـه مائـة ألـف جنـدي. والـذي كان يُهـدد أسـرة «طانـغ» مـن ناحيـة الغـرب فـي المنطقـة التـي تسـمى اليـوم «نينـغ - شـيا». وفـي عهـد السـلطان بوغـو خضـع القرغيـز الذيـن كانـوا يعيشـون بجـوار «ينيسـاي». واذا كانـت المصـادر الموثوقـة تقـول أن بـلاد القيرغيـز تـم فتحهـا عـام ٧٥٨م، فمـن المؤكـد علـى أيـة حـال أنـه تـم إخضاعهـا فـي عهـد «بوغـو تكيـن».

وثمـة احتمـال كبيـر أن «شـونقارتكين» الـذي ورد اسـمه فـي الملحمـة هو «يابغـو تكيـن» و«كولچـور تكيـن» هـو «كولچـور تكيـن» و«بوغـا تكيـن» هـو «طـون باغـا» و«أورتكيـن» هـو «ياغلاقارتكيـن».

تـروي الملحمـة أن السـلطان «بوغـو» شـن حربـاً فـي آسـيا الوسـطى وأسـس مدينـة «بالاسـاغون». وإذا كانـت لاتتوفـر معلومـات مؤكـدة بشـأن تأسـيس السـلطان «بوغـو» لمدينـة بالاسـاغون الموجـودة حاليـاً فـي «وادي چو» داخـل حـدود قيرغيزسـتان لكننـا نعـرف بالتأكيـد أن سـلطان دولـة أويغـور الأورخـون، «آي تنكـري - خـان» شـن حربـاً فـي آسـيا الوسـطى فـي عـام ٨١٥م وأنـه أخضـع «آل قارلـوق» و«آل توركيـش» فـي «يـدي صـو» الذيـن كانـو فـي حالـة عصيـان.

وفـي «كتابـات سـلطان الأويغـور التسـع» مـا يشـير إلـى هـذا. ويُحتمـل أن

تكون الحرب التي شنها السلطان «بوغو» في الغرب، هي نفس الحرب التي شنها السلطان «آي تنكريده كوت بولمش آلب بيلكه» في عام ٨١٥م.

وتروي الملحمة «إن الله أهدى السلطان «بوغو» ثلاثة طيور. وكانت هذه الطيور تعرف الكثير من لغات الشعوب..». رُبما يُقصد بهذه الطيور الدبلوماسين المرسلين إلى سلطان الأويغور الذين يعرفون لغات عديدة، أو السفراء الذين يتم إرسالهم إلى جميع أرجاء العالم. وتشير الملحمة في الجزء الأخير منها إلى أن أويغور الشرق هاجروا إلى الغرب لأسباب عديدة وأنهم استقروا في الوديان التي هناك (يقصد جونغاريا)، وأسسو مدينة «بش باليق».

تُعد النقوش الحجرية في عهد سلطنة أويغورالأورخون من أعظم الإرث الثقافي لأويغور الشرق. وأسفرت الجهود المهمة التي بذلها علماء أجانب بداية من أواخر القرن ١٩ وحتى الستينيات عن اكتشاف بعض أجزاء من نقوش أويغور» الأورخون» التي شكلت أكبر جزء من الآثار الأويغورية. ومع إن عدد هذه النقوش كبير جداً، فإننا سنقف فقط عند بعض منها.

١ - النقوش عن مذكرات سلطان الأويغور التسعة، وقد تم اكتشافها بين أطلال مدينة «قارا بالغاسون» عاصمة سلطنة الأويغور التي تقع على ساحل نهر «أورخون».

٢ - واكتشف العالم الفنلندي، رامستيدت في عام١٩٠٩م، نقوش عن مذكرات السلطان «بايانچور» بالقرب من بحيرة «شينه - أوسو» في ساحل نهر «سلانغا» في مغولستان.

٣ - اكتشف عالم الآثار الروسي بي. واي. فلاديميرتسوف أثناء قيامه بجولة في شمال غرب مغولستان، صخرة عليها نقوش أورخونية، بين الغابة وصخور جبل «خانغاي» الجرانيتية عند نهر «تاس». وهي الكتابة التي يرد ذكرها في المؤلفات باسم «نقوش صخرتاس».

٤ - في عام ١٩٥٧م اكتشف عالم الآثار المغولي «إس. دورجي

سورون» نقوش في وادي «تيرهين» (شمال غرب جبل خانغاي) بالقرب من بحيرة «چاغان نور» وأطلق على هذه النقوش التى اكتشفها اسم «نقوش تيرهين» نسبة إلى المكان التي اُكتشفت عنده.

والنقوش الخاصة بمذكرات «أمير أويغور الأوغوز التسعة» السلطان «بوغو» المعروف أيضا باسم «آي تنكريده قوت بولمش آلب بيلكه قاغان، المتوفي عام ٨٢١م، تتحدث عن الأعمال التي قام بها «آلب بيلكه قاغان» الذي يعد من أعظم سلاطين الأويغور. كما تحكي النقوش بشكل كبير عن الهزيمة التي لحقت بالتبت في «بش باليق» و«كوچار» و«قارا شَهَرْ» وعنٍ خروجهم من وسط آسيا (وبالتحديد من وادي تاريم وجونغاريا)، وأيضاً عن الحرب التي شنها السلطان في آسيا الوسطى، ضد «فَرْغانة» و«يدي صو» في الغرب.

ويوجد تسعة وأربعون سطراً في «النقوش الخاصة بمذكرات السلطان بايانچور» المتوفي عام ٧٤٩م. كما يوجد في «نقوش تاس» التي نقشها «بوغو قاغان بن بايانچور» عام ٧٦١م إحياءً لذكرى والده، أربعة اتجاهات (الشمال والجنوب والشرق والغرب)، وتحتوي على اثنين وعشرين سطرا. أما «نقوش تيرهين» فقد نقشها أيضا «بوٍغو قاغان» عام ٧٥٤م إحياءً لذكرى والده وتحتوي على ثلاثين سطراً. وتشتمل هذه النقوش أيضا على بعض القوانين التى شَرَعتها الدولة وحدود البلاد واجراءات قمع حركات التمرد في الدولة، فهي بصفة عامة تحكي عن جميع الأحداث التي وقعت في عهد «بايانچور» وما بعده. ويمكن القول أن سبب قيام السلطان «بوغو» بنقش كتابات «تاس» و«تيرهين» بنفسه، ليس لأنه رجل دولة عظيمة وقائدها فحسب، بل لأنه كان في الوقت ذاته كاتبا بارعا مؤهلا، مثل الكاتب «يوليغ تكين».

إن نقوش «مينغو» التي تعود لعهد سلطنة أويغور الأورخون هي نقوش مكتوبة بالحروف الذهبية التي ابتكرها الأويغور في العصور القديمة، وتحظى بأهمية علمية كبيرة. إذ أن هذه الأحجار تمدنا بمعلومات مهمة عن تاريخ سلطنة الأويغور وآدابها وبنية الدولة. وهذه النقوش سُطِرت

بأبجدية «يني ساي الأورخونية» التي تُشبه نقوش» الكوك تورك» تماماً.

كانت الموسيقى والرقص عند الأويغور في مستوى متقدم الى حد كبير. وقد انتشرت في الجزء الشرقي للسلطنة الموسيقى السائدة في الجزء الغربي من السلطنة، وخاصة ً في «كاشْغَر» و«كوچار» و«طورفان»، وكانت الموسيقى تُعزَف باستمرار في مقر السلطان. وكان الشعب أيضا يحب الرقص والموسيقى. ولم يكن فن الرقص والموسيقى أقل تقدماً من هذا الفن عند الصينيين. حتى قيل أن الصينين حاولوا أن يلحقوا بالأويغور في هذا الفن.

وكان للموسيقى الأويغورية تأثير كبير على الموسيقى الصينية، حتى أن المقام الأويغوري حَظِي بمكانة مهمة بين المقامات الموسيقية السبع التي كانت تُعزف في قصر الأسرة السلطانية في القرن السابع. وسُميت هذه المقامات المستخدمة في القصر الصيني على النحو التالي:

«موسيقى ين» و«موسيقى لو - يانج» الغربية، وموسيقى هند وموسيقى كوري، وموسيقى كوچار وموسيقى بُخارى وموسيقى كاشْغَر وموسيقى سَمَرقَنْد وموسيقى طورفان. وكانت «موسيقى ين» هي الموسيقى القومية للصين. وكانت موسيقى الهند وكوريا تُعد موسيقى أجنبية؛ أما الموسيقات الست الآخرى فتعود إلى الأويغور وإلى شعوب آسيا الوسطى جيرانهم.

وعندما نأتي للحديث عن فن الرقص لدى الأويغور ينبغي أنٍ نؤكد على أنه لم يكن مجرد رقص، بل على العكس لعب دوراً مهماً خلال مراسم الاستقبال الدبلوماسية. فقد كان الحكام والسفراء الأجانب الذين يأتون لزيارة سلطنة الأويغور، يضطرون قبل الدخول لملاقاة السلطان إلى الإنحناء احتراماً أمام رايات زرقاء عليها رأس ذئب باللون الذهبي، مغروسة أمام مدخل مقر السلطان، والرقص وفقاً للأوصول الأويغورية، والعبور من خلال دخان يتصاعد من مدخنة حجرية بحيث يتم تبخيرهم. وكان ممثلو الدول الأجنبية الذين لا يراعون واحدة من هذه القواعد، يسببون مشاكل كبيرة

لدولهـم. فعندمـا رفـض أمير أسـرة طانـغ «لـي - شـيه» الرقـص وفـق الأصـول الأويغوريـة فـي مقـر سـلطان الأويغور«بوغـو» ممـا أغضـب الأويغـور، فانهالـوا علـى بعـض أركان الدولـة الذيـن كانـوا بصحبـة الأميـر ضربـاً بالعصـا.

وقـد أثـر فـن الموسـيقى والرقـص الأويغـوري فـي عهـد سـلطنة الأويغـور كثيـراً علـى الصينييـن لدرجـة أن بعـض شـعراء «طانـغ» نظمـوا أشـعاراً فـي هـذا الصـدد. فعلـى سـبيل المثـال، يقـول «وانجتشـي - يـان» فـي شـعره المسـمى بــ «السـفر إلـى ليانـج - تشـو» مـا يلـي:

عندما يُسمع صياح الديكة، فجر كل صباح
تبدأ ربابات «خو» [٩١] بالعزف في كل منزل في لو - يانج

أمـا الشـاعر «يـوان يانـج» فيقـول فـي أحـد أبياتـه الشـعرية مـا يلـي:

يتسلى الشعب في «ليانج - تشو» كل ليلة
بالإصغاء لرسائل كوچار الجميلة

وهكذا يقول نفس الشاعر في بيت آخر:

صار كثير من النساء والفتيات يرتدين ملابس أويغورية
وأصبحن بارعات في العزف على الربابة مثل الأويغور

وتوضـح الشـاعرة «هـوا رو - إي» فـي إحـدى قصائدهـا أن كثيـراً مـن النـاس، وكذلـك الفتيـات الجميـلات، كانـوا يرتـدون الملابـس الأويغوريـة فـي أيـام العيـد التـي يتـم الاحتفـال بهـا فـي شـهر ديسـمبر، وينشـدون الأغنيـة التاليـة أثنـاء تواجدهـم فـي قصـر أسـرة «طانـغ»:

نحيلات الخصر، رقيقات، يتبخترن بدلال
في ملابس أويغورية، وعلى متن خيول أويغورية[٩٢]

وهـذه المعلومـات تُبيـن لنـا أن الصينييـن لـم يأخـذوا مـن الأويغورييـن فـن الموسـيقى والرقـص فقـط، بـل أخـذوا أيضـاً عنهـم طريقـة لبسـهم.

ارتفـع مسـتوى معيشـة الشـعب فـي عهـد سـلطنة الأويغـور نتيجـة للازدهـار الاقتصـادي. وعندمـا تطـورت العلاقـات التجاريـة ونمـا الإنتـاج الزراعـي والصناعـي أُقيمـت المُـدن. فأقـام السـلطان «بايانچـور» مدينـة «بـاي باليـق» - وتعنـي مدينـة مزدهـرة - علـى سـاحل نهـر «سـلانغا» واسـتقدم الخبـراء مـن «سِـمَرْقَنْد» لتأسيسـها. أمـا فـي عهـد السـلطان «بوغـو» فقـد أُقيمـت مُـدن عديـدة علـى سـواحل أورخـون مثـل «قـارا بالغاسـون» و«أويغـور باليـق» و«باليـق» [٩٣]. كمـا أمـر السـلطان«بوغو» بتشـييد القلعـة الخلابـة، الرائعـة المزخرفـة بالنقـوش الملونـة مـن أجـل زوجاتـه[٩٤]. كمـا أقيمـت مدينـة «خاتونباليـق» علـى سـاحل نهـر «إيرسـن» فـي منطقـة «نينـغ - شـيا» الحالية. وكانـت مدينـة «قـارا بالغاسـون» الكبيـرة تقـع علـى سـاحلٍ نهـر أورخـون عنـد جبـل «أوتوكـون»، شـمال غـرب جبـل «هانغـاي». ووفقـاً للبحـوث التـي أجراهـا علمـاء الآثـار السـوفيت، نجـد أن مسـاحة مدينـة «قـارا بالغاسـون» كانـت تبلـغ ٢٥ كـم مربـع، أمـا طـول السـور المحيـط بهـا فيبلـغ ٢٠ كـم. وارتفـاع السـور الـذي يحمـي المدينـة أكثـر مـن عشـرة أمتار(فـي حيـن كانٍ ارتفـاع سـور الصيـن ثمانيـة أمتـار، أمـا ارتفـاع حصونهـا فيبلـغ ١٣ متـراً. والمدينـة مُحاطـة بالحدائـق والبسـاتين. وهنـاك قـلاع داخـل المدينـة يبلـغ إرتفـاع أسـوارها ١٤ متـراً. ويمكـن أن نفهـم مـن هـذه المعلومـات كيـف تـم تشـييد هـذه الأبنيـة لمراقبـة أطـراف المدينـة وحمايتهـا. وتقـول كثيـر مـن المعلومـات المختلفـة التـي وصلـت إلـى يومنـا هـذا إن طـول المدينـة كان يبلـغ ٢٤ كـم. وظلـت مدينـة «قـارا بالغاسـون» عاصمـة الأويغـور منـذ القـرن الثامـن وحتـى منتصـف القـرن التاسـع، وإن كانـت هـذه المدينـة أصغـر مـن مدينـة «جانـغ - آن» عاصمـة إمبراطوريـة طانـغ، فهـى تعـد ثانـي أكبـر مـدن

آسيا. وكان طول سور مدينة «تشانج - آن» يبلغ ٣٥ كم.

كانت قارا بالغاسون عاصمة السلطنة مركز الدولة الاقتصادي والسياسي والثقافي. ولذلك كان التجار والدبلوماسيون الأجانب يفدون إليها من الشرق والغرب؛ فقد كانت المدينة بمثابة جسر ثقافي بين الشرق والغرب.

ويقول الكاتب العربي «القاسم بن خرداذبة» في كتابه «المسالك والممالك» الذي كتبه عام ٨٤٦م عن قارا بالغاسون:

«إن سكان عاصمة سلطنة الأويغور(يقصد قارا بالغاسون)، يتشكلون من الأتراك. ويعيش السلطان في هذه المدينة العظيمة ذات الإثنى عشر بابا. وسكان المدينة يعتنقون المانوية. ويعيش سلطان الأوغوز التسعة في سرادق ذهبي مبهر مقام على أعلى ربوة في العاصمة، ويبدو للعين من على بعد خمسة فراسخ (الفرسخ يساوي ٧ كم تقريباً)، ويقع هذا السرادق أعلى قمة في العاصمة، ويتسع لمائة شخص».

كانت معتقدات الأويغور الدينية مختلفة. فأويغور الشرق إعتنقوا الشامانية، في حين أن أويغور الغرب كانوا بوذيين. وكانت السماء هي الإله الأعظم في الشامانية القديمة وهم يؤمنون بأن إله السماء يعيش في قصر فضي في السماء السابعة بينما يعيش الإنسان على الأرض. وبعد أن يموت الشخص السيء يدخل جهنم؛ وإذا أراد الإنسان أن يرتقي للسماء يمكنه ذلك بمساعدة الشامانيين. والشامانية عقيدة متعددة الآلهة، وأعظم هذه الآلهة وأفضلها هو الإله الموجود في «السماء الزرقاء». وعدا ذلك الإله فهناك إله الماء وإله الأرض، وحتى الإله أوماي الذي يحمي الأطفال والنساء. وطبقاً لتعاليم الشامانية كان الأويغور عند خروجهم للحرب يأتون بجواد أبيض ويضعونه في مقدمة الجيش، ويضعون على ظهره حشية مُخمَلية حمراء لها جرس ذهبي. وتقول رواية أخرى إن روح الإله «صولدي» كانت تجلس فوق هذا الجواد، وتقول الرواية الأخرى إن إله النصر «مانيس» كان يعتلي هذا الجواد. ولذلك عندما ثار القيرغيز في عام ٨٤٠م على سلطنة أويغور الأورخون ودمروها، قاموا بمنح لقب «مانيس» لأُمرائِهم تخليداً لتلك الواقعة.

وبينما كان السلطان «بوغو» عائداً لبلده بعد أن نجح في قمع تمرد أونلوق في عام ٧٦٢م قابل أربعة من رهبان المانوية في مدينة «لو - يانج» فأحضرهم معه. وفيما بعد تأثر بهم وتخلى عن الشامانية، واعتنق المانوية، ومنذ ذلك الحين أخذت المانوية فى الانتشار بين أويغور الشرق. وكانت المانوية قبل ذلك التاريخ خاصة من القرن الرابع إلى القرن الخامس، منتشرة في المناطق الجنوبية لجبال طانري في (كاشْغَر). ولقد تصادمت المانوية مع الشامانية فترةً من الزمن، ولكنها انتصرت في النهاية بمساندة السلطان «بوغو» وأصبحت العقيدة الرسمية للبلاد.

ومؤسس المانوية رجل فارسي يُدعى «ماني». وهذه العقيدة عبارة عن مزيج من الوثنية والبوذية والمسيحية، وذات نظام إيماني مُعقد نوعاً ما؛ أما أساسها فقائم على الصراع بين عنصري النور والظلام. وانتشرت هذه العقيدة في فارسٍ وسوريا وغيرها من الدولِ، وعندما بدأت المانوية تضر بالمسيحية كثيراً، تم إعدام «ماني» شنقاً في القسطنطينية في عام ٢٧٠م. وعليه فر رجال العقيدة المانوية نحو آسيا الوسطى خشية تعقبهم، وعندما وجدوا المناخ الملائم شرعوا في نشر عقيدتهم هناك.

وفي القرن الخامس نظم مانويون من الأويغور قصيدة بعنوان «الضريح المُقدس». وبعد أن ترسخت المانوية بين الأويغور، وأصبحت العقيدة الرسمية للبلاد وقد اندس بعض الرهبان المانويين بين مستشاري سلطان الأويغور، ولعبوا دوراً مهماً للغاية وتدخلوا في شئون الدولة. كما ذهب الدعاة المانويون الذين اشتغلو بالتجارة إلى الصين وأخذوا ينشرون عقيدتهم هناك. ولم يكن مجال الدعوة مقصوراً على وادي «هوانج - هو» بل نجحوا أيضاً بعد فترة من الزمن في نشر عقيدتهم في وادي «يانج - تسه». وأسس المانويون الأويغور المعابد في مُدن «تشانج - آن» و«لو - يانج» و«تشن - تشو» و«يان - تشو» و«هوانج - تشو».

كان للأويغور آنذاك عادات وتقاليد خاصة بهم. فكانوا مولعين برؤية البرق؛ فعندما يبرق البرق يقومون برمي السهام نحو السماء، ثم يتركون

المكان الذي سقط فيه البرق. ويقومون بتغذية جيادهم في الربيع حتى تسمن، ثم يعودون أدراجهم إلى نفس المكان الذي سقط فيه البرق، ويقومون بدفن شاة هناك، ويثبتون فوقها سكين ويشعلون المشاعل. ثم تشرع النساء في تلاوة الأدعية، ويمتطي الرجال الخيول ثم يدورون عدة دورات حول النقطة التي سقط فيها البرق. وأخيراً يقومون بقطع غصن صغير من أغصان الصفصاف، ويدفنونه في الأرض، ثم يسكبون حليب الفرس المخمر على طرف الغصن المقطوع.. وتعقد النساء شعورهن كالقبعة حول رؤوسهن ثم يتركونه ينسدل على الجانبين..» [٩٥]

وعند وفاة أحد الأويغور كان يتم دفنه في وسط القبرِ تماماً. ويضعون في يده سهما وقوسا، ويُعَلِقون على خصره سيفاً، ويضعون بجانبه حربة٩٦. وكان أقارب الموتى يذبحون مقدارا كبيرا من البقر والخيل، ويُكدسون الذبائح أمام الخيام، ثم في النهاية يعلنون الحداد. فتقوم النساء والرجال بجرح أجزاء متفرقة من أجسادهم بسكين، وتسيل دماؤهم، وينخرطون في بكاء مستمر.

وكانت تقاليد الزفاف لدى أويغور الشرق مثيرة إلى حد ما. وتجلت تلك التقاليد الأويغورية كلها في مراسم زفاف سلطان الأويغور» تشونج - تي» على الأميرة الصينية «طاي - هو» في عام ٨٢١م في مدينة «قارا بالغاسون».

وثمة فرق بين زفاف أغنياء القوم وزفاف الأشخاص العاديين. فقبل الزفاف يقوم الشخص العادي بتحديد عدد الأبقار والخيول التي سيقدمها كمهر للعروس؛ وبعد الإتفاق على المهر يشرع على الفور في التحضير للزفاف. وكان أقارب العريس يُحضرون الخيول لأقارب العرُوس، ويضعونها في حظيرة ويختار أهلِ العروس ما يعجبهم منها. والحصان الذي يتم اختياره يعزلونه بعيداً عن باقي الجياد، ثم ينادي صاحب القطيع الخيول بأصوات متقطعة فيتجمعون عند الحافة. والشخص الذي يدخل الحظيرة وينجح في إخراج الحصان المختار إلى الخارج بدون أن يسقط من على ظهره يكون هذا الحصان من نصيبه. واذا سقط من

على ظهر الحصان يحق له اختيار حصان آخر، وينتهي هذا التقليد عندما يختار كل واحد من الموجودين هناك من طرف العروس جوادا لنفسه.. وفي يوم الزفاف يقوم الشباب بتقديم لبن الفرس المخمورلحوم الضأن لضيوفهِم. وبينما يتربع المدعوون إلى بيت الزفاف من جانب العروس حول منضدة،لايتم التفرقة بين غني وفقير من هؤلاء المدعوين. ثم يجلس الضيوف بعد ذلك أمام الخيمة على بساط من لُبّاد. وفي الغالب كانت الوليمة تستمر طوال النهار، ومن يريد الاستمرار في تناول الشراب كان يمكث طوال الليل. وفي اليوم التالي تذهب الفتاة لبيت أسرتها الأصلية. ثم يأتي العريس إلى بيت أسرة العروس ومعه قطيع من الخيول؛ فتقوم أسرة العروس باختيار ما يروقها من خيول هذا القطيع. وأهل العروس وأشقاؤها وشقيقاتها برغم إدراكهم إنها سوف ترحل عن المنزل وتذهب إلى بيت زوجها، كانوا يكتمون حزنهم ولا يجعلونها تشعر بشيء.» [٩٧]

وهذه عادات وتقاليد دأب عليها أويغور الشرق الرعاة في حفلات الزفاف التي كانوا يُقِيمونها في المراعي.

شجرة النسب

➤ **ملوك الهون**

➤ **قبل الميلاد**

١ - جونغوي	١٨٠٠ أقدم الحكام الذين ذكرتهم المصادر التاريخية وهو حاكم مملكة الهون القديمة وعاش حتى ٣٨٠٠ق.م).
٢ - ؟؟ تنريقوت	٢٧٠ - ٢٤٠ (لا نعرف اسمه تماما).
٣ - طومان	٢٤٠ - ٢١٠ ق.م (مته)

٤ - باتور	(٢١٠ - ١٧٤) ق.م (هو - ته)
٥ - كوك - خان	(١٧٤ - ١٦١)ق.م (لاو - شانغ)
٦ - كون - خان	١٦١ - ١٢٦ ق.م (كون - حبن)
٧ - ايلجسي	١٢٦ - ١١٤ ق.م (ايجيح - حسيا)
٨ - أو - وي	١١٤ - ١٠٥ ق.م
٩ - اويلشر	١٠٥ - ١٠٢ ق.م (و - صحيح -لو)
١٠ - قو - لي غو	١٠٢ - ١٠١ ق.م (هو - لي - هو)
١١ - كو تيغو	١٠١ - ٩٦ ق.م (جو - تي - هو)
١٢ - غو - لي - قو	٩٦ - ٨٥ ق.م (جو - تي - هو)
١٣ - غوياندى	٨٥ - ٦٨ ق.م (هو - يا نتي)
١٤ - شولويقانقوي	٦٨ - ٦٠ق.م (هو - لو جوان جو)
١٥ - اوينقوتي	٦٠ - ٥٨ ق.م (و ين جو تي)
١٦ قوغوشار (هو - هي -بي)	٥٨ - ٣٨ ق.م (هو - خان - ياه)
١٧ - قو تيو شين	٣٨ - ٣١ ق.م (جي - جي)
١٨ - فوجو لونوتي	٣١ - ٢٠ ق.م (فو - جو - لي - جو - تي)
١٩ - شوجنتي	٢٠ - ١٢ ق.م (صو - هيسورجو - تي)
٢٠ - قيانوتى	١٢ - ٨ ق.م (جو - يا - حو - تي)
٢١ - اوجيلونوتي	٨ق.م - ١٣ بعد الميلاد (صو - حو - ليو)
٢٢ - اولونوتي	١٣ - ١٨م (هين)
٢٣ - غودورارشيداغانوتي	١٨ - ٢١م (يو)
٢٤ - اوداتقو	٢١ - ٤٦م (و - تي - تيهو)

● ملوك الهون الشرقية

بعد الميلاد

٢٥ - باي	٤٨ - ٥٦م (بي الثاني،هو - خان - ياه)
٢٦ - جو بو نوتي	٥٦ - ٥٧ (مو)
٢٧ - ايلغه اولوتي	٥٧ - ٥٩ (خان)
٢٨ - شيتنونس سو يغوتي	٥٩ - ٦٣ (ني)
٢٩ - قوجي قيليدي	٦٣ - ؟ (صو)
٣٠ - غوشي شيصو قوتي	٦٣ - ٨٥ (جانغ)
٣١ - الطو	٨٥ - ٨٨ (حصوان)
٣٢ - شولان شيش قوني	٨٨ - ٩٣ (طون - نو - هو)
٣٣ - ارقو	٩٣ - ٩٤ (انا –جو)
٣٤ - تندو قوتي	٩٤ - ٩٨ (صحيح - فاي)
٣٥ - وانجي شيصو قوتي	٩٨ - ١٢٤ (تخان)
٣٦ - اوجيقو شيصو قوتي	١٢٤ - ١٢٨ (با)
٣٧ - قوتينو شيصو قوتي	١٢٨ - ١٤٠ (؟)
	وفي عام ١٤ انتحر تنكري كوت قوتينو شيصو قوتي وبقي العرش فارغا دون ملك في العام ١٤٠-١٤٣.
٣٨ - كورانو شيصو قوتي	١٤٣ - ١٤٧ (ي - و - لو - جو)
٣٩ - ايللين شيصو قوتي	١٤٧ - ١٧٢ (؟)
٤٠ - اوتينو شيصو قوتي	١٧٢ - ١٧٩ (؟)
٤١ - غوجين	١٤٩ - ١٨٨

٤٢ - قانقوي	١٨٨ - ١٩٥
٤٣ - فيز شيصو قوتي	
٤٤ - غوجو خان	١٩٥ - ٢١٦

● ملوك الهون الغربية

٤٥ - بانو	٤٨ - ٨٣ (بونو)
٤٦ - صانمولو اوطنري	٨٣ - ٨٤
٤٧ - ألوغ	٨٤ - ٨٩
٤٨ - ملك الشمال	٨٩ - ٩١ (لا يوجد له اسم واحد)
٤٩ - ايل تكين	٩١ - ٩٣
٥٠ - بانغو	٩٣ - ١١٨

وبداية من هذا التاريخ لم يتم تحديد اسماء الهون الغربيين.

● نسب أمراء أويصون

قبل الميلاد

١ -ناندومي	١٩٧ - ؟ ق.م
٢ - راجومي	١٩٧ - ١٠٤
٣ - قونشومي	١٠١ - ٩٣
٤ - أونغومي	٩٣ - ٦٠
٥ - ني - مي	٦٠ - ٥٣
٦ - اوغوت	٥٣ - ٣٣
٧ - يان غو مي	٥٣ - ٥١ (ولدته احدى الاميرات الصينيات)
٨ - شين –مي	٥١ - ٣٣ (هو ابن جو مي)
٩ - جي - صو - مي	٣٣ - ١٦ ق.م

١٠ - إل قو - مي ١٦ - ١٠م

● **دفتر نسب السايبلار**

ملوك امبراطورية سيانبي (بعد الميلاد)

١ - تامشيغوي ١٤٨ - ١٨١م

٢ - غوران ١٨١ - ٢١٦

٣ - قويطو ٢١٦ - ٢٣٣

٤ - بودوقين ٢١٦ - ٢٣٣ (كانت فترة حكمه تقاسمها مع كو - صو)

٥ - قيبنين ٢٣٣ - ٢٣٥

● **قادة (حكام طوبا سايبى)**

١ - قي-بان ٢٣٥ - ٢٦١

٢ - ليوي ٢٦١ - ٢٧٧

٣ - لفو - جاو - فو ٢٧٧ - ٢٩٧ (استمر هؤلاء القادة الثلاثة على العرش لمدة عشرين عام)

٤ - او - تا (بي - طو) ٢٩٧ - ٣١٠

٥ - بي - لو ٣١٠ - ٣١٦

٦ - لونغ وينغ ٣١٠ - ٣١٦ (الاثنان حكموا في نفس الفترة)

٧ - ي لو ٣١٦ - ٣٢٥

٨ - غونو ٣٢٥ - ٣٣٠

٩ - ق - قي نا ٣٣٠ - ٣٣٥

١٠ - يي خوي	٣٣٥ - ٣٣٧
١١ - ق - قي نا	٣٣٧ - ٣٣٨ (امسك بالحكم مرتين)
١٢ - يي خوي	٣٣٨ - ٣٧٨ (مثله)
١٣ - تكين	٣٧٨ - ٣٨٠
١٤ - فوكين	٣٨٠ - ٣٨٦
١٥ - كي- بي	٣٨٦ - ٣٩٤

● ملوك دولة طوبا

١ - طو باغوي	٣٨٦ - ٤٠٩
٢ - طو با سي	٤٠٩ - ٤٢٣
٣ - طو - با تو	٤٢٣ - ٤٥٢
٤ - طو با يو	٤٥٢ -......
٥ - طو با زي	٤٥٢ - ٤٦٥
٦ - طو با خون	٤٦٥ -...

● ملوك الاوار Avar

بعد الميلاد

١ - طولونالأول	٣٩٤ - ٤١٠م
٢ - خو لي -و	٤١٠ - ٤١٤
٣ - طا - طان	٤١٤ - ٤٢٩
٤ - او -تي	٤٢٩ - ٤٤٤
٥ - طوغاجين	٤٤٤ - ٤٦٤
٦ - اوجين	٤٦٤ - ٤٨٥

٧ - طولون الثاني	٤٨٥ - ٤٩٢
٨ - ناغاي	٤٩٢ - ٥٠٦
٩ - طوكخان	٥٠٦ - ٥٠٨
١٠ - جو نو	٥٠٨ - ٥٢٠
١١ - بير همان	٥٢٠ - ٥٢١
١٢ - ايا ناغاي	٥٢١ - ٥٥٢
١٣ - طو با	٥٥٢ - ٥٥٣
١٤ - تينغ هو	٥٥٣ - ٥٥٣
١٥ - قوت	٥٥٣ - ٥٥٣
١٦ - طانغ - شوتز	٥٥٣ - ٥٥٥
١٧ - يانلوجين	٥٥٣ - ؟

● ملوك الأويغور

(الدول الغربية ذات العربات العالية)

١ - اي اوجرو	٤٨٧ - ٥٠٨ م
٢ - باريان	٥٠٨ - ٥١٠
٣ - باتور	٥١٠ - ٥١٦
٤ - ايل - بك	٥١٦ - ٥٢٠
٥ - يو -قو	٥٢٠ - ٥٣٧
٦ - بكجي	٥٣٧ - ٥٤١

● ملوك الترك

١ - طومان	٥٥٢ - ٥٥٣م
٢ - قراخان	٥٥٣ - ٥٥٤

٣ - موقانخان	٥٥٤ - ٥٧٤
٤ - طاوارخان	٥٧٤ - ٥٨١
٥ - سوارخان	٥٨١ - ٥٨٧
٦ - جور باغا	٥٨٧ - ٥٨٨
٧ - طونغ توران	٥٨٨ - ٦٠٠
٨ - كي مين توره	٦٠٠ - ٦٠٣

● سلاطين الترك الشرقيين

١ - كي مين طوره	٦٠٣ - ٦٠٩ م
٢ - سيوار	٦٠٩ - ٦١٩
٣ - جولك	٦١٩ - ٦٢١
٤ - قره خان	٦٢١ - ٦٣٠
٥ - صيرباقاغان	٦٣٩ - ٦٤٦بداية من هذا الملك إلى ملك طوجي كانت الملوك عملاء
٦ - جابي	٦٤٦ - ٦٤٧
٧ - ابن طولو	٦٤٧ - ٦٥٣
٨ - جينجو يابغو	٦٥٣ - ٦٥٩
٩ - أسينا طورجي	٦٥٩ - ٦٧٦
١٠ - طوجي	٦٧٦ - ٦٧٨
١١ - أسينا نيوزق	٦٧٩ - ٦٨٠ في عهده نال جميع الاتراك الشرق استقلالهم التام.
١٢ - أسيناإنان	٦٨٠ - ٦٨١

١٣ - اسبينا قوتلق	٦٨٢ - ٦٩٢
١٤ - قابغان	٦٨٢ - ٦٩٢
١٥ - بيلكه	٦٩٢ - ٧١٦
١٦ - أسينابيلكه	٧٣٤ - ٧٣٩
١٧ - بيلكهقوتلق	٧٣٩ - ٧٤١
١٨ - بان كول	٧٤٢ - ٧٤٢
١٩ - صوين	٧٤٢ - ٧٤٢
٢٠ - اوزميش	٧٤٢ - ٧٤٤
٢١ - بولمش	٧٤٤ - ٧٤٥

● سلاطين الترك الغربيين

١ - استمي سلطان	٥٥٢ - ٥٧٢م
٢ - بيلكه طاردو سلطان	٥٦٧ - ٦٠٠
٣ - ابا سلطان	٥٧٦ - ٥٩٣ (بالمشاركة)
٤ - ابينال سلطان	٥٩٣ - ٦٠٠
٥ - جولو سلطان	٦٠٠ - ٦١١
٦ - شغوي سلطان	٦١١ - ٦١٨
٧ - طون يابغو سلطان	٦١٨ - ٦٣٠
٨ - سي يابغوسلطان	٦٣٠ - ٦٣٣
٩ - باغاشا طوليس سلطان	٦٣٣ - ٦٣٤
١٠ - ايشبارا تبرش طونغ	٦٣٤ - ٦٣٩
١١ - ابي طولو سلطان	٦٣٩ - ٦٥١
١٢ - أسينا الب سلطان	٦٥١ - ٦٥٨

١٣ - أسينا ميشه	٦٥٨ - ٦٦٢
١٤ - أسينا بوركين	٦٦٢ - ٦٦٦
١٥ - أسينا طورجي	٦٦٦ - ٦٧١
١٦ - أسينا نزوك بكه	٦٧٩ - ٦٨٠
١٧ - أسينا يالجين	٦٨٦ - ٦٩٣
١٨ - أسينا هوجيلو	٦٨٦ - ٦٩٠
١٩ - أسينا قادو	٦٩٩ - ٧٠٤
٢٠ - أسينا شان	٧٠٤ - ٧١١
٢١ - اوجلي	٧٠٠ - ٧١٠
٢٢ - صو - كو	٧١٠ - ٧١٨
٢٣ - صو غي	٧١٨ - ٧٣٨
٢٤ - أسينا اون اوق سلطان	٧٣٨ - ٧٤٢

● سلاطين أويغور أورخون

١ - تكين اركين	٦٠٥ -.... م
٢ - بو صا	٦٤٦ - ؟
٣ - توميد	٦٤٦ - ٦٤٨
٤ - بايان	٦٤٨ - ٦٦١
٥ - باز خان	٦٦١ - ٦٨١
٦ - توكوجي	٦٨١ - ٧١٥
٧ - اوتي بكة	٧١٥ - ٧١٩
٨ - جين زون	٧١٩ - ؟
٩ - اوتينان	٧٢٧ - ؟

١٠ - غو شو	٧٢٧ - ؟
١١ - اتيميش بيلكة	٧٤٢ - ٧٤٧ قوتلوقبيلكه سلطان
١٢ - بايان جور	٧٤٧ - ٧٥٩» تنكري دة بولموش ايل توتموش بيلكه سلطان
١٣ - إلتكن	٧٥٩ - ٧٧٩
١٤ - تون باغا	٧٧٩ - ٧٨٩
١٥ - طاراس	٧٧٩ - ٧٩٠
١٦ - آيجور	٧٩٠ - ٧٩٥
١٧ - قوتلك	٧٩٥ - ٨٠٥
١٨ -	٨٠٥ - ٨٠٨ (ايا تنكري دة كوت بولموش كوتلك بيلكه سلطان)
١٩ -	٨٠٨ - ٨٢١ (ايا تنكري دة كوت بولموش الب بيلكه سلطان)
٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٤	(كون تنكري دة اولوغ بولموش كوتج كوچلك بيلكه سلطان)
٢١ - خازر تكين	٨٢٤ - ٨٣٢ (آي تنكري دة كوت بولموش بيلكه سلطان)

٢٢ - هو تكين	٨٣٢ - ٨٣٩ (تنكري دة كوت بولموش كوجلك بيلكه سلطان)
٢٣ - كيجك تكين	٨٣٩ - ٨٤٠
٢٤ - اوجي تكين	
٢٥ - اينان تكين	٨٤٥ - ٨٤٦

القسم الثانى : القراخانيون

الفصل التاسع : آسيا الوسطى قبل الدولة القراخانية الأويغورية

الخصائص الطبيعية

تعتبر آسيا الوسطى مركز قارة آسيا أكبر قارة في شرق نصف الكرة الشمالي، وتنقسم إلى أربعة أقسام هى الغرب والشرق والوسط وجنوب شرق آسيا. ومساحتها ٤٤ مليون كم٢ وهي تشكل ٣٠ ٪ من مساحة العالم.

وتنقسم آسيا الوسطى إلى قسمين هما؛ غرب شرق آسيا وشرق غرب آسيا. وتشتمل آسيا الوسطى على وادي «جونغاريا» وواحة «تاريم»، وتركستان الغربية وتضم حالياً قازاقستان، وأوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان وقسم من أفغانستان. والمساحة الكلية لآسيا الوسطى ٥ مليون و٧٥٢ ألف كم وتمثل ٧/١ مساحة قارة آسيا. والخصائص الطبيعية للمنطقة متنوعة؛ فتتكون من الجبال والأنهار والبحيرات والغابات والمراعي والسهول والصحارى.

وتقع جبال طانرى في شمال وادي تاريم وجبال «آلتون طاغ» و«قارانلق» في جنوبه، وقراقورم في الجنوب الغربي منه، و«قيزيل يورت» و«كوكجال» في غربه. أما في وسط الوادي تماما فتمتد صحراء «تكلامكان- Takla - Makan» المشهورة فى كل الدنيا.

تمتد جبال «طانری» من الشرق للغرب لمسافة ٢٥٠٠ كيلو متر وتفصل «وادي تاريم» عن «جونغاريا». أما «جونغاريا» فتقع بين جبال «آلطاي» وجبال «طانری». وتقع جبال آلطاي في شمال جونغوريا، وجبال طانری في جنوبها. وتمتد جبال طانری من الشمال للجنوب لحوالي ٢٥٠ -٣٠٠ كيلو متر. ويبلغ ارتفاع قمة «تيمور» ٧٤٣٥ مترا، أما قمة «خان - طانری» فتبلغ ٦٩٩٥ مترا. وبالنسبة للأنهار في آسيا الوسطى فهي أنهار: «سيرداريا»، و«چو»، و«إيلي»، و«آقصو»، و«قاراشَهَر». وهذه الأنهار تكونت بفعل مياه جليد جبال طانری. وتتخلل جبال «طانری» سهول «فَرْغانة» و«قاراشَهَر» و«طورفان» و«وادي إيلي». وفي السفوح الشمالية لذات الجبال تقع غابات «قره آغاچ»، و«آقچام»، أما في جنوبها فتوجد المراعي الجبلية. ومن غرب جبال «طانری» حتى المناطق الداخلية عبارة عن قيرغيزستان الحالية، وفی شرقها تقع «قانصو».

وتحيط جبال آلتآی التی يبلغ ارتفاعها ٧ آلآف مترا بجنوب وادی فَرْغانة.. فتحوط هذه الجبال التی تمتد حتی أراضي تاجيكستان وقيرغستان، وادي فَرْغانة من ثلاث جهات، باستثناء ناحية الغرب. ويقسم نهر «سرداريا» وادي فَرْغانة إلى قسمين. وتحوط الجبال طاجيكستان وقرغيزستان. ويتدفق نهر «نارين» قرغيرستان من الغرب إلى الشرق فيقسمها إلى قسمين.

وتوجد في أوزبكستان وتركمانستان وقازاقستان جبال شاهقة وفي الغرب من تركمانستان بالقرب من بحر الخزر، تمتد جبال «بالقان» العالية، ويصل ارتفاعها إلى ١٦٣٤ مترا فوق سطح البحر. ويتكئ طرف جبال «طارباغاتای» الممتد في شرق قازاقستان على «جونغاريا».

وجبال «آلطاي» هي واحدة من الجبال الكبيرة في وسط آسيا. وكلمة الآلطاي Altay تعني في اللغة التركية القديمة (الذهب). وهذ الجبال تقع فی القسم الشمالي لجبال جونغاريا في جمهورية منغوليا (مغولستان). وتمتد فی اتجاه الشمال الغربی حتی حدود الاتحاد

السوفيتي القديمة. وتبلغ من الشرق للغرب ألفى كيلو متر.

وأكثر بقاع جبال آلطاي بسطة هى «بلوخه»، وتقع في منطقة الاتحاد السوفيتي القديم، على ارتفاع ٤٥٠٠ مترا فوق مستوى سطح البحر. والمساحات المغطاة بالثلوج في هذه الجبال كثيرة وتبلغ المساحة الكلية المغطاة بالثلوج ثمانمائة كيلو مترا مربعا. ومنها سهوب «قاطون» و«جوي» الثلجية ومساحتها حوالى من ثمانية إلى عشرة كيلو مترا. وفى هذه الجبال كميات وفيرة من الذهب والنحاس والحديد والزنك والرصاص وكثيرمن مناجم المعادن المهمة الأخرى. هذا فضلا عن الغابات الغنية التى تغطى هذه الجبال علاوة على هذا توجد مراع كثيرة واسعة وشديد الخصوبة. وتقع جونغاريا وقازاقستان في القسم الجنوبي لجبال آلطاي. وترسم جبال آلطاي الكبرى حدود تركستان الغربية ومغولستان. وتمتد شعبة من ذات الجبل حتى سلسلة جبال سيبريا الجنوبية.

أما جبال بامير وتعني في الفارسية «سقف العالم» فإنها تشكل واحدة من أكبر سلاسل الجبال في العالم. وتمتد من جنوب شرق أفغانستان. وتقع جبال بامير وقراقورم (وتعنى مكان صخري كبير) وجبال هندوكوش داخل سلسلة جبال طانرى. وأكثر القمم انخفاضاً في جبال بامير هي قمة «كونغور» وارتفاعها٧٧١٩مترا.

أما ارتفاع جبال «موزتاغ - آتا» فيبلغ ٧٥٤٦مترا. وتغطى المراعي والغابات الباسقة جبال البامير. وقمم هذه الجبال قارسة البرودة وتغطيها الثلوج التي لا تنقطع صيفاً أو شتاءً. ويبلغ امتداد هذه الثلوج من الشمال إلى الغرب ٧٧كيلومترا، حيث أنها تعتبر أطول منطقة ثلوج بالعالم.

ونهر تاريم واحد من أكبر أنهار وسط آسيا ويتدفق باستقامة شرق قراقورم. ويجري هذا النهر على امتداد وادي تاريم فيشكل حدودا طبيعية بين «وادي تاريم» وكشمير، ويتدفق من الغرب للشرق. ويصب في بحيرة (لوب - نور)التي تقع شمال «آلتونطاغ». ويقع نهر تاريم على سواحل أقدم ثلاث مدن مشهورة هي (كاشْغَر - ياركند - خُوتن) ثم

ينساب على واد منبسط كبير. وينبع نهر «خُوتن» من جبال «قارانلوق»، أما نهر «ياركند» الذى يقع فى غرب تاريم، فيتدفق فى اتجاه الشرق.

ونهر «قرا إرتش» أكبر أنهار «جونغاريا». ويتدفق نهر «هورونغو» في الشرق. ويشكل نهر قوبدوKobdo الواقع في الشمال الشرقي، الحدود الطبيعية بين مغوليا و«جونغاريا».

وفي القسم الغربي لوسط آسيا يتدفق نهرا «آمو داريا» و«سرداريا» وقد أطلق العرب في القرن السابع على المنطقة الموجودة فيما بين هذين النهرين اسم بلاد «ما وراء النهر» ويصب النهران في بحيرة آرال، وينبع نهر «آمو داريا» من جبال «قيزيل يورطه» الواقعة شمال «قراقورم» ويشكل الحدود الطبيعية لطاجيكستان وافغاستان وأوزبكستان. ويتدفق على امتداد الشمال الغربي، كما أنه يكون الحدود الطبيعية بين اوزبكستان وتركمانستان ويصب في بحيرة «آرال».

اما نهر «سرداريا» فينبع من جبال «الآلاي». ويقسم «وادي فَرْغانة» لقسمين وينتهي مصبه في بحيرة «آرال» ناحية الشمال الشرقي. ونهر» نارين» الذي ينبع من جبال «كوك جال» يقسم قيرغيزستان من الشرق للغرب إلى قسمين.

ونهر «إتريك» الذي ينتهى مصبه من ناحية الجنوب لبحر الخزر، فيجري على امتداد قسم كبير من ولاية خُراسان الفارسية، ويشكل الحدود الطبيعية بين فارس وتركمانستان. أما نهر امبه Embe الذي يتجه مصبه من ناحية الشمال حتى بحر الخزر، وينبع نهر «يايق» بين جبال «الأورال» ويجرى من أراض كازاخستان ويجرى جزء كبير منه في اراضي قازقستان ويكون دلتا عند بداية نهر «الخزر»، ويكوَن الحدود بين آسيا واوروبا.

أما نهر «زرافشان» والذي يُعَد من الأنهار الداخلية لوسط آسيا فينبع من جبال «آلاي». وتقع مدينتا بُخارى وسَمَرقَنْد في السواحل الجنوبية للنهر. أمانهر «جو» فينبع من جبال الواقعة في الجنوب الغربي لبحيرة

«إسيق». ومـن الأنهـار الداخليـة لقازاقسـتان نهـر «طورغـاي» الـذي يصـب فـي بحيـرة «جالقـار» ونهـر «نـورا» الـذي يصـب فـي بحيـرة «نـورا».

ويعـد نهـر «ايريتـش» مـن أكبـر أنهـار شـمال قازاقسـتان، وينبـع مـن بحيـرة «زايسـان». و ذراع النهـر الـذى يتدفـق علـى امتـداد القسـم الشـرقي لزايسـان ويصـل الـى اراضـى جونغاريـا فيسـمي «قـرا ايرتيـش». ويقـع نهـرا «إشـيم» و«طوبـول» وهمـا مـن أذرع نهـر» إريتـش» اقصى شـمال قازاقسـتان. ويعتبـر «اريتـش» أحـد فـروع «نهـر اوب» ob. وتقـع بحيـرة «باغـراش» فـي القسـم الشـرقي لوسـط آسـيا. ومسـاحتها ٩٦٠ كيلومتـرا مربعـا، أمـا عمقهـا ٨٩٦ متـرا. وتقـع بحيـرة «لـوب نـور» فـي جنـوب شـرق بحيـرة باغـراش ومسـاحة هـذه البحيـرة ٢٠٠٠ كيلومتـرا مربعـا، أمـا عمقهـا ٧٩٠ متـرا، وأكبـر بحيـرات «جونغاريـا» هـي «أبـي نـور» Ebinor. وهـى علـى ارتفـاع ١١٠ متـرا فـوق سـطح البحـر، والقسـم الجنوبـى الغربـى لجونغاريـا، فتقـع فـى الجنـوب الشـرقي مـن» آلاطـاغ» قريبـا مـن منطقـة «يـدي - صـو».

ونسـبة سـقوط الأمطـار سـنوياً فـي آسـيا الوسـطى ٥٠ مليمتـرا، أمـا المناطـق الصحراويـة فلاتسـقط بهـا أي أمطـار.

ومـن هـذه الناحيـة فـإن معـدل سـقوط الأمطـار سـنوياً فـي جبـال طاجيكسـتان وفيرغيزسـتان ٧٠ مليمتـرا. أمـا فـى المنطقـة الشـمالية لقازاقسـتان فتبلـغ ٦٥ مليمتـرا. والمنـاخ جـاف بصفـة عامـة. وتمثـل أنهـار «تاريـم، وايلـي، وامـو داريـا وسـرداريا، وجـو» أهـم مصـادر الميـاه لزراعـة المحاصيـل والبسـاتين. وبالاضافـة لذلـك فـإن وسـط آسـيا غنـي جـداً بمناجـم البتـرول والحديـد والذهـب والفضـة والنحـاس والكبريـت والملـح. وتحتـل مكانـة مهمـة فـي الترتيـب العالمـي.

آسيا الوسطى في عهد الأكمنيديين

تكشـف الحفريـات الأثريـة أن الإنسـان فـي أراضـي آسـيا الوسـطى اشـتغل بالزراعـة القائمـة علـى الـري، وأن حيـاة الاسـتقرار فـي تلـك الأراضـي بـدأت قبـل الميـلاد بـالآف السـنين. وتأسسـت الـدول القويـة فـي المنطقـة مـع

بداية حياة الاستقرار.

وهناك اكتشافات توضح أن أسلافنا في وادي تاريم، الذي يعد الطرف الشرقي لآسيا الوسطى، بدأوا في الاشتغال بالزراعة قبل خمسة الآف عام من الميلاد. وقد اكتشفت مجموعة من علماء الأثار من أكاديمية العلوم الاجتماعية الأويغورية مقبرة قديمة عند ساحل نهر «كونچي» في عام ١٩٧٩م ووجد بالمقبرة رفات شخصين، أحدهما لسيدة شابة والأخرى لطفل. والتحليل المعملي لأجزاء من الشجرة الموجودة داخل المقبرة أثبت أنها تعود إلى قبل ٦٤١٤عام. ووجدوا بجانب الطفل سلة من البوص تحتوي على بذور القمح، لكن هذه الحبوب صارت رمادا بفعل عوامل الزمن.[٩٨] وهذا يثبت أن الزراعة نشأت في حوض تاريم منذ عهود غاية في القدم.

وليس في أيدينا معلومة قاطعة بشأن زمن استخدام نظام الري في وادي تاريم. وعلى أية حال فإن الزراعة الموجودة في «وادي تاريم» في الجزء الشرقي من آسيا الوسطى ليست متأخرة عن الخبرة الزراعية القديمة الموجودة في الجزء الغربي من آسيا الوسطى بل ربما كانت أكثر تقدماً.

وثمة دليل على أن تاريخ شعوب آسيا الوسطى موغل في القدم، ألا وهو العلاقات التجارية التي كانت بينهم وبين الأشوريين ومصر. ويمكن القول، استناداً على المعلومات التاريخية، إن الدولة الأشورية والحضارة التي أسستها في المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، والمشهورة بثقافتها الخاصة بها، تعد واحدة من أقدم المراكز الحضارية. فهذه الدولة تأسست قبل ستة الآف عام من يومنا هذا، وامتدت حدودها حتى شمال بلاد مابين النهرين.

وهكذا تأسست علاقات تجارية بين شعوب آسيا الوسطى والدولة الأشورية قبل أربعة الآف عام من الميلاد. وهذه المعلومات أكيدة لايمكن إنكارها. فمثلا وجد الزمرد السلطاني ضمن أدوات الزينة التي عُثر عليها في مقبرة الملكة شوبات التي عاشت قبل أربعة الآف عام من

الميلاد في بلاد مابين النهرين. ووجود الزمرد في مصر الذي يرجع تاريخه لألفي عام قبل الميلاد، يعد دليلاً على العلاقات التجارية التي كانت بين آسيا الوسطى وبلاد مابين النهرين ومصر.[٩٩] لأن هذا النوع من الزمرد كان يوجد فقط في آسيا الوسطى.

واعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد، فإن شعوب باكتريا (هذه الكلمة التي تعني أم المدن تغيرت فيما بعد لتصبح بلخ)، وخوارزم وصُغد (وهي كلمة تعني باللغة التركية القديمة الأراضي المبتلة)، وهي من شعوب آسيا الوسطى، أسست الدول في الوقت الذي أسس فيه أجدادنا أيضا المدن في «وادي تاريم» و«جونغاريا».

وبعد قرن من هذا التاريخ قامت دولة «أكمنيد الفارسية» في آسيا الوسطى. وقد تحدث الفردوسي في «الشاهنامه» عن تاريخ للتاجيك والفرس يعود إلى خمسة الآف عام. ولكن يجب ألا ننسى أن بعض الموضوعات في «الشاهنامه» خيالية تماماً. ويقدم الفردوسي معلومات عن عهد أسرتي «أرشاقلي» و«كايان» الحاكمتين(٣٢٠٠ - ٧٨٠ ق.م). وبالرغم من أن هذه المعلومات قد صيغت بشكل روائي وأسطوري، فهي ذات أهمية بالنسبة لنا لأنها تمثل تسجيلاً لمعلومات عن العلاقات التي كانت تربط بين «الأكمنيديين» و«التورانيين» في آسيا الوسطى، أي أجداد الأويغور.

وتقول معلومات موثوقة إن دولة «ميديا» كانت قائمة في القرن الثامن ق.م على أراضي أذربيجان والمنطقة الغربية لفارس الحالية، وكانت عاصمة الدولة تُسمى «أكباطانا» وهي «همذان» الحالية. وقامت قبائل فارس التي تعيش في الجزء الجنوبي الغربي من فارس بفتح «ميديا» التي كانت أقوى دولة في زمانها.

وفي عام ٧٠٠ ق.م، رفع «أكمن» ملك فارس راية العصيان ضد «الميديين» وحصل على استقلاله. وهكذا تأسست دولة «توران» في آسيا الوسطى وما يجاورها في الفترة التي استولى فيها الأكمنيديون في فارس على السلطة. وقال اليونانيون القدماء (الإسكيت) إن التورانيين

خاضوا حرب طويلة ضد الفارسيين.

وقد اهتم حكام «أكمنيد» الفارسية بآسيا الوسطى، ووضعوها نصب أعينهم وشنوا هجمات عديدة ضد التورانيين. ودخل «التورانيون» و«طور» و«بيشان» و«آفرسياب» و«أرجاسب» و«توميريس» وغيرهم من الحكام في صراع مستمر ضد الأكمنيديين من أجل المحافظة على استقلالهم. وحتى يضفي سلاطين «الأكمنيد» المشروعية على حربهم ضد التورانيين، زعموا أنهم رأوا رؤيا غامضة. مثلاً قالت والدة «كيخسرو» أنها رأت كأن غصن كروم يخرج من بطنها، وسرعان ما كبر هذا الغصن حتى غطى آسيا كلها. وفسر منجموا القصر هذه الرؤية لكيخسرو الشاب (قمبيز الأول) بقولهم إنه يجب شن الحرب ضد آسيا الوسطى، وقالوا له: «سيجعلك الله حاكماً على آسيا الوسطى».

وحارب «طور» وهو من حكام توران المار ذكره في الشهنامه، «تسيبس» شاهنشاه أكمنيد، أما «بيشان قاغان» فقد حارب «أرتابانوس». والمعلومات التاريخية تثبت صحة هذه الرواية.

وفي عام ٦٢٥ق.م مات «أفراسياب» حاكم توران المشهور في أذربيجان أثناء حربه ضد «أرتابانوس». وحارب «أفراسياب» الأكمنيد عدة مرات، وهزمهم، وبهذا أنقذ «توران» ووسط آسيا من السقوط في يد الغزاة.

وقويت شوكة أسرة اكمنيد الحاكمة خاصة في عهد «كيخسرو» (قورش). وبعد أن أحكم «كيخسرو» (٥٥٨ - ٥٢٩ ق.م) سيطرته على «ميديا»، استولى على الأناضول؛ ثم استولى بعد ذلك على «فينيقيا» و«فلسطين» ؛ أما في عام ٥٣٨ فقد استولى على بابل وجعلها عاصمة للدولة. أما إبنه «قمبيز الأول» فقد فتح مصر، وفي عهده خضع الشرق القديم بأكمله للأكمنيديين. وفي عام ٥٢٩م قُتل «كيخسرو» أثناء هجومه على حدود آسيا الوسطى على يد «توميريس» ملكة توران (ملكة ماساجيت).

وفي عهد «دارا الأول» عاش الأكمنيديون أكثر العهود ازدهاراً في تاريخهم؛ وخضعت لحكمهم» فارس كلها وأذربيجان وأفغانستان والجزء الجنوبي من وسط آسيا وبلوجيستان وآسيا الصغرى وبابل وأرمينيا وسوريا وفلسطين ومصر. وتوجد في كتابة «بهيستون» الحجرية معلومة عن فتح دارا لوسط آسيا.

وكما فهمنا فإن «دارا الأول» أمر في عام ٥١٩م بالكتابة عن الشرف الذى حظي بإخضاعه شعبا كبيرا من شعوب آسيا الوسطى على حجر في جبل «بهيستون» الموجود على بعد ٦٥ كيلومتر جنوب غرب همذان. وكان هذا الحجر المعروف في التاريخ بـ«نقيش بهيستون»، وما كُتب فوقه بمثابة الرابط الذي ربط في الماضى بين بابل وأكباطانا. ففي الجزء الأعلى من الكتابة المحفورة فوق حجر على ارتفاع خمسمائة متر يوجد رسم لإله النار والشمس. ورسم لدارا الأول رافعاً يده اليمنى تجاه الإله، وبقدمه اليسرى يسحق أعداءه المهزومين. أما في مواجهة «دارا» فيوجد نقش لتسعة من الأسرى، أياديهم مكبلة من الخلف والأغلال فى أعناقهم.

وقد ورد فى الكتابة المحفورة في كتابة «بهيستون»، ذكر شعوب «صاقا» و«صغد» و«خوارزم» الذين كانوا يعيشون في آسيا الوسطى، ولكن لم يرد ذكر اسم شعب مساجيت. ونحن نعرف أن شعب مساجيت أجداد الأويغور، كانوا يحافظون على استقلالهم.

بعد أن فتح «دارا الأول» جزءا من وسط آسيا، عين والياً عاماً هناك. وهكذا ظهرت مناطق الولاية العامة. وقسم «دارا» المناطق التي تحت سيطرته في آسيا الوسطى إلى ثلاث ولايات عامة. وتقول المعلومات التي سجلها «بطليموس» إن واحدة من قبائل صغد التي تعيش في جنوب سرداريا، كانت تدخل ضمن حدود الولاية العامة الثانية عشر. وكانت هذه القبيلة تدفع جزية كل عام مقدارها ٣٦٠ طالانت (أي حوالي ٨٦٠ ألف سكه ذهبية). والأراضي التي يعيش فيها شعبا صاقا وكاسبي كانت داخل منطقة الولاية العامة الخامسة عشر. وهؤلاء كانوا يدفعون

جزية سنوية مقدارها ٢٥٠ طالانت (٦٠٠ ألف سكه ذهبية). وكانت أراضي بارتيا وخوارزم وصغد، في منطقة الولاية العامة السادسة عشر، وكانت تلك المنطقة تدفع كل عام جزية مقدارها ٣٠٠ طالانت (٧٠٠ ألف سكه ذهبية).[١٠٠] وكما رأينا فإن آسيا الوسطى كانت تدفع جزية كبيرة للأكمنيديين، واستمرت هذه الجزية على مدى ١٩٠عاماً، من عام ٥٢٠ ق.م وحتى عام ٣٣٠ ق.م. وكان حال شعوب آسيا الوسطى صعباً للغاية. ووقعت هذه الجزية السنوية على كاهل الشعب. ولذلك أعلن شعب المنطقة العصيان مرات عديدة من أجل التحرر من الخضوع الأكمنيديين. مثال ذلك ما حدث في عام ٥١٣ ق.م، عندما اضطر «دارا الأول» أن يدفع بجيش كبير إلى آسيا الوسطى لإخماد عصيان شعب صاقا. في تلك الأثناء جاء راع من شعب «صاقا» اسمه «شيراك» إلى معسكر الجيش الفارسي، كان هذا الراعي مشوهاً. فقد غطت الجروح جسده بأكمله، وسُحقت أنفه وأذناه. قال «شيراك» للفرس أن «الصاقايين» هم من فعلوا به هذا وأنه يريد أن يحرقهم انتقاماً منهم. فخرج الفرس معه إلى الطريق الذي أرشدهم إليه وفي النهاية وجدوا أنفسهم خلف «الصاقايين». إذ بعد مسيرة استمرت سبعة أيام وليال وجدوا أنفسهم في وسط الصحراء. فأدركوا أن شيراك خدعهم، فقال لهم شيراك عندما أرادوا أن يفتكوا به ويقطعوه إرباً: «أنا احترقت! ولكني وضعتكم في قبضة الجوع والعطش من أجل إنقاذ أهل بلدي. إنكم ستموتون هنا من الجوع والعطش!»[١٠١] وبالفعل انقض الفرس عليه وقطعوه إرباً، ولكن الصاقايين استطاعوا أن يقضوا على جيش دارا الأول.

وبحلول القرن الرابع، أصاب الضعف الشديد إمبراطورية «الأكمنيد» بسبب النزاعات الداخلية والهجمات الخارجية.

الغزاة المقدونيون وآسيا الوسطى

استعد الإسكندر بن فيليب ملك «مقدونيا» بعد مقتل والده لتحقيق خطته التي تستهدف غزو شعوب الشرق بمساعدة الفرس.

ولـد الإسـكندر فـي عـام ٣٥٦ق.م، ورباه والـده وأحسـن تدريبـه، وكان معلمـه الفيلسـوف اليونانـي المعـروف أرسـطو.

شـكل الإسـكندر جيشـاً علـى أعلـى مسـتوى مـن التجهيـز والتدريـب فـي ذلـك الزمـان. وفـي عـام ٣٣٤م عندمـا كان فـي الثانيـة والعشـرين مـن عمـره، بـدأ غـزو الشـرق بجيـش يتكـون مـن ٣٠ ألـف جنـدي مشـاة وخمسـة آلاف فـارس. وفـي نهايـة الحـروب التـي اسـتمرت عشـر سـنوات، سـيطر الإسـكندر علـى الأناضـول وسـوريا وفينيقيـا ومصـر وفـارس وآسـيا الوسـطى وبـلاد الهنـد.

واضطـر دارا الثالـث، شاهنشـاه الأكمنيـد الأخيـر أن يشـن عـدة حـروب من أجـل فتـح فـارس. وبعـد فتـح آسـيا الصغـرى انهـزم دارا الثالـث أثنـاء حـرب «إيسـوس» وتمكـن مـن الهـرب، لكـن الغـزاة اسـتولوا علـى أسـرته وخزينتـه، وأرسـل «دارا» سـفيراً إلـى الإسـكندر وعـرض عليـه السـلام، وتزويجـه مـن إحـدى بناتـه، ولكـن عرضـه قوبـل بالرفـض.

وفـي عـام٣٣١م اسـتولى الإسـكندر علـى جـزء مـن إمبراطوريـة الأكمنيـد (آسـيا الصغـرى وفينيقيـا وفلسـطين ومصـر)، ثـم عبـر دجلـة والفـرات وتقـدم تجـاه الجـزء الداخلـي للإمبراطوريـة الفارسـية. وتشـتت جيـش «دارا الثالـث» وقوامـه ٩٢ ألـف جنـدي علـى يـد جيـش الإسـكندر وقوامـه ٤٠ ألـف جنـدي فـي الحـرب الكبيـرة التـي وقعـت بالقـرب مـن بابـل، وهـرب «دارا» ثـم قتلـه «بسـوس» والـي باكتريـا العـام الـذي أعلـن نفسـه شاهنشـاه الأكمنيـد. وعندما علـم الإسـكندر بذلـك تسـلق جبـال «هندوكـوش» سـيرا لمـدة ١٥ يومـا بصعوبـة بالغـة ودخـل باكتريـا. فتـرك «بسـوس» مدينـة «بارتيـران» الكبيـرة وانسـحب إلـى شـمال «أمـو دريـا». ووصـل الإسـكندر إلـى «أمـو دريـا» بعـد خمسـة أيـام وأسـر «بسـوس» وأحضـره إلـى أقباتانـا، وأعدمـه أمـام عيـون الفـرس و«الميدييـن» ليلقـن درسـا لمـن تسـول لـه نفسـه إعـلان العصيـان مـن أسـرة أكمنيـد الحاكمـة.

وبعـد أن انتهـى الإسـكندر مـن أمـر «بسـوس» سـار تجـاه سَـمَرقَنْد (ماراكانـدا). وقـاوم شـعب سَـمَرقَنْد الغـزاة وأبـدوا بطولـة فـي مواجهتـه، وبنـاءً علـى ذلـك فهـم الإسـكندر أنـه بحاجـة إلـى قـوة أكبـر للسـيطرة علـى مـاوراء

النهـر. وواجـه الإسـكندر مقاومـة شـديدة أثنـاء هـذه الحـرب فـي آريتبـه [أوراتبـه] (طاجيكسـتان الحاليـة)، وقـد لقـي ٢٢ ألـف شـخص حتفهـم أثنـاء غـزو مـاوراء النهـر.

بعـد أن فتـح الإسـكندر جـزءًا مهمـاً مـن آسـيا الوسـطى (مـاوراء النهـر وباكتريـا)، عيـن الـولاة. ولـم تعتـرف شـعوب آسـيا الوسـطى بالسـيطرة المقدونيـة التـي فُرضـت بالسـيف والنـار. ولأنهـم كانـوا تواقيـن إلـى الحريـة فقـد أعلنـوا تمردهـم ضـد الـولاة المقدونيين. وأكبـر هـذه التمـردات هـو ذاك الـذي تزعمـه «سـبيتامن». ودخـل «سـبيتامن» سَـمَرقَنْد فـي عـام ٣٢٨ق.م وقضـى علـى قسـم كبيـر مـن الحاميـة العسـكرية المقدونيـة. ولجـأ مـن تبقـى منهـم إلـى قلعـة سَـمَرقَنْد.

ولمـا علـم الإسـكندر بهـذه الواقعـة سـار بجيشـه الأساسـي إلـى ماراكانـدا (سَـمَرقَنْد). فلمـا رأى «سـبيتامن» مجـيء الإسـكندر رفـع الحصـار، ولجـأ إلـى تكتيـك الكـر والفـر. وبعـد عـدة محـاولات انسـحب سـبيتامن إلـى الصحـراء وهنـاك جمـع قـوة جديـدة وعـاود الهجـوم علـى سَـمَرقَنْد. ولكـن للأسـف قُتـل علـى يـد بعـض الخونـة الذيـن ظهـروا فـي معسـكره، وأحضـروا رأسـه إلـى الإسـكندر لينالـوا المكافـأة.

وتقـول بعـض المعلومـات التاريخيـة إن زوجـة «سـبيتامن» هـي نفسـها التـي قتلتـه وأحضـرت رأسـه إلـى الإسـكندر.

وقـد اسـتمر عصيـان «سـبيتامن» ثلاثـة أعـوام حتـى مقتلـه فـي عـام ٣٢٧ق.م، وبموتـه انتهـى العصيـان. ولعـب شـعب «صاقـا» (وشـعب مسـاجيت بالطبـع) فـي آسـيا الوسـطى دوراً كبيـراً أثنـاء عصيـان سـبيتامن. إذ أن «سـبيتامن» عندمـا ينهـزم كان يلجـأ إلـى شـعب «صاقـا» فـي الصحـراء، فيتم إنقـاذه وحمايتـه مـن القتـل. والحقيقـة أن شـعب صاقـا قـد أبـدى بطـولات كبيـرة أثنـاء العصيـان.

أمـا الإسـكندر الـذي بـدأ حـرب الشـرق فـي عـام ٣٢٤ق.م، فإنـه نجـح مـع حلـول عـام ٣٣٤ق.م، فـي تأسـيس الإمبراطوريـة المقدونيـة اليونانيـة فـي

الأراضـي التـي فتحهـا والتـي تمتـد مـن شـرق البحـر الأبيـض وحتـى شـرق هندسـتان ؛ ولكـن هـذه الإمبراطورية اسـتمرت ٢٢ عامـاً فقـط (٣٣٢ - ٣١٠).

بعـد أن أخمـد الإسـكندر عصيـان «سـبيتامن» خـرج فـي عـام ٣٢٧ق.م لحـرب هندسـتان واسـتولى علـى وادي البنجـاب مـن هندسـتان، لكـن جيشـه لـم يسـتطع التعـود علـى المنـاخ الحـار لهـذه البـلاد. وأعلـن الجنـود الذيـن كلـوا مـن الحـروب عـن رغبتهـم فـي العـودة إلـى بلادهـم. فأمـر الإسـكندر بالعـودة إلـى فـارس عـن طريـق البحـر والبـر واضعـاً نصـب عينيـة رغبـة جيشـه. وعـاد هـو نفسـه إلـى بابـل فـي عـام ٣٢٤ق.م ورغـم أن حـرب الشـرق التـي شـنها الإسـكندر كانـت بهـدف الغـزو، فعنـد تقييـم هـذه الحـرب بموضوعيـة نجـد إنهـا كانـت تهـدف إلـى إقامـة علاقـات ثقافيـة واقتصاديـة بيـن الشـرق والغـرب. والحقيقـة إن آسـيا الوسـطى وهندسـتان قـد أدركتـا مـدى التأثيـر الثقافـي اليونانـي الـذي أحـدث ثـراءً ثقافيـاً غايـة فـي الأهميـة فـي تلـك المنطقـة.

عندمـا غـزا الإسـكندر شـعوب آسـيا الوسـطى واجـه صعوبـات غيـر متوقعة، فـرأى ضـرورة الاسـتفادة مـن خيانـة الاقطاعييـن. ولكـن قسـم كبيـر مـن الشـعب انغمـس فـى بحـر الدمـاء. وبعـد ١٥٠عـام (أي فـي عـام ١٨٠ ق.م)، تخلصـت شـعوب آسـيا الوسـطى مـن نيـر الإمبراطوريـة اليونانيـة المقدونيـة، أمـا باكتريـا فقـد نالـت حريتهـا بعـد ١٨٠ عـام (أي فـي عـام ١٥٠ ق.م).

وعندمـا مـات الإسـكندر عـام ٣٢٣ ق.م فـي الثالثـة والثلاثيـن مـن عمـره، تمزقـت الإمبراطوريـة بعـد فتـرة قصيـرة تاركـة مكانهـا ثـلاث دول: الدولـة اليونانيـة وتشـمل مقدونيـا واليونـان؛ دولـة «سـلاؤكوس» وتشـمل سـوريا وفـارس وآسـيا الوسـطى، والدولـة التـي تأسسـت فـي مصـر. ومـن هـذا التقسـيم يتضـح أن الشـخص الـذي نـال نصيـب الأسـد مـن هـذا التقسـيم هـو «سـلاؤكوس» الـذي كان أحـد جنـرالات الإسـكندر.

وكانـت عاصمـة هـذه الدولـة التـي أُطلـق عليهـا اسـم دولـة «سـلاؤكوس» والتـي تشـمل آسـيا الوسـطى، هـى مدينـة «سـلاوكيا» الواقعـة عنـد نهـر دجلة.

ودامت هذه الدولة ٢٤٨عام، وحكمها ١٧ حاكما.

وفي عام ٢٥٠ ق.م وقعت أحداث مهمة جداً في دولة «سلاؤكوس». ونشب صراع على العرش بين ابناء الإمبراطور «أنطيوتش» سلاؤكوس الثاني(٢٤٦ - ٢٢٦)، وأخيه الصغير» هيراكيس». وانتهزت «باكتريا» و«بارتيا» (الجزء الشمالي الشرقي الجبلي لفارس) هذه الفرصة وأعلنتا استقلالهما. وأعلن» ديودوت» الوالي العام في بارتيا نفسه حاكماً. واستولى «أرشاق» أمير قبائل داها التي تعيش بجوار نهر تاجان في أفغانستان على الجزء الشمالي الشرقي من فارس. وهكذا أسس «أرشاق» دولة بارت. وسمى المؤرخون الصينيون هذه الدولة «آن شي» مضافاً لاسم أرشاق. فكلمة آن - شي هى ترجمة صينية لأرشاق.

وبالنسبة لإمبراطورية «سلاؤكوس» فقد قضت عليها إمبراطورية روما في عام ٦٤ ق.م. أما آسيا الوسطى فقد تم تخليصها بالكامل من السيطرة اليونانية المقدونية في عهد «أنطيوتش الثالث» أي في عام ١٨٠ ق.م.

ومع أن «باكتريا» انفصلت عن «سلاؤكوس» عام٢٥٠ق.م، وأعلنت استقلالها، فإن من فعل هذا ليس الحاكم المعين والياً عاماً من بين شعوب آسيا الوسطى، بل على العكس كان الوالي العام لدولة باكتريا الذي عينه السلاؤكوسيين ويدعى «ديودوت». ودامت هذه الدولة ١١٠عام. وذُكرت في التاريخ باعتبارها دولة باكتريا الأغريقية.

وفي عهد «أوتديميوس» و«ديمتريوس» قويت شوكة دولة باكتريا الإغريقية. وكانت حدود هذه الدولة تضم صغديانا والجزء الشمالي الغربي من هندستان(ويضم ولاية السند)، والسفوح الجنوبية لجبال هندوكوش، وساحل بجيرة «هامون» في شرق فارس بالإضافة إلى ولايتي هيرات وقندهار في أفغانستان.

أقامت دولة باكتريا الإغريقية علاقات سياسية واقتصادية مع الأويغور الذين يعيشون في وادي تاريم. وفي عهد ديمتريوس (١٩٠ - ١٦٧ ق.م)،

«امتـدت حـدود دولـة باكتريـا الأغريقيـة حتـى دولـة السـريكيين (الأويغوريين الذيـن يعيشـون فـي وادي تاريـم) ودولـة الهـون.»[١٠٢]

وفـي عهـد «أوتديمـوس» وقعـت حـرب بيـن دولـة باكتريـا الإغريقيـة والسـلاؤكيين. وفـي عـام ٢٠٨ق.م شـن أنطيوتـش الثالـث ملـك «سـلاؤكوس» هجومـاً علـى باكتريـا الإغريقيـة وحاصـر العاصمـة «زاري آسـب». وبعـد حصـار اسـتمر لمـدة عاميـن رفـع «أنطيوتـش» الثالـث الحصـار عندمـا أنـذره «اوتديمـوس» بأنـه سـيطلب المسـاعدة مـن البـدو»[١٠٣]. وفـي عـام ٢٠٦ق.م جـاء «ديمتريـوس بـن اوتديمـوس» إلـى مركـز قيـادة العـدو للتفـاوض مـع «أنطيوتـش الثالـث» نيابـة عـن والـده. وأثنـاء المفاوضـات انبهـر «أنطيوتـش» الثالـث بـذكاء «ديمتريـوس» وشـجاعته. وهكـذا تـم توقيـع إتفـاق سـلام بيـن الطرفيـن، وقبـل «أنطيوتـش الثالـث» مسـاواة «اودتميـوس» بـه، بـل وافـق أيضـا علـى إرسـال إحـدى بناتـه لتصبـح عروسـاً لديمتريـوس.

وقـد أوضحنـا مـن قبـل أن دولـة «باكتريـا الإغريقيـة» قويـت شـوكتها فـي عهـد «ديمتريـوس بـن اوتديمـوس» وخليفتـه. و بالرغـم مـن هـذا وجـه القائـد «أوجراتيـد» ضربـة للدولـة منتهـزا فرصـة غيـاب ديمتريـوس عنهـا أثنـاء حربـه فـي هندسـتان فـي عـام ١٧٤ ق. م، فصـار للدولـة حاكمـان لمـدة سـبعة أعـوام، مـن عـام ١٧٤ وحتـى عـام ١٦٧ق.م. وفـي عـام١٦٧ق.م انفـرد «أوجراتيـد» بـإدارة الدولـة. لكـن لـدى عودتـه مـن حملتـه علـى هندسـتان عـام ١٥٥ ق.م قتـل علـى يـد ابنـه «أبولـودوت» الـذى قُتـل هـو أيضـا بعـد بضعـة أعـوام علـى يـد ابنـه «هليوكيـل».

وفـي عـام ١٤٠ق.م انهـى اليـاوچي الكبـار المـار ذكرهـم فـي المصـادر الصينيـة باعتبارهـم «دا - يـوچي» (فيدراليـة قبائـل مسـاجيت)، سـيطرة «باكتريـا الإغريقيـة» علـى آسـيا الوسـطى.

وفـي عهـد «هليوكيـل» انقسـمت دولـة باكتريـا الإغريقيـة إلـى دولتيـن همـا: دولـة باكتريـا الإغريقيـة ودولـة الهنـد الإغريقيـة. وانتهـزت «اليـاوچـي الكبـار» هـذه الفرصـة ودخلـت أفغانسـتان وقضـت على دولـة باكتريـا الإغريقية. كانـت «اليـاوچـي الكبـار» قبـل ذلـك تعيـش فـي ممـر «هـو - هسـي» فـي

قانصو الحالية، وفي عام ٢٠٩ ق.م أخضعها حاكم الهون الكبير «باتور تانريقوت» [متا - خان] لسيطرته.

وكان الياوچي الكبار [دا - يوچي‌لر] مستقلون قبل إخضاعهم على يد الهون في القرن الثالث قبل الميلاد. وكان لديهم جيش مكون من ١٥٠ ألف جندي. وبالنظر لهذا الرقم يمكن القول أن عدد «الياوچي الكبار» - الذين كانوا يشتغلون بالزراعة كحرفة رئيسية - كان حوالي مليون نسمة.

وكانوا جيران قبيلتي «الهون» و«أويصون» منذ القدم. وبينما كانت «الياوچي الكبار» تعيش في ممر «هو - هسي» مع قبيلة «أويصون»، كان الهون يعيشون في شرقهم في منغوليا الحالية ومنغوليا الداخلية.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد هجمت «الياوچي الكبار» على قبيلة «أويصون» وقتلت حاكمها، «نان - دو - مي» واستولت على مراعيها. وانسحبت قبيلة «أويصون» التي واجهت وضعاً قآسيا، تجاه الشرق ولجأت إلى الهون. أما والي «أويصون» الذي نجح في الهروب إلى الهون، فقد اصطحب معه أمير «أويصون راجومي» بن (نان - دو - مي) الذي كان حينئذ طفلاً لم يتجاوز عمره بضعة شهور. وأخذ «باتور تانريقوت» سلطان الهون الطفل تحت حمايته، وعندما شب «راجومي» أظهر بطولة كبيرة في الحروب التي خاضها الهون. وولاه «باتور طانري - قوت» حكم شعب «أويصون» وأعاد شعب أويصون بأكمله إلى أراضيهم. وبعد فترة بدأت الحروب من جديد بين قبيلتي «أويصون» و «الياوچي الكبار». وانهزمت قبيلة «أويصون» مرة أخرى أمام «الياوچي الكبار» ورحلت تجاه الغرب عبر إيرسين (في نينغ - شيا) وممر «هو- هسي» واستقرت في وادي «إيلي».

وبدأت «الياوچي الكبار» تمردها على الهون في عام ١٧٦ ق.م. فأرسل «باتور طانري - قوت» ابنه «كوك - خان» (قايوق تانريقوت) [لاو - شانج] لإخماد التمرد. وأخمد» كوك - خان» تمرد «الياوچي الكبار» وقتل حاكمهم. ومنيت «الياوچي الكبار» بهزيمة ساحقة في هذه الحرب

الداميـة، وهربـوا تجاه الغـرب فـي عـام ١٧٥ق.م بقيـادة أرملـة حاكمهـم الـذي لقـي حتفـه، فوصلـوا أولا إلـى مدينـة كوچـار؛ ومـن هنـاك واصلـوا سـيرهم حتـى وصلـوا إلـى «وادي إيلـي» وطـردوا قبيلـة «أويصـون» التـي كانـت قـد استقرت هنـاك قبل فتـرة قصيـرة. وعاشـت «الياوچـي الكبـار» ٢٥ عامـاً فـي وادي إيلـي ولكنهـم طُـردوا مـن هنـاك بعـد هزيمتهـم أمـام قبيلـة «أيصـون» بدعـم مـن الهـون. فانسـحبت «الياوچـي الكبـار» تجـاه الجنـوب الغربـي ووصلـوا إلـى كاشْـغَر؛ ولكنهـم لـم يمكثـوا هنـاك طويـلا، ودخلـوا أراضـي باكتريـا الإغريقيـة (شـمال أفغانسـتان) وفـي عـام ١٤٠ق.م، قضـوا علـى هـذه الدولـة، أسسـوا الدولـة المعروفـة فـي التاريـخ باسـم «طخارسـتان».

وفـي عـام ١٢٦ ق.م جـاء السـفير الصينـي «تشـانج تشـين» إلـى «الياوچـي الكبـار» وحرضهـم ضـد الهـون، وطلـب منهـم أن ينحـازوا إلـى إمبراطوريـة الهـان فـي الحـرب التـى ستشـنها ضـد دولـة الهـون. واسـتقبلت «الياوچـي الكبـار» السـفير الصينـي بحفـاوة، ولكنهـا رفضـت طلبـه الـذي قدمـه نيابـة عـن الإمبراطـور «وو - تـي».

آسيا الوسطى في عهد الهون والكوشان والآقهون

فـي عـام ١٧٧ ق.م شـن «باتـور تانريقـوت» حملـة باتجـاه الغـرب، ووصـل حتـى سـاحل بحـر الخـزر ثـم رجـع. وبعـد عـام أرسـل هـذه الرسـالة مـع سـفير إلـى «ويـن - تـي» إمبراطـور «هـان» جـاء فيهـا: «إننـي اسـتوليت علـى إمـارة «لـولان» و«أويصـون» و«الأغـوز» [كان الأوغـوز فـي هـذه الفتـرة يعيشـون بالقـرب مـن «چوجـك» وزايسـان فـى قازاقسـتان]، و٢٦ إمـارة بجوارهـم. وجميعهـم كانـوا مـن ضمـن دولـة الهـون. واتحـدت جميع الشـعوب التـي تـم إخضاعهـا بالسـلاح، فـي أسـرة واحـدة.» [١٠٤]

وكمـا أوضحنـا بعاليـه أن «باتـور تانريقـوت» أخضـع الـدول التـي أسسـتها «الياوچـي الكبـار» فـي غـرب آسـيا وآسـيا الوسـطى و«يـدي صـو»، وحتـى يحكـم الهـون الإمـارات التـي فـي الغـرب، عينـوا أميـراً هونيـاً يسـمى «باطيس خـان». وكان مقـر قيـادة باطيـس خـان بالقـرب مـن مدينـة كـورلا، وتتبـع

له أراضي الهون التي في سط وغرب آسيا. واستمرت سيطرة الهون على آسيا الوسطى فترة طويلة. ويمكن القول إن هذه السيطرة كانت في الفترة من ١٧٧ ق.م – ٢٠٠ بعد الميلاد. وكما أشرنا من قبل أيضاً أن دولة طخارستان التي أسستها «الياوچي الكبار» كانت تتكون من خمس إمارات، كل إمارة منها يحكمها «يابغو» أو والٍ على النحو التالي:

إمارة واهان (في شمال شرق أفغانستان)

إمارة ماستوچ (في شمال باكستان)

إمارة كوشان (في غرب واهان)

إمارة فاروان (في شمال كابول)

إمارة كابول

شكلت إمارات «طوخار» التي استمر وجودها حوالي مائة عام في الفترة من ١٤٠ – ٥٠ قبل الميلاد، إمبراطورية «كوشان» القوية.

وفي عام ٥٠ ق.م أخضع حاكم «كوشان» قانيشقا الأول الإمارات الأخري، وجاء ذكره في التاريخ بوصفه حاكم أراضي كوشان. وأنزل «قانيشقا الأول» مؤسس إمبراطورية «كوشان» هزيمة ساحقة بإمارة «پارتيا» التي بجوار كابول في جنوب «هندكوش» وضم لنفسه جزء من أراضيها.[١٠٥]

ويؤرخ «قاباغا» تاريخ إمبراطورية «كوشان» التي استمر وجودها حوالي خمسة قرون على النحو التالي:

في عهد «قادفيس الأول» (في الفترة من ٤٠ - ٧٥م)، و«قادفيس الثاني» (في الفترة من ٧٥ - ٩٥م) كانت الأراضي الرئيسة لإمبراطورية «كوشان» توجد في آسيا الوسطى. وفي عهد «قادفيس الأول» كانت حدود الإمبراطورية تمتد من خوارزم وصغديانا وحتى هندستان وپامير وپارتيا. أما في عهد «قادفيس الثاني» فقد دخلت هندستان بأكملها التي كانت تمتد حدودها حتى «بيناريس» ضمن حدود الإمبراطورية.

وكانت عاصمة الإمبراطورية مدينة بيشاور الواقعة في شمال شرق هندستان. وبلغت الإمبراطورية أوج قوتها في عهد «قانيشقا الثاني» الذي اتخذ لقب «ملك الملوك» (استمر حكمه في الفترة من(٧٨ - ١٢٣م تقريباً)، وعهد من جاءوا بعده، وفي عهد «قانيشقا الثاني» صارت إمبراطورية «كوشان» ليست أقوى دولة في العالم فحسب، بل صارت أيضا دولة الثقافة في آسيا.

وفي عام ٨٩م أرسل «قانيشقا الثاني» سفيراً إلى إمبراطور «هان» وأخبره أنه يريد أن يتزوج من أميرة صينية. ورفض الإمبراطور» هو - تي» هذا الطلب بل واعتقل سفير كوشان إذ رأى أن إقامة علاقات ودية مع فارس ستضره. وعندما علم «قانيشقا الثاني» بهذا الأمر سار بجيش قوامه ٦٠ألف جندي منطلقاً من بامير إلى وادي تاريم. وكان «پان - چاو» سفير «هان» موجودا في كاشْغَر في تلك الأثناء فتولى قيادة جيش الأويغور الذي تم جمعه من خوتن وياركند وكاشْغَر، وهزم جيش كوشان. وفي عام ١٠٣م، اضطرت أسرة هان أن تسحب «پان - چاو» من كاشْغَر بسبب ضغط الهون الغربيين (والهون الشماليين). وبعد هذه الواقعة قطعت الشعوب التي تعيش في المنطقة الغربية علاقاتها مع أسرة هان.

وتبادل «قانيشقا الثاني» المعلومات السرية مع حكام الأويغور في «وادي تاريم». وتمكن في عام ١٢٠م، من ضم خوتن وياركند وكاشْغَر إلى حدود إمبراطورية «كوشان»

وفي عهد «قانيشقا الثالث» لم تكن للكوشان علاقات بالشعوب الشرقية فحسب بل بالشعوب الغربية أيضاً. ونجح الوفد الدبلوماسي لكوشان الذى توجه إلى روما في عام ٩٩م في إقامة علاقات دبلوماسية مع إمبراطورية روما، والدليل على ذلك وجود النقود المعدنية الكثيرة التى ترجع إلى إمبراطورية كوشان السابقة والتى عثر عليها فى أماكن كثيرة من اراضى امبراطورية روما فى زمن الامبراطور «نيرون» (٥٤ - ٦٨م). وبالإضافة إلى العلاقات مع روما، أقام الكوشان علاقات دبلوماسية

مع دول أخرى في أوروبا الشرقية.[١٠٦]

ولا تتوافر لدينا معلومات قاطعة بالقدر الكافي عن العهود التاريخية المتأخرة لكوشان. تقول بعض المصادر إن إمبراطورية «كوشان» أخذت في الضعف في القرن الثالث، وانكمشت حدود الدولة، وبقيت لها حدود فقط مع آسيا الوسطى ووادي كابول وكشمير وهندستان في الشمال الغربي. وضعفت سيطرة «الكوشان» على آسيا الوسطى، وفي العهد المتأخر للكوشان أعلنت خوارزم وصغديانا استقلالهما. وبدأ أباطرة «كوشان» في العيش داخل حدود هندستان فقط، واستخدموا لقب «راجا». وباختصار فقد تم استيعاب الشعب الكوشاني داخل الشعب الهندي.

وفي عهد الكوشان (٥٠ ق.م إلى ٤٢٠م) بلغت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب أوجها، ولعبوا دوراً كبيراً جداً في تشكيل ثقافات غنية طورت في أساس الثقافة الغربية (خاصة الثقافة اليونانية القديمة). ويدل على هذا تماثيل الموسيقيين الحجرية التي في معبد «آيرتام» االبوذي الموجود بالقرب من مدينة ترمذ في أوزبكستان.[١٠٧]

وقد ترك الفن «الكوشاني» آثاراً مهمة في الثقافة الهندية (الآثار الهندية التي في مدينتي طاقيس ومادور)، وفي الثقافة الأويغورية (تماثيل الآلهة في كوچار وكاشْغَر)، وفي الثقافة الأوروبية الشرقية (بواسطة الألانيين).[١٠٨]

وكان يتم التحدث بلغات مختلفة داخل حدود إمبراطورية كوشان مثل (اللغة التركية والفارسية والهندية)؛ أما بالنسبة للحروف الأبجدية فقد كانت تُستخدم أبجدية «خوارزم» و«كاروشتي» (كانت تتكون من بعض حروف الأبجدية السريانية)، وأبجدية «كوشان» (التي تدخل فيها بعض الأبجدية اليونانية القديمة).

اعتنقت الشعوب التي عاشت في إمبراطورية كوشان العقائد الزرداشية والشامانية المانوية والبوذية. والمعابد البوذية التي أُكتشفت في آسيا

الوسطى و«يدي صو» توضح هذا.

وتم تحديد أسماء أباطرة كوشان التسعة الذين قضى عليهم «الآق هون» في عام ٤٢٠م:

قبل الميلاد:

١ - قانيشقا الأول (٥٨ - ٣١) - ٢٧ عام؛

٢ - خويشقا (٣١ ق.م - ١٠ م) - ٤٠ عام؛

بعد الميلاد:

٣ - واصودوا (١٠ - ٤٠ م) - ٣٠ عام؛

٤ - قوجولا قادفيس الأول (٤٠ - ٧٥) - ٣٥ عام؛

٥ - ويما قادفيس الثاني (٧٥ - ٩٨) - ٢٣ عام؛

٦ - وايشقا (٩٥ - ١١٩) ١٥ عام؛

٧ - قانيشقا الثاني (١١٠ - ١٢٩) (تقول بعض المصادر إن حكمه كان في الفترة من ٧٨ - ١٢٣)؛

٨ - واصودوا (... - ٢٥٠)؛

٩ - كيتارا (ولد في القرن الخامس).

وللأسف لا توجد الآن المعلومات التي تمكننا من عمل جدول تاريخي كامل لأباطرة كوشان، والجدول الذي قدمناه هنا هو فقط ما تم تحديده.

كنا قد أوضحنا إن إمبراطورية «كوشان» بدأت في الضعف بداية من القرن الثالث. وفي نفس الفترة استولت الدولة الساسانية (٢٢١ - ٦٥١م)، التي قويت شوكتها في فارس على أفغانستان في فترة قصيرة، أما دولة هند جوبتا (٣٢٠ - ٤٤٥م) التي قويت شوكتها في القرن الرابع، فقد أحكمت سيطرتها على شمال غرب الهند. وفي هذه الفترة اقتصر وجود الكوشان على منطقة «هندكوش» الشمالية فقط.

في بداية القرن الخامس (في عام ٤٢٠م) ظهر «القانيشقا» وجاءوا من شمال شرق «بحيرة آرال» وهجموا على الجزء الشمالي الغربي لهندستان، واستولوا على «باكتريا» وقضوا على الباقين من «الكوشان».

كان القانيشقا ذوي بشرة بيضاء لأنهم أحفاد «الياوچي الكبار». ولذا يقول المؤرخ البيزنطي «بروكوبياس» في القرن السادس، إن هذا هو السبب الأساسي للقول بأن «الآق هون» ينحدرون من شعب «الياوچي الكبار»

وقد أوضح المؤرخون الأرمن في القرن الخامس: «إن شعبي «كوشان» و«إيفتاليت» (الآق هون) لايمكن فصلهما عن بعضهما البعض.»[١٠٩] لأن كلا من الكوشان والآق هون جاءوا من شعب «الياوچي الكبار». وأُشير لهذا في «حولية أسرة طانغ» تحت عنوان «أخبار متعلقة بشعب إيفتاليت» حيث يقول: «إن شعب «إيفتاليت» قد جاء من شعب «الياوچي الكبار» [دايوچي] الذي عاش في عهد «أسرة هان».

وسعى «الآق هون» للقضاء على دولتي خوارزم والصغد في آسيا الوسطى، والاستيلاء على أراضي «الكوشان» التي استولت عليها الأسرة الساسانية في فارس، ولهذا السبب وقعت معارك استمرت لفترة طويلة جدا بين الطرفين.

حارب السلطان «آق سيوار» سلطان الآق هون الأول(٤٢٠ - ٤٧٠م)، «بهرام غور» شاهنشاه فارس الساساني بالقرب من مرو، لكن الحرب انتهت بانتصار فارس. وهكذا تم الاتفاقِ على أن تكون مدينة «طالقان» [طالاقان] الواقعة بين مرو وبلخ حداً بين الدولتين. وفي عام ٤٥٧م استولى «آق سيوار» على بدخشان وطخارستان وچيجاتيان وجورجان (عند التيار الآوسط لنهر ُمرغاب). وفي عهد الشاهنشاه الساساني «فيروز» وقعت عدة حروب بين شعبي فارس والآق هونِ، وهزم «آق سيوار» سلطان الهون «فيروز» في الصدام الأول وأسره، ثم أُطلق سراحه بعد أن افتداه «زنون» إمبراطور روما الشرقية [بيزنطة] الذي كان حليف فارس في تلك الفترة. وبعد هذه الواقعة تعهد «فيروز» بترك مدينة «طالقان»

للآق هون وإنه لن يتجاوز الحدود التي تم تحديدها في عهد «بهرام غور» لكنه لم يفِ بوعده، وأعلنت بيزنطة وسفير روما الشرقية الموجود في العاصمة الساسانية، الحرب ضد شعب إيفتاليت (لآن بيزنطة في تلك الأثناء كانت تساعد فارس بالمال وتحرضها على محاربة الآق هون). وهزم الآق هون جيش فارس الذي كان يقوده «إيفتالايوس» ووقع «فيروز» أسيراً مرة أخرى. وكان المفروض أن يقدم الحكام الفرس حمولة ٣٠ بغلاً محملة بالدينارات الفضية فديةً لإطلاق سراحه. لكن «فيروز» لم يستطع جمع سوى حمولة ٢٠ بغلاً من النقود. ولهذا السبب وافق على ترك ابنه «قوباد» رهينة حتى يتم الوفاء بالجزء الباقي من الفدية. كما تعهد «فيروز» بإرسال إحدى شقيقاته لتكون زوجة لحاكم الآق هون بهدف إقامة علاقة نسب معهم

ولكن «فيروز» فكر أن يخدع «إيفتالانوس» فأرسل فتاة من عامة الشعب بدلاً من أخته. وعندما اكتشف إيفتالانوس هذه الخدعة، قتل نصف الخبراء العسكريين الذين جاءوا من فارس، وأمر بتشويه النصف الآخر.[١١٠]

وصار الفرس في وضعٍ صعب للغاية بعد هزيمتهم مرتين أمام الآق هون، ودخل فيروز حرباً ثالثة ضد الآق هون في عام ٤٨٤م مدعوما من روما الشرقية. لكن الجيش الفارسي بقيادة فيروز سقط في الخنادق المغطاة التي أمر حاكم الآقهون بتجهيزها ولقوا مصرعهم، كما لقى «فيروز» وسبعة من أولاده حتفهم في نفس الحرب، وفي تلك الأثناء استولى الآق هون على بعض مدن مرو وفرضوا جزية كبيرة على فارس. وبعد هذه الانتصارات، استولى «إيفتالانوس» على كابول ووادي البنجاب في هندستان. وبعد ذلك دخل أراضي «آلان» من أعلى قره قورم. وسيطر على الإمارت الأويغورية مثل خوتن وياركند وكاشْغَر وكوچار.[١١١] وفي عهد «إيفتالانوس» صارت آسيا الوسطى (ومن ضمنها وادي تاريم) والجزء الشرقي لفارس وجزءً آخر من الهندستان، ضمن حدود دولة «الآق هون».

وكانت فارس في عهد الشاهنشاه «قوباد» (٤٨٤ - ٥٣٠م) و«خسرو أنوشروان» (٥٣٠ - ٥٨٠م) وهما من الحكام الساسانيين، تدفع الجزية إلى الآق هون، وكانت أساسا تحت وصاية «الآق هون» بداية من عام ٤٥٩م وحتى عام ٥٥٤م. ويقول المؤرخ الأرمني «لازار» الذي عاش في القرن السادس: «إن فارس كانت مرتبطة بشعب «إيفتاليت» في عهد فيروز، ولم تكن هناك فرصة للتخلص من هذه العبودية.»[١١٢]

وبعد إفطالانوس آلت رئاسة الآق هون الى كل من «تورامانخان» (٤٩٦ - ٥١٠م) ثم «ميهيراقولا» [ميهريقورا] (٥١٠ - ٥٤٠م)، ثم جاء بعدهم «غاد پارا» . في عهد «ميهيراقولا» شن «الآق هون» عدة حروب ضد إمارة الأويغور التي بجوار مدينة «قارا شَهَرْ». ولكن المصادر الصينية تقول: إن «ذوي العجلات العالية» وتعني بذلك الأويغور بصفة عامة، خاضوا عدة حروب إلى جانب «الآق هون» ضد الآوار. وبعد أن تزوج «ميهيراقولا» شقيقة «آيناغاي» سلطان «الآوار»، انتهت الحروب بينهم.

واستطاعت فارس في عام ٥٥٤م فقط التخلص من الخضوع للآق هون والحصول على استقلالها التام بفضل الأتراك. لأن الأتراك الذين أسسوا دولتهم في عام ٥٥١م هجموا على الآق هون، ووجهوا لهم ضربة قاضية، وبذلك استطاعوا أن يضموا لحدودهم طخارستان الفارسية الساسانية التي تخلصت من وطأتهم.

وقضى الأتراك في عام ٥٦٠م على دولة آق هون التي استمرت ١٤٠ عاماً. واستولوا على جزء كبير من أراضيهم. وفي عهد «ميهيراقولا» نقل الآق هون عاصمتهم «ماراكاندا» إلى «صاركوت» في البنجاب. والحقيقة إن الآق هون قد سيطروا على معظم شعوب آسيا الوسطى، ولكنهم لم يتدخلوا في شئونهم الداخلية.

كان «الآق هون» يعيشون بصفة عامة في المدن. ولديهم جيوش مقاتلة ومجهزة تجهيزاً جيداً ويتحدثون بلغة الهون الغربيين. ويعيش داخل هيكلهم المجتمعي شعوب مختلفة مثل (الأتراك والفرس والهنود)، ويدينون بعقائد مختلفة مثل (البوذية والباجاتية والمانوية)، وكانوا ذوي

ثقافات ثرية. وتعلم الصينيون منهم صناعة الزجاج الملون. ويقال في «حولية أسرة ويي» في جزء «شعوب الطرف الغربي»، في باب «شعب دايوچي»: «قال تجار «ياوچي» الذين جاءوا إلى العاصمة (إلى طا - طونج، عاصمة أسرة وي)، إنهم أذابوا الحجارة وصنعوا منها زجاجاً ملوناً بألوان مختلفة. فهم جلبوا المعادن من الجبل وانتجوا الزجاج في العاصمة. والزجاج الذي صنعوه كان أكثر لمعاناً من الزجاج القادم من البلاد الغربية. ولهذا السبب أمر الإمبراطور (طو - باتاو حاكم أسرة ويي) بعمل أشياء متنوعة من الزجاج الملون الخاص بهؤلاء التجار. فقد كان زجاجهم ليس لامعاً فحسب بل كان منمقاُ أيضا». وكل من شاهد هذا الزجاج انبهر وأطلقوا على هؤلاء الذين صنعوه اسم المقدسين.»[١١٣] وهذا في عام ٤٢٤م. وكما أوضحنا من قبل أن المقصود بـ «الدول الغربية» التي تحدثنا عنها هنا، روما أو سوريا.[١١٤] لأن الصينيين كانوا يحضرون الزجاج من روما وسوريا قبل ذلك.

وفي عهد «الآق - هون» ارتقت الزراعة والصناعة والتجارة والثقافة وتطورت كثيراً في آسيا الوسطى.

آسيا الوسطى والعرب

قبل الحديث عن الفتح العربي لآسيا الوسطى والحرب التي خاضتها شعوب المنطقة ضدهم، من المفيد أن نتحدث قليلاً عن الفتح العربي لسوريا والعراق وفارس منذ ظهور الإسلام.

الإسلام هو من الديانات الكونية مثل المسيحية والبوذية. ارتبط ظهور هذا الدين بتغيرات كبيرة وقعت في حياة الشعوب. أقدم هذه الديانات الثلاث الكبيرة هى البوذية التي ظهرت قبل ستة آلاف عام من الميلاد، وبينما ظهرت المسيحية قبل ألفين عام من وقتنا هذا، فإن الإسلام ظهر في القرن السابع الميلادي. والإسلام منتشر اليوم في الدول العربية وتركيا وفارس وأفغانستان وهندستان وباكستان وأندونيسيا وماليزيا وبعض دول شمال أفريقيا والصين والاتحاد السوفيتي السابق.

في عهد الخليفة أبي بكر الصديق استعد العرب لنشر الإسلام بين الشعوب المجاورة لهم. أما في عهد عمر بن الخطاب، فقد بدأوا شن الحرب على الجيران في الشرق والغرب. وكان أول هدف لعمر بن الخطاب هو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، فهجمت الجيوش الإسلامية بقيادة القائد خالد بن الوليد على بيزنطة، واستولت على الشام. أما في عام ٦٣٦م، فقد قضى خالد بن الوليد في اليرموك على الجيش البيزنطي الذي كان قوامه ٢٠٠ ألف جندي بقيادة «هرقل»، واستولى على فلسطين. ولقي قائد الجيش البيزنطي «ثيودوروس» حتفه في هذا الصدام.

وبعد فتح فلسطين وسوريا صار هدف الخليفة عمر هو فارس. تقول الرواية إنه في عام ٦٢٨م أرسل الرسول محمد[صلى الله عليه وسلم] رسالة إلى خسرو برويز كسرى فارس، ودعاه للدخول في الإسلام، ولكن «برويز» مزق رسالة الرسول. فقام الخليفة عمر في عام ٦٣٧م بتوجيه الجيوش الإسلامية إلى فارس بقيادة سعد بن أبي وقاص، والتقى الجيشانٍ، الإسلامي والفارسي في القادسية. وكان يوجد في جيش الفرس ٣٠ فيلاً. في اليوم الثالث للحرب جرح العرب الأفيال بمزاريقهم، وقطعوا خراطيمهم بالسيوف. وغنم العرب الذين أنزلوا هزيمة ساحقة بالفرس غنائم كثيرة من بينها العلم الفارسي.

تقول الرواية إن هذا العلم كان يخص «دميرجي كاوى» البطل الشعبي الفارسي، وكان مزيناً بالماس واللؤلؤ. ويقول الفردوسي في «الشهنامه» إن «دميرجي كاوى» كان قد تمرد على «داهاق الطاغية» في العصر القديم، وأنه أحضر هذا العلم ليكون راية للثوار.

وخرج «يزدجرد الثالث» شاهنشاه فارس(٦٣٤ - ٦٥١م)إلى أطراف خُراسان، وانشغل بجمع جيش جديد، وسار هذا الجيش الذي جمعه، وكان قوامه ١٥٠ ألف جندي إلى الغرب بقيادة «مردانشاه بن هورمزد

الرابع». وانتهت الحرب الدامية التي وقعت بين الطرفين في نهاوند عام ٦٤٥م بهزيمة الفرس. وهرب «يزدجرد» إلى شرق فارس مرة أخرى، وهكذا لفظت الأسرة الساسانية آخر أنفاسها. وفيما بين الأعوام (٦٤٢ - ٦٤٤م)استولى جيش الخليفة عمر بن الخطاب على الولايات الفارسية (أصفهان وتبريز وارمينيا وفارس وكرمان وسيستان وخراسان) الواحدة تلو الأخرى، أما في عام ٦٥١م فقد وصلت الجيوش الإسلامية حتى أسوار مرو، واستولت على المدينة بدون حرب. وهكذا طوى التاريخ صفحة الدولة الساسانية التي استمر وجودها ٤٢٧ عاماً.

تُرى لماذا خضعت فارس هكذا وبشكل سريع للعرب؟ في أول الأمر تعرضت فارس للهجوم من قبل الجيش المشترك لـ «طون يابغو» سلطان الترك الغربيين وهرقل إمبراطور بيزنطة، وتلقت ضربة ثقيلة (عام ٦٢٨م). واستولى» طون يابغو» على «كتيسيفون» عاصمة فارس آنذاك. وأسقط «خسرو برويز» من على العرش، ونصّب كاوى على العرش مكانه. وكانت هذه الحرب بمثابة صفعة لفارس، وأدت إلى إضعافها، وهذا هو سبب عدم قدرة الساسانيين على مقاومة الفتح العربي.

وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب بدأت الاضطرابات الداخلية بين العرب، وبعد وفاته عام ٦٦١م خرجت الخلافة من قريش، وانتقلت إلى الأمويين. فقد كان الخلفاء الأربعة السابقون جميعهم من قريش.

وفي عهد الأمويين انتقل مركز الخلافة من الكوفة إلى الشام. وبعد ذلك بدأت حركة فتح آسيا الوسطى، وكان سبب تحقيق العرب الانتصارات السهلة، هو أن الدول التي استهدفوا فتحها كانت آيلة للسقوط من داخلها نتيجة الصراع على العرش، والحروب الداخلية، كما كانت ضعيفة بسبب الثورات وتدهور الوضع السياسي والاقتصادي. هذا بالإضافة إلى الخبرات القتالية الهائلة التي اكتسبها العرب من خلال الحرب ضد بيزنطة وفارس.

كان لدى العرب وحدات فرسان مجهزة بأسلحة ثقيلة وخفيفة، كما كان لديهم وحدات مشاة أيضاً. ولم يكن في الوحدات المدرعة الفرسان

فحسب بل الخيول أيضاً كانت مدرعة. وكان عدد الفرسان مساويا لعدد المشاة.

بعد أن فتح العرب «مرو» في عام ٦٥١م حولوا أنظارهم إلى آسيا الوسطى. ومن المحتمل أن الشيء الذي جذبهم إلى هذه المنطقة هو الأرض الخصبة والمحاصيل الوفيرة فأثناء الفتح العربي كانت آسيا الوسطى لاتنعم بالاستقرار. وفي ذلك الوقت داخل مجال سيطرة السلطنة التركية الغربية؛ وكانت السلطنة التركية نفسها ضعيفة جداً بسبب الحروب الداخلية والهجمات الخارجية. وذلك لأنه بعد موت طون يابغو في عام ٦٣٠م بدأت الاضطرابات الداخلية. وتولى حكم الأتراك الغربيين: سي يابغو(٦٣٠ - ٦٣٣م) وطولو قاغان (٦٣٣ - ٦٤٠م) وإيشبارا تيريش تونغا قاغان (٦٣٤ - ٦٣٩م) وباغاطور إپي قاغان (٦٣٩ - ٦٤٠م) وإپي طولو قاغان (٦٤٠ - ٦٥٣م).

وبعد هزيمة «يزدجرد الثالث» أمام العرب في نهاوند عام ٦٤٢م جاء إلى مرو، ولجأ إلى «إپي طولو» سلطان الأتراك الغربيين، لكن «إپي طولو» كان هو نفسه في وضع ضعيف، لا يمكنه من الدفاع عنه ضد العرب.

وعلاوة على ذلك فإنه اعتباراً من عام ٦٤٠م شنت «أسرة طانغ» عدة هجمات ضد الأتراك الغربيين. وأنزلت إمبراطورية طانغ بالمساعدة التي حصلت عليها من الأويغور ضربة ثقيلة بـ«چن - چو يابغو» (اسمه في المصادر الصينية أسيناهو - لو)، سلطان الأتراك الغربيين بالقرب من بوروتولا عام ٦٥٩م، وبعد ذلك لم يستطع الأتراك استعادة وحدتهم التي كانوا عليها.

كان هذا هو الوضع في آسيا الوسطى أثناء هجمات العرب على آسيا الوسطى، وفي عهد معاوية (٦٦١ - ٦٨٠م) عبر عبيد الله بن زياد نهر «آموداريا» وهجم على آسيا الوسطى، واستولى على «بايكنت» وبُخارى وعاد إلى «مرو» بغنائم وفيرة والكثير من أسري الحرب.

والحروب التي شنها سعد بن عثمان في عام ٦٧٦م ضد بُخارى ومدن صغديانا الأخرى كانت خطوات مهمة في مسار الفتح العربي لآسيا الوسطى. فبعد استيلاء سعد على بُخارى توجه إلى سَمَرقَنْد، وكان النصر حليف العرب وحصلوا على غنائم كبيرة فضلا عن ٣٠ ألف أسير.

لم يستطع الولاة الذين تم تعينهم في عهد الخلفاء يزيد (٦٨٠ - ٦٨٣م) ومعاوية الثاني (٦٨٣ - ٦٨٤) ومروان الأول (٦٨٤ - ٦٨٥) وعبد الملك(٦٨٥ - ٧٠٥م) أن يسيطروا على شمال شرق فارس (خُراسان) بأكملها، إذ لم يستطع ربيع بن زياد وعبد الله بن حازم ويزيد بن المهلب، وهم من الولاة العموميين، الاضطلاع بهذا الأمر، والسبب هو تمرد شعوب آسيا الوسطى الذين تم فتح بلادهم على أيدى العرب، والمقاومة الشديدة التي أبدوها ضد هذا الفتح.

فقد استغرق إخضاع العرب لآسيا الوسطى ٥٠ عاماً تماماً حيث تعين على الخلفاء الوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٥) وسليمان (٧١٥ - ٧١٧) وعمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠) ويزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) وهشام (٧٢٤ - ٧٤٣) والوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤) أن يبذلوا جهودا كبيرة.

أما في عام ٦٨٢م فقد تأسست من جديد السلطنة التركية الشرقية، كما انتعشت السلطنة التركية الغربية بحلول عام ٧٠٠م، ولذلك لم تسمح السلطنة التركية سواء الشرقية أو الغربية للعرب بالاستيلاء على آسيا الوسطى، فلو تيسر للعرب الاستيلاء على آسيا الوسطى لتنحي الأتراك (خاصة الأتراك الغربيين) جانباً واستطاع العرب إخضاع شعوبها، لهذا كانت الشعوب التركية في مقدمة الصفوف التي قاتلت العرب، وكان هذا هو سبب المقاومة الشديدة التي واجهها العرب.

كان هدف قتيبة بن مسلم، الوالي العام على خُراسان الذي عينه الخليفة الوليد (٧٠٥ - ٧١٥) هو إخضاع آسيا الوسطى. فتحرك قتيبة من مرو بجيش كبير لفتح بُخارى في عام ٧٠٩م. وبناءً على طلب شعوب آسيا الوسطى، أمر «قاباغان - خان» الموجود على رأس السلطنة

التركيـة الشـرقية آنـذاك بخـروج الجيـش التركـي بقيـادة «كـول - تيكيـن» لمواجهـة قتيبـة

كان «كـول - تيكيـنٍ» بـن «قوتلـوك إيلتيريـش قاغـان» وابـن شـقيق «قاباغـان - خـان» ،بطـلاً مشـهوراً وجديـراً بالاحتـرام. غيـر أن الأتـراك انهزمـوا علـى يـد العـرب وانسـحب «كـول - تيكيـن» واسـتولى قتيبـة علـى بُخـارى.

وفـي عـام ٧١٢م جـاء «كـول – تيكيـن» مـرة أخـرى إلـى آسـيا الوسـطى بجيـش جديـد. فـي تلـك الأثنـاء تحـرك قتيبـة للاسـتيلاء علـى مدينـة سَـمَرقَنْد التـي كانـت بمثابـة قلـب الصغـد. فـي بدايـة الحـرب كان النصـر حليـف الأتـراك الشـرقيين، ولكـن فجـأة اسـتدعى «قاباغـان خـان» كـول - تيكيـن. إذ أن العلاقـات بيـن السـلطنة التركيـة الشـرقية وإمبراطوريـة طانـغ قـد توتـرت.

والواقـع أن انسـحاب «كـول - تيكيـن» سـهَّل كثيـرا مـن أمـر قتيبـة. فاسـتولى قتيبـة علـى سَـمَرقَنْد فـي عـام ٧١٢م، وحـول أنظـاره إلـى وادي فَرْغانـة، واضطـر إلـى الانسـحاب دون أن ينجـح فـي الاسـتيلاء علـى كاشْـغَر. وفـي عـام ٧١٥م انشـغل العـرب باسـتكمال فتـح آسـيا الوسـطى؛ و برغـم عـدم الاسـتيلاء علـى كامـل مـا وراء النهـر، لكنهـم نجحـوا فـي الاسـتيلاء علـى زرفشـان ووادي قاشـقاديا وخـوارزم.

وبعـد مـوت الوليـد سـاءت علاقـة قتيبـة بالخليفـة الجديـد سـليمان بـن عبدالملـك. فقـد أراد سـليمان أن يقضـي علـى الحجـاج الـذي خـرج عليـه، لكـن قتيبـة انحـاز للحجـاج ولـم ينصـع لأوامـر سـليمان. بيـد أن قتيبـة قُتـل فـي عـام ٧١٥م علـى يـد الجنـود العـرب الذيـن تمـردوا فـي فَرْغانـة. وانشـغل الخلفـاء الذيـن جـاءوا بعـد مـوت قتيبـة علـى مـدى ٣٥ عامـاً بمحاولـة إخضـاع شـعوب آسـيا الوسـطٍي وعلـى رأسـهم الأتـراك الغربييـن، وفـي النهايـة بلغـوا هدفهـم، ولنقـف قليـلاً عنـد هـذه الأحـداث.

لـم يكتـف العـرب بالسـيف والسـوط لإخضـاع شـعوب آسـيا الوسـطى بـل لجـأوا إلـى وسـائل أخـرى. مثـلا كانـوا لايأخـذون خراجـا مـن الذيـن قبلـوا

الدخول في الإسلام. وأراد بعض الخلفاء أن يرجعوا عن ذلك، لكن ولاة خُراسان لم يوافقوا على ذلك، وواصل أهالي آسيا الوسطى الذين لم يرضوا عن سياسة الجزية هذه التي طبقها العرب، نضالهم بزعامة «صولو - خان» سلطان الأتراك الغربيين.

وفي عام ٧١٧م تأسست سلطنة «طوركيش» الوريث الشرعي لسلطنة الأتراك الغربيين. وينتمي شعب «طوركيش» إلى الأتراك الغربيين وبصفة خاصة إلى شعب» أون أوق» وكان يتشكل من «صارى طوركيش» و «قارا طوركيش»، وكان «صولو - خان» ينتسب إلى» صارى طوركيش».

في عهد «صولو - خان» (٧١٧ - ٧٣٨م) كان لتوحيد قوى شعوب آسيا الوسطى الفضل في تأخير الاستيلاء على بلادهم لمدة عشرة أعوام. مثلا في عام ٧٢٨م انسحبت الجيوش العربية من معظم البلاد ولم تبق في يدهم سوى سَمَرقَنْد فقط. أما في عام ٧٣٧م فقد خاض شعوب آسيا الوسطى حربا دامية مع العرب.

وفي الحرب التي وقعت في «خُتلان» التى تقع الآن فى طاجيكستان، كان قائد الجيش العربي للمرة الثانية هو أسد بن عبد الله الوالي العام لخراسان وماوراء النهر. أما جيش آسيا الوسطى المشترك فكان بقيادة «صولوخان». وكان جيش «صولو - خان» يضم جنودا من الطوركيش والقارلوق وصغد وطشقند وختلان وغيرهم. بيد أن الصدامات التي جرت لصالح «صولو - خان» في بداية الحرب انتهت بانتصار العرب. وبسبب المعارضة الشديدة التي أبداها «صولو - خان» وتصرفاته المسببة للتمزق والشقاق، أطلق عليه العرب لقب «أبو مُزاحم»، ويعني «من يتناطح ويكثر من المشاكل».

خلاصة القول إن العرب عندما جاءوا إلى آسيا الوسطى كانت السلطنة التركية الغربية والشرقية يسودها الفوضى والاضطرابات. فقد ذهبت وحدتهم، وانتهزت إمبراطورية «طانغ» هذه الفرصة للقضاء عليهم. لذلك لم يكن الأتراك الغربيون والشرقيون في وضع يمكنهم من توحيد قواهم من أجل الدفاع عن أراضيهم أمام العرب.

وفـي النهايـة نشـر العـرب الإسـلام فـي آسـيا الوسـطى، ونجحـوا فـي جعل شـعوب المنطقة مسـلمين.

الفصل العاشر: قيام الدولة القراخانية

الياغما

فى عام ٨٤٠م ولأسباب مختلفة فرّ قسم كبير من الأويغور الشرقيين بقيادة (بانتكين) فى اتجاه الغرب(خاصة السفوح الشمالية والجنوبية لجبال طانرى). والجزء المتعلق بالأويغور من «حوليات أسرة طانغ» يبين أن من فروا واتجهوا ناحية الغرب لجأوا إلى «القارلوق». واستنادا إلى هذه المعلومة، تذكر بعض المصادر أن قيام «الدولة القراخانية» كان على يد «الأويغور» و«القارلوق». لكن ما نقتنع به أن الأحداث لا تؤيد وجهة النظر هذه. لأن حولية «أسرة طانغ» فى الجزء المتعلق بالطوركيش، يبين أن الأويغور الذين فروا إلى الغرب بقيادة» بان تكين»، وصلوا إلى كاشْغَر وكوچار، وأن «بانتكين» أقام لفترة فى كاشْغَر وكوچار، وبعد أن ضم أراضيها واعتبارا من سنة ٨٥٠م أخضع لحكمه طورفان وبشباليق وأسس دولة أديقوت الأويغورية. واعتمادا على هذه المعلومات الموثوق بها، يمكن القول أن الأويغور الذين فروا ناحية الغرب اضطلعوا بالدور الرائد فى قيام دولتي الأويغور خاصة «سلطنة اديقوت» (٨٥٠ - ١٣٣٥م) وسلطنة «أويغور قانصو» (٨٧٠ - ١٠٣٦م).نتوقف عند هذا الموضوع للإحاطة به.

إن القناعة المشتركة لدى المؤرخين هى أن قبيلة «ياغما»، لعبت الدور الرئيس فى قيام الدولة القراخانية الأويغورية. لكن يجب أن نوضح أيضا أنه دائما ما لعبت قبيلة أوعشيرة دورا رئيسا فى حكم كل دولة أسسها أجدادنا.

مثال ذلك أن عشائر «لانتى» و«غويان» و«شابو» الثلاث، لعبت الدور الرئيس فى قيام دولة الهون. فكل حكام الهون كانوا من عشيرة «لانتى»، لكن الكلمة العليا فى الإدارة كانت للعشيرتين الأخريين. وكان أبناء حكام الهون لايتزوجون إلا من بنات أمراء «غويان» و«شابو». وأما بناتهم فلا يزوجوهن إلا من أمراء هذه العشائر فقط. ولا يمكن لأمراء القبائل الأخرى مصاهرتهم. فقد كان لعلاقات المصاهرة مع الحكام الأجانب أهمية كبيرة لما تعنيه من أهمية سياسية.

وفى زمن سلطنة «الكوك تورك» (٥٥١ - ٧٤٤م) شكلت عشيرة «أسينا» السلطة السياسية بين الترك فى آلطاي، وبقيت إدارة «دولة الكوك تورك» طوال مائتى عام، فى يد من ينتمون إلى هذه العشيرة، ولهذا كان حكام الترك يحملون لقب «أسينا» وكان الحاكم يستخدم لقب «أسينا» قبل اسمه مثل «أسينا طوفان»، «أسينا موقان»، و«أسينا قوتلق» وهكذا. وقد أسست سلطنة أويغور أورخون على يد ممثلي قبائل «ياغلاق» المنضمة باتحاد الأويغور العشرة، لكن فى سنة ٧٩٥م انتقلت السلطة فيها من قبيلة ياغلاق إلى يد عشيرة آديز التى هى من الأويغور العشرة. وكان «طانريده اولغ بولمش آلب كلك بيلكه سلطان» الحاكم السابع عشر لسلطنة أورخون الأويغورية أول من اعتلى العرش ممن ينتسبون إلى «آديز». ورغم هذا لم يكن هناك انقسام بين قبائل الأويغور الشرقيين، وحققوا تكاملا داخليا فيما بينهم الأمر الذى كان باعثا على التطور عند النظر إليه من زاوية التطور الاجتماعى، كما تولى ممثلو قبيلة «آديز» المنسوبة للأويغور العشرة الإدارة فى سلطنة أديقوت الأويغورية أيضا.

وكان خانات سلطنة أورخون الأويغورية(سواء الياغلاق أو الآديز) لايزوجون أبناءهم وبناتهم إلا من أبناء وبنات حكام قبيلة «بوقو» المنسوبة إلى اتحاد قبيلة الطقوز أوغوز.

كما أسس الأمراء المنسوبون إلى عشيرة «ياغلاق» التى فرت إلى الغرب سنة ٨٤٠م سلطنة «قانصو الأويغورية» (٨٧٠ - ١٠٣٦م). ومازال

اسم «ياغلاق» موجودا بين الأويغور الصُفر الذين يعيشون إلى اليوم فى اقليم «صولان» من «قانصو»، وهذا يظهر أن الأويغور الصُفر الذين فروا إلى الغرب سنة ٨٤٠م هم أحفاد الأويغور الشرقيين.

وسنقف فيما يلى عند قبيلة «يغما» التى لعبت الدور الأساس فى تأسيس الدولة القراخانية الأويغورية، وحكموا الدولة نفسها من بدايتها حتى نهايتها.

«اليغما» هم أفضل المقاتلين بين كل قبائل الأويغور، وتاريخهم مغرق فى القدم. لأنهم أحفاد الهون الغربيين (الهون الشماليين). واعتبارا من عام ٩٠ ميلاديا، كانت قبيلة «يوابان» تعيش فى الإقليم الممتد من نهر إيلى إلى طلاس، بجوار بلقاش وبحيرة ايسيق كول. لكن بعد عام ٤٥٠م لا يرد ذكر لليوابان فى حوليات الصين. لكن يظهر اسم «اليغما» فى الأيام التى انمحى فيها اسم «اليوابان» من المصادر. وفى عام ٦٢٠م، انضم اليغما الذين انفصلوا عن «طون يابغو» سلطان الأتراك الغربيين إلى الأويغور الذين فى الشرق (مغولستان اليوم). وظل القسم الرئيس من «الياغما» بجوار بحيرة «إيسيق» (وفى القسم الشمالى من كاشْغَر).

ويرد ذكر عن «اليغما» الشرقيين فى نقوش أورخون التى نُقشت فى عام ٧٥٠م.

وكتاب حدود العالم، وهو كتاب مجهول المؤلف، يبين بالتحديد الأراضى التى عاش فيها «اليغما» فى القرن العاشر(٩٥٠م)، وعليه كان «اليغما» فى القرن العاشر يعيشون فى «يولدوز»، و«تكس»، «كونس»، وفيما يجاور كاشْغَر و«ايسيق كول». وفى نفس الكتاب يتضح أيضا أنهم والحكام القراخانيين ينحدرون من نفس العشيرة.

وربما أن هؤلاء «الياغما» ليسوا الفرع الشرقى للأويغور الذين فروا من مغولستان فى عام ٨٤٠م، تحت إدارة «بان تكين» وربما كانوا الفرع الذى جاء من «وادى ايلى» من فوق «يدى صو» واتحد مع الياغما الغربيين، وبمجيئهم اكتسب اليغما الشرقيون قوة مهمة ومؤثرة.

و«الياغما» الذين جاءوا فى القرن التاسع إلى الجنوب الغربى من «يدى صو» وإلى جنوب «ايسيق كول»، وشرق كاشْغَر وغربها، واستقروا هناك.

وكانت قدرة «الياغما» على القتال والحرب تثير الانتباه بين قبائل الترك الأخرى[١١٥].

والحقيقة أن كانت شجاعة «الياغما» وخبرتهم تختلف عن غيرهم. وليس من التصادف أن تأتى كلمة «ياغماجى» بمعنى «قاطع الطريق» أيضا.

وهكذا، كان هؤلاء «الياغما» هم المؤسسون للدولة القراخانية الأويغورية سنة ٨٥٠م بالاشتراك مع «القارلوق» و«الجغيل».

«كُل بيلكه قراخان» وأبناؤه

لم تتفق المصادر التاريخية على رأى واحد فى مسألة من هو أول سلطان قراخانى، وهذا الموقف منشأه التساؤل عمن يكون «كُل بيلكه قراخان».

«كُل بيلكه قرا خان» هو الرجل الذى أسس الدولة القراخانية الأويغورية فى الأعوام الثلاثين التى بين ٨٥٠ - ٨٨٠م، وأرسى الحكومة والتشكيلات العسكرية فيها. وقد أطلق الأويغور على الدولة الجديدة اسم «قراخان» وعلى الأسرة التى أسستها اسم «القراخانية». والمدهش أن الأويغور يشعرون بالاحترام الزائد لإسم قراخان، ويظهرون نحوه احتراما إلهيا. (كان أجدادنا فى الأزمنة القديمة يعبدون الروح الإلهية وكانوا يسمون هذا الدين الشامانية، ويقال فى الشامانية على الإله الأعظم «باي أولكن» (بايجونغ). وكان «بايجونغ» يعيش فى قصر السماء الذى فى الجبل الذهبى ذوالطبقات التسعة. وكان له تسعة أولاد هم: «ياشي خان»، و«قرشيتخان»، و«باهطاخان»، و«قراخان»، و«قوش خان»، و«قاينيمى خان» و«يايق خان». ومن بينهم هرب «قراخان» من قصر أبيه المتلألئ بالبريق. وقراخان الذى هو إله النجم، كان يشبه النجم

الـذى يسـميه الأوربيـون Saturn، والعـرب «زحـل» والأتـراك «سـكندر». وفـى الأزمنـة القديمـة، كان يقـال عـن «زحـل» فـى اللغـة البابليـة «قرايلـدز»[١١٦].

وقـد أضفـى الأويغـور، وربمـا اسـتنادا إلـى هـذه الروايـة، علـى «أويغـور خـان» مؤسـس الدولـة الجديـدة صفـة الألوهيـة، فجعلـوه يشـبه «قراخـان بـن بايجونـغ» كبيـر الآلهـة. ولاسـيما أنهـم قبـل الميـلاد بعـدة قـرون، كانـوا يطلقـون علـى خانـات الهـون اسـم «طانريقـوت». ونحـن نعـرف أن لفـظ طانـري يعنـى القـوة الإلهيـة، أمـا لفـظ قـوت فيعنـى الإبـن، وعلـى هـذا فإسـم تانريقـوت يعنـى «ابـن الإلـه». حتـى أن تانريقـوت الهـون «كـوك خـان» (وبمعنـى آخـر كـوك تانريقـوت) يذكـر هـذا فـى الرسـالة التـى أرسـلها إلـى امبراطـور الهـان «فـو_ تـى» عـام ١٦٢ قبـل الميـلاد: «إن تانريقـوت الهـون العظيـم الـذى فـى السـماء والأرض، وعرشـه مـن الشـمس والقمـر، يرجـو السـلامة لامبراطـور الهـان». خلاصـة القـول أن الهـون مثلهـم مثـل الأويغـور، كانـوا يعتنقـون الشـامانية منـذ القـدم، ولهذاكانـوا يسـمون السـلطان «تانريقـوت».

أرسـل السـلطان «سـاوارلو» سـلطان كـوك تـورك رسـالة إلـى «ون - تـى» امبراطـور» أسـرة سـوى» فـى عـام ٥٨٤م، جـاء فيهـا: ليكـن معلومـا للجميـع بـأن تانريقـوت سـلطان العالـم التركـي «قولـوق شـادباغا سـاوارلو» ابـن الإلـه فـى السـماء....»

ويقـول المـؤرخ «سـيماهوانغ» الـذى عـاش فـى زمـن «أسـرة سـونج» فـى الصفحـة ١٧٦ مـن كتـاب وقائعـه، هـذه الرسـالة التـى كتبهـا سـلطان الكـوك تـورك؛» كان سـلاطين أورخـون الأويغورية، يتسـمون بأسـماء ذات قدسـية مثل «آى طانـرى خـان»[١١٧]، وكُـوُن طانـرى خـان»[١١٨]، وليـس مـن قبيـل المصادفة أن يكـون اسـم السـلطان مؤسـس الدولـة القراخانيـة «قراخـان»، واسـم الدولـة «القراخانيـة» (بمعنـى المقدسـة). ومـع هـذا فهنـاك أيضـا مؤرخـون فسـروا اسـم «قراخـان» بشـكل آخـر. مثـال ذلـك أن بعـض المؤرخيـن المعاصريـن، مازالـوا يطلقـون اسـم «قـره بـودون» علـى الأويغـور دون غيرهـم، وعلـى حكامهـم «قراخـان» بمعنـى حاكـم الشـعب. أمـا بعـض المؤرخيـن فيوضحـون

أن الأويغـور القدامـى اسـتبدلوا كلمـة قـرا بكلمـة «أولـوغ»، وهكـذا ظهـر لقـب «قراخـان» ويعنـى «الخـان الكبيـر». وإذا كانـت وجهتـا النظـر الثانيـة والثالثـة تختلفـان بشـكل محـدود عـن وجهـة النظـر الأولـى التـى جـاءت بمعنـى «ابـن السـماء»، فـإن الاختـلاف فـى المعنـى ليـس هـو مـا يعنينـا. إنمـا باختصـار أن لفـظ قـرا خـان يعنـى «ابـن السـماء».

والأويغـور فـى زمـن القراخانييـن اسـتخدموا فـي أسـماء «السـلطان» ألقاب «قراخـان» جنبـا إلـى جنـب مـع «بوغـرا» و«أرسـلان».(مثل كُل بيلكـه قراخان (بوكـه قراخـان؟)، «سـاتوق بوغراخـان»، و«السـلطان هـارون بوغـرا»، و«آلـب أرسـلان خـان»، و«سـليمان أرسـلان خـان»). وليـس مـن قبيـل المصادفـة أيضـا إضافـة ألقـاب «بوغـرا» و«أرسـلان» إلـى اسـم سـلطان الأويغـور.

ومـن عـادة أجدادنـا منـذ الأزل تقديـر الشـبان الأبطـال ذوى الفراسـة، وكذلـك البنـات. وكان هـذا هـو الشـرط الوحيـد الـذى تتطلـع إليـه بنـات الأويغـور فـى الرجـل الـذى سـوف تمنحـه قلبهـا.إذ احتلـت البطولـة فـى الدفـاع عـن الوطـن المرتبـة الأولـى منـذ القـدم. كمـا أن بنـات الأويغـور، كـن يشـترطن دومـا فيمـن يتزوجنـه حـب الوطـن والبطولـة.

اعتنـق الأويغـور الإسـلام فـى زمـن القراخانييـن بعـد أن تخلـوا عـن الشـامانية والبوذيـة، واسـتمروا فـي تقاليدهـم باسـتخدام أسـمائهم القوميـة القديمـة إلـى جانـب الأسـماء الإسـلامية.

مثـال ذلـك أن الإسـم الأويغـورى لـ «سـاتوق تكيـن» هـو «سـاتوق بوغراخـان»، لكـن اسـمه المسـلم «عبـد الكريـم». ولنفـس الخـان ابنـان أطلـق علـى أحدهمـا اسـم «بايطـاش» (واسـمه المسـلم موسـى) والآخـر اسـم «تونغـا ايلـك» (اسـمه المسـلم سـليمان).

وكان سـلاطين القراخانييـن يطلقـون علـى أبنائهـم أسـماء الحيوانـات والطيـور علـى اختلافهـا. مثـال ذلـك أن أحـد أبنـاء السـلطان يوسـف قـادر كان اسـمه «بوغـرا تكيـن» والآخـر اسـمه «ياغـان تكيـن» والثالـث «طُغْـرُل «قراخـان». وهـذه الأسـماء كانـت تعنـى البطولـة والمهـارة والقـوة. وقـد

أوضحنا من قبل معنى «بوغرا» و«قراخان». وكان الأويغور منذ القدم يسمون الفيل «ياغان». كما أوضحنا معنى كلمة «تكين» وعلى هذا فكلمة «ياغان تكين» تعنى أمير الفيل. وكما عرف أن الفيل هو الأقوى والأشجع بين الحيوانات. أما «طُغْرُل» فتعنى «شُنقار» (الصقر) الذى لا يوجد بين الطيور المفترسة من يفوقه فى السرعة وحدة البصر.

وبعد أن اتخذ الأويغور كاشْغَر عاصمة للدولة القراخانية، أطلقوا عليها اسم مدينة الجيش (المدينة المركزية). وكان خانات القراخانيين يذهبون إلى «بلاساغون» على ساحل نهر «جو» لقضاء الصيف، أما الشتاء فيمضونه فى كاشْغَر.

ورغم أنه لاتوجد معلومات مؤكدة عن تأسيس مدينة كاشْغَر أقدم مدن الأويغور، التى نشأفيها كثير جدا من أصحاب المقدرة والاستعداد، لكننا نملك تاريخا طويلا لا يمكن إنكاره.

فيتكلم محمود الكاشْغَرى فى «ديوان لغات الترك» عن حياة «آلب أرتونغا» فى كاشْغَر، وعن شهرتها بنقاء هوائها ومبانيها الفخمة. و«آلب أر تونغا» الحاكم العظيم لشعب توران، مات فى حملة له على آذربيجان شنها فى عام ٦٢٥ قبل الميلاد. واستنادا على هذه المعلومة، يمكن القول أن كاشْغَر مدينة موغلة فى القدم.

وبالنظر إلى بعض الكتابات التاريخية، كانت كاشْغَر فى زمن الهون معروفة باسم «مدينة الهون» وذلك قبل الميلاد بعدة قرون. وكما هو معروف أنه فى القرن الثانى قبل الميلاد (فى عام ١٧٢ قبل الميلاد) عندما فتح «تانريقوت الهون» وسط وغرب آسيا، كانت كاشْغَر أقوى مدينة داخل حدود أراضى الهون. لكن غير معروف ماذا كان اسم المدينة فى زمن «آلب أر تونغا».

وكانت المدينة تعرف باسم «قاش قيا» إلى أن اتخذها القراخانيون عاصمة لهم. ويمكن القول أن الإسم الذى أطلق عليها يعبرعن الموقع الجغرافى، واضعين فى الاعتبار المكان الذى تشغله المدينة اليوم بين

الطرف الشمالي لجبال «آرطًش»، والمصبات والمنحنيات الجنوبية لنهر «طومان» المعروفة باسم «قاش».. والقول أنه أن كلمة كاشْغَر التي جاءت من «قاش قيا» تعني في اللغة «الحاجب المقوس».

وكانت راية الدولة القراخانية مربعة الشكل من الحرير الأحمر، يتوسطها شجرة صنوبرفي طرف منها ستة أغصان ذهبية وفي الأخر ثلاثة. وفي زمن «كول بيلكه خان» أول خان قراخاني، كانت الدولة القراخانية تضم داخل حدودها «يدى صو»، و«وادى ايلى»، والسفوح الجنوبية ل» جبال طانري» وبعض مناطق كاشْغَر.

وحسب بعض المعطيات التاريخية، انه عندما توفي «كول بيلكه خان» عام ٨٨٠م تولى مكانه ابنه «بازرخان» (بارخان؟). ويظهر بعض المؤرخين المعاصرين بازرخان بوصفه ثاني خانات الدولة القراخانية. وغير واضح إن كان «بازرخان» و«بارخان» شخصا واحدا أم لا. كما توجد في مؤلفات المؤرخ الأويغوري «جمال القارشي» اقتباسات كثيرة من كتاب «تاريخ كاشْغَر» للمؤرخ الأويغوري عبد الجبار الكاشْغَرى. وعليها فإنه لا شك قط في كون «بارخان» هو ثاني خانات القراخانية وكانت مساحة الدولة في عام ١٠١٠م ثلاثة ملايين كيلو مترا مربعا تمتد إلى الطرف الغربي من كشميروإلى خوارزم الغربية، وإلى شمال «بلقاش»، وإلى بحير «آرال» وإلى «مرو» في الجنوب. وبقول آخر أكبر من خمسة أضعاف مساحة فرنسا الحالية.

وحسبما نقله «جمال القارشي» كان ل«كول بيلكه قراخان» (يرد عند جمال القارشي كول بيلكه قادرخان) ابنان هما «بازير» و«اوغلتشاق». وبالقدر المفهوم أن «بازرخان» اعتلى عرش القراخانية في ٨٨٠م. وأنه جرت حروبا دامية بين «أوغلتشاق» والأمير اسماعيل الساماني في الفترة من (٨٧٧ - ٩٠٧م).

وقد حاصر اسماعيل الساماني مدينة طراز أكبر مدن القراخانيين في «يدى صو» في عام ٨٩٣م (مارس أو إبريل)، وبعد حصار طويل نجح في الاستيلاء عليها. وحسب ما هو مدون فإن اسماعيل الساماني

قتل من الجيش القراخانى حوالى عشرة آلاف؛ ووقعت زوجة «أوغلتشاق» وخمسة عشر ألف شخص فى الأسر. وحوّل اسماعيل السامانى معابد المسيحين التى فى «طراز» إلى جوامع. وهرب «اوغلتشاق» فى هذه الأثناء إلى كاشْغَر، وجمع جيشا جديدا وحاصر السامانيين فى ٩٠٧م.

وبدأ السامانيون فى الاستيلاء على «يدى صو» فى عام ٨٤٠م. وفى ذات العام آلت إليهم اصفهان وبذلك بدأت فترة ارتفاع نجم السامانيين وسطوتهم فى آسيا الوسطى. وفى زمن ناصر بن أحمد أول حكام السامانيين استولى السامانيون على المنطقة حتى مدينة «شاوغار». هذه الأحداث كانت تشير إلى العلاقات المبكرة بين السامانيين والقراخانيين.

«ونظرا لعدم طرح النقود السامانية للتداول فى «يدى صو» وعدم تعيين الموظفين السامانيين، يمكن أن نقول أن حكم «يدي صو» كان غير تابع للسامانيين»[١١٩]، ولهذا استمرت «يدى صو» فى يد القراخانيين، حتى بعد هزيمة «اوغلتشاق» أمام السامانيين عام ٨٩٣م.

اعتلى «اوغلتشاق» عرش القراخانيين بعد موت «بازر أرسلان خان» عام ٩١٠م. إذ كان «ساتوق تكين ابن بازر أرسلان خان» طفلا آنذاك.

اعتلى «اوغلتشان» العرش القراخانيين مكان ابن أخيه الطفل، وتزوج من أرملة أخيه. وبعد حكم اوغلتشاق الدولة القراخانية لمدة تسع سنوات، استرد «ساتوق تكين» العرش عندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره.(ربما فى عام٩٢٠م) واعتنق الإسلام قبل أن يعتلى العرش.

ساتوق بوغراخان واعتناق الأويغور الإسلام

كنا قد بينا أن أجداد الأويغور كانوا يعتنقون «الشامانية». وكانت الشامانية هى الدين الرئيس بين كل الأتراك من زمن «الهون» (قبل الميلاد بعدة سنوات) حتى القرن التاسع الميلادي.

وبتدخل «بوغو سلطان» تخلى أويغور الشرق (الذين يعيشون الآن فى منغوليا وما حولها) عن الشامانية فى القرن الثامن الميلادى

واعتنقـوا المانويـة. أمـا أويغـور الشـرق الذيـن كانـوا يعيشـون فـى جنـوب جبـال «طانـري» (وادى تاريـم) فقـد تحولـوا منـذ القـرن الأول الميـلادى مـن الشـامانية إلـى البوذيـة.

وفيمـا بعـد فـإن قسـما مـن الأويغـور الذيـن فـروا إلـى المناطـق الغربيـة فـى الأربعينيـات مـن القـرن التاسـع الميـلادى (٨٤٠م)، ظلـوا محافظيـن على اعتناقهـم المانويـة، والذيـن اتجهـوا نحـو الشـمال والجنـوب مـن جبـال طانرى اعتنقـوا البوذيـة بتأثيـر أويغـور الغـرب.

وبالرغـم مـن اعتنـاق «سـاتوق بوغراخـان» الإسـلام فـى القـرن العاشـر الميـلادى فـإن قسـما لا يسـتهان بـه مـن الأويغـور قـد ظـل علـى البوذيـة. وكمـا هـو معـروف أن البوذيـة ظهـرت فـى الهنـد فـى القـرن السـادس قبـل الميـلاد وذاعـت فـى أكثـر بلـدان آسـيا فـى القـرن الثانـى قبـل الميـلاد.

ولفـظ «بـوذا» يعنـى الاسـتنارة. وقـد ولـد «سـكيامونى» صاحـب هـذه العقيـدة فـى عـام ٥٦٥ قبـل الميـلاد وتوفـى عـام ٤٨٥ ق.م، وينتسـب إلـى واحـدة مـن قبائـل شـاقية.

عـاش «سـكيامونى» فـى سـفوح جبـال الهيمالايا (فـى نيبال الآن) وانشـغل وهـو فـى سـن الشـباب بالتفكيـر فـى الإنسـان، مولـده وحياتـه، ومرضـه وموته ومـا يبتلـى بـه الإنسـان مـن مصائـب. وفكـر فيمـا يهـون علـى إنسـان مـا قـدر لـه. وذات ليلـة وكان فـى التاسـعة والعشـرين مـن عمـره، امتطـى جـواده ودخـل غابـة اعتكـف بهـا مـدة سـت سـنوات فـى ظـل شـجرة تيـن، قائـلا لـن أبـرح هذاالمـكان قبـل أن أبلـغ المعرفـة الكاملـة التـى مـا بعدهـا معرفـة، وإن جـف جلـدى ولحمـى ودمـى». وذات مسـاء وهـو فـى الخامسـة والثلاثيـن، رأى نجمـا يلمـع فـى ناحيـة الشـرق، وفـى تلـك اللحظـة اسـتنار ووجـد الطريـق الحقيقـى، وأسـس البوذيـة. وعقـب ذلـك طـاف بأماكـن كثيـرة مـن الهنـد يدعـو للبوذيـة.

انتشـرت البوذيـة فـى كشـمير وقندهـار (ولايـة بيشـاور فـى باكسـتان الحاليـة) فـى زمـن آشـوقا، حاكـم دولـة ماوريـا (٢٧٣ - ٢٧٣ق.م)، واسـتطاع

آشـوقا أن يوحـد شـمال الهنـد وجنوبهـا. وفـى عـام ٢٦٠ق.م اتخـذ البوذيـة عقيـدة لدولتـه. وشـاعت البوذيـة بواسـطة المجموعـات التـى أرسـلها إلـى مختلـف بلـدان آسـيا.

وفـى زمـن الكوشـانيين تخطـت البوذيـة بـلاد الهنـد وانتشـرت فـى مناطق مختلفـة، ودخلـت البوذيـة بيـن الأويغـور فـى زمـن قانيشـقا الثاني. وحسـب بعـض المصـادر أن قانيشـقا الثانـى جـاء بنفسـه إلـى خوتـن مـع بعـض دعـاة البوذيـة. وبيـن القرنيـن الأول والسـادس، انتشـرت البوذيـة فـى خوتن وكاشْـغَر وطورفـان وبقيـة مناطـق الأويغـور، وأصبحـت العقيـدة الحاكمـة فـى المـدن ذات الشـأن.

وإذا كانـت البوذيـة قـد انتشـرت فـى أنحـاء خوتـن، فـإن «كوچـار» أصبحـت الموطـن الثانـى لهـذا العقيـدة فـى القـرن السـادس الميـلادي. ففـى هـذا القـرن كان فـى «كوچـار» المئـات مـن معابـد البوذيـة، وعشـرة الآف راهـب وراهبـة. ويقـول المـؤرخ اليابانـى «يوشـى- ليـاو - تـى» إن «كثـرة الرهبـان البوذييـن، يبيـن أنهـم كانـوا مدعوميـن مـن حـكام كوچـار». وأثنـاء رجـوع «كاماراجيـو» مـن الهنـد جـاءه «بـك جونـغ» حاكـم كوچـار بنفسـه واسـتقبله عنـد «آقسـو»، وأعـد لـه كرسـيا مغطـى بالذهـب والمخمـل الرومـى، وأهـداه إليـه راجيـا إيـاه أن يجلـس عليـه[١٢٠].

وقـد لعـب الأويغـور دورا مهمـا فـى تعريـف الصينييـن بالبوذيـة، لكـن يبقـى هنـا أن نبـرز الـدور الـذى لعبـه كاماراجيـو الشـاعر والمترجـم البـوذى المشـهور الـذى جـاء «شـانج آن» فـى القـرن الخامـس الميـلادي، وترجـم الكثيـر مـن إلهيـات بـوذا إلـى اللغـة الصينيـة.

أمـا فيمـا يتعلـق بسـبب انتشـار البوذيـة فـى كثيـر مـن بلـدان آسـيا، فهنـاك بعـض الأسـباب التـى تتعلـق بالبوذيـة ذاتهـا.

فحسـب العقيـدة البوذيـة أن مـن يصنـع الخيـر فـى الدنيـا فسـوف يلقـاه فـى الدنيـا. ومـن يفعـل السـوء، فسـيلقاه أيضـا فـى الدنيـا، ومـع أنـه يبيـن مـا سـيلقاه البشـر فـى الدنيـا مـن ثـواب أو عقـاب، فـإن البوذيـة ضـد الحـرب،

ومن هذه الناحية فإن الحكام سواء فى الهند أو فى بلدان آسيا استفادوا من تعاليم البوذية فى تمكين سلطتهم، وإطالة فترات بقائهم فيها. لهذا السبب عملت البوذية على الاستفادة من الحكام والأمراء فى أول الأمر، وهم أيضا شجعوا الناس على اعتناقها تحقيقا لغاياتهم.

وبعد انتشار البوذية انقسمت إلى عدة مذاهب، أحدها «الماخيانا» والمذهب الآخر» الخنايانا» وحسب قول المؤرخ اليابانى «لياوتى» إن الأويغور كانوا على مذهب «ماهيانا» البوذى. وهذا هو قولنا عن البوذية التى كان ينتسب إليها الأويغور قبل اعتناقهم الإسلام.

والآن سنقف بالتفصيل على موضوع إسلام «ساتوق بوغراخان» وجهاده منأجل نشر الإسلام بين الأويغور.

واذا كانت هناك بعض الأساطير حول موضوع اعتناق «ساتوق بوغراخان» الإسلام، فلا ينبغى التوقف عندها. واستنادا على الوقائع التاريخية، كان لأبى ناصر السامانى دور كبير فى إسلام ساتوق بوغراخان. وأبو ناصر السامانى من الأمراء السامانيين. وقد هرب إلى كاشْغَر عاصمة القراخانيين بعدما خسر نزاعه على العرش الذى خاضه فى زمن نصر الثانى. وهناك بسط عليه «اوغولتشاق» حمايته، وأقره فى آتوش فى شمال كاشْغَر. وهكذا يفسر فريق من المؤرخين سبب مجيئ أبو نصر إلى كاشْغَر. بينما يفسره بعضهم الآخر بأن الحاكم السامانى نصر الأول، أرسل أبا نصر إلى كاشْغَر لكى يستميل ساتوق بوغراخان إلى الإسلام. وأيا ماكانت احدى هاتين الروايتين هى الصحيحة، فمن المؤكد فى كل الأحوال أن أبا نصر لعب دورا كبيرا فى إسلام ساتوق بوغراخان.

وحسب إحدى الروايات أن أبا نصر الذى كان على معرفة جيدة بلغة الأويغور وعاداتهم، خرج ذات يوم من «أرغو» إلى جوار «آتوش» للصيد، وأثناء ذهابه التقى فى الجبال الأمير الأويغورى «ساتوق بوغرا» وصارا صديقين. وبمرور الوقت اعتنق «ساتوق بوغرا» الإسلام بتأثير منه. وواقع الأمر أن الإسلام كان قد انتشر نسبيا فى هذه المنطقة قبل إسلام «ساتوق بوغرا». وبعد جهاد شديد خلع ساتوق بوغرا «اوغلتشاق» من

العرش (وربما قتله) واستولى على الحكم في عام ٩٢٠م.

وفيما بعد نجح ساتوق بوغراخان في نشر الإسلام وخاض في هذا السبيل صراعا مع الأويغور البوذيين في كاشْغَر وآقصو، وبالاساغون، وبارسخان (في شرق ايسيق كول) وغيرها، وأيضا مع القارلوق الشامانيين الذين في «يدى صو» والحقيقة أن أن الأويغور البوذيين قاوموا بشدة «ساتوق بوغرا خان»، لكن السطان طرد من بالاساغون من يقاومون الإسلام في عام ٩٤٣م.

ومع اعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام في عام ٩٢٠م، تحسنت العلاقات إلى حد ما بين القراخانيين والسامانيين. حتى أن ساتوق بوغراخان دخل أرض السامانيين في عام ٩٢١م لإخماد التمرد الذى ظهر في أنحاء خُراسان.

وباعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام، ومساعدته في إخماد التمرد، ضمن أن يمد السامانيون له يد المساعدة متى احتاج إليها. وجاء كثير من العلماء من ما وراء النهر على عمومها، ومن خُراسان وأفغانستان إلى كاشْغَر وبالاساغون. وهم الذين أطلقوا على ساتوق بوغراخان اسم عبد الكريم. وقد كتب على العملة الذهب التي سكت في زمن ساتوق بوغراخان «قراخان ساتوق عبد الكريم». هذه العملات محفوظة الآن في متحف سان بطرسبرج.

تُرى لماذا تخلى ساتوق بوغراخان عن البوذية واعتنق الإسلام؟. ليس في الدنيا شيئ بلا سبب، وبالتاكيد هناك أسباب مهمة دفعت الأويغور إلى اعتناق الإسلام. فكثير جدا من خانات الأويغور استفادوا من البوذية في تحقيق سلطتهم؛ لكن الأويغور باعتناقهم البوذية فقدوا إلى حد كبير روحهم القتالية. لأن تعاليم البوذية كانت ترفض الخلاف أي القتال. وكان الأويغور يعرفون أن الإسلام مقارنة بالبوذية يحرض الناس على الجهاد، ويأمر بالقتال. وكان هذا الوضع له تأثيره المهم في استمالة الناس إلى الإسلام. علاوة على أن خانات الأويغور أيضا كانوا يريدون

توحيد رعاياهم الذين يعتنقون ديانات ومعتقدات شتى مثل الشامانية والبوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية تحت دين واحد ويقضون على النزاعات المذهبية والدينية بينهم ليكونوا أصحاب دولة قوية ومتحدة. ومن ناحية أخرى كانوا يتطلعون إلى طرق دبلوماسية تغنى عن قوة سيف العرب الذين رغبوا فى نشر الإسلام. فلم يوقف العرب فى القرن الثامن الميلادى جهودهم لاستمالة شعب وسط آسيا إلى الإسلام. بل على العكس دفعوا الأتراك والأويغور الذين فى شرق آسيا إلى نفس الفعاليات فيما بينهم. مثال ذلك الخليفة الأموى هشام الذى أرسل فى عام ٧٣٠م رسولا إلى «اوتوكن» عاصمة الأتراك الشرقيين، يدعو «بيلكه قاغان» إلى التخلى عن الشامانية واعتناق الإسلام. أما فى عام ٧٥٠م فقد أرسل عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين تميم بن بحر إلى «قرا بالاساغون» عاصمة «خان أويغور أورخون» لحث بايانجور على اعتناق الإسلام. لكن سواء الأتراك الشرقيين أو الأويغور الشرقيين كلاهما ولأسباب مختلفة رفض التخلى عن الشامانية واعتناق الإسلام[١٢١].

وفي القرن العاشر الميلادي أصبح الدين الإسلامي ديناً عالميا، وكان له تأثير كبير في آسيا وأفريقيا وأوروبا.

ونتيجة للأسباب التي أوضحناها عاليه، تحول الأويغور والشعوب القريبة منهم عن الشامانية والبوذية واختاروا الدخول في الإسلام. كان اعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام في عام ٩٢٠م وسعي لنشره بين الأويغور على مدى ٣٦ عاما (بين ٩٢٠ - ٩٥٦م)، ففي عام ٩٢٠م أرسل «آلماسخان» حاكم دولة إيديل - بُلغار (٩٠٠ – ٩٢٥م) مجموعة من مسلمي الخزر برئاسة شخص يُدعى عبدالله إلى الخليفة العباسي المقتدر ليعلن عن رغبته في دخول الإسلام، وطلب منه إرسال علماء دين لتعليمه الإسلام. واستقبل الخليفة المقتدر سفراء «آلماس خان» بترحاب ووجه باسم، وأرسل إلى دولة إيديل بُلغار وفدا كبيرا برئاسة سوسون الراسي، وكانت القافلة التي تحركت تتشكل من ٥٠٠٠ فرد و٣٠٠٠ جمل. وكان هذا يعد حدثاً كبيراً بالطبع. لأن هذه القافلة كانت

حدثـاً خـارج العـادة ليـس مـن الناحيــة التجاريـة فقـط، بـل مــن الناحيــة السياسـية أيضـاً. فقـد كانـت القوافـل التـي تذهـب إلـى مناطـق بعيـدة بصفـة عامـة تتشـكل مـن بضعـة مئـات مـن الـدواب ونفـس العـدد مـن الأفـراد. كمـا إنهـا ليسـت قافلـة تجاريـة مثـل القوافـل التجاريـة الكبيـرةِ، ولـم يكـن فـي القافلـة التجـار والحـراس والخـدم فقـط بـل كان فيهـا أيضـاً الحرفيـون وعلمـاء الديـن والمهندسـون المعماريـون والخبـراء والدبلوماسـيون والسـائحون الذيـنٍ أرسـلهم الخليفـة.[١٢٢] عـلاوة علـى ذلـك كان معظـم التجـار قـد تلقـوا تدريبـاً دبلومآسـيا.

وعندمـا بلغـت قافلـة الخلافـة التـي خرجـت برئاسـة سوسـون الراسـي والسـكرتير ابـن فضـلان مدينـة بُلغـار، لـم تعمـل فقـط بالتجـارة بـل قامـت فـي نفـس الوقـت بمهـام دبلوماسـية مهمـة، وقدمـت مسـاعدات عسـكرية فنيـة ونفـذت مهـام دينيـة. ومـرت هـذه القافلـة التـي خرجـت مـن بغـداد علـى خُراسـان وبُخـارى وخـوارزم، ووصلـت إلـى إمـارة إيديـل - بُلغـار، وسـلم الوفـد الهدايـا القيمـة التـي أرسـلها الخليفـة المقتـدر إلـى «آلمـاس» حاكـم البولغـار. وفـي تلـك الأثنـاء كان الخزر(فـي عهـد هـارون قاغـان الثانـي، ٩٣١ - ؟) يعيشـون فـي المنطقـة الممتـدة مـن السـاحل الشـمالي الشـرقي لبحـر الخـزر وحتـى شـمال البحـر الأسـود، أمـا بيـن الخـزر وآرال فقـد كان يعيـش الأوغـوز الذيـن كانـوا تحـت حكـم «سلچوق بـك».

تـرك ابـن فضـلان الـذي عـاد مـن إمـارة إيديـل - بُلغارإلـى بغـداد فـي عـام ٩٢٢م معلومـات قيمـة جـداً عـن شـعوب البُلغـار والخـزر والأوغـوز. وهـذه الرحلـة التـي تعـد مصـدراً مهمـاً للغايـة فـي دراسـة تاريـخ الشـعوب التـي نتحـدث عنهـا إلـى يومنـا هـذا.

ويتحـدث زكـي وليـدي طوغـان عـن «آلمـاس» حاكـم البُلغـار عنـد اعتناقـه الإسـلام فيقـول مـا يلـي: «عندمـا صـار وفـد السـفارة الـذي أرسـله الخليفـة العباسـي المقتـدر علـى مسـيرة يـوم مـن مدينـة بُلغـار، خـرج وزراء «آلمـاس» وابنـاؤه والمقربـون منـه لاسـتقبال الوفـد. وعندمـا صـار علـى مسـيرة ١٥ كيلومتـر مـن مدينـة بُلغـار خـرج «آلمـاس خـان» بنفسـه

لاستقبال الوفد. ونزل «آلماس خان» عن جواده على عادة أجداده، وعظم ضيوفه الأجلاء. ونثر النقود الذهبية والفضية وقال أهلاً بالضيوف. وبعد ذلك دخلوا مدينة بُلغار في موكب رائع ومهيب. وأخذ السلطان «آلماس» الضيوف إلى الخيمة التي نصبها من أجلهم. ونظم أعيان المدينة وأمراؤها وكبار موظفيها احتفالاً بالمسلمين على مدى أربعة أيام. وأُقيمت مأدبة كبيرة سادها الود والاحترام. ودعا «آلماس خان» حكماء المدينة والسفراء لحضرته. وغير «آلماس» اسمه إلى جعفر. وأمر بإنشاء جامع وأمر بقراءة اسمه في الخطبة. وحدثت هذه الواقعة في ١٦ محرم عام ٣١٠ هجري (١٥ مايو عام ٩٢٢ ميلادي).[١٢٣]

وبعد قبول شعب إيديل - بُلغار الإسلام، ذهب السلطان» أحمد بن آلماس» مع مجموعة كبيرة تضم أركان الدولة إلى قصر الخليفة المعتمد فى بغداد. وفي عام ٩٨٦م أرسل السلطان محمد حاكم البُلغار سفيراً إلى «فلاديمير» غراندوق روسيا، ودعاه للدخول في الإسلام. ولكن محاولاته لنشر الإسلام بين الروس باءت بالفشل. فقد كان فلاديمير(٩٨٠ - ١٠١٥م) على علاقة وثيقة ببيزنطه، وكان متزوجاً من شقيقة واسيلي الثاني(٩٨٦ - ١٠٢٥م). فقد اعتنق المسيحية وصار صهراً لإمبراطور بيزنطة بهدف دعم سلطانه، ولذلك لم يرحب بالدين الإسلامي وذلك بتأثير بيزنطة. وقد اعتنق المسيحية في عام ٩٩٨م ووضع نهاية للوثنية التي كانت منتشرة في كييف. وأجبر شعب كييف على قبول المسيحية بالاغتسال في مياه «نهر الدنيبر».

خلاصة القول أنه فى مطلع القرن العاشر انتشر الإسلام فى مناطق كثيرة من العالم. وبعد اعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام عام ٩٢٠م، ثارسلاطين خوتن وكوچار البوذيان وسلطنة إيديقوت الأويغورية (وكان قد تم إخضاعهما فى زمن كول بيلكه قراخان) وأعلنوا استقلالهم. ومن ناحية أخرى أعلن الأويغور البوذيون والشامانيون الذين يسكنون بجوار نهر إيلى فى «آلطاى» عصيانهم. واتخذ «ساتوق بوغراخان» تدابير غاية الشدة فى مسألة إخماد هذه التمردات. وخرج بنفسه على رأس جيش

من الأويغور المسلمين وسار إلى خوتن. وهزم سلطان خوتن بعد معارك دامية، وضرب حصارا على المدينة. وتم فتح المدينة بمساعدة أهلها من المسلمين. وبعد خوتن سار ساتوق بوغرا صوب كوچار ضد الأويغور البوذيين والشامانيين. واستطاع أن يأخذ المدينة رغم المقاومة الشديدة التى أبداها أهل كوچار التى كانت الموطن الثانى للبوذية بعد الهند.

وقد فارق السلطان ساتوق بوغرا الحياة فى عام ٩٥٦م بعد أن أمضى فترة كبيرة من عمره فى نشر الإسلام بين الأويغور، ودفن حسب وصيته بجوار قبر أستاذه أبى نصر السامانى. وقبر «عزيز سلطان» الموجود اليوم فى آتوش ليس سوى المكان الذى دفن فيه. إذ يوجد فى نفس المكان قبر أبو نصر السامانى.

ترك السلطان ساتوق بوغرا ولدين، الأول اسمه بايطاش (واسمه المسلم موسى)، والآخر اسمه تونغا ايلك (واسمه المسلم سليمان). وبعد موت والدهما، اعتلى السلطان موسى بوغرا عرش القراخانيين، لكنه توفى بعد زمن قصير (٩٥٦ - ٩٥٨م).

وفى زمن السلطان سليمان أرسلان (٩٥٨ - ٩٧٠م) زاد انتشار الاسلام بين الأويغور والشعوب التركية الأخرى. وفى سنة ٩٦٠م أسلمت مائتاألف خيمة من الأويغور الذين يعيشون فى «يدى صو» و«وادى تاريم». وفى نفس السنة أعلن سليمان أرسلان خان الإسلام دينا رسميا للدولة.

فى تلك الأثناء، رفعت سلطنة خوتن وإيديقوت راية العصيان مرة أخرى. والواقع أن السلطان سليمان أرسلان سبق وأن أخضع خوتن لطاعته، لكن أهلها أعادوا التمرد عليه. وحسب المصادر التاريخية، أن الحروب التى خاضها ضد الخوتن البوذيين استمرت لمدة عشرين عاما من ٩٧٥م إلى عام ٩٩٨م.

وفى عام ٩٦٥م ساق السلطان سليمان أرسلان جيش القراخانيين بقيادة «آلب تكين» ضد «المغنلاق» فى وادى ايلى (الآن غولجا). وانتصر «ألب تكين» على الأويغور الذين يعتنقون البوذية وسوى بلادهم بالأرض،

حتى وضعت أغنية بهذه المناسبة تقول:

جلسنا داخل السفينة
ومضينا إلى وادي إيلي
توجهنا تجاه الأويغور
وفتحنا مينغلاق[١٢٤]

هجمنا في ظلمة الليل
وأحكمنا سيطرتنا على جميع الأماكن
وأسكتنا صهيل الخيول
وقتلنا جنود مينغلاق[١٢٥]

كما وضعت أغان تدور حول الحروب التى خاضها القراخانيين ضد أويغور خوتن البوذيين، مثال ذلك:

تدفقنا حشودا كالسيل
ودخلنا المدن وتغلبنا عليها
وهدمنا معابدهم
ووطأنا اصنامهم[١٢٦]

وفى عام ٩٧٠م أرسل سليمان أرسلان خان، «آلب تكين» لفتح سلطنة «ايديقوت الأويغورية» ودعوتهم إلى الإسلام. وجاء «ألب تكين» من فوق آقصو وكوچار، وحاصر قاراشهر، ثم هاجم «قراخوجه»، حيث القصر الشتوي لايديقوت الأويغور. وخسر «ايديقوت الأويغور» حربه مع «ألب تكين» وانسحب إلى نواحى «بشباليق». واستولى «ألب تكين» على طُرفان وماحولها التى كانت على طريقه وهو يتجه إلى بشباليق.

ولكـن «أرسـلان تكيـن» حشـد جيشـا كبيـرا فـى جبـال طانـرى جنـوب بشـباليق واسـتعد لحـرب جديـدة علـى طريـق «قراخوجـه». و فقـد «ألـب تكيـن» حياتـه فـى هـذه الحـرب. وتفـرق جيـش القراخانييـن الـذى منـى بهزيمـة ثقيلـة. وهكـذا انتـزع «أرسـلان تكيـن» قراغوجـه» و قاراشـهر مـن يـد القراخانييـن.

وحسـبما تقـول الروايـة أن آلـب تكيـن دفـن فـى المـكان الـذى مـات فيـه (فـى الربـوة التـى علـى طريـق «قراخوجـه»). وبعـد أن اعتنـق أويغـور طُرفـان الإسـلام فـى القـرن الرابـع عشـر الميـلادي، شـيدوا مقبـرة «الفتـاح» لذكـرى «ألـب تكيـن». واسـم هـذه المقبـرة جـاء مـن اسـم آلـب تكيـن وأصلـه عبـد الفتاح.

وقـد حفـظ أويغـور طرفـان إلـى يومنـا هـذا اسـطورة باسـم «قراخوجـه». و تبعـا لهـذه الأسـطورة أن «آلـب تكيـن» أثنـاء هجومـه علـى قصـر شـتوى أويغـور ايديقـوت أقـام خيمتـه فـوق ربـوة «سـينغيم» الحاليـة. وكان يظهـر فـى شـفق كل يـوم فـوق ربـوة «سـينغيم» علـى صهـوة جـواده فـى حالـة اسـتعداد للهجـوم علـى «قراخوجـه» وعندمـا يـراه الأويغـور البوذيـون الذيـن علـى أسـوار المدينـة، كانـوا يصيحـون قائليـن «جـاء قراغوجـه! جـاء قـرا غوجـه». وهكـذا أصبـح قراغوجـه اسـما للمدينـة والقريـة المجـاورة لهـا. ويقـال اليـوم فـى طُرفـان عـن المدينـة القديمـة مدينـة ايديقـوت وقراغوجـه. كمـا أنـه يوجـد أيضـا قريـة كبيـرة اسـمها «قـرا غوجـه».

ولا توجـد معلومـة تاريخيـة مؤكـدة عمـا كانـت تعنيـه «مدينـة ايديقـوت» فـى أطـلال مدينـة طُرفـان فـى الأزمنـة القديمـة.

تُـرى لمـاذا أطلـق الأويغـور البوذيـون اسـم قراغوجـه علـى آلـب تكيـن؟ حسـب الروايـة أن آلـب تكيـن اشـتهر ببطولتـه بيـن الأمـراء القراخانييـن. ونعتقـد أنهـم أطلقـوا عليـه اسـم «قراغوجـه» واضعيـن نصـب أعينهـم كـون لفـظ قـرا المكـون لاسـم قراخانـى، يعنـى الكبيـر والعظيـم. وهنـاك روايـة أخرى، مفادهـا أن «آلـب تكيـن» كان أسـمر البشـرة لكونـه مـن أصـول عربية (فالكتابـة التـى علـى قبـره تبيـن أنـه حفيـد النبـى (عليـه الصلاة والسـلام)،

ولهـذا أطلقـوا عليـه اسـم قـرا غوجـه. لكـن لا نـرى صـواب هـذا الـرأى. لأن «آلـب تكيـن» ليـس عربيـا. والأصـح أنـه فارسـى ذو أصـل طاجيكـى، وحفيـد للسـامانيين. ولهـذا السـبب فإننـا نعتقـد أن الروايـة الأولـى هـى الأصـوب. أى أن سـبب تسـمية «آلـب تكيـن» باسـم «قـرا غوجـه» مرتبـط بكلمـة قـرا التـى فـى اسـم قراخانـى.

ويوجـد الآن مـكان اسـمه «أتـلاش غوجـم» فـوق ربـوة سـينغيم. وتتـداول بيـن أهالـى طُرفـان اليـوم روايـة أن ألـب تكيـن يظهـر كل يـوم فـوق جـواده هنـاك فـى وقـت الشـفق ليهاجـم المدينـة. وأظـن أن النـاس أطلقـوا اسـم «أتـلاش غوجـم» علـى هـذا المـكان لهـذا السـبب(فكلمة اتـلاش تعنـى راكـب الجـواد).

الفصل الحادى عشر: السامانيون والقراخانيون

الدولة السامانية

فى سنة ٧٣٠م، تحرك محمد بن على حفيد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ضد الأمويين. وكان أنصاره يرغبون فى انتزاع الحكم من الأمويين الذين ليسوا من أقارب الرسول، ويجعلونه للعباسيين. وكان أبو مسلم يتزعم هذه الحركة. وكثرت صفوف جيش أبى مسلم فى فترة قصيرة، حتى أن الوالى الأموى نصر بن سيار لم ينجح فى القبض عليه فى خراسان، وهكذا انهارت الخلافة الأموية فى سنة ٧٥٠م. أما العباسيون الذين صاروا فى موقع الاقتدار فقد دخلوا مع الأمويين فى تصفية حساب لا رحمة فيه.

وكانت أشد فترات الخلفاء العباسيين وطأة هى فترات حكم الخلفاء السفاح (٧٥٠ - ٧٥٤م) والمنصور(٧٥٤ - ٧٧٥م) والمهدى(٧٧٥ - ٧٨٥م). وفى سنة ٧٥٠م ثار الشاريك فى بُخارى ضد العباسيين، وفى ٧٧٥م ثار الصنباد فى طهران، وفى العام نفسه ثار المُقانَّه فى سط آسيا أيضا ضد العباسيين. وأكثر ما أُخذ بالشدة من بينهم هو عصيان المُقانة الذى استمر عشر سنوات من ٧٧٥م إلى ٧٨٥م.

وقد أنهك العباسيين انشغالهم بإخماد هذه التمردات، لكنهم أدركوا أنه من الأفضل لحكم أهل تلك المناطق التى فتحوها أن يعينوا الولاة من الأمراء المحليين بدلا من الولاة العرب.

مثال ذلك أنه اعتبارا من قيام الخلافة العباسية، كان الحكم فى خُراسان فى يد من ينحدرون من نسل خالد بن برمك.

لكـن فـى زمـن هـارون الرشـيد، عندمـا ظهـر الاسـتياء مـن البرامكـة، أخـذ مكانهـم الطاهريـون الذيـن خرجـوا مـن بوشـن الواقعـة بالقـرب مـن هـرات. وأيـد الطاهريـون المأمـون فـى النـزاع علـى العـرش الـذى نشـب بيـن الأميـن والمأمـون ابنـى هـارون الرشـيد. وقـد وضـع المأمـون فـى عيـن الاعتبـار جهـود طاهـر المؤثـرة التـى بذلهـا فـى الدفـاع عـن بغـداد والعـرش، فجعلـه واليـا عامـا علـى خُراسـان فـى عـام ٨٢١م. وقـد اسـتقل الطاهريـون فعليـا اعتبـارا مـن هـذا التاريـخ. وكان ولاة مـاوراء النهـر أيضـا هـم الـولاة لخراسـان بشـكل عـام. ولـم يظهـر طاهـر بـن حسـين، وطلحـة بـن طاهـر، وعبـد اللـه بـن طاهـر، وطاهـر بـن عبـد اللـه ارتباطهـم بالعباسـيين، وكان كل واحـد منهـم حاكمـا للدولـة الطاهريـة المسـتقلة.

وفـى زمـن الطاهرييـن (٨٢٠ - ٨٧٠م) بـدأت قـوة سـامان فـى الظهـور وهـو فـى الـولاة التابعيـن للطاهرييـن.

وسـامان مؤسـس هـذه الأسـرة مـن طاجيـك خُراسـان وكان مجوسـيا. لكنه أسـلم فـى زمـن المأمـون، وبعـد أن عينـه الطاهريـون واليـا علـى مـرو، أصبـح موضـع تقديـر المأمـون. وعيـن طاهـر أبنـاء أسـد ابـن سـامان ولاة فـى عـام ٨٢١م؛ فأرسـل منهـم نوحـا واليـا إلـى سَـمَرقَنْد، وأحمـد إلـى فَرْغانـة، ويحيـى إلـى طاشـكند.

وفـى ٨٧٠م، عندمـا انهـارت الأسـرة الطاهريـة، قـوى السـامانيون فى آسـيا الوسـطى وزادت قوتهـم فـى افغانسـتان وخراسـان وأسسـوا الأسـرة السـامانية الحاكمـة. أمـا الخلفـاء العباسـيون، فقـد ضعفـوا مـن جـراء النزاعـات الداخليـة، ولهـذا أصبحـوا فـى وضـع لا يمكـن أن يعرقـل الطاهرييـن أو السـامانيين مـن تأسـيس دولتهـم.

تحرك القراخانيين ضد السامانيين

فـى سـنة ٩٧٠م، تبـوأ السـلطان علـى أرسـلان ابـن السـلطان موسـى بوغـرا عـرش القراخانييـن بعـد وفـاة السـلطان سـليمان أرسـلان. وفـى زمـن السـلطان أرسـلان وضـع القراخانيـون نصـب أعينهـم اقتـلاع السـامانيين. وكان

السلطان هارون بوغرا بن السلطان سليمان أرسلان، هو نائب السلطان علي أرسلان. وبتعليماته فتح سلطنة ايديقوت الأويغورية وبعض المدن. وفى تلك الأثناء لم يكن بين القراخانيين نزاع حول العرش أو تباين فى الرؤى. فضلا عن أن السلطان هارون بوغرا أيضا كان فى الخبرة والسياسة لا يقل عن السلطان ساتوق بوغرا. واستطاع أن يكوّن جيشا قويا من المسلمين ومن أتباعه يتمتع بمهارة قتالية عالية.

فاقتلع بهذا الجيش السامانيين وقضى عليهم. وكان يخطط لضم أراضيهم وجعلها ضمن حدود الدولة القراخانية. وحتى عهد السلطان «هارون بوغرا»، كانت العلاقات بين القراخانيين والسامانيين تتقلب بين الصداقة والعداء. وكما أوضحنا من قبل أن حرب اسماعيل بن أحمد مع «الأوغولجق» طال أمدها بسبب علاقات الصداقة التى كانت بين السامانيين والقرا خانيين فى زمن السلطان ساتوق بوغرا. لكن فى زمن نوح بن منصور(٩٧٦ - ٩٩٧م) واجه السامانيون مشكلات حقيقية؛ فقد اندلع الخلاف على العرش، وبلغت تمردات الإقطاعيين المحليين أبعادا خطيرة. وكان يشعر أن السلطة تحتاج إلى المال إلى جنب قوة البشر والموارد المادية حتى يقضى على السخط، ففرض ضرائب متفاقمة على الشعب وهذا أدى إلى تفاقم سخط الشعب وغضبه.

وفضلا عن علو كعب الجيش السامانى أينما ذهب، فإنه يتشكل كله تقريبا من الأوغوز. وهؤلاء كانوا يحكمون السيطرة فعليا على قواتهم المسلحة، بل أن الوالى العام السامانى على خراسان كان تركيًا من الأوغوز.

استغل السلطان هارون بوغرا ضعف السامانيين وطردهم من اسفجياب سنة ٩٩٠م بأمر من السلطان على أرسلان. وكان السامانيون قد استولوا على اسفجياب سنة ٨٩٠م فى الفترة التى كان والى الإقليم من العرب. وبعد أن فتح السلطان هارون بوغرا «اسفجياب»، جمع من «يدى صو» حشدا غفيرا من الجند وبدأ فى الإعداد لحرب حاسمة مع السامانيين.

وقبل أن يهاجم السلطان هارون بوغرا بُخارى عاصمة السامانيين،

بـدأوا فـى إجـراء مراسـلات سـرية مـع أبـى علـي سـيمجورى الوالـى العـام علـى بُخـارى (وهـو مـن الأتـراك الأوغـوز). وبموجـب الاتفـاق الـذى توصلا إليـه كانـت مـاوراء النهـر سـتترك للقراخانييـن، أمـا الأراضـى المتبقيـة فـى السـاحل الجنوبـى لأموداريـا، فسـتعطى إلـى أبـى علـي سـيمجورى.

وبعـد أن أتـم السـلطان هـارون بوغـرا كل الاسـتعدادات تحـرك بالجيـش القراخانـي مـن «يـدى صـو» فـى عـام ٩٩٢م، وهاجـم السـامانيين. ورغـم أن نـوح بـن منصـوركان فـى موقـف فـى غايـة الصعوبـة، وبـذل قصـارى جهـده لجمـع كل جيشـه، لكنـه لـم يسـتطع أن يعرقـل تقـدم السـلطان هـارون بوغـرا صـوب بُخـارى بجيشـه الجـرار. ولا توجـد معلومـات مؤكـدة عـن عـدد الجيـش القراخانـي الـذى شـارك فـى حملـة السـلطان هـارون بوغـرا علـى بُخـارى.

وربمـا أن الجيـش السـامانى المتكـون مـن الأوغـوز وهـم مركـز الثقـل، لـم ينصـع لأمـر نـوح بـن منصـور بالحملـة، كمـا لـم يؤيـد الحاكـم. ولهـذا السـبب واصـل الجيـش القراخانـى تقدمـه دون أن يلقـى مقاومـة جـادة.

بـدأ السـلطان هـارون بوغـرا أولا بإعمـال السـيف فـى الجيـش السـامانى الـذى يقـوده «آيانـج تكيـن». فلمـا علـم نـوح بـن منصـور بهزيمـة جيشـه ووقـوع «آيانـج تكيـن» فـى الأسـر انهـارت عزيمتـه، رغـم أنـه واحـد مـن أكفـاء الرجـال وأثبتهـم. والحقيقـة أنـه كان فـى موقـف صعـب. فجمـع جيشـا كبيـرا مـرة أخـرى بقيـادة «باييـق تكيـن» الـذى كان كثيـر الـكلام لكنـه عاجـز عـن إنجـاز شـيئ، وسـاقه ضـد السـلطان هـارون بوغـرا. وفـى الحـرب التـى وقعـت فـى الأماكـن المفتوحـة مـن بُخـارى، انفتـح الطريـق لخيانـة السـامانيين وخسـر «باييـق تكيـن» الحـرب. ومـع ضـوء النهـار تجلـت خيانـة «باييـق تكيـن» إذ عينـه بوغراخـان واليـا علـى ترمـذ وبلـخ.

وبنـاء علـى هزيمـة الجيـش السـامانى فـى ضواحـي بُخـارى وخيانـة «باييـق تكيـن»، اضطـر نـوح بـن منصـور إلـى تـرك عاصمتـه. وهكـذا دخـل السـلطان هـارون بوغـرا بُخـارى فـى موكـب فخـم «جويـي مليـان» حيـث يوجـد قصردولـة السـامانيين وذلـك فـى سـنة ٩٩٢م. لكنـه بسـبب مرضـه لـم يطـل البقـاء هنـاك، واتجـه إلـى سَـمَرقَنْد وانـزوى هنـاك للراحـة. وكان مرضـه

فـى ازديـاد. ولهـذا تـرك سَـمَرقَنْد أيضـا واتجـه إلـى كاشْـغَر، وفـارق الدنيـا فـى «آتباشـى» الواقعـة اليـوم داخـل حـدود قيرغيزسـتان. ونقـلِ نعشـه إلـى كاشْغَر حيـث دفـن فـى منقطـة قراصقـال التابعـة لقريـة «بـاش كَـرم» بالقرب مـن المدينـة. وأهـل كاشْـغَر اليـوم يقولـون علـى الضريـح «قليـج بوغراخـان»، والارجـح الكبيـر أن بـه مرقـد السـلطان هـارون بوغـرا.

بعـد فتـح بُخـارى علـى يـد السـلطان هـارون بوغـرا، عيـن السـلطان علي أرسـلان واليـان عموميـان برتبـة «ايليـك خـان» لتقويـة الحكـم القراخانـى. أحدهمـا سـيحكم السـاحل الشـرقى لسـيرداريا مـع السـفوح الشـمالية لجبـال طانـرى داغ، وتولـى الوظيفـة بوصفـه نائـب السـلطان القراخانى هنـاك. وكان مقر إقامتـه فـى بلاسـاغون. أمـا الوالـى العـام الآخـر فسـتكون فـى عهدتـه إدارة مـاوراء النهـر، ويقيـم فـى أوزكنـد. وعيـن السـلطان هـارون بوغـرا «طوغـان الأول» مـن أمـراء القراخانييـن علـى بالاسـاغون. وكان يقـال عنـه أيليـك خـان الشـمال. كمـا عُيـن ناصـر ابـن السـلطان علي أرسـلان علـى اوزكنـد. وكان يقـال عنـه أيليـك خـان الغـرب.

فتـح مـوت السـلطان هـارون بوغـرا الطريـق لالتقـاط الأنفـاس لفتـرة وجيـزة، وبـدأ نـوح ابـن منصـور فـى تحسـين أوضاعـه. فبـدأت العلاقـات بيـن نـوح ابـن منصـور وابـى علـى «السـيجورى» فـى التحسـن نتيجـة فتـح السـلطان هـارون بوغـرا لبُخـارى؛ فسـيجورى الـذى خـرج علـى السـامانيين واتخـذ مكانـه إلـى جانـب السـلطان هـارون بوغـرا مـن البدايـة، نكـث عهـده بعـد فتـح بُخـارى (فقـد سـبق وأن تفاهـم مـع السـلطان هـارون بوغـرا بشـأن تقسـيم أراضـى السـامانيين)، وانضـم إلـى جانـب نـوح بـن منصـور.

اسـتغل نـوح بـن منصـور مـوت السـلطان هـارون بوغـرا، ودخـل بُخـارى فـى ١٢أغسـطس ٩٩٢م، مسـاعدة أبـى علـى سـيجورى، وقتـل «عزيـز» وهـو الوالـى الـذى عينـه السـلطان هـارون بوغـرا وهـو فـى الوقـت ذاتـه ابـن أخيـه الشـقيق.

والحقيقـة أن نـوح بـن منصـور اسـتولى علـى بُخـارى، لكـن موقفـه لـم يكـن واعـدا بسـبب عـدم وجـود رجـال ثقـاة حولـه. ولأن أبـو علـى سـيمجورى

لـم يعـد الآن رجـلا يوثـق بـه، فقـد طلـب فـى عـام ٩٩٧م المسـاعدة مـن «سـوبوق تكيـن» الـذى اسـتولى علـى السـلطة فـى غزنـة. ولـم يكـن «سـوبوق تكيـن» الـذى نجـح فـى جمـع غزنـه وهـرات فـى دولـة واحـدة، لـم يكـن يشـعر بالـود تجـاه السـامانيين. لأنـه ولـد فـى مدينـة بارسـخان الواقعـة علـى سـاحل «إيسـيق كـول» وكان مـن قبيلـة قارلـوق.. وقـد أسـلم «سـوبوق تكيـن» فـى عـام ٩٦٠م، ودخـل فـى حمايـة «آلـب تكيـن» والـي السـامانيين علـى غزنـة والمنحـدر مـن أصـول أوغوزيـة، حتـى أنـه صاهـره. فـى هـذا الموقـف لـم يكـن «سـوبوق تكيـن» يفكـر فـى إقامـة مـودة مـع الحاكـم السـامانى نـوح بـن منصـور، وسـوف تتطـور الأحـداث فيمـا بعـد فـى هـذا الاتجـاه.

لـم يكـن نـوح بـن منصـور فـى وضـع يمكـن أن يحـول دون انهيـار الدولـة السـامانية. فقـد كانـت لاضطرابـات الداخليـة والهجمـات الخارجيـة فـى بـؤرة اهتمامـه، ولاسـيما أن نصـر ابـن علـي ايليـك خـان الغـرب بـدأ فـى الاسـتعداد فـى عـام ٩٩٦م للقضـاء علـى السـامانيين بأمـر مـن السـلطان علـي أرسـلان.

نهاية الدولة السامانية

اعتزمـت الحكومـة القراخانيـة إعـادة فتـح إمـارة خوتـن فـي الشـرق، والقضـاء علـى الدولـة السـامانية فـي الغـرب.

ويوضـح التسلسـل التاريخـي أنـه فـي عهـد علـي أرسـلان (٩٩٠ - ٩٩٨م)، تقـرر إيجـاد حـل لهاتيـن المسـألتين المهمتيـن، وتـم حلهمـا فعليـاً فـي عهـد السـلطان أحمـد «طوغـان خـان» (٩٩٨ - ١٩١٨م). ففـي عهـد السـلطان علـي أرسـلان بـدأت معـارك داميـة مـن أجـل إخضـاع الأويغـور البوذييـن فـي خوتـن، وتـم فتـح بلادهـم فـي عهـد السـلطان سـاتوق بوغـرا والسـلطان موسـى بوغـرا والسـلطان سـليمان أرسـلان، ولكنهـم نجحـوا فـي النهايـة فـي الحصـول علـى اسـتقلالهم بعـد العصيـان عـدة مـرات. وتقـول المعلومـات التاريخيـة إن البوذييـن فـي خوتـن لـم يخضعـوا للسـلطان سـليمان بوغـرا وأنهـم حاربـوا القراخانييـن بصفـة مسـتمرة علـى مـدى ٢٥ عامـاً، مـن عـام ٩٧٥ وحتـى عـام ١٠٠٠م، وفـي هـذه الحـروب كانـوا تحـت قيـادة «ياغـلا قالقالـو» أميـر خوتـن، حتـى أن السـلطان علـي أرسـلان لقـى حتفـه أثنـاء حـرب داميـة وقعـت فـي

عـام ٩٩٨م. وتقـول المعلومـات التاريخيـة أيضـاً إن هـذه الحـرب وقعـت فـي مـكان يقـع بيـن مدينتـي يانكـي شـهر(المدينة الجديـدة) ومدينـة يانكيسـار الحاليـة، وهنـاك قبـر باسـم «أوردام» يعـد مـزاراً للأهالـي هنـا. وتقـول الروايـة إن السـلطان علـي أرسـلان يرقـد فـي قبـر «أوردام». ويوجـد قبـر السـيد علـي أرسـلان فـي قريـة «آشـاغي طاربوغـوز» (علـى سـاحل نهـر طومـان) فـي منطقـة «كونيشـار» القريبـة مـن كاشْـغَر حيـث مرقـد السـيد علـي أرسـلان.

ويتذكـر شـعب الأويغـور فـي يومنـا هـذا السـلطان علـي أرسـلان، ويقومون كل عـام فـي الربيـع بزيـارة قبـر «أوردام» والدعـاء لـه. وفـي إحـد الأوقـات بلـغ عـدد زوار هـذا القبـر حوالـي مائـة ألـف شـخص. أمـا الآن فـإن نفـس عـدد الـزوار يتدفقـون علـى قبـر السـيد السـلطان علـي أرسـلان الموجـود فـي قريـة «طاربوغـوز» القريبـة من كاشْـغَر.

وبعـد وفـاة السـلطان علـي أرسـلان تولـى العـرش القراخانـي ابنـه السـلطان أحمـد طوغـان. وبعـد أن أخضـع السـلطان أحمـد طوغـان البوذييـن فـي خوتـن اعتـزم إدخالهـم فـي الإسـلام، ولتحقيـق هـذا الهـدف، أرسـل فـي عـام ٩٩٠م جيشـا قوامـه ٤٠ ألـف جنـدي بقيـادة السـلطان يوسـف قـادر إلـى خوتـن. وهـزم السـلطان يوسـف قـادر جيـش خوتـن، وقتـل «ياغـلا قالقالـو» عندئـذ بـدأ الشـعب فـي دخـول الإسـلام أفواجـا. وبعـد هـذا الحـادث الـذي وقـع فـي عـام ١٠٠٠م عيـن السـلطان أحمـد طوغـان، السـلطان يوسـف قـادر واليـاً علـى خوتـن.

إذاً اسـتمرت الحـروب التـي بيـن الأويغـور المسـلمين والأويغـور البوذييـن فـي خوتـن ٢٥ عامـاً؟

هنـاك سـببان لهـذا، أولهمـا أن البوذيـة كانـت متأصلـة بشـكل كبيـر لـدى خوتـن. وإذا أخذنـا فـي الاعتبـار أن البوذيـة قـد بـدأت فـي الانتشـار فـي عهـد «قانيشـقا الثانـي» إمبراطـور كوشـان فـي ذلـك الوقـت واسـتمرت علـى مـدى ٧٤ عامـاً قبـل الميـلاد. فلابـد وأن يكـون هـذه العقيـدة قـد ضربـت بجذورهـا فـي أعماقهـم. كمـا أن «بـاي - روچانـا الكشـميري» الـذي جـاء بالبوذيـة إلـى

خوتن قد جاء إليها قبل مائة عام من الميلاد.

ويقول المؤرخ اليابانـي «يوشي لياو - تي» في كتابه المسمى» البوذية في الغرب» مستفيداً من مذكرات «فاشي - نينغ» المبشر الصيني البوذي الكبير الذي جاء إلى خوتن في عام ٤٠٠م يقول: «إن هذه الأراضي متطورة و وشعبها مضياف للغاية. وهم يؤمنون ببوذا. وينظمون احتفالاتهم وفقاً لعقيدتهم البوذية. وعدد الرهبان الموجودين هنا حوالي عشرة الآف. وجميعهم أنصار «كولونغو العظيم». وعندما يسمع ثلاثة الآف راهب صوت الجرس يتوجهون فورا إلى القاعة حيث يجلسون في مقاعدهم بكل أدب ونظام، ويجلس كل واحد منهم في مكانه صامتاً.

ويوجد هنا ١٤ نوعاً من معابد «جوماتي». وأنا هنا لا أتحدث عن المعابد الصغيرة. ويقوم الأهالي بداية من الشهر الرابع بكنس شوارع المدينة وغسلها بالماء، وجميع الشوارع واسعة. ويبسطون ستائر كبيرة على أبواب المدينة الرئيسية، والستائر مزخرفة بزخارف كثيرة. ويجلس خلف الأبواب حاكم المدينة وزوجته وجواريه. والحاكم يحترم جداً للراهب «جوماتي» نصير «كولونغو العظيم». وهذا الراهب يحضر الصنم، ويخرج الحاكم من باب المدينة وفي يده تاج ذهبي ويرتدي ملابس جديدة ونظيفة ويستقبل الصنم. ويدخل الصنم إلى الداخل محمولاً على عربة. وفي تلك الأثناء تنحني الملكة والجواري باحترام، ويعظمون الصنم. وهذا العيد يبدأ في الأول من إبريل وينتهي في ١٤ ابريل. وبعد أن ينتهي المهرجان يعود الحاكم وزوجته إلى قصرهما.» [١٢٧]

هذه الروايات توضح أن البوذية قد ضربت بجذورها وتأصلت في شعب خوتن. ولابد أن هذا هو سبب رفض الأويغور البوذيين الدخول في الإسلام لفترة طويلة.

أما السبب الآخر لمقاومة شعب خوتن للقراخانيين لفترة طويلة فهو دعم إمارة أويغور إيديقوت والبوذيين في التبت لهم. والحقيقة إن إمارة إيديقوت الأويغورية والتبتيون قدموا مساعدات كبيرة خلال المعارك التي وقعت بين القراخانيين والخوتن. علاوة على ذلك فإن القضاء على

الدولة السامانية الذي استغرق فترة طويلة، ضمن إخضاع شعب خوتن للقراخانيين.

وفي عهد السلطان علي أرسلان قام ناصر إيليكخان بالهجوم على السامانيين مرة أخرى في عام ٩٩٦م، وطلب نوح بن منصور المساعدة من «سبكتكين» والي عام خُراسان، فخرج بجيش كبير لمساعدة سيده، وبينما «سبكتكين» في مقر قيادته في منطقة كش (شهر سبز) ينتظر انضمام جيش سيده إليه، رفض نوح بن منصور طلبه هذا، وأمره بالمجيء إليه في الحال، فأرسل سبكتكين إلى بُخارى جيشاً يضم ٢٠ ألف جندي بقيادة ابنه محمود وأخيه الصغير بوغراچوق.

وبعد أن استولى «سبكتكين» على بُخارى أجرى حواراً مع ناصر إليكخان واتفقا على تقسيم الأراضي السامانية فيما بينهما. وينص الاتفاق الذي تم التوصل إليه على التنازل عن وادي سرداريا إلى القراخانيين، أما الأراضي المتبقية من الساحل الجنوبي لأمو - دريا فيُترك لسبكتكين. وعين ناصر إليكخان «پاييق تكين» والياً على سَمَرقَنْد. وفي تلك الأثناء توفي نوح بن منصور الذي أصيب بالشلل بسبب ما فعله «سبكتكين» في عام ٩٩٧م.

وبعد موت نوح بن منصور تولى بعده ابنه أبو الفارس منصور. وبرغم إنه كان شديد الذكاء وذا خبرة وحذر، لم يستطع هذا الأمير سيء الحظ منع سقوط السامانيين. وفي الأيام الأولى من شهر فبراير عام ٩٩٩م خلع «پاييق تكين» أبو الفارس منصور من على العرش وأمر بسمل عينه، ونصب على العرش الساماني هذه المرة شقيقه الأصغر عبد الملك.

وفي عام ٩٩٩م مات «پاييق تكين». واعتزم ناصر إليكخان القضاء على الوجود الساماني فيما وراء النهر، وفي تلك الأثناء لم يكن لدى السامانيين لا الجيش ولا القائد الذي يمكنه مقاومة القراخانيين. وعلاوة على ذلك كان الأهالي غير مبالين بالأحداث التي أنهكتهم.

يلفت الانتباه مارواه أحد التجار عن تسليم بُخارى وعن واقعة جرت

فـي بداية شـهر اكتوبـر مـن عـام ٩٩٩م فـي عهـد ناصـر إليكخـان. فقـد سـجل هـذا الحـدث الـذي رواه هـلال السـابي أحـد كُتـاب القـرن الحـادي عشـر الميـلادي علـى النحـو التالـي: «عندمـا جـاء ناصـر إلـى بُخـارى، أمـر أعضـاء الأسـرة السـامانية الـوزراء بالعمـل علـى ضمـان تأييـد الشـعب. فصعـد الـوزراء إلـى المنـارات ودعـوا الشـعب فـي العاصمة لمسـاندة الأسـرة السـامانية. فرجـع الشـعب إلـى القضـاة لمعرفـة رأي الشـرع فـي هـذا. فقـال لهـم القضـاة مـا يلـي:

«إذا كان القراخانييـن يحاربـون السـامانيين فـي سـبيل الديـن فـإن مسـاعدتهم واجبـة. أمـا إذا كانـت الحـرب مـن أجـل أمـور دنيويـة فـلا داعـي لهـا حتـى لايكسـر المسـلمون بعضهـم بعضـاً...» [١٢٨]

وهـذه الواقعـة توضـح أن الأهالـي لـم يدعمـوا السـامانيين. وعنـد دخـول ناصـر إليكخـان بُخـارى أدلـى بهـذا الحديـث القصيـر: «إننـي جئـت إلـى بخـارى بوصفـي صديـق وحامـي للسـامانيين.» فصـدق «بـك طوسـون» و«إينـال تكيـن» وهمـا مـن قـادة السـامانيين قـول ناصـر هـذا، وجـاءا إلـى مقـر اقامتـه لكـن تـم اعتقالهمـا. وهكـذا دخـل الجيـش القراخانـي بقيـادة ناصـر إلـى بُخـارى فـي ٢٣ اكتوبـر عـام ٩٩٩م دون أي مقاومـة. ووضـع ناصـر فـي نفـس اليـوم يـده علـى الخزينـة السـامانية، واعتقـل عبـد الملـك آخـر حاكـم سـامانيٍ وأقاربـه وأرسـلهم إلـى أوزكنـت. وبعـد ذلـك عيـن «چغـري تكيـن» واليـاً علـى بُخـارى، وعـاد هـو إلـى «أوزكنـت».

وهكـذا انتهـت الدولـة السـامانية فـي عـام ١٠٠٠م بعـد أن دام وجودهـا ١٣٠ عامـاً. والحقيقـة أن أبـا إبراهيـم اسـماعيل شـقيق عبـد الملـك اسـتمر فـي الحـرب ضـد القراخانييـن علـى مـدار خمسـة أعـوام، وبرغـم إنـه لقـب نفسـه بـالمنتصـر، اعتقلـه ناصـر إليكخـان، وأرسـله إلـى أوزكنت. إذ لم تسـفر الحـرب التـي شـنها المنتصـر مـن أجـل إحيـاء الأسـرة السـامانية عـن شـيء، فقـد أنـزل بـه الجيـش القراخانـي فـي عـام ١٠٠٤م هزيمـة سـاحقة بالقـرب مـن بُخـارى. واسـتطاع المنتصـر الإفـلات مـن الأسـر ونجـح فـي الهـرب إلـى خُراسـان؛ ولكـن شـقيقه وأقربائـه وقعـوا فـي الأسـر وتـم إرسـالهم إلـى

«أوزكنت». وقتل المنتصر على يد شيخ من العرب في عام ١٠٠٥م بالقرب من مرو.

وبرغم قضاء القراخانيين على الدولة السامانية وكسر مقاومة المنتصر، لم يستطعوا الاستيلاء على خُراسان التي كانت تحت سيطرة السامانيين حينئذ، لأن السلطان محمود خان استولى على خُراسان في عام ٩٩٩م، وهذا الوضع سيفتح الطريق لوقوع بعض المعارك بين القراخانيين والغزنويين.

الفصل الثاني عشر: الغزنويين والقراخانيون

سلطنة غزنة

بعد زوال السامانيين من ساحة التاريخ، صارت العلاقات التي بين القراخانيين والغزنويين محل اهتمام.

تأسست الدولة القراخانية في عام ٨٥٠م، أما السلطنة الغزنوية فقد تأسست في عام ٩٦٠م.

عين الحاكم الساماني عبد الملك الأول (٩٥٤ - ٩٦١م) «آلب تكين» والياً على خُراسان الشرقية (هرات) في عام ٩٥٥م، وفي عام ٩٦١م جعله والياً عاماً على خُراسان بأكملها. وبدأ «آلب تكين» الذي كان من قبيلة «قينيق» الأوغوزية، في وضع قوانين في الجيش الساماني للمهنية العسكرية، ولفت الانتباه إلى شجاعته وجسارته في الحروب التي شنها السامانيون. ولكن في عام ٩٦١م عندما عُين والياً عاماً على خُراسان بأكملها أعرض عن الخضوع لسادته، واضطر السامانيون أن يقبلوه والياً عاماً على خُراسان له صلاحيات كاملة.

وبدأ نجم السامانيين يخبو اعتباراً من نوح بن منصور. فالاضطرابات الداخلية التي لاتنتهي والصراع على العرش أضعف الدولة؛ واستغل «آلب تكين» هذا الوضع وأعلن استقلاله في عام ٩٦١م، وهكذا ارسى أساس السلطنة الغزنوية.

وعندما مات «آلب تكين» في عام ٩٦٣م جاء بعده إبراهيم (٩٦٣ - ٩٦٦م)، ومن بعده جاء «بيلكه تكين» (٩٦٦ - ٩٧٢م)، ثم پيري تكين

(٩٧٢ - ٩٧٧م).

وباعتلاء «سبكتكين» سُدة الحكم فى ٩٧٧م، بدأت معه فترة قوة السلطنة الغزنوية. وأصل «سبكتكين» من القارلوق وكان صهرا لألب تكين. وفى سنة ٩٧٧م انتزع العرش من يد ورثة «آلب تكين». وكانت أول إجراءات «سبكتكين» هى التوغل داخل الحدود السيادية لكابل وما حولها.

وفى فترة حكمه شملت حدود سلطنة غزنة المنطقة الممتدة من بيشاور فى الشرق (فى باكستان الآن) حتى خُراسان فى الغرب.

عندما هاجم هارون بوغراخان بخارى عاصمة السامانيين فى عام ٩٩٢م، ساعده «سبكتكين» فى إخضاعها. مع أن السلطان هارون بوغراخان عينه واليا عاما لغزنة إلا أنه لم يأبه بهذا، وحافظ على استقلاله ولم يخضع للقراخانيين.

وعندما توفى «سبكتكين» فى سنه ٩٩٧م، تولى مكانه إبنه محمود وكان فى السابعة والعشرين من عمره. وبهذا اتخذت الدولة التى وضع أساسها «آلب تكين» اسم سلطنة غزنة من اسم مدينة غزنة عاصمة دولته. وفى زمن محمود الغزنوى (٩٧٧ - ١٠٣٠م) اتسعت حدود دولته اتساعا كبيرا وامتدت من وسط البنجاب فى شرق الهند حتى وسط غرب فارس ووسط خوارزم.

وفى الأيام التى فتح فيها «ناصر ايليك خان» بُخارى فى عام ٩٩٩م اتخذ محمود الغزنوى لنفسه لقب سلطان. وأطلق القادر بالله الخليفة العباسى فى بغداد على السلطان محمود لقب (يمين الدولة وحامى المؤمنين) وأرسل له عمامة للسلطنة. وقد أدى هذا إلى زيادة سلطة السلطان محمود.

وكانت أهم المشكلات التى تواجه السلطان محمود هى ضم مناطق الهند المعمورة والغنية والمجاورة له من ناحية الشرق إلى دولته. ولهذا شن سبع عشرة حملة على الهند (البنجاب ـ كشمير ـ ومناطق اخرى).

وكان يقوم بهذه الحملة بوصفه غازيا وهدفه تخليص الهند من البوذيين.

ولكي يتمكن محمود الغزنوى من تحقيق هدفه هذا، كان مضطرا إلى حل مسألتين أولا: المسألة الأولى هى أن يمتلك أسطولا جيدا وجيشا قويا،

والثانية : هى أن يقيم علاقات صداقة من القراخانيين حتى يؤمن ظهره.

وفى عام ١٠٠٠م، أرسل السلطان محمود سفارة إلى «ناصر ايليك خان» برئاسة أبى سعيد طاهر بن محمد. وقد استقبل «ناصر ايليك خان» هذا السفير لدى وصوله إلى «أوزكند» بكل احترام. وأسفرت المفاوضات التى جرت بينها عن حل المشكلات المتعلقه بالحدود بين الدولتين، واعتبار آمودريا حدا فاصلا بين دوليتهما.

وفى ذات العام تزوج السلطان محمود بابنة «ناصر ايليك خان». وبعد ان أنجز السلطان محمود هذين الأمرين المهمين وهما تشكيل الجيش وإقامة علاقات طيبة مع القراخانين، بدأت حملاته العسكرية تجاه جيرانه. فدخل بيشاور فى عام ١٠٠٠م ولعب دورا مهما فى استمالة البوذيين فى الهند إلى الاسلام بوصفه خير من يمثل الاسلام السنى.

وفى عام ١٠٠١م تمكن السلطان محمود من هزيمة جيش الهند المكون من ثلاثمائة فيل واثنين وأربعين ألف رجل، واستولى على وادى البنجاب. وأرسل الغنائم الثمينة التى حصل عليها إلى غزنة، وبعد ذلك بعام واحد استولى على سسيتان أيضا. وفى حملته العاشرة سيطر السلطان محمود على «الكانج»، وفى الحملة الثالثة عشرة تمكن من الانتصار على جيش الهند المكون من مائة وخمسين ألف رجل. وكانت حملته السادسة عشرة من حملاته على الهند هى المتوجة لهذه الحملات وأنجحها، وفيها دخل اقليم الكجرات (جنوب الهند). ومن حيث النتائج فقد أصبحت الدولة الغزنوية مع مجيء عام ١٠٢٥م

واحـدة مـن أقـوى دول العالـم.

واثنـاء حمـلات السـلطان محمـود علـى الهنـد غنـم غنائـم هائلـة. ومـن بيـن غنائـم الهنـد التـى حملهـا إلـى غزنـة أصنـام آلهـة مصنوعـة مـن الذهـب والفضـة، وآنيـة ومتـاع وأقمشـة واسـلحة وقطعـان وأفيـال ومـا شـابه ذلـك مـن الغنائـم الثمينـة. فكانـت القوافـل التـى تحمـل هـذه الغنائـم متواصلـة بغيـر انقطـاع. وفـى آخـر هـذه الحمـلات نقـل إلـى غزنـة عشـرين مليـون درهمـا مـن العمـلات الفضيـه، و٥٧ وخمسـين ألـف جاريـة هنديـة، وثلاثمائـة وخمسـين فيـلا، والمحتمـل أن هـذه الجـوارى قـد تـم بيعهـن إلـى الأهالـى الأتـراك فـى وسـط آسـيا وخراسـان.. فقـد حققـت هـذه الحمـلات القـوة لسـلطنة غزنـة وجيشـها فـى الوقـت نفسـه.

وحسـبما نتبيـن مـن الرسالة التـى أرسـلها محمـود الغزنـوى إلـى مؤمـن خـوارزم شـاه عـام ١٠١٥م، أن عـدد جيـش غزنـة يبلـغ مائـة ألـف مـن الفرسـان والمشـاة. وعـدد الافيـال التـى يضمهـا جيشـه يبلـغ خمسـمائة فيـل. وقـد اسـتخدم السـلطان محمـود العمـال والفلاحيـن الذيـن جمعهـم مـن الهنـد فـى بنـاء القـلاع والقصـور والجوامـع والمـدارس. ويقـول «جيبـون» عـن السـلطان محمـود فـى كتابـه المسـمى «تاريـخ انهيـار الامبراطوريـة الرومانيـة» :يعـد السـلطان محمـود مـن أعظـم السـلاطين الغزنوييـن. فقـد اسـتولى السـلطان محمـود علـى الاقاليـم الشـرقية مـن فـارس بعـد ألـف سـنة مـن الميـلاد...

وكان هـذا البطـل المسـلم لا يهـاب البـرد ولا الجبـال الشـاهقة التـى لا يمكـن إجتيازهـا والوديـان الواسـعة، ولا الصحـراء والسـهول، ولا جيـوش أعدائه التـى لا تحصـى عـددا.

وهـذه الأسـطر تشـير إلـى شـجاعة السـلطان محمـود وقدرتـه وعزيمتـه. وهـو مـا تبرهـن عليـه حملاتـه التـى شـنها ضـد أعدائـه. وينبغـى القـول صراحـة إن السـلطان محمـود كان رجـلا مهيبـا وجسـورا وفاتحـا عظيمـا.

وقـد أسـهم السـلطان محمـود إسـهاما مهمـا فـى تطويـر الشـعر والأدب

وشـهد الأدب الفارسـى فـى عهـده أزهـى أيامـه. ولاسـيما أن الفردوسـي كتـب فـى عصره وبأمـر منـه شـاهنامته المشـهورة. وقـد أثـرى الحـروب القراخانيـن الغزنويـيـن الأدب الفارسـى فـى زمـن الغزنوييـن، وبعـد ذلـك فـى زمـن السـلاجقة.

حروب القراخانيين والغزنويين

سـرعان مـا فسـدت علاقـات الصداقـة التـى بيـن القراخانيـن والغزنويـن، والسـبب فـى هـذا هـو مطالبـة القراخانييـن بـالأرض.

وكمـا هـو معـروف أن أفغانسـتان وخراسـان تتبـع السـامانيين. كمـا أن القراخانيـن الذيـن قضـوا علـى الدولـة السـامانية، كانـوا يريـدون ضـم هـذه الأقاليـم إلـى حدودهـم ويعتبـرون هـذا حقـا لهـم. فـى حيـن أن السـلطان محمـود ضـم أفغانسـتان وخراسـان إلـى مملكتـه، وطبيعـى ان القراخانيـن الذيـن لـم يقبلـوا هـذا الوضـع، كانـوا يريـدون اسـترداد خُراسـان وأفغانسـتان مـن السـلطان محمـود.

فـى زمـن «أحمـد طوغـان» حاكـم القراخانيـن العظـام (٩٩٨ - ١٠١٨م) حدثـت حربـان بيـن القراخانيـن والغزنويـن، وحربـا أخـرى بيـن القراخانيـن والكيدانييـن.

أمـا القراخانويـن الذيـن لـم يتخلـوا أصـلا عـن فكـرة الاسـتيلاء علـى أفغانسـتان وخراسـان، فقـد هاجمـوا سـلطنة غزنـة فـى عـام ١٠٠٦م. وفـى تلـك الأثنـاء كان السـلطان محمـود مشـغولا بحملتـه علـى الهنـد، وسـاق «ناصـر» حاكـم الإيلخانييـن الغربيـن جيشـه إلـى خُراسـان وكان قسـم مـن جيـش القراخانييـن تحـت «قيـادة تكيـن». وجيـش آخـر توجـه إلـى أفغانسـتان بقيـادة «چِغْـرى تكيـن». واسـتولى القسـم الذيـن يقـوده «تكيـن» علـى نَيْسـابور وطـوسَ مـن خُراسـان(فى مشـهد اليـوم). وقـد اسـتقبل أعيـان خُراسـان الجيـش القراخانـى اسـتقبالا جيـدا، حتـى أن الخطبـة قـرأت فـى مدينـة طـوس باسـم «ناصـر ايليـك خـان» كمـا دخـل الجيـش القراخانـى الذيـن يقـوده «چِغْـرى تكيـن» بلـخ، لكـن اسـتقبله اهلهـا بمقاومـة شـديدة.

لمـا علـم السـلطان محمـود بدخـول القراخانيـن خُراسـان وأفغانسـتان، وكان آنـذاك فـى ملتـان، عـاد مـن فـوره إلـى غزنـة وتحـرك صـوب القراخانيـن. أمـا السـلطان محمـود الـذى أجبـر «چِغْـرى تكيـن» علـى الانسـحاب إلـى ترمـذ، فقـد أجبـر القائـد «تكيـن» علـى الرجـوع إلـى مـا وراء النهـر مـن عنـد آموديـا.

ورغـم أن «ناصـر ايليـك خـان» انهـزم أمـام جيـش غزنـة سـنه ١٠٠٦م، فقـد بـدأ فـى الإعـداد لحملـة جديـدة بعـد ذلـك بعـام واحـد. لكنـه فـى هـذه المـرة طلـب العـون مـن السـلطان يوسـف قـادر والـى خوتـن. وفعـلا تحـرك «ناصر ايليك خـان» بجيـش قوامـه خمسـين ألـف رجـل عـام ١٠٠٧م وحاصـر بلـخ. فلمـا علـم السـلطان محمـود بالأمـر تحـرك مـن غزنـة بجيـش كبيـر وخمسـمائة فيـل. وفـى الرابـع مـن ينايـر ١٠٠٧م حـدث صـدام بيـن الطرفيـن عنـد وادى «كَطَـرْ» علـى مسـافة ١٢ كـم مـن بلـخ أسـفر عـن هزيمة القراخانيـن.

ولعبـت الأفيـال التـى فـى جيـش الغزنوييـن دورا مهمـا فـى هـذه الحـرب. ولكـن انسـحاب القـوات الاضافيـة التـى كانـت تحـت قيـادة السـلطان أحمـد طوغـان مـن ميـدان المعركـة، جعلـت مـن هزيمـة القراخانيـن أمـرا لا مفـر منـه.

ولمـا تيقـن «ناصـر ايليـك» مـن خسـارته هـذه الحـرب جمـع جيشـه وانسـحب إلـى بلـخ وأخـذ مـا بهـا مـن جنـوده وسـلك طريـق مـن مـا وراء النهـر عنـد آموديـا. لكـن تُـرى لمـا لـم يتعقـب السـلطان محمـود جيـش القراخانيـن، ولـم يقـض عليهـم كلهـم فـى وادى «كَطَـر» ؟.

ويذكـر بعـض المؤرخيـن أن الـذى فتـح الطريق لهزيمـة جيـش القراخانين هـروب السـلطان طوغـان خـان، وسـبب ذلـك وجـود اتفـاق سـرى بينـه وبيـن السـلطان محمـود.

وأرسـل السـلطان محمـود رسـلا إلـى السـلطان «أحمـد طوغـان» مـن سـلاطين كاشْـغَر و«ناصـر ايليـك خـان» و«يوسـف قادرخـان» وذلـك لخوفـه

من نشوب الحرب مرة أخرى، وأخذ يبحث عن سبب لبناء علاقات صداقة معهم، ورجع السفراء الغزنويون الذين ذهبوا إلى «ناصر ايليك» و«يوسف قادر خان» بشكل لا يدعو للتفاؤل.

ذلك لان كلا الخانين رفض اقتراحات السلطان محمود، لكن السلطان «أحمد طوغان» أحسن استقبال السفير الغزنوى ووضع معاهدة وفق الشروط التى أقرها السلطان محمود. هذا الموقف الذى أثار غضب «ناصر ايليك خان» دفعه لأن يجمع جيشه فى شهر مارس ١٠٩٩م (فى بعض المصادر ١٠١٢) والتحرك صوب أخيه السلطان «أحمد طوغان» الموجود فى كاشْغَر. لكن ما أن وصل إلى بلاساغون، حتى تراجع بسبب الثلوج القوية، لكن تدخل بينهما السلطان محمود الغزنوى، فتصالح الأخوان فى هذه السنة. والواقع أن السلطان «أحمد طوغان» أعاق هجوم أخيه «ناصر ايليك خان» على الغزنويين، لكن دب الخلاف حول هذا الأمر بين السلطان أحمد طوغان ويوسف قادر خان حاكم خوتن. ونتيجة موت «ناصر ايليك خان» سنة ١٠١٢م أجبر يوسف قادر خان الذى استولى على ياركند وكاشْغَر، السلطان أحمد طوغان إلى الانسحاب إلى بلاساغون[١٢٩] (فى سنه ١٠١٥م)

وفى سنة ١٠١٢م صار منصور أخو السلطان أحمد طوغان سلطانا للقراخانين الغربيين.

وعندما مرض السلطان أحمد طوغان فى سنه ١٠١٧م ساق به «لولونج-صو» حاكم الكيدانين الشرقين (٩٨٣ - ١٠٣١) جيشا قوامه مائة الف رجل ضد القراخانين. وحسب بعض المصادر التاريخية، أن من خرجوا فى هذا الجيش هم مائة ألف أسرة كيدانيه تعرف فى التاريخ بإسم القراخطاى. والاحتمال الأكبر أن المائة ألف أسرة كيدانيه التى هاجرت فى اتجاه الغرب، جاءوا ألى وادى إيلى من فوق ألألطاي. وتشكل من هذه الأسر الجيش المكون من مائة ألف شخص، واتجه الألطاي الذين هم القسم الشمالى الغربى من القراخانيين، وهذه الأسر التى احتلت وادى إيلى، اتجهوا إلى بلاساغون.

فـى تلـك الأثنـاء تلقـى السـلطان أحمـد طوغـان الجالـس علـى عـرش القراخانييـن آنـذاك (والـذى رجـع مـن بالاسـاغون إلـى كاشْغَر عـام ١٠١٥م)، تلقـى خبـر هزيمـة القراخانييـن أمـام جيـش الكيدانيـن، فاتجـه فـورا إلـى بالاسـاغون، وهـزم الكيدانيـن فـى مـكان علـى مسـافة ثمانيـة أيـام مـن المدينـه، وطـارد مـن هـرب وتمكـن مـن أسـر مايزيـد علـى عشـره آلاف أسـير. كمـا غنـم أعـدادا كبيـرة مـن البغـال وغيرهـا، واسـتمرت حملـة أحمـد طوغـان هـذه ثلاثـه شـهور، لكـن فـى النهايـه تمكـن مـن إخـراج الكيدانيـن مـن «ألطـاى» ومـن «وادى ايلـى»، وأعادهـم إلـى الأماكـن التـى جـاءوا منهـا.

ومنـذ ذلـك اليـوم لـم يجـرؤ الكيدانييـن علـى مهاجمـة القراخانييـن. ولمـا توفـى السـلطان أحمـد طوغـان سـنه ١٠١٨م، تولـى مكانـه أخـوه منصـور أرسـلان خـان (١٠١٢ - ١٠١٨م) وعيـن محمـود أرسـلان خـان أخـوه محمـود كحاكـم «ايليـك خـان» الغربييـن.

ولـم يسـعد يوسـف قـادر خـان لاختيـار «منصـور أرسـلان خـان» حاكمـا للقراخانييـن، فوقّـع هـو وابـن اخيـه (أو أختـه) علـي تكيـن معاهـدة مـع السـلطان محمـود ثـم قـرر أن يخـوض صراعـا مـع السـلطان منصـور أرسـلان خـان. كمـا جـاء السـلطان محمـود بـدوره فـى عـام ١٠١٩م إلـى مـا وراء النهـر بغـرض مسـاعدة يوسـف قـادر خـان. لكنـه غـادر ورجـع مـن هنـاك لسـبب غيـر معـرف. بنـاء علـى ذلـك أعلـن يوسـف قـادر خـان طاعتـه لأخيـه منصـور أرسـلان خـان وهاجـم خُراسـان لكـى ينتقـم مـن الخيانـة التـى اقترفهـا محمـود الغزنـوي. وانتهـت الحـرب التـى وقعـت أمـام بلـخ بانتصـار السـلطان محمـود. وقـد تشـتت قسـم مهـم مـن جيـش القراخانييـن الـذى انسـحب بعـد هزيمتـه وذلـك أثنـاء تجـاوزه سـرداريا. وأرسـل «آلتـون طـاش خـوارزم شـاه» خطابـا يعلـن فيـه تهنئتـه للسـلطان محمـود الغزنـوى بهـذا النصـر علـى القراخانييـن.

بعـد رجـوع يوسـف قـادر خـان مهزومـا مـن حملـة خُراسـان عـام ١٠١٩م، تخلـى عـن المطالبـة بحقـه فـى عـرش القراخانييـن فـى الفتـرة بيـن ١٠١٩ - ١٠٢٥م.

خوارزم من زاوية القراخانيين والغزنويين

كانت خوارزم الواقعة على الشاطئ الغربى لنهر آمودريا، بلدا غاية فى الخصوبة ومباركة. وقد ارتقت فى خوارزم الزراعة، وزراعة الكروم وتربية الحيوان والصناعة والتجارة قبل الميلاد بألف عام. وفى الأزمنة القديمة عرف السكان المحليون لآسيا الوسطى الذين استقروا واشتغلوا بالزراعة، بأسماء المناطق التى عاشوا فيها مثل الخوارزمى، والصغدى، والباكتريالى. ونصادف اسم خوارزم للمرة الأولى فى الكتابة المنقوشة على صخرة (باهى ستون) التى أقامها الأخمينيون عام ٥٢٠ قبل الميلاد احتفالا بانتصار دارا الأول. ولخوارزم تاريخ موغل فى القدم وربما يعنى اسمها(البلاد المشمسة).

ويُذكر أنه عندما انتصر الإسكندر المقدونى على دارا الثالث آخر ملوك الأسرة الأخمينية فى عام ٣٣٠ قبل الميلاد، واستولى على فارس، وقبلها بعامين أرسل «پارامصان خوارزمشاه» رسولا إلى الإسكندر ليعرب عن رغبته فى إقامة علاقات صداقة معه، ومن ناحية أخرى ليبلغه أنه سيساعده فى شن حملة على نواحى البحر الأسود؛ لكن الإسكندر استقبل السفراء بوجه باسم، وقدم لهم الهدايا القيمة، لكنه كان يفكر فى أن يسوق حملة إلى نواحى الهند وليس فى اتجاه الغرب.

وخوارزم التى انتقلت إلى حكم الكوك تورك اعتبارا من القرن السادس الميلادي صارت فى أعقاب الحملة التى ساقها [قتيبة بن مسلم] فى عام ٧١٣م، تابعة للوالى العام لخراسان وماوراء النهر؛ وظلت تحت حكم الطاهريين فى الفترة من ٨٢٠ - ٨٧٠م، وحكم السامانيين فى الفترة من ٨٧٠ - ١٠٠٠م، لكنها فى زمن السامانيين كانت شبة مستقلة.

وغير معروف إن كانت خوارزم بعد انتهاء السامانيين قد صارت تابعة للقراخانيين بشكل كامل أم لا. الشيئ الوحيد الذى نعرفه أن خوارزم صارت أكثر قربا من الغزنويين فى أعقاب خروج القراخانيين مهزومين من حملتهم على خُراسان التى قاموا بها فى عامى ١٠٠٦، و١٠٠٨م.

وكانت خـوارزم وقـت انهيارالدولـة السـامانية فـى عـام ٩٩٩م كيانـا واحدا. لأنهـا فيمـا قبـل كانـت مقسـمة إلـى قسـمين: شـمالى وجنوبـى، عاصمـة الشـمال «أوركنـج»، أمـا عاصمـة الجنـوب فكانـت «قيـاط». وكان مؤمـن بـن محمـد حاكـم خراسـان قـد وحـد الشـمال والجنـوب فـى عـام ٩٩٦م، واتخـذ لقـب خـوارزم شـاه، وجعـل «اوركنـج» عاصمـة الإقليـم.

وكان محمـود الغزنـوى يريـد أن يجعـل دولـة خـوارزم ذات الثـروة والثقافة مربوطـة بـه، حتـى أنـه زوج اثنيـن مـن أخواتـه إلـى مؤمـن بـن محمـد وابنـه علـي بـن مؤمـن (٩٩٧ - ٩٩٩م). وكان هدفـه أن يصبـح صاحـب خـوارزم عـن طريـق المصاهـرة؛ لكـن صهريـه حرصـا علـى الاسـتقلال بمـا لديهمـا مـن قوة، وكانـا يتحريـان السـبل التـى تجعلهمـا أقويـاء مـن الوجهـة العسـكرية.

وبعـد مـوت علـي بـن مؤمـن، تولـى العـرش أخـوه مؤمـن بـن مؤمـن، وبـذل جهـودا كبيـرة لكـى يتمكـن مـن جعـل خـوارزم دولـة قويـة ومسـتقلة. وكان غايـة فـى العقـل والـذكاء، لكنـه كان مفرطـا فـى انفعالـه ويحـب التملـق.

أمـا الخليفـة القـادر باللـه العباسـى، فقـد أرسـل فـى عـام ١٠٤١م سـفيرا إلـى» اوركنـج» اسـمه البيرونـى (غيـر أبـى ريحـان البيرونـى)، بقصـد بـذر بـذور العـداوة بيـن دول آسـيا الوسـطى لإضعافهـا، وأطلـق علـى مؤمـن بـن مؤمـن لقـب (عيـن الدولـة ومجـد المؤمنيـن) كمـا أرسـل لـه الملابـس القيمـة. لكـن محمـود الغزنـوى كان قـد علـم بأمـر الرسـالة والهدايـا التـى أرسـلها الخليفـة إلـى مؤمـن، فقـرر أن يختبـر مؤمـن حسـب توصيـة وزيـره أبـو القاسـم ميمنـدى بـأن أرسـل رسـولا إلـى قصـره خفيـة. وكانـت مهمـة الوزيـر أن يفعـل كل مـا يمكنـه لتقـرأ الخطبـة باسـم الخليفة وباسـم السـلطان محمـود. وأراد الرسـول قـراءة الخطبـة باسـم السـلطان وأوضـح أنهـا رغبتـه هـو الشـخصية؛ لكـن مؤمـن ابـن مؤمـن وهـو الرجـل العاقـل، فهـم السـر مـن وراء هـذا الطلـب. فلـم يعـط الرسـول جوابـا شـافيا، لكـن أصـر الرسـول علـى طلبـه. وإزاء هـذا الموقـف الصعـب جمـع مؤمـن أمـراءه وأركان دولتـه للمشـورة. فاعتـرض الأمـراء وأركان الدولـة وشـهروا سـيوفهم وهـددوا مؤمـن قائليـن: «إذا وافقـت هـذا الرسـول علـى طلبـه فسـنقتلك وأنـت فـى مكانـك

هـذا!». وصـار مؤمـن بيـن ناريـن. فـإذا لبـى الرسـول إلـى طلبـه فسـيكون ضـد شـعبه، وإذا رفـض فسيسـتعدى عليـه رجـل مثـل محمـود الغزنـوى. فـى هـذا الوضـع المحيـر قـرر أن يعقـد اتفاقـا مـع القراخانييـن وأن يخـرج ضـد محمـود الغزنـوى. وعلـى الفـور أرسـل رسـولا إلـى القراخانييـن، الذيـن رأوا بدورهـم أنـه مـن المناسـب الخـروج معـه ضـد محمـود الغزنـوى.

عندمـا علـم السـلطان محمـود باتفـاق القراخانييـن مـع خـوارزم ضـده، أرسـل مـن فـوره مبعوثاً للاعتـراض علـى هـذا الأمـر. واعلنـت الإدارة القراخانية فـي متـن الـرد الـذي أرسـلته مـع هـذا المبعـوث بأسـلوب دبلوماسـي، أن الغزنوييـن إذا كانـوا يريـدون تطبيـع علاقاتهـم بالخوارزمييـن فإنهم مسـتعدون للوسـاطة فـى هـذا الأمـر. لكـن السـلطان محمـود كان غيـر راضٍ عـن وسـاطة «منصـور الإليكخانـي الغربـي القراخانـي بيـن السـلطنة الغزنويـةً والخوارزمية وتدخلـه فـي الأمـر. وفـي عـام ١٠١٥م أرسـل السـطان محمـود خطابـاً إلـى شـاه خـوارزم الـذي كان فـى موقـف صعـب، يهـدده فيـه بقولـه: «إنـك تعـرف أن بيننـا عهـودا ومواثيـق وعليـك التزامـات. ومعلـوم لديـك كـم كان أخوكـم الأكبـر سـلطان خـوارزم قبلكـم، مدينـا لنـا.

أمـا بالنسـبة لمسـألة قـراءة إسـمنا فـي الخطبـة، فقـد امتثلتـم لهـذا الأمـر، حيـث رأيـتَ مـا سـيجره عليـك عـدم قـراءة إسـمنا فـي الخطبـة، ولكـن شـعبك اعتـرض عليـك. ولا أنـوى الضغـط عليـك بقولنـا (افعـل ولا تفعـل) كمـا يفعلـون هـم. فهـم قـد قالـوا لـك يـا أيهـا السـلطان (افعـل ولا تفعـل). وهـذا الوضـع هـو أسـاس مـا بلغتـه دولتـك مـن ضعـف. والحقيقـة أننـى غاضـب علـى مثـل هـؤلاء االرجـال. إننـي فـي بلـخ منـذ زمـن طويـل، مسـتعد بجيـش فرسـان قوامـه مائـة ألـف جنـدي وخمسـمائة فيـل لأرد رجالكـمٍ إلـى صوابهـم. وهدفـي أن أوقظـك يـا أخـي وصهـري مـن غفلتـك. إن حاكمـاً مثلـك لا يظـل فـي الحكـم فتـرة طويلـة». ويوضـح السـلطان محمـود، أنـه فـي حالـة حـدوث أى مـن الأمـور الموضحـة فـى نهايـة خطابـه، فإنـه سـيعود بجيشـه إلـى غزنـة مـرة أخـرى وهـى:

١ - ضـرورة ان يذكـر سـلطان خـوارزم اسـم السـلطان محمـود الغزنـوي

فــي الخطبــة.

٢ - أن يرســل ســلطان خــوارزم إلــى الســلطان محمــود الهدايــا والأمــوال، ولكــن السـلطان محمـود فـي المقابـل سـيعيدها سـراً إليـه، لأنـه غنـي وليـس بحاجـة إليهـا.

٣ - أن يرســل ســلطان خــوارزم كبــار موظفيــه للاعتــذار للســلطان محمــود.١٣٠

لــم يســتطع مؤمــن نتيجــة عــدم خبرتــه وحســمة، تحقيــق الاســتقلال ســواء لنفســه أو لخــوارزم. وعــدم حســمه هــذا فتــح الطريــق إلــى عصيــان الأمــراء، ففــي عــام ١٠١٧م قــام الأمــراء بقتــل مؤمــن ووضعــوا علــى العــرش ابــن أخيــه أبــا الحــارس محمــد بــن علــي.

وهــذا العصيــان الــذي حــدث فــي خــوارزم كان الذريعــة التــي يبحــث عنهــا محمــود الغزنــوي. فســار إلــى خــوارزم بجيــش كبيــر بحجــة «الثــأر لمقتــل صهــره مؤمــن». لكــن لــم يســع القراخانيــون ســعيا جــادا لإعاقــة ذلــك برغــم التصريحــات التــي أصدروهــا بــأن الســلطان محمــود يســتعد للاســتيلاء علــى خــوارزم. والنتيجــة، اســتولى الســلطان محمــود فــي عــام ١٠١٧م على خــوارزم، واعتبــاراً مــن هــذا التاريــخ ضــاع اســتقلال خــوارزم، واصبحــت ولايــة تابعــة للســلطان الغزنــوي. وعيــن الســلطان محمــود عليهــا أميــراً يســمى «آلتــون طــاش» مــن قبيلــة قارلــوق ليحكــم خــوارزم بإســم الغزنوييــن.

السلطان يوسف قادرخان ومحمود الغزنوي

وقعــت فــي عهــد الســلطان منصــور أرســلان وقائــع مهمــة. ففــي العــام الــذي تولــى فيــه العــرش (فــي عــام ١٠١٧م) اســتولى محمــود الغزنــوي علــى خــوارزم. وفــي عــام ١٠١٩م انتهــت الحــرب التــي شــنها القراخانيــون علــى خُراســان بهزيمــة ثقيلــة، واتحــد «علــي تكيــن» مــع «يابغــو الأوغــوز» أرســلان اســرائيل (فيمــا بيــن أعــوام ٩٩٠ - ١٠٢٥م)، ورفــع رايــة العصيــان ضــد الســلطان منصــور أرســلان خــان.

واستولى «علي تكين» على بُخارى في عام ١٠٢٠م. وعندما خرج السلطان منصور أرسلان ضد هذا العصيان انهزم بسبب دعم «الأوغوز» لعلي تكين. وفي نفس تلك الأيام مات «طوغان الأول الإليكخاني الشمالي» وتولى بعده «طوغان خان الثاني» الذي حرك العصيان. ونتيجة هذا العصيان تنازل السلطان منصور أرسلان خان عن العرش في عام ١٠٢٤م ومات بعد فترة قصيرة. وتولى العرش بعده السلطان «أحمد طوغان الثاني» وهو حفيد هارون بوغراخان (ابن حسن)، وبينما انشغل السلطان أحمد طوغان بتهدئة العصيان، أصبح عمه السلطان يوسف قادرخان، السلطان الأعظم للقراخانيين في عام ١٠٢٥م.

وفي عام ١٠٢٥م بدأ السلطان يوسف قادرخان التحرك من كاشْغَر بهدف القضاء على العصيان، وهاجم السلطان طوغان الثاني الإليكخاني الشمالي، لكنه انهزم فى الحرب التى اندلعت في المناطق القريبة من بالاساغون. وأعرب «علي تكين» الذي علم خبر هذه الواقعة، عن أمله في أن يصبح السلطان الأعظم للقراخانيين. وكان قد اتحد مع الأوغوز قبل ذلك في عام ١٠٢١م واستولى على بُخارى، أما في عام ١٠٢٥م فقد اتحد مع يابغو الأوغوز أرسلان إسرائيل، ورفع راية العصيان ضد السلطان يوسف قادرخان.

كان الأوغوز يستقرون في مدينة جَنْدَ وماحولها في المناطق التي تقع أسفل نهر سرداريا ويرأسهم أبناء سلچوق، أمير الأوغوز الأعظم.

والواقع إن عصيان السلطان طوغان الثاني الإليكخاني الشمالي، واتحاد «علي تكين» مع الأوغوز ضد القراخانيين كانا يمثلان وضعاً غاية في الصعوبة. ومن ناحية أخرى كان هذا الوضع واضحاً بالنسبة للغزنويين، فقد كان كلٍ من يوسف قادرخان والسلطان محمود يدرك أن دعم الأوغوز يمثل خطراً بالنسبة له.

وكان الأوغوز في العصور السحيقة يستقرون في القسم الشمالي لإمبراطورية الكوك تورك التي تقع في القسم الشمالي من آسيا. وتوضح

المصادر الصينية أنه اعتباراً من القرن الثاني قبل الميلاد ورد ذكرهم في كتاب ملاحظات تاريخية، وفي الجزء الخاص بالهون من كتاب تاريخ أسرة خان. أما اعتباراً من القرن السادس الميلادي فقد ورد ذكرهم في كتاب تاريخ أسرة سوي، في قسم «التورا» أي شعب تورا.

وقد ورد اسم الأوغوز في إحدى كتابات أورخون يني ساي (في القرن السادس)، قبل كتابات أورخون بعدة قرون. وعلمنا من هذه الكتابات أن «أوريجين آلب توران» سلطان الأوغوز قد مات في عمر الشباب.

وفي عهد سلطنة أويغور أورخون أدخل الأويغور العشرة، والطقوز أوغوز سلطة الكوك تورك تحت إمرتهم. وكان الأويغور الشرقيون (ومن ضمنهم الأوغوز) قد هربوا في عام ٨٤٠م من أراضي منغوليا الحالية إلى الغرب. وظلوا هناك حتى اليوم، واتجه قسم كبير من الأوغوز أيضا إلى الغرب، وجاءوا حتى شمال بحر الخزر وبحيرة آرال.

والأغوز الذين هربوا من الأراضي المغولية، استوطنوا عند سواحل نهري «إيديل» و«يابيق» ودخلوا في محيط سلطنة الخزر منذ عام ٨٥٠م وحتى عام ٩٦٥م.

وهذه هى أسماء سلاطين الأوغوز الشرقيين عند فرارهم من الأراضي المغولية إلى الغرب، وهم: «طوقصورمش إليچي» و«طوغان بيك» (وهو لقمان بيك في مذكرات ابن فاضلان) و «ارطُغْرُل» بيك (وهو «إيرطيق» في مذكرات ابن فاضلان) وطاقاق (دوقاق).

وعندما دخل الأوغوز تحت سيطرة الخزر في عام ٨٥٠م أصبح من يدعى طاقاق (دوقاق) من عشيرة «قينيق» أحد عشائر الأوغوز، وزيرافي سلطنة الخزر. ولكن بعد قتله في عام ٩٠٣م تولى المنصب بعده ابنه «سلچوق» (٨٨٥ - ١٠٠٠م)، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، برتبة «سوباشي» وكيل السلطان (أى ضابط الفرسان والقائد الأعلى). وكان «سلچوق» ذا شخصية جيدة ويتسم بالشجاعة والقوة والقدرة والذكاء،

وكان الجنود يحبونه جداً ويقدمون له فروض الطاعة. والشعب أيضا يقدره ويحبه. ولهذا السبب عندما فكر أمير الأوغوز أن «سلچوق» قد يتمرد شعر بالحقد عليه، ثم صمم على قتله، وأحس «سلچوق» بهذا فتوجه إلى منطقة تسمى جَنْدَ اسفل بحر سردريا في عام٩١٥م، ومعه ١٠٠ فارس و١٥٠٠جمل و٥٠ألف شاة، ودخل الإسلام بتأثير موظفي المكوس من المسلمين.

وقد أوضحت بعض المصادر أن أمير الأوغوز كان يعمل مساعدا لسلطان الخزر. كان لدى «سلچوق» خمسة أبناء وهم: اسرائيل وميكائيل وداوود ويوسف وموسى. وبالنظر إلى هذه الاسماء يمكن إدراك أن أمراء الأوغوز وقعوا تحت تأثير سلاطين الخزر وإنهم تخلوا عن العقيدة الشامانية واعتنقوا اليهودية. وإذا كان هذا صحيحاً فإنه من هذا المنطلق يكون «سلچوق» قد تخلى عن اليهودية في عام ٩١٥م واعتنق الإسلام.

ويتضح في «رسالة» ابن فاضلان أن السفراء العرب الذين أرسلهم الخليفة المقتدر في عام ٩٢٢م إلى البلغار والخزر والأوغوز قاموا بتلقينهم تعاليم الإسلام، ولكن في نفس الوقت لم يتم تسجيل من هو الشخص الذي كان يرأس الأوغوز ويحمل لقب يابغو.

كنا قد أوضحنا أن الأشخاص الذين كانوا على رأس الأوغوز قبل سلچوق هم: «طوقصورميش إيلچي» و«طوغان بك» و«أرطُغْرُل بك» و «دوقاق». وفي كتابات ابن فضلان يرد اسم «كراكوجي غوجا» وهو خامس جد لسلچوق (والد طوقصورمش إيلچي). واسمه الأصلي ليس «كراكوجي غوجا» وإنما «كيرجيچي» وذلك لأن أجدادنا الذين كانوا يشتغلون بالرعي كانوا يعيشون في خيام مصنوعة من اللباد. ومن أجل نصبها يلزم آلات مصنوعة من الأشجار تُسمى «كيرجي» وكان الشخص المسئول عن تجهيز هذه الآلة المستخدمة في نصب الخيام يسمى «كيرجيچي» ولذلك من المحتمل أن ابن فضلان كان يكتب كلمة كيرجيچي في شكل كلمة قراقوشي.

واستمرت العداوة التي بين سلچوق وحاكم الأوغوز حتى نهاية القرن

العاشـر. وعندمـا قضـى «سيفياتوسـلاف الغرانـدوق» الروسـي علـى سـلطنة الخـزر فـي عـام ٩٦٥م، دخـل الأوغـوز تحـت سـيطرة القراخانييـن ثـم اعتنقـوا الإسـلام. وذلـك لأن الإسـلام فـي تلـك الفتـرة كان هـو الديـن الرسـمي للدولـة القراخانيـة، وبذلـك تـم القضـاء نهائيـاً علـى الديانـة الشـامانية.

وفـي عـام ٩٩٠م أسـس أبنـاء سـلچوق دولـة الأوغوز(هـذه الدولـة اسـتمرت مـن عـام ٩٩٠م حتـى عـام ١٠٤٠م). وكانـت عاصمـة هـذه الدولـة هـى «يانكـي كنـت» التـي تقـع شـمال غـرب بحيـرة آرال. وفـي تلـك الفتـرة كان عـدد سـكان الأوغـوز يبلـغ مليـون نسـمة تقريبـاً، وهـم فـي حـد ذاتهـم كانـوا يشـكلون قـوة. وهكـذا ظـل الأوغـوز فيمـا بيـن أعـوام ٩٦٥ - ١٠٤٠م مرتبطيـن تـارة بالقراخانييـن وتـارة بالغزنوييـن.

والأوغـوز الذيـن اتحـدوا مـع الإيليـك خـان القراخانييـن فـي عـام ١٠٢٥م تحـت حكـم أولاد سـلچوق، خرجـوا ضـد السـلطان الأعظـم لقراخـان، ورفضـوا الانصيـاع للسـلطان يوسـف قادرخـان أو لمحمـود الغزنـوي.

وفـي عـام ١٠٢٥م أرسـل السـلطان يوسـف قادرخـان مبعوثـاً إلى السـلطان محمـود. وقابـل السـلطان محمـود البعثـة الدبلوماسـية التـي جـاءت إلـى غزنـة بوجـه باسـم. وفـي نهايـة المناقشـات التـي جـرت تـم الاتفـاق بيـن السـلطان يوسـف قادرخـان والسـلطان محمـود علـى ضـرورة قمـع عصيـان الأوغـوز.

فهـم السـلطان يوسـف قادرخـان عـن طريـق مبعوثـه الـذي أرسـله أن وجهـة نظـره تتفـق مـع وجهـة نظـر السـلطان محمـود، فتوجـه مـن كاشْـغَر علـى رأس جيـش قراخانـي كبيـر قاصـدا سَـمَرقَنْد. وفـي نفـس الوقـت خـرج السـلطان محمـود بجيـش ضخـم و (٥٠٠ فيـل) واتجـه نحـو بلـخ وعَبَـرَ بحـر آمـو بواسـطة جسـر أقامـوه بالطوافـات المربوطـة ببعضهـا بالجنازيـر وتوجـه نحـو سَـمَرقَنْد.

وعندمـا علـم «علـي تكيـن» و «اسـرائيل أرسـلان يابغـو» باقتـراب السـلطان يوسـف قـادر والسـلطان محمـود مـن سَـمَرقَنْد، تركوهـا هـى وبُخـارى وهربـوا إلـى أطـراف «نورآتـا»، وقـال «بيلكـه تكيـن» وهـو مـن الأمـراء الغزنوييـن إنـه

لم يتمكن من ملاحقة «علي تكين» أو الإمساك به، ولكن أخذ زوجته وأطفاله الذين تركهما خلفه. وأبدى السلطان محمود أقصى درجات الاحترام لممثلي الأسرة القراخانية الحاكمة. واهتم بتطور الأحداث ولم يكن يشعر بأي حقد شخصي تجاه «علي تكين» لكنه كان يريد فقط الاستفادة من النزاع على العرش بين القراخانيين، ولهذا السبب لم يسع للقبض على «علي تكين» بل إنه أيضا لم يهتم بذلك.

وبعد هروب «علي تكين» و«اسرائيل أرسلان يابغو» أقام السلطان يوسف قادرخان والسلطان محمود في ضواحي سَمَرقَنْد مجالس فخمة وتحدثوا في موضوعات مهمة واتفقت أراؤهم فيها. وقد تحدث المؤرخ الفارسي البيهقي في كتابه «تاريخ مسعودي» والكرديزي في كتابه «زين الأخبار» بالتفصيل عن هذه المناقشات. ويقول الكرديزي إن كلا الحاكمين تبادل هدايا قيمة جداً وأقام الولائم. وقال إن الخزينة القيمة التي قدمها السلطان يوسف قادر للسلطان محمود كانت مرصعة بالأحجار الكريمة، والوليمة المبهرة التي أقامها السلطان محمود للسلطان يوسف قادر كانت غاية في الفخامة، فقد أقام له خيمة مزركشة بخيوط الذهب، ومزينة بالمجوهرات من داخلها وخارجها، وأعد وليمة فخمة وقدم له هدايا قيمة للغاية.

يُروى أن الخيمة التي نصبها كانت فخمة لأقصى درجة وتتكون من عدة غرف. منها غرف للضيوف وأخرى لتناول الطعام.

والهدايا التي قدمها السلطان محمود إلى السلطان القراخاني كانت كما يقول الكرديزي عبارة عن: أحجار كريمة وأكواب من ذهب وفضة وأطقم للخيل مرصعة بالذهب وعاج وسجاجيد قيمة وملابس ثمينة وغيرها. وعندما دخل قادرخان الخيمة ورأى هذه الهدايا القيمة أمر بجمع جميع الأشياء القيمة التي أحضرها معه حتى لايشعر بالخجل من السلطان الذي قدم له هذه الهدايا. وكانت الأشياء التي جمعها عبارة عن نقود كثيرة وأمتعة وخيول أصيلة ذات حدوات ذهبية وسجاجيد تركية موشاة بخيوط الفضة وفراء ثعالب أسود وحيوانات مفترسة وغيرها

من الأشياء التي أرسلها إلى السلطان محمود[١٣١].

وبعد المناقشات التي استمرت لعدة أيام عقد السلطان يوسف قادر والسلطان محمود معاهدتين مهمتين. إحداهما تنص على تقديم كل طرف المساعدات العسكرية للآخر، وضرورة القضاء على «علي تكين»، وتعيين «ياغان تكين» بن السلطان يوسف قادر ليصبح «إيليكخان الغرب»، أما المعاهدة الأخرى فكانت متعلقة بمسألة القضاء على الأوغوز الذين تحت حكم أولاد سلچوق والذين يهددون القراخانيين والغزنويين. وتقرر تشتيت الأوغوز فيما بين كاشْغَر وخراسان وفارس، هذا بالإضافة إلى زواج زينب ابنة السلطان محمود من «ياغان تكين». وتقرر أيضا زواج الأميرة القراخانية «شاه خاتون» من ولي العهد الغزنوي محمد.

كنا قد أوضحنا من قبل أنه بسبب اقتراب جيوش الغزنويين والقراخانيين من سَمَرقَنْد، ترك «علي تكين الإليكخاني الغربي» ما وراء النهر ولجأ إلى حلفائه الأوغوز الرحل الذين يعيشون بجوار «نورآتا» على الساحل الأيمن لنهر زرافشان، وبعد المعاهدات المبرمة بين السلطان يوسف قادر والسلطان محمود بالقرب من سَمَرقَنْد تم إرسال جيش إلى الأوغوز في نورآتا وأسر اسرائيل أرسلان يابغو بن سلچوق. وعفا السلطان محمود عن اسرائيل وأرسله إلى غزنة بناءً على رغبته.

وفي عام ١٠٢٦م عاد السلطان محمود إلى غزنة. في تلك الأثناء كان «طوغان خان الثاني» إليكخان الشمال قد طلب العفو من السلطان يوسف قادر وخضع له مرة أخرى.

وبعد أن عاد السلطان يوسف قادر إلى ما وراء النهر، رفعت إمارة خوتن وسلطنة إيديقوت الأويغورية راية العصيان وأعلنتا استقلالهما.

وفي عام ١٠٢٧م أرسلت سلطنة إيديقوت الأويغورية مبعوثاً إلى السلطان محمود وطلبت منه المساعدة ضد السلطان يوسف قادر. لكن السلطان محمود استقبل السفير الأويغوري بجفاء شديد ورفض طلبه. وتقول بعض المصادر إن سلطان كيدان أرسل أيضا في نفس الفترة

مبعوثاً إلى السلطان محمود مع مبعوث سلطنة إيديقوت الأويغورية، وانشغل السلطان يوسف قادر الذي عاد إلى كاشْغَر من ماوراء النهر بتهدئة عصيان إمارة خوتن وسلطنة إيديقوت الأويغورية، وفي عام ١٠٢٦م أخضعهما لسيطرته مرة أخرى. لكن سلطنة إيديقوت الأويغورية التي اعتمدت على دعم وتأييد الكيدانيين وافقت على دفع الجزية وطاعة القراخانيين مع منحها حرية التصرف في شئونها الداخلية.

وعندما رجع السلطان يوسف قادر من ماوراء النهر، أراد أن يستقر قسم من الأوغوز بجوار كاشْغَر تطبيقاً للمعاهدة التي أبرمها مع سلطان غزنة، ولكن الأميران «چغري» و«طُغْرُل» لم يثقا في كلامه ورفضا هذا الاقتراح.

وبعد أن رجع السلطان محمود إلى غزنة أرسل خطاباً إلى أرسلان يابغو وعده فيه بوعود كثيرة. فجاء أرسلان يابغو الذي وثق في السلطان محمود إلى غزنة مع عدد قليل من الأوغوز. أما أولاد أخيه فقد مكثوا في أراضيهم مع عدد كبير من المحاربين، وبعد أن دخل «أرسلان يابغو» إلى غزنة تم اعتقاله هو وبعض أمراء الأوغوز وحبسهم في قلعة كالنجار في الهندستان. وبعد فترة مات «أرسلان يابغو» هناك.

وبعد موت «أرسلان يابغو» تولى رئاسة الأوغوز يوسف إينانچ (ابن موسى إينانچ الابن الأوسط لسلچوق). في تلك الأثناء كان قادة جيش الأوغوز هما الأميران «چغري» و « طُغْرُل» (وهما أبناء ميكائيل) وأحفاد سلچوق. هذان الأميران تعلما درساً من المأساة التي لحقت بأرسلان يابغو، ولذلك رفضا اقتراح السلطان يوسف قادر بالاستقرار والعيش بجوار كاشْغَر.

وبعد عودة السلطان يوسف قادر إلى كاشْغَر ظهر «علي تكين» مرة أخرى وبدأ تحركاته. ولكن الأميرين «چغري» و «طُغْرُل» لم يؤيداه، وأيده فقط «يوسف إينانچ يابغو». قام «علي تكين» بمحاصرة سَمَرقَنْد وبُخارٍ اعتمادا على تأييد «يوسف إينانچ»، ثم بدأ التحرك بعد ذلك منفردا. ولذلك سار السلطان يوسف قادر على رأس جيش إلى ماوراء

النهر للقضاء على «علي تكين» ولكن «علي تكين» قام بتشتيت جيشه.

وأمام هذا الوضع أرسل «ياغان تكين» بن السلطان يوسف قادر مبعوثاً إلى السلطان محمود وطلب منه مساعدته ضد «علي تكين» و«يوسف إينانچ». وعندما اتضح أن السلطان محمود سوف يرسل المساعدة إليه لكن بعد عودته من حرب هندستان، صرف النظر عن السير ضد «علي تكين» بمفرده. الحقيقة إن السلطان محمود كان ينظم في تلك الفترة لحملته السادسة عشرة على الهندستان التي استولى في نهايتها على كوجارات.

أراد «علي تكين» أن ينتهز هذه الفرصة النادرة، فطلب من «يوسف إينانچ يابغو» الهجوم على الأميرين «چغري» و «طُغْرُل» اللذين رفضا مساعدته. ولكن «يوسف إينانچ يابغو» اتجه للتعاون مع الأميرين «چغري» و «طُغْرُل» وهما من أقاربه، بدلاًمن الاستجابة لرغبة «علي تكين». وعندما علم «علي تكين» بتلك الوقائع قتل «يوسف إينانچ يابغو». وإزاء هذا سار «چغري» و «طُغْرُل» ضد «علي تكين» للأخذ بثأر «يوسف إينانچ يابغو». والمعارك التي تطورت في البداية لصالح الأوغوز انتهت بهزيمتهم فيما بعد. وجاء «چغري» و «طُغْرُل» اللذان تعرضا لضربة «علي تكين» إلى كاشْغَر على رأس الأوغوز واستقروا بالقرب منها في عام ١٠٢٨م وخضعوا للسلطان يوسف قادر.

وفي نفس العام أيضا أعلن «علي تكين» أنه يريد الارتباط بكاشْغَر مركز القراخانيين طالباً العفو من السلطان يوسف قادر. فقام السلطان يوسف قادر الذي كان يريد السيطرة على الأميرين «چغري» و «طُغْرُل» اللذين استقرا بجوار كاشْغَر، باستدعائهما للقائه بحجة ما. ولكنهما لم يحضرا إلى السلطان يوسف قادرمعا. فخرج أحدهما من طريق بينما انتظر الآخر مستعداً لأي إحتمال. فلم يجد السلطان يوسف قادر سبيلا سوى اعتقال «طُغْرُل» الذي جاءه بمفرده. وإزاء هذا رحل الأمير «چغري» عن كاشْغَر مع الأوغوز. وعندما صادفوا في الطريق بعض الأمراء القراخانيين الذين كانوا يصطادون، قاموا بأسرهم وحملوهم

معهم. فقام السلطان يوسف قادر بإطلاق سراح الأمير «طُغْرُل» لتحرير الأمراء القراخانيين وبعد أن قدم له هدايا سخية وتحدث معه وأخذ منه الوعد بضمان عودة الأمراء القراخانيين سالمين إلى كاشْغَر. وكان الأمير «چغري» قد حط رحاله في مدينة جند. ولحق به الأمير «طُغْرُل» وأرسل الأمراء القراخانيين إلى كاشْغَر بناءً على الوعد الذي تعهد به، وقد وقعت هذه الواقعة في عام ١٠٢٩م.

بيد أن الأوغوز الذين جاءوا إلى جند لم يستقروا في تلك المدينة. لأنها كانت أرضا تابعة للإليكخان الشماليين وبذلك فهي تعد أرض القراخانيين.

ولذلك تشاور الأميران «چغري» و «طُغْرُل» مع شاه خوارزم هارون وطلبا منه منحهما مراع، وافق هارون سلطان خوازم فخصص لهما منطقة كبيرة لاستقرار الأوغوز.

انقسام القراخانيين

عندما مات السلطان محمود الغزنوي في ٢٦ مايو عام ١٠٣٠م، أصبح الأمير مسعود سلطاناً على غزنة بعد أن أقصى أخاه الصغير محمد، الوريث الأصلي للعرش.

في عام ١٠٣٠م أرسل السلطان مسعود بعثة دبلوماسية إلى السلطان يوسف قادر. وطالت المباحثات كثيراً، ومن الموضوعات الأساسية التي تطرقت إليها المناقشات موضوع المعاهدة المبرمة بين السلطان محمود والسلطان يوسف قادر في عام ١٠٢٦م بالقرب من سَمَرْقَنْد حيث لم يتم حسم مسألة الزواج المتبادل. إذ تنص المعاهدة على أن تتزوج زينب ابنة السلطان محمود من «ياغان تكين» (محمد بوغراخان) ابن السلطان يوسف قادر، وأن تتزوج «خان ملك شاه خاتون» (شقيقة ياغان تكين) وابنة السلطان يوسف قادر من ولي العهد محمد. ولما كان السلطان مسعود هو الذي تولى العرش، فمن الضروري أن تتزوج خان ملك شاه خاتون من مسعود وليس من محمد.

وكان السلطان مسعود يريد ان يزوج ابنه السلطان مودود إلى ابنة بوغرا تكين (سليمان أرسلان خان)، زعندما ناقشت البعثة الدبلوماسية التي جاءت إلى كاشْغَر هذا الموضوع مع السلطان يوسف قادر لم يتم التوصل إلى قرار واضح. في تلك الأثناء مات السلطان يوسف قادر في عام ١٠٣٢م واعتلى العرش ابنه سليمان أرسلان خان.

واستمرت البعثة الدبلوماسية الغزنوية التي مكثت عدة أعوام في كاشْغَر في مباحاثاتها مع سليمان أرسلان خان، وفي النهاية أنهت مهمتها في عام ١٠٣٤م. وودع سليمان أرسلان خان أخته «خان ملك شاه خاتون» وابنته إلى غزنة برفقة البعثة الدبلوماسية الغزنوية مع جهاز عرس قيم لكلتيهما. ولكن مع الأسف أثناء الطريق ماتت الأميرة الكاشْغَرية التي كانت ستصبح زوجة السلطان مودود. وإزاء هذا الوضع وصلت خان ملك شاه خاتون إلى غزنة بمفردها وتزوجت من السلطان مسعود، وهذه الأميرة تزوجت بعد ذلك من السلطان السلجوقي «آلب أرسلان» بعد وفاة السلطان مسعود في عام ١٠٤١م.

بينما يودع سليمان أرسلان خان بعثة غزنة الدبلوماسية من كاشْغَر في عام ١٠٣٤م أرسل محمد بوغراخان مبعوثاً إلى غزنة وأعلن أنه لابد من إرسال زينب ابنة السلطان محمود إليه ليتزوجها ولكن السلطان مسعود رفض هذا الطلب، فامتعض محمد بوغراخان من هذا الموقف وأرسل خطاباً سرياً إلى الأمير «طُغْرُل» وطلب منه التحرك ضد السلطان مسعود. لكن الجنود الغزنويون قبضوا على ناقل البريد خلال مروره من بحر آمو واستولوا على الخطاب الذي كان يحمله. ولم يفصح السلطان مسعود - الذي علم بمحتوى هذا الخطاب الذي استولى عليه - عن محتواه ولكنه أرسل فقط ناقل البريد الذي كان يحمله إلى الهندستان، وأراد أن يتكتم هذا الحادث، فلم يكن يود افساد علاقة محمد بوغراخان بالأمير «طُغْرُل». وبعد ذلك أرسل في عام ١٠٣٧م خطاباً إلى سليمان أرسلان خان وطلب منه أن يتوسط بين أخيه بوغراخان والغزنويين، وأقام المبعوثون الغزنويون الذين جاءوا إلى كاشْغَر لمدة عام ونصف هناك، ثم

رجعوا إلى غزنة بعد أن أنجزوا مهمتهم في عام ١٠٣٩م.

في عهد سليمان خان الذي يعد من كبار سلاطين القراخانيين ساد الهدوء والاستقرار أحوال الدولة القراخانية الداخلية والخارجية فيما بين أعوام (١٠٣٢ – ١٠٤٠م). وفي عام ١٠٣٥م مات «علي تكين» وصار ابنه «يوسف بن علي إليكخان» مكانه بناءً على أمر سليمان أرسلان خان، وخضع يوسف لكاشْغَر بدون قيد أو شرط بل إنه قام في عام ١٠٣٥م بطرد الأوغوز الذين تحت سيطرة الأمير «طُغْرُل» من ما وراء النهر، وهرب الأوغوز جماعات إلى خُراسان.

وفي عام ١٠٣٦م تزوج يوسف بن علي (الذي كان إليكخان فيما بين أعوام ١٠٣٥ - ١٠٤٠م) من ابنة ناصر قريب السلطان محمود. وكانت علاقاته مع الغزنويين جيدة، ولكنه لم يمكث في مقام الإليكخانية فترة طويلة. لأن محمد بن نصر وإبراهيم بوغراتكين إبنا ناصر الإليكخاني الغربي ثارا ضده فيما وراء النهر. واحتل محمد بن ناصر «أوزكنت» في عام ١٠٣٧، واحتل إبراهيم بوغراتكين بخارى في عام ١٠٤٠م وهرب يوسف بن علي إلى سليمان أرسلان خان طلباً لمكان يلوذ به.

ومحمد بن ناصر الذي استمر حكمه فيما بين أعوام (١٠٤٠ - ١٠٤٢م) تخلي عن لقب إليكخان، وفي عام ١٠٤٠م اتخذ لنفسه لقب «تاوغاچ بوغراخان» بعد أن اصبح حاكما مستقلا

واعتباراً من ذلك اليوم انقسمت الدولة القراخانية إلى قسمين: غربية وشرقية. واستمر سليمان أرسلان خان سلطاناً على القراخانيين الشرقيين.

ولم يسع سليمان أرسلان خان إلى إعاقة استقلال محمد وإبراهيم بوغراتكين الإليكخانيين الغربيين، إذ رفعت قبائل «ياباقو وباسميل وچومول ويَمَكْ» التي تعيش في سواحل «إيرتيش» و«بالقاش» راية العصيان في تلك الأثناء وبالتحديد في عام ١٠٤١م.

وتقول المصادر التاريخية الموثوق بها أن «بوزراچ» زعيم «ياباقو» جمع جيشاً كبيراً من «باسميل» و«چومول» و«يمك» وسعى للسيطرة

علـى العاصمـة القراخانيـة كاشْـغَر، فخـرج سـليمان أرسـلان خـان بجيـش قوامـه ٤٠ ألـف جنـدي تحـت قيـادة «بيكاچ أرسـلان تكيـن» لمواجهـة جيـش المتمرديـن الـذي كان قوامـه ٧٠٠ ألـف أو ربمـا ٧٠ ألـف علـى الأصـح.

وأثنـاء المعـارك قتـل «أرسـلان تكيـن» بـوزراچ ودخـل اليباقويـون ثانيـة تحـت سـيطرة سـليمان أرسـلان خـان، وبرغـم عقـد معاهـدة بيـن الطرفيـن، فقـد انتهـك الباسـميليون والچومولـيـون المعاهـدة بعـد فتـرة، فسـيطر عليهـم مـرة أخـرى ودخلـوا تحـت إمرتـه. وهكـذا انضمـت الأراضـي المجـاورة لبلقـاش وآرال مـرة أخـرى إلـى الحـدود القراخانيـة.

وهنـاك معلومـات قيمـة للغايـة اوردهـا محمـود الكاشْـغَري فيمـا يتعلـق بهـذه الوقائـع[١٣٢]

بعـد أن انهـزم «بـوزراچ» فـى المعركـة مـع «أرسـلان تكيـن»، جمع جيشـاً مـرة أخـرى واسـتمر في الحـرب[١٣٣].

يتضـح مـن هـذا الاقتبـاس مـن كتـاب ديـوان لغـات التـرك أن اليباقوييـن أرادوا الثـأر لمقتـل أميرهـم «بـوزراچ» علـى يـد «أرسـلان تكيـن». والباسـميل الذيـن انحـازوا إلـى جانـب اليباقوييـن فـي البدايـة تخلـوا عـن حلفائهـم أثنـاء الحـرب وانحـازوا لأرسـلانِ تكيـن، ولهـذا السـبب سـعى اليباقويـون إلـى إحـراق أميـر الباسـميل انتقامـاً منهـم.

ووفقـاً لمـا روى فـي النـص المأخـوذ مـن كتـاب ديـوان لغـات التـرك[١٣٤] يتضـح أن اليمـاق الذيـن هـم ذراع القبجـاق احتشـدوا وهـم غضبـى وأخـذوا يسـتعدون للهجـوم، وقـد أوضحنـا سـابقا أن اليمـاق الذيـن فـي نواحـي إيرتيـش قـد اتحـدوا مـع اليباقوييـن وتمـردوا ضـد القراخانييـن.

ارتفعت الراية الحمراء،
وثار الغبار الأسود،
وجاء الأوغراق وانضموا الينا
وانشغلنا بالحرب ولهذا تأخرنا[١٣٥].

ووفقاً لهذه المعلومة المأخوذة من كتاب محمود الكاشْغَري يتضح أن بعد هزيمة الياباقويين على يد «أرسلان تكين» اتفق حلفاؤهم «الباسميليون» و«المچومول» على طاعة السلطان القراخاني سليمان أرسلان خان، لكن بعد فترة نقضوا هذا الاتفاق، فجاء إليهم سليمان خان بجيشه وهزمهم وأخضعهم لطاعته مرة أخرى.

ومن هذا الاقتباس يمكن الخروج بنتيجتين قاطعتين: إحداهما، كما أوضحنا من قبل أن العلم القراخاني صار لونه أحمر بدلاً من شجرة السندان ذات الأفرع التسعة التي كانت تتوسطه. وعندما يقال في الشعر أنه نصبت راية جيش الإسلام الحمراء، فإن هذا يعني راية القراخانيين المسلمين. فالحرب المثارة ضد الياباقويين والباسميليين الذين يعتنقون الشامانية قد وقعت في عام ١٠٤١م. ونفهم أيضا من نفس الرباعية المأخوذة من كتاب ديوان لغات الترك أن الأوغراقيين تعاونوا مع القراخانيين في هذه الحرب.

ومما روى في كتاب «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشْغَري نفهم أن هدف القراخانيين الوحيد ليس هو السعي إلى إدخال الأويغور البوذيين إلى الإسلام ولكن المعارك الدموية التي شنوها كانت من أجل أيضا إدخال الياباقويين والمچومول واليماق الذين يعتنقون الشامانية إلى الإسلام. وبسبب الحرب التي شُنت ضد الياباقويين في عام ١٠٤١م لم يستطع سليمان أرسلان خان منع الحركات الانفصالية للإليكخانيين الغربيين.

والنتيجة الثانية هى انتهاز محمد وإبراهيم بوغراتكين هذه الفرصة، واعلان استقلالهما. وبعد عام ١٠٤٠م اتخذ القراخانيون الغربيون سَمَرقَنْد عاصمة لهم، واعتباراً من هذا التاريخ انقسمت الدولة القراخانية بالفعل إلى قسمين، شرقية وغربية.

الفصل الثالث عشر: دولة السلاجقة الكبار

موقعة دندانقان

أصبح «چِغْرى بك» و«طُغْرُل بك» حفيدى سلجوق بعد فرارهما مع الأوغوز من كَاشْغَر إلي ما وراء النهر فى عام ١٠٢٩م، أصبحا يمثلان تهديداً حقيقياً للغزنويين.

وبدأ الأوغوز الذين عاشوا فيما وراء النهر لمدة تناهز نصف القرن من عام ٩٨٥م إلى ١٠٣٥م، فى شن الحملات على خُراسان اعتبارا من عام ١٠٣٠م، وبعد عام ١٠٣٥م هاجروا إلى هناك واستقروا.

وعندما بدأ «الأوغوز» فى الهجوم على خُراسان، طلب «أرسلان جاذب» والي خُراسان المدد والعون من السلطان محمود. بناء عليه جاء السلطان محمود بجيشه إلى طوس، وأخرج الأوغوز منها، فانسحبوا إلى شمال خُراسان، واستقروا فى القسم الشمالى الغربى منها. وفى تلك الغزوة استولى السلطان محمود على طهران وهمدان وقزوين، وشدد الوطأة على الأوغوز الموجودين فى تلك الانحاء وأخرجهم منها.

لكن «چِغْرى بك» و «طُغْرُل «بك» تمكنا من القضاء على سلطنة غزنة، واتجها لتأسيس واحد من أقوى الدول فى العالم.

وبعد عام ١٠٣٠م وعلى أثر موت السلطان محمود، شن الأوغوز هجمات منظمه على خُراسان. وتزايدت هذه الهجمات بشكل واضح، ذلك لأن «طُغْرُل بك» كان يرى انه ينبغى له أن يسيطر على خُراسان أولا لكي يتمكن من القضاء على الغزنويين».

كان القسم الغربي من فارس الحالية، والقسم الشمالى الغربى لافغاستان والأجزاء الجنوبيه من «آموديا» فى الأزمنة القديمة، تشكل كلها الاقليم المسمى خُراسان، وتعنى مشرق الشمس.

لأن كلمه خور فى الفارسية تعنى الشمس والشروق. وإقليم خُراسان له أهميه كبيرة من النواحى الاقتصادية والسياسية والاستراتيجيه العسكرية. ولهذا بدأ «طُغْرُل «بك» فى شن الحملات المتوالية على خُراسان اعتبارا» من عام ١٠٣١م.

ترتب على موت السلطان محمود، أن نشب النزاع حول العرش بين ولديه محمود وأخيه الأكبر مسعود. واستعان محمود الوريث للعرش، بـ» علي تكين» ضد أخيه مسعود. وقد وعده بإعطائه «خُتلان» (فى طاجيكستان اليوم) نظير هذه المساعدة. لكن الأمير مسعود سمل عينى محمود، وحمله مع أبنائه إلى غزنه، وانفرد بالعرش. هذه الحرب بين الاخوين فتحت طريق خُراسان أمام «طُغْرُل «بك». وفى عام ١٠٣٥م انتصر «چِغْرى بك» على جيش غزنة الجرار، واستولى على قسم كبير من خُراسان.

ويعد عام ١٠٣٧م هو ذروة قوة أحفاد سلجوق، وهو عام قيام دولة السلاجقة الكبار. وفى نفس العام أيضا استولى «چِغْرى بك» على «مرو» إحدى أكبر مدن خُراسان، وقرئت الخطبة بإسمه، ولقب بملك الملوك. وفى هذه الاثناء انتقلت مدينة بلخ الواقعة فى جنوب «آموديا» إلى يد الأوغوز.

وفى عام ١٠٣٨م تم الاستيلاء على نَيْسابور، واتخذ «طُغْرُل بك» لقب السلطان، وقرئت الخطبة باسمه. وكان اطلاق لقب السلطان على «طُغْرُل بك» يعنى بداية انهيار سلطنة غزنه التى اعتبرت من أقوى دول العالم آنذاك.

وعندما أدرك السلطان مسعود أن الخطر الذى تتعرض له دولته قد صار خطرا» مؤكدا». أوقف حملاته على الهند وسار على رأس جيشة

الجرار إلى خُراسان واسترد مدينة مرو من الأوغوز. وفى موقعة على آباد سنة ١٠٣٩م نجح فى إجبار «چِغْرى بك» على التراجع القهقرى. فلما رأى «چِغْرى بك» تفوق عدد جيش غزنة، اضطر إلى الانسحاب لينقذ الأوغور من هزيمة ثقيلة. وفى شهر مايو من ذات السنة، نظم السلطان مسعود حملة أخرى ضد الأوغوز، وفى هذه المرة طلب «چِغْرى بك» المساعدة من أمراء الأوغوز، فجاءه «طُغْرُل بك» من نَيْسابور، و«مسعود يابغو» من مرو لمساعدته. واحتمت قوات الأوغوز فى سرخس، ورغم خسارة جيش غزنة هذه الحرب، فقد عرض عليه أمراء الأوغوز الصلح، فوافق السلطان مسعود وأمر جيشه بالرجوع إلى غزنة، لكن الأوغوز خدعوا السلطان مسعود بعرضهم الصلح وتعقبوا جيش غزنة وانقضوا عليه من الخلف. بناء عليه قرر السلطان مسعود عدم الرجوع إلى غزنة وعن فكرة شن أى حملة أخرى على الهند حتى يحسم مسألة الأوغوز.

تقدم السلطان مسعود بجيشه إلى خُراسان واستولى على نَيْسابور. وترك «طُغْرُل بك» نَيسابور فى ١٥ مايو ١٠٤٠م وجاء إلى «سرخس»، لكنه عندما علم بمجىء السلطان مسعود بجيش جرار من نَيْسابور قاصدا» سرخس، تركها قبل مجىء جيش غزنة بيوم واحد. فتقدم السلطان مسعود الى مرو فى ١٧ مايو، بهدف استردادها من الأوغوز وطرد أحفاد سلجوق من خُراسان.

فلما بلغ الموقف هذا الحد، عقد أمراء الأوغوز مجلس حرب فى مرو، وقال أحد الأمراء الكبار فى هذا المجلس أن النزاع مع واحدة من أقوى دول العالم من شأنه أن يجلب المتاعب والمصائب على الأوغوز، والأجدى بدلاً من هذا هو ترك خُراسان، والتوجه نحو آذربيجان وآسيا الصغرى مرورا من شمال فارس، وسيكون الأصوب هو قتال الامبراطورية الرومانيه الشرقية، وبهذا لن يتمكن الغزنويون من قتال الأوغوز الذين سيكونون فى أرض بعيدة عنهم. لكن «چِغْرى بك» رفض هذا الاقتراح رفضا قاطعا، وأكد أنه على أى حال عقد النية على قتال الغزنويين لتقوية دولة السلاجقة القائمة، ويمكن للدولة بهذه الطريقة فقط أن

تدخل معترك الحياة.

وأيد بقيه أمراء الأوغوز «چغْرى بك» فى رأيه هذا، وقرروا محاربة الغزنويين[١٣٦]. واختير «طُغْرُل بك» ليكون القائد الأعلى فى هذه الحرب.

وفى ٢٢ مايو ١٠٤٠م جاء «طُغْرُل «بك» على رأس جيش مكون من ستة عشر ألف فارس إلى موضع يسمى «دندانقان» على مسافة ٦٠ كم من مرو. وكان هذا الموضع الواقع بين مرو وسرخس، مكاناً ملائماً للمعركة. أما السلطان مسعودٍ فقد تحرك إلى نفس الموضع بجيش قوى مكون من خمسين ألفاً من الفرسان والمشاه، وثلاثمائة فيل قتال.

كان «طُغْرُل بك» واثقا من انتصاره إذ كان يعرف جيدا موقف السلطان مسعود. ومع كون السلطان مسعود ذائع الصيت، وعليما وقديرا، فقد ضم جيشه بوذيين وأكراد وعرب وتاجيك وأتراكا من الأوغوز والقارلوق، وكان يعرف أن مثل هذا الجيش المتعدد الأديان والأعراق، ينقصه التلاحم أثناء الحرب. لذا كان أملهم معقودا على أفيال القتال.

فى ٢٣ مايو ١٠٤٠م بدأت فى دندانقان واحدة من أكبر حروب العصور الوسطى وأكثرها دموية وأمطر الأوغوز الذين بدأوا الهجوم تحت قيادة «طُغْرُل بك»، الأفيال التى كانت فى مقدمة الغزنويين بالسهام. فلما جفلت الأفيال من السهام التى تخترق بدنها وغرقت فى الدماء وولت هاربة، كرر الأوغوز هجومهم صوب القلب حيث يوجد السلطان مسعود. وفى أحرج فترات المعركة، انسحب الأوغوز فجأة وتراجعوا وذهب الغزنويون فى أعقاب جيش السلجوقى فى الصحراء لمسافة بعيدة لكن فى اللحظة التى كانوا يخططون فيها للتراجع بسبب ندرة المياه، استدار الأوغوز فجأة وأعادوا عليهم الكرَهَ وهكذا شتتوا الجيش الغزنوى. وأمام هذا التطور فى مجريات الامور فإن بعض أمراء الغزنويين أعلنوا طاعتهم للسلطان «طُغْرُل بك» سواء خوفا منه، أو بسبب النصر الذى أحرزه. لكن رغم تخلى بعض قادة السلطان مسعود عنه إلا أن حالته المعنوية لم تضعف، فشهر سيفه، وخاض بنفسه غمار المعركة. لكن الشجاعة والفتوة لم تكونا كافيتين لانقاذ الموقف وتشتت جيش غزنة

وبدأ في الفرار وترك ميدان المعركة. وإزاء هذا الموقف اضطر السلطان مسعود بدوره إلى ترك الميدان.

ورغم ما أريق في هذه الحرب من دماء كثيرة، فقد أحرز السلاجقه نصراً مدوياً في كل انحاء الدنيا. وفي مساء اليوم الذى انتهت فيه المعركة اعتلى «طُغْرُل بك» العرش الذهبى الذى جاءوا به إلى ميدان المعركة، وتلقى التهانى من أمراء الأوغوز.

وقد أنهت معركة دندنقان شهرة السلطان مسعود، وانطوت بالفعل صفحة سلطنة غزنة التى كانت أكبر دول الدنيا والتى فتحت الهند، وهكذا فإن الغزنويين الذى فقدوا فارس اجتهدوا أن يحتفظوا بالهند وافغانستان بصعوبة كبيرة، لكن انتهت سيطرتهم على خُراسان وآسيا الوسطى.

ووجد السلطان مسعود الذى انهزم في دندنقان أن بقاءه فيٍ افغانستان محفوف بالمخاطر فانسحب إلى الهند. وهناك جمع جيشاً جديداً وفكر في محاربة الأوغوز. وغادر غزنة بكل خزانتة وأقاربه لهذا الغرض. لكن ما أن وصل إلى وادى السند حتى تخلى عنه رفاقه بل انهم نهبوا خزينة السلطان، وأمسكوا به وأجلسوا ابنه على العرش. وقد قتل السلطان مسعود في عام ١٠٤٠م بعد دندانقان بسبعة شهور.

بعد موقعة «دندانقان» أعلن الأفغان سكان الجبال انفصالهم عن سلاطين الغزنويين في الهند وبدأوا في حشد قوتهم، وأعلنوا عصيانهم. ولم يكن جيش غزنة الذى أصابه الوهن بسبب الحرب في حال يسمح له بالدخول في قتال مع السلاجقة والافغان سكان الجبال. وفقدت سلطنة غزنة خُراسان وأفغانستان، وانطوت صفحتهم بعد سلطنتهم مدة ٢٢٤ عاما.

«**طُغْرُل بك**» (**١٠٤٠م - ١٠٦٣م**)

يقول المؤرخ الرومانى «جيبون» عن «طُغْرُل بك» في كتاب

المسمى «تاريخ انهيار الامبراطورية الرومانية»: تكافأ فى «طُغْرُل بك» سوء النية والبطولة. فبعد أن فتح آذربيجان وميديا، اقترب من الحدود البيزنطية. وأرسل ذلك البدوى رسولاً إلى الإمبراطور البيزنطى، وطلب منه أن يؤدى له الضرائب، ويعترف بسلطته»[١٣٧].

فبعد انتصار الأوغوز على السلطان مسعود فى دندانقان، طبقت شهرتهم الآفاق بوصفهم فاتحين، وأسسوا دولة السلاجقة الكبار التى استمر كيانها السياسى لمدة تناهز مائة عام. وأطلق «طُغْرُل بك» و «چِغْرى بك» على دولتهم الجديدة اسم آبائهم واسموها السلطنة السلجوقية، واعتباراً من هذا التاريخ صاروا يعرفون باسم السلاجقة.

كان «چِغْرى بك» أخو «طُغْرُل بك» الذى تبوأ سلطنة الأوغوز، حسبما ورد فى المصادر التاريخية محبا للعدل، صادق الوعد، وفيا وسياسيا ودبلوماسيا بارعا، والتف حوله كثير من الرجال المرتبطين به. أما «طُغْرُل بك» فكان عسكريا قديرا وفى نفس الوقت مخططا استراتيجيا بارعا، ورجل حرب، ويتفوق على أخيه فى هذا الجانب من شخصيته. وهذا هو ما دفع الأوغوز إلى وضعه على رأس دولة السلاجقة.

كانت نَيْسابور هى عاصمة دولة السلاجقة عند نشأتها، وبعد فترة صارت العاصمة طهران.

كان «طُغْرُل بك» فى الخامسة والأربعين من عمره عندما تولى السلطة، واستمر فيه لمدة ٢٣ سنة. وأثناء هذه الفترة جرت أحداث سنتناولها باختصار.

واتخذ «طُغْرُل بك» مجموعة من الاجراءات لجعل الدولة الناشئة محكمة البنيان وتوسيع رقعتها. بدأها أن عين والياً على كل إقليم فيها. ثم اتبعها بالسير إلى الغزنويين في الشرق وانتزع منهم عدة مدن. أما ناحية الغرب فقد أعلن طاعته للخلافة العباسية، ثم بدأ فى إعداد حملة ضد الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

أما «چِغْرى بك» فقد استولى على بلخ فى سنة ١٠٤١م وأخضع

شـمال افغانسـتان تمامـا لسـلطنة السـلاجقة. وقـام «قـره أرسـلان قـاورد» قريـب «آلـب أرسـلان» باعمـال مهمـة فـى جنـوب فـارس وتوسـعة حـدود الدولـة إلـى بلوجسـتان (فـى غـرب باكسـتان اليـوم). ووصـل السـلاجقة إلـى سـاحل عمـان والخليـج الفارسـى. وبعـد فتـرة وجيـزه امتـدت حدودهـم حتـى البحـر الأحمـر والبحـر الأسـود والبحـر الابيـض.

وفـى عـام ١٠٥٤م اسـتولى «ياقـوت بـك» أحـد أبنـاء «چِغْـرى بـك» علـى سسـيتان (بيـن كرمـان وخُراسـان) ومكرمان(بيـن كرمـان ولوجسـتان)، فـى هـذة الفتـرة حاصـر السـلطان مـودود بلـخ عـدة مـرات، لكنـه انهـزم امـام «آلـب أرسـلان»، وارتضـى الطرفـان جبـال الهنـد كـوش حـدودا بينهمـا.

وفـى عـام ١٠٥٥م دخـل السـلطان «طُغْـرُل بك» بغـداد عاصمة العباسـيين ورغـم أنهـا كانـت عاصمـة للخلافـة إلا أن الأسـرة البويهيـة الفارسـية كانـت صاحبـة الكلمـة فيهـا. وقـد تأسسـت الأسـرة البويهيـة فـى عـام ٩٣٢م علـى يد علـى بـن بويـة الشـيعى المذهـب. وأصبـح القسـم الغربـى مـن فـارس والعـراق تحـت سـيطرته. كمـا لقبـه الخليفـة القاهـر بلقـب (أميـر الأمـراء)، لكـن أحمـد أخـو علي بـن بويـه دخـل بغـداد فـى سـنة ٩٤٥م وقتـل الخليفـة المسـتكفى.

وقـد كانـت الأسـرة البويهيـه أسـرة فارسـية تحـت حكـم الخلافة العباسـية ولعبـت دوا مهمـا فـى انتشـار التشـيّع الـذى ظهـر فـى مصـر فـى زمـن الفاطمييـن وفـى فـارس والعـراق وغيـره مـن المناطـق.

أمـا بالنسـبة للخلافـة الفاطميـة (٩٠٩ - ١١٧١م) فهـى أيضـا دولـة قامـت فـى شـمال افريقيـا (فـى تونـس) وفـق المذهـب الشـيعى. أسسـها أحفـاد السـيدة فاطمـة ابنـة النبـى (صلـى اللـه عليـه وسـلم) وزوج سـيدنا علـى (رضـى اللـه عنـه). ومنهـا اشـتق اسـمها.

وقـد قويـت الخلافـة الفاطميـة فـى عـام ٩٦٥م وامتـدت إلـى سـوريا وفلسـطين. وانتقلـت عاصمتهـا مـن تونـس إلـى القاهـرة فـى سـنه ٩٧٣م. وقـد انتهـت هـذه الدولـة علـى يـد صـلاح الديـن الأيوبـى فـى عـام ١١٧١م.

لمـا علـم الخليفـة العباسـى القائـم بأمـر اللـه فـى عـام ١٠٥٥م بـأن

«طُغْـرُل بـك» فـى طريقـة إلـى بغـداد، وأدرك أنـه لايمكنـه أن يوقـف تقدمـه، سـمح بقـراءة إسـمه فـى الخطبـة، وهكـذا فقـد الخليفـة سـلطته الفعليـة، وصـار يمثـل مقامـا» دينيـا» فحسـب. وتـم اعـلان «طُغْـرُل بـك» سـلطانا، وبعـد تسـعة أيـام دخـل «طُغْـرُل بـك» بغـداد، وانتهـت سـلطة البويهييـن. وقبـض علـى «أرسـلان البساسـيرى» رأس المعارضيـن للإسـلام السـنى (وهـو أحـد قـادة القائـم بأمـر اللـه، وكذلـك أحـد رجـال الدولـة الفاطميـة، ولـه أصـول أوغوزيـة).

استقبل الخليفـة القائـم بأمـر اللـه السـلطان «طُغْـرُل بـك» فـى احتفـال مهيـب، وخلـع عليـه سـبع خلـع، وأهـداه سـبعا مـن العبيـد. ويأتـى رقـم سـبعة هنـا اشـارة إلـى أن الخلافـة تمثـل الأقاليـم السـبعة. وبعـد الاحتفـال علـق الخليفـة خنجريـن فـى حـزام «طُغْـرُل بـك». وهـذه إشـارة إلـى أن «طُغْـرُل بـك» أصبـح سـلطانا علـى الشـرق والغـرب. وهكـذا، أصبـح الخليفـة ممثـلا للمكانـة الدينيـة، و«طُغْـرُل بـك» ممثـلا للسـلطة السياسـية. وبعـد ان أخـذ «طُغْـرُل بـك» بغـداد أعلنهـا عاصمـة للدولـة السـلجوقية ثـم ولـى وجهـه ناحيـة الغـرب.

بعـد دخـول «طُغْـرُل بـك» بغـداد بأربعـة شـهور تـزوج مـن خديجـة ابنـة الخليفـة القائـم بأمـر اللـه. وفـى عـام ١٠٥٥م غـادر «طُغْـرُل بـك» بغـداد علـى رأس حملـة متجهـا ناحيـة الغـرب، فاسـتولى علـى الموصـل ودياربكـر وعـدد مـن المـدن الأخـرى.

بعـد مغـادرة «طُغْـرُل بـك» بغـداد اسـتطاع «أرسـلان السباسـيرى» أن يفـر مـن محبسـه، وجمـع حولـه الشـيعة ودخـل بغـداد. وقـد تصـدى لـه الخليفـة القائـم أمـر اللـه، لكنـه خسـر الحـرب. واغتـر «أرسـلان البساسـيرى» بهـذا الانتصـار، فرفـع اسـم الخليفـة والسـلطان «طُغْـرُل» مـن الخطبـة وقـرأ الخطبـة باسـم الخلافـة الفاطميـة. وأرسـل «السباسـيرى» رسـولا إلـى الخليفـة الفاطمـى فـى القاهـره لكـى يضفـى الشـرعية علـى حكمـه.

وسـرعان مـا تناهـى هـذا إلـى سـمع «طُغْـرُل بـك» مـا يجـرى فـى بغـداد، فعـاد أدراجـه فـوراً إلـى بغـداد لإخمـاد هـذا العصيـان فلمـا علـم «أرسـلان

السباسيرى» باقتراب «طُغْرُل بك» فر من بغداد وأطلق سراح الخلفية عقب دخوله بغداد. وأعرب أهل السنة فيها عن سعادتهم. وعمل على إعادة انفاذ القوانين والفرمانات التى صدرت قبل هذا العصيان، وقرر «طُغْرُل بك» لدى عودته إلى بغداد فى المرة الثانية الزواج من خاتون ابنة الخليفة. وكان الخليفة يخشى من هذا الأمر. ودار بخلدة أنه فى حال انجابه غلاما، لا يستبعد أن يطالب بالحق فى الخلافة، وبذلك تنتقل فعليا» من العباسيين إلى السلاجقة. فى حين أن هذا لم يكن يشغل تفكير «طُغْرُل بك»، لكن كان يريد فحسب أن يصير صهرا للخليفة حسب الاعراف الجارية. ولذا أجّل مسألة اتمام زواجه منها إلى تاريخ لاحق.

وكان عاما ١٠٥٨ - ١٠٥٩م عامين عسيرين على «طُغْرُل بك»، فقد اتجه «أرسلان البساسيرى» إلى العصيان فى بغداد، ودعَم ابراهيم الأخ غير الشقيق ل«طُغْرُل بك» من جهة الأم، وكانت أمه قد تزوجت «يوسف اينال» عم «طُغْرُل بك» بعد وفاة ابنه ميكال، وانجبت منه ابراهيم إينال هذا.

ورفع «ابراهيم إينال» راية العصيان ضد «طُغْرُل بك» فى عام ١٠٥٨م وذلك طمعا فى اعتلاء عرش السلاجقة العظام. وكان فى همدان جيش قوي تابعا له. وأيده فى هذا العصيان أحمد ومحمود ابنا أخيَه الاكبر «ارطاش يابغو» (كان يابغو قائدا عسكريا) فى الفتره من ١٠١٣ - ١٠٤٠م) ولأن «طُغْرُل بك» كان سياسيا رفيعا ورجل دولة قديرا وخبيرا وبصيرا، فقد أرسل على الفور الأمراء والأوامر إلى «آلب أرسلان» الحاكم العام لخراسان، و«قرا أرسلان قاورد» والي كرمان، و«ياقوت» والى شرق الاناضول والثلاثه هم أبناء «چِغْرى بك» ودعاهم إلى توحيد صفوفهم، وتشكيل جيش قوي.

وفى عام ١٠٥٩م دارت حرب دامية بين «طُغْرُل بك» و«ابراهيم إينال» فى هفتاد بالقرب من طهران، انتهت بوقوع «ابراهيم اينال» ومن معه فى الأسر. وتم قتل الأمراء السلاجقة امتثالا لأعراف الأوغوز القديمة.

بعد عامين من تمرد «ابراهيم اينال» أى فى سنة ١٠٦٠م توفى «چِغْرى بك» أخو «طُغْرُل بك» عن سبعين عاما ودُفن فى طهران. وكان له ثمانية أبناء وأربع بنات، فعين ابنه «آلب أرسلان» واليا عاما على خُراسان، و«قره أرسلان قاورد» واليا عاما على كرمان، و«ياقوت» واليا عاما عن آذربيجان، أما بناته فتزوجت الأولى من حاكم القراخانيين الغربيين، والثانية من «قتلمش» الوالى فى الاناضول (وهو ابن اسرائيل أرسلان يابغو) اما الرابعة منهم فقد تزوجت من حاكم البويهيين.

فى زمن «طُغْرُل بك» انتشر المذهب السنى فى العالم الاسلامى بشكل كبير. وبعد وفاة السلطان محمود الغزنوى، عمل «طُغْرُل بك» على نشر المذهب السنى فى كل أنحاء العالم الاسلامى، واتخذ اجراءات قوية فى هذا الشأن. ولهذا نال حب العالم الاسلامى واحترامه. كما اتسعت مساحة الدولة السلجوقية فى زمنه وضمت من الدول التى نعرفها اليوم كلا من فارس والعراق وآذربيجان وأرمنستان وافغانستان وتركمانستان وقره قلباقستان وسهول أوستيورت، وصحراء «قيزيل قوم». وحازت من الأرض مساحة تبلغ ٣ مليون و٦٠٠ الف كيلو مترا مربعا وحققت شهرة واسعة. وأصبحت من الناحية الاستراتيجية بمثابة الجسر بين الشرق الاوسط وآسيا الوسطى والهند فى الشرق، ودول البحر المتوسط فى الغرب.

وفى عام ١٠٦٣م توفى السلطان «طُغْرُل» عن عمر ٦٨ سنة. ودفن فى طهران وحسبما بينت المصادر التاريخية، تزوج «طُغْرُل بك» قبيل وفاته بأربعة أشهر من سيدة خاتون ابنة الخليفة القائم. والبعض الآخر يذكر انه غادر بغداد وذهب إلى طهران حيث كان من المقرر أن يقام حفل الزواج وتوفى هناك.

السلطان آلب أرسلان

بعد سبعة شهور من وفاة «طُغْرُل بك» اعتلى «آلب أرسلان» ابن «چِغْرى بك» سدة الحكم بوصفه سلطانا للسلاجقة. وخلال عام بعد

اعتلائـه العـرش أى فـى سـنة ١٠٦٤م اضطـر لخـوض مواجهـات لإخمـاد بعـض الاضطرابـات الداخليـة. إذ أن «قتلمـش» ابـن خالـه اسـرائيل أرسـلان بابغـو الـذى توفـى فـى قلعـة «كالنجـر» مـن الهندسـتان سـنة ١٠٢٥م رفـع رايـة العصيـا، وكان «قتلمـش» الوالـى العـام لشـرق الاناضـول وتحـت أمرتـه جيـش قوامـه سـبعون ألـف فـارس. وانضـم اليـه فـى هـذا العصيـان أمـراء السـلاجقة فـى آذربيجـان وأرمنسـتان والعـراق.

اتخـذ «قتلمـش» طريقـه بجيـش جـرار للاسـتيلاء علـى طهـران عاصمـة دولـة السـلاجقة الكبـار. وعندمـا علـم «آلـب أرسـلان» بالأمـر، خـرج مـن نَيْسـابور قاصـدا طهـران، وفـى هـذه الاثنـاء أرسـل رسـولا إلـى «قتلمـش» موضحـا لـه مـا سـيلحق بالدولـة مـن ضـرر كبيـر، وشـارحا لـه خطـأ مـا اقترفـه، ويدعـوه للتخلـى عـن العصيـان، فأصـم «قتلمـش» أذنيـه، وجـرت بينهمـا حـرب داميـة بالقـرب مـن طهـران قتـل فيهـا «قتلمـش» وأخمـد عصيانـه. ووقـع «سـليمان شـاه بـن قتلمـش» و«منصـور بـك» و«محمـد بـك» فـى الأسـر فضـلا عـن أخيـه «رسـول تكيـن» ووضـع «آلـب أرسـلان» نصـب عينـه نسـب هـؤلاء الأمـراء السـلاجقة فلـم يعاقبهـم، بـل أنعـم عـل كل واحـد منهـم بمنصـب رفيـع، والواقـع انهـم أسـدوا فيمـا بعـد خدمـات جليلـة إلـى «آلـب أرسـلان» أثنـاء فتـح الاناضـول.

جـاء آلـب أرسـلان إلـى الاناضـول عقـب إخمـاد عصيـان «قتلمـش». وفـى ذات الوقـت تمكـن أخـوه «ياقـوت بـك» مـن الاسـتيلاء علـى مـدن مهمـة فـى نواحـى «بحيـرة وان» وفـى أرمنسـتان، كمـا فتـح آلـب أرسـلان جورجسـتان. وهكـذا بسـط السـلاجقة سـيطرتهم علـى القوقـاز. ومـع دخـول السـلاجقة إلـى جنـوب القوقـاز، انقطعـت رابطـة البيزنطييـن بالبحـر الأسـود.

ورجـع آلـب أرسـلان مـن الاناضـول إلـى وسـط آسـيا فـى عـام ١٠٦٥م وزوج ابنتـه عائشـة خاتـون مـن شـمس الملـوك حاكـم القراخانييـن لتوطيـد علاقتـه بهـم، وزوج إبنـه مَلِكْشـاه لتـركان خاتـون أخـت شـمس الملـوك.

وكان فتـح آلـب أرسـلان خـوارزم فـى عـام ١٠٦٧م بمثابـة شـل يـد

القرخانيين الغريين. وفى زمن وجيز (١٠٦٤ - ١٠٧٠)م انتزع من الخلافة الفاطمية مكة والمدينة كما فتح سوريا. وبعد انتصار آلب أرسلان على البيزنطيين فى «ملازكرد» عام ١٠٧١م، استطاع أن يحقق الاتساع والقوة لدولة السلاجقة الكبار.

وفى ١٣ مارس ١٠٧١م تحرك الامبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجينس» من القسطنطينية بجيش كبير قوامه مائتا الف رجل متجها ناحية الشرق، وكانت أثقال الجيش البيزنطى تتكون من ثلاثه آلاف عربة وبضعة آلاف من الإبل والخيل. كما كان يضم آلات خاصة تعمل فى هدم الأسوار يقوم على استخدامها ١٢٠٠ شخص.

فلما اقترب الامبراطور «رومانوس ديوجينس» من مدينة سيواس عقد اجتماعا مع قواده. وفيه حاول اثنان من قادته ممن يعرفون قوة السلاجقة وهما «بريانوس» و«تراجنيوس» أن يثنيا الامبراطور عن هذه الحرب، لكن بلا جدوى.

وعلم آلب أرسلان بخبر مجىء الامبراطور البيزنطى بهذه القوة الكبيرة. فخرج لملاقاته بجيش مكون من خمسين ألف مقاتل وكان آلب رسلان يقدر صعوبة هذه الحرب وخطورتها، فأرسل سفارة إلى «ديوجينس» يرأسها «صاوتكين». لعرض الصلح لكن «ديوجينس» رفض هذا العرض، وقال لصاوتكين: إذهب، وقل للسلطان: إن المفاوضات بيننا ستكون العام القادم فى طهران. فجيشنا سيبقى فى اصفهان، وستنطلق جيادنا لترعى فى همدان، فرد «صاوتكين» على هذه الإهانة التى وجهها ديوجينس والذى كان يظن انه لن يقهر فى هذه الحرب أبدا، بقوله نحن واثقون ان جيادكم ستعسكر فى همدان، لكننا لانعرف اين ستعسكر انت، والتقى الجيشان فى سهل «ملازكرد» فى ٢٦ أغسطس ١٠٧١م، وكان يفصل بين معسكريهما سبع كيلو مترات ويمكن لكل منها أن يرى الآخر.

وفى يوم الجمعة رفع عدة مئات من الرهبان النصارى صلبانهم

عاليا وأخذوا يقرأون الانجيل بصوت عال، ويسألون عيسى عليه السلام أن يجعل النصر من نصيب الجيش البيزنطى، وكان الجيش البيزنطى كان يضم ممثلين للبجناك (وهم من الأوغوز) وسائر الشعوب المسيحية. وقبل بدء الحرب امتطى السلطان «آلب أرسلان» جواده بمنتهى الهدوء والوقار وبعد أن تفحص صفوف جيشه أعطى الأمر ببدء الهجوم. والتحم الجيشان كالعاصفة، وعند المساء كان الجيش السلجوقى قد حقق نصرا حاسما على الجيش البيزنطى. وعندما وقع الامبراطور البيزنطى جريحا وأسيرا فى يد «آلب أرسلان» تراجع جيشه، وألقى سلاحه واستسلم. ولأن المعركة وقعت فى وادى «ملازكرد» الواقع على مساحة ٤٥ كم جنوب «بحيرة وان» التى ترتفع عن سطح البحر ١٥٠٠ متر، فقد ذكرت هذه الواقعة فى التاريخ باسم «واقعة ملازكرد».

وقد طبق آلب أرسلان تكتيكا جيدا لكى يخدع عدوه وينزل به ضربة قوية. فقد تراجع الجيش السلجوقى إلى الوراء قبيل بدء المعركه بساعتين، فلما إبتعد كثيرا عن مركز الجيش البيزنطى الذى كان يتعقبه، أصبح محاصرا بقوات «آلب أرسلان» فانهارت معنوياته. وفى ذات الوقت ساق «آلب أرسلان» فرسانه نحو رومانوس ديوجنيس، وبهذا التكتيك تمكن من هزيمة الجيش البيزنطى الذى كان ثلاثة أضعاف جيشه فى «ملازكرد». ولهذا السبب كانت «ملازكرد» ذات أهمية تاريخية إذ أن فئة قليلة يقودها رجل خبير وذكى، يمكن أن تهزم فئة تفوقها بأضعاف مضاعفة يقودها رجل يفتقر إلى الخبرة، وهذا الانتصار الذى حققه «آلب أرسلان» ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطيين). خاصة رومانوس ديوجنيس، شكل صدمة للشرق والغرب على السواء، خاصة العالم المسيحى الذى يشعر بالرجفة دوما من هذا الحدث.

وقد عامل السلطان «آلب أرسلان» أسيره «رومانوس ديوجنيس» بما يليق بلقبه ومكانته، مما آثار دهشة «رومانوس». فقد أعد له آلب أرسلان وليمة فخمة وشرح له أثناء الوليمة الأخطاء التى ارتكبها فى الحرب، ثم أوضح له تكتيك الحرب الذى توارثه الأوغوز عن اجدادهم

والـذى يطبقـه الأوغـوز. ثـم وقـع معـه معاهـدة بموجبهـا أصبـح الامبراطـور البيزنطـى تابعـا للسـلطان السـلجوقى ويـؤدى لـه جزيـة سـنوية. ثـم اطلـق «آلـب أرسـلان» سـراح «رومانـوس ديوجنيـس» فيمـا بعـد، وأرسـله إلـى القسـطنطينية. فـى حيـن أن «ديوجنيـس» لـم يكـن يتصـور أن يلقـى مثـل هـذه المعاملـة مـن عـدوه الـذى أسـره، وظـن أن المـوت فـى انتظـاره بعـد وقوعـه فـى الأسـر.

بعـد انتصـار «ملازكـرد» توجـه آلـب أرسـلان مـرة أخـرى إلـى وسـط آسـيا بجيـش قوامـه مائتـا الـف رجـل فتجـاوز آمودريـا أولا، لكنـه واجـه عنـد سـاحل النهـر مقاومـة مـن «يوسـف بـك» أميـر أمـراء القراخانييـن الغربييـن. وقـد انهـزم «يوسـف بـك» ووقـع فـى الأسـر، وأثنـاء نقـاش بينهمـا اسـتل «يوسـف بـك» خنجـرا كان يخبئـه فـى عبـه، وطعـن بـه «آلـب أرسـلان». فانقـض عليـه الامـراء السـلاجقة وقتلـوه فـى الحـال، لكـن «آلـب أرسـلان» فاضـت روحـه بعـد بضـع سـاعات. وقـد كتبـوا هـذه الأسـطر علـى شـاهد قبـر «آلـب أرسـلان» المدفـون فـى مـرو: «رأيتـم آلـب رسـلان يسـير رافعـا رأسـه والزهـو يملـؤه، ورأيتـه بعـد مجيئـه إلـى مـرو وقـد صـارت رأسـه تحـت الثـرى».[١٣٨]

السلطان مَلِكْشاه

كان مقتـل السـلطان «آلـب أرسـلان» عامـلاً فـى أن يلتقـط القراخانيـون الغربيـون أنفاسـهم لفتـرة وإن كانـت قصيـرة، فاسـتولى شـمس الملـوك ناصـر بـن ابراهيـم، خـان القراخانييـن الغربييـن علـى ترمـذ وبلـخ فـى ١٦ ديسـمبر ١٠٧٢م، لكـن سـرعان مـا اسـتردها السـلاجقة.

وفـى عـام ١٠٧٢م اعتلـى السـلطان «ملـك شـاه» بـن آلـب أرسـلان عـرش السـلاجقة وكان فـى السـابعة عشـرة مـن عمـره. وفـى هـذه الفتـرة رفـع «قـره أرسـلان قـاورد بـك» عـم «مَلِكْشـاه» لـواء العصيـان طمعـا فـى العـرش. وقـد دعمـه فـى هـذا اخـوه «ملـك عثمـان». لكـن انتصـر «مَلِكْشـاه» علـى عمـه فـى جغـل عـام ١٠٧٣م. ومـات «قـره أرسـلان قـاورد بـك» ووقـع أخـوه ملـك عثمـان

فـى الأسـر. وبعـد إخمـاد تمـرد «قـاورد» الوالـى العـام لكرمـان تحـرك «ملـك شـاه» صـوب جيرانـه البيزنطييـن، والخلافـه الفاطميـة فـى مصـر. واسـتولى علـى سـوريا وفلسـطين عـام ١٠٧٦م. وبعـد الاسـتيلاء علـى بريـة الشـام رفـع اسـم الخليفـة الفاطمـى مـن الخطبـة وقرأهـا باسـم الخليفـة العباسـى، واسـم السـلطان «مَلِكْشـاه». أمـا فـى عـام ١٠٧٨م فقـد اسـتولى السـلاجقة علـى كل القوقـاز التـى كانـت تحـت سـيطرة البيزنطييـن.

وفـى ١٠٧٨م جـاء «مَلِكْشـاه» إلـى بغـداد، وهنـاك زوج ابنتـه «مَـاهْ مَلِـك خاتـون» مـن الخليفـة المقتـدى. وفـى عـام ١٠٩٠م دخـل الجيـش السـلجوقى الحجـاز، واسـتولى علـى مكـه المكرمـة والمدينـة المنـورة. وبعـد عاميـن اسـتولى علـى اليمـن وبذلـك اصبحـت للسـلاجقة السـيادة علـى شـبه الجزيـرة العربيـة كلهـا.

وخـلال عشـرين عامـا قضاهـا «ملـك شـاه» فـى الحكـم، خـرج علـى رأس عـدة حمـلات ضـد البيزنطييـن والخلافـة الفاطميـة. أمـا غيرهـا مـن الحمـلات فـكان يخـرج علـى رأسـها أمـراؤه. وان خـرج بنفسـه علـى كل الحمـلات الموجهـه إلـى القراخانييـن.

مثـال ذلـك أنـه فـى عـام ١٠٧٤م اجتـاز بجيـش كبيـر آمودريـا ودخـل مـاوراء النهـر وتوجـه مباشـرة نحـو سَـمَرقَنْد عاصمـة القراخانييـن الغربييـن، عاقـدا العـزم علـى معاقبـة «شـمس الملـوك». لكـن «شـمس الملـوك» تـرك عاصمتـه وهـرب. وفـى النهايـه أمكنـه عقـد اتفـاق بيـن الطرفيـن بمسـاعى الوزيـر القديـر «نظـام الملـك». ومـن المحتمـل ان فـى هـذه الاثنـاء تـم زواج «تـركان خاتـون» إبنـة أخـو «ابراهيـم بوغراتكيـن» خـان القراخانييـن الغربييـن، مـن السـلطان مَلكْشـاه. وعيـن «مَلِكْشـاه» أحـد امرائـه المعتبريـن ويدعـى «صاوتكيـن» واليـاً علـى ترمـذ، وعـاد راجعـاً مـن مـاوراء النهـر.

فلمـا توفـى «شـمس الملوك» سـنه ١٠٨٠م تولـى مكانه أخـوه «خضرخان». وقـد قـام «خضـر خـان» فـى فتـرة حكمـه للقراخانييـن (١٠٨٠-١٠٨١م) برعايـه الآداب، خاصـة فـن الشـعر الـذى أولاه أهتمامـاً خاصـاً.

لكـن فـى فتـره أخيـه أحمـد خـان الأول (١٠٨١ - ١٠٩٥م) حـدث الصدام بيـن القراخانييـن الغربييـن والسـلاجقة بسـبب مسـألة بلـخ وترمـذ. ودخـل السـلطان «مَلِكْشـاه» مـا وراء النهـر فـى عـام ١٠٨٩م واسـتولى علـى بُخـارى وسَـمَرقَنْد، وجعـل أحـد أمـراء السـلاجقه واليـاً عليهـا.

وفضـلا عـن هـذا فقـد أسـر أثنـاء فتـح سَـمَرقَنْد أحمـد الأول خـان القراخانييـن الغربييـن، وأرسـله إلـى اصفهـان عاصمـة السـلاجقة.

ثـم غـادر السـلطان «مَلِكْشـاه» مـاوراء النهـر فـى اتجـاه الغـرب نحو كاشْـغَر قاصـداً اسـتئناف حملاتـه. فلمـا اقتـرب مـن «أوزكنـد» جـاء السـلطان «هارون بوغـرا الثانـى» خـان القراخانييـن الشـرقيين إلـى «أوزكنـد» وصـار علـى مقربة منـه، وأعلـن اعترافـه بتبعيتـه لمَلِكْشـاه كمـا ارتضـى أن يسـك العملـة ويقـرأ الخطبـه باسـمه. واطمـأن «مَلِكْشَـاه» لمـا أبـداه «السـلطان هـارون بوغـرا» نحـوه مـن احتـرام وطاعـة، فانسـحب عائـدا مـن «أوزكنـد» فـى ١٠٨٩م. لكـن خانـات القراخانييـن الشـرقيين والغربييـن سـيعلنون اسـتقلالهم ثانيـة عندمـا يتوفـى السـلطان «مَلِكْشـاه» فـى ١٠٩٢م.

وفـى عـام ١٠٩٠م أُرسـل أحمـد خـان الأول مـن اصفهـان إلـى سَـمَرقَنْد مـرة ثانيـة، لأن «تـركان خاتـون» التـى جـاءت عروسـاً مـن القـرا خانييـن الغربييـن، كانـت ذات تأثيـر كبيـر علـى «مَلِكْشـاه» فاسـتطاعت أن تقنعـه أن يعيـد تنصيـب أحمـد خـان حاكمـاً علـى القـرا خانييـن الغربييـن مـره أخـرى.

والسـلطان محمـود الـذى أعقـب «مَلِكْشـاه» علـى العـرش هـو ابـن «تركان خاتـون» هـذه، ومـا حـدث بعـد ذلـك انـه سـيقتل أحمـد خـان الأول الـذى رجـع إلـى سَـمَرقَنْد عـام ١٠٩٠م، بعـد خمـس سـنوات مـن عودتـه. وحسـب مـا ورد فـى الكتابـات التاريخيـة فـإن بعـض مشـايخ الطـرق الصوفيـه، وبعـض الأمـراء ثـاروا علـى أحمـد خـان وأنزلـوا بـه العقـاب جـراء خروجـه على الشـرع.

فـى هـذه الأثنـاء توفـى السـلطان «مَلِكْشـاه» فـى عـام ١٠٩٢م عـن سـبعة وثلاثيـن عامـا ودفـن فـى أصفهـان.

وقـد بلغـت الدولـة السـلجوقية أوج قوتهـا فـى زمـن السـلطان «مَلِكْشـاه»

السلجوقي وضمت فارس وافغانستان وشمال الهندستان وما وراء النهر وداغستان والاناضول والعراق وسوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية. وبلغت مساحة الاراضى التى تحت سيادتها ١٥ مليون كيلو متر مربع ووصلت حدودها إلى بحر «ايجه» و«بحر مرمرة» والبحر الابيض والبحر الاحمر وخليج البصرة.

وعقب تولى «السلطان مَلِكْشاه» الحكم، أمر بصرف رواتب الجند وكانت تبلغ ٧٠٠الف دينار ذهبا سنوياً. لكن هذا الرقم كان يغطى رواتب الجند الموظفين فقط. لأن فى زمن «مَلِكْشاه» كان عدد الجند فى الجيش السلجوقى مليون جندى.

وقد وفر السلطان «مَلِكْشاه» امكانات غير عادية لتطوير العلم، وفى عصره نشأ كثير من الفلاسفة والمؤرخين والمفكرين. وبلغت موازنة الدولة فى زمن مَلِكْشاه ٤٣ مليون دينار، منها ٣٠٠ ألف دينار ذهب للإنفاق على المعدمين وطلاب العلم. وفى عصره، افتتحت المدارس النظامية التى تعادل الجامعات بالمفهوم المعاصر فى كل من بغداد ومرو وبلخ وآمول وأصفهان والبصرة ونَيْسابور وهرات والموصل وغيرها من المدن. وقد اشتق اسم هذا المدارس من اسم الوزير المشهور «نظام الملك». وكل مدرسة كانت تضم مكتبة كبيرة، ودار ضيافة ومسجد.

وقد لعب «نظام الملك» دورا كبيرا فى تطوير العلم والحضارة فى زمن «ملك شاه» وله أثر باللغة الفارسيه اسمه «سياستنامة».

وعصر «آلب أرسلان» و«مَلِكْشاه» الذى تولى فيه «نظام الملك» منصب الصدارة العظمى، هى الفترة التى بلغت فيها الدولة السلجوقية أوج قوتها وثروتها وحضارتها. وكان «نظام الملك» أكبر رجل دولة فى الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى. والأسس التى وضعها فى كتابه(سياستنامة) هى التى سارت عليها الدول التركية والاسلامية.

وبعد موت «ملك شاه» دخلت الدولة السلجوقية فترة النزاع على العرش من عام(١٠٩٢ - ١١١٨م).

وكان للسلطان «مَلِكْشاه» ثمانية ابناء :هم أحمد و بركياروق ومحمد طبار، وسَنْجَر، ومحمود، وجبار و «طُغْرُل»، حُمَر. وقد نشب بين محمود وبركياروق ومحمد طبار وسَنْجَر صراع عنيف حول العرش.

وبعد موت «مَلِكْشاه» تم إجلاس محمود ابن الاميرة القراخانية الغربية «تركان خاتون» على العرش، لكنه كان مازال فى الخامسة والنصف من عمره، لذا قام «بركياروق» بعد شهرين من جلوس أخيه السلطان الطفل بخلعه من العرش، لكنه خلع بدوره من العرش بيد «مَلِكْشاه الثانى». الذى خلعه ايضا «محمد طبار» وهذا ايضا خلعه «سَِنْجَر». وبالقطع ان هذا التغير المستمر فى تولى سدة الحكم لم يكن بالطرق السلمية، إنما كان يتم بمعارك دامية، لكن أمكن تحقيق الأمان للدولة السلجوقية بتولى السلطان «سَنْجَر».

الفصل الرابع عشر: الكيدانيون والقراخانيون

نشأة الكيدانيين

بعد أن انقسم القراخانيون إلى قسمين، شنوا الحرب ضد الكيدانيين من جانب وضد خوارزم من جانب آخر.

كان «الكيدانيون» يعيشون في سالف الزمان في إقليم في الصين يُسمى في الوقت الحالي بإقليم «لياونينج». وهم فرع من «التونجوسيين» وينحدرون من «السيانبيين». وثمة احتمال كبير أن يكون هناك صلة دم بينهم وبين المغول. في عهد الهون (من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد) ارتبطوا بالهون والسيانبيين. أما في عهد «الأوار» و«الكوكتورك» فقد عاشوا تحت حكم هؤلاء تباعاً. ولكن عندما تولى «الملك كاپاجان» الحكم في عهد سلطنة الأتراك الشرقيين، أعلن «الكيدانيون» العصيان وتم إخماد هذا العصيان على يد فصيل من الجيش التركي كان يقوده «تونيوقوق».

ومنذ أن قويت سلطنة اورخون الأويغورية إلى أن هاجر الأيغور ناحية الغرب في سنة ٨٤٠م، ارتبط بهم الكيدانيون إلى أن نقلوا مراكزهم السياسية من قارا بالغاسون إلى سفوح جبال «طانري».

وفي عام ٩١٦م أسس «الكيدانيون» دولة أطلق عليها الصينيون اسم «لياو». وفي أقوى عصور الدولة «الكيدانية» (٩١٦ - ١١٢٥م) اتسعت حدودها حتى بلغت الأطراف الشرقية لجبال آلطاي في الغرب، واقتربت من بايقال في الشمال، والمحيط الهادي في الشرق.

وقام «الكيدانيون» الذين احتلوا أرض المغول في عام ٩٢٠م باضطهاد القيرغيز الذين عاشوا في تلك الأرض في الفترة من (٨٤٠ - ٩٢٠م) وطردوهم. وكان القيرغيز الذين رفعوا راية العصيان ضد سلطنة أورخون الأويغورية واحتلوا «قرابالغاسون»، قد هاجروا إلى سواحل «ينيساي» في أرض المغول في سالف الزمان، أي في عام ٨٤٠م.

وفي عام ٩٧٠م اخترق «الكيدانيون» حدود الصين بجيش قوامه ٤٠ ألف جندي وفرضوا الجزية على الإمبراطور «سونغ». وفي عام ٩٩٥م أغاروا على العاصمة «كاي فينج» التابعة لأسرة «سونغ» الحاكمة وحاصروها. واضطر «سونغ» إلى عقد معاهدة مع الكيدانيين. وبموجبها تقدم إمبراطورية «سونغ» الكيدانيين سنوياً ٢٠٠ ألف لفة قماش و ١٠٠ ألف رأس فضة (٣١٠٠ كيلو جرام).

وصارت الحدود الغربية لدولة الكيدانيين بطولها تجاور القسم الشرقي للقراخانيين. ولكن بحلول (القرن الحادي عشر)ب دأ الضعف يدب في الدولة الكيدانية. وفي عام ١١٢٠م رفع «الجورجتيون» راية العصيان، وبعد أربعة أعوام من هذا التاريخ انمحت الدولة الكيدانية من التاريخ. وفر قسم من الكيدانيين الذين انهزموا أمام «الجورجتين»، وعلى رأسهم الأمير «ياه - لو - تا-شيه» الى الشمال الغربي وجاءوا إلى سواحل «ينيساي». ولكنهم تعرضوا هناك لمضايقات من جانب «القيرغيز» فاتجهوا ناحية الجنوب الغربي وطلبوا حماية القراخانيين.

الفصل الرابع عشر: القراخانيون الشرقيون والكيدانيون

أصل الكيدانيين

كانت الدولة القراخانية الشرقية عبارة عن القسم الشرقي لفَرْغانة وخوتن وياركند ووادي إيلي ويدي صو. وكانت حدودها الشمالية الشرقية تقع جنوب «كوچار» ويدخل أيضا ضمن حدودها القسم الغربي لفَرْغانة.

في عام ١٠٤٠م انقسم القراخانيون إلى قسمين: القراخانيون الشرقيون والقراخانيون الغربيون، وتولى حكم القراخانيين الشرقيين سليمان أرسلان خان الذي لم يستطع توحيد دولته المنقسمة، وساءت علاقاته بشقيقه محمد بوغراخان. وسعى محمد بوغراخان في عام ١٠٥٦م (كان في ذلك الوقت والياً على طالاس واسفيجاب) إلى خلع شقيقه الأكبر سليمان أرسلان خان من العرش. وتم أسر سليمان أرسلان خان بعد هزيمته في الحرب وقتله. وأحكم محمد بوغراخان قبضته على القراخانيين الشرقيين وعلى العرش. وبعد ١٥ شهراً من جلوس محمد بوغراخان على عرش القراخانيين الغربيين، قرر التنازل عن الحكم لابنه الكبير حسين (والد محمود الكاشْغَرى).

ولكن زوجة محمد بوغراخان الصغيرة كانت تريد أن يتولى ابنها إبراهيم العرش. ولتحقيق هذا الغرض دست السم لمحمد بوغراخان وحسين وبعض أمرائه. ولكن إبراهيم الذي اعتلى عرش القراخانيين الشرقيين في عام ١٠٥٨م قتل على يد «إينال تكين» والي «بارسغان» الذي أعلن العصيان ضده. وبعد هذه الواقعة تولى العرش «طُغْرُل قراخان يوسف» (محمود خان) بن السلطان يوسف قدير (شقيق محمد

بوغراخـــان).

وأثنـاء هـذه الوقائـع الداميـة فـر محمـود الكاشْـغَري مـن كاشْـغَر. وكان فـراره خشـية مـن المـوت مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى مـن أجـل جمـع المـادة اللازمـة لكتابـه «ديـوان لغـات التـرك». فذهـب إلـى بغـداد وأتـم كتابـه فـي عـام ١٠٧٤م وقدمـه إلـى الخليفـة المعتمـد. واسـتغل إبراهيـم بوغـرا تكيـن حاكـم السـلطنة القراخانيـة الغربيـة الاضطرابـات الداخليـة فـي القراخانيـة الشـرقية واسـتولى علـى فَرْغانـة وتاشـكند.

وبعـد مقتـل إبراهيـم حاكـم القراخانيـة الغربيـة ألـفّ يوسـف خـاص حاجـب كتابـه «قوتادغـو بيليـك» فـي عهـد «طُغْـرُل قراخـان» ملـك القراخانية الشـرقية، وقدمـه فـي عـام ١٠٦٩م إلـى أبـى الحسـن تابغـاج بوغراخـان الـذي كان بمثابـة السـاعد الأيمـن لــ» طُغْـرُل» قراخـان. وفيمـا يلـي تفصيـل هـذا الموضـوع.

بعـد مقتـل إبراهيـم حاكـم قراخـان الغربيـة فـي عـام ١٠٦٨م اسـتردت قراخـان الشـرقية فَرْغانـة وتاشـكند اللتيـن اسـتولى عليهمـا عـام ١٠٥٨م. وبموجـب المعاهـدة المبرمـة تُركـت الأراضـي الممتـدة مـن سـرداريا حتـى خوجنـد إلـى «شـمس الملـوك»، ودخلـت فَرْغانـة كلهـا فـي حـوزة قراخـان الشـرقية. وعندمـا توفـى «طُغْـرُل قراخـان» فـي عـام ١٠٧٤م، تولـى بعـده «طُغْـرُل تكيـن» ولكـن بعـد شـهرين خلعـه «أبـو الحسـن تابغـاج بوغراخـان» عـن العـرش وواعتـلاه مكانـه.

ظـل «أبـو الحسـن تابغـاج بوغراخـان» بمثابـة السـاعد الأيمـن ل«طُغْـرُل «قراخـانٍ علـى مـدى ١٥ عامـاً، وظـل يحكـم قراخـان الشـرقية علـى مـدى ٢٧ عامـاً. وخـلال فتـرة حكمـه لـم يعـد يُسـمى باسـمه القديـم، بـل صـار يُلقـب بالسـلطان هـارون بوغـرا. وصـار أيضـا يلقـب بــ «حـاكـم الشـرق وحامـي الديـن والعدالـة».

فـي عهـد السـلطان هـارون بوغـرا أحـرزت قراخـان الشـرقية تقدمـاً كبيـراً فـي مجالـي العلـم والثقافـة. وكُتـب فـي عهـده كتـاب «قوتادغـو بيليـك» وألـف

عبد الجبار كتابه المسمى «تاريخ كاشْغَر»، ولكن للأسف لم يُستكمل حتى يومنا هذا. وقد أدركنا مدى أهمية تاريخ كاشْغَر من الأسانيد المتضمنة في الأثر المسمى (ملحقات قاموس صراح اللغة)[١٣٩] الذي كتبه المؤرخ الأويغوري جمال القارشي في القرن الرابع عشر.

وفي عام ١١٠٢م انطلق السلطان هارون بوغرا الثاني بجيشه نحو ترمذ، ولكن نظراً لسيطرة السلاجقة عليها تم طرد القراخانيين بعد فترة قصيرة على يد السلطان «سَنْجَر». ومات السلطان هارون بوغرا في عام ١١٠٣م بعد أن ظل في الحكم ٢٧ عاماً. وجاء بعده أحمد أرسلان خان، وفي عام ١١٠٥م أرسل محمود بن عبد الجليل علي الكاشْغَري إلى بغداد حيث عُين سفيراً لدى الخليفة العباسي المستظهر بالله، ومنح الخليفة المستظهر بالله أحمد أرسلان خان لقب «نور العدل ونور الدولة».

وبعد أحمد أرسلان خان، دخلت قراخان الشرقية تحت سيطرة الكيدانيين، واستقر الكيدانيون الذين فروا من سواحل «ينيساي» عام ١١٢٥م ولجأوا إلى قراخان، في إيميل (التي تُسمى الآن بـ دور بيلجن) بإذن من إيليك خان الشمالية. وكانوا في ذلك الوقت عبارة عن ٤٠ ألف خيمة أي ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص.

في تلك الأيام دب الضعف في القراخانيين، وارتبط القراخانيون الغربيون بالسلطان سَنْجَر السلجوقي. وعاش القراخانيون الشرقيون في اضطراب بسبب عصيان أمراء إيليكخان الشمالية المستمر.

عندما اندلع عصيان قبائل قارلوق وغيرها من القبائل في عام ١١٣٠م استدعى حاكم إيليك خان الشمالية (لايُعرف اسمه) «ياه -لو - تا - شيه» لإخماد هذا العصيان، ووافق هذا القائد على الاضطلاع بهذه المهمة، وبعد أن أخمد العصيان أُذن له بالإقامة في جوار «بالاساغون» في تلك الأثناء كان إبراهيم بن أحمد خان، الذي كان يفتقد القدرة والبصيرة، يتزعم القراخانيين الشرقيين.

استغل الأمير الكيداني «ياه - لو - تا - شيه» الذي ضعف القراخانيين الشرقيين، وجمع أفراد قبيلته إلى جوار «بالاساغون» ثم شن هجوما على المدينة، واستولى عليها في عام ١١٣٤م. وتم أسر الحاكم الإيلخاني الشمالي (ربما كان اسمه في ذلك الوقت أبو الشجاع) وأسرته. وبعد فترة قصيرة احتل أراضي «إيليك خان» الشمالية. في أثناء تلك الأحداث كان إبراهيم ملك القراخانية الشرقية مشغولاً باللهو في كاشْغَر. لكن في عام ١١٣٤م هاجم «ياه - لو - تا - شيه» كاشْغَر، وخلع إبراهيم عن عرشه. واعتباراً من ذلك التاريخ ارتبط القراخانيون الشرقيون بالكيدانيين. وبرغم عدم تدخل «ياه - لو تا - شيه» في شئونهم الداخلية لم يستطيعوا الدفاع عن كيانهم.

وبعد إبراهيم اعتلى محمد خان الثاني عرش القراخانية الشرقية وجاء بعده يوسف خان ثم محمد خان الثالث. وفي النهاية قُتل الأخير على يد الأمراء الذين اعتدوا على القصر في عام ١٢١٢م، وفي نفس العام احتل «كوچلوك سلطان نايمان» كاشْغَر، ومنذ ذلك اليوم طويت صفحة القراخانية الشرقية من التاريخ.

القراخانيون الغربيون والكيدانيون

أوضحنا أن القراخانيين انقسموا في عام ١٠٤٠م إلى قسمين، القراخانيون الشرقيون والقراخانيون الغربيون.

وكانت مناطق القراخانيون الغربيون في البداية عبارة عن الأراضي الواقعة في ما وراء النهر فقط. وبعد ذلك سيطروا على قسم من وادي فَرْغانة. ولم تكن هناك حدود واضحة بين القراخانية الغربية والقراخانية الشرقية، ويتم تغيير هذه الحدود لأسباب مختلفة.

وقد حمل الملك القراخاني الغربي «إبراهيم بوغراتكين» لقب «تابغاچ قراخان» (وهي تعني في اللغة الأويغورية القديمة «المطيع») لكن عاصمة قراخان لم تكن تابعة لكاشْغَر. في تلك الأثناء لم ينجح سليمان أرسلان خان في توحيد دولته التي انقسمت إلى قسمين في الفترة

(١٠٤٠ - ١٠٥٦م)، وبعد ذلك اندلع التمرد في القراخانية الشرقية وتحول إلى حرب داخلية.

واستغل إبراهيم تابغاچ قراخان هذا الوضع وسعى إلى تولي حكمها كما أسلفنا القول.

فقد استولى القراخانيون الشرقيون على فَرْغانة وتاشكند في عام ١٠٥٨م بعد أن دب الضعف في أوصالهما. وسبقت الإشارة إلى الأحداث التي جرت بين القراخانيين والسلاجقة في فترة حكم قراخان «شمس الملوك» وأحمد خان.

في عهد محمود أرسلان خان الثاني كان القراخانيون الغربيون يحيون حياة مستقرة وذلك بسبب قيام أرسلان خان بإخماد أعمال التمرد التي شنها بعض الأمراء فيما بين أعوام ١١٠٣ - ١١١٠م، وساعده في ذلك السلطان «سَنْجَر»، ومنذ ذلك الحين وفي غضون عشرين عاماً عاش شعب ما وراء النهر حياة هادئة مستقرة، وكان محمد أرسلان شخصية مؤثرة في التاريخ بما شيده من آثار جميلة. ومن هذه الآثار، المساجد الكبيرة التي شيدها في بُخارى وسَمَرقَنْد، كما قام بتعمير «بايكنت» وأعطى لها مظهراً جميلاً. وأمر محمد أرسلان خان في عام ١١٢٧م بتشييد «منارة كلان[١٤٠]*أي المنارة الكبيرة القائمة في بُخارى حتى يومنا هذا.

بيد أن في عام ١١٣٠م ساءت العلاقة فجأة بين محمد أرسلان خان والسلطان «سَنْجَر». تقول بعض الروايات أن محمد أرسلان خان كان يسعى لقتل السلطان سَنْجَر، ولذلك قام السلطان «سَنْجَر» بالسيطرة على سَمَرقَنْد وطرد أرسلان خان إلى بلخ، ولكن بسبب إصابة أرسلان خان بالشلل سمح السلطان «سَنْجَر» لزوجته «السيدة توركان خاتون» وهي ابنة أرسلان خان أن تذهب مع أبيها لتكون بجانبه. وفي النهاية مات محمد أرسلان خان في عام ١١٣٢م ودُفن في مسجد القصر الموجود في مرو.

ونفهم من المعلومات المتداولة أن القراخانيين الغربيين كانوا مرتبطين بالسلاجقة في عهد السلطان «سَنْجَر». وبعد موت محمد أرسلان خان بدأت أحوال القراخانيين الغربيين تزداد سوءاً.

وفي عام ١٠٣٤م اتخذ الأمير الكيداني «ياه - لو تا - شيه» من بالاساغون عاصمة له، واتخذ لقب «جورخان». هذه الكلمة هي شكل محرف للكلمة الصينية كاوخان وتعني (الحاكم العظيم).

وبعد أن قام «جورخان» بفتح كاشْغَر عاصمة القراخانيين في عام ١١٣٦م بدأ الاستعداد للاستيلاء على باقي آسيا الوسطى. وهكذا نظم الكيدانيون هجماتهم على تاشكند وفَرْغانة وزرافشان وقاشقاديا.

والحرب التي وقعت بين «جورخان» ومحمود الثاني سلطان القراخانيين الغربيين بالقرب من «خوجند» في عام ١١٣٨م،انتهت بهزيمة محمود الثاني هزيمة ثقيلة. ولكن تم عقد معاهدة بين الطرفين وفرض الكيدانيون الجزية على القراخانيين ثم انسحبوا.

وبعد هزيمة «خوجند» سيطر «خوارزمشاه آتسز» على بُخارى في عام ١١٣٩م وتوغل داخل حدود ماوراء النهر. وعقب هذه الواقعة رفع القارلوق الذين ارتبطوا بالقراخانيين الغربيين راية العصيان. ودعمهم في هذا الإتجاه «جورخان» لكن هذا الموقف أثار استياء القراخانيين الغربيين.

وفي عام ١١٤١م نقض «جورخان» معاهدة الصلح المعقودة من قبل، وهجم على سَمَرقَنْد عاصمة القراخانيين الغربيين. واتحد جيش محمود خان الثاني وجيش السلطان «سَنْجَر» في صحراء «قطوان» بالقرب من سَمَرقَنْد، ونشب صدام شديد بين القراخانيين الغربيين والكيدانيين في بداية شهر سبتمبر من نفس العام. وبسبب العصيان الذي اندلع قبل الحرب في جيش السلطان «سَنْجَر» الجيش الحليف، انتهى الصدام بهزيمة القراخانيين الغربيين. فقد قدم العصيان الذي وقع في جيش «سَنْجَر» النصر هدية إلى «جورخان». ولكن الحرب أدت إلى إلحاق

خسائر في الأرواح تقدر بـ ٣٠ ألف شخص في كلا الجانبين. ووقعت زوجة السلطان سَنْجَر (وهى الأميرة القراخانية السيدة توركان خاتون) أسيرة وهرب محمود خان الثاني وسَنْجَر إلى ترمذ.

وبعد حرب «قطوان» اضطر القراخانيون الغربيون إلى دفع الجزية إلى الكيدانيين ولكنهم نجحوا في المحافظة على استقلالهم. وإذا كان الكيدانيون قد قاموا بضم الأراضي التي استولوا عليها، فقد تجنبوا الحديث عن كونهم مستقلين. وكانوا يأخذون الجزية بموجب النظام الصيني حيث تقوم كل أسرة بدفع دينار واحد أي خمس روبيات ذهبية.

وانتهز «خوارزمشاه آتسز» فرصة هزيمة «قطوان» واستولى على «مرو» في عام ١١٤١م. وبعد عام جاء إلى نَيْسابور في الخريف. وسعى السلطان سَنْجَر السلجوقي إلى ادخال خوارزمشاه في طاعته، وسعى لاستعادة مجد السلطنة السلجوقية القديمة ولكنه لم يستطع تحقيق هذا الهدف.

وبعد أن استقر الكيدانيون في وادي تاريم ويدي صو قاموا بطرد الأوغوز الذين كانوا يعيشون هناك وتصالحوا مع السلطان سَنْجَر، واستقروا في نواحي بلخ. كان عدد هؤلاء الأوغوز يقدر بـ ٤٠ ألف خيمة وكانوا يقدمون للسلطان في كل عام جزية تقدر بـ ٢٥ ألف رأس غنم. بيد أنه في عام ١١٥٥م رفع الأوغوز راية العصيان بسبب المنازعات التي وقعت بسبب مقدار الجزية. وعندما عجز والي بلخ عن تهدئة العصيان هجم السلطان «سَنْجَر» على الأوغوز بجيش قوامه ١٠٠ ألف جندي، ولكنه هُزم ووقع فى الأسر. وفي عام ١١٥٧م استطاع الهرب خلال انشغال الجميع بالصيد وجاء إلى مرو. وقام الأوغوز بنهب المدينة تماماً، وأحرقوها ودمروها. ولم يتحمل السلطان سَنْجَر هذا المشهد فسقط صريعاً هناك.

بعد وفاة السلطان سَنْجَر في عام ١١٥٧م انتهت ايضا دولة السلاجقة الكبار، ولكن استمرت السيطرة السلجوقية حتى عام ١٣٠٨م باسم

سـلاجقة العـراق وسـلاجقة كرمـان وسـلاجقة سـوريا وسـلاجقة الأناضـول. فقد اسـتمرت الدولـة السـلجوقية ٢٦٨ عامـاً خـلال الفتـرة (١٠٤٠ – ١٣٠٨م).

خـلال أيـام أسـر السـلطان «سَـنْجَر» لـدى الأوغـوز فيمـا بيـن الأعـوام (١١٥٣ – ١١٥٧م) كان يحكـم الدولـة محمـود الثانـي بـن «مَلِكْشـاه خاتـون» بنـت السـلطان سَـنْجَر. إذ كان السـلطان سَـنْجَر قـد زوج ابنتـه مَلِكْشـاه مـن محمـد أرسـلان خـان وهـو والـد محمـود.

وبعـد النصـر الـذي حققـه «جورخـان» فـي حـرب «قطـوان» اسـتولى علـى خـوارزم فـي عـام ١١٤٢م، ولكـن ملـك خـوارزم «إيـل أرسـلان» رفـض اعطـاء الجزيـة إلـى «جورخـان» فـي عـام ١١٤٦م وطـرد أيضـا واليـه علـى خـوارزم مـن المدينـة.

وبعـد مـوت «جورخـان» فـي عـام ١١٤٤م اعتلـى عـرش «كيـدان» أربعـة أفـراد منهـم سـيدتان. كانـت إحداهمـا مـن الكيدانييـن وهـى «تابويـان» زوجة «جورخـان» فـي الفتـرة (١١٤٤–١١٥٠م) والأخـرى ابنـة «جورخـان» وهـي السـيدة «بوسـاوان» فـي الفتـرة (١١٦٤ –١١٧٧م). وعندمـا قتلـت «بوسـاوان» زوجهـا بسـبب خيانـة مـع عشـيقها تمـرد المناصـرون للـزوج المقتـول. ولذلـك قامـت «بوسـاوان» بقتـل عشـيقها أمـام الشـعب وبذلـك اسـتطاعت إنقـاذ نفسـها.

فـي بدايـة السـلطنة الكيدانيـة كان يرأسـها: جورخـان» يـاه - لـو تا - شـيه» (١١٢٤ - ١١٤٣م) و«تابويـان» (١١٤٤ - ١١٥٠م) و«يـاه - لـو - يـه - لـي» (١١٥١ - ١١٦٣م) و«بوسـاوان» و«يـاه - لـو يلـي - جـو» (١١٧٨ – ١٢١١م).

وكانـت هنـاك عـداوة شـديدة ودائمـة بيـن الكيدانييـن والأهالي المسـلمين فـي المنطقـة. وليسـت هنـاك معلومـات دقيقـة حـول مـا إذا كان الكيدانيـون مانوييـن أو مسـيحيين.

ولكـن المعـروف أن المسـلمين فـي عهدهـم ثـاروا ثـورة شـديدة. وفـي عهـد «يـاه - لـو يلـي - جـو» شـهدت السـلطنة الكيدانيـة أيامـاً عصيبـة جـداً.

عندمـا قتـل جنكيـز خـان «طايـان سـلطان النايمـان» فـي آلطـاي عـام

١٢٠٣م جاء ابنه «كوچلوك خان» مع النايمانيين الأخرين إلى «ياه - لو يلي - جو» في عام ١٢٠٩م وبعد أن نال دعمه، عاد مرة أخرى إلى آلطاي الشرقية ومر على «يدي صو» جامعاً النايمانيين. وتقول المصادر التاريخية إن «كوچلوك خان» عقد معاهدة مع سلطان خوارزم استهدفت طرد الكيدانيين من هناك.

فالكيدانيون الذين خسروا الحرب التي خاضوها عام ١٢١٠م ضد الجيش الموحد لسلطان خوارزم محمد وسلطان القراخانية الغربية عثمان بوغراخان بالقرب من نهر «طالاس» (داخل حدود قيرغيزستان الآن) تمت الاطاحة بهم على يد «كوچلوك خان» بعد عام من هذا التاريخ. وبعد أن قضى «كوچلوك خان» على نفوذ الكيدانيين سيطر على كاشْغَر عاصمة القراخانية الشرقية، وجعلها عاصمة سلطنة النايمان، وهكذا خرج القراخانيون الشرقيون من التاريخ.

في عام ١٢١٢م قتل محمد خوارزمشاه عثمان بوغراخان صهره الوحيد، وتم القضاء على القراخانيين الغربيين، وهكذا طويت صفحة الدولة القراخانية التي استمر وجودها ٣٦٠ عاماً وصارت مجرد تاريخ.

وكان عمر سلطنة النايمان التي تم تأسيسها على أراضي القراخانيين الشرقيين، قصيراً (١٢١١-١٢١٨م). واحتضن «كوچلوك خان» سلطان «نايمان» المسيحيين، غير إنه لم يكن يتمتع بالكفاءة السياسية. وفرض قيوداً على المسلمين سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية، وأجبرهم إلى الارتداد عن دينهم. وأقدم على طرد ٣٠٠٠ من مسلمي خوتن الذين كانوا تحت رئاسة الإمام علاء الدين محمد، وأمر بمحو كل ما هو مكتوب وله صلة بالثقافة الإسلامية.

وعندما علم جنكيز خان بالمظالم التي ارتكبها «كوچلوك خان» لفئة من الشعب بسبب الدين، أرسل جيشاً قوامه ٢٠ ألف جندي بقياد «جبه نويون». وكان هدف جنكيزخان إنقاذ المسلمين من ظلم «كوچلوك خان» وأيضا القضاء على سلطنة نايمان التي شكلت أكبر عائق في

الطريق المؤدي إلى آسيا الوسطى.

وقام «جبه نويون» قبل الهجوم على «كوچلوك خان» بتشجيع الناس على الدفاع عن دينهم حيث أعلن نداء يقول فيه: «كل إنسان في هذه البلدة حر في اعتناق دين أجداده[١٤١]».

وفقد «كوچلوك خان» سيطرته على الشعب وخسرالحرب التي دخلها ضد «جبه نويون» عند ساحل «بحيرة ايصيق عام ١٢١٨م، وعندما هرب إلى كاشْغَر لقى مقاومة شديدة من شعبها فانسحب إلى «صاريقكول» وهناك قُتل على يد المغول.

حسناً، ماهو أهم درس تعلمناه من تاريخ القراخانيين؟

يجب أن نسجل أولاً أنه إذا لم تكن الدولة القراخانية القوية الموحدة ذات الثقافة العالية قد انقسمت إلى قسمين وصارت قراخان الشرقية وقراخان الغربية في عام ١٠٤٠م، لتجنبت الخضوع للكيدانيين وللسلاجقة. علاوة على ذلك كان من المحتمل أن تحتفظ بوجودها كدولة قوية على مر العصور، وكانت تستطيع أن تسهم بالكثير في تاريخ الشرق والغرب، وبصفة خاصة تاريخ آسيا الوسطى. ويمكنها أيضا أن تنجب الكثيرين من أمثال يوسف خاص حاجب ومحمود الكاشْغَري.

بيد أن محمود بن ناصر وإبراهيم بن ناصر إبني ناصر الإيليك خان الغربي قسما هذه الدولة إلى قسمين، وبغلطتهما تلك التي اقترفاها لطخا عظمة أجدادنا وبطولتهم، وبعد ذلك غيرا قدر نسلهما. وفي النهاية أخذت الدولة القراخانية في الضعف اعتباراً من عام ١٠٤٠م حيث دخلت تحت سيطرة الكيدانيين الذين جاءوا من الشرق(بعد انقسام القراخانيين إلى قراخان الشرقية وقراخان الغربية) وقُضى على استقلالها وفي النهاية طويت صفحتها من ساحة التاريخ.

وما أصاب الدولة القراخانية يذكرنا بكلمة جميلة لأجدادنا: «عندما يتناطح شاهان تصبح نقانقهما وليمة في العيد».

ثبت بأسماء وتواريخ السلاطين القراخانيين.

➤ سلاطين القراخانيون العظام

كول بيلكه قراخان	٨٥٠ – ٨٨٠م
بازرخان	؟ - ٩١٠
ساتوق بوغراخان	٩٢٠ – ٩٥٦
موسى بوغراخان	٩٥٦ – ٩٥٨
سليمان أرسلان خان	٩٥٨ – ٩٧٠
السلطان علي أرسلان	٩٧٠ – ٩٩٨
أحمد طوغان خان الأول	٩٩٨ - ١٠١٨
منصور أرسلان خان	١٠١٨ – ١٠٢٤
أحمد طوغان خان الثاني	١٠٢٤ - ١٠٢٥
يوسف قديرخان	١٠٢٥ – ١٠٣٢
سليمان أرسلان خان	١٠٣٢ – ١٠٤٠

● سلاطين القراخانية الشرقية

سليمان أرسلان خان	١٠٤٠ – ١٠٥٦
محمد بوغراخان	١٠٥٦ – ١٠٥٧
إبراهيم خان	١٠٥٧ – ١٠٥٨
محمد («طُغْرُل «قراخان)	١٠٥٨ – ١٠٧٤
عمر خان («طُغْرُل «تكين)	١٠٧٤ - ١٠٧٤
السلطان هارون بوغرا الثاني	١٠٧٤ – ١١٠٣
أحمد خان	١١٠٣ – ١١٢٩
إبراهيم خان الثاني	١١٢٩ – ١١٥٩
محمد خان الثاني	١١٥٩ - ؟

يوسف خان	١٢٠٥ - ؟
محمد خان الثالث	١٢٠٥ - ١٢١٠

● **سلاطين القراخانية الغربية:**

محمد بن نصر	١٠٤٠ – ١٠٥٢
إبراهيم بن نصر	١٠٥٢ – ١٠٦٨
شمس الملوك	١٠٦٨ – ١٠٨٠
حيزير خان	١٠٨٠ – ١٠٨١
أحمد خان الأول	١٠٨١ – ١٠٩٥
يعقوب خان	١٠٨٩ - ؟
مسعود خان الأول	١٠٩٥ – ١٠٩٧
سليمان خان	١٠٩٧ - ؟
محمود خان الأول	١٠٩٧ – ١٠٩٩
جبرائيل خان	١٠٩٩ – ١١٠٢
محمد خان الثاني (محمد أرسلان خان)	١١٠٢ – ١١٣٢
أبراهيم خان الثاني	١١٣٢ - ؟
محمود خان الثاني	١١٣٢ – ١١٤١
إبراهيم خان الثالث	١١٤١ – ١١٥٦
علي خان	١١٥٦ – ١١٦٠
مسعود خان الثاني	١١٦٠ – ١١٧٨
إبراهيم خان الرابع	١١٧٨ – ١٢٠٤
عثمان بوغراخان	١٢٠٤ – ١٢١٢

● السيدات

السيدة خان مَلِكْشاه : ابنة محمد بوغراخان، تزوجت من السلطان مسعود في حفل عرس أُقيم في غزنة عام ١٠٣٣م، وبعد موت السلطان مسعود تزوجت من السلطان ألب أرسلان.

السيدة...: ابنة سليمان أرسلان، تقرر زواجها من السلطان مودود. وفي أثناء ذهابها إلى زوجها في عام ١٠٣٢م توفيت في الطريق بين كاشْغَر وغزنة.

السيدة عائشة: ابنة السلطان ألب أرسلان تزوجت من شمس الملوك في عام ١٠٧٠م.

السيدة توركان : ابنة إبراهيم بوغرا تكين. تزوجت من السلطان مَلِكْشاه في عام ١٠٨٥. وهى أم الأمير محمود ولي العهد. اعتلى الأمير محمود العرش في الخامسة من عمره، وبعد عامين خُلع عن العرش.

هلالية :ابنة شمس الملوك، تزوجت من السلطان مَلِكْشاه عام (١٠٩٠م).

السيدة....: ابنة مَلِكْشاه. تزوجت من سليمان سلطان القراخانية الغربية في عام ١٠٩٥م.

السيدة...: ابنة السلطان سَنْجَر. تزوجت من محمد أرسلان خان عام ١١٣٠م. حكم محمود الثاني الذي ولدته ابنة سَنْجَر الأمبراطورية السلجوقية في الفترة من (١١٥٣ - ١١٥٧م) وهى الفترة التي وقع فيها سَنْجَر أسيراً في يد الأوغوز.

السيدة... : شقيقة يوسف بـ علي إيليك خان الغرب. تزوجت من سابي بن السلطان مسعود الغزنوي في عام ١٠٣٦م.

السيدة... : ابنة ناصر. تزوجت من يوسف بن علي ابن شقيق محمود الغزنوي في عام ١٠٣٦م.

السيدة... : ابنة ناصر إيليك خان الغرب، تزوجت من السلطان محمود في عام ١٠٠٠م.

خان سلطان : ابنة خوارزمشاه علاء الدين. تزوجت من عثمان بوغراخان في عام ١٢١٢م وقُتل عثمان في نفس هذا العام على يد السلطان علاء الدين محمد.

الفصل الخامس عشر: إدارة الدولة عند القراخانيين

طبقة الحكام

كان الأويغور يديرون الدولة القراخانية بالنظام الملكي، وكان الملوك ينتمون إلى قبيلة «ياغما» المرتبطة بفيدرالية تضم عشر قبائل أويغورية. ولهذا هناك احتمال كبير أن تكون الدولة القراخانية الأويغورية التي استمر حكمها ٤٠٠ عام تقريباً، قد حكمها منذ البداية وحتى النهاية ملوك ينحدرون من نفس العشيرة. وفضلا عن قبائل الأويغور التي تدين بالطاعة لعشائر «ياغما» فإن أمراء القبائل والعشائر الأخرى مثل (قارلوق وشيجيل وتوخسي وياباقو وباسميل وأوغراق ويمك وأرغو) كانوا داعمين لقبيلة ياغما التي تدير الدولة ومؤيدين لها.

كنا قد تطرقنا من قبل إلى أسماء وألقاب الملوك القراخانيين مثل قراخان وبوغراخان وأرسلان. والآن نتحدث قليلاً عن الألقاب والمناصب العليا الأخرى للأسرة الحاكمة.

بعد أن ارتضى القراخانيون الإسلام دينا للدولة في عام ٩٦٠م، بدأت العلاقات المتبادلة بين قادة قراخان والخلافة في بغداد. وكان سفراء ملوك قراخان لا ينقطعون عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وكان الخلفاء العباسيون يمنحون قادة قراخان الألقاب الدينية الشريفة، ويثنون عليهم ويعلون من قدرهم.

أنعم الخليفة العباسي «المقتدي» على سلطان قراخان الشرقية، أبي الحسن هارون بوغراخان الثاني(١٠٧٥-١١٠٢م) بألقاب: «حامي

الديـن والعدالــة» و«فخـر الدولــة» و«حاكـم الشــرق». وفــي عهــد أحمــد أرسـلان (١١٠٢– ١١٢٨م) ابـن هــارون بوغراخــان، أنعـم الخليفــة العباســي «المســتظهر» بلقـب «نــور الدولــة» علــى الســلطان القراخانــي، عــن طريــق وفـد أرسـله إلـى بغـداد برئاسـة محمـود بـن جـاروب الكاشْـغَري فـي عـام ١١٠٥م. والواقـع أن عـدد مـنٍ نـال مثـل تلـك الألقـاب مـن بيـن السـلاطين القراخانييــن لــم يكــن قليــلا.

فــي تلــك الأثنــاء كان الخلفــاء العباســيون يتلطفــون مــع الســلاطين الغزنوييــن والســلجوقيين أيضـا بمثـل تلـك الألقـاب الدينيـة الرفيعـة. فـي عـام ٩٩٨م عندمـا سـيطر الجيـش القراخانـي بقيـادة ناصـر إيليكخـان للمـرة الثانيـة علـى بُخـارى، اعتلـى محمـود الغزنـوي العـرش واتخـذ لنفسـه لقـب سـلطان وهـو مـن أشـهر الألقـاب، فأصـدر خليفـة بغـداد «القـادر باللـه» علـى الفـور منشـورا يقضـي بمنـح محمـود الغزنـوي لقـب «يميـن الدولـة وأميـر المؤمنيــن».

وفــي عهــد الســلطان «مَلِكْشــاه» (١٠٧٢ - ١٠٩٢م)بلغــت الإمبراطوريــة السـلجوقية أوج عظمتهـا وقوتِهـا، وكانـت تُكتـب هـذه العبـارة أعلـى الأبنيـة: «السـلطان ظـل اللـه فـي الأرض» [١٤٢]، وتُذكـر فـي خطبـةِ الجمعـة الألقـاب التـي أنعـم بهـا خليفـة بغـداد علـى ملـوك قراخـان. مثـلاً كان يُذكـر اسـم سـليمان أرسـلان خـان، ملـك قراخـان الشـرقية فـي الخطـب التـي تُقـرأ فـي كاشْـغَر وخوتـن وبالاسـاغون، بينمـا يُذكـر اسـم أبـي إسـحاق بـن ناصـر (إبراهيـم بوغـرا تكيـن) ملـك قراخـان الغربيـة، فـي خطـب مسـاجد سَـمَرقَنْد وأوزكنـت وبُخـارى. وفـي عـام ١٠٦١م أرسـل إبراهيـم بوغـرا تكيـن سـفيراً إلـى بغـداد وأقـام علاقـات صداقـة مـع الخليفـة الكامـل باللـه، ومنحـه الخليفـة لقـب «ملـك المشـرق والصيـن».

وعنـد تولـي ملـوك قراخـان العـرش، كانـوا يكتبـون اسـم الخليفـة علـى عملاتهـم الذهـب والفضـة. ومثـال ذلـك ماقـام بـه سـلطان قراخـان الغربيـة أبـو إسـحاق بـن ناصـر الـذي أمـر بكتابـة اسـم القائـم باللـه، خليفـة بغـداد علـى العملـة التــي ســكها.

ونصادف اسماء مثل «تابغاچ قراخان» و«تاوغاچ بوغراخان» بين الإليكخانيين القراخانيين. وثمة أراء مختلفة حول كلمة «تاوغاچ» هذه. ولذلك علينا أن نقف عند أصل هذه الكلمة ومعناها.

قبل الميلاد بمئات السنين، كان الطوريون(وبينهم الهونيين) هم جيران الصين في الشمال، يُسمون «تاوغاچ». وهذه الكلمة تعني «التابع البائس».

ويمكن القول استناداً على كتابات الكتاب الصينيين الأقدمين، إن الطوريين كانوا يتوسعون منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد (أي قبل ٤٠٠٠ عام تقريباً)، وبعد ذلك، وقبل ٨٠٠ عام تقريباً (أي في عام ٧٧٠م) سيطروا على المناطق المجاورة لإقليم «شان - سي» الصيني. كما قال مؤرخ روما الشرقية الذي عاش في القرن السابع في سيموقاط: «إن تاوغاچ أساساً كانت مستعمرة للطوريين.»

بعد أن استولى الهون في عهد أسرة «جو» على جزء من شمال الصين (يجاور شان - سي)، سُمي باسم «تاوغاچ» (بمعنى مستعمرة). الواقع أن دولة الهون والأراضي الواقعة شمال الصين ظلت على مدىٍ التاريخ تابعة للسلطنة الترك. مثلاً أسرة «هان» ظلت طيلة ٧٠عاماً تقريباً - من ٢٠٠ عام حتى عام ١٣٠ قبل الميلاد - تدفع الجزية السنوية إلى الهون. وفي عهد «الكوك تورك» وخاصة عصر «موقان خان» و«تاوار - خان» (فيما بين ٥٥٤ - ٥٨٧م) كانت أسرة «جي» و«جو» الشمالية يعطون الجزية للأتراك.

وفي أحد كتابات الكوك تورك التي تعود إلى القرن الثامن (كتابة بيلكه سلطان) وُجد أن كلمة «تاوغاچ» تعني من الصين. أما مؤرخ بيزنطة الشرقية في «سيموقاط» يوضح أن الطوريين كانوا يعنون الصين باسم «تاوغاچ»، وهذا قبل كتابات الكوك تورك. وطلب الإيلخانيون القراخانيون الذين حكموا ماوراء النهر إضافة كلمة «بوغرا» في نهاية اسمائهم، لكن رفض السلاطين الكبار الذين عاشوا في كاشْغَر هذا الطلب، فطلبوا منح الملوك على الأقل لقب «تاوغاچ بوغراخان» [بمعنى

تابع القراخان]. واسم «تاوغاچ» هذا يوضح ماهية العلاقة التي بين الإيلخانيين والسلاطين الكبار. وفي عام ١٠٤٠م اضطر محمد بن ناصر الإيليكخاني الغربي وإبراهيم بوغرا تكين ويوسف الإيليكخاني الغربي إلى المجيء إلى كاشْغَر، واستخدامهم لقب «إيليكخان» يعنى انهم بالفعل مرتبطون به.

ولأنهم مرتبطون بالسلاطين الكبار الذين في كاشْغَر تلقبوا بلقب «تاوغاچ قراخان» (تابع قراخان). وبعد موت إبراهيم بوغراتكين في عام ١٠٦٨م رفع سلاطين قراخان الغربية كلمة «تاوغاچ» من ألقابهم.

في عام ١٠٥٨م كان الإبن الصغيرللسلطان يوسف قادير، «طُغْرُل «قراخان (واسمه الإسلامي محمود) سلطان القراخانيين الشرقيين، وظل أبو الحسن تاوغاچ بوغراخان وهو ابن سليمان أرسلان خان، طيلة ١٦ عاماً (١٠٥٨ - ١٠٧٤م) يقوم بمهمة النائب الرسمي للسلطان الكبير، وفي خلال هذه الفترة كان يستخدم لقب «تاوغاچ بوغراخان»، وبعد ذلك في عام ١٠٧٤م خلع سلطان قراخان الشرقية «طُغْرُل تكين» (بن طُغْرُل قراخان) من العرش وصار هو السلطان الأعظم، ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١١٠٣م استخدم لقب هارون بوغراخان الثاني، ولكن بعد أن أصبح هو السلطان الأعظم رفع كلمة «تاوغاچ» التي في أول اللقب.

وكان السلاطين القراخانيون يسمون أبناءهم بإسم «تكين»، ويقول محمود الكاشْغَري: «إن كلمة (تكين) تعني(عبد)». ومن هنا تأتي كُلمات مثل «كوموش تكين» و«آلب تكين» و«قوتلوق تكين». وبعد ذلك أُطلقت هذه الكلمة على الصغار في أسرة السلطان. وفيما بعد بدأ استخدام هذه الكلمة مركبة مع كلمة أخرى أوأي اسم آخر مثل: «چغري تكين» و«كوچ تكين».

أما كيف وصلت هذه الكلمة إلى أبناء آفرسياب، فقد كان هؤلاء الأبناء يبدون احتراماً كبيراً لأجدادهم ولذلك كانوا يبدون تواضعاً زائداً عن الحد عندما يريدون أن يقدموا لأبائهم معلومة شفهية عن أي

موضـوع، أو عنـد ارسـالهم خطاباً، فاسـتخدموا إفـادات مثـل «وهكـذا قـال عبدكـم، وهكـذا فعـل عبدكـم». وهكـذا التصقـت هـذه الكلمـة باسـمائهم، ولكـن مـن أجـل تمييزهـم عـن العبيـد الأخريـن بـدأوا يضيفـون بجانـب هـذه الكلمـة كلمـة أخـرى.[١٤٣]

كان سـلاطين قراخـانٍ يمنحـون أبناءهـم أسـماء إسـلامية مـع أسـمائهم الأويغوريـة القديمـة. مثـلاً كانـت أسـماء أبنـاء السـلطان يوسـف قاديـر بهـذا الشـكل:

الاسم الأويغوري	الاسم الإسلامي
١ - ياغان تكين	سليمان
٢ - بوغرا تكين	محمد
٣ - طُغْرُل قراخان	محمود

وكان أبنـاء سـلاطين قراخـان الذيـن يلقبـون «تكيـن» يمكنهـم تولـي العـرش مـكان أبائهـم أو يحكمـون منطقـة معروفـة وعندئـذ يلقبـون بــ «إيلكخـان» (بمعنـى الوالـى). وكانـت الأميـرات يلقبـن بــ «آلتـون تاريـم».

بعـد أن قضـى القراخانيـون علـى السـامانيين فـي عـام ١٠٠٠م أزالـوا نظـام حكمهـم المركـزي الصـارم، وبـدأوا يولـون «الإيلكخانيـون» (الأمـراء الـولاة) المنتسـبين للسـلطان حكـم الولايـات الكبيـرة. وقـد كان السـلطان الأعظـم عنـد القراخانيـن يقيـم فـي كاشْـغَر، وأحيانـاً ولفتـرة قصيـرة فـي بالاسـاغون. أمـا «الإيلكخانييـن» كانـوا يقيمـون فـي «بالاسـاغون» و«أوزكنـت». وكنـا قـد أوضحنـا مـن قبـل أن القراخانييـن بعـد أن قضـوا علـى الدولـة السـامانية، بـدأوا حكمهـا بتقسـيمها إلـى منطقتيـن، إيلكخـان (الإمـارة) الشـمالية فـي «بالاسـاغون»، وإيلكخـان (الإمـارة) الغربيـة فـي «أوزكنـت».

وعندمـا سـيطر هـارون بوغراخـان فـي عـام ٩٩٢م علـى بُخـارى، عاصمـة الدولـة السـامانية، عيـن ناصـر بـن السـلطان علـي أرسـلان، ابنـه فـي إيلكخـان الغربيـة، وعيـن «تكيـن آخـر» باسـم «طوغـان خـان» فـي إيلخـان الشـمالية. وكان ناصـر يحكـم مـاوراء النهـر، أمـا «توغـان خـان» كان يحكـم «يـدي صـو»

و«وادي إيلـي» وماحولـه.

كانـت الأسـرة الحاكمـة القراخانيـة تـري أراضـي الدولـة كلهـا ملـكاً لهـا. فـي عـام ١٠٤٢م قـام سـليمان خـان تحـت وطـأة العصيـان الداخلـي لأسـرة «يابـاكـو»، بتقسـيم أراضـي قاراخـان الشـرقية التابعـة لحكـم السـلطان علـى أفـراد أسـرته. ووفقـاً لهـذا منـح سـليمان أرسـلان كاشْـغَر وبالاسـاغون، ومنـح تـالاس وأصفهـان إلـى بوغراتكيـن (محمـود بوغراخـان) الشـقيق الأصغـر لسـليمان، والمناطـق الشـرقية لقراخانيـة الشـرقية مُنحـت أيضـا ل«طُغْـرُل قراخـان» (محمـود) الأخ الأصغـر لسـليمان، ومُنـح حكـم وادي فَرْغانـة لعـم أسـرة تكيـن وهـو أحمـد بـن حسـن (ابـن هـارون الأول).

وأحـد الموضوعـات التـي يتعيـن تسـجيلها علـى وجـه الخصـوص هـو قيـام «الإيلكخانـات» (الأمـراء) بنقـش أسـمائهم علـى العملـة فـي المناطـق التـي يحكمونهـا وتحمـل مسـئولية المسـائل الدبلوماسـية والعسـكرية، وكانـوا هـم أصحـاب القـرار فـي المسـائل المهمـة مثـل شـن حـرب علـى منطقـة مجـاورة. عـلاوة علـى ذلـك كان بعـض «الإيليكخانـات» (الـولاة الأمـراء) يتمتعـون بحريـة التصـرف والاسـتقلال عـن السـلطان الأعظـم الموجـود فـي كاشْـغَر.

كان نظـام السـلطنة فـي الدولـة القراخانيـة الأويغوريـة (وهـو اسـتقلال السـلطان الأعظـم ونائـب السـلطان مـن الناحيـة الاقتصاديـة ومـن ناحيـة تعييـن «الإيلكخـان») يفتـح الطريـق أمـام مـن يريـد الاسـتيلاء علـى العـرش، وكان أيضـا سـبباً فـي تقسـيم دولـة السـلطنة القراخانيـة فـي عـام ١٠٤٠م إلـى دولتيـن، شـرقية وغربيـة.

وكمـا أوضحنـا فـإن نظـام الحكـم القراخانـي والهيـكل الاقتصـادي والسياسـي للدولـة سـيطر عليـه الموظفـون الكبـار الذيـن يعملـون فـي المؤسسـات المختلفـة والمعينـون مـن المركـز.

كان يوجـد فـي العاصمـة كاشْـغَر «الخـاص حاجـب» أي الـوزراء وكانـوا يلقبـون بــ «يوجـوروش»، (ويجـب أن يكـون الحاكـم مـن القبيلـة). ويتـم اختيـار الـوزراء مـن بيـن الأشـخاص ذوي الثقافـة العاليـة والخبـرة الكبيـرة، (كأن

يكـون صاحـب علـم فـي مجـالات الفلـك والأدب والطـب). وكان يوسـف خـاص حاجـب، مؤلـف «قوتادغـو بيليـك» مـن بيـن وزراء القصـر القراخانـي الشـرقي. وبالإضافـة لذلـك كان يتـم تعييـن الكثيـر جـداً مـن الخبـراء السياسـيين فـي القصـر، ويُسـمى الواحـد منهـم «أوجـه».

وهكـذا يقـول محمـود الكاشْـغَري فـي موضـوع «الأوجـه»: «يُطلـق لقـب (أوجـه) علـى الأشـخاص المؤهليـن، الأذكيـاء، وهـم يُختـارون مـن بيـن عـدة أشـخاص. وهـؤلاء يأتـون فـي المقـام بعـد الذيـن يحملـون لقـب (تكيـن).» هنـاك روايـة عـن أصـل هـذه الكلمـة. بينمـا كان الإسـكندر المقدونـي يتقـدم نحـو الصيـن، كان السـلطان التركـي يرغـب أن يرسـل جيشـاً مـن الشـباب لمحاربتـه. فقـال الوزيـر للسـلطان: «أنتـم تريـدون أن ترسـلوا الشـباب لمواجهة الإسـكندر، علـى الأقـل ليكـن علـى رأسـهم واحـد ذو خبـرة وحصافـة.» فسـأله السـلطان قائـلاً: «هـل تريدنـي أن أرسـل (أوجـه)؟» وهنـا اُسـتخدمت كلمـة أوجـه بمعنـى «خبيـر وحصيـف». فقـال لـه الوزيـر (نعـم). وهكـذا أرسـل السـلطان علـى رأس الجيـش شـخصا خبيـرا وحصيفـا. فـي ذلـك المسـاء انتصـر هـؤلاء المحاربـون الذيـن قامـوا بالهجـوم علـى طليعـة وحـدات جيـش الإسـكندر المقدونـي[١٤٤]». هـذه الروايـة توضـح أن أجدادنـا لـم ينحـازوا إلـى المتعلميـن المشـهورين فقـط فـي حكـم الدولـة بـل أيضـا إلـى أصحـاب العقـل والخبـرة مـن المواطنيـن.

وطالمـا تطرقنـا لهـذا الموضـوع ينبغـي أن نتحـدث عـن «بيلكـه تونيوقوق» المستشـار الكبيـر، وأركان حـرب ووزيـر الـوزراء فـي عهـد السـلطان «بيلكـه سـلطان» و«إيلتريـش قُتْلُـق قباغـان - خـان» مـن سـلاطين الأتراك الشـرقيين. عندمـا أرسـل «قباغـان - خـان» الجيـش التركـي الشـرقي إلـى وسـط آسـيا بقيـادة «كـول تكيـن» فـي عـام ٧٠٩م وكان عمـره ٢٤ عامـاً، فأرسـل معـه «تونيوقـوق».

وقـد تـرك لنـا المؤرخـون معلومـات قيمـة عـن جمـال عواصـم الحـكام القراخانييـن وحيويتهـا. فقـد أسـس السـلطان القراخانـي الغربـي شـمس الملـوك فـي بُخـارى قلعـة «شـمس آبـاد»، وبداخلهـا الكثيـر مـن المتنزهـات

عـدا الحدائـق والقصـور. وكان سـلاطين قراخـان الغربيـة يأتـون إلـى «شـمس آبـاد» لقضـاء فتـرات مـن الراحـة.

ومـن ناحيـة أخـرى كان علـم الدولـة القراخانيـة ورايـات الحـرب لونهـا أحمـر. ويُطلـق علـى سـلاطين قراخـان لقـب «السـلطان ذو الرايـات التسـع»، ورقـم تسـعة رقمـاً مقدسـاً منـذ القـدم. وحتـى الآن يوجـد مثـل بيـن الأويغورييـن يقـول: «إذا كنـا تسـعة أفـراد فـلا لـزوم لأي شـيء.»

غربت الشمس وثار الغبار
وتقترب الأعلام التسعة الحمراء باستمرار[١٤٥]

عنـد خـروج سـلاطين قراخـان للصيـد أو للحـرب كانـت تقـام لهـم خيـام خاصـة. لتقـي السـلطان مـن الريـاح والعاصفـة والمطـر والحـر. وفـي ميـدان القتـال، وقبـل أن يبـدأ السـجال، وهـم ينصبـون الخيمـة للسـلطان يتـم رفـع العلـم. وكانـت الأعـلام والرايـات الحمـراء المنصوبـة في أطـراف خيمة السـلطان تمتـزج فـى نغمـة بارعـة اثنـاء المعركـة. وهنـا يقـول محمـود الكاشْـغَري فـي هـذا الأمـر:

نُصبت خيام السلطان المستديرة
ورُفعت الراية ودُقت الطبول
وحُصد جنود العدو كالعشب
وتم حصارهم فما من مهرب[١٤٦]

وكانـت تقـام مظلـة مـن الحرير الأحمـر لحمايـة سـلطان قراخـان والأمـراء مـن الشـمس. أمـا مظلـة الـوزراء الذيـن يحملـون لقـب «يوجـوروش» فكانـت تُصنـع مـن الحريـر الأسـود.

النظام الحربي

منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا تعتمد جميع الدول في حكم المناطق على عنصرين أساسيين:الدستور والقوة العسكرية. مثلاً في الكتاب المسمى «قوتادغوبيليك» يقول يوسف خاص حاجب: إن الدولة تحتاج بصفة خاصة إلى الجيش المسلح بالإضافة إلى احتياجها لأفراد مؤهلين وذوي خبرة في الحكم ينفذون ويطبقون دستور الدولة:

شئون الدولة تُنظم بالقانون العادل
وضرب عنق العدو بالسيف

ومنذ القصور الموغلة في القدم وحتى يومنا هذا تعطي الدولة أهمية كبيرة لتشكيل قوات مسلحة لإخماد الاضطرابات فى الداخل وخوض المعارك ضد الأعداء في الخارج، وتعزيز سلطات الدولة.

وبقدر مافهمنا من الكتاب المسمى «قوتادغو بيليك» ليوسف خاص حاجب، فإن بناء القوة العسكرية في الدولة القراخانية كان متطوراً جدا. فقد تشكل الجيش القراخاني من الجيوش التي تحت إدارة السلاطين والوحدات الخاصة والفرق التي تحافظ على الحدود. وكانت الوحدات الخاصة تنقسم إلى اثنين: «تورغاق» و«ياتقاقٍ». كان «تورغاق» لايؤدون مهامهم نهاراً، و«ياتقاق» لايؤدون مهامهم ليلاً. وهكذا يقال في «قوتادغو بيليك»:

صباحاً ومساء تجد من يحفر ومن يراقب
الجميع يعمل بجد

في زمن الحرب كانت الوحدات الخاصة من الجيش والتي تُسمى «يورتوغ» تأخذ على عاتقها المهام التي تتطلب مسئولية أكبر وأهم. ويقوم جنرالات السلطان بجمع الجيش وقائد الفيلق الخاص الذي سيخرج

إلـى الحـرب ويحمـل معـه علـم الدولـة والطـرة ورمـوز الدولـة مصنوعـة مـن الذهـب والفضـة. ويكـون المنظـر مهيبامـن بدايـة الحـرب وحتـى نهايتهـا. وهـذا الفيلـق الخـاص يتشـكل مـن ١٢ ألـف فـارس. وكانـت الفرقـة الخاصـة لـمحمد أرسـلان خـان وهـو أحـد السـلاطين القراخانييـن تتشـكل مـن ١٢ ألـف فـرد.[١٤٧]

كان الجيـش الخـاص يتمركـز فـي وقـت الحـرب حـول خيمـة السـلطان، ومهمتـه عـدا حمايـة السـلطان،منع الجنـود مـن الفـرار، والحيلولـة دون تراجعهـم بـدون أن يصـدر الأمـر بذلـك. وفـي هـذا الموضـوع يقـول يوسـف خـاص حاجـب:

بينما ينظم القائد الحرس
يقوم بالسيطرة على الصفوف الأمامية والخلفية
وكبير ضباط الحرس ينظم الجيش
والجندي يبقى في الصفوف الخلفية ولا يتقدم للأمام
لاتختلط الرتب الكبيرة بالرتب الصغيرة
ولا يقترب الذين في الصفوف الخارجية البعيدة
أيها العظيم، فإن وضع رتبتك في الديار
هى نفس وضعها في الحرب

وعـدا الجيـش الخـاص كانـت هنـاك أيضـا الجيـوش التـي تحـت قيـادة «الإيلكخانييـن» (الأمـراء الـولاة) وإذا اقتضـت الضـرورة كانـوا ينضمـون إلـى الحـرب تحـت قيـادة السـلاطين بنـاءً علـى أوامـر السـلاطين القراخانييـن. وكانـت الدولـة القراخانيـة تبـدي اهتمامـاً كبيـراً بالجيش. وأُشـير فـي «قوتادغو بيليـك» إلـى أنـه فـي وقـت الحـرب لا يتحقـق النصـر كثـرة صفـوف الجيـش، ولكـن النصـر يتحقـق بنـاءً علـى مقـدرة القـادة، ونوعيـة الأسـلحة، وشـجاعة الجنـود، إذ يقـول:

يظل الجيش بلا قائد مهما كثر عدد الجنود
وجيش بلا قائد كجندي بلا قلب
إذا نُشر الكثير من الجنود، يرتبك الجيش من الداخل
وإن لم يكن هناك من يوجههم، يكون الوضع صعباً

من المحتمل أن يوسف خاص حاجب يشير هنا إلى أن إدارة جيش كثير العدد يمثل كلفة كبيرة على الشعب. ففي المجتمعات الإقطاعية في العصور الوسطى كلما صار الجيش كبير العدد، زاد مقدار البدل الذى يدفعه لتنشئة هذا الجيش. وما يود أن يقوله يوسف خاص حاجب هو أن الروح المعنوية والجسارة والعزم هى ما يحتاجه الجيش أساساً. ومهما يكن الأمر فإن الجيش يذهب إلى الحرب من أجل وطنه وحماية شعبه. كما إنه يؤكد في «قوتادغو بيليك» أن الجيش يذهب إلى الحرب لإحساسه بالمسئولية ولإظهار البطولة.

العروس تفرح في ليلة زفافها
والشجاع يفخر في أيام الحرب

يقول يوسف خاص حاجب مشيراً إلى أن نتيجة الحرب كما أبدينا لاترتبط بعدد أفراد الجيش:

جيش قليل العدد ومنظم أفضل من جيش كثير العدد
فكم من جيوش كثيرة غُلبت برغم كثرة عددها

تاريخ الحروب منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا مليء بأمثلة تدل على أن الجيوش قليلة العدد ذات الروح المعنوية العالية تهزم الجيوش الكبيرة التي تفوقها عدداً ولكن لاتتمتع بروح معنوية عالية.

إن أجدادنـا الأبطـال، العظمـاء، العلمـاء، تركـوا لنـا أمثلـة الانتصـارات التـي حققوهـا بجيوشـهم الصغيـرة ضـد جيـوش تفوقهـم فـي العـدد. لهـذا يكفـي أن نلقـي نظـرة علـى تاريـخ الأويغـور.

أوضحنـا مـن قبـل، أنـه فـي عـام ١٠٤١م خـلال عصيـان شـعب «يـاباقـو» الـذي يعيـش فـي المنطقـة الواقعـة شـمال شـرق قراخـان (فـي سـاحل إيريتـش)، اسـتطاع جيـش قوامـه ٤٠ ألـف جنـدي بقيـادة «أرسـلان تكيـن» أن يهـزم جيـش العـدو قوامـه ٧٠٠ ألـف جنـدي بقيـادة «بـودراچ». ويقـدم لنـا محمـود الكاشْـغَري المعلومـة التاليـة المتعلقـة بتلـك الحـرب:

«بـوكا ثعبـان كبيـر، إنـه فـي شـكل أفعـى ذات سـبعة رؤوس. ومُنـح هـذا الاسـم إلـى أعيـان شـعب «ياباقـو» وإلـى الذيـن يتصفـون بالشـجاعة. ولذلـك سُـمي «بـوكا بـودراچ» بهـذا الاسـم. وقـد هـزم اللـه تعالـى «بـوكا بـودراچ» وجيشـه الـذي يبلـغ ٧٠٠ ألـف جنـدي علـى يـد جيـش المسـلمين فـي الحـرب التـي قادهـا «أرسـلان تكيـن» بجيـش قوامـه ٤٠ ألـف جنـدي.»

ويسـجل الكاشْـغَري أنـه سـأل مـن شـاركوا فـي القتـال قائـلاً: «أنتـم أيهـا الكفـار لمـاذا انهزمتـم وأنتـم بهـذا العـدد الكبيـر؟» فـكان الـرد: «نحـن أيضـا تحيرنـا وسـألنا هـؤلاء الذيـن انهزمـوا، لمـاذا لـم تنتصـروا وأنتـم بهـذه القـوة والعـدد الكبيـر؟ فأجابـوا: كان صـوت الأبـواق مسـتمراً طـوال الحـرب، وقـد رأينـا علـى ربوتنـا جبـلا أخضـر ذا بـاب مفتـوح وممـرات لاتُحصـى. وتلقينـا مـن هـذا البـاب وابـلاً مـن النيـران، فشـعرنا بالرعـب، ولهـذا انهزمنـا.» [١٤٨]

وهـذا النـص يبيـن سـبب هزيمـة جيـش «بـوكا بـودراچ» المكـون من ٧٠٠ ألـف جنـدي.

(بيـن محمـود الكاشْـغَري السـبب، وهـو القـوة المرعبـة غيـر الطبيعيـة لجيـش أرسـلان)، وأن الجيـش القراخانـي الشـجاع المختـار بعنايـة والـذي قوامـه ٤٠ ألـف جنـدي قـد خـرج مـن الحـرب منتصـراً، والنتيجـة هـي أن أرسـلان تكيـن هـزم جيشـاً كبيـراً يفـوق عـدد أفـراد جيشـه بعشـرين ضعفـاً.

ووفقـاً لمـا يقولـه يوسـف خـاص حاجـب، أن أسـلحة القراخانييـن كانـت

عبارة عن السهم والقوس والسيف والحربة والخنجر والدرع والترس والدبوس. جزء من هذه الأسلحة كانت للهجوم وجزء للدفاع. وكانت الأسلحة في عهد القراخانيين على درجة عالية من الجودة.

واستناداً إلى بعض المعطيات التاريخية، يقال أن الدبوس كان سلاح الهجوم الأساسي للجيش القراخاني. وكان لدى القراخانيين نوعان من الدبوس. أحدهما مصنوع من الذهب والفضة ويظهر عظمة وشهرة السلطان في مواجهة العدو والصديق. أما الآخر كان دبوسا مصنوعاً من الحديد المصبوب ويُستخدم في الحروب. وكان لدى السلطان القراخاني الغربي «حيدر خان» وحدة فرسان قوامها ٧٠٠ جندي تسير في مقدمة جيشه، وكانت مزودة بدبوس مصنوع من الذهب والفضة الخالصة. وأيضا أرسل السلطان القراخاني شمس الملوك (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) مع وفده الدبلوماسي الذي بعثه إلى «مَلِكْشاه» السلطان السلجوقي الكبير، دبوساً يزن ٥٠ باطمان [وحدة وزن تزن ٣ كيلو جرام]، وسيف يزن ١٠ باطمان. وعلاوة على ذلك قال «شمس الملوك» في الخطاب الذي أرسله إلى مَلِكْشاه ما يلي: «نحن لا نحارب بهذا الدبوس، بل نلعب به. فهذا الدبوس يحول الدرع الذي يصيبه إلى فتات. فهكذا هي أسلحة الدبوس التي نحارب بها». عندما قرأ «مَلِكْشاه» خطاب شمس الملوك امتطى جواده بسرعة وبعد أن أدار رأس الدبوس سبع مرات، أطلقه لمسافة ٨٠ قدم وبضربة سيف شق رقبة جمل إلى نصفين. وبعد ذلك ألقى بسهم وقوس أسفل أقدام السفير القراخاني وقال: «نحن في الحرب نضرب فقط بالسوط والسيف».

وعدا التدابير الدبلوماسية التي انتهجها القراخانيون في السياسة الداخلية والخارجية، كانت لديهم تكتيكاتهم العسكرية والاستراتيجية. وكانوا يؤدون التدريبات العسكرية المكثفة. مثلاً في عام ٩٩٢م وقبل الهجوم على السامانيين، وبينما يواصل هارون بوغراخان مباحثاته مع الفارس السامانيأبى علي سيمجوري، قام بجمع الجيش القراخاني الذي في «يدي صو» ودربه تدريباً عسكريا. فالقراخانيون كانوا قبل الحرب

يـؤدون تدريبـات عسـكرية باسـتمرار. لأن الدخـول فـي حـرب ضـد أي دولـة يعتمـد علـى مـدى قـوة وقـدرة الأطـراف المشـتركة فـي هـذه الحـرب.

وفي هذا الموضوع يقول يوسف خاص حاجب:

إن القيادة أمر عظيم
فبها توجيه الجند، وأيضا هزيمة العدو

ولهـذا السـبب كان القراخانيـون، قبـل الدخـول فـي أي حـرب يتباحثـون فـي هـذا الأمـر كثيـراً ثـم يـؤدون التدريبـات العسـكرية. أما بعـد اتخاذهـم قرار الحـرب فإنهـم يقـدرون عـدد الجنـود التـي ستشـترك فـي الحـرب ويحـددون وقـت الحـرب ومـن الذيـن سـيقودون الجيـوش ومـكان الحـرب وغيرهـا مـن الأمـور.

وكان السـلطان القراخانـي يُشـرك فـي تدريبـات الحـرب كل أبنائـه وكبـار الأمـراء وكبـار رؤسـاء القبائـل مثـل (قارلـوق وتشـيجيل وأوغـراق وتوخسـي.... الـخ). وكان هـذا النـوع مـن التدريبـات العسـكرية يسـمى بالديموقراطيـة العسـكرية. لأن الشـعب التركـي منـذ عهـد الهـون كان يطبـق مـا يشـبه هـذه الديمقراطيـة العسـكرية.

وكثيـراً مـا يتولـى السـلطان القيـادة. وليـس الأويغـور فقـط هـم مـن كانـوا يعقـدون اجتمـاع مجلـس عسـكري قبـل الحـرب، بـل فعـل ذلـك أيضـا الهـون والأتـراك. مثـلاً فـي عـام ١٠٤٠م قبـل الحـرب التـي جـرت بيـن الأوغـوز والغزنوييـن، عقـد أمـراء الأوغـوز اجتماعـاً فـي مـرو، وتـم فـي هـذا الاجتمـاع مناقشـة الخلافـات العسـكرية التـي بـدت بينهـم وبيـن مسـعود الغزنـوي، وهـو موضـوع تطرقنـا إليـه مـن قبـل. وكان القراخانيـون أيضـا يتفقـون فـي المجلـس الـذي يعقدوه قبـل الحـرب وقبـل بدايـة السـجال علـى تشـكيل جيـش خـاص. وينظمـون فعاليـات التجسـس ومكافحـة التجسـس، ويحـددون مـكان الحـرب. وكمـا عرفنـا فإنـه ليـس كافيـاً أن نعلـم ماهيـة وضـع العـدو

فقط في كل الحروب، لكن المهم جداً أن نمنع تسرب الأسرار، لأن تسربها يحول دون تحقيق النصر.

كان القراخانيون قبل الحرب يقومون بتشكيل وحدات تجسس من الخيالة تُسمى «توتقاق»[١٤٩] و«يازك»[١٥٠] لجمع معلومات عن العدو بكافة الوسائل الممكنة، والعمل على التأكد من صحة هذه المعلومات التي تم الحصول عليها خلال الحرب. وهذا النوع من الوحدات تقوم بالهجوم على وحدات العدو الأمامية وأسر بعض جنوده وتجمع منهم المعلومات اثناء استجوابهم، وبهذا يعرفون ماالذي يقوم به العدو.

وهذه الأبيات ليوسف خاص حاجب في هذا الموضوع:

يتم تشكيل فرق الطليعة المختارة
ويكون هؤلاء بمثابة عين الجيش في الخارج وأذنه.
وإذا التقت فرقة الطليعة بطليعة العدو
لابد أن تهجم وتضرب ثم تعود
ولتعمل في البداية على أسر البعض
للحصول على معلومات عن وضع العدو
ويقول الكاتب نفسه ما يلي بشأن حفظ الأسرار:
لنراقب العدو ونحرص على عدم الوقوع في الأسر
فلايجب أن يعلم العدو عددنا إن كان قليلا أم كثيرا

ومن أهم مهام للقائد القراخاني أن يحيط بتفاصيل المنطقة التي سيشن فيها حربه. مثلاً في عام ١٠٠٦م أثناء الصدام الذي وقع بين القراخانيين والغزنويين، جمع القادة القراخانيون الجيش في «مضيق قَطَر» في جنوب بلخ، حيث رأى القائد أن هذا المكان يعد أنسب مكان ليكون ميداناً محتملاً للقتال. أما في الحرب التي وقعت بين الأوغوز والغزنويين في عام ١٠٤٠م فقد تم اختيار «دندانقان» التي تقع بين

مـرو وسـرخس.

ويتـم اختيـار الأماكـن القريبـة مـن مصـادر الميـاة والمراعـي كميـدان للقتـال. وهكـذا يقـول يوسـف خـاس حاجـب فـي موضـوع اختيـار القائـد لميـدان الحـرب.

لابد أن يكون ميدان القتال مناسباً
فيتجمع الجند ولا يتباعدوا

وبعـد أن يتـم اختيـار ميـدان القتـال تُنصـب خيمـة القائـد فـي مـكان واضـح. هـذه الخيمـة تعـد بمثابـة مقـر القيـادة العليـا. ويقـام بـرج مراقبـة على ربـوة مرتفعـة بجـوار مقـر القيـادة. هـذه الأنـواع مـن أبـراج المراقبـة كانـت تقـوم بنقـل المعلومـات عـن تحـركات العـدو عـن طريـق إعطـاء الإشـارة إلـى بعضهمـا البعـض بإشـعال النيـران أثنـاء الليـل. فـإذا تـم ملاحظـة أي تحـركات عسـكرية فـي مقـر قيـادة العـدو ليـلاً يتـم علـى الفـور إشـعال النيـران مـن الأبـراج والتوجـه إلـى موقـع الحـرب بسـرعة. كمـا كان يُطبـق نظـام كلمـة السـر فـي الليـل فـي محيـط مقـر القيـادة. وكانـت كلمـات السـر تتكـون بصفة عامـة مـن عـدة كلمـات، كإسـم سـلاح أو اسـم طائـر. فـإذا تقابلـت مجموعتـان فـي الظـلام يتـم التعـارف علـى هويـة الطرفيـن مـن خـلال كلمـة السـر، وبنـاءً علـى هـذا يتـم اتخـاذ التدابيـر اللازمـة. وحتـى إذا تقابـل شـخصان فـي الظـلام يسـأل أحدهمـا الآخـر عـن كلمـة السـر، والشـخص الـذي لايعـرف كلمـة السـر يتـم مهاجمتـه[١٥١].

كان أجدادنـا يقومـون بصفـة عامـة بالهجـوم علـى العـدو ليـلاً، لأن التخطيـط الجيـد لهجـوم ليلـي يـؤدي إلـى نتائـج جيـدة جـداً. مثـلاً فـي عـام ٩١ قبـل الميـلاد شـن «هوليقـو تانريقـوت الهـون» (٨٥ – ٩٦ قبـل الميـلاد) حملـة ليليـة علـى جيـش العـدو وقوامـه ٧٠ ألـف جنـدي، وانتصـر عليـه، أمـا فـي عـام ٧٦٥م فقـد شـن الجنـرال الأويغـوري «آلـب قولـوق ياغـلاكار تكيـن»

حملـة ليليـة بقـوة قوامهـا ١٠ ألـف جنـدي علـى جيـش التبيـت وقوامـه ١٠٠ ألـف جنـدي فـي «نينغشـيا» وهزمـه.

كان القراخانيـون يفضلـون الهجـوم علـى العـدو ليـلاً. ويقـول يوسـف خاص حاجـب فـي موضـوع الهجـوم ليلاً:

القتال مضجر، فلتهجم ليلاً
لايتبين أحد في الليل إن كان الجند كثير أم قليل

بيـد أنـه يتضـح مـدى أهميـة إشـعال المشـاعل فـي هجـوم الليـل للتمييز بيـن الجنـود وجنـود العـدو. فـإذا أصـدر القائـد أمـراً بالهجـوم صباحـاً، يقـوم بوضـع الغـزاة ذوي الخبـرة فـي الصفـوف الأماميـة لرفـع معنويـات الجنـود، ثـم يضـع قسـم مـن الجنـود للمراقبـة. فضـلا عـن اشـتراك القائـد مـع الجنـود فـي الحرب.

وكان السـلاطين القراخانيـون فـي حالـة تعرضهـم للهزيمـة علـى يـد أعدائهـم، يقومـون بعقـد معاهـدة صلـح معهـم. وإذا كان صلـح مؤقـت فإنهـم يشـيرون إلـى ذلـك فـي المعاهـدة. والقائـد الـذي يتخـذ التدابيـر الاسـتراتيجية، إذا أدرك أنـه لـن ينتصـر علـى العـدو برغـم كل شـيء، يجـب أن يتـرك ميـدان القتـال حتـى لاينهـزم. وفـي هـذا يقـول يوسـف خـاص حاجـب:

إذا كان جند العدو كثير وجندك أقل عدداً
لاتدخل الحرب واسرع إلى عقد معاهدة معه
وإذا لم يعد لديك حيلة، وأمامك الهزيمة لامفر
ارسل سفيرا وسِرْ في اجراءات المعاهدة
احرص على أن يكون نص المعاهدة قصيرا ومرنا
ولا تصغ لمن ينادي بشن الحرب

في الجيش القراخاني يوجد قادة يحملون لقب» سوباشي» بمعنى «وكيل السلطان»، وكان السلطان كثيراً ما يتولى القيادة بنفسهاأو يضع في قيادة الجند «الإليكخانيين» (الأمراء الولاة) الذين هم بمثابة نوابه.

في عهد القراخانيين تم تشكيل جيش منظم ليحل محل الجيش القديم الذي كان يضم البدو الرحل. ويُسمى السجل الذي يحتوي على أسماء الجنود ومهامهم التي يضطلعون بها بـ «آي بيتيك» [١٥٢]، وكان في الجيش القراخاني جنود يحملون لقب «چاويش» بمعنى عريف. ومهمة هؤلاء تعزيز النظام في وقت الحرب، وفي وقت السلم يمنعون الجند من الإساءة إلى الشعب ويدعمون النظام في البلاد بصفة عامة.[١٥٣]

أما وظيفة الأمراء في الدولة القراخانية، فهم المسئولون عن تنفيذ جميع الاستراتيجيات والتكتيكات المتعلقة بالحرب، ومسئولون أيضا عن تدريب الجنود.

الفصل السادس عشر: الثقافة فى زمن القراخانيين

العلماء بناة الحضارة

إن زمـن القراخانييـن الـذى اسـتمر مـا يقـرب مـن ٤٠٠عـام، هـو فتـرة مهمة للغاية بالنسبة لشعوب آسيا الوسطـى والمناطـق المحيطـة بهـا. فقد استمـرت دولـة القراخانييـن الأويغوريـة، ودولـة إديقـوت الأويغوريـة، وسـلطنة غزنـة وإمبراطوريـة السـلاجقة الكبـار فـى نفـس الفتـرة وجـود السامـانيين (٨٧٠ –١٠٠٠م)، ولعبـت أدوارا مهمـة فـى تاريـخ القـرون الوسـطى. ولاشـك أن التقـدم الثقافـى فـى تلـك الفتـرة بلـغ مكانـة مهمـة، وأضـاف إضافـات عظيمـة للثقافـة العالميـة.

لقـد نشـأ فـى عهـد القراخانييـن شـخصيات كبيـرة، خاصـة رجـال العلـم والفلاسـفة والمؤرخيـن والشـعراء وعلمـاء اللغـة.

فقـد ولـد الفيلسـوف الكبيـر أبـو نصـر الفارابـى (٨٧٣ - ٩٥٠م) المشـهور بإسـم أرسـطو الشـرق؛ فـى مدينـة فـاراب الواقعـة علـى سـاحل سـرداريا لعائلـة مـن الأويغـور القارلـوق. واسـمه بالكامـل هـو أبـو نصـر بـن محمـد بـن طرخـان بـن اوزلـوغ الفارابـى. ولاتنبـع شـهرته مـن مؤلفاتـه الكثيـرة، بـل تنبـع مـن تفوقـه فـى الفكـر الفلسـفي ولكونـه مفكـرا عظيمـا.

لقـد قـرأ الفارابـى أمهـات كتـب الفلاسـفة اليونانييـن، وكتـب عليهـا شـروحا. فقـد كتـب شـروحا لكتـاب «المنطـق» و«علـم المعـادن» و«علـم الطبيعـة» و«مـا وراء الطبيعـة» وهـى مـن مؤلفـات الفيلسـوف اليونانـى القديـم أرسـطو(٣٨٤ ـــ ٣٢٢ ق.م) فضـلا عـن ذلـك فقـد شـرح الكتـب المتعلقـة بالعلـوم الطبيعيـة والأخـلاق وعلـم النفـس لفلاسـفة يونانييـن آخريـن.

وبكتاباتــه العلميــة الكثيــرة لعــب دورا مهمــا فــى التعريــف جيــدا بكتــب العلمــاء اليونانييــن فــى أوروبــا والشــرق. وقــد قــام كاتبنــا بتأليــف كتــب تتعلــق بالفلســفة اليونانيــة مثــل «الجمــع بيــن رأى الحكيميــن» و «الجــدل بيــن أرســطو وجالينــوس».

لقــد كتــب الفارابــى أرســطو الشــرق العديــد مــن الرســائل التــى تتنــاول جوانــب مختلــف العلــوم التــى فــى زمانــه. وأكثــر مؤلفــات الفارابــى فــى الموســيقى. وفــى هــذا الصــدد يعــد كتابــه المســمى «القانــون» كتــاب أســاس فــى تطــور الموســيقى فــى الشــرق. لقــد كان الفارابــى موســيقيا بارعــا وشــاعرا مهمــا إلــى جانــب كونــه فيلســوفا كبيــرا، كان يجيــد عــدة لغــات. وتوفــى الفارابــى الــذى فــى بغــداد عــام ٩٥٠م عــن ٧٧ عامــا. لعبــت أفــكار الفارابــى وآراؤه دورا مهمــا فــى نضــج ابــن ســينا الــذى جــاء بعــده.

ولــد علــى بــن ســينا مؤلــف أهــم الكتــب فــى الطــب والفلســفة، فــى قريــة «أفشــانه» بالقــرب مــن بُخــارى عــام ٩٨٠م. إن ابــن ســينا الــذى لفــت الانتبــاه بذكائــه منــذ صغــره؛ ســنحت لــه فرصــة البحــث فــى الكتــب العلميــة والاســتفادة مــن «مكتبــة قصــر» نــوح بــن منصــور الحاكــم الســامانى وذلــك عندمــا كان يعالجــه. وبعــد أن حاصــر القراخانيــون بُخــارى للمــرة الثانيــة فــى عــام ٩٩٠م، وزوال الــدول الســامانية، ارتحــل ابــن ســينا مــن بُخــارى إلــى خــوارزم. وعندمــا حاصــر محمــود الغزنــوى خــوارزم عــام ١٠١٧م هــرب إلــى خُراســان. وبعــد أن ظــل مشــردا لفتــرة عمــل فــى الــوزارة فــى قصــر حاكــم همــدان. وعنــد وفاتــه عــام ١٠٣٧م تــرك كتــاب الطــب المشــهور «القانــون فــى الطــب» و كتــاب الشــفاء «الــذى يعــد أهــم كتــاب فــى تاريــخ فلســفة الشــرق.

هنــاك عالــم كبيــر آخرفــى عهــد القراخانييــن هــو أبــو ريحــان البيرونــى وهــو معاصــر لابــن ســينا، كمــا أنــه مــؤرخ وجغرافــى وفيلســوف (٩٧٣ ــــ ١٠٤٨م).

إن البيرونــى الــذى ولــد فــى قريــة «بيــرون» القريبــة مــن قيــات عاصمــة خــوارزم؛ اضطــر لمغــادرة بلــده خــوارزم فــى عــام ٩٩٥م، وجــاء إلــى خُراســان وبــدأ العمــل فــى قصــر «قابــوس بــن وشــمكير».

وألـف كتابـا عنوانـه «الآثـار الباقيـة» وهـو فـى السـابعة والعشـرين مـن عمـره. ويتضمـن هـذا الكتـاب معطيـات متعلقـة بموضوعـات الجغرافيـا وعلـم الفلـك وعلـم الرياضيـات والمعتقـدات الدينيـة والعـادات والتقاليـد لشـعوب دول مثـل مصـر واليهـود وخـوارزم والصغـد ورومـا والإغريـق. ولقـد تقلـد البيرونـى - الـذى جـاء إلـى خـوارزم عـام ١٠١٠م ـــ وظيفـة فـى قصـر «مؤمن خوارزمشـاه»، وتعـرف فـى تلـك الأثنـاء علـى ابـن سـينا. وقـد ألـف البيرونـى الـذى تميـز فـى فـروع العلـم المختلفـة، مـا يزيـد علـى ١٥٠ رسـالة. وانتقـل البيرونـى إلـى غزنـة بعـد فتـح خـوارزم علـى يـد السـلطان محمـود وكانـت وفاتـه فـى غزنـة عـام ١٠٤٨م.

إن أبـا القاسـم الفردوسـى ذا الأصـل الطاجيكى الفارسـى (٩٣٤ - ١٠٢٠م) هـو بـلا شـك أحـد أعظـم الشـعراء فـى عهـد القراخانييـن. وقـد أتم الفردوسـى شـاهنامته الشـهيرة فـى ثلاثيـن عامـا. فقـد جمـع السـلطان محمـود الغزنـوى فـى قصـره أشـهر الكتـاب وعلمـاء الفلـك والفلاسـفة والشـعراء فـى هـذه الفترة، وبالطبـع كان مـن بينهـم الفردوسـى وهـو أشـهرهم. وطلـب السـلطان محمـود فـى عهـد والـده «سـبكتكين» مـن الفردوسـى أن يكتـب «الشـاهنامه»، ووعـده بـأن يمنحـه دينـارا عـن كل بيـت يكتبـه. وهكـذا بـدأ الشـاعر كتابـة ملحمتـه الشـهيرة وهـو فـى سـن الخامسـة والخمسـين.

اسـتغرقت الشـاهنامة ٢٥ عامـا وجـاءت فـى ١٢٠ ألـف بيـت. لكـن لسـبب مـا لـم يـف السـلطان محمـود بوعـده، وقـدم لـه فقـط ٢٥ ألـف قطعـة فضيـة. تألـم الفردوسـى بشـكل كبيـر مـن تصـرف السـلطان، وكتـب شـعرا يهجـوه فيـه. وطبقـا لروايـة أن السـلطان محمـود عندمـا قـرأ هـذا الهجـاء إهتـز كمـا لـو طـار عقلـه وسـقط عـن عرشـه، وأمـر بالقبـض علـى الفردوسـى وإحضـاره أمامـه وإعدامـه فـى الحـال. ولكـن الشـاعر فـى تلـك الأثنـاء كان قـد وصـل منـذ فتـرة إلـى زاويـة بعيـدة فـى فـارس ونجـح فـى الاختفـاء. وفـى يـوم مـا قـرأ السـلطان محمـود «الشـاهنامه» مـن البدايـة للنهايـة، وعندمـا أدرك أنـه ظلـم الكاتـب أرسـل عـدة جمـال تحمـل الذهـب إلـى مدينـة طـوس بفـارس. وخـرج بنفسـه أيضـا خلفهـا، ولكـن عنـد وصولـه إلـى طـوس قابـل جنـازة

الفردوسى.

وفى الملحمة تحوز الأجزاء التى تتحدث عن الحروب التى خاضها جدنا الأعظم «آلب أرتونغا» مع «سلالة آقامنيد» أهمية خاصة.

وكان الشاعر الأويغورى يوسف خاص حاجب يعرف «الشاهنامة» عن ظهر قلب منذ طفولته. كما أنه فى «قوتادغو بيليك «يقول ما يلى عن آلب أرتونغا:

إذا انتبهت، فهؤلاء الأمراء الترك
هم الأحسن فى الدنيا

إن الشاهنامة لم تكن مهمته فقط بالعادات والتقاليد والدين والتاريخ القديم للطاجيك والفرس؛ بل تقدم كذلك معلومات مهمة تتعلق بالشعوب جيرانهم، كما أنها تحتل منزلة مهمة فيما يتعلق بما لا نعرفه عن تاريخ أجدادنا القديم. وإلى جانب السمات المشهورة للحياة الثقافية فى عهد القراخانيين أمثال الفارابى وابن سينا والبيرونى؛ فهناك إجماع على أن أبناءهم أمثال محمود الكاشْغَرى ويوسف خاص حاجب خرجوا من صميم الشعب الأويغورى. لأن ديوان لغات الترك وقوتادغو بيليك قد نقلت إلينا المنزلة الرفيعة التى وصلت إليها الثقافة فى عهد القراخانيين.

النهضة الأدبية

إن ظهور أرباب علم ذوى تعليم متميز وبارعين بين شعوب آسيا الوسطى فى عهد القراخانيين؛أمثال الفردوسى وابن سينا والبيرونى ومحمود الكاشْغَرى ويوسف خاص حاجب والفارابى، يشير إلى أن النهضة فى آسيا الوسطى بدأت قبل النهضة الأوربية بعدة قرون.

إن عصر النهضة الذى بدأ فى أوروبا من القرن ١٤م واستمر حتى القرن ١٦ هو حركة تحضر بدأت ضد نظام إقطاعى برجوازى. لقد

بدأت النهضة أولا فى إيطاليا ثم انتقلت بعد ذلك إلى الدول الأخرى. ولقد ازداد الإنتاج الصناعى فى هذه الفترة، وتطورت العلاقات الرأسمالية داخل نواة النظام الإقطاعى. إن رغبات ومصالح البرجوازية على الساحة الثقافية؛ دفعت رجال العلم البرجوازيين باتجاه ثقافة روما واليونان. وهكذا خلق رجال العلم هؤلاء ثقافة برجوازية جديدة فتحت الطريق لتطور الرأسمالية المعتمدة على الإرث الكلاسيكى. وأطلق على الحركة الثقافية التى ظهرت فى أوروبا ضد النظام الإقطاعى اسم «حركة نهضة الفن والأدب». وسمى مؤسسو هذا التيار أيضا بـ«رجال الفلسفة الإنسانية». إن الفلاسفة المدافعين عن احترام الإنسان وآراءه ومفاهيمه ومشاكله؛ جعلوا الإنسان فى بؤرة الاهتمام، وبمعنى آخر وضعوا تحرير الإنسان من الروابط الدينية واستبداد الكنيسة هدفا لهم. وهكذا ظهر العديد من الأشخاص المناضلين ضد النظام الإقطاعى فى إيطاليا أولا. وعلى سبيل المثال فإن أحد هؤلاء وهو «دانتى» فى كتابه المشهور «الكوميديا الإلهية» والمكون من ثلاثة أجزاء «الجنة، الصراط، الجحيم»، ينقد المسيحية بشكل قوى. وتحتل «الكوميديا الإلهية «مكانة مهمة فى الأدب العالمى.

يجب الإشارة إلى أن الكاتب «بوكاتشيوس» والشاعر «بترارك» أيضا من بين طلائع النهضة الأوربية وبينما كان «بترارك» يكتب بشكل يعبر عن أفكاره عموما؛ أبرز «بوكاتشيوس» زيف ونفاق رجال الدين والرهبان المسيحيين وذلك فى كتابه «عشرة أيام».

ويمكن أن نعد «ليوناردو دافنشى» و«ما يكل انجلو» و«رافاييل» و«كوبرنيك» و«برونو» و«جاليليو» من بين طلائع المؤمنين بالفلسفة الإنسانية لتيار النهضة الأوربية.

ومرة أخرى إذا سلمنا بأن بداية حركة النهضة فى أوروبا كانت فى القرن ١٤م؛ فيجب أن نوضح أن حركة النهضة فى آسيا الوسطى قد بدأت من قبل فى القرن ١١م فى عهد القراخانيين. وقد وجد فى «قوتادغو بيليك» ليوسف خاص حاجب أجمل انعكاس لأفكار تلك الفترة.

يوسف خاص حاجب

يُعد محمود الكاشْغَرى مؤلف «ديوان لغات الترك» ويوسف خاص حاجب مؤلف «قوتادغو بيليك» اللذان نقلا لنا ثقافة آسيا الوسطى فى العصور الوسطى؛ من ألمع سمات التطور الثقافى فى عهد القراخانيين.

لقد اعتنق أويغور بلاساغون الإسلام فى عهد الحاكم القراخانى «بايتاش» (موسى). وبعد هذا الحدث بـ ٥٨ عاما فى عام ٩٦٠م ولد طفل يدعى يوسف فى بلاساغون. واستعد والدا الطفل بكل إمكانياتهما لتربيته على أحسن ما يكون. وقد نذر يوسف نفسه لهذا الأمر منذ اللحظة التى استطاع فيها القراءة. فتعلم إلى جانب لغته الأصلية وهى الأويغورية تعلم أيضا العربية والفارسية وقرأ الشاهنامة من الفارسية، وكتب الفارابى وابن سينا من اللغة العربية. وقام بالبحث فى الكتب الأساسية للعقيدة الإسلامية، وكتب النصائح التى تركها الأجداد، والآراء المتعلقة بإدارة الدولة والقصص والأساطير، والأدب الشفهى. فضلا عن ذلك قرأ الكتب المتعلقة بتفسير الأحلام والطب والفلك والرياضيات والعقيدة البوذية والفلسفة. كما تعلم أيضا الرماية والقنص والصيد بالطير، وفضلا عن هذا انشغل أيضا بالألعاب كالشطرنج ولم يهملها. ولكن أكثر المجالات التى انكب عليها بكل اهتمام هى الأخلاق والفلسفة. لذلك فقد عكف على فهم ابن سينا وأفلاطون والفارابى. ولم يكتف يوسف بتعلم اللغة العربية والفارسية للبحث فى ثقافة الشرق، بل اهتم أيضا بالبحث فى كلاسيكيات الثقافة الغربية، وأولى اهتماما لثقافة العالم التركى.

بدا يوسف كتابة «قوتادغو بيليك» فى بلاساغون وأقام فى كاشْغَر العاصمة القراخانية عام ١٠٦٨م، حيث واصل عمله هناك وانتهى من كتابه هذا بعد عام أى فى ١٠٦٩م. وقدمه فى نفس العام إلى أبى الحسن «تاوغاج بوغراخان» نائب الحاكم القراخانى الشرقى. وبعد أن دقق بوغراخان فى الكتاب أثنى على علم يوسف وثقافة الواسعة، ولقبه بلقب «خاص حاجب» واتخذه مستشارا له. وكان عندئذ قد تجاوز الخمسين

من عمره. ولقد عبر عن شيخوخته شعرا فى قوتادغو بيليك.

من تجاوز عمره الأربعين،
يقف ويفارق الشباب طالبا العافية
لقد لمس سن الخمسين يدى
واستحالت خصلة شعرى السوداء بيضاء
الستين من العمر تنادينى، هيا تعال إلىّ
فإذا سمح الأجل، سأبلغه أنا أيضا
فإذا تجاوز عمر الرجل الستين
لم يعد للعمر مذاق، ويستحيل الصيف شتاء
جسمى كان كسهم
وقلبى كان كقوس،
ينبغى أن يكون القلب كسهم، والجسم مثل القوس.
منهك القوى بلا قيد، ولاأستطيع أن أخطو
أظلمت عيناى لااستطيع أن أنظر بوضوح

لكن ما السبب فى تقديم يوسف خاص حاجب كتابه ل«تاوغاج بوغراخان» وليس إلى «طُغْرُل قراخان» (إسمه الإسلامى: محمود خان) الحاكم القراخانى الشرقى؟

عند مقتل ابراهيم حاكم القراخانيين الشرقيين عام ١٠٥٨م تولى مكانه صديقه سليمان أرسلان خان أو بإسم آخر «طُغْرُل قراخان». أما أبو الحسن ابن سليمان فقد عين نائبا ل«طُغْرُل قراخان» وهو مايزال فى السادسة عشرة من عمره باسم تاوغاج بوغراخان. وعلى هذا فإن السبب الوحيد الذى دفعه إلى تقديم كتابه إلى النائب بدلا من الحاكم يمكن أن يكون مرجعه أن بوغراخان أكثر ثقافة وأكثر قربا لأهل العلم، كما أنه شخصية تتذوق الفن والأدب. إذ كان «طُغْرُل قراخان» غير مقبل على الفن والعلم، وغير مهتم بما يتعلق بالثقافة.

وعنـد وفـاة «طُغْـرُل قراخـان» عـام ١٠٧٤م تولـى ابنـه «طُغـرُل تكيـن» مكانـه مـدة شـهرين. أمـا أبـو الحسـن الـذى تولـى مكانـه فقـد اعتلـى هـذا المنصب العظيـم لمـدة ثلاثيـن عامـا (١٠٧٤ ــ ١١٠٣م). ولم يكن يسـتخدم «لقـب تاوغـاج بوغراخـان» بـل يسـتخدم اسـم السـلطان هـارون بوغـرا الثانـى. وفـى تلـك الأثنـاء ضعـف نظـر يوسـف خـاص حاجـب، وفـارق الحيـاة فـى كاشْـغَر عـام ١٠٨٠م فـى عهـد السـلطان هـارون بوغـرا ودفـن فـى قريـة «فاينـاب» بالقـرب مـن كاشْـغَر.

تحتـل العدالـة والسـعادة والحكمـة والـذكاء والصبـر والعقـل؛ والحكـم المتعلقـة بالمعرفـة مكانـا فـى قوتادغـو بيليـك. ويعبـر عنهـا بأشـكال رمزيـة بصفـة عامـة.

لقـد قـال يوسـف خـاص حاجـب فـى «قوتادغـو بيليـك» بضـرورة أن يكـون علـى رأس الدولـة أشـخاص ذوو عقـل وحكمـة وأخـلاق واسـتعداد، وأن يحكموا بالقوانيـن العادلـة، لكـن إلـى جانـب هـذا ينبغـى أيضـا أن تمتـك الدولـة قـوة السـيف أى القـوة العسـكرية ويعبـر عـن هـذا قائـلا:

اسحب السيف واقطع عنق العدو
وأقم حكمك على القانون

بالإضافـة إلـى ذلـك يذكـر أن الحاكـم يجـب أن يقـدر أصحـاب البراعـة، ويرفـع منزلتهـم ويعـرف قدرهـم وقيمتهـم، ولكـن إذا حـدث العكـس وحكـم الدولـة أربـاب السـوء فسـيؤدى هـذا إلـى انهيارهـا.

قدر كل ما هو حسن بما يكافئه
وخذ أهل الفساد واخرجهم من بلدك

كمـا تقـدم «قوتادغـو بيليـك» معلومـات قيمـة كثيـرة فيمـا يتعلـق تاريخ

الأويغور والقرون الوسطى وأفكارهم فيما يتعلق ببنية الدولة ولغاتهم ومؤسسات الدولة والجيش، وقوانينهم وآرائهم الفلسفية. والتيارات السياسية فى فترة القراخانيين وما وصل إليه الأويغور فى الفلك ومجالات العلم الأخرى، ويعد الكتاب فى حد ذاته تراثا ثقافيا غاية فى الأهمية.

لقد قال بطليموس إن «الأرض مستديرة ولهذا تدور الشمس والنجوم وكل الكواكب السيارة حول الأرض»، أما يوسف خاص حاجب فمع أنه يشاركه فى نفس الرأى، لكن ما قاله أكثر تطورا من وجهة النظر التقليدية:

القمر هو الذى يدور أسفلها
فإذا صار فى مواجهة الشمس يكون بدرا
كما أن القمر عند ولادته يكون فى غاية الصغر
ويكبر من يوم الى آخر ويبيض أعلاه
والثالث هو المريخ ويولد الغضب
وأينما يتجه يجف الاخضر
والرابع الشمس تجلب النور
ومن ينظر إليها تبهر عينه

وكان افلاطون الفيلسوف اليونانى القديم، يفكر بشكل عملى ولهذا كان ضد التيار الديمقراطى فى أثينا. وقد أثرت آراء أفلاطون الفلسفية فى الفلاسفة الذين جاءوا بعده. وفى مدح دكتاتوية الفلاسفة أفلاطون لما أسماه «صنف النبلاء» فى كتابه «المدينة الفاضلة» فإنه يقسمهم إلى ثلاث مجموعات، الفلاسفة والعسكر والعمال. وعنده أن الفلاسفة خلقوا لحكم الدولة، والعسكر لحماية الفلاسفة، والعمال لخدمة الفلاسفة والعسكر.

فى حين أن يوسف خاص حاجب، فى كتابه «قوتادغوبيليك» لم يكتف فقط بمعارضة آراء أفلاطون، إنما فى الوقت ذاته يطرح آراء ذات منطق وفطرة سليمة تناسب عصره. لأنه يبين فى كتابه أن من يتولون

إدارة الدولة ينبغى أن يكون عاقلا ومثقفا وصادقا على خلق وشجاعة، وأن ما يؤدى إلى انهيار الدولة هو أن يديرها رجال لاخلاق لهم، والجهلاء، والجبناء، والظالمون. كما سجل كاتبنا فى كتابه هذا بشكل خاص لزوم أن يعمل القائمون على إدارة الدولة بالقانون لتحقيق العدالة وأن الجميع؛ السلطان والعبد أمام القانون سواء، فلهم ذات الحقوق. ولهذا السبب فإن آراء يوسف خاص حاجب فى ذلك الوقت لم تكن متخلفة عن الأيديولوجيات المعاصرة، بل على العكس كانت فى مستوى أرقى منها.

سواء العقل أو المعرفة
سواء لين الطبع أو السخاء
فبالعلم صار الأمراء سادة الناس
وبالعقل نجاح الإدارة والأعمال
فليكن الامير عالما وعاقلا ويقظا
لايليق به البغي والعوز
فإذا فطر الله أحدا سيىء الطبع
فهذه الحياة تجلب عليه الأذى
فإذا ساء سلوك شعب أي أمير
تنقلب سعادته غما وتصعب أموره
لو أردت ان يمتد حكمك طويلا
فضع القوانين الصحيحة واحفظ شعبك
الشعب يزيد بالقانون وتنصلح الدنيا
والظلم يأتى على الشعب بالنقصان وتفسد الدنيا
ينبغى أن يكون صادق القول وحسِن السلوك
فيسعد فى حياته ويثق بشعبه

محمود الكاشْغَرى

هناك كتاب آخر مهم تم تأليفه فى عهد القراخانيين هو «ديوان

لغات الترك» لمؤلفه الكاشْغَرى عالم اللغة الكبير.

إن ديوان لغات الترك كتاب خالد يتضمن معلومات متعلقة بمجالات مختلفة مثل الفلك والطب والفن ووصف السلالات البشرية والجغرافيا والتاريخ والأدب وعلم اللغة. وقد رسم محمود الكاشْغَرى فى كتابه خريطة عامة وقدم معلومات تتعلق بالمناطق التى رآها وتجول فيها شخصيا والتى عاشت فيها القبائل التركية. وتعد هذه الخريطة أهم وأقدم خريطة لآسيا حتى اليوم لأنها تعرض التقسيم الهندسى للأماكن التى استقرت فيها القبائل واللغات، وتعرض كذلك الأنهار والبحيرات والجبال.

لقد كانت هناك عدة تصورات منذ القدم؛ فقد كان الهنود يعتقدون أن الأرض محدبة. والبعض منهم كان يكتب فى الكتب الدينية أن الأرض ترتكز على قرون ثور، وتحدث الزلازل عندما تنتقل من قرن ثور إلى آخر.

إن فيثاغورث الرياضى والفيلسوف اليونانى القديم هو أول شخص يطرح فكرة أن الأرض كروية، وبعده وقف أرسطو عند نفس الموضوع بالتفصيل.

مهما يكن فإنه بالرغم من ظهور الرأى القائل بأن الأرض كروية من قبل؛ فإن إيضاح محمود الكاشْغَرى ـــ فى القرن ١١م بعد اعتناق الإسلام فى آسيا الوسطى ـــ وخريطته بأن الأرض كروية كان من الخطوات الشجاعة للغاية فى هذه الفترة. وكان لعلماء الدين نفوذ قوى على مسئولى الدولة وقت قوة الإسلام فى عهد القراخانيين. لذلك كانت العلاقات بين مسئولى الدولة وعلماء الدين متوترة. مثال ذلك اتهام علماء الدين عام ١٠٩٥م لأحمد حاكم القراخانيين الغربيين بالخروج على الدين وحكموا بموته.

أما فى أوروبا فقد أثبت «كوبرنيك» عالم الفضاء الكبير فى القرن ١٦ (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس وحول محورها.

إن الكاشْغَرى كان من أبناء الملوك الذين يرجع نسبهم إلى القبائل القراخانية المهمة. ويثبت كتابه «ديوان لغات الترك» ذلك. فقد كان حفيد السلطان «يوسف قادير ابن هارون بوغرا» حفيد «ستوق بوغراخان». ولقد أوضحنا سابقا أن السلطان يوسف قادير له ثلاثة أبناء أسماؤهم كالتالى «بوغرا تكين» و«ياغان تكين» و «طُغْرُل قراخان». وفى تلك الحالة يمكن أن نقدم نسب محمود الكاشْغَرى على النحو التالى: محمود الكاشْغَرى بن حسين بن ياغان تكين بن السلطان يوسف قادير بن السلطان هارون بوغرا بن سليمان أرسلان خان بن ستوق بوغراخان.

ولد محمود الكاشْغَرى عام ١٠٣٠م فى قرية «آزاق» بمدينة «أوبال» التابعة لكاشْغَر العاصمة القراخانية. وتوفى عام ١٠٩٠م عن عمر يجاوز الستين عاما ودفن فى «أوبال».

ويذكر الكاشْغَرى فى ديوانه، وهو بصدد الحديث عنمدينة يسمى «مانيكنت» على طريق كاشْغَر - أوبال، وهو اسم أطلق على تلك المدينة بعد اعتناق الأويغور المانوية، وذلك إن بقايا تلك المدينة فى «طوقوزاق» حاليا، ومن المحتمل أن يكون اسم قرية (مانجن) حاليا هو تحريف لاسم «مانيكنت».

لقد أكمل محمود الكاشْغَرى تعليمه فى «المدرسة الساجية» وهى من أشهر مدارس تلك الفترة فى آسيا الوسطى. وكان يدرس فيها أشهر المدرسين الأويغور آنذاك. على سبيل المثال كان من هؤلاء المدرسين الإمام زاهد حسين خلف أوغلو والد عبد الجبار الكاشْغَرى المؤرخ الأويغورى الذى عاش فى القرن ١١م. ودرس محمود الكاشْغَرى اللغة العربية والفارسية، إلى جانب دراسة الفلك والجغرافيا والتاريخ والطب والمنطق والصرف والنحو وسائر فروع العلم الأخرى.

إضطر محمود الكاشْغَرى للهروب من كاشْغَر من جراء التأثير المباشر الذى خلفته الأحداث الدموية التى وقعت فى عام ١٠٥٧م؛ ولجأ إلى بغداد حيث أقام هناك. ففى عام ١٠٥٦م قام محمد بوغراخان (الجد الأكبر لمحمود الكاشْغَرى) بقتل شقيقه الأكبر سليمان أرسلان حاكم

القراخانيين الشرقيين، وفى غضون ذلك وبعد مرور ١٥ شهرا قررمحمد بوغراخان ترك العرش لابنه الصغير حسين (والد الكاشْغَرى) ولكن فى النهاية دست زوجة والد حسين آنذاك، السم لكل من محمد بوغراخان وحسين وأبناء الملك الآخرين وتولى ابنها ابراهيم العرش، كما ذكرنا تلك الوقائع من قبل. وهكذا وبسبب هذه الحوادث المفزعة، هرب الكاشْغَرى إلى ما وراء النهر أولا ثم إلى أراضى القراخانيين الغربيين، ومن هناك توجه إلى بغداد.

وحتى الأحداث الدموية التى وقعت عام ١٠٥٧م لم يستطع الكاشْغَرى التوجه إلى القرى والمدن التى عاشت فيها القبائل التركية لكى يكتب كتابه المسمى «ديوان لغات الترك» ولم يستطع كذلك جمع المادة التاريخية الكافية. وكان فى تلك الأثناء فى الثلاثين من عمره على أقصى تقدير. وإذا وضعنا فى الاعتبار أنه ولد عام ١٠٣٠م فينبغى أن يكون عمره عندما شرع فى جمع مادته فى ١٠٤٥م، خمسة عشر عاما.

وبالقطع لا يمكن تصور أن شابا فى الخامسة عشر من عمره يجمع المادة اللازمة لكتاب كهذا. فى الحقيقة ان الفترة التى أتم فيها دراسته فى المدرسة فى كاشْغَر تصادف عام ١٠٥٥م تقريبا ويجب أن يكون فى تلك الفترة قد بلغ سن ال ٢٥ ــــ ٢٦. لذلك يجب أن يكون قد جمع الأدوات اللازمة لكتابه بعد هروبه إلى بغداد (تقريبا بين أعوام ١٠٥٨ ــــ ١٠٧١م أى خلال ١٤ عام).

طبقا لبعض المعطيات التاريخية يجب القبول بتزامن توجه محمود الكاشْغَرى إلى بغداد مع «تركان خاتون» العروس المرسلة من كاشْغَر إلى السلطان السلجوقى «مَلِكْشاه». لأن «تركان خاتون» المرسلة كزوجة لمَلِكْشاه ليست أميرة قراخانية شرقية بل هى ابنة ابراهيم بوغرا تكين حاكم القراخانيين الغربيين وأخت شمس الملوك. لذلك فقد توجهت من سَمَرقَنْد وليس من كاشْغَر. والخلاصة أن الكاشْغَرى الذى خرج مبتعدا عن الأحداث الدموية التى وقعت عام ١٠٥٧م فى كاشْغَر، توجه أولا إلى آسيا الوسطى، ومن هناك لجأ إلى بغداد.

إن تقديم الكاشْغَرى كتابه «ديوان لغات الترك» إلى الخليفة المقتدر فى بغداد يظهر عدم رواج العلم عند السلاجقة بالإضافه إلى أنه علامة على تذوق العرب للغة التركية. وكما أوضحنا من قبل فقد دخل السلطان السلجوقى «طُغْرُل بك» بغداد عام ١٠٥٧م وجعل الخلافة العباسية تحت حمايته، واعتبارا من هذا التاريخ أصبح الخليفة بمثابة المؤسسة التى تمثل الدين فقط. لذلك اضطر العرب لتعلم اللغة التركية.

ولم يكن «ديوان لغات الترك» موجه لتعليم اللغة التركية للعرب وحدهم، لكنه فى نفس الوقت موسوعة الشعب التركى فى موضوعات السلالات البشرية والتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلك والفن والطب وفنون الحرب، كما أنه مصدر معلومات فى الأدب التركى وفى المجالات الأخرى.

ويقول الكاشْغَرى عن سبب تدوين كتابه

لما رأيت أن الله تعالى قد أطلع شمس الدولة فى برج الأتراك، وأدار بملكهم دائرات الأفلاك، فسماهم الترك، وولاهم الملك، وجعلهم ملوك العصر، ووضع فى يدهم أزمة أهل الدهر، فقيضهم على الخلق، وأيدهم على الحق، وأعز من انتمى إليهم، وسعى بين أيديهم، ونال منهم بُلغَةً فى المراد، وسلم من معرة أوباش العباد، حق لكل ذى لب التنسك بحالهم توقيا عن وقع نبالهم، ولا ذريعة لديهم أحسن من التراطن بلسانهم»[١٥٤]

وتشير هذه الكلمات إلى الدول التركية التى أسستها الشعوب التركية فى القرن الحادى عشر: «دولة قراخان الأويغورية»، و«سلطنة غزنة» التى أسست من جانب «القارلوق - الأوغوز»، و«الإمبراطورية السلجوقية الكبيرة» التى أسسها الأوغوز- السلاجقة. وكما أشير من قبل فقد هزم سلطان السلاجقة العظيم الإمبراطورية البيزنطية فى «ملاذكرد» عام١٠٧١م، كما انتزع «مَلِكْشاه» الأناضول من يد البيزنطيين عام ١٠٧٥م.

فى عام ١٠٧٥م الذى قدم فيه محمود الكاشْغَرى كتابه إلى الخليفة

المقتـدر، وبتعبيـر آخـر فـى القـرن الحـادى عشـر، كان الأتـراك أى الأويغـور والأوغـوز يحكمـون فـى الهنـد وأوروبـا الشـرقية والشـرق الأدنـى وآسـيا الوسـطى.

عـاد الكاشْـغَرى عـام ١٠٨٠م مـن بغـداد إلـى كاشْـغَر، وتوفـى هنـاك فـى عـام ١٠٩٠م بعـد أن تجـاوز عمـره السـتين وتـم دفنـه فـى مدينـة «أوبـال» القريبـة منهـا. وقـد تـم إصـلاح وتجديـد قبره الموجـود فـى «أوبال» والمسمى «قبـر الأسـتاذ المبـارك» فـى عـام ١٩٨٤م. واعتبـارا مـن هـذا التاريـخ صـار قبـره مـزارا لأهـل البلـد والأغـراب، ويقـرأون الفاتحـة علـى روحـه.

لقـد أوضحنـا فيمـا سـبق ان حركـة النهضـة التـى ظهـرت فـى آسـيا الوسـطى فـى عهـد القراخانييـن، بـدأت قبـل نهضـة الغـرب بعـدة قـرون. إذا والحالـة هـذه، فلـمَ تخلفـت ثقافـة آسـيا الوسـطى عـن ثقافـة الغـرب فيمـا بعـد؟ فـى حيـن كانـت الثقافـة الغربيـة فـى عهـد القراخانييـن متأخـرة عـن ثقافـة آسـيا. ولقـد عاشـت دول آسـيا الوسـطى والهنـد والصيـن نظامـا ثقافيـا متطـوراً إلـى حـد مـا، وهـو النظـا م الـذى كان موجـودا فـى آسـيا الصغـرى ومصـر فـى أفريقيـا. أمـا فيمـا بعـد وبخاصـة اعتبـارا مـن القـرن ١٦م دخلـت الثقافـة الغربيـة فـى فتـرة تطـور لافـت للانتبـاه، أمـا آسـيا الوسـطى فقـد تأخـرت عـن الغـرب فـى مجـال الفـن والثقافـة. وكان لذلـك عـدة أسـباب:

(١) - بالرغـم مـن البدايـة القويـة جـدا للنهضـة فـى آسـيا الوسـطى إلا أنـه كان هنـاك القليـل مـن الأشـخاص أمثـال يوسـف خـاص حاجـب مقارنـة بأوروبـا. لذلـك لـم يكـن ممكنـا توفيـر المقومـات الضروريـة لتنشـئة أنـاس أكفـاء، وكذلـك لـم ينضـج أهـل الفـن والأدب ورجـال العلـم والموسـوعيون الذيـن سـيقضون علـى الخرافـات التـى تمثـل ألـد أعـداء روح الإنسـان وفكـره. ففـى الوقـت الـذى كان فيـه رجـال العلـم فـى أوروبـا أمثـال «برونـو وكوبرنيـك وليونـاردو دافنشـى ومايـكل انجلـو وبوجاتشـو ودانتـى» يعملـون علـى تخليـص النـاس مـن أسـر القيـود الدينيـة؛ ظهـرت فـى آسـيا الوسـطى اعتبـارا مـن القراخانييـن خرافـات كثيـرة تخالـف جوهـر الإسـلام، وأصبحـت هـذه الخرافـات مرشـدا لهـم، وبسـبب رجـال الديـن الذيـن يوجهـون النـاس إلـى هـذا الاتجـاه

لـم يسـفر تيـار النهضـة علـى شـيئ وبـات عقيمـا. وتـدل علـى هـذا الخلافـات التـى بيـن رجـال الديـن والمسـئولين القراخانييـن.

(٢) - فـى بدايـة القـرن الثانـى عشـر (فـى عـام ١١٢٠م) احتـل جنكيـز خـان آسـيا الوسـطى، ونهـب المنطقـة كلهـا. وفـرض المغـول ضرائـب ثقيلـة علـى الأهالـى وجففـوا شـرايين حيـاة النـاس. ودمـروا مراكـز الثقافـة مثـل بُخـارى وسَـمَرقَنْد وأوركنـج. وقـد أعمـل المغول السـيف فـى الجميع باسـتثناء الفنانييـن فقـط. وأغرقـت «أوركنـج» عاصمـة خـوارزم. وهكـذا تحولـت قـرى آسـيا الوسـطى ومدنهـا المتقدمـة إلـى خرابـات وصحـارى. ورزحـت آسـيا الوسـط تحـت وطـأة سـيطرة المغـول. ولهـذا لا يمكـن الحديـث عـن التطـور الثقافـى فـى المنطقـة آنـذاك. وقـد تـم تجفيـف كل المصـادر للقضـاء بوحشـية علـى كل الطاقـات الثقافيـة.

(٣) - فقـد طريـق الحريـر التاريخـى أهميتـه اعتبـارا مـن القـرن الخامـس عشـر. وهـو ممـر رئيسـى لعـب دورا مهمـا جـدا فـى تقويـة حيويـة الاقتصـاد فـى آسـيا الوسـطى عبـر مئـات السـنين، كمـا لعـب ذات الـدور فـى تطـور الروابـط الثقافيـة والاقتصاديـة بيـن الشـرق والغـرب ـ

إن قيـام السـلطان العثمانـى محمـد الثانـى، بفتـح القسـطنطينية عاصمـة الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية(بيزنطة) وسـعيه للقضـاء علـى البيزنطييـن إنمـا كان لدعـم قوتـه. وبحلـول القـرن الخامـس عشـر كان الأتـراك قد اسـتقروا فـى آسـيا الوسـطى وبيـن النهريـن. وكانـت كل الطـرق البريـة المتجهـة مـن آسـيا الوسـطى وآسـيا الصغـرى والعـراق وفـارس إلـى أوروبـا؛ تحـت سـيطرتهم. لذلـك أصبـح تجـار أوروبـا محروميـن مـن إمكانيـة الوصـول بالطريـق البـرى مـن الغـرب للشـرق (إلـى الصيـن والهنـد). وممـا كانـوا يحصلـون عليـه أرباحـا مـن جـراء تجارتهـم مـع الشـرق. وكان مـن الطبيعـى أن يدفـع هـذا الوضـع تجـار أوربـا إلـى البحـث عـن طريـق بحـرى يـؤدى إلـى الهنـد.

كان القبطـان «كريسـوفر كولومبـوس» الإيطالـى هـو أول مكتشـف للطريـق البحـرى المتجـه إلـى الهنـد. ولهـذه الغايـة توجـه «كولومبـوس» مـن سـاحل أوروبـا عـام ١٤٩٢م؛ وصـل إلـى سـواحل «هايتـى» و«كوبـا» بعـد عـدة أشـهر.

وظـن أن تلـك الأماكـن غيـر بعيـدة عـن الهنـد. واكتشـف «كولومبـوس» قـارة أمريـكا بعدمـا جـال فـى البحـر ثـلاث مـرات. لكنـه ظـل يظـن حتـى وفاتـه أن القـارة التـى اكتشـفها هـى الهنـد. وفيمـا بعـد أطلـق الأوربيـون علـى هـذه القـارة اسـم أمريـكا إهـداء لإسـم قبطـان يدعـى «أمريكـو فيسبوتشـى». وبعـد «كولومبـو» نجـح البحـار «ماجـلان» وآخـرون فـى القيـام بجولـة حـول العالـم. لكـن بعـد نجـاح هـؤلاء لـم تعـد التجـارة بيـن الشـرق والغـرب عـن طريـق آسـيا الوسـطى بـل بطريـق البحـر، وهكـذا تأثـرت بشـدة العلاقـات الاقتصاديـة والثقافيـة بيـن الغـرب وآسـيا الوسـطى ووعانـت مـن مثالـب حقيقـة.

أسباب النهضة الثقافية فى عهد القراخانيين

كانـت مقومـات التقـدم الثقافـى إلـى جانـب التقـدم الاقتصـادى متوفـرة فـى عهـد القراخانييـن. ويمكـن توضيـح أسـباب ذلـك علـى النحـو التالـى:

(أ) لقـد لعبـت الدولـة القراخانيـة مـن القـرن العاشـر حتـى القـرن الثالـث عشـر دورا مهمـا فـى ارتقـاء المسـتوى الثقافـى والاقتصـادى سـواء فـى آسـيا الوسـطى أو فـى أقاليمهـا (وادى تاريـم ـــ مـا وراء النهـر) وفـى «يـدى صـو». وفـى تلـك الفتـرة كانـت مـدن كبيـرة مثـل كاشْـغَر وخوتـن وبالاسـاغون وتاشـكند وبُخـارى وسَـمَرقَنْد وأزكنـج وترمـذ ومـرو وخراسـان تعـد أماكـن إقامـة جميلـة. ولـم يكتـف القراخانيـون بالاقامـة فقـط فـى هـذه المـدن بـل عملـوا علـى توسـعتها فـى نفـس الوقـت. وكانـت كاشْـغَر عاصمـة القراخانييـن فـى تلـك الفتـرة تعـد فـى طليعـة التطـور الثقافـى فـى كل آسـيا الوسـطى. ولقـد اكتسـب رجـال العلـم والمهندسـون المعماريـون فـى كاشْـغَر وكـذا قوافلهـا شـهرة فـى كل العالـم.

وفـى عهـد القراخانييـن كانـت هنـاك شـبكة ميـاه تحـت الأرض فـى مدينـة «أوتـرار»، وفحـص «أطـلال اوتـرار» يثبـت ذلـك. وبظهـور شـبكة الميـاه تحـت الأرض فـى عهـد القراخانييـن، نسـتطيع القـول أنهـا كانـت تؤمـن بتلـك القنـوات وصـول الميـاه إلـى المنـازل وتغطيـة احتياجاتهـا منهـا.

فاتسـعت مسـاحة المـدن نظـرا لتقـدم الفـن والصناعـة وزيـادة سـكانها.

وكان تعداد سكان سَمَرقَنْد فى تلك الفترة يبلغ ٤٠٠ ألف نسمة. واقام القراخانيون العديد من القلاع الداخلية والمبانى الكبيرة. إن المناطق التى عاش الفنانون كانت داخل المدن وكانت سَمَرقَنْد من أكبر مدن آسيا الوسطى. لقد تم تجديد أسوار بُخارى فى عهد محمد أرسلان خان حاكم القراخانيين الغربيين، وتم توسيع ساحة المدينة وبناء العديد من المبانى الكبيرة (قلاع، مدارس). إن (المنارة الكبيرة[١٥٥]) التى أقامها محمد أرسلان خان فى بُخارى مازالت موجودة إلى الآن. وطبقا لمؤرخى العهد القراخانى، فإن تلك المنارة كانت أكبر بناء فى تلك الفترة. كما ارتقى الفن والصناعة فى تلك الفترة بشكل كبير.

(ب) لقد تطورت الصناعات اليدوية فى عهد القراخانيين. وظهرت صناعة الزجاج الملون لأول مرة فى تلك الفترة. كما تطورت صناعة الأوانى المزينة ومصنوعات النحاس والبرونز والخزف، كذلك الفنون مثل رسم صور الحيوانات والزهور على الورق وتزيين الأسقف برسوم الحيوانات. كما شيدت فى نفس الفترة القصور والمساجد والقباب والمدارس من الطوب اللبن والقرميد. وانتشرت المنسوجات الحريرية والقطيفة فى وادى تاريم (فى خوتن وكاشْغَر) والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتان فى سَمَرقَنْد وبُخارى.

(ج) وتقدم بشكل كبير استخراج المعادن فى عهد القراخانيين. وبالإنصهار يتحول الحديد المستخرج هناك إلى معدن، وتُصنع منه الأسلحة والأدوات الزراعية والآلات اليدوية. وكان فى فَرْغانة الكثير من الورش التى تصهر الحديد وتصنع منه الآلات اليدوية. كما كان لدى القراخانيين بخلاف طبقات المعادن مناطق لاستخراج النفط.

إن آبار النفط التى ظهرت فى آسيا الوسطى كانت تعرف منذزمن الخلفاء العباسيين (٧٥٠ - ٨٧٠م). وبدأت الاستفادة من النفط فى عهد القراخانيين فى فَرْغانة. وكان القراخانيون يستفيدون من النفط فى الحروب. فقد كانوا يطلقون على المدينة التى يحاصرونها كرات الطين المملوءة بالنفط بواسطة المنجنيق الخاص بذلك. وفيما بعد انتشرت

بين الرُّحَل في آسيا الوسطى تقنية السيطرة على المدن المحاصرة بإلقاء القنابل الحارقة. ومثال ذلك ان القبجاق استفادوا من تلك التقنية عند حصارهم للمدن الروسية في القرن الثاني عشر، حيث يرد ذكر ذلك في «أسطورة إيغور آلاى» [١٥٦].

لقد ظهرت مناجم الفضة في شمال غرب تاشكند (تعرف في التاريخ باسم إيلاق، وباسم اهنكران الآن). واستخدمت العملات المعدنية المسكوكة من الفضة المستخرجة من مناجم «اهنكران» على نطاق واسع في التجارة مع أوروبا الشرقية. فقد كان هناك احتياج زائد لهذه النقود في أوروبا الشرقية آنذاك، إذ كانوا لا يسكون العملات الفضية. لذلك كان الأوربيون الشرقيون يأخذون الدراهم الفضية من القراخانيين.

ولأن القراخانيين كانوا مغرمين بالمصنوعات الذهبية (الأحزمة الذهبية، التيجان الذهبية، العصى الذهبية) ويحبون سك العملات الذهبية؛ لذا كانوا يقومون بتشغيل معادن الذهب. يدل على ذلك قول الكاشْغَرى «إن برخان عبارة عن تل قريب من كاشْغَر في هذا التل توجد عروق الذهب» [١٥٧].

إن تلك المعلومات التي قدمناها تظهر تطور تشغيل المعادن والمناجم بشكل كبير في عهد القراخانيين.

(د)إن المسار الرئيس لطريق الحرير الدولي كان يمر من أراضي القراخانيين. وفي عهدهم كانت القوافل وهيئات السفارة التي تتوجه من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق تسلك طريق خوتن وكاشْغَر وبلاساغون وسَمَرقَنْد وبُخارى وترمذ. وكان طريق القوافل الدولي منذ القدم تحت سيطرة الهون والأتراك وأويغور أورخون. وفيما بعد لعب القراخانيون هذا الدور. وكان للقراخانيين علاقات تجارية في الشرق مع الصين ودولة كيدان، ومع الهند وأفغانستان وفارس في الجنوب الغربي (من فوق اراضي الغزنويين والسلاجقة)،

ومع غرب آسيا، وشمال إفريقيا ومع جنوب شرق أوروبا. كان

القراخانيـون يحملـون أحمالهـم علـى ظهـور الجيـاد والجمـال. وكانـوا يبيعـون للصيـن اللؤلـؤ والمـاس والعـاج والـدواء والبضائـع الأخـرى التـى يشـترونها مـن شـمال إفريقيـا والهنـد. وكانـت القوافـل الكبيـرة تتكـون مـن خمسـمائة فـرد فـى المتوسـط. ويمكنهـم القيـام بهـذا النـوع مـن القوافـل مـرة أو مرتيـن فـى العـام.

(هـ) إن العلاقـات التجاريـة للقراخانييـن مـع العديـد مـن الـدول لـم تهيئ الأرضيـة لتطـور الصناعـة لديهـم فحسـب، بـل سـهلت العلاقـات الثقافيـة فـى الوقـت نفسـه. ولمواجهـة احتياجـات السـوق الدوليـة تـم إنشـاء مصانـع نسـيج الكتـان والحريـر والقطـن فـى المـدن الكبيـرة مثـل سَـمَرقَنْد وبُخارى وكاشْـغَر وخوتـن. فضـلا عـن ذلـك كان يتـم إنتـاج الـورق فـى خوتـن وسَـمَرقَنْد، ويتـم تصديـر الـورق الـذى يتـم انتاجـه فـى سَـمَرقَنْد إلـى الخلافـة العربيـة والإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية ودول أوروبـا الأخـرى. وأقيمـت علاقـات تجاريـة كثيفـة مـع إمـارة إديقـوت الأويغوريـة و«الطانغـوت» ودولـة «كيـدان» والصيـن مـن دول الشـرق. واسـتمرت العلاقـات التجاريـة بيـن الصيـن والقراخانييـن مـن عـام ٩٦٠م حتـى عـام ١٢٧٩م. ويمكـن أن تنقسـم العلاقات التجاريـة بيـن امبراطوريـة «سـونغ» والقراخانييـن إلـى ثـلاث مراحـل:

الأولى:وهـى سـتة عشـر عامـا فـى الفتـرة مـن ١٠٠٩ ـــ ١٠٢٥م. وكان يحكـم القراخانييـن فـى تلـك الفتـرة كل مـن السـلطان أحمـد طوغـان ومنصـور أرسـلان خـان والسـلطان أحمـد طوغـان الثانـى. وكانـت أول قافلـة تجاريـة قراخانيـة فـى عـام ١٠٠٩م إلـى «كاى ـــ فنـغ» عاصمـة «سـونغ». من المحتمـل أن السـلطان يوسـف قاديـر الوالـى العـام لخوتـن قـد أرسـل تلـك القافلـة باسـم الحاكـم العظيـم السلطان أحمـد طوغـان. أمـا القافلـة التجاريـة الثانيـة التـى أرسـلها منصـور أرسـلان خـان لعاصمـة «سـونغ» فكانـت عـام ١٠٢٤م.

الفتـرة الثانيـة وتمتـد خمسـة وثلاثيـن عامـا تشـمل الأعـوام مـن ١٠٦٣ ـــ ١٠٩٧م وخـلال تلـك الفتـرة تـردد التجـار القراخانيـون علـى عاصمـة «سـونغ» أربعـا وعشـرين مـرة ذهابـا وإيابـا. وكان حـكام القراخانييـن فـى تلـك الفتـرة

هـم «طُغْـرُل خـان» و «طُغْـرُل تكيـن» والسـلطان «هـارون بوغـرا الثانـى».

فـى عـام ١٠٩٧م سـاق السـلطان هـارون بوغـرا الجيـوش لإخـراج «الطانغـوت» مـن «تـون ــ هوانـغ» و«تشـانغ ــ يـا وتشـو ــ تشـو»، إذ كانـوا يعرقلـون التجـارة بيـن السـونغ والقراخانييـن.

استـمرت الفتـرة الثالثـة بيـن أعـوام ١١٠٧ ــ ١١٢٤م لمـدة سـبعة عشـر عامـا. فـى تلـك الفتـرة وصلـت القوافـل التجاريـة القراخانيـة التـى أرسـلهاأحمد أرسـلان خـان إلـى إمبراطوريـة سـونغ أربـع مـرات. وكانـوا يبيعـون للصيـن النشـادر والمـاس والسـجاد والأطلـس واليشـم[١٥٨] والإبـل والجيـاد. وبالرغـم مـن تـردد القوافـل التجاريـة القراخانيـة علـى إمبراطوريـة سـونغ حوالـى ثلاثيـن مـرة؛ إلا أن «أهـل سـونغ» لـم يرسـلوا قافلـة واحـدة إلـى القراخانييـن بسـبب مخاطـر الطريـق.

(ف) كان عهـد القراخانييـن مـن بدايتـه إلـى نهايتـه عهـد اسـتقرار وطمأنينـة. نعـم فيـه أهـل آسـيا الوسـطى بالرفاهيـة والسـعادة علـى مـدى أربعـة قـرون هـي مـدة الدولـة القراخانيـة. ولـم تبدُ أبـدا أى سـلبية فـى الحياة الاقتصاديـة والثقافيـة فـى آسـيا الوسـطى أثنـاء انشـغال القراخانييـن بالقضـاء علـى السـامانيين فيمـا بيـن أعـوام ٩٩٢ ــ ١٠٠٠م. لقـد نظـم القراخانيـون حمـلات علـى خُراسـان ضـد الغزنوييـن بيـن أعـوام ١٠٠٦ ــ ١٠٠٨وفـى عام ١٠١٩. فلـم تقـع حـروب كبيـرة أخـرى فـى عهـد القراخانييـن سـوى تمـرد «علـي تكيـن» و«ياباقـول» بسـبب اختلافـات محـدودة فـى الـرأى. لذلـك يعـد العهـد القراخانـى عهـد اسـتقرار وتطـور ثقافـى.

(ج) كان معظـم الحـكام القراخانييـن رعـاة للتطـور الثقافـى. إذ دعمـوا المثقفيـن والفنانييـن والموهوبيـن، وكانـوا يسـتفيدون منهـم فـى خدمـة الدولـة. وكان مـن النـادر أن يأخـذوا أفـراد مـن العائـلات النبيلـة فـى زمـن الإقطاعـي لخدمـة الدولـة أو أن يحموهـم. لذلـك كان سـلاطين الأوغـوز ــ الأويغـور عندمـا يقيّمـون النـاس؛ يولونهـم وظائـف مهمـة فـى الدولـة دون النظـر إن كانـوا ينتسـبون إلـى شـعب غريـب أم لا، أو مـن عائلـة كريمـة أم لا. وإذا كان ينبغـى تقديـم عـدة أمثلـة علـى ذلـك نقـول:

لقد اكتشف «أبو الحسن تافغاج» نائب حاكم القراخانيين الشرقيين في عام ١٠٦٩ أو ١٠٧٠م موهبة يوسف خاص حاجب وعلمه فبوأه منصبا مهما، وأطلق عليه لقب «خاص حاجب» حيث أن يوسف لم يكن ينتسب لأى من القبائل الحاكمة مع كونه من عائلة أويغورية كريمة.

لم يكن «نظام المُلك» رئيس الوزراء فى عهد «مَلِكْشاه» و«آلب أرسلان» فى الإمبراطورية السلجوقية الكبيرة على مدى ٣٠ عاما، ذا أصل أوغوزى تركى بل كان ذا أصل فارسى. ومع ذلك فأثناء توليه رئاسة الوزراء أصبحت الدولة قوية حيث كانت تدار وفق الأسس والمبادئ التى تضمنها كتابه «سياستنامه».

فضلا عن ذلك تم بنفوذه وتأثيره افتتاح العديد من المدارس فى مدن مثل مرو، وهراة، والبصرة، وأصفهان، ونَيْسابور وبغداد.

وكان أبو الفضل البيهقى مؤلف تاريخ المسعودى؛ مسئولا عن الشئون الخارجية للسلطنة الغزنوية على مدى ٢٠ عاما. إن الأوغوز (من آلب تكين حتى سبكتكين) والقارلوق الأويغور (من سبكتكين حتى خسرو ملك سلطان غزنة) والسلطان محمود الغزنوى والسلطان مسعود؛ أظهروا الاحترام لوزير الشئون الخارجية ذى الأصل الفارسى هذا، واستفادوا من آرائه. لقد لعب البيهقى دورا مهما فى المباحثات التى عقدها السلطان مسعود مع السلطان يوسف قادر بالقرب من سَمَرقَنْد فى فترة العلاقات الثنائية مع القراخانيين، واشترك كذلك مع السلطان محمود الغزنوى فى حروبه ضد السلاجقة، وأيضا فى حملاته على الهند. وقد كتب «تاريخ المسعودى» من خلال الوثائق الرسمية التى بحوزته، وكونه كذلك شاهد عيان على الأحداث.

يوضح نظام عروضى السَمَرقَنْدى أحد مؤرخى القرن الثانى عشر كثيرا فى كتابه؛ احترام «خضر خان» حاكم القراخانيين للشعراء. وطبقا لما ذكره فإن «خضر خان» أهدى ذات مرة شاعرا أربعة صحاف بها ١٠٠٠ دينار. كما روى العروضى السَمَرقَنْدى أنه جرى تنظيم مسابقة فى

قصر «خضر خان» فى سَمَرقَنْد فى شهر يونيو عام ١٠٨٠م اشترك فيها الشعراء، وأثناء هذا الجمع سأل السلطان خضر بن ابراهيم شاعرا يدعى «أماق» قائلا ما رأيك فى أشعار عبد السعيد رشيدى؟ فأجاب «أماق» «إن أشعار رشيدى غاية فى الجمال والتوافق، ولكن ملحها قليل». وبعد فترة حضر إلى القصر ذلك الشاعر شخصيا. وبعد أن حيا رشيدى الحاكم وبينما يتخذ مجلسه استدعاه الحاكم إلى جانبه. وسأل شاعرا آخر كيف ترى أشعار رشيدى؟ فقال أيضا «جيدة ولكن بلا ملح». وبناء على ذلك عاد خضر بن ابراهيم إلى رشيدى وقال له «أعتقد أنه يجب عليك أن ترد بإجابة منظومة على إجابة هذا الشاعر» فحيا رشيدى الحاكم وعاد إلى مكانه وألقى شعرا.

تقول ان شعرى لا ملح فيه
وقولك حق، فشعرى يشبه السكر والعسل
فالسكروالعسل ليس فيهما ملح اصلا
أما شعرك أنت فيشبه العشب والفجل
ولا بد ان من يشبه شعرك بالملح جاهل اصلا

ولقد راقت إجابة رشيدى هذه لخضر خان، وقدم له ملء أربع صحاف ذهبا.

فى الواقع لم يكن إنعام «خضر خان» على رشيدى بتلك المنحة، لأنه مدحه بل كان ذلك تقديرا لموهبته.

لقد قام السلطان محمود الغزنوى الفاتح العظيم على مدار حياته بالعديد من الحملات على الهند، وسعى كثيرا لكى يعتنق أهل الهند الإسلام ولكن إلى جانب تلك الحروب الدامية لم يهمل جمع الشعراء والفلاسفة ورجال العلم ومؤرخى ذلك العصر فى قصره. وسعى كثيرا لتطوير العلم والأدب. وكان من بين المدعوين للقصر كذلك الشاعر

المشهور «العنصرى» و«المولود» فى بلخ. وتم منحه لقب «أمير الشعراء» ولقد اشترك الشاعر «أبو القاسم حسن ابن أحمد العنصرى» فى معظم حملات السلطان محمود وكتب عن فتوحاته.

كان أجدادنا دائما يرعون كل صاحب موهبة من الفلاسفة والمؤرخين والشعراء وعلماء الفلك ويستفيدون من علمهم قدر الإمكان. وكان لهم مساهمات قيمة فى اثراء الثقافة العالمية.

(هـ) لقد ساعد التقارب مع الدول الإسلامية الكبيرة إلى جانب العلاقات الثقافية والاقتصادية بين دول العالم الكبيرة والقراخانيين على تطور الثقافة الأويغورية.

كما ترجمت الكتب اليونانية القديمة إلى اللغة العربية فى عهد الحكم العربى، وهكذا تعرف شعوب آسيا الوسطى عن طريق اللغة العربية على الكيميائيين والفيزيائيين والجغرافيين والرياضيين والفلكيين والفلاسفة اليونانيين القدماء. ولقد تعرفعلماء الأويغور فى عهد القراخانيين على الثقافة الكلاسيكية الغربية من خلال معرفتهم اللغة العربية الفارسية، واستفادوا منها فى خلق الثقافة الإسلامية الأويغورية.

ويمكن القول أن هؤلاء قاموا بتأليف الكتب المهمة فى كل مجالات العلم.

(ى) إن الثقافة الأويغورية التى قامت على أسس الثقافة الأورخونية القديمة فى عهد القراخانيين؛ استوعبت عناصر كثيرة وأعطت ثقلا للثقافة الإسلامية. لقد استخدم أجدادنا منذ العصور القديمة (قبل الميلاد بعدة قرون حتى القرن ٩ الميلادى) الأبجدية (على الأرجح أبجدية ينى - ساى) وكتبوا تاريخهم، وقطعوا مسافات كبيرة فى مجال خلق الثقافة المادية والمعنوية. ومثال على ذلك الكتابات الحجرية فى وادى أورخون (القرن ٨ - ٩ الميلادى) والتى كتبت باللغة الأويغورية القديمة بأبجدية «ينى ـــ ساى أورخون». إن هذه الكتابات «صفحات ذهبية بالحروف الفضية» لتاريخ الأويغور.

الخلاصـة أن الثقافـة الأويغوريـة فـى عهـد القراخانييـن اكتسـبت ثراءهـا مـن العناصـر المعنويـة ولا شـيئ آخـر غيـر الثقافـة الأويغوريـة القديمـة.

● الأحداث التاريخية المهمة فى عهد القراخانيين

٨٥٠ وضـع كـول بيلكـه قراخـان ـــ المنتسـب إلـى قبيلـة «أويغـور ياغما» أسـاس الدولـة القراخانيـة.

٨٧٠ ولد الفارابى المشهور بمدينة فاراب فى «يدى صو».

٨٧٠ أصبحت بُخارى عاصمة الدولة السامانية.

٨٩٣ خسـر «أوغولشـاق ابـن كـول بيلكـه قراخـان» الحـرب التـى خاضهـا ضـد اسـماعيل السـامانى وانسـحب مـن بلاسـاغون إلـى كاشْـغَر.

٩٢٠ اعتنق ستوق بوغراخان الإسلام.

٩٤٢ ألحق ستوق بوغراخان بلاساغون بحدود القراخانيين.

٩٥٥ توفى ستوق بوغراخان ودفن فى «آتوش» بالقرب من كاشْغَر.

٩٦٠ اعتنـاق القارلـوق - الأويغـور الموجوديـن فـى «يـدى صـو» الإسـلام. وأعلـن «سـليمان بـن سـتوق بوغراخـان» فيمـا بيـن أعـوام ٩٦٠ ـــ ٩٧٠م أن الإسـلام ديـن الدولـة وعمـل علـى نشـره فـى دولـة القراخانييـن.

٩٧٠ أصبحت بُخارى عاصمة السامانيين.

٩٨٠ ولـد الطبيـب والفيلسـوف العظيـم ابـن سـينا فـى «أفشـان» بالقـرب مـن بُخـارى.

٩٩٢ فتـح السـلطان هـارون بوغـرا ــ نائـب على أرسـلان الحاكـم القراخانى ـــ بُخارى من السـامانيين.

٩٩٢ وفاة السلطان هارون بوغرا.

٩٩٦ بموجـب الاتفـاق المبـرم بيـن «سـبكتكين» سـلطان غزنـة وناصـر القراخانـى إن وادى سـرداريا للقراخانييـن ووادى آمـوـــ داريـا للغزنوييـن.

٩٩٨ وفـاة «علـي أرسـلان» الحاكـم القراخانـى. وتولـى مكانـه أحمـد

طوغــان.

٩٩٩ اســتولى ناصــر حاكــم إيليــك الغربيــة علــى بُخــارى بهجــوم شــنّه، وقضــى علــى وجــود الدولــة الســامانية.

١٠٠١ تزوج السلطان محمود بابنة ناصر حاكم إيليك خان.

١٠٠٠ اســتولى القراخانيــون علــى إمــارة خوتــن، وتــم تعييــن الســلطان يوســف قاديــر حاكمــا عليهــا.

١٠٠٦ اســتولى ناصــر علــى بلــخ وطــوس ونَيْســابور. وهاجــمَ القراخانيــون خُراســان فــى أعــوام ١٠٠٧ ــــ ١٠٠٨م ولكــن دون جــدوى.

١٠١٨ ولــد يوســف خــاص حاجــب فــى مدينــة بلاســاغون وانتصر الســلطان أحمــد طوغــان علــى جيــش كيــدان وقوامــه ١٠٠ ألــف شــخص فــى شــمال بلاساغون، وتوفى فى نفس العام.

١٠١٩ نظم السلطان يوسف قادير حملة على خُراسان.

١٠٢٤ تــم خلــع منصــور أرســلان خــان مــن العــرش وتولــى مكانــه الســلطان أحمــد طوغــان.

١٠٢٦ تــم عقــد مفاوضــات واتفاقيــات مهمــة بيــن كل مــن الســلطان محمــود الغزنــوى والســلطان يوســف قاديــر بالقــرب مــن سَــمَرقَنْد.

١٠٣١ ارسل السلطان محمود سفيرا إلى كاشْغَر العاصمة القراخانية.

١٠٣٢ وفــاة الســلطان يوســف قاديــر، وتولــى العــرش ابنه ســليمان أرســلان خان .

١٠٣٧ وفاة ابن سينا الطبيب والفيلسوف الكبير.

١٠٣٩ دفــع ابراهيــم بوغراتكيــن بيوســف حاكــم ايليــك الغربيــة إلى كاشْــغَر واخــذ مــا وراء النهــر تحــت حكمه.

١٠٤٠ انفصلت الدولة القراخانية إلى قراخان الغربية والشرقية.

١٠٤٠ هــزم الســلطان الســلجوقى «طُغْــرُل بــك» الســلطان الغزنوى مســعود

فـى الحـرب التـى اندلعـت فـى دانداقان.

١٠٥٥ دخل السلطان السلجوقى الكبير «طُغْرُل بك» إلى بغداد.

١٠٥٦ وفاة سليمان خان حاكم قراخان الشرقية.

١٠٥٧ قامـت زوجـة محمـد بوغراخـان الصغيـرة بـدس السم لـكل مـن محمـد بوغراخـان حاكـم قراخـان الشـرقية وبعـض القراخانييـن.

١٠٥٨ أصبـح «طُغْـرُل قراخـان» الشـقيق الأصغـر لسـليمان أرسـلان خان؛ حاكـم قراخان الشـرقية.

١٠٦٣ وفـاة «طُغْـرُل بـك» السـلطان السـلجوقى، وتولـى مكانـه آلـب أرسـلان ابـن جغـرل بـك شـقيقه.

١٠٦٨ وفاة ابراهيم بوغراتكين حاكم قراخان الغربية.

١٠٦٩ قـدم يوسـف خـاص حاجـب كتابـه المشـهور «قوتادغـو بيليـك» إلـى تابغـاج بوغراخـان نائـب حاكـم القراخانيـة الشـرقية.

١٠٧١ هـزم آلـب أرسـلان سـلطان السـلاجقة الجيـش البيزنطى ـــ وقوامه ٢٠٠ ألـف شـخص ــ فـى ملاذكـرد وأسـر رومانـوس ديوجين.

١٠٧٢ وفاة آلب أرسلان، وتولى مكانه ابنه الأكبر مَلِكْشاه.

١٠٧٤ قـدم محمـود الكاشْـغَرى كتابـه القيـم «ديـوان لغـات التـرك» إلـى المقتـدر خليفـة بغـداد. وفـاة حاكـم قراخـان الشـرقية «طُغْـرُل قراخـان.» وظل ابنـه الـذى تولـى مكانـه توغـرول تكيـن شـهرين فـى الحكـم.

١٠٧٥ أصبـح تابغـاج بوغراخـان نائـب حاكـم قراخـان الشـرقية حاكمـا عليهـا باسـم السـلطان هـارون بوغـرا الثانـى.

١٠٨٠ وفـاة يوسـف خـاص حاجـب فـى كاشْـغَر، ودفـن فـى أوبـال بالقـرب من كاشْـغَر

١٠٩٢ وفاة السلطان مَلِكْشاه.

١١٠٣ وفـاة السـلطان هـارون بوغـرا حاكـم قراخـان الشـرقية، وتولـى

مكانــه ابنــه أحمــد أرســلان خــان.

١١٠٥ أرسـل أحمـد أرسـلان خـان محمـود بـن عبـد الجليـل الكاشْـغَرى كسـفير إلـى المسـتظهر خليفـة بغـداد.

١١٣٥ أصبح القراخانيون الشرقيون تابعين للكيدانيين الشرقيين.

١١٣٧ انهـزم القراخانيـون الغربيـون مـن «يـه ــــ لـو ــــ تـا ــ شـي» حاكم كيدان الشــرقية.

١٢٠٩ أصبحــت سَــمَرقَنْد عاصمــة القراخانييــن الغربييــن تحــت حكـم الخوارزمشــاهيين.

١٢١١ وفاة محمود خان آخر حاكم قراخانى شرقى.

١٢١٢ قتل عثمان بوغراخان آخر حاكم قراخانى غربى.

١٢١٢ طويـت الدولـة القراخانيـة مـن التاريـخ نهائيـا علـى يـد كيـدان (القــره خطــاى).

القسم الثالث: سلطنة إديقوت الأويغورية

الفصل السابع عشر: تأسيس إمارة إديقوت الأويغورية

وهجرة الأويغور الشرقيين إلى الغرب

لقد أعدت هجرة الأويغور الشرقيين إلى الغرب الأرضية لتأسيس إمارة «إديقوت» الأويغورية، وبتعبير آخر فإن إمارة إديقوت الأويغورية بمثابة إمتداد لحكم «أويغور أورخون» .(كانت كلمة إدى بمعنى الله، أما كلمة إديقوت فكانت تقال للشخص الذى يحصل على السعادة من الله).

لقد أسس معظم أجداد الأويغور والشعوب القريبة على مر التاريخ دولاً كبيرة فى آسيا«: دولة تانريقوت الهون الكبيرة (٢٤٠ ق م - ٢١٦م، «إمبراطورية الآق هون» (٤٢٠ - ٥٦٥)م، «إمبراطورية الهون الأوربى»، «دولة الأويغور» (٤٨٧ - ٥٤٦م)،«إمبراطورية الكوك تورك» (٥٥١ - ٧٤٤م) «دولة الأويغور الأورخونية» (٦٤٦ - ٨٤٥م) «القراخانيين الأويغورية (٨٥٠ - ١١١٢م) «دولة إديقوت الأويغورية» (٨٥٠ ــــ ١٣٣٥م)، دولة السلاجقة الكبار (١٠٤٠ - ١١٥٧ م)، وسلطنة غزنة (٩٦٣ - ١١٨٧م). وقد لعبت هذه الدول الكبيرة أدواراً إستثنائية فى العصور القديمة والوسطى، لا سيما الثقافة التى ظهرت فى عهد القراخانيين، فقد أضافت، وأثرت الثروة الثقافية العالمية.

ولقد ساءت أحوال دولة الأويغور الأورخونية التى استمر وجودها مائتيٍ عام بين الدول التى أحصينا أسماءها سابقاً؛ قد ساءت أحوالها كثيراً بسبب الكوارث الطبيعية واحتلال العدو لها، والحروب الداخلي، والنزاع على العرش فى عام ٨٤٠م، ولذلك اضطر الأويغور لمغادرة عواصمهم التى تقع على نهر أورخون (منغوليا حالياً) ونقل مركزهم السياسى إلى سفوح جبال طانري.

امتدت حدود دولة الأويغور الأورخونية فى فترة من الحواف الشرقية لجبال «هنجان فى الشرق» حتى بحيرة «بايقال» فى الشمال و«ينساي» (إسمها بالأويغورية أناساي) وفى الغرب من شمال بلقاش حتى «وادى فَرْغانة»، وفى الجنوب من السفوح الجنوبية لجبل «جوغاي» حتى الهند فى الجنوب الغربى. والخلاصة أن مساحة تلك الدولة الكبيرة كانت خمسة أضعاف مساحة فرنسا حاليا. وكان لدى دولة أورخون الأويغورية فى الفترة ما بين (٦٤٦ــ ٧٤٠م) ٥٠ ألف فارس وبعد عام (٧٥٠م) ٢٢١ ألف فارس محارب، أو بتعبير آخر فقد امتلكت ٧١ فرقة عسكرية تتكون كل واحدة منها من ٢١ ألف محارب. وهكذا كانت فى نفس مستوى دولة قوية فى تلك الفترة مثل «إمارة التبت» و«إمبراطورية طانغ». ولكن مع الأسف أصاب الضعف تلك الدولة القوية عام ٨٣٠ م بشكل لافت للإنتباه بسبب الإضطرابات الداخلية.

وصلت سلطنة أويغور أورخون إلى نهايتها فى عام ٨٣٠م، وبدأ النزاع على العرش والإضطرابات الداخلية إعتباراً من «هازار تكين»، ووصلت تلك النزاعات إلى ذروتها فى عهد «هوتكين»، وقد نظم مؤيدو «هازار تكين» الذى تم قتله ــ مؤامرة للإطاحة بـ «هوتكين»، ولكن قرر «هوتكين» الذى علم بتلك المؤامرة ــ إبادة المتآمرين. بسبب الإجراءات التى إتخذها «هوتكين» تحرك «قره بولوق طرخان» ضد «هوتكين» عام ٨٣٩م بعد أن حصل على مساندة الجيش. وانتحر «هوتكين» الذى خسر الحرب التى دخلها مع «قره بولوق طرخان» وأنهى حياته.

وهكذا قام «قره بولوق طرخان» برفع «كيجيك تكين» إلى العرش.

وقد كافح «قوتلوق باغا» القائد العام الذى ينتسب إلى قبيلة آديز - كفاحا مستميتا لخلع «كيجيك تكين» - الذى ينتسب إلى نفس قبيلة«قره بولوق خان» وهى قبيلة «ياغلاقا» من العرش. وأدت الكوارث الطبيعية التى أطلت برأسها فى دولة الأويغور الأورخونية أثناء الحرب الداخلية أدت إلى تدمير الزرع والحرث وفتحت الطريق للمجاعة.

وكأن ذلك لم يكن كافياً إذ ظهرت الأوبئة مما أدى إلي مصرع العديد من الناس، كما هلك قسم كبير من قطعان الماشية بسبب الثلج المنهمر بكثافة، وأصبح الناس الذين فقدوا ماشيتهم فى وضع عسير.

وفى نفس الوقت تحرك القيرغيز المتمردون للإطاحة بسلطنة أويغور أورخون. وكان القيرغيز فى الأصل تابعين لسلطنة الأويغور منذ عام ٧٥٦م، وبدأ من يقيمون على شواطىء «ينساى» فى الغليان والثورة بشكل دائم بعد وفاة سلطان الأويغور«آى تنكريد قوت بولميش كوچ بيلكا».

واعتماداً على المعلومات الواردة فى فصل «القيرغيز» فى «حولية أسرة طانغ المبكرة»، وفصل «القيرغيز» فى «حولية أسرة طانغ المتأخرة»، يمكننا القول إن قيرغيز «ينيساى» أقارب للأويغور وكانوا يتحدثون لغة قريبة من اللغة الأويغورية.

وكانوا ذوى شعر أصفر وعيون زرقاء وبشرة بيضاء ويتضح فى بعض المصادر الأخرى أن تعداد قيرغيز «ينيساى» فى القرن الثامن يقترب من المليون، وأنهم يملكون جيش فرسان قوامه ١٠٠ ألف شخص.

كان زعيم القيرغيز «آپا» (وربما يكون هذا لقبه وليس اسمه) على علم بالمصائب التى أصابت سلطنة أويغور أورخون، فبدأ إستعدادات جادة لمهاجمة العاصمة «قارا بالغاسون». وقد شرح قائد جيش الأويغور «قولوق باغا» الذى ينتسب إلى قبيلة آديز، والذى حضر فى تلك الأيام مع مجموعة من الأويغور لطلب المساعدة من القيرغيز، الوضع الصعب

الـذى صـارت إليـه السـلطنة، وحرضهـم علـى احتـلال «قـارا بالغاسـون». ولـذا فقـد قـام «آپـا» وهـو الملـم بالوضـع الصعـب الـذى يعانيـه الأويغـور بالتوجـه مباشـرة إلى«قـارا بالغاسـون» عاصمـة سـلطنة الأويغـور بجيـش قوامـه ١٠٠ ألـف فـارس (حيـث كان بيـن هـؤلاء، بعـض الأويغـور الذيـن حضـروا مع«قولوق بـاغ»)، وخـرج فـى اتجـاه بالاساغون عاصمـة سـلطنة الأويغـور.

وقتـل القرغيـز «كيجيـك تكيـن» و«قـره بولـوك» كمـا أحرقـوا خيمـة السـلطان ونهبـوا كل خزائـن الدولـة. بسـبب الإضطرابـات الداخليـة لـم تسـتطع سـلطنة الأويغـور صاحبـة جيـش الفرسـان وقوامـه ٢٢١ ألـف شـخص منـع إحتـلال القيرغيـز. وفـى تلـك الأثنـاء إضطـر قسـم مـن أمـراء الأويغـور لمغـادرة «قـارا بالغاسـون» والهجـرة إلـى نواحـى جبـال «طانـري». ولكـن الخائـن «قولـوق باغـا» لـم يظفـر بشـيء.

ولهـذه الأسـباب التـى أوضحناهـا، هاجـر قسـم كبيـر مـن أويغـور الشـرق إلـى الغـرب. ويجـب أن نسـجل أن هجـرة أويغـور الشـرق إلـى الغـرب وليـس الـى ناحيـة أخـرى، كانـت لسـبب خـاص، فلقـد كانـت آسـيا الوسـطى وطـن الأويغـور لمئـات السـنين. فضـلا عـن أن العديـد مـن المناطـق الداخلية لآسـيا الوسطى(السـفوح الشـمالية والجنوبيـة لجبـال طانـرى، ووادى فَرْغانـة، ويـدى صـو) ؛ كانـت هـى المناطـق الباقيـة داخـل حـدود سـلطنة أويغـور أورخـون. لهـذا السـبب لجـأ أويغـور الشـرق إلـى أقربائهـم الأويغـور فـى الغـرب، وليـس إلـى «الشـيرواليين» (شـيه وى) والكيدانييـن الموجوديـن فـى الشـرق. وكان الشـيرواليون والكيدانيـون فـى عهـد سـلطنة «أويغـور أورخـون» يقيمـون فـى شـرق منغوليـا الحاليـة، وكانـوا فـى الأصـل تابعيـن لدولـة الأويغـور، ولأنهـم مـن أصـل «مغـول تونجـوز»، فليسـت لهـم صلـة قرابـة بالأويغـور. ولذلـك لـم يكـن أويغـور الشـرق يثقـون فـى الشـرواليين والكيدانييـن.

ولاسـيما أن الأحـداث التاليـة أيضـا سـتثبت أن ابتعـاد الأويغـور عـن هـذه الشـعوب كان تصرفـاً صائبـاً. فـى عـام ٨٤٠م لجـأ قسـم كبيـر مـن الأويغـور لأقربائهـم الغربييـن الموجوديـن فـى آسـيا الوسـطى، أمـا الباقـون توجهـوا للجنـوب تحـت قيـادة «أوجـه تكيـن» (لمـكان قريـب مـن الحـدود الشـمالية

للصين). وقد قام هؤلاء الـ ٣٠٠ ألف مهاجر للجنوب بإنتخاب «أوجه تكين» الأويغورى سلطاناً لهم، ولكن القدر نصب فخاً لهم حيث أن جيرانهم الذين لجأوا إليهم كأصدقاء تصرفوا معهم بعداء. كما دب النزاع بين الأويغور. أما الشيرواليون والكيدانيون فقد تحالفوا مع أعدائهم ضدهم. وبمقتل «أوجه» تكين أثناء الإضطرابات الداخلية تولى شقيقه «إنان تكين» مكانه. وعندما شعر برغبة الشيرواليين في تسليمه للأعداء إصطحب زوجته «قارلوــ بيكا» وإبنه «دوص تكين» وهرب سراً إلى الغرب مع عدد من رجاله المقربين.

پانتكين

جمع «پانتكين» الذى ينتسب إلى قبيلة آديز مواطنى قبيلته الملتفين حوله، وعشائر الأويغور الآخرين المقيمين بالقرب من قارا بالغاسون عاصمة دولة الأويغور وهاجر إلى الغرب عام ٨٤٠م.

وقد استمر «پانتكين» فى تقدمه وفى معيته ١٠٠ ألف شخص، متجاوزاً الممرات الجبلية. وكان معه ما يقرب من مليون رأس من الماشية، وفى خريف عام ٨٤١م، وصلوا إلى المنطقة الممتدة حتى «باركول» و«قومول» فى الشرق فى مكان «جيمسار» الحالية واضطروا للإقامة هناك. ولكن مشكلتهم الأصلية كانت توفير علف للماشية التى بحوزتهم تكفى طعامها حتى الربيع. فضلاً عن ذلك كان يحيق بهم خطر القيرغيز الذين نهبوا قارا بالغاسون ويتعقبون«پانتكين» . والواقع شن القيرغيز فى عام ٨٤٢م هجوما على الأويغور المهاجرين مع«پانتكين» إلى الغرب عند نواحى «باركول» و«جيميسار». ولكن اقترح بعض المستشارين فى إمبراطورية «طانغ» تقديم المساعدة لـ«پانتكين» ضد المحتلين القيرغيز، لكن«ليوتي - وو» عارض هذا الإقتراح. وهكذا إستفاد القيرغيز من هذه الفرصة واندفعوا صوب السفوح الشمالية لجبال طانري عام ٨٤٢م وإحتلوا مدن«أورومچى» و«جانباليق» و«مناص».

وفيما بعد توجهوا نحو الشرق واستولوا على باشباليق. وتملك

«پانتكيـن» القلـق مـن تطـور الأحـداث بهـذا الشـكل؛ فتقـدم فـى الإتجـاه الجنوبـى الغربـى مـرورا مـن مدينـة (قومـول) واسـتقر فـيٍ «كوچـا» و قـارا شـهر» وكان لهاتيـن المدينتيـن أهميـة إسـتراتيجية دائمـاً لأنهمـا محاطتـانٍ بجبال«طانـري». ولذلـك لـم يسـتطع القرغيـز شـن هجـوم واحـد عليهمـا. فضلا عـن ذلـك فـإن «قـارا شَـهَرْ» و«كوچـا» كان بهمـا مئـات الآلاف مـن البشـر، وتملـكان القـدرة علـى إطعـام ملاييـن الماشـية. وبـدأ «پانتكيـن» يسـتجمع شـتات نفسـه بعـد إسـتقراره فـى «كوچـا» و«قـارا شَـهَرْ» بفتـرة وجيـزة.

وانتشـر الأويغـور القادمـون مـن أنحـاء «أورخـون» فـى مناطـق «وادى إرسـين» (ننغشـيا حاليـاً) و «جانغـب» و«ووـــ وى» بقانصـو. لأن الأويغـور كانـوا يسـكنون قانصـو منـذ القـدم. وكان معظمهـم ينتسـبون إلـى قبيلـة «ياغلاقـار» فاتحـدوا مـع مواطنيهـم الموجوديـن فـى قانصـو؛ وأسسـوا إمـارة أويغـور قانصـو عـام ٧٨٠ م.

بعـد أن ظـل «پانتكيـن» فتـرة فى«كوچـار» و«قـارا شَـهَر»، اتخـذ لنفسـه لقـب «يابغـو» وكان هـذا تصرفـاً طبيعيـاً. لأن قسـما مـن أويغـور الشـرق الذيـن فـروا إلـى الجنـوب مـع «أوجـه تكيـن» عـام ٨٤٠م طلبـوا المسـاندة العسـكرية مـن أسـرة «طانـغ» الحاكمـة ليحولـوا دون القضـاء علـى السـلطنة وإزالتهـا تمامـاً، ولذلـك فقـد رأى الأويغـور أن لقـب سـلطان يليـقٍ بـه. علـى أيـة حـال فقـد سـمع «پانتكيـن» بإعـلان «أوجـه تكيـن» سـلطاناً، فإتخـذ لنفسـه لقـب «يابغـو» لأن «أوجـه تكيـن» كان مـن قبيلـة آديـز.

واسـتناداً للمعلومـات الـواردة فـى «قامـوس نامـه» وفـى «فصـل الأويغـور» فـى حوليـة «طانـغ ـــ شـو» فـإن الأويغـور الذيـن انتقلـوا للجنـوب عـام ٨٤٠م (شـمال إقليـم هوبـى بالصيـن) ؛ كانـوا قـد أعلنـوا «أوجـه تكيـن» سـلطانا بعـد عـام واحـد. وظـن «أوجـه تكيـن» الـذى أصابـه الضعـف وتحطمـت معنوياتـه وسـئم الحيـاة، ظـن أن«وو ـــ تسـونغ» إمبراطـور «طانـغ» سـوف يمـد يـد العـون للأويغـور الذيـن كانـوا فـى موقـف صعـب، لكـن الأحـداث لـم تتطـور أبـداً كمـا كان يعتقـد، واضطـر السـفير الـذى أرسـله ويدعـى «إيـل أوجاسـى» للعـودة مـن قصـر إمبراطـور «طانـغ» صفـر اليديـن، باختصـار قـد

رفضٍ الإمبراطور «وو ـــ تسونغ» طلب «أوجه تكين» للمساعدة. وهكذا، نظراً لإستمرار هجمات العدو، ظل الأويغور الذين يعانون من وضع صعب أكثر من المتوقع فى نقطة بين الوجود والعدم.

وكأن ذلك لم يكن كافياً إذ بدأ الخلاف يدب بين أمراء الأويغور. وقبل قسم من الأويغور التبعية لإمبراطورية «طانغ» تحت قيادة «هرمز تكين».

فى عام ٨٤٦ م قتل «أوجه تكين» على يد كبير مستشاريه ويدعى «مويانجور؛ فاعتلى العرش اخوه «إنان تكين». وبعد فترة أرسل الشيرواليون الذين خططوا للغدر ب«إنان تكين» وإلقاء القبض عليه وتسليمه لمسئولى«طانغ» أرسلوا أحد رجالهم إلى بكين. وكان «إنان تكين» الذى عرف بالأمر فى حينه ـــ قد هرب إلى الغرب كما أوضحنا آنفاً. وفى عام ٨٤٦م أعلن «پانتكين» نفسه سلطانا بعد أن أصبح جلياً أمامه المصير المجهول للسلطان إنان».

لقد اتخذ «پانتكين» مؤسس إمارة إيديقوت الأويغورية ـــ لقب حاكم (سلطان) عام ٨٤٨م، وأول شيء قام به بعد الجلوس على العرش هو طرد التبتيين وإخراجهم من طُرفان. ومن بعده قام الأويغور بقادة «بوغو تكين» بإقتلاع القيرغيز وإبعادهم عن السفوح الشمالية لجبال طاني (ماناس، أورومچى، بشباليق). وفى عام ٨٦٦ م قام «بوغو تكين» الذى أعمل السيف فى التبيتيين بجوار «تسين هاى» بقطع رأس «شان قون ـــ شو» قائد جيش التبت.

وبعد هذا الإنتصار طرد«بوغو تكين» التبتيين المقيمين فى قانصو (٧٧٠ ـــ ٨٦٦م) قرابة المائة عام، اعتمادا على دعم الحكومة الصينية. وهكذا فإن الأويغور المقيمين فى منطقة «هو ـــ سى» (حيث أنهم هاجروا إليها عام ٨٤٠م) ؛ نجحوا فى تأسيس دولة «قانصو» الأويغورية عام ٨٧٠م، وإعتباراً من هذا التاريخ ارتبط السفوح"پانتكين» معهم بعلاقات وثيقة. وفيما بعد إتخذ پانتكين «بشباليق» عاصمة لإمارة إديقوت الأويغورية عام ٨٦٦ م، وكان مسئولو إمارة «إديقوت» يمضون

شهور الصيف فى «بشباليق» وشهور الشتاء فى «إديقوت». وهكذا صارت «بشباليق» العاصمة الصيفية، و«إديقوت» العاصمة الشتوية.

كانت سلطنة إديقوت الأويغورية التى اتخذت العاصمة «بشباليق» - من ناحية ما - استمراراً لسلطنة أويغور أورخون. وكانت حدودها تمتد حتى جنوب آلطاي فى الشمال، وصحراء تكلما كان فى الجنوب وبوغور فى الغرب، وفى الشرق «تشيو- تشونج» الحالية. وكان الخانات الذين تولوا السلطنة من قبيلة آديز التى تنتسب إلى الفرع الشرقى للأويغور. وكانوا يحملون لقب «إديقوت» [١٥٩]، والذين يصبحون حكاماً؛ كانوا يضيفون كلمة «إديقوت» فى بداية أسمائهم مثل «إديقوت بارجوق آرت تكين»، و«إديقوت قوچقار تكين». وفى الأويغورية القديمة كانت كلمة «إديقوت» تعنى «السعادة، أو السعيد». وهناك أثر تاريخى يتعلق بإمارة إديقوت الأويغورية ظهر فى طرفان ومكتوب بالأبجدية الصينية، «دونت عليه عبارة دولة عظيمة، ومباركة، دولة الأويغور العظيمة».

وفى عام ٨٦٦ قُتِلَ«پانتكين» البطل القومى لشعب الأويغور، ومؤسس إمارة إديقوت الأويغورية على يد«بوغو تكين».

الفصل الثامن عشر: القراخانيون وسلطنة إديقوت الأويغورية

لاتتوفر لنا الوثائق التاريخية الكافية المتعلقة بالعلاقات بين سلطنة «إديقوت» الأويغورية و«القراخانيين». كما لا نجد فى المصادر الإسلامية معلومة جوهرية بخصوص سلطنة «إديقوت» الأويغورية. وعند الإطلاع على المصادر الصينية لا نجد كذلك أى معلومة تتعلق بالعلاقات بين سلطنة «إديقوت» الأويغورية والقراخانيين، لأن خانيتي «طانغوت» و«كيدان» كانتا تعوقان قيام علاقة بين سلطنة «إديقوت» و«القراخانيين» مع إمبراطورية«سونج».

سنحاول هنا إلقاء الضوء على العلاقات بين إمارة «إديقوت» الأويغورية والقراخانيين استناداً إلى الأساطير والروايات التى تتفق بشكل واضح مع الحقائق التاريخية التى فى مقبرة «الفتاح Alpatta» القريبة من طرفان ومع المعطيات المتاحة فى مؤلفات بعض الكتاب والمؤرخين المسلمين.

فى أقوى فترات القراخانيين، وفى الآونة التى أعلن فيها الإسلام ديناً رسمياً للدولة؛ لم يكن هناك أى نزاع بينهم وبين سلطنة «إديقوت» الأويغورية التى تدين بالبوذية. ولكن بعد أن إعتنق ستوق بوغراخان الإسلام عام ٩٢٠م بدأ النزاع يدب بين الأويغور البوذيين والمسلمين. وإعتباراً من ستوق بوغراخان وعلى مدى سنوات سلطنة السلطان يوسف قادير؛ دخل حكام القراخانيين فى سلسلة من المنازعات لتحويل الأويغور الشامانيين والبوذيين إلى الإسلام. فقد قاومت سلطنة «إديقوت» الأويغورية والبوذيون الذين فى كوچار وخوتن القراخانيين، وبمرور الوقت

وصـل الأمـر إلـى الصدام المسـلح.

ولهـذا لجـأ سـتوق بوغراخـان أيضـا إلـى السـلاح إلـى جانـب الدعـوة، ولكـن أويغـور كوچـار وخوتـن تمسـكوا بدينهـم القديـم.

وفى عـام ٩٤٠م تقريبـاً أرسـل سـتوق بوغراخـان جيشاً يتشـكل من جناحـين لإخضـاع سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة، واسـتطاع جيـش القراخانيين الـذى قـام أحـد جناحيـه بالهجـوم علـى الأويغـور مـن قـارا شَـهَرْ فـى الجنـوب والجنـاح الآخـر مـن إيلـى فـى الشـمال؛ اسـتطاع أن يهزمهـم وفـى النهايـة اضطـر الأويغـور البوذيـون للخضـوع للقراخانييـن.

بعـد مقتـل «پانتكيـن» عـام ٨٦٦م تولـى «بوغـو تكيـن» أمـر السـلطنة وظـل «بوغـو تكيـن» فـى الحكـم لمـدة أربـع سـنوات كاملـة، ولكننـا لا نملـك أى معلومـة تتعلـق بمـن أصبـح حاكمـاً مـن بعـده ولمـدة ٧٠ عامـا (٨٧١ ــــ ٩٤٠م). ولقـد أوضحنـا أن المصـادر الإسـلامية لـم تقـدم أى معلومـة مؤكـدة تتعلـق بالأويغـور البوذييـن. عـلاوة علـى ذلـك لـم نصـادف فـى مؤلفـات المؤرخيـن الصينييـن أى معلومـة خاصـة بسـلطنة إديقـوت الأويغوريـة بسـبب إنهيـار وسـقوط إمبراطوريـة «طانـغ» عـام ٩٠٧م وأعقبتهـا الحـروب الداخليـة التـى أطلـت برأسـها فـى الصيـن. وبعـد سـقوط أسـرة «طانـغ» الحاكمـة بدأت فـى الصيـن فتـرة «الأسـرات الخمـس» و «الإمـارات العشـر»، وأصبحـت الحيـاة غيـر مسـتقرة تمامـاً. وإسـتمرت هـذه الفتـرة مـن عـام ٩٠٧م حتـى تأسـيس إمبراطوريـة «سـونغ» فـى عـام ٩٦٠م. لذلـك انقطعـت العلاقـات بيـن الـدول الموجـودة فـى القسـم الغربـى مـع الصيـن فـى الفتـرة المذكـورة. وعلـى ضـوء هـذا الوضـع لـم يكـن مـن المنتظـر أن يسـجل المؤرخـون الصينيـون أي معلومـة بخصـوص سـلطنة إديقـوت الأويغـور.

إن المعلومـات التـى بحوزتنـا هـى معلومـات تتعلـق فقـط بحيـاة بعـض سـلاطين القراخانييـن تتضمـن معلومـات متعلقـة بالحـرب الدائـرة بيـن سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة والقراخانييـن فـى عـام ٩٤٠ م. كان«إردميـن إيـل طوتمـش آلـب أرسـلان قُتْلُـق كـول بيلكـه سـلطان» حاكمـاً لسـلطنة الأويغـور، أثنـاء النزاعـات التـى وقعـت بيـن القراخانييـن وخانيـة إديقـوت فـى

سنة ٩٤٠م. لأنه كان الحاكم على سلطنة اديقوت فى الفترة ٩٤٠ - ٩٤٨م.

ولعب عبد الفتاح بن أبو نصر السامانى (فى بعض المصادر «آلب أتا») الدور الأهم فى الحروب التى اندلعت مع الأويغور البوذيين كما أوضحنا قبل ذلك، ولذلك فقد لقبه ستوق بوغراخان بلقب «آلب تكين».

ويتضح أن الذى دفع القراخانيين إلى شن حملة للمرة الثانية ضد سلطنة ايديقوت الأويغورية فى عام ٨٧٠م أنها أعلنت العصيان واستطاعت أن تنال استقلالها. وعندما توفى ستوق بوغراخان عام ٩٥٦م تولى ابناه «بايطاش» (٩٥٦ ــ ٩٥٨) و«تونغا إيليك» (٩٥٨ ــ ٩٧٠م)

قام «تونغا إيليك» (سليمان بوغراخان) بإرسال «آلب تكين» عام ٩٧٠م لإخضاع سلطنة إديقوت الأويغورية كلها لسيطرته. وكان «أرسلان خان» حاكماً على سلطنة الأويغور فى تلك الفترة. وبعد أن استولى «آلب تكين» على قارا شَهَرْ قادما من كوچار وآقصو؛ نظم هجوماً على إديقوت العاصمة الشتوية للإمارة. فلما خسر «أرسلان خان» القتا انسحب إلى «بشباليق» التى تقع على السفح الشمالى لجبال طانري ــ وبعد أن أتم «آلب تكين» فتح طرفان وما حولها توجه إلى «بشباليق».

قابل «أرسلان خان» آلب تكين بجيش جرار فى الممر الممتد من «بشباليق» إلى «إديقوت» (فى منطقة «داوانچين» الحاليةً طبقاً لبعض المصادر). وإنتهت الحرب بهزيمة «آلب تكين» ومصرعه. وعاد «أرسلان خان» إلى قارا شَهَرْ وطرفان مرة أخرى بعد النصر الذى أحرزه. وقام أويغور طرفان ــ الذين اعتنقوا الإسلام فى القرن ١٤م ــ ببناء مقبرة لألب تكين فى آستانة (طرفان) حاليا، وأطلقوا عليها اسم مقبرة الفتاح (من المحتمل آلب آتا أو عبد الفتاح). وقد دمرت تلك المقبرة فى عام ١٩٦٧ م أثناء «الثورة الثقافية الصينية».

وبعد أن انتهت الحرب التى اندلعت عام ٩٧٠م بهزيمة القراخانيين؛ حافظت سلطنة «إديقوت» الأويغورية على استقلالها مدة طويلة. وقد

أوضحنـا فيمـا سـبق أن سـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة أرسـلت سـفيراً إلـى محمـود الغزنـوى فـى فبرايـر مـن عـام ١٠٢٧ م واقترحـت التحالـف ضـد القراخانييـن، ولكـن محمـود عـدل عـن هـذا التحالـف. وطبقـاً لبعـض المصـادر فـإن سـلطنة كيـدان الشـرقية (٩٠٧ ــ ١١٢٤م) أرسـلت سـفيرا إلـى غزنـة مـع سـفير سـلطنة «إديقـوت». وإسـتناداً لهـذه المعلومـة يمكـن القـول بـأن سـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة قـد اتفقـت مـع «الكيدانييـن» وعملـوا علـى ضـم الغزنوييـن إلـى صفوفهـم ضـد القراخانييـن.

هنـاك مصـادر تؤكـد علـى شـن الكيدانييـن الشـرقيين هجومـا ضـد القراخانييـن عـام ١٠١٨م. وعندمـا وصـل الكيدانيـون قريبـا مـن بالاسـاغون، كانـت صفـوف الجيـش أثنـاء هـذا الهجـوم تضـم جنـودا تابعيـن لسـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة.

الفصل التاسع عشر: سلطنة إديقوت الأويغورية وإمبراطورية سونغ

عندما تأسست سلطنة «إديقوت» الأويغورية عام ٨٥٠م، كانت أسرة «طانغ» الحاكمة قد ضعفت وأشرفت على السقوط. ومهما بدا في الظاهر من صداقة بين سلطنة «إديقوت الأويغورية» وأسرة «طانغ» الحاكمة؛ إلا أنه لم تكن بينهما علاقات فعالة جادة على ارض الواقع. إن فترة «الأسرات الخمس» التى بدأت بعد سقوط أسرة طانغ الحاكمة فى عام ٩٠٧ م كانت فى تاريخ الصين أسوأ من العهد المعروف بفترة «الحكومات الثلاث». وفضلا عن أسرة «ليانغ» (٩٠٧ ــ ٩٢٣م) ومؤخر «طانغ» (٩٢٣ - ٩٣٦م) ومؤخر تشين (٩٣٦ - ٩٤٦م) ومؤخر خان (٩٤٧ - ٩٥٠م) ومؤخر «جو» (٩٥١ - ٩٦٠م)، تم فى فترة «الأسرات الخمس» تأسيس عشر إمارات صغيرة فى الأقسام الجنوبية للدولة. وتحاربت» الإمارات العشر» و«الأسرات الخمس الحاكمة» مع بعضهما وسال الدم فى الدولة أنهاراً.

وانقطعت فعلياً العلاقات بين الصين وسلطنة إديقوت الأويغورية، حتى تأسيس إمبراطورية «سونغ» التى حققت وحدة الصين فى عام ٩٦٠م. لكن سلطنة أويغور«قانصو» كانت قد طورت علاقاتها مع هذه الدولة الى حد كبير. وكانت أكثر العلاقات بين أويغور قانصو والصينيين فى فترة «الأسرات الخمس» الحاكمة فى المجالات التجارية. لكن إمبراطورية «سونغ» كانت تسعى لتطوير العلاقات القوية مع سلطنة «إديقوت» الأويغورية. وبعد توحيد الصين توترت علاقات أسرة «سونغ» الحاكمة مع الكيدانيين الشرقيين. لأن الكيدانيين الشرقيين استفادوا من الاضطرابات الداخلية التى دبت فى فترة «الإمارات العشر» و«الأسرات

الخمس» فحكموا منطقة كبيرة مترامية ووسعوا حدودهم حتى بحر اليابان فى الشرق، و«قوبودو» فى الغرب (فى منغوليا حالياً) وحتى نهر«سلانغا» (أو سالنجه) و«أورخون» و«كارولن» فى الشمال، وأقاليم «ننغشيا» و«هو ـــ بى» و«شان ـــ سى» فى الصين.

لقد وحد «آيبوجى» مؤسس إمارة «كيدان» الشرقية (٩٠٧ ـ ٩٢٦م) القبائل الكيدانية فى بداية القرن العاشر، ثم سيطر على قبائل شروال (شى ـــ وى) و«نو ـــ تشين» (چورچيت أجداد المانشور).

لقد قوى «الكيدانيون» الشرقيون إلى حد ما فى عهد «يلوديغان». واستولى «يلوديغان» على ست عشرة مدينة فى شمال أقاليم «شان ـــ سى» و«هو ـــ بى» حالياً، وفى عام ٩٤٦ م توجه إلى الجنوب ودمر إمارة «تشين» واستولى على أراضيها.

وبالرغم من الحملة التى نظمها «تاي ـ تسونغ» إمبراطور «سونغ» فى عام ٩٧٨م بهدف إسترداد المدن الست عشرة التى استولى عليها «الكيدانيون» إلا أنه إنهزم من «الكيدانيين» فى الحرب التى دارت رحاها بالقرب من بكين الحالية. وإستطاع «سونغ» إنقاذ نفسه بصعوبة ولكنه نظم حملة جديدة عام ٩٨٢م وكأن شيئاً لم يكن، إلا أنه مُنَّى بهزيمة ثقيلة مرة أخرى. وبالضربتين اللتين أنزلهما الكيدانيون بإمبراطورية «سونغ» إستطاعوا إخضاعها لهم.

وفى تلك الأثناء ظهر عدو خطير جديد في شمال غرب إمبراطورية «سونغ» هم «الطانغوت». وقد أشار محمود الكاشْغَرى فى «ديوان لغات الترك» إلى قبائل «الطانغوت» بين عشرين قبيلة تركية فقال «إن الطانغوت قبيلة من الأتراك كانوا يعيشون فى مكان بالقرب من الصين، ومع ذلك لم تتضح حقيقة كونهم ينتسبون لأهل التبت أم للأتراك.

كان الطانغوت يحيون حياة الترحال فى منطقة «أوردوس» بمنغوليا الداخلية حالياً وجنوب «ننغيشيا» وشمال«شان ـــ سى» وشرق إقليم «قانصو»، ولم تكن العلاقات بينهم وبين الصين ودية أبداً حتى قيام

دولتهـم عـام١٠٣٢م. وإن يكـن فـإن إمبراطوريـة «سـونغ» منـذ قيـام دولتهـم لـم يكـن لديهـا النيـة للصبـر علـى توسـيع «الطانغـوت» لأراضيهـم مثـل الكيدانييـن، ولكنهـا لـم تكـن قويـة بالقـدر الكافـي لاعتراضهـم.

ولذلـك فقـد اتضحـت دبلوماسـية «إبـادة الأعـداء البربـر بيـد البربـر» وتطبيـق نظـام الدبلوماسـية الصينيـة التقليـدى. وبهـذا الهـدف بـدأ الإعـداد للحـرب ضـد «الطانغـوت» و«الكيدانييـن»، وعقـد اتفـاق مـع سـلطنة «إديقوت» الأويغوريـة التـى ليـس لهـا حـدود مباشـرة والبعيـدة جـداً.

وطبقـاً للوثائـق التاريخيـة يمكـن القـول بأن حكام إمبراطورية «سونغ» لـم يجتهـدوا ويتعاونـوا كمـا يجـب مـع إمـارة «أويغـور قانصـو» والمسـئولين التبتييـن فـى كل مـن «كوكنـور» و«قانصـو» لأنـه لـم تتـح لهـم فرصـة لهـذا. ولقـد عرضـت سـلطنة أويغـور «قانصـو» والمسـئولون التبتيـون علـى أسـرة «سـونغ» الحاكمـة التعـاون ضـد «الطانغـوت» مـرات عديـدة، ولكـن فـى كل مـرة كانـوا يتلقـون جوابـاً بالرفـض. علـى أى حـال كان حـكام «سـونغ» منحازيـن لتطبيـق مبـدأ الصيـن الكلاسـيكى «هاجـم القريبيـن، وكـن صديقـاً للجيـران البعيديـن». ربمـا كانـوا يفكـرون فـى الإسـتفادة مـن قـوة الفرسـان لـدى سـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة، لكـن وحـدات الفرسـان لديهـم كانـت أقـل عـدداً وأقـل اسـتعدادا للحـرب مقارنـة بقـوات فرسـان سـلطنة أويغـور الأورخونيـة.

مـن جهـة أخـرى ليـس صحيحـاً مـا سـجله «وانغ ـــ ين ـــ تـا» فـى كتابه الـذى يحمـل عنـوان «مذكـرات السـفير المرسـل إلـى إديقـوت» مسـتنداً إلـى أن حدودهـا فـى الجنـوب الغربـى حتـى الهنـد، وفـى الغـرب فـارس والعـرب، وفـى الجنـوب خوتـن. ولـو وضـع نصـب عينيـه الوضـع التاريخـى لفـارس وآسـيا الوسـطى فـى عـام ٩٨٠م كان سـيفهم بشـكل قاطـع أن معلومـات «يـن ـــ تـا» فيمـا يتعلـق بحـدود إمـارة إديقـوت الأويغوريـة غيـر صحيحـة.

فـى عـام ٩٨٠م كان القراخانيـون يسـيطرون علـى المنطقـة الممتـدة حتـى «يـدى صـو» فـى الغـرب، و«بوغـور» فـى الشـرق؛ أمـا «السـامانيون»

فقد كانوا يحكمون المنطقة المعروفة بخراسان فى فارس، وقسم من ما وراء النهر فى آسيا الوسطى. فضلاً عن ذلك كانت الخلافة العباسية تحكم القسم الغربى من فارس وسوريا والعراق. وفى ظل هذا الوضع ظلت الأراضى الواقعة شمال جبال طانري (من قومول حتى ماناس) وكذلك القسم الجنوبى لجبال طانري، أى وادى طرفان والجزء الممتد حتى «داشاطا ـــ خسى» بقانصو جنوب شرق، والأقسام الجنوبية من لوبنور فى الجنوب الغربى من سلطنة إديقوت الأويغورية. كما انه لم يكن ممكناً فى الواقع ان تساهم سلطنة إديقوت الأويغورية فى التحركات العسكرية لإمبراطورية سونغ.

نظم الكيدانيون هجوماً على إمبراطورية «سونغ» عام ١٠٠٤م واقتربوا من العاصمة «كاى ـــ فنغ». وبناءً على ذلك أوصى مستشارو الإمبراطور بنقل العاصمة إلى مدينة «نان - جن» أو إقليم «سي ـــ تشوان». والنتيجة أن حاكم كيدان «يه ـــ لو لونغ ـــ شو» (الذى كان قائداً للجيش فى نفس الوقت) أجبر أسرة «سونغ» الحاكمة على توقيع معاهدة «شان - جو»*.

وبموجبها تقدم إمبراطورية «سونغ» للكيدانيين كل عام ١٠٠ ألف مثقال فضة و٢٠٠ ألف لفة حرير، ولكن الكيدانيين لم يقبلوا العرض وأعادوا شن الهجمات مرة أخرى. وهكذا قبلت حكومة سونغ تقديم ٣٠٠ ألف لفة حرير و٢٠٠ ألف مثقال فضة. مما جعل إمبراطورية «سونغ» فى موقف صعب. وعلى مر ١٢٠ عاما دفعت أسرة «سونغ» الشمالية (٩٦٠ ـــ ١١٢٦م) ما يقرب من ٢٤ مليون مثقال فضة و٦ مليون لفة حرير. فضلاً عن ذلك إضطرت أسرة «سونغ» الشمالية لدفع ٧٢ ألف مثقال فضة و١٥٣ ألف لفة حرير و١٥ ألف كيلوغرام من الشاى للطانغوت إعتباراً من عام ١٠٤٤. لأن حاكم الطانغوت «ليانغ ـــ هاو» (١٠٣٢ ـــ ١٠٤٨م) شن ثلاث هجمات على أراضى «سونغ» عام ١٠٤٠م، وإضطرهم لدفع الضريبة.

ولو قدمت إمارة «إديقوت» الأويغورية المساعدة بدءًا من عام ٩٨٣ م

لما ظلت إمبراطورية سونغ خاضعة للطانغوت وكيدان على وجه القطع واليقين.

إذن فقد كانت العلاقات بين إمبراطورية «سونغ» وإمارة «إديقوت» الأويغورية مهمة للغاية. وفى عام ٩٨١م أرسل «تاى ـــ تسونغ» إمبراطور «سونغ» هيئة سفارة بقيادة المؤرخ «وانغ ـــ سين ـــ تا» إلى قصر إمارة إديقوت الأويغورية، وكانت الهيئة تتكون من مساعد السفير «باى شونغ دو» وبضع مئات من الأشخاص.

وقد خرج «وانغ ين - دى» فى مايو من عام ٩٨١م ووصل قصر حاكم «إديقوت» الأويغورية فى شهر أبريل من العام التالى.

وبعد أن أتمت هيئة السفارة اتصالاتها هنا؛ شقت طريقها عائدة إلى «كاى ـــ فنغ» فى خريف عام ٩٨٣م. وبعد أن وصل «وانغ ين ـ تا» إلى العاصمة قدم تقريراً مفصلاً إلى إمبراطور سونغ بخصوص إمارة إديقوت الأوريغورية. وفيما بعد أعد السفير مذكراته المتعلق برحلته هذه فى شكل كتاب وقدمه إلى «تاى ـ تسونغ».

وفى الكتاب معلومات مفصلة عن أسلوب حياة الأويغور وعاداتهم وتقاليدهم؛ وحكومة الدولة وآرائهم الدنيوية، والبيئة الطبيعية لطرفان وكيفية استقبال أرسلان خان على هيئة السفارة والإقتصاد الأويغورى. وإذا كان الكتاب غير متوفر حتى يومنا هذا؛ إلا أن بعض التفاصيل المأخوذة منه انعكست على مؤلفات مؤرخى فترة إمبراطورية المغول وأسرة «سونغ» الحاكمة. مثال ذلك الأجزاء التى تحمل عناوين «تاريخ أسرة سونغ» و«المصادر الأدبية» و«أخبار تتعلق بوانغ ين - تا» و«معلومات خاصة بالإديقوت» وكلها مستقاة من«مذكرات السفير المرسل للإديقوت».

لقد خرج «وانغ ين - دى» عام ٩٨١م من منطقة «چين ـ شن» فى إقليم «شان ـــ سى» الحالى؛ ومرّ من الأراضى الواقعة فى منغوليا الداخلية ومنغوليا «التتار الطوقوز» المتداولة فى كتابات أورخون فى القرن الثامن متقدماً فى اتجاه الشمال الغربى، وامتد طريقه عدة آلاف

مـن الأميـالٍ لكـى يتجنـب هجمـات الكيدانييـن. إن «وانـغ يـن - دى» الـذى مـر أولاً بـ«خاتـون باليـق» عاصمـة الأويغـور القديمـة الواقعـة فـى وادىٍ الـذى يرويـه نهـر (قـره دريـا) إرسـين الموجـود فـى إقليـم «ننغيشـيا» حاليـا؛ وصـل فيمـا بعـد إلـى «قومـول» متقدمـاً فـى الإتجـاه الجنوبـى الغربـى، وقـد أرسـل رئيـس وزراء الإديقـوت - الـذى علـم بوصولـه إلـى هنـا - «أبـا أوجـه» (سـيد الرجـال) لاسـتقبال السـفير، وهكـذا إسـتقبل «أبـا أوجـه» هيئـة سـفارة «سـونغ» بعـد طريـق إسـتمر عـدة أيـام.

عندمـا وصـل «وانـغ يـن - دى» إلـى مدينـة «إديقـوت»؛ كان «أرسـلان خـان» حاكـم إديقـوت الأويغوريـة فـى العاصمـة بشـباليق. وكان «أرسـلان خـان» - الـذى يمضـى شـهور الصيـف فـى «بشـباليق» يتـرك شـئون الدولـة لعمـه المقيـم فـى إديقـوت ولقبـه «أبـا أوجـه». وقـام أرسـلان خـان فيمـا بعـد بدعـوة سـفير «سـونغ» إلـى بشـباليق. وبعـد وصـول لجنـة السـفارة إلـى «بشـباليق» اسـتقبلهم أرسـلان خـان فـى اليـوم السـابع. وقد اسـتقبل أرسـلان خـان السـفير بوجـه ضاحـك وعـزة وفخـار. وكتـب» وانـغ يـن - تـا» عـن هـذا الإسـتقبال الرسـمى «كان أرسـلان خـان والخاتـون والموكـب يـرددون الدعـاء وهـم متجهـون بوجوههـم ناحيـة الشـرق» (وهـذا كان عقيدتهـم حسـب الديانـة الشـامانية). ثـم قبـل (حاكـم الإديقـوت وموكبـه) الهدايـا القيمـة التـى أحضرتهـا لجنـة السـفارة. وبينمـا كان الموسـيقيون يعزفـون لحـن المراسـم؛ التفـت أرسـلان خـان للموسـيقيين وأومـأ برأسـه لإظهـار تقديـره لهـم. ثـم قـدم أبنـاء أرسـلان خـان والمقربـون الهدايـا لسـفير «سـونغ». ثـم أقيـم حفـل عشـاء بعـد مراسـم الاسـتقبال. وإنتهـى الحفـل بحفلـة موسـيقية. وفـى اليـوم التالـى نظمـت جولـة بالسـفينة فـى البحيـرة، وزيـارة المعبـد البـوذى.

لقـد اصطحـب «أرسـلان خـان» بنفسـه سـفير «سـونغ» أثنـاء مراسـم الإسـتقبال فـى نزهـة بالسـفينة وجولـة بالمعبـد البـوذى. وبعـد الإنتهـاء مـن المحادثـات مـع السـفير حـول العلاقـات بيـن الدولتيـن عـادت هيئـة السـفارة مـن «بشـباليق» إلـى «إديقـوت».

يقـول «وانـغ يـن - دى» فـى مذكراتـه مـا يلـى: «إن النـاس فـى إمـارة

إديقـوت الأويغوريـة صنفـان: السـادة (الحـكام) وسـواد الشـعب (مواطنـون عاديـون). إن الشـعب يعشـق الموسـيقى، ويعـزف آلات موسـيقية مثـل ال berbab و ال topuz ذات ال٢٥ فتحـة، ويبيـع للـدول الأجنبيـة اللبـاد الأبيـض وأدوات الزينـة، ويحـب الرجـال التجـول فـوق الجيـاد باسـتمرار. وعندمـا يتوجهـون للحـرب يصطحبـون معهـم أدواتهـم الموسـيقية. ولا يوجـد فقـراء فـى البلـد. والنـاس بصفـة عامـة يتمتعـون بأعمـار طويلـة فـلا يموتون فى سـن الشـباب. والطـب متقـدم لأقصـى درجـة. وعندمـا كنـا فـى مدينة إديقـوت كان الحاكـم فـى المرعـى فـى بشـباليق. وقطعـان الجيـاد فـى هـذا المـكان كثيـرة جـدا. وهنـاك قطعـان خاصـة بالحاكـم وزوجتـه وأبنائـه. والقطعـان ترعـى فـى مجموعـات منفصلـة طبقـاً لألوانهـا، ولا يمكـن إحصـاء عددهـا. وهنـاك العديـد مـن الموسـيقيين فـى قصـر الحاكـم يعزفـون الموسـيقى أثنـاء مراسـم الإسـتقبال والمـآدب وأثنـاء المناقشـات. كمـا يوجـد العديـد مـن البسـاتين والمبانـى الكبيـرة والمتنزهـات. والنـاس مرفهـون والـكل فـى بسـتانه وحديقته منشـغل بعملـه وقوتـه. إنهـم أنـاس مجتهـدون وماهـرون فـى العمـل وخبـراء فـى الخيـول. ويبيعـون الخيـول الجيـدة مقابـل كميـات كبيـرة مـن الحريـر، والسـيئ منهـا يصـل إلـى ثـلاث لفـات مـن الحريـر. وأغنياؤهـم يأكلـون اللحـم، وفقراؤهـم أيضـا متوفـرة لديهـم. وتـدار الدولـة مـن قبـل الخانـات. وعندمـا كنـا هنـاك كان «أرسـلان خـان» حاكمـاً لسـلطنة إديقـوت. والجميـع ينجحـون فـى أداء وظائفهـم كمـا يجـب. ويقـرر الحاكـم أمـور الدولـة بمفـرده. أمـا الأمـور الصغيـرة الأخـرى فيبـت فيهـا الأمـراء والسـادة. ويجتمـع أمـراء إديقـوت كل صبـاح فـى خيمـة المشـورة.

ومـا كتبـه «وانـغ يـن -دى» يؤيـد أن أجدادنـا ربـوا قطعانـا كبيـرة مـن الجيـاد الأصيلـة بجـوار «بشـباليق». كمـا كانـت جيـوش الفرسـان لـدى أجدادنـا ـــ الذيـن ربـوا أول قطعـان فـى التاريـخ ـــ تسـتخدم جيـادا ذات ألـوان متنوعـة. وكانـت جيـاد جيـش الفرسـان لديهـم بأربعـة ألـوان مختلفـة (الأبيـض، الرمـادى، الأسـود، أزرق والكسـتنائى). وكانـت كل وحـدة فرسـان بلـون مختلـف. بتعبيـر آخـر كان يتـم تمييـز فـرق الفرسـان بألـوان الجيـاد.

ومن المصادر الأخرى الخاصة بهذه الفترة بالإضافة إلى ملاحظات رحلة «وانغ ين - دى» مقالة «هو - تشى تشينغ» الذى أورد فيها ما يلى: «لا يوجد هنا ثلج كثير (يقصد طرفان) والمناخ حار بشكل عام. وفى أيام يوليو الحارة يظل الناس فى مبانى تحت الأرض. كما أن الطيور تتجمع فى هذه الأيام على السواحل ولا تجرؤ على الطيران. وإذا ما حاولت الطيران تسقط لوهن أجنحتها. وهنا يطلون الواجهات الخارجية لمنازلهم بالجص. والمناخ حار لأقصى درجة والأمطار شحيحة. ويسود مناخ جاف نموذجى. وتغطى المياه المنحدرة من «آلتون داغ» (يقصد جبال طانرٍي) إحتياجات المدينة، والأغلبية تعزف على آلة موسيقية، والأكثرية أيضاً يعزفون الجونجا (عبارة عن جرس قرصى الشكل) والرباب. والناس ذوو قلوب نقية ومضيافون كرماء وهادئون وفنانون. فهم يقومون بأعمال متنوعة ويقومون بصهر الحديد والنحاس والذهب والفضة. ويستطيعون كذلك عمل الحلي للزينة من اليشم (الأحجار النفيسة)، وينسجون القماش المزركشة. ويحب الجميع ركوب الخيل ورمى السهم، وشعر السيدات والفتيات طويل».

وهذه الشهادة تلقى الضوء بقدر كاف على مناخ وادى طرفان واقتصاد سلطنة إديقوت الأويغورية، ورؤية الناس للدنيا وتقاليدهم ووجهات نظر.

وقدأرسل الأويغور سفيراً إلى إمبراطورية «سونغ» مرتين (فيما بين عام ٩٦٢ ـــ ٩٨١م). وذلك قبل حضور «وانغ يان ـــ تا» فى عام ٩٨١م بوقت طويل؛ وعندما انهزم إمبراطور «سونغ» عام ١٠٤٠م فى مواجهته مع الكيدانيين الشرقيين واضطر لدفع جزية كبيرة؛ أرسلت إمارة إديقوت الأويغورية هيئة سفارة ثالثة لقصر الإمبراطورية.

الفصل العشرون : دخول إمارة إديقوت الأويغورية تحت حكم الكيدانيين الغربيين

ضعفت إمبراطورية سونغ بهزيمتها على يد الكيدانيين الشرقيين مرتين فى عامى ٩٧٩ و٩٨٢م بجوار بكين الحالية. بينما قوي الكيدانيون الشرقيون، حيث تم توقيع معاهدة فى مدينة «شان ـــ يوان» بإقليم «خونان» عام م١٠٠٤ تحمل نفس الإسم، وافقت إمبراطورية «سونغ» بمقتضاها على دفع جزية سنوية كبيرة للكيدانيين.

وفى عام ٩٥٨ أخضع «الكيدانيون» الشرقيون لحكمهم قبائل «نو ـــ جين» التى تعيش على ضفاف نهرى «صونغارى» و «آمو(خلوجانغ)» وكانت هذه القبائل تعمل بالزراعة والصيد منذ القدم.

بعد توحيد قبيلة «وان ـــ يان» إحدى قبائل «نو - جين» فى أواسط القرن الحادى عشر مع قبائل اخرى؛ زادت قوة «نوـ جين» بشكل واضح. وكان حكام نو - جين من قبيلة «وان - يان». وفى عام ١١١٤م رفع السيد «آغودا» والذى ينتسب إلى قبيلة «وان - يان» هذه ـــ راية العصيان ضد الكيدانيين، وأنزل بهم ضربة ثقيلة فى منطقة «فو ـــ يو» بإقليم «جيلين» حالياً. وأعلن نفسه حاكماً عاما ١١١٥م. ظهر شعب على ساحة التاريخ اسمه شعب چورجان. ثم أرسل «آغودا» حاكم «چورجان» سفيراً إلى إمبراطورية «سونغ» وتحالف معه ضد الكيدانيين. وفى النهاية طويت صفحة الكيدانيين الشرقيين من ساحة التاريخ عام ١١٢٤م وذلك من جراء الحروب الداخلية وصراعات العرش والحروب المندلعة مع «سونغ» الشماليين و«الچورجان»

عقب انتهاء الكيدانيين بعدأن استمر وجودهم السياسى ٢١٠عاماً، هرب الأمير «طوس تايغو- يلو دا - شى» (١٠٨٧ ـ ١١٤٣م) صوب الغرب وجاء إلى مدينة خاتون باليق الكائنة فى منغوليا حالياً (وهى إحدى المدن الإستراتيجية المهمة لإمارة أورخون الأويغورية)، وأعلن نفسه هناك حاكماً للكيدانيين. ثم توجه إلى قيرغيز «ينى ساى»، لكنهم تعرضوا لهجوم القرغيز ونهبهم، فاضطروا للجوء إلى نواحى مدينة بشباليق. وكان الكيدانيون الذين جاءوا إلى نواحى بشباليق مع «طوس تايغو» عبارة عن ٤٠ ألف خيمة، أي حوالى ٢٠٠ ألف شخص. وكوَّن «طوس تايغو» من هذه الخيام الأربعين ألفا، جيشاً قوامه ٤٠ ألف شخص. وبالرغم من وجوده فوق أراضى إمارة إديقوت الأويغورية فقد أنشأ شبكة مخابرات قوية تجمع معلومات مفصلة عن آسيا الوسطى.

وفيما بعد أرسل«طوس تايغو» سفيراً إلى إمارة إديقوت الأويغورية ليعلمهم برغبته فى تنظيم حملة على النواحى الغربية، ورغبته فى السماح له المرور عبر أراضى إمارتهم. ونهض «بيلكه تكين» بعد استلام الخطاب وتوجه إلى خيمة «طوس تايغو» بنفسه. وبعد الإستضافة ثلاثة أيام شق «طوس تايغو» طريقه مباشرة صوب الغرب. وقام «بيلكه تكين» بإهدائه ٦٠٠ جواد و ١٠٠ جمل و٣ آلاف شاه، فضلاً عن ذلك أرسل معه بعضاً من أبنائه وأحفاده ورافقه حتى حدود دولته فأظهر بذلك صداقته لـ«طوس تايغو»[١٦٠].

واستناداً إلى المصادر الأخرى يمكن القول بأن «طوس تايغو» عبر من أراضى إمارة إديقوت الأويغورية، وطلب السماح له بالبقاء فى أراضى «إيليك خان» والإقامة لفترة فى مكان يسمى إميلدا الواقع تحت سيطرة «إيليك خان» الشمالية داخل حدود القراخانيين الشرقيين.

بدأ «يلو دا - شي» جمع القوات فى «ميلدا» وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لمهاجمة القراخانيين الشرقيين وكان إبراهيم حاكم القراخانيين الشرقيين فى تلك الفترة قد طلب مساندة «يلو دا - شي» لقمع تمرد القارلوق. وانتهز «يلو دا - شي» تلك الفرصة وقام باحتلال كاشْغَر

وبلاساغون بزعم قمع تمرد القارلوق. وهكذا دخل القراخانيون الشرقيون تحت حكم الكيدانيين.

وفى أغسطس من عام ١١٣٧م هزم «طوس تايغو» جيش القراخانيين الغربيين. أما فى عام ١١٤١م فإن القارلوق - الذين تمردوا على القراخانيين الغربيين ــ طلبوا المساعدة من الكيدانيين. وبناءً على ذلك فقد طلب القراخانيون العون من السلاچقة. ولكن انتهت الحرب التى اندلعت فى صحراء «قطوان» الواقعة بين بُخارى وسَمَرقَنْد - فى شهر سبتمبرــ بهزيمة السلاچقة والقراخانيين؛ مما اضطر القراخانيين الغربيين أيضاً للخضوع لحكم الكيدانيين.

وهكذا فإن «طوس تايغو» أسس دولته التى يرد ذكرها فى التاريخ باسم «إمارة كيدان الغربية» وشملت حدودها جزءا مهما من آسيا الوسطى.

مع أن إمارة كيدان الغربية ربطت نفسها بإمارة إديقوت الأويغورية؛ إلا أنها لم تتدخل فى شئونها الداخلية. كان الشىء الوحيد المهم فى الواقع هو أداء الضريبة المطلوبة. ومع ذلك كان هناك ممثل لهم فى عاصمة إمارة إديقوت الأويغورية لجمع الضرائب بانتظام. وقد إعتلى عرش إمارة إديقوت الأويغورية بعد «بيلكه تكين» شخص يدعى «إيسان تمور» ولكن لا تتوفر أى معلومات حول السنوات التى قضاها فى الحكم.

الفصل الحادى والعشرين : المغول وإمارة إديقوت الأويغورية

چنكيزخان و«بارچوق آرت تكين»

فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر كانت قبائل مغولية مختلفة تعيش على شواطىء نهرى «أونون» و«كارولن» فى منغولياً حالياً. كما كان التتار يعيشون بجوار بحيرة بايقال، والمركيت والنايمان والكرايت وآلطاي الشرقيين (فهي قبائل تركية) يعيشون على شاطىء نهر «تولا». وقد كانت هذه القبائل منذ القدم فى حالة حرب مستمرة مع بعضهم البعض من أجل مصادر المياه والقطعان والمرعى.

كان المغول الذين يعيشون على ساحل النهر يشتغلون بالزراعة، أما الذين يعيشون فى الغابات فكانوا يعملون بالصيد، ومع ذلك كان يطلق عليهم التتار بسبب كثرة عددهم. وكانوا بوجه عام أصحاب بنية إقطاعية تحافظ على بناء القبيلة. إن الحروب المستمرة بين القبائل جعلت سادة المغول فى وضع صعب دائما. ولقد أرادوا تأسيس دولة واحدة تتحد فيها القبائل المغولية المقسمة كي تنتهى الحروب الداخلية ويتحسن الاقتصاد وتعود الحياة طبيعية. ولكن كانت إمارة «جورچت» تعمل باستمرار على إثارة الحرب بين القبائل المغولية التابعة لها. فقد كان هدف «جورجت» الوحيد هو أن يعيش المغول فى حالة من التشتت والفُرقة، وضم الشباب المغولى للجيش وموتهم بأعداد كبيرة. ولذلك كانت الصراعات الداخلية بين قبائل المغول بفعل الجورچت، إذ كان هدفهم الأساسي هو إبادة المغول بصورة تدريجية.

ولكن حقق چنكيز خان حلم المغول فى تأسيس دولة قوية

ومتحــدة.

ففــى عــام ١١٥٣م ولــد صبــى فــى عائلــة «ياســوكاى» المنحــدرة مــن «بورتكيــن» التــى تنتســب لقبائــل «قيــات» الموجــودة علــى شــاطىء نهــرٍ «أونــون». وأطلقــوا عليــه إســم طومورچــى (بالمغوليــة تموچيــن) وصــارٍ شــاباً رشــيق الحركــة ونشــيطا وقويــا؛ فــى تلــك الأثنــاء دس حاكــم التتــار «طُغْرُل خــان» الســم لـ«ياســوكاى باتــور». وظــل تموچيــن اليتيــم يعمــل فــى معــدن الحديــد كالعبــد لعــدة ســنوات. وبعــد إطــلاق ســراحه عــاد لقبيلتــه. وعقــب صراعــات داميــة نجــح فــى توحيــد قبائــل المغــول، ثــم أنــزل بالتتــار هزيمــة ثقيلــة فــى حــرب عــام ١٢٠٢م، ثــم أبــاد كبــار رجــال التتــار ونســاؤهم كلهــم ثــأرا لوالــده. وفــى عــام ١٢٠٤م هجــم علــى «النايمــان» وقتــل «تايــان - خــان». وهــرب قســم مــن «النايمــان» بقيــادة «كوچلــوك - خــان» إلــى نواحــى «يــدى صــو». وعندمــا أخضــع تموچيــن «النايمــان» لطاعتــه؛ وقــع فــى يــده أحــد مستشــارى «تايــان - خــان» يدعــى «تاتــا تونغــا» وهــو مــن أصــل أويغــورىٍ، وكان بالــغ القــدرة والــذكاء والعقــل. وســيلعب «تاتــا تونغــا» هــذا دوراً مهمــاً عنــد تأســيس إمبراطوريــة المغــول الكبيــرة فــى المســتقبل.

عندمــا تولــى چنكيــز خـــان حكــم دولــة المغــول الفتيــة فى عــام ١٢٠٦م وضــع نصــب عينيــه أمريــن مهميــن. الأول جَمَــعَ كل الأكفــاء ومــن يعرفــون القــراءة والكتابــة مــن شــعوب الغــرب خصوصــا مــن الأويغــور، واســتخدمهم فــى تنظيــم الشــئون الداخليــة وتكويــن جيــش للدولــة الناشــئة. والآخــر هــو تأســيس جيــش كبيــر وقــوي ومــدرب.

لقــد نقــل الجوينــى - المــؤرخ الفارسى الــذى عــاش فِي القــرن الثالث عشــر - معلومــات قيمــة عــن بنيــة جيــش المغــول. وطبقــا لمــا قالــه فــإن قســما كبيــرا مــن عائــلات المغــول كانــوا يعملــون فــى تربيــة الحيــوان فــى أوقــات الســلم، لكــن عندمــا تعلــن الحــرب كانــوا يشــكلون عشــرات ومئــات وآلاف الوحــدات بموجــب قوانيــن الترحــال. وطبقــا لقانــون چنكيــز خــان كان كل محــارب مغولــى مضطــرا لأن يحمــل معــه أســلحته الضروريــة (الســهم، القوس، السيف، ومثل الجمل والحصان والحمــار للركــوب وحمــل المعــدات)

وكذلـك لوازمــه مـن الإبـرة، والحبـل، ووعـاء، وفـأس، ومـا شـابه ذلـك). ويرتـب القـادة علـى درجـات مثـل قائد عشـرة، وقائـد مائـة، وقائـد ألـف وقائـد لـواء.

وكان يتـم اختيـار هـؤلاء مـن أمـراء قبائـل المغـول مثـل قبيلـة «باطـور» و«مرغـان» و«ججـان» و«نويـون»، وكان أغلـب القـادة مـن الأمـراء. ولـم يتميـز جيـش المغـول بنظامـه الفريـد فقـط، ولكـن بقدرتـه علـى الحـرب وخفـة حركتـه وشـجاعته.

وبعـد أن حقـق چنكيزخـان الهـدفين المهمـين نظـم عـدة حمـلات عسـكرية. وفـى عـام ١٢٠٧م أرسـل إبنـه الأكبـر «جوجـى خـان» إلـى سـيبيريا لإخضـاع القبائـل المحليـة. فتمكـن مـن إخضـاع قيرغيـز «ينـى سـاى» و«بوريـات بايقـال» وأويغـور آلطـاي و«أويـرات» ينـى سـاى (أويغورات) و«القونغـورات». ومـن أجـل القضـاء علـى الجورجـت ألـدَّ أعـداءه إتجـه چنكيزخـان أولاً لمحـو إمـارة الطانغـوت - التـى تقـع فـى الجـزء الشـمالى الغربـى للصيـن - مـن الخريطـة. وكانـت إمـارة الطانغـوت (١٠٣٢ــ١٢٢٧م) والجورجـت حلفـاء. وإتجـه چنكيزخـان صـوب الطانغـوت عـام ١٢٠٩م وأنهـى أمرهـم، واتخـذ إحـدى بنـات «ليـان ــ تشـونغ» حاكـم «الطانغـوت» زوج لـه. أمـا «الطانغـوت» فقـد أقـروا حكـم المغـول وقبلـوا دفـع الضرائـب. وسـرعان مـا ذاعـت شـهرة لچنكيـز خـان بسـبب الانتصـارات المتواليـة. فبلغـت أخبـارٍ انتصاراتـه إمـارة إديقـوت الأويغوريـة الموجـودة فـى منطقـة قريبـة جـداً للمغـول فـى شـرق آسـيا. وكانـت أمـارة إديقـوت الأويغـور آنـذاك تحـت حكـم الكيدانييـن الغربييـنِ لمـدة ٨٤ عـام تقريبـاً، وإتخـذ «باورچـوق آرت تكيـن» حاكـم الأويغـور قـراراً بالإسـتقلال عـن الكيدانييـن الغربييـن فـى عـام ١٢٠٩م متقصيـاً الوقائـع والأحـداث حـول قـوة المغـول وضعـف قـوة الكيدانييـن). وطلـب «باورچـوق» رأى «تارخـان بيلكـه بوقـا» كبيـر مستشـاره، فنصحـه بقتـل سـفير «كيـدان» والدخـول تحـت حكـم المغـول. ولكـن هـذا الـرأى لـم يعجـب «باورچـوق آرت تكيـن»، ولكنـه عـاد وقبلـه مـن حيـث المبـدأ. وفـى النهايـة أخـذ «تارخـان بيلكـه بوقـا» علـى عاتقـه أمـر قتـل سـفير «كيـدانٍ» فـى مدينـة إديقـوت حيـث حصـل علـى مسـاندة «باورچـوق خـان». وطبقـاً

لما سجله المؤرخ الفارسى الجوينى فقد تم قتل «شاوقيم» سفير «چوروق» حاكم كيدان والموجود فى مدينة إديقوت.

وبعد مقتل سفير كيدان أرسل «باورچوق آرت تكين» سفارة من ثلاثة أفراد إلى خيمة چنكيز خان على ساحل «كارولن». وحمل السفراء هدايا قيمة فضلا عن رسالة «باورچوق». وقد أوضح «باورچوق» فى رسالته قتله سفير «كيدان» ورغبته فى التبعية للمغول. وبعد أن استقبل چنكيز خان سفير الأويغور بإحترام كبير وبعد أن أخذ رأس سفير كيدان طلب حضور «باورچوق آرت تكين» شخصياً إلى خيمته.

فى عام ١٢١١م إصطحب «باورچوق آرت تكين» الأمراء مثل «آل قايا» وتوجه مباشرة لـ«نهر كرولن»، وبعد فترة وصل إلى خيمة چنكيز خان. وفرح چنكيزخان للغاية لحضور «باورچوق» شخصياً، وخاطبه قائلا «إبنى الخامس». وفضلاً عن ذلك أعلن چنكيزخان نيته فى تقديم إبنته «أل آلتون» (آلتون بيكا) زوجة لـ«باورچوق»، ولكن للأسف توفيت «آلتون بيكا» قبل زواجها من «باورچوق».

وفيما بعد اشترك «باورچوق خان» بجيشه فى حملات عديدة لچنكيز خان؛ بصفته تابع للمغول. واشترك فى الحملات التى نظمها چنكيزخان من أعوام ١٢١٩ ـــ ١٢٢٥م، وضد إمارة الطانغوت بعد ذلك.

حملات المغول على الشرق والغرب

بعد أن أصبحت إمارة إديقوت الأويغورية تابعة لچنكيزخان بالطرق السلمية بدأ الاستعدادات لحملة جادة للغاية. فسار فى عام ١٢١١م إلى «الجورجت» الجيران الشرقيين. وكانت هذه الحملة منظمة وكاملة لأقصى درجة. وقبل الخروج للحملة توجه للسماء داعياً وطلب معونتها ومنحه القدرة على الثأر لعميه «أمباغاى» و«آقين باراق» من أعدائه «الجورجت» [١٦١]. وقبل أن ينظم حملة الشرق استولى على مصادر ثروات «الجورجت» وخطط للإستفادة منها، وأعد جيشاً قوامه ٢٠٠ ألف مقاتل وقاده بنفسه، وكان فى معيته أبناؤه «چوچى» و«چغتاى» و«أوكتاي»

و«طولخـان» فضـلا عـن خيـر قادتـه «سـوبوداى باتـور» و«جابـه نويـون».

وعندمـا اقتـرب جيـش المغـول مـن سـد الصيـن قوبـل بمقاومـة شـديدة مـن «الجورجـت». لكـن جيـش المغـول بقيـادة چنكيزخـان شـتت جيـش الأعـداء المكـون مـن ٣٠٠ ألـف شـخص تحـت قيـادة «غوشـاغور» و«غوشـيلا» مـن الجورجـت وشـتته فـى منطقـة «وانغ ـــ شـونغ» بإقليـم «خوبـى» الحالي. وقـد هلـك كل القـادة الجورجـت فـى هـذه الحـرب. وهكـذا نجـح چنكيزخـان فـى الاسـتيلاء علـى جـزء مهـم مـن «سـاندونغ» و«سانشـى» مـع الأجـزاء الشـمالية لأقاليـم «خونـان» و«خوبـى». وكان حاكـم الجورجـت «وانـغ ـــ يـان يونجـى» قـد قتـل كذلـك أثنـاء القتـال. وقـام «وانيـان شـونتو» الـذى تولـىٍ مكانـه بإرسـال أميـرة الجورجـت إلـى چنكيزخـانٍ مـع واحـد سـفيره. فضـلا عـن ذلـك كان «سـوان - تسـونغ» قـد أرسـل أيضـاً مقـدارا وفيـرا مـن الذهـب والفضـة وغيرهـا و٣٠٠٠ جـواد، حيـث أظهـر هـؤلاء الجورجـت قبـول حكـم چنكيزخـان. وقـد حصـل چنكيزخـان علـى غنائـم كثيـرة وعـاد إلـى منغوليـا عـام ١٢١٤م.

لقـد استولى چنكيز خـان على جـزء مهـم من شـمال الصـين أثنـاء الحملـة الأولـىٍ ضـد «الجورجـت». ولكـن لـم يهاجـم علـى عاصمتهـم «جوندوا» (بكيـن حاليـاً). وعنـد العـودة إلـى منغوليـا عـام ١٢١٤م تـرك «وانيـان شـونتو» إمبراطـور الجورجـت «جونـدوا» ونقـل عاصمتـه إلـى «كاى - فنـغ».

وعندمـا علـم چنكيـز خـان بذلـك أعـد الحملـة الثانيـة ضـد «الجورجـت» بعـد عـام واحـد واحتـل مدينـة «جونـدوا» فـى شـهر مايـو مـن عـام ١٢١٥م. وغنـم كل مـا فـى المدينـة، ودون أن يضيـع المغـول أى وقـت دخلـوا خونـان وهاجمـوا «كاى ـــ فنـغ». وفـى «خونـان» دار قتـال شـرس وقوبل المغـول هذه المـرة بمقاومـة عنيفـة غيـر متوقعـة مـن «الجورجـت». وأدرك چنكيزخـانٍ أنـه لـن يسـتطيع إخضـاع الجورجـت فـى فتـرة بسـرعة، وقـام بتعييـن واليـاً يدعى «موغالـى» علـى المنطقـة التـى فتحهـا واسـتولى عليهـا منهـم؛ ولكنـه عـزم علـى القضـاء نهائيـاً علـى «الجورجـت». وعـاد مـرة أخـرى لوطنـه وإسـتراح فـى خيمتـه الواقعـة علـى شـاطئ «كارولـن».

فـى الحملـة الثانيـة التـى نظمهـا چنكيزخـان ضـد «الجورجـت» اسـتولى علـى اسـتولى علـى غنائـم أكثـر قيمـة مـن العبيـد والأقمشـة مختلفـة الأنـواع والذهـب والفضـة وأشـياء أخـرى. أهـم نتائجـه فـى هـذا الحـرب تعـرف علـى الطريقـة العسـكرية الرفيعـة للصينيـن فـى محاصـرة المدينـة. وأخـذ معـه إلـى منغوليـا أسـلحة مختلفـة كثيـرة، وكذلـك صنـاع الأسـلحة والمتدربيـن عليهـا، وسـرعان مـا عمـل علـى اكتسـاب هـذه التقنيـة لجيشـه [١٦٢].

نجـح چنـكيزخـــان فـى حملتـــه عـــام ١٢١٥م فـــى ضـــم أميــر كيـــدان «يلوجـو سـاي» إلـى جانبه.ثـم اعتمـد علـى «يلـو» الكيدانـى ومستشـاره الأويغـورى «تاتانونغـا» فـى إدارة شـئون الدولـة. وقـد قـام «يلوجـو سـاي» بخدمـة چنكيزخـان وأوكتـاي علـى مـدار ٣٠ عـام كاملـة.

بعـد أن أتـم چنكيـز خـان حملـة الصيـن عـام ١٢١٥م بـدأ الإسـتعدادات لحمـلات الغـرب. فقـد نظـم المغـول ثـلاث حمـلات علـى الغـرب، اسـتمرت أولهـا سـبع سـنوات مـن عـام ١٢١٩ حتـى ١٢٢٦م وأدارهـا چنكيـز خـان بنفسـه. ونُظمَـتْ الثانيـة فـى عهـد الحاكـم العظيـم «أوكتـاي» (١٢٢٩ ـــ ١٢٤١م). وأَدار هــذه الحملــة التـــى اســتمرت خمــس ســنوات باتورخـــان حفيـد چنكيزخـان. أمـا الحملـة الثالثـة فكانـت فـى عهـد الحاكـم «مونـكا» واسـتمرت ٤ سـنوات فيمـا بيـن عـام ١٢٥٤ـــ ١٢٥٨م وأدارهـا «هولاكـو» حفيـد چنكيزخـان.

والآن سنمعن النظر باختصار فى حملات المغول الغربية.

بعــد أن أخضــع چنكيزخـــان إمــارة إديقــوت الأويغوريــة لطاعتــه عـــام ١٢٠٩م توجـه للحمـلات علـى الغـرب. لقــد عـزم چنـكيزخـــان على القضـــاء أولاً علــى «كوچلــوك خـان» الــذى يمثـل عقبـة أمـام حملته التى سينظمها ضـد الخوارزمشـاهيين فـى آسـيا الوسـطى، فقـام بإرسـال جيـش قوامـه ٢٠ ألـف شـخص بقيـادة «جابـا نويـون» ضـد «كوچلـوك خـان» عـام ١٢١٨م. وكان «كوچلـوك خان» أميـر نايمانـى قـد توجـه مـن آلطـاي إلـى يـدى صـو ولجـأ إلـى» جـوروق» حاكـم كيـدان الغربيـة. وبعـد أن حـاز علـى ثقـة «چـوروق» قـام بنقـل النايمـان مـن شـرق «آلطـاي» إلـى «يـدى صـو». وتـزوج مـن إبنـة

«چوروق» وبعد أن توفر أسباب القوة انتهز الفرصة المناسبة واستطاع في القضاء على إمارة كيدان الغربية التي استمر وجودها ٨٠ عاما وذلك إذ انهزم «چوروق» أمام عثمان بوغراخان حاكم القراخانيين الغربيين وخوارزمشاه محمد في «طالاس» عام ١٢١١م، وأسس «كوچلوك خان» مكانها إمارة نايمان الغربية (١٢١١ــــ ١٢١٨م)، وأصبحت خوتن وياركند وكاشْغَر ويدى صو وادى فَرْغانة داخل حدود إمارة نايمان.

وبعد أن أسس كوچلوك خان إمارة نايمان الغربية واتخذ كاشْغَر عاصة لها؛ مارس كل أنواع الضغط على أبناء البلد الأويغور المسلمين. وكان هو نفسه معتنقاً للمسيحية النسطورية، ولكنه كان ارتد عن دينه القديم واعتنق البوذيةعندما جاء وانتقل إلى «يدى صو» عام ١٢٠٤م وكانت تحت حكم الكيدانيين. وبالرغم من أنه قوى وشجاع إلا كان قاسيا وظالما ومنافقا وأحمقا في شئون الدولة. فإذا أراد معاقبة الأويغور في كاشْغَر وياركند وخوتن؛ كان يبذل ما في وسعه لإجبارهم على التخلي عن الإسلام واعتناق البوذية. وبمجرد أن وصل إلى خوتن جمع عدة آلاف من المسلمين الذين يؤمهم الإمام علاء الدين محمد وأوصاهم بتخلي الإسلام واعتناق البوذية، وهددهم بأنه في حالة رفضهم لاقتراحه سيقطع رؤوسهم. ولكن الإمام علاء الدين ناظر مع كوچلوك خان وأفحمه وبصق على وجهه، وبناء على ذلك قام بقطع رأس أكثر من ٣ آلاف من العلماء ورجال الدين[١٦٣]. فلما علم المغول بالخلاف القائم بين «كوچلوك خان» والأويغور المسلمين ـــ قاموا ببعض التحركات بزعم حماية الدين. وهذا التدبير جعل هلاك «كوچلوك خان» أمرا مقررا.

لقد تلقى «كوچلوك خان» - الذى أصيب بلعنة الأويغور المسلمين - هزيمة ثقيلة أمام «چابه نويون» بالقرب من «إيصيق كول» وهرب إلى كاشْغَر. وقام الأويغور بقتل محاربي «كوچلوك خان». وهرب «كوچلوك خان» الذى أصبح في موقف صعب للغاية إلى «صريق قول» جنوب غرب كاشْغَر، ولكن المغول تعقبوه وألقوا القبض عليه وقتلوه. وبعد أن انتهى چنكيز خان من أمر «كوچلوك خان» أنعم في عام ١٢١٨م

علـى «بايداغـان دوغـلات» مـن قبائـل دوغـلات بـ«ناحيـة الشـرق» وحكـم كوچـار وآقصـو وكاشْـغَر وياركنـد وخوتـن. فـى هـذه المنطقـة تقـع «باغـراش» و«كـورلا» فـى الشـرق وفـى الشـمال «موزتـاغ» وفـى الغـرب «جبـال آلطـاي» و«كاتتـا داوان» وفـى الجنـوب «لإليـكات» وبدخشـان و«جبـال قرانغـو». وقـد حكـم أحفـاد «بابداغـان» هـذه المنطقـة فتـرة طويلـة جـداً. وكلمـة «دوغلات» فـى المغوليـة تعنـى «أعـرج».

أحضر بابداغـان أقاربـه ورفقـاءه مـن منغوليـا إلـى وادى تاريمفـى «مانغلاى صويـاه» ووطنهـم فيهـا. وأصبـح أبنـاؤه بعـد وفـاة جنكيزخـان أويغـوراً وحكموا هـذه الأراضـى طـوال ثلاثمائـة عـام (١٢١٨ - ١٥١٥م) مـن زمـن «جغتـاى خـان» حتـى تأسـيس امـارة «ياركنـد السـعيدية».

قـام جنكيزخـان باسـتعدادات جـادة وإتخـذ التدابيـر اللازمة قبـل الهجوم علـى الخوارزمييـن. وبعـد القضـاء علـى «كوچلـوك خان» قـام بجمـع المعلومات الضروريـة عـن جيـش الخوارزمييـن وكل مـا يهمـه عـن طريـق التجـار الأويغور وغيرهـم. ولـم تكـن حملـة چنكيـز خـان الغربيـة غيـر منظمـة كمـا يدعـى بعـض المؤرخين.

لقـد استبدت چنكيـز خـان الرغبـة فـى أن يحكـم المغـول العالـم بأسـره. وأعلـن الكاهـن الأكبـر «كوكچـى سـوتو» فـى مجلـس الشـورى المقـام علـى شـاطىء نهـر «اونـون» فـى عـام ١٢٠٦م عنـد إطـلاق لقـب چنكيـز خـان علـى تيموچيـن «أن إلـه السـماء العظيـم قـد وهـب چنكيـز خـان حكـم العالـم بأسـره». وطبقـاً لهـذا فـإن القـوى الإلهيـة قـدرت لچنكيـز خـان أن يحكـم العالـم بأسـره. والعارفـون بتاريـخ العالـم يعرفـون بأنكثيـر مـن الفاتحين قـد طـوى التاريـخ صفحتهـم، ومـع ذلـك فـإن بعـض المؤرخيـن الغربييـن المعاصريـن يسـلمون بـأن چنكيزخـان حاكـم المغـول و«آتيـلا» حاكـم الهـون أكبـر فاتحيـن للعالـم. وآراء المؤرخيـن هـذه تسـتحق الوقـوف عندهـا جديـاً.

إن الحملـة التـى نظمهـا چنكيـز خـان تجـاه الغـرب بـدأت بكارثـة «أوترار» المشـئومة التـى وقعت عـام ١٢١٨م.

أرسـل چنكيـز خـانإلى عاصمـة خـوارزم شـاه فـى عـام ١٢١٨م قافلـة كبيـرة تضـم سـفراء و٤٥٠ تاجـرا. «والبضائـع محمولـة علـى ٥٠٠ جمـل، كمـا كانـت القافلـة تحمـل بضائـع قيمـة للغايـة». ولكـن «إينالچيـق قاهرخـان» قريـب خوارزمشـاه وفـى نفـس الوقـت حاكـم» أوتـرار» نهـب القافلـة المتجهـة إلـى «أوركنـچ» عاصمـة خـوارزم فـى مدينـة «أوتـرار» الواقعـة علـى الطريـق. وقتلـوا المسـافرين ومـن بينهـم سـفراء چنكيـز خـان. وليسـت هنـاك معلومـة مؤكدةحـول مـا إذا كان «إينالچيـق خـان قايرخـان» قـد قـام بهـذا العمـلٍ بأمـر مـن خوارزمشـاه أم مـن تلقـاء نفسـه. واستشـاط چنكيـز خـان غضبـاً علـى رأس جيـش قوامـه ٢١٠ ألـف شـخص وتوجـه للغـرب، وشـق طريقـه صـوب دولـة خوارزمشـاه واصطحـب أبنـاءه جوچـى وچغتـاى وأوكتـاي وطولـوى فضـلا عـن قـواده المقربيـن «جابـه نويـون» و«سـوبوداى باتـور». وكذلـك «يلوتشـو تسـاى» مستشـار أميـر كيـدان ومستشـار الأويغـور» تاتـا تونغـا» و«تـورا قايـا» و«بولادقايـا».

وبأمـر مـن چنكيـز خـان حاصـر أبنـاؤه «چغتـاى» و«أوجـه داى» مدينـة أوتـرار فـى شـهر سـبتمبر مـن عـام ١٢١٠م. ودافـع «إينالچيـق قاهرخـان» عـن المدينـة بشـجاعة. واسـتولى المغولعلـى المدينـة بصعوبـة بعـد حصـار لهـا شـهرا، لقـي «إينالچيـق قاهرخـان» مصرعـه.

بعـد اسـتيلاء المغـول علـى «أوتـرار» هاجمـوا دولـة الخوارزميـين من عـدة إتجاهـات. واقتـرب چنكيـز خـان وتولـوى عـام ١٢٢٠م مـن بُخـارى، واسـتولى علـى المدينـة فـى شـهر فبرايـر مـن العـام نفسـه. ويقـال أن چنكيـز خـان اسـتولى علـى كل المـدن المهمـة بدولـة الخوارزميـين بنهايـة عـام ١٢٢٠م. أمـا أشـد المعـارك فقـد خاضوهاعنـد الإسـتيلاء علـى أوركنـچ بسـبب مقاومـة المدافعيـن عـن المدينـة علـى مـدى سـتة أشـهر، لكنهـم اسـتولوا علـى المدينـة فـى شـهر أبريـل مـن عـام ١٢٢١م.

عنـد اسـتيلاء جيـوش چنكيـز خـان علـى سَـمَرقَنْد فـى شـهر مـارس من عـام ١٢٢٠م (حيـث كان تعـداد المدينـة ٦٠٠ ألـف نسـمة) كان مـن بيـن الأسـرى أفـراد كثيـر مـن عائلـة محمـد خوارزمشـاه، ومـن بينهـم» تـركان

خاتـون» والـدة محمـد، وابنتـه «خـان سـلطان» و«تركيـن سـلطان» وبعـض الأبنـاء.

عنـد عـودة چنكـيز خـان مـن آسيا الوسـطى إلـى دولتـه، نقـل معه «تـركان خـان» إلـى قـره قـورم عاصمـة إمبراطوريـة المغـول. وتوفيـت «تُركان خاتـون» هنـاك عـام ١٢٣١م. وأرسـلت خـان سـلطان زوجـة عثمـان بوغراخـان إلـى جوچـى، أمـا «تركيـن سـلطان» فقـد تزوجهـا أحـد مستشـارى چنكيـز خـان، وقتـل الأمـراء الذيـن وقعـوا فـى الأسـر بأمـر چنكيزخـان.

بعـد أن اسـتولى المغـول علـى كبريـات مـدن وسـط آسـيا؛ قتلـوا كل أهلهـا بوحشـية كمـا هـي عادتهـم باسـتثناء أصحـاب الحـرف. أمـا أصحـاب الحـرف فـى المـدن التـى أبـدت مقاومـة ضدهـم (مثـل سَـمَرقَنْد وأوركنـچ) فقـد أعمـل فيهـم السـيف.

لقـد ظهـرت شـخصيات مهمـة ورائعـة بيـن الذيـن قاومـوا المغـول فـى آسـيا الوسـطى. ويمكـن أن يعـد خوارزمشـاه جـلال الديـن و«تيمـور مالـك» قائـد الوحـدات الخاصـة بجيـش خـوارزم و«إينالچيـق قاهرخـان» والـي أوتـرار مـن بيـن هـذه الشـخصيات الشـجاعة. ومـن هـؤلاء «إينالچيـق قاهرخـان» الـذى قـاوم لمـدة شـهر كامـل ضـد الأعـداء بقـوة أقـل عشـر مـرات مـن جيـش المغـول، حتـى أن «چغتـاى» و«أوكتـاي» إبنـى چنكيـز خـان فقـدا الأمـل أمـام شـجاعته. أمـا «تيمـور مالـك» والـي خوجنـد فقـد جعـل المغـول يعيشـون لحظـات صعبـة للغايـة، وصمـد هـو ومحاربـوه علـى جزيـرة فـى نهـر سـرداريا علـى بعـد كيلومتـر واحـد، ومـن هنـاك أنـزل ضربـات مميتـة بالمغـول. ولكـن فـى النهايـة تركـوا الجزيـرة وتقدمـوا بالسـفن عبـر النهـر. وضاعـت سـدى محـاولات المغـول دخولهـا بأعـداد غفيـرة للإسـتيلاء عليهـا، وفيمـا بعـد أنـزل هـذان الإثنـان ضربـات موجعـة بالمغـول.

علـى الرغـم مـن هـروب خوارزمشـاه محمـد مـن مـا وراء النهـر إلى خُراسـان أثنـاء اجتيـاح المغـول بعدمـا عانـى مـا عانـاه مـن الأعـداء إلا أنـه لـم يسـتطع البقـاء هنـاك طويـلا ولجـأ إلـى إحـدى جـزر بحيـرة آرال، يقـال أنهـا كانـت مـأوى مرضـى الجـذام، وتوفـى هنـاك، وبعـد وفـاة خوارزمشـاه

محمد تولى إبنه جلال الدين عرش الخوارزميين. وبعد العديد من المعارك التى وقعت بين جلال الدين والمغول فى محيط عاصمة خوارزم ومناطق أخرى إنسحب إلى غزنة. وجاء چنكيزخان إلى غزنة مع أبنائه بهدف القضاء عليه وأسره.

وفى المعارك التى وقعت على شاطىء نهر السِند حاصر جنكيزخان، «جلال الدين»، وبعد أن أدرك جلال الدين ذو الأصل الأوغوزى أنه لا أمل له فى النجاة، ألقى بوالدته وزوجته وإبنه البالغ من العمر ثمانى سنوات فى النهر؛ وقاد جواده إلى نهر السند ونجح فى الوصول إلى الشاطىء المقابل والعبور إلى ناحية الهند. وطبقاً لبعض الروايات فإن جواد جلال الدين اجتاز النهر إلى الضفة الأخرى بمفرده، ولكن جياد المغول ذات القامة القصيرة لم تستطع الوصول إليه، وكذلك لم تستطع الإنتقال إلى الضفة الأخرى. وبعد أن وصل جلال الدين للشاطىء المقابل شهر سيفه لتهديد چنكيز خان وأبناءهثم اختفى، واندهش چنكيزخان من شجاعته، ولم يستطع ان يمنع نفسه من القول» هكذا يكون الأبناء».

ثم تقاتل جلال الدين مع المغول على مدى عشرة أعوام، وبالرغم من انتصاره فى كل المعارك التى وقعت بينهم إلا أنه لم ينجح فى إعادة بناء دولة الخوارزميين. وفى النهاية قتل بطل آسيا الوسطى القومى هذا على يد أكراد العراق عام ١٢٣١م.

أثناء هروب محمد خوارزمشاه إلى خُراسان أرسل چنكيز خان إلى تلك المنطقة جيشا قوامه ٢٠ ألف شخص بقيادة «چابه نويون» و«سوبوداى باتور». وكان هدفه الأساسي القبض على محمد خوارزم شاه حياً. وبالرغم من فشل «سوبوداى» و«چبه نويون» القبض على خوارزم شاه، فانهم دخلوا القوقاز الواقعة فى محيط جنوب الخزر، وفتحوا أرمينيا وچورچيا، وأخضع المغول أهل القوقاز لطاعتهم ونهبوهم،ثم توجهوا إلى جنوب روسيا. ولم تكن فى روسيا فى تلك الأثناء دولة قوية وموحدة، فقد كان الروس منقسمين ويحارب بعضهم بعضا.

وقد اقترح «قوتان خان» حاكم «القبچاق» - الذين يعيشون على

شـواطىء نهـر «الدينيبـر» علـى الـروس التعاون لقتـل المغول عنـد مجيئهم إلـى جنـوب روسـيا، وعقـد الـروس اجتماعـاً فـى كييـف. انتخبـوا فـى نهايتـه «جاليچيالـى مستسـيلاڤ» قائـداً لجيـش الـروس، وكان «مستسـيلاڤ» قائـداً ومحاربـاً بارعـا حقـق العديـد من الإنتصـارات. وتحرك مباشـرة صـوب «الدينيبر» بجيـش قوامـه ٨٠ ألـف شـخص تجمعـوا مـن «جاليچيـا» و«كييـف» و«تشـر نيجـوف» و«ڤوليـن» و«سلومنسـك» و«سـوزدال». وتظاهـر المغـول بالانسـحاب وتبعتهـم وحـدات «القبچـاق» و«الـروس» إلـى مناطـق السـهوب الداخليـة. هـزم جنكزخـان جيـش القبجـاق أولا ثـم الـروس عنـد شـاطىء نهـر قالقـا الـذى يصـب فـى بحـر «آزو» فـى يـوم ٣١ مايـو لعـام ١٢٢٢م.

وفـى هـذه الحـرب أسـر المغـول العديـد مـن القبجـاق والـروس. ونجـا «مستيسـلاڤ» وعـاد «سـوبوداى- باتـور» إلـى وسـط آسـيا حيـث خيمـة چنكيـز خـان علـى شـاطىء نهـر «طـالاس» ومعـه غنائـم كثيـرة وكذلـك رؤوس أمـراء الـروس.

تُـرى لمـاذا انهزمـت دولـة «خوارزمشـاه» الغنيـة والقويـة فـى مواجهـة المغـول الأضعـف مقارنـة بهـم؟

عنـدما تحـرك چنكيزخـان صـوب حـدود وسـط آسيا، جمـع محمـد خـوارزم شـاه مـن النـاس ضرائـب ثـلاث سـنوات مقدمـاً اسـتعدادا للحـرب. ونتيجـة لهذاتدهـورت أحوالهـم وسـاءت أوضاعهـم، وخضعـوا للسـلطان، حيـث كان لديـه جيـش قـوى ومجهـز قوامـه ٤٠٠ ألـف شـخص. ولكـن قبـل أن تبـدأ الحـرب قسـم جيشـه إلـى مجموعـات وأوكل لـكل مجموعـة منهـم الدفـاع عـن مدينـة بعينهـا. ولكـن خطـأه هـذا أعطـى الفرصـة لچنكيزخـان للإسـتيلاء علـى مـدن الخوارزميـين المهمـة مدينـة تلـو الأخـرى. ومـن جهـة أخـرى لـم تكـن العلاقـات بيـن محمـد خـوارزم شـاه والخليفـة العباسـى أحمـد بـن الحسـن الناصـر لديـن اللـه (١١٨٠ - ١٢٢٥م) علـى مـا يـرام. لأن محمـد خـوارزم شـاه كان قـد حـاول أن يسـلب لنفسـه حـق الخليفـة فـى الزعامـة الروحيـة، كمـا امتنـع الخليفـة الناصـر عـن تقديـم العـون لـه ضـد المغـول. ومـن ناحيـة أخـرى فـان السـلطان محمـد ـــ الـذى رأى نفسـه مثـل

السلطان «سَنْجَر» والإسكندر الثانى المقدونى - كان يفتقر الى الشجاعة والمهارة فى القيادة، وعجز ان يكون مثل «آلب أرسلان» أو «طُغْرُل «من سلاطين السلاجقة، لأنه اعتاد على الترف والتملق. كان يقضى كل وقته فى الحريم، وبين جواريه اللائى يبلغن ٣٠٠ جارية.

وكانت هى الأسباب الرئيسية للقضاء على دولة الخوارزميين على يد المغول. وبعد أن انتهى چنكيز خان من أمر الخوارزميين، قضى صيفه على شواطىء نهر «طالاس» وانتقل بعد عامين إلى شاطىء نهر «إرتش».

لقد أسس چنكيز خان فى الأراضى التى استولى عليها من الخوارزميين (وبخاصة فيما وراء النهر)، إدارة محلية وجعل على رأسها «محمود يالوچ» أحد تجار سَمَرقَنْد. فى عام ١١٢٥م وقبل العودة إلى منغوليا قسمالأراضى المفتوحة بين أبنائه الأربعة من «بورته». منح إبنه الأكبر جوچى الأراضى الغنية الممتدة على طول نهر «إرتش» بادئاً من «دشتِ قبچاق» بشرق أوروبا، ومنح إبنه الثانى چغتاى كلا من أفغانستان وما وراء النهر وتركستان الشرقية، وإبنه الثالث أوكتاي جزءا من «چونغاريا» حالياً، أما منغوليا والصين الشمالية فكانت لإبنه الأصغر طوليخان.

وعند اختيار چنكيز خان عام ١٢٠٦م سلطانا أعظم أصدر«ياساق - تشريعا» يتضمن قوانين مدنية وعسكرية. وبعد العودة من آسيا الوسطى أوصى أبنائه الالتزام بإتباع هذا«الياساق». وفيما بعد عيَّن إبنه الثالث «أوكتاي» وريثا للعرش. وأوصى بقية أبنائه بطاعة أوامر «أوكتاي» والتعاون على إدارة الدولة قائلا :«إذا دخلت رأس تنين فى حفرة؛ فلتدخل ذيوله كلها فى نفس الحفرة، أما إذا كانت له ١٠ رؤوس وذيل واحد وستدخل الرؤوس فى الحفرة ويظل الذيل فى الخارج، وحينها فإن الذيل الذ ى ظل فى الخارج سيتجمد من برودة الجو وعندئذ يموت التنين».

وطبقاً لرواية أخرى فإن چنكيز خان قال لأبناءه فى الوصية التى

أوصاهـم بهـا: «إنكـم تشـبهون أربعـة سـهام، فعندمـا تكـون السـهام الأربعـة معـاً لا يسـتطيع شـخص كسـرها. فـإذا أخرجتـم أحدهـا فبمقـدور كل انسـان أن يكسـر الثلاثـة المتبقيـة. فعليكـم أنتـم الأربعـة مـن بعـدى أن تكونـوا يـدا واحـدة ولا تتفرقـوا».

ومـرة أخـرى فـإن تعييـن «أوكتـاي» وليـاً للعهـد لـم يـرض «چوچـى» لأنـه كان يظـن أن يكـون وليـا للعهـد بعـد چنكيزخـان، ولكنـه أضمـر ضجـره هـذا.

وتبعـاً لبعـض الكتابـات التاريخيـة، كانـت هنـاك بعـض الأسـباب الخاصـة وراء عـدم تعييـن «چوچـى» وليـاً للعهـد. فقـد تـزوج چنكيـز خان مـن «بورتـه» عـام ١١٧٦م، لكـن «المركيـت» هاجمـوا آنـذاك واختطفـوا «بورتـه» وأخفوهـا، وبعـد مـرور ١٠ شـهور أطلـق أحـد سـادة المركيـت سـراحها. وحضـرت إلـى چنكيـز خـان ثـم وضعـت مولـوداً فـى ذات الليلـة، وأطلـق عليـه المغـول إسـم چوچـى (الضيـف). وبـدأت الشـائعات تنتشـر قائلـة أن الطفـل مـن المركيـت. وقضـى چنكيزخـان علـى مطلقـى تلـك الشـائعات، ولكـن ظـل الشـك يسـاوره. وكبـر چوچـى وبعـد أن أصبـح محاربـا قويـا وذكيـا، اشـترك فـى العديـد مـن الحمـلات. ولكـن أثنـاء الحمـلات الغربيـة إتخـذ چنكيزخـان قـراراً بتعييـن أوكتـاي وليـاً للعهـد وليـس چوچـى. لأن تعييـن چوچـى وليـاً للعهـد لـن تقطـع الشـائعات بيـن النـاس، كمـا خشـي مـن أن يفتـح ذلـك الطريـق لإثـارة الماضـى وكشـف الحقيقـة. وفكـر أن هـذا النـوع مـن الشـائعات إذا ظهـر مـرة أخـرى بعـد وفاتـه فلـن يصـدق النـاس چوچـى. وتثـور الشـكوك بيـن أبنائـه ممـا سـيفتح الطريـق لحـرب داخليـة.

نقـل چنكيزخـان عنـد عودتـه مـن آسـيا الوسـطى إلـى منغوليـا مقـدارا كبيـرا مـن الغنائـم وكذلـك عشـرات الآلاف مـن أسـرى الحـرب (خاصـة أصحـاب الحـرف والمهنـة). وفـى شـهور شـتاء عـام ١٢٢٦م إنتقـل علـى شـاطىء نهـر «أورخـون» ثـم نظـم حملـة ضـد «الطانغـوت» بعـد عـام واحـد. وكان چنكيزخـان قـد أخضـع «الطانغـوت» لطاعتـه عـام ١٢١١م. وأثنـاء الإعـداد لحملتـه علـى الغـرب عـام ١٢١٩م كان مـن الضـروري أن يتوجـه

معه «أشاجامبو» حاكم «الطانغوت»، لكنه تجنب الإشتراك فى الحملة متعللاً بعدم كفاية جيشه. وفى عام ١٢٢٦م تحرك چنكيزخان مع أبنائه للقضاء على دولة «الطانغوت»، وحاصروا عاصمتهم فى ربيع عام ١٢٢٧م. ولكنه مرض هناك وظل فى منطقة «فن ـــ ليانغ» بإقليم قانصو حالياً. وفى اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس لنفس العام توفى فى الثانية والسبعين من عمره، ولم يكونوا قد استولوا على عاصمة «الطانغوت» بعد. وقد أتم أبناء چنكيزخان مهمة والدهم، وأخفوا خبر وفاته حتى فتحوا المدينة. وهكذا زالت سلطنة «الطانغوت» من الخريطة بعد ١٩٦ عام من قيامها.

وقد أحضروا جثمان چنكيزخان إلى منطقة «بورخان خلدون» فى الوادى الواقع فى «كارولن» وما حولها من أنهار، ثم واروه الثرى. وتولى «أوكتاي» مكان والده عام ١٢٢٩م وتمسك بقانون والده، وأطعم الطعام على روحه. وطبقاً لما سجله «رشيد الدين» فقد أقام «أوكتاي» الطعام على مدي ثلاثة أيام. واختاروا ٤٠ من أجمل فتيات «نويون» و«بنات» القادة وألبسو كل واحدة منهن أغلى الثياب وأقيم الحُلى وقتلوهن جميعا ليقمن بخدمة چنكيزخان فى العالم الآخر.

عقب وفاة چنكيز خان جمع «طوليخان» مجلس النواب وأشرف على عرش إمبراطورية المغول كمرحلة إنتقالية حتى جلوس «أوكتاي» على العرش(١٢٢٧ ـــ ١٢٢٩م).

بعد أن قام أمراء المغول بعمل الترتيبات على مدى عامين، إجتمع مجلس النواب على شاطىء نهر «كارولن» فى شهر أغسطس ١٢٢٩م وأجلسوا «أوكتاي» على عرش إمبراطورية المغول طبقاً لوصية چنكيزخان.

فى عهد الحاكم الأعظم «أوكتاي» (١٢٢٩ ـــ ١٢٤١م) نظم المغول حملة ثانية على الغرب. ولكن قبل إستعدادات هذه الحملة فتح «أوكتاي» كوريا وقضى على دولة «جورچت».

وكان چنكيز خان قد توجه بجيش من قبل عام ١٢١٨م واستولى على كوريا وفرض عليهم الضرائب، ولكن فيما بعد إنقطعت العلاقات بين الدولتين. وفتح أوكتاي «كوريا» مرة ثانية وسيطر على إدارة الدولة بأن عين من يدعى «داراغوچى» واليا عاما على «خانچين».

لقد توقفت المعارك بين المغول و«الجورجت» بسبب وفاة «موغالى» عام ١٢٢٣م، ولكن «أوكتاي» هاجم مجدداً الجورجت عام ١٢٣٠م، واستولى بجيشه على هونان واقترب من العاصمة «كاى - فانغ». أما «طوليخان» شقيق «أوكتاي» فإن جيشه الذى يبلغ قوامه ٣٠ ألف شخص، شتت جيش «جورجت» البالغٍ ١٥٠ ألف شخص، فى منطقة يونان التى تقع فى إقليم خونان حالياً. وهكذا عاد «أوكتاي» إلى منغوليا بعد أن أنزل هزيمة ثقيلة بالجورجت عام ١٢٣٢م. ولكن «طوليخان» توفى فى العام نفسه وأوكلت مهمة القضاء على «الجورجت» إلى «سوبوداى - باتور» واستولى «سوبوداى» على «كاى ـــ فانغ» عاصمة «الجورجت» عام ١٢٣٤م، وهرب «وانغ ـــ يان شو شو» إلى منطقة «رونان» بإقليم «خونان». وبناءً على ذلك انتحر «شوشو» عند دخول المغول وجيش «سونغ» إلى «رونان». وهكذا انتهت سلطنة «جورجت» التى استمر وجودها ١١٩عام (١١١٥ - ١٢٣٤م)، وتم ضم أراضيها لإمبراطورية المغول.

بعد أن أنهى «أوكتاي خان» حسابه مع «الجورجت» جمع المجلس على شاطئ نهر «كارولن» عام ١٢٣٥م ونجح فى إستصدار قرار بتجهيز حملة إلى الغرب باتجاه أوروبا. إن هذه الحملة التى سنعرض تفاصيلها فيما يلى، هى الحملة الثانية المنظمة باتجاه الغرب.

لقد أعد «أوكتاي» لحملة الغرب جيشا قوامه ١٥٠ ألف شخص، وولى قيادة الجيش باطوخان حفيد چنكيز خان. واختار «سوبوداى باتور» - البالغ من العمر ٦٠ عاما - مستشارا للأمور العسكرية، حيث كان «باطوخان» يبلغ من العمر ٢٦ عاما. كما ارسل «أوكتاي» مع «باطوخان» أمراء مثل «أوردا» و«بركى» و«شيبان» (وهم أشقاء باطوخان) و«كويوك» و«قادانخان» (هذان الإثنان أبناء «أوكتاي») و«قايدوخان»

(حفيـد أوكتـاي) و«مونكــخان» (ابـن طليخـان) و«بايــدار» (ابـن چغتـاى).

طبقـاً للخطــة التــى أعدهــا «ســوبوداى - باتــور» كان جيــش المغــول المتجـه صـوب الغـرب أى صـوب أوروبافـى عـام ١٢٣٦م مـن عـدة إتجاهـات ـــ سيســتولى علــى شــرق أوروبــا بالجيــوش التــى يقودهــا الأمــراء الســابق ذكرهــم.

لقـد هاجـم جيـش المغـول بقيـادة «باطوخـان» و«سـوبوداى» أولاً سـلطنة «إيديـل - بلغـار» فـى عـام ١٢٣٦م. واسـتولوا علـى مدينـة بلغـار عاصمـة السـلطنة. لكـن باطوخـان لـم يفكـر فـى القضـاء علـى سـلطنة البلغـار بـل علـى العكـس تحـرك مباشـرة للأمـام بعـد أن فـرض عليهـا الضرائـب.

بعــد اســتيلاء «باطوخــــان» على موســـكو عام ١٢٣٧م دمــر المدينـــة تمامــاً ونهبهـا. وفيمـا بعـد أراد التوجـه للشـمال والإسـتيلاء علـى «نوڤاجـراد»، لكـن علـم أن المدينـة تقـع فـى مـكان لا يتـم الوصـول إليـه بسـبب الغابـات والمسـتنقعات؛ غيـر وجهتـه إلـى ناحيـة نهـر «إيديـل» وتقـدم مباشـرة صـوب سـهوب «الڤولچـا» (إيديـل). ولـم يكـن الـروس الضعفـاء بسـبب الحـروب الداخليـة بينهـم فـى وضـع يسـمح لهـم بدفـع المغـول. واسـتولى المغـول على المـدن الكبيـرة، ومـن بينهـم مدينـة «ڤلاديميـر» عاصمـة سـلطنة «سـوزدال» وأبـاد المغـول كل مـن قاومهـم فـى تلـك المـدن.

وفـى عـام ١٢٤٠م حـاول «باطوخـان» الإسـتيلاء علـى «كييـف» التـى تعد أم المـدن الروسـية. وعـرض علـى أهـل كييـف أولاً التسـليم حقنـاً للدمـاء، ولكـن تـم رفـض الإقتـراح. وبنـاءً علـى ذلـك هـدم «باطوخـان» الأسـوار بـآلات الحصـار، واسـتولى علـى «كييـف» عـام ١٢٤٠م. وبينمـا كانـت المدينـة يجرى نهبهـا، هـرب «كنـاز دانييـل» إلـى المجـر.

بعــد فتـح «كييف» اتجـه جيـش المغــول بشـــكل يتناســب مع الخطــة الموضوعــة إلى شــرق أوروبــا فى شـــكل جناحين أساسـيين. واتجه جيش المغـول بقيـادة «باطوخـان» و«سـوبوداى» إلـى «وادى الطونـة» متجـولاً فـى جنـوب غـرب «كييـف». أمـا الجيـش الـذى يقـوده «بايـدار» و«قايـدو» فقـد

تقدم صوب «بولونيا». وتجاوز هذا الجيش «ڤيستول» واستولى على مدينة «كواكووو» فى نوفمبر عام ١٢٤١م. وهرب ملك بولونيا ڤلاديسلاف إلى موراويا فى شهر مارس. وعبر جيش المغول ـــ الذى دخل سيلازيا (فى ألمانيا) - نهر «أودر». ثم قضى «بايدار» على الجيش المكون من «البولونيين» و«الألمان» - وقوامه ٣٠ ألف شخص - تحت قيادة «هنريك» فى «سيلازيا» فى التاسع من ابريل عام ١٢٤١م، واجتاح «بولونيا» بأكملها ووصل حتى «ألمانيا» و«تشيكوسلوفاكيا».

وكانت المجر هى هدف جيش المغول المتجه إلى «وادى الطونه» بقيادة «باطوخان» و«سوبوداى» هذه المرة. وجمع «بلا الرابع» (١٢٣٥ - ١٢٧٠) ملك المجر جيشا كبيرا فى» بودابست» الحالية. ولكنه تلقى هزيمة ثقيلة من سوبوداى فى ١١ أبريل عام ١٢٤١م، واستولى المغول على «بودابست». وهرب «بلا ملك» المجر بعد هذه الكارثة إلى الصرب (يوغوسلافيا حالياً). وبناءً على أمر من «باطوخان» تعقب جيش المغول بقيادة «قادانخان» فى أعقاب «بلا الرابع»، وذهبوا حتى البحر «الأدرياتيكى» وقد تقدم «بلا» أكثروهو لايعرف أن «قادان» يتعقبه، وهرب إلى «دالماتيا». وفقد «قادانخان» أثر بلا، وعاد إلى المجر فى شهر مارس عام ١٢٤٢م.

بعد النصر الكبير الذى أحرزه المغول فى المجر فى أبريل من عام ١٢٤١م احتلوا القسم الأكبر من «وادى الطونة».

عندما كان المغول يحاربون فى شرق أوروبا؛ جاء خبر مفاجىء من منغوليا بوفاة الحاكم العظيم «أوكتاي». وكانت وفاته ـــ وهو يبلغ من العمر ٥٥ عاما - عام ١٢٤١م سبباً فى توقف حملات المغول وعودتهم. والآن أصبحت أكبر مشكلة تواجه أمراء المغول هى مسألة من يتولى العرش.

لقد أنقذت عودة المغول أوروبا من قدر مفزع، وكان الأوروبيون قد صدموا بخطر «آتيلا إمبراطور الهون» من قبل فى القرن الخامس الميلادى، وبعد مرور ٨ قرون صدموا بغضب «باطوخان» هذه المرة.

وتضرعوا لعيسى لإيقاف اعتداء المغول. وخلال هذه الغارات التى استمرت على مدى ٦ سنوات من عام ١٢٣٦م حتى عام ١٢٤٢م وطأت أقدام جياد المغول الأراضى الممتدة حتى قبائل الطونه الغربية وإلى «الدينستر» من شاطىء «إرتش» فى الشرق. ولقد بددت الرياح آثارهم مع الوقت وأزالها ماء المطر وطمستها الرمال، ولكن الآثار الدموية التى تركها المغول فى أوروبا وآسيا لا يمكن أن تنسى أبداً.

عقد «باطوخان «العزم على العودة من بلغاريا فى ابريل عام ١٢٤٢م واستطاع الوصول إلى مقر قيادته على شاطىء «إديل». وكان باطوخان ابن الأكبر لـ» جوچى خان» بعد وفاة والده عام ١٢٢٦م وبعدما عاد من شرق أوروبا إلى «دشت قبچاق» وأسس «سلطنة آلتين أوردا». أصبح حاكما فى منطقة «دشت قبجاق» حتى شاطىء «نهر إرتيش».

بعد وفاة «أوكتاي» ظهرت بعض الاضطرابات بين المغول، وكان من الضرورى أن يجتمع المجلس لحل مشكلة من سيتولى الحكم، وكان يجب مرور خمس سنوات من أجل اجتماع المجلس هذا. وفى خلال هذه المدة أدارت» تراجنا» أرملة «أوكتاي» إمبراطورية المغول (١٢٤١ ــ ١٢٤٦م). وفى النهاية قام أبناء ملوك المغول بعقد المجلس فى صيف ١٢٤٦م على شاطىء نهر «أورخون» واشترك فى المجلس كل أبناء ملوك المغول ماعدا «باطوخان» وكذلك ممثلو الدول التابعة وحتى لجنة السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى المستعصم بالله. ونزولاً على رغبة «تراجنا خاتون» انتخب المشتركون فى المجلس فى ٢٤ أغسطس عام ١٢٤٦م «كويوك ابن أوكتاي» ليكون الحاكم الأعظم. ولكن لم يعترف به بعض أبناء الملوك وعلى رأسهم «باطوخان»، مما وضع الإمبراطورية أمام خطر حقيقى. فأعلن «كويوك» بسبب حرج موقفه أنه متوجه إلى «إيميل» عام ١٢٤٨م وغادر منغوليا ووصل إلى شمال شرق «بشباليق». وعبر منافسه «باطوخان» أيضاً إلى «يدى صو» من شواطىء نهر إديل. وجمع حفيدا چنكيز خان جيوشا جرارة لمحاربة بعضهم البعض، لكن «كويوك» توفى فجأة فى ٢٤ أبريل عام ١٢٤٨ م عن عمر يناهز ٤٣

عاما.

وحتى يجتمع المجلس مجدداً لينتخب حاكما جديدا للمغول، أدارت «أوغول قايمش» أرملة «كويوك» ذات الأصل المركيتى أو الأويراتى الإمبراطورية، وكان هدف «أوغول قايمش» أن يتولى الحكم «شيريمون» من أقرباء كويوك أو إبنها الصغير «قوچار». وفى تلك الأثناء قرر «باطو خان» أكبر أحفاد چنكيز خان وأكثرهم إحتراماً أن ينهى حسابه مع أحفاد «أوكتاي» بشكل نهائى، واتحدت قواته مع «سويورغاق طانى» أرملة طوليخان[١٦٤].

دعا «باطوخان» إلى مجلس المغول فى منطقة «آلماليق» عام ١٢٥٠م واقترح تولى «مونكى» الإبن الأكبر لـ« طوليخان» عرش الإمبراطورية. ولم يشارك أحفاد وأبناء «جغتاى» و«أوكتاي» فى هذا المجلس، وطبقاً لزعمهم فإن المجلس قد اجتمع فى مكان بعيد من أماكن الچنكيزيين المقدسة.

وبناءً على ذلك قرر «باطوخان» عقد المجلس على شاطىء نهر «كارولن». وكان «باطوخان» يرغب فى حضور أفراد عائلة «چغتاي» و «أوكتاي» المجلس. وفي النهاية بذل «باطو ـــ خان» كل جهده حتى اعتلى «مونكى خان» عرش الإمبراطورية، وهكذا انتقلت السلطة من عائلة» أوكتاي «إلى عائلة «طوليخان». وقرر ورثة «أوكتاي» الذين لم يقبلوا هذا الوضع ـــ حل المسألة بقوة السلاح. لكن «مونكى خان» أظهر موقفا ثابتا وقويا، وتخلص من أقارب «أوكتاي» بلا شفقة.

فى عهد مونكى خان (١٢٥١ ـــ ١٢٥٩م) استأنف المغول الفتوحات العسكرية مرة أخرى، وبدءوا فى اجتياحٍ العالم كالزلزال. وكان «مونكى خان» هو أكثر حكام المغول إجتهاداً وفطنة ونشاطا بعد چنكيز خان. عمل أولاً على تقوية وتنظيم مؤسسات عاصمة الدولة، وجمع فى خيمته المثقفين وممن يعرفون اللغة اللاتينية والروسية والفرنسية والأوردية والفارسية والهندية والتبتية والأويغورية والصينية والتونغوسية الذين يستطيعون كتابة رسائل بهذه اللغات. وطبقاً لما رواه الراهب

الفرنسى «روبروك» الذى زار «مونكى خان» عام ١٢٥٤ م، فإنه كان فى خيمة الحاكم ممثلو ديانات مختلفة وبخاصة الشامانية والإسلام والبوذية والمسحية النسطورية وداو.

ولكى يُضعف «مونكى خان» قوة ورثة «چغتاى» و«أوكتاى» وأن يفقدوا تأثيرهم، فقد أعطى شعب وأرض «أوكتاي» لورثة «طوليخان»، أما ما وراء النهر التى ظلت فى مجال تأثير «چغتاى» فقد أعطاها لـ« باطوخان». لهذا السبب كان يحكم تلك المناطق حتى عام ١٢٦٠م الحكام المرسلون من» آلتين أوردا»، لكن فى عام ١٢٦٠م قام «آلخو ـــ خان» حفيد «چغتاى» بطرد الحكام التابعين لـ«آلتين أوردا» من هذه المنطقة.

بعد عمل الاستعدادات الجادة استقر «مونكى خان» فى «قره قورم» الواقعة على شاطئ نهر «أورخون» عام ١٢٥٣م، واتخذها عاصمة لامبراطورية المغول الكبرى. ومجدداً جمع مجلساً على شاطئ نهر «أورخون» فى نفس العام وأصدر قراراً بفتح فارس وبغداد مقر الخلافة العباسية. وأرسل شقيقه الصغير «هولاكو» إلى الغرب بجيش قوامه ١٢٠ ألف شخص. وكانت تلك هى الحملة الثالثة التى يشنها المغول تجاه الغرب.

اتجه «هولاكو» صوب الغرب مباشرة من «قره قورم» فوصل آسيا الوسطى فى عام ١٢٥٤م، وبعد أن استراح فترة فى سَمَرقَنْد عبر «آموداريا» وهاجم فارس التى تقع تحت الحكم الشيعى فى ١٩ نوفمبر عام ١٢٥٥م، وكان نور الدين خورشاه حاكم الدولة الشيعية فى «كوهستان» الواقعة جنوب بحر الخزر؛ يدفع الضرائب لـ«نويون» المغول فى تبريز. وأسر هولاكو نور الدين خورشاه وأرسله إلى قره قورم إلا أنه قتل فى الطريق.

وبعد أن انتهى هولاكو من أمر الدولة الشيعية فى فارس، توجه إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى عام ١٢٥٧م، وسقطت بغداد فى ٢٠ فبراير عام ١٢٥٨م بعد حصار استمر ٣٠ يوما. وتم نهب المدينة تماماً،

وجعلها المغول خرابا بعد أن ظلت عاصمة للعباسيين لمدة ٥٠٨عام، ووقعت أسرة المستعصم بالله فى الأسر، وبأمر «هولاكو» تم صهر الذهب والفضة وصبها فى فم المعتصم وولديه فقتلوا، كما قتل جميع أعضاء الأسرة العباسية.

أرسل هولاكو فى عام ١٢٥٩ م «كيت بوقانويان» لفتح سوريا، واستولى المغول على حلب فى ٣٠ نوفمبر ١٢٦٠م وعلى حماة فى شهر أبريل.

لقد استقبل العالم المسيحى القضاء على الخلافة العباسية بالفرح والسعادة. لكن سلطنة المماليك فى مصر - والتى لم يسعدها إبادة المغول لمسلمى الشرق الأوسط ـــ تحركت لطرد المغول من سوريا. وانتهت الحرب التى دارت رحاها فى «عين جالوت» فى الثالث من شهر يوليو عام ١٢٦٠ م بانتصار السلطان المملوكى المظفر قطز قائد جيوش المسلمين والأتراك. وهكذا طرد من سوريا جيش المغول الذى يقوده «كيت بوقانويان» المكون من الچورچيين والأرمن.

إستمر هولاكو بعد احتلال بغداد (وحتى وفاته عام ١٢٦٨م) فى تحركاته للاستيلاء آسيا الصغرى وفارس والعراق. وصار قائدا لدولة جديدة عام ١٢٥٨م أطلق عليها إسم «الإيليخانية» وعاصمتها تبريز.

سعى «الإيلخانيون» كثيراً لفتح مصر وسوريا إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق أى نجاح فى مواجهة قوات المماليك المصرية.

فى عهد «مونكى خان» حاول المغول القضاء على دولة فيتنام «طالى» (٩٣٧ ـــ ١٢٥٣ م) بهدف إضعاف أسرة «سونغ» الجنوبية. واستولى «قوبلاي خان» (١٢١٥ ـــ ١٢٩٤م) شقيق «مونكى خان» مع «أورانغاتاي» ابن «سوبوداى باتور» على دولة «طالى» فقد دخلوا من «سي شوان» إلى «يونان»، واستولى أورانغاتاي على «خانوي» فى عام ١٢٥٧ م وأتم فتح فيتنام.

قرر المجلس المجتمع عام ١٢٥٨م شن هجوم مفاجىء على أسرة

«سـونغ» الجنوبـي، وقـام «أورانغاتــاي» - العائـد للقسـم الشـمالى لفيتنام - بالهجـوم علـى مدينـة «وُوجـو» (ووجانـغ الواقعـة فـى اقليـم خوبـى) بأمـرٍ مـن «مونكـى خـان». وقـام «قوبـلاى خـان» بأمـر مـن «مونكـى خـان» أيضـاً بتقديـم الدعـم والمسـاندة لهـذا الهجـوم. وهكـذا دخـل جيـش المغـول بآمـر «مونكـى خـان» مـن «شانشـى» إلـى «سـي - تشـوان». واسـتولى المغـول على مـدن عديـدة تابعـة لدولـة «سـونغ» الجنوبيـة وحاصـر مدينـة «خاجـو» لمـدة نصـف سـنة. ولكنـه جُـرِحَ جرحـا شـديدا عنـد الهجـوم للمدينـة، وتوفـى فـى الحـادى عشـر مـن أغسـطس عـام ١٢٥٩م. ولهـذا توقفـت فتوحـات المغـول.

دووا ــ خان وقوچيغار تكين

توفـى «مونكـى خـان» عـن ٥١ عامـا. وفتحـت وفاتـه الطريـق لانقسـام إمبراطوريـة المغـول. لقـد تـرك «طوليخـان» المتوفـى عـام ١٢٣٢م - أربعـة أبنـاء هـم: مونكـى وهولاكـو وقوبـلاي وأريـغ بوقـا. وبعـد وفـاة «مونكـى خـان» بـدأ النـزاع علـى العـرش بيـنِ ابنيـه «قوبـلاى» و«أريـغ بوقـا». ففى عـام ١٢٦٠ م عقـد «أريـغ بوقـا» مجلسـاً فـى «قـره قـورم» وأعلـن نفسـه الحاكـم الأعظـم. وعندمـا علـم «قوبـلاي» بهـذا الأمـر أعلـن نفسـه فـى مدينـة «كـاى ــــ فنـغ» حاكـم الإمبراطوريـة المغوليـة العظيـم، ثـم توجـه صـوب منغوليـا والشـمال بجيـش كبيـر مكـون مـن المانشـور والصينييـن والمغـول.

وحـارب أخـاه «أريـغ بوقـا» لعـدة سـنوات وأجبـره علـى الخضـوع لـه فـي عـام ١٢٦٤م. أمـا «قايدوخـان» حفيـد «أوكتـاي» ضـم إليـه أبنـاء «جغتـاي» وقـاوم «قوبـلاي» علـى مـدى خمسـة وثلاثيـن عامـا.

دعـا «قايدوخـان» أمـراء المغـول المعارضـون لـ«قوبـلاي» بتنظيـم مجلـسٍ علـىٍ شـاطىء نهـر «طـالاس» عـام ١٢٦٤م وبعـد أن اجتمعـوا عقـدوا إتفاقـاً قويـا. ونجـح «قايدوخـان» فـى إخضـاع قـوم «چغتـاى» لنفسـه وأعلـن نفسـه سـلطانا هنـاك.

إن «قوبـلاى» الـذى أعلـن نفسـه حاكـم المغـول العظيـم عـام ١٢٦٠م، كان معترفـا عنـد سـلطنة إديقـوت الأويغورية.كنـا قـد تحدثنـا فيمـا قبـل عـن

«باورچوق» الذى عاصر چنكيزخان. بعد وفاة «باورچوق» فى عام ١٢٣٥م توالى على حكم سلطنة إديقوت كل من «قوسماين» (١٢٣٥ - ١٢٤٥م) و«صالون تكين» (١٢٤٥ - ١٢٥٥م) و«أغرونج تكين» (١٢٥٥ - ١٢٦٥م) و«ماموراق تكين» (١٢٦٥ - ١٢٦٦م).

توجه «قوچغار تكين» سلطان إديقوت الأويغورية (١٢٦٦ ـــ ١٢٧٥م) إلى «قره قورم» عام ١٢٦٦م وزار خيمة» قوبلاى خان.» ومنحه «قوبلاى خان» آنذاك الأميرة «باباغار» ابنة «كويوك» زوجة له. وزاد ارتباط «قوچيغار تكين» أكثر بـ«قوبلاى خان» وتحدى «قايدوخان». وبناءً عليه شن «قايدوخان» و«دوواخان» عدة هجمات على سلطنة إديقوت واحتلوا قسما من بشباليق.

في عام ١٢٧٥م تسبب «قايدوخان» فى متاعب كبيرة لسلطنة إديقوت الأويغورية. وفى عام ١٢٧٥م قام «داواخان» حاكم قوم «چغتاى» ورفيق «قايدوخان» مدينة «إديقوت» بجيش قوامه ١٢٠ ألف شخص. واستمر الحصار٦ شهور. ولم يسمح الأويغور الذين دافعوا بشجاعة مع «قوچيغار تكين» بدخول المغول. ولكن جيش المغول وقوامه ١٢٠ ألف شخص نهب القرى الواقعة بجوار «طرفان». وانهار اقتصاد سلطنة الأويغور وساء حال الشعب. و«دوواخان» الذى لم يتمكن من الدخول للمدينة صرخ خاطبا «قوچيغار تكين» الواقف على أسوار المدينة قائلا: «إنك لن تستطيع مقاومتى أكثر من ذلك، ستتدمر مدينتك تماما،هل تظن أنك ستستطيع الدفاع عن مدينة منعزلة؟».أما «قوچيغار تكين» فقد أجاب قائلا: «إننى أوفى بالوعد لسلطان واحد، وليس لسلطانين.لقد ولدت فى هذه المدينة، وإذا مت فسأموت فيها. لن أنحنى لك مرة أخرى».

ثم كتب «دوواخان» رسالة وأطلقها بسهم إلى» قوچيغار تكين «يقولٍ فيها: «أنا من أحفاد چنكيز خان. فلماذا لا تدين لى بالطاعة؟ وفضلا عن ذلك فإنك متزوج بأميرة من قبيلتنا (يقصد باباغار (وإذا زوَّجت إبنتك لى فسآخذ جيشى وأعود. وإذا رفضت فسأصدر الأمر لاحتلال المدينة». وقد تم عرض رسالة» دوواخان» على الأمراء وحكماء المدينة لمعرفة

رأيهم. فقال الأمراء: «إن المؤن في المدينة على وشك النفاد، وإذا استمر دوواخان في الحصار سنموت جميعاً». فآجاب «قوچيغار تكين» الوطني النبيل الذي يفكر في شعبه قبل كل شي: «أنا مستعد للتضحية بإبنتي لإنقاذ شعبي. وهكذا سلم «قوچيغار» إبنته «إيل إيتمش» أميرة إديقوت للمغول، فرفع «دوواخان» الحصار وانسحب.

لقد ساءت أحوال الأويغور في طرفان وما حولها بسبب حصار «دوواخان» لمدينة «إديقوت» والذي إستمر لمدة ٦ شهور ونهبه لها، بجيش قوامه ١٢٠ ألف شخص. ولم تعد لديهم طاقة لدفع الكارثة التي حلت بهم. لذلك اضطر قسم من الأويغور للرحيل إلى منطقة «وُووى» في إقليم قانصو الحالي. لم يتمكن «قوجغار تكين» من إعادة طرفان إلى سابق عهدها وإعمارها، إذ توفى في سنة ١٢٧٦ أثناء نزاعه مع «قايدو».

وكان بين الأويغور الذين هاجروا إلى «وُووى»، أمراء ينتسبون لأسرة إديقوت الحاكمة، كما أوضحنا من قبل.

في نقش موجود في مكان يقع على بعد ٣٠ كم شمال« وووى»، تم تصوير الأحداث التاريخية التي وقعت خلال ٧٠ عام (١٢٦٦ ـــ ١٣٣٥م) بلغة شعرية غاية في الجمال، عبر فيها «دوواخان» عن رغبته في أن يكون صهرا لـ «قوچيغارتكين»: «كانت لديك فتاة جميلة وذات عقل وعفاف ممشوقة القوام أردت من زمن أن آخذها بدون أن تفقدها وأكون ابنا لك فنصبح ذوى قربى وتربطنا صداقة ابدية»

كتب هذه الكلمات الجميلة على ورقة ولفها حول سهم وأطلقها صوب الشخص المرسلة إليه.فتح أهل المدينة الرسالة وعند قراءتها تملكتهم السعادة. واجتمع الأمراء لفترة وتوجهوا إلى خيمة «قوچيغار تكين». وبعد أن أدوا له التحية قالوا ما يلي: «إننا ندافع عن المدينة منذ ستة أشهر، وقاومنا الكثير من الصعوبات، الطعام على وشك النفاد. فلو قبلت رجاءنا هذا لإنقاذ الناس من المحنة..فإنه يأمر بإنزال ابنته الأميرة «إيل إيتمش بيكا» من الحصن، وهي إنسانة نقية كالقديسة

البوذيـة.

وتحققت رغبة «دوواخان» فجمع جيشه وانسحب.[١٦٥]

إن هـذه المعلومـة تشبه مـع المذكـرات التـى نقلهـا «سـونغ ليـان» والذى عـاش فـى عهـد أسـرة مينـغ ومؤلـف كتـاب بإسـم «تاريـخ المغـول وقصـة تتعلـق بـ«باورچـوق آرت تكين».

بعـد أن توفـى «قوچيغـار تكيـن» فـى المعـارك التـى خاضهـا ضـد «قايـدو خـان» عـام ١٢٧٦م تولـى إبنـه الأكبـر «نوليـن تكيـن» عـرش سـلطنة «إديقـوت». وأيـد «نوليـن تكيـن» كوالـده جانـب» قوبـلاى» ولذلـك أحبـه «قوبـلاى» وخلفـاؤه. كمـا تـزوج مـن الأميـرات المغوليـات «بورقـان» و«باباجـا» و«أوراچيـن».

لـم يعتـرف «قايدوخـان» بحـق «قوبـلاى - خـان» فـى إعتـلاء عـرش إمبراطوريـة المغـول الكبيـرة، فظـل يحاربـه لمـدة ٣٤ عامـاً كاملـة بغيـر انقطـاع. لكنـه خسـر هـذه الحـروب فـى النهايـة ثـم توفـى بعـد فتـرة. ولكـن ابنـه «چابـار» عـرض الطاعـة والإمتثـال لــ تيمـور ابـن قوبـلاى عـام ١٣٠٦ م. وهكـذا تخلـى أحفـاد «أوكتـاي» عـن كونهـم أصحـاب كلمـة فـى السـلطة، وانضمـت الشـعوب التـى كانـت تابعـة لأجدادهـم إلـى شـعب «چغتـاى».

بعـد أن أعلـن «قوبـلاى خـان» نفسـه السـلطان الأكبـر عـام١٢٦٠م انقسـمت الإمبراطوريـة التـى أسسـها چنكيـز خـان إلـى عـدة أجزاء.علـى أن الإمبراطوريـة كانـت موحـدة فـى عهـد «أوكتـاي» و«كويـوك» و«مونكـى خـان» خلفـاء چنيكـز خـان. أمـا بعـد تولـى «قوبـلاى خـان» العـرش لـم تعـد «دولـة الإيلخانييـن» و«سـلطنة چغتـاى» و«آلتيـن أوردا» تابعـة للإمبراطوريـة، واسـتقلت كل واحـدة منهـا. و«قوبـلاى خـان» الـذى بقـي تحت نيـران الحروب الداخليـة لـم يتمكـن مـن توحيـد الامبراطوريـة المنغوليـة بقـوة السـلاح.

فـى عـام ١٢٧٩ م قضـى «قوبـلاى خـان» علـى أسـرة «سـونغ» الجنوبيـة وأصبـح حاكمـاً علـى الصيـن كلهـا، وإتخـذ «بكيـن» عاصمـة لـه وأسـس دولـة مغوليـة فـى الصيـن يسـمى «أسـرة يـوان» الحاكمـة وحـاول علـى إخمـاد روح

الوطنيـة لـدى الصينييـن، لكـن لـم يكـن ذلـك ليسـحق شـعور الصينييـن الوطنــى، لذلــك انتهــى حكــم المغــول للصيــن فــى عــام ١٣٦٨م. وأســس الصينيـون دولتهـم الوطنيـة باسـم «أسـرة منـغ».

نجـح «جويـوان - جانـغ» أول حاكـم لأسـرة «منـغ» (١٣٦٨ ـــ ١٣٩٨م) فــى طــرد «تيمــور» آخــر حاكــم مغولــى مــن دولتــه، وكذلــك كل المغــول الذيـن عاشـوا علـى أراضيهـم لمـدة ٨٨ عامـا.

نهاية سلطنة إديقوت

لقــد ذكرنــا مــن قبــل أن «نوليــن تكيــن» تــزوج مــن ثــلاث أميــرات مغوليـات هـن «بورقـان» و«باباچـا» و«أوراچيـن.» وقـد توفـى «نوليـن تكيـن» عــام ١٣١٨م تــاركاً وراءه إبنيــن مــن «باباچــا» إســمهما «صانكــى تكيــن» و«تمـور بوقـا». وتـزوج «تمـور بوقـا» مـن «تورچيسـمان» إبنـة «قـودان ابـن أوكتـايٍ» عـام ١٣٠٧م، وحكـم الدولة لمدة تسـع سـنوات (١٣١٨ ـــ ١٣٢٧م) وطبقـا لمـا ورد فـى بعـض المصـادر فإنـه قـد تـم سـجن «تمـور بوقـا» بأمـر «صـون تيمـور» حاكـم المغـول فـى عـام ١٣٢٧م، وتـم إعدامـه فـى خانباليـق (فـى بكيـن). ويذكـرٍ فـى نفـس المصـادر أن «صانكـى تكيـن» شـقيق تمـور تـم قتلـه معـه أيضـاً. كمـا تذكـر بعـض الروايـات أنـه بعـد مقتـل «تمـور بوقـا» تولـى» صانكـى تكيـن» حكـم إديقـوت الأويغوريـة. اسـتنادا لبعـض الوثائـق التاريخيـة يمكـن القـول إن «طايبـان» الأخ غيـر الشـقيق تولـى بعـد «صانكـى تكيـن». ولكـن علـى أيـة حـال تـم القضـاء علـى سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة فــى عهــد «طارمــا شــيرين» حاكــم شــعب چغتــاى والــذى اعتنــق الإســلام، وألحـق أراضيهـا بأراضـى شـعب «چغتـاى».

لقـد حافظـت سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة التـى اسـتمر وجودهـا مـا يقرب مــن خمســة قــرون (٤٨٥عــام) علــى إســتقلالها علــى مــدى ٢٧٥ عــام (٨٥٠ - ١١٢٥)، أمــا الـــ ٢١٠ أعــوام المتبقيــة اســتمرت نصفهــم كســلطنة مســتقلة وانقضــى ثمانــون عامــاً وهــى تابعــة للكيدانييــن الغربييــن وحوالــى ١٣٠ عــام تابعـة للمغـول.

الفصل الثانى والعشرون: دور الأويغور فى إمبراطورية المغول

فى عهد جنكيز خان وخلفائه «أوكتاي» و«كويوك» و«مونكى خان» تأسست دولة عظيمة فى التاريخ تمتد حدودها حتى المحيط الهادى فى الشرق ومدخل الطونة فى الغرب وسيبيريا فى الشمال وآسيا الصغرى فى الجنوب، إسمها إمبراطورية المغول الكبرى.

بالرغم من تأسيس المغول مثل هذه الدولة الكبيرة إلا أنهم لم يكونوا فى مستوى يستطيعون من خلاله الإرتقاء بالحالة الإجتماعية. لأنهم عاشوا ــ فى فترة مبكرة من التاريخ ــ فى الصحارى والغابات والسهوب. فمن عاشوا فى السهوب اشتغلوا بالرعي، ومن عاشوا فى الغابات اشتغلوا بالصيد. ولهذا السبب كانت السهوب والغابات مقرهم واستمر هذا الوضع حتى عهد «مونكى خان».

حقيقة أن المغول كانوا متخلفين وأميين إلا أنهم كانوا محاربين بارعين ويطيعون النظم العسكرية بغير اعتراض. إن الحياة فى الظروف الطبيعية القاسية للصحراء والسهوب ومكافحة الجفاف الشديد والأمطار الثلجية الكثيفة ونفوق الحيوانات جعلت المغول أصحاب جلد أمام الصعاب ومطيعون للنظام العسكري. والعلاقات القبيلة عندهم كانت قوية جدا. وظهر من بينهم رجل مثل جنكيزخان رغم انه أمي لكنه كان بفطرته ذكيا وجريئا وقويا وتولى قيادة المغول. بعد أن قرر هذا الرجل توحيد المغول وتأسيس دولة قوية عزم على جمع المتعلمين والأذكياء والمشاهير حوله.

فى تلك الفترة، كان الأويغور من أكثر الشعوب ثقافة فى آسيا

الوسطى والشرق. لذا دعا چنكيز خان المئات من الأويغور الموجودين فى» خوتن» و«كاشْغَر» و«قارا شَهَرْ» و«طرفان» و«بشباليق» و«آلطاي» لكى يتقلدوا وظائف مرموقة تتعلق بالشئون الخارجية والداخلية لدولة المغول.ذات مرة قال له «يلوجو - ساى» كبير مستشارى چنكيز خان وفى نفس الوقت أمير كيدان: «كما أن هناك احتياج لخبير فى صناعة القوس والسهم، كذلك ينبغى أن يكون هناك خبير فى غزو العالم وإدارته».[١٦٦]

لقد كان الأويغور الذين تولوا المناصب العليا فى إمبراطورية المغول، منهم السياسى الخبير والدبلوماسي البارع والإستراتيجى المجرب الذى يعرف كل دقائق الفنون العسكرية والرحالة الماهر ورجل العلم المثقف والمترجم والشاعر وخبير الخط والرسام والموسيقى.

بعد أن وحّد چنكيزخان قبائل المغول؛ هدف أولا إلى توحيد قبائل الترك الموجودة فى الغرب (آلطاي الشرق)، والموجودة فى الشمال(سيبيريا الشرقية). ولهذا الهدف شن چنكيز خان الهجوم أولاً على النايمان الموجودين فى آلطاي. وقتل بنفسه «تايان خان» ابن «إينانچ بيلكه» حاكم «نايمان»، ووقع مستشاره وحامل خاتمه «تاتا تونغا» الأويغورى فى أسر المغول. ولقد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما سبق.

وافق چنكيز خان على اقتراح « تاتا تونغا» بأن تكون الأبجدية الأويغورية أبجدية رسمية لإمبراطورية المغول، وحتى هذا الوقت لم يكن لدى المغول أبجدية يستخدمونها. وكان أبناء ملوك المغول وسائر أمرائهم مضطرين لتعلم الأبجدية الأويغورية. وتم تعيين «تاتا تونغا» معلما لأبناء چنكيز خان. كانت قوانين إمبراطورية المغول باللغة المغولية ولكن تكتب بالحروف الأويغورية.بالرغم من استخدام كل من الأبجدية الفارسية والأويغورية رسمياً عند الإيلخانيين إلا أن اللغة الرسمية لدولة «آلتون أوردا» وشعب «چغتاى» هى «اللغة الأويغورية» والأبجدية الرسمية هى «الأبجدية الأويغورية». والنتيجة أن شعب «چغتاى» والمغول الموجدين لدى «آلتون أوردا» تم صهرهم وتتريكهم على يد الأويغور والتتار

والقبجـاق، وفـى نفـس الوقـت إعتنقـوا الإسـلام. وكانـت «اللغـة الأويغوريـة» هـى لغـة البروتوكـول ومراسـلات أمـراء وحـكام المغـول.

بعـد اسـتضافة «باورچـوق آرت تكيـن» فى خيمـة چنكيزخان عـام ١٢١٠م فـى عاصمـة المغـول التـى تقـع علـى شـاطئ نهـر «كارولـن» بوصفـه سـلطان إديقـوت الأويغوريـة، تـم اسـتدعاء العديـد مـن الأويغـور مـن «بشـباليق» لكـى يتولـوا مناصـب مرموقـة فـى إمبراطوريـة المغـول. وبعـد أن بـدأ «چنكيزخـان» حركـة الفتوحـات فـى عـام ١٢٠٦م اشـترك العديـد مـن القـادة الأويغـور كمستشـارين للحمـلات التـى نظمـت ضـد الخوارزمييـن بيـن أعـوام ١٢١٩ ــ ١٢٢٥ م وضـد الجورجـت فـى ١٢١٥م.

بعـد وفـاة چنكيزخـان وفـى عهـد أبنائـه وأحفـاده اسـتمر تقلـد الموظفـون الأويغـور الوظائـف المهمـة فـى الدولـة. وكان مـن أشـهر الأويغـور الذيـن إشـتركوا فـى الحمـلات التـى نظمـت ضـد الغـرب فـى عهـد چنكيـز خـان «توراقايـا» و«بولادقايـا» ويسـتحق هـؤلاء التوقـف عنـد نشـاطهم بشـيئ مـن التفصيـل.

لقـد كان «توراقايـا» وهـو مـن بشـباليق فـى الأسـاس ــ إسـتراتيچيا ماهرا وخبيـرا فـى الخطـط العسـكرية. وكان أحـد المستشـارين المقربيـن لچنكيـزٍ خـان أثنـاء الحملـة التـى نظمهـا ضـد الخوارزمييـن. كمـا اشـترك أيضـاً «بولادقايـا» فـى الحمـلات الغربيـة، وأصبـح فيمـا بعـد نائبـاً لـ «طوليخـان» ابـن چنكيـز خـان، وكان هـو أيضـاً مـن مدينـة بشـباليق. وعندمـا قضـى چنكيـز خـان علـى دولـة «الجورجـت» عـام ١٢١٥م أرسـل «بولادقايـا» إلـى «جونـغ ــ دو» عاصمـة «الجورجـت» واليـا عامـا وسـفيرا خاصـا. وكان الوالـى العـام علـى «جونـغ ــ دو» فيمـا سـبق (١٢١٥ ــ ١٢٢٣م) اللـواء المغولـى «موغالـى»، وبعـد وفاتـه تـم تعييـن «بـولاد قايـا» مكانـه. وخـلال مـدة وجـود «بولادقايـا» فـى الوظيفـة حكـم كل شـمال الصيـن بإسـم المغـول. وفـى تلـك الأثنـاء كانـت الصيـن الجنوبيـة تحـت حكـم أسـرة «سـونغ» الجنوبيـة. وعندمـا قضـى المغـول علـى أسـرة «سـونغ» الحاكمـة عـام ١٢٧٩م أسـس «قوبـلاى ابـن طوليخـان» أسـرة «يـوان» الحاكمـة التـى إسـتمر وجودهـا ٨٩ عامـا،

وشغل الأويغور أهم الوظائف فى هذه الدولة أيضاً

فى عهد «قوبلاى» وخلفائه تقلد كل من «لَنْ -شِشَن» (١٢٣١ - ١٢٨٠م)، و«صانغا» (؟ - ١٢٩١م)، وأحمد (توفى عام ١٢٨٢م) و«أل يغمش» (توفى عام ١٣٢٠م) و«مانغو تكين» (نهاية القرن الـ ١٢م) وشيبان (١١٩٧ ـــ ١٢٧٦م) و«مونغ سوز» (نهاية القرن الـ ١٢م) وأخطر الدين (نهاية القرن الـ ١٣م) وظائف مرموقة فى خانباليق، ومن المفيد الكتابة باختصار عن هؤلاء الأشخاص الوطنيين البارعين المهذبين الموقرين.

كان «لَنْ - شِشَن» (المولود فى بشباليق عاصمة سلطنة إديقوت الأويغورية عام ١٢٣١م - كبير مستشارى «قوبلاى خان». عند وفاة «مونكى خان» عام ١٢٥٩م إنتهز «أريغ بوقا» (شقيق قوبلاى) الفرصة وعقد مجلسا بهدف الاستيلاء على قره قورم عاصمة إمبراطورية المغول. وعلى عرش الإمبراطورية، ووضع بعض خطوات ثابتة فى هذا الموضوع. أما «قوبلاى» فلم يعترف بنظام انتخاب الحاكم وأعلن نفسه فى عام ١٢٦٠م الحاكم الأكبر فى «كاى فنغ» عملا بنصيحة «لَنْ -شِشَن». هذا الموقف فتح الطريق للحرب بين «أريغ بوقا» و«قوبلاى» واستولى «قوبلاى» على «قره قورم» بعد ان هزم «أريغ بوقا» وخضع «أريغ بوقا» فى عام ١٢٦٤م «لقوبلاى» ودخل فى طاعته.

لقد كان «مونغ سوز» أيضاً من أقرب مستشارى «قوبلاى» وكان ذكيا ومثقفا ومتعلما تعليماً جيداً للغاية.

وكان «مانغو تكين» من معلمى «قوبلاى»، وبتأثيره ومساعدته تعلم «قوبلاى» اللغة المنغولية والأويغورية والصينية والتبتية، واهتم بفروع العلم المختلفة.

أما «شيبان» فكان دبلومآسيا عظيماً، وقد لعب دوراً مؤثراً فى المباحثات المتعلقة بمعاهدات السلام التى أبرمت بين «قوبلاى» وأعداءه. ولا سيما أنه كان قد نظم العلاقات بين «قوبلاى» و«أوكتاي»، وتوفى عام ١٢٧٦م عن عمر يناهز التاسعة والسبعين من عمره.

كان أحمد أيضاً ـــ وهو من الأويغور الخوتانيين ـــ من مستشارى «قوبلاى»، وكان شخصاً بارعاً وذا سلطة.

أما «أل يغمش» ذو الأصل الأويغورى، وهو الدبلوماسى والرحالة وقائد الأسطول المشهور فى عهد «إيسان خان» و«تمورخان» و«قوبلاى» من أكبر حكام أسرة «يوان» قام بزيارة سريلانكا الحالية وجنوب شرق الهند وأندونيسيا والهند - الصينية عدة مرات، وعند عودته أحضر معه سفراء من هذه البلاد ونماذج من البضائع التى يتم إنتاجها فى هذه الأماكن حديثاً. لقد كان هدف «قوبلاى» عندما أرسل «أل يغمش» فى هذه الرحلة هو جمع ما يمكن من معلومات عن هذه الدول وشعوبها. ولكن هدفه الأصلى كان الإستعداد للإستيلاء على جنوب شرق آسيا. لهذا فإنه بعد القضاء على إمبراطورية «سونغ» الجنوبية عام ١٢٧٩م أقدم على احتلال أندونيسيا وجنوب شرق آسيا واليابان.

وقد أرسل إلى اليابان فى عام ١٢٨٠م أسطولا يضم ١٦٥ ألف شخص منهم ١٢٠ ألف كورى وصينى. ولكن بسبب عاصفة غرق فى البحر قسم كبير من الجيش وانتهت تجربة الإحتلال بالفشل. وبالرغم من فشل تجربة احتلال اليابان إلا أن «قوبلاى» سعى للاستيلاء على كمبوديا وبورما وماليزيا وويتنام فى عام ١٢٨٣م. لقد اشترك «أل يغمش» بنفسه فى الحملات التى نظمها المغول صوب جزر الهند الصينية، كما إشترك فى حملة اندونيسيا عام ١٢٩٣م. بعد فشل حملة «قوبلاى» على اندونيسيا (لأن معظم جند المغول قد أصابهم المرض بسبب ظروف الطقس) عاد «أل يغمش» إلى خانباليق (بكين) وعمل حتى آخر عمره (١٣٢٠م) كمساعد كبير المستشارين.

كذلك كان «أختر الدين» ذو الأصل الأويغورى - واحدا من مهندسى عهد «قوبلاى». فقد كان رئيس المهندسين العاملين فى الإمبراطورية المغولية، ورسم مخططات العديد من المعابد والقصور، كما خطط بكين حالياً وأشرف على البناء. وكان أخطر الدين هو معد مشروع تأسيس مدينة جديدة بأمر» قوبلاى» والمخطط لها، أطلق عليها اسم«خانباليق»

(مدينـة خـان). لقـد وضـع «أخطـر الديـن» نصـب عينيـه شـكل الأرض وقـام أولاً بحـل مسـألة شـبكة القنـوات. وقـد حصـل علـى شـبكة ميـاه بعـد أن جهزٍ الأرض بالأنابيـب الخرسـانية، ثـم أنشـأ قصـر الحاكـم والمبانـى الكبيـرة. فضـلا عـن ذلـك أقـام بحيـرات «بـى - خـاي» و«جونـغ نـان خـاي» وأسـس علـى جانبيهـا قصـور الحاكـم ومنتـزه «جونـغ - شـان» حاليـاً. وأيضـاً أنشـأ أخطـرٍ الديـن ثلاثـة أنـواع مـن الطـرق تسـمى كبيـرة وصغيـرة ومتوسـطة طبقـاً للتخطيـط الـذى وضعـه. وكانـت الفكـرة أن يبلـغ عـرض الشـوارع الكبيـرة ٢٤ قدمـا، أمـا الصغيـرة فتبلـغ ١٢ قدما.فضـلاً عـن ذلـك لـم يهمـل إتخـاذ التدابيـر اللازمـة لتوفيـر مـا يحتاجـه كل نـوع فـى هـذه الشـوارع.

إن أجدادنـا بـدءًا مـن عهـد الهـون حتـى يومنـا هـذا اسـهموا اسـهامات قيمـة فـى حضـارات الصيـن. ويجـب ألا ينسـى جهـد أخطـر الديـن فـى تشـكيل العمـارة الحاليـة لبكيـن.

الفصل الثالث والعشرون: الإقتصاد فى سلطنة إديقوت

حققت الثقافة والإقتصاد تقدما كبيراً فى عهد سلطنة إديقوت. وأسهم المستوى الحضارى الذى بلغته سلطنة أورخون الأويغورية من قبل اسهاما كبيرا فى التطور الثقافى والاقتصادى فى هذه الفترة. وفى الحقيقة فقد لعب قيام سلطنة «إديقوت» على طريق الحرير الكبير الممتد من الشرق إلى الغرب دوراً فى هذا التقدم، لكونهم أكثر تطورا من الناحية الثقافية والإقتصادية مقارنة بمن هاجروا من أويغور الغرب الذين عاشوا هناك. إن هجرة أويغور الشرق إلى «بشباليق» و«طرفان» و«قارا شَهَرْ» و«كوچار» عام ٨٤٠م وإتحادهم مع القبائل الموجودة فى هذه الأماكن، ثم تأسيسهم سلطنة «إديقوت» عقب ذلك مباشرة، أدخل تاريخ الثقافة الأويغورية عهداً جديداً.

الزراعة

لقد اشتغل الأويغور المقيمون فى مناطق «كوچار» و«بشباليق» و «قارا شَهَرْ» و«طرفان» بالزراعة قبل الميلاد بعدة قرون فبينما كانت الزراعة هى العمل الرئيسى فى «طرفان»، كان الاشتغال أكثر فى «بشباليق» بتربية الحيوان إلى جانب الاشتغال بالزراعة. أما فى «قارا شَهَرْ» و«كوچار» فكانوا يعملون بالزراعة وتربية الحيوان على السواء.

لقد كان أويغور الشرق المهاجرون للغرب فى عهد السلطنة الأورخونية فى عام ٨٤٠م يعملون بتربية الحيوان بصفة عامة بينما الزراعة تأتى فى المرتبة الثانية. وبمرور الوقت تحول أويغور الشرق المهاجرين إلى الغرب من العمل بتربية الحيوان إلى الاشتغال بالزراعة، ومع أنهم لم

يتخلوا تماما عن تربية الحيوان ألا أنهم تحولوا لنظام الاستقرار التام.

يقول «أويانغ شيو» المؤرخ المشهور فى عهد «سونغ»: «لقد كان المقيمون فى هذه الأراضى(يقصد سكان سلطنة إديقوت) يعيشون على زراعة محاصيل مثل القمح والشعير والقرع والقنب والبصل ويحرثون الأرض بالجمال و يكسبون رزقهم».

أما المؤرخ «توق ـــ تو» (١٣١٤ - ١٣٥٥م) فيقول: إن مياه سلطنة إديقوت الأويغورية تأتى من «آلتون داغ» (يقصد جبال طانري) وتجرى حول مدينة إديقوت وتروى حقول القمح الواسعة والمراعى التى تقع فى المنطقة. إنهم يزرعون كل شىء هنا، ويزرعون أيضا القمح والأرز والبطيخ والفاكهة».

وكان مناخ منطقة طرفان مناسبا للزراعة ورعاية البساتين، لذا تم زراعة أنواع مختلفة مثل العنب والبطيخ والشمام والخضروات المتنوعة والقطن والقنب والحمص والحبوب. كما كان للصيد وتربية الحيوان مكانة مهمة.

الصيد وتربية الحيوان

يقول «توق - تو»: «فى مدينة «بشباليق» يربون الجياد بأعداد لا تحصى، وهناك مراعٍ خاصة بالأمراء والسلاطين، ذات ماء وعشب وفير.

ومعروف فى آسيا منذ القدم أن قوة الجيش تقاس بقوة الفرسان. وبصفة عامة كانت الدول التى تمتلك قوة فرسان أكثر هى المنتصرة. فعندما تَوجه الهون مباشرة من آسيا صوب عواصم أوروبا، لعبت جياد الهون الدور الأكبر لتفوقهمٍ على جياد الأعداء فى السرعة والقوة. وحققت وحدات الفرسان دائماً إنتصارات لإمبراطورية «الكوك تورك» بغير منافس. وقد إنتصر فرسان الأويغور فى عهد سلطنة أويغور الأورخونية أكثر من مرة على أعدائهم المتفوقين عنهم. إن جيوش چنكيزخان فى القرن الثالث عشر شتت معظم جيوش المشاة فى أوروبا وآسيا، ولعبت

وحـدات الفرسـان الـدور الأكبـر عنـد تأسـيس إمبراطوريـة المغـول الكبيـرة.

وكانـت وحـدات الفرسـان تظهـر فـى الحـروب فـى الأزمنـة القديمـة. ولـم يكـن الجـواد فـى حيـاة أجدادنـا وسـيلة مسـاعدة فقـط؛ بـل كان سـلاحا مهمـا للغايـة فـى القتـال كمـا كان الجـواد يعـد مـن بيـن أغلـى البضائـع فـى الأنشـطة التجاريـة. ولذلـك كان «الهـون» و«الكـوك تـورك» و«الأويغـور» يولـون أهميـة خاصـة للجيـاد بيـن القطعـان التـى يقومـون بتربيتهـا، فكانـوا يربـون عـدة ملاييـن مـن الجيـاد للحصـول علـى عـدة مئـات آلاف مـن جيـاد الحـرب الجيـدة. وكانـوا فـى سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة يربـون الجمـال والأغنـام والماشـية إلـى جانـب قطعـان الجيـاد.

لـم يكـن الصيـد مجـرد وسـيلة لتأميـن الطعـام للأويغـور، بـل كان مهـارة قتاليـة خاصـة بأوقـات السـلم. وكان الأويغـور رمـاة سـهام مهـرة. وكتـب سـفير الصيـن «وانـغ يـان - دى» الـذى جـاء إلـى سـلطنة اديقـوت عـام ٩٨١م «إن الأويغـور بارعيـن فـى رمـى السـهام مـن فـوق صهـوة الجـواد». وكانـت الحيوانـات المتوحشـة والطيـور المفترسـة كثيـرة فـى مراعـى وغابـات وجبـال سـلطنة إديقـوت. وحيـث تتوفـر فيهـا كل الشـروط اللازمـة للصيـد. ويقـول «أويانـغ - شـيو»: كانـت أراضيهـم غنيـة بأنـواع البقـر والحمـر الوحشـية والجمـال ذات السـنام الواحـد والغـزلان والأحجـار القيمـة والمـاس والجلـود المدبوغـة واللبـاد والملـح».

إلـى جانـب الصيـد بالسـهام مـن فـوق الجيـاد، كان الأويغـور يسـتخدمون أيضـا الطيـور المفترسـة. وتكثـر فـى أراضيهـم الصقـور والشـاهين والنسـور».

التجارة والفنون

كانـت سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة تسـعي للعيـش فـى إطـار مـن علاقـات حسـن الجـوار والسـلام مـع جيرانهـم. ومـع ذلـك لـم يكونـوا متفقيـن مـع القراخانييـن فيمـا يتعلـق بالموضوعـات الدينيـة.لأن القراخانييـن كانـوا قـد أسـلموا، بينمـا كان «الإديقـوت» بوذييـن ولذلـك دب النـزاع بينهمـا مـرات عديـدة. وعاشـت «إديقـوت» الأويغوريـة فـى سـلام أثنـاء الحـرب الداخليـة

التـى اسـتمرت لمـدة ٤٠ عامـا بيـن» قايدوخـان» و«قوبـلاى» مـن حـكام المغـول. وهـذا الوضـع ضمـن للسـلطنة المنـاخ الـلازم للازدهـار الإقتصـادى.

إن تطـور الزراعـة وتربيـة الحيـوان والحـرف اليدويـة مهَّـدَ لتقـدم الصناعـة. ولقـد تقدمـت كثيـرا فـروع الصناعـة مثـل صناعـة الحلـى كالفضـة والذهـب، وصناعـة السـلاح وتصنيـع المعـادن كالحديـد والنحـاس، وأيضـاً نسـيج الحريـر القطـن، وكذلـك صناعـة الـدواء وصناعـة أطقـم السـروج والحلـوى. وعـن ذلـك يقـول «تـوق - تـو» : «إن الأويغـور أذكيـاء وأقويـاء وحرفيـون، وكانـوا يصهـرون الحديـد والنحـاس والذهـب والفضـة، ويصنِّعـون الحلـى الجميلـة وأشـياء كثيـرة[١٦٧].

يقـول المـؤرخ الصينـى «خونـغ خـاو» الـذى عـاش فـى القـرن الثالـث عشـر : «كانـت نسـاء الأويغـور يضعـن فـوق رؤوسـهن ريشـا مـن الذهـب يلمـع ويتـلألأ. فالأويغـور صاغـة مهـرة، فهـم يصنعـون الأقـراط والحلـى الذهبيـة. كمـا يحيكـون المنسـوجات الحريريـة والمخمـل، ويخيطـون عبـاءات غايـة فـى الجمـال مسـتخدمين فيهـا خيطـا بخمسـة ألـوان. فضـلاً عـن ذلـك هـم مهـرة فـى المشـغولات الذهبيـة وكانـوا يرسـمون نقوشـا كالزهـور والأشـجار علـى التنـورات[١٦٨]».

إن الجهـود الموجهـة لتلبيـة الاحتياجـات الداخليـة والخارجيـة مهـدت الطريـق لتقـدم الصناعـة. ولأن طريـق الحريـر - الـذى يربـط الغـرب بالشـرق - يمـر مـن أراضـى سـلطنة إديقـوت، فقـد حقـق إضافـة مهمـة لتقـدم الصناعـة. ومهَّـد هـذا الوضـع لتطـور العلاقـات الثقافيـة والاقتصاديـة بيـن سـلطنة إديقـوت ودول الغـرب والصيـن.

لقـد أطلـق الجيـران سـاكنو الجبـال علـى الأويغـور منـذ القـدم إسـم «سـارت» ومعنـى «سـارت» هـو قائـد القافلـة، ذلـك لأنهـم كانـوا مهـرة فـى البيـع والشـراء، وصادقـون ولا يعرفـون الخديعـة فـى التجـارة.

مـارس الأويغـور البيـع والشـراء والتبـادل التجـارى مـع دول مثـل سـلطنة «الطانغـوت» و «كيـدان الشـرقية» و«سـونغ الشـمالية» فـى الشـرق، وفـى

الغرب وصلوا من الدولة القراخانية حتى الهند والخلافة العربية وفارس وبيزنطة. وكان الأويغور يصدرون لهذه الدول الجياد والجمال وأطقم الجياد (وبخاصة إلى إمبراطورية «سونغ» الشمالية) وكذلك الجلود والماس وقرون الغزال والنشادر والأدوية والحلى الذهبية والقماش والخيوط الملونة.فى الواقع كان هناك مشترون فى كل أسواق العالم للحلى الجميلة التى يصنعها الأويغور من الذهب والفضة والنحاس والحديد والأحجار الكريمة.

كان القماش (المنسوجات القطنية) والجياد والأدوية تحتل مركز الثقل فى التجارة بين دول «جورجت» و«كيدان الشرقية» و«سونغ الشمالية» وبين سلطنة إديقوت الأويغورية، ويتم سداد ثمن هذه الأشياء بالعملات النحاسية والحرير الصينى. وكان هناك احتياج للجياد بأعداد كبيرة بسبب الحروب المندلعة بين إمبراطورية «سونغ الشمالية» و«الكيدانيين الشرقيين». وقد واجهت إمبراطورية «سونغ» احتياجاتها من جياد الحرب بجلبها من كل من سلطنة إديقوت والقراخانيين (من خوتن). وكان مقدار ما دفعته إمبراطورية «سونغ» للجياد التى اشترتها من القراخانيين الشرقيين عام ١٠٨٥م مليون و٢٠٠ ألف عملة فضية. (تقريباً ٢٧٫٥ مليون فضة).

مستوى الرفاهية الإجتماعية

كان مستوى رفاهية الأويغور مرتفعا بسبب الإقتصاديات المتقدمة. وكانوا ينتجون العنب والفواكه والخضروات واللحم والحبوب كمواد غذائية. لم يكن هناك فقراء فى المجتمع الأويغورى كما أوضحنا من قبل. ولم تكن هناك حوادث وفاة غير مألوفة. وأعمار الناس طويلة بسبب تقدم الطب وارتفاع مستوى المعيشة، كما كانوا يتمتعون بصحة جيدة. ولم يكن عندهم مشكلة طعام أو البحث عن الطعام أو مشاكل فى الملبس.

يذكر فى كتاب «معلومات عامة عن قوچو الغربية» ما يلى: «ملابسهم ذات ياقات وأكمام. ومعطف الرجال يفتح إلى اليسار، أما النساء من الأمام. ويرتدون رداءا يصل إلى الركبة ويرتدون القمصان الداخلية. أما

النساء فيرتدين صيفاً وشتاءً غطاء رأس اسمه «طوماق» مثبت على طرفه الأمامى ريش الطيور. والرجال يرتدون فى الشتاء فقط «الطوماق»، أما فى الصيف فيرتدون طاقية قطيفة وأحياناً يرتدون قبعة من اللباد. وقمة القبعات مرتفعة بشكل لافت للإنتباه ومثبت على حافتها ريشة طائر برى.

أما ريشة الطائر المثبتة على قبعات النساء فتميل للخلف، كما أنها مزينة بزخارف من الزهور مصنوعة من الذهب والفضة وتعرض بصورة غاية فى الجمال. إن عمامات رجال الدين مستديرة وتصنع من قماش أبيض. ويرتدون أحذية مصنوعة من جلود الأبقار والأغنام».

كان حكام إديقوت الأويغورية والسيدات وأبناء الملوك والأمراء يرتدون ملابس تبهر العين بجمالها مصنوعة من الحرير الرقيق والمخمل، كما كانوا يرتدون تيجان ذهبية.

الفصل الرابع والعشرين: الثقافة فى عهد سلطنة إديقوت

العمران

لقد أقيمت في سلطنة إديقوت الأويغورية مدن معتنى بها وقلاع وحصون ومعابد وبيوت من طابقين.

يقول «وانغ يان - دى» الذى أرسلته إمبراطورية «سونغ» الشمالية سفيرا لسلطنة إديقوت الأويغورية: «هناك فى مدنهم حدائق وبساتين ومبان مرتفعة ومتنزهات». أما محمود الكاشْغَرى فيقول: «يوجد فى هذه البلد خمس مدن، والناس فى غاية الكفر ولكنهم صيادون مهرة». وهذه المدن هى: «صُولمى» التى أمر إسكندر المقدونى بتأسيسها و«قوجو» و«چانباليق» و«بشباليق» و«ينغيباليق»» [١٦٩].

يقول الكاشْغَرى فى كتابه الذى كتبه فى القرن الحادى عشر - مؤكدا على كون الأويغور بوذيون - «إنهم فى منتهى الكفر». ومن المحتمل أن يكون كلامه المتعلق بأن مدينة «صولمى» أسسها إسكندر المقدونى مجرد رواية، لأن الإسكندر جاء إلى آسيا الوسطى عام ٣٣٠ ق.م، ولكنه لم يصل إلى طرفان ونواحيها.

لا نملك معلومة مؤكدة تتعلق بزمن تأسيس «بشباليق» عاصمة سلطنة إديقوت الأويغورية ولا متى أطلق عليها اسم «بشباليق» ومتى أصبحت مدينة كبيرة.

ولكن يمكننا القول - إستناداً للمصادر المكتوبة وعلم الآثار - أنها تأسست قبل الميلاد (فى عهد «الهون») وأصبحت مدينة كبيرة للغاية

فـى عهـد دولـة «أورخـون» الأويغوريـة و«الكـوك تـورك». فـى الفتـرة التـى كانـت فيهـا «بشـباليق» عاصمـة دولـة أورخـون الأويغوريـة؛ كانـت تتكـون مـن مدينـة داخليـة ومدينـة خارجيـة، ووصـل عـرض أسـوارها إلـى ثمانيـة أمتـار وارتفاعهـا إلـى عشـرة أمتـار. ولقـد ورد ذكـر «بشـباليق» فـى علـى النصب التـذكارى الـذى أقيـم لـ«كـول ـــ تيكيـن» عـام ٧٣٢م. وربمـا كانـت «بشـباليق» مكونـة مـن خمـس مـدن. وكانـت المنـازل التـى يقيـم فيهـا الأمـراء وأبنـاء الملـوك موجـودة فـى المدينـة الداخليـة، وكان القصـر الـذى يقيـم فيـه الحاكـم فـى هـذا المـكان أيضـاً. نظـرا إلـى الخـراب والآثـار الباقيـة يمكـن القـول، كان هنـاك أسـوار القلعـة يحيـط بهـا خنـدق كالحـوض الصغيـر بعمـق ٣ أمتـار وعـرض ١٨ متـر.

إن «بشـباليق» التـى تقـع فـى اقليـم چيميسـار حاليـاً، قـد ورد ذكرهـا وربمـا ذكـرت بإسـم آخـر فـى الكتابـات التـى تعـود لفتـرة مـا قبـل الميـلاد. ولقـد تـم اسـتخدام اللبـن والقرميـد الملـون ولـوازم البنـاء الأخـرى عنـد بنـاء المدينـة، وتـم تحصيـن أسـوارها بالحصـون.

كانـت «بشـباليق» ذات موقـع اسـتراتيجى للغايـة وتقـع علـى ملتقـى طـرق دوليـة عريقـة تمتـد مـن الغـرب للشـرق ومـن الشـمال للجنـوب. ولأن المدينـة تمثـل أهـم مركـز اسـتراتيجى، فقـد سـاق العديـد مـن الحـكام الجيـوش للإسـتيلاء عليهـا وخاطـروا بخـوض الحـروب. مثـال ذلـك، الحـروب التـى اندلعـت فـى العهـود القديمـة بيـن إمبراطوريـة سـلالة «هـان الصينيـة» و«الهـون»، وبيـن «سـلالة طانغ» و«الكوكتـورك» وبيـن «التبتييـن» و «الأويغور» فقـد كانـت كلهـا مـن أجـل «بشـباليق».

لقـد خسـرت الصيـن الحـرب التـى دخلتهـا مـع العـرب عـام ٧٥١م فـى سـهل «طـالاس» الواقعـة داخـل حـدود قيرغيزسـتان اليـوم. وكأن ذلـك لـم يكـن كافيـاً فقـد اهتـزت بغليـان داخلـى شـديد ظهـر عـام ٧٥٨م (تمـرد آنلـو - شـان). وهكـذا، فبينمـا حكـم الصيـن فـى آسـيا الوسـطى يوشـك علـى الـزوال، ظلـت المنطقـة تحـت تأثيـر دولـة أويغـور «الأورخونيـة». ولقـد اسـتفادت إمـارة التبـت مـن ضعـف إمبراطوريـة «طانـغ» واحتلـت «قانصـو»

عـام ٧٦٠م، وبسـبب هـذا الإحتـلال انقطعـت الروابـط التـى تربطهـا بالإمـارات والشـعوب الموجـودة فـى الطـرف الغربـى للصيـن. لذلـك إسـتطاعت الصيـن أن تحقـق الاتصـال مـع هـذه المنطقـة من خـلال الممـر الدولـى المسمى«طريق الأويغـور». وفـى تلـك الأثنـاء عقـد اتفـاق بيـن دولـة «الأويغـور الأورخونيـة» و«أسـرة طانـغ» الحاكمـة ضـد إمـارة التبـت.

إن التجـار والدبلوماسـيين الصينييـن الذيـن اتجهـوا مـن «جانـغ آن» صوب الشـمال إسـتطاعوا الوصـول إلـى «قـره بلاسـاغون» عاصمـة سـلطنة الأويغـور الأورخونيـة متجاوزيـن سـد الصيـن، ثـم فيمـا بعـد إتجهـوا للغـرب مـن جبـال «آلطـاي» ووصلـوا إلـى «بشـباليق». إن هـؤلاء النـاس الذيـن تقدمـوا باتجـاه الجنـوب بعـد «بشـباليق» اسـتطاعوا الوصـول مـن «وادى تاريـم» و«جبـال طانـري» إلـى المـدن الغربيـة، حيـث أطلـق علـى هـذا الطريـق فـى تلـك الفتـرة «طريـق الأويغـور» وكان الطريـق الرئيسـى الـذى يمـر بـ«طريـق الأويغـور» (وادى فَرْغانـة وتاريـم وچونغاريـا ومنغوليـا) يقـع داخـل حـدود سـلطنة «أورخـون الأويغوريـة».

وكانـت سـيطرة الأويغـور علـى طريـق القوافـل الرئيسـى الممتـد مـن الشـرق إلـى الغـرب ومـن ثـم إقامـة علاقـات ثقافيـة واقتصاديـة وسياسـية مـع شـعوب الطـرف الغربـى، كان مـن الطبيعـى أن تمهـد الأرضيـة لظهـور المنافسـة بيـن إمـارة الأويغـور والصيـن.

لقـد حـارب الأويغـور التبتييـن مـرات عديـدة فـى عهـد إمـارة «أويغـور الأورخونيـة» مـن أجـل السـيطرة على مدينـة «بشـباليق» الإسـتراتيجية التـى تقـع علـى طريـق الحريـر التاريخـى، ولكـن فـى النهايـة ظلـت «بشـباليق» فـى حـوزة الأويغـور المتفوقيـن وتـم طـرد التبتييـن منهـا.

أمـا فـى سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة فقـد أصبحـت «بشـباليق» عاصمـة لهـا. واتسـعت المدينـة وتحولـت إلـى مدينـة كبيـرة. لقـد أوضحنـا فـى القسـم المعنـون بــ «دور الأويغـور فـى إمبراطوريـة المغـول» الأدوار المهمـة التـى لعبهـا الأويغـور الذيـن خـرج معظمهـم مـن «بشـباليق» على السـاحة السياسـية

والعسكرية فى عهد جنكيز خان وأحفاده فى القرن الثالث عشر. ويظهر أيضاً أن «بشباليق» هى المهد الذهبى لسلطنة إديقوت الأويغورية. إن معظم القادة والسياسيين الذين عاشوا بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر خرجوا من «بشباليق» وتربوا هناك.

كان الجزء الأكبر من الناس فى عهد سلطنة إديقوت الأويغورية يعيشون فى نظام مستقر واقتصاد مزدهر. أما العمارة فقد وصلت إلى مرحلة متقدمة. وكان الحكام والأمراء يعيشون فى قصور فاخرة، لكن الناس كانوا يقيمون فى منازل مزينة من الخشب ذات طابقين. والمنازل بصفة عامة وسط حدائق مزينة بالأشجار والورود.

كانت هناك قصور شتوية فى مدينة «قره قوچو» تعد مقر الإقامة الشتوى للسلطنة، أما مناخ المدينة فكان معتدلا. وكانت هذه المدينة فى الوقت نفسه مركزاً دينياً.

الأدب

أصبحت طرفان فى عهد سلطنة «إديقوت الأويغورية» واحدة من المراكز الثقافية الكبيرة فى آسيا الوسطى. ولوجود طرفان وبعض المدن على طريق القوافل بين الدول، فقد تعرفوا بثقافات التبت والصين والهند واليونان القديمة. لذلك ظهرت ثقافة أويغورية ثرية لكن خاصة بها. وبسبب وجود عناصر من المسيحية والبوذية والشامانية فى أساس ثقافة إديقوت الأويغورية، فقد كانت ثقافة عالمية الإنتشار. ومع ذلك لعبت البوذية الدور الأكبر فى تكوين هذه الثقافة.

إذا اعتبرنا الأدب الأويغورى المكتوب قد نشأ مع اختراع الأبجدية، فيمكننا ارجاع نشأته إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، لأن الأويغور كانوا يستخدمون الأبجدية قبل الميلاد بعدة قرون. ومع الأسف فنحن لا نملك وثيقة حاسمة تعرض ما يتعلق بكون الأدب الأويغورى مؤرخاً بتاريخ أقدم من ذلك. لأن الآثار الأويغورية المكتوبة الموجودة لدينا حالياً ترجع للقرن الخامس فقط.

عنـد الحديـث عـن موضـوع أدب إديقـوت الأويغوريـة، يمكننـا احصـاء كتـب مؤلفـة ومترجمـة مثل«القبـر المقـدس»، «إريـق - بتـوك (فـال نامـه)» ،«چسـتانى إيليكبـك»، «أشـعار مانـى»، «أوغـوز نامـه»، «آلتـون يـاروغ»، «إيكـى تكيـن حكاية سـى».

وإذا كان أويغـور الغـرب قـد اعتنقـوا البوذيـة قبـل الميـلاد، وبـدءوا فـى اعتنـاق المانويـة فـى القـرن الرابـع والخامـس. فلـم يكـن مـن قبيـل المصادفـة ترجمـة «بوطورميـش طارخـان» لـ«للقبـر المقـدس» المكونـة مـن ١٨٠ سـطرا إلـى الأويغوريـة القديمـة فـى القـرن الخامـس. أمـا البوذيـة فقـد تأصلـت فـى القـرن الخامـس بيـن أويغـور الغـرب وأصبحـت عقيدتهـم الأساسـية. ولقـد كانـت البوذيـة آنـذاك هـى العقيـدة الرسـمية فـى «قوچـو» و«كاشْـغَر» و«خوتـن»، ولكـن ذاعـت مـن جديـد فى نفـس القـرن فـى المناطق المشـهورة فـى «طرفـان». وكان هنـاك» مانويـون» أيضـا فـى بعـض مناطـق «طرفـان» و«قوچـو» و«كاشْـغَر». كمـا اعتنـق الأويغـور الشـرقيون «المانويـة» فـى ذات الأثنـاء. وتحـول «بوغـو - خـان» حاكـم الأويغـور الشـرقيين مـن الشـامانية إلـى المانويـة فـى عـام ٧٦٢م.

إن قصـة «چاسـتانى إيليـك بـك» وهـى مـن الروايـات الشـفهية المكتوبة فى مدينـة طرفـان فـى القـرن الخامس باللغـة الأويغوريـة وبالأبجديـة الأويغورية.

فقـد حـارب چاسـتانى إيليكبـك ــ بطـل الروايـة ــ الجـن الذيـن جلبـوا الأوبئـة، لكـى ينقـذ للنـاس ممـا ألـم بهـم مـن محـن وكـوارث، وانتصـر عليهـم. إن هـذه القصـة التـى تعـد أول نمـوذج للأسـاطير الأويغوريـة، قصـة ثريـة بالتشـبيهات والمبالغـات والتعبيـرات الأدبيـة الثريـة.

بالنسـبة لــ «إرق - بتـوك» المكتوبـة بأبجديـة أورخـون؛ فقـد عثـر عليهـا المستشـرق «آوريـل سـتاين» فـى أحـد معابـد الألـف مغـارة. وهـو عبـارة عـن كتـاب فـأل يتضمـن تفسـير أكثـر مـن مائـة حلـم وفـآل ومكـون مـن ١٠٤ سـطر. و«إرق - بتـوك» الـذى عثـر عليـه فـى الأطـلال الموجـودة بالقـرب مـن طرفـان، هـو كتـاب عبـارة عـن تفسـير الفـأل والـرؤى مـن زاويـة العالـم المعنـوى للأويغـور. وقـد أقـر بـأن هنـاك فـى «إرق - بتـوك» بعـض التفسـيرات

جيـدة وأخـرى سـيئة. فمثـلاً إذا رأى شـخص مـا فـى الحلـم أنـه يطيـر كالطائـر أو يرمـى بالسـهم أو إذا رأى شـروق الشـمس، فيفسـر ذلـك بأنـه خيـر، أمـا إذا رأى حريقـا أو أنـه يسـقط فـى شـرك الطيـور فيفسـر ذلـك بأنـه شـر.

إن تفاسـير الـرؤى الموضحــة فــى «إرق - بتــوك» تلقــى اعتبــارا بيــن الأويغـور اليـوم. وتجـرى اليـوم دراسـات عـن هـذا الكتـاب يقـوم بهـا باحثـون معاصـرون[١٧٠].

لقـد ظهـر مترجمـون وشـعراء كثـر فـى عهـد سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة، وفيمـا يلـى بعـض منهـم:

«آبرينجـور تكيـن» (القـرن التاسـع)، «كـول تارقـان»، «سـينقو سـالى توتونـغ»، «كلمـة قايشـى»، «فراتياشـرى»، «كـى - كـى»، «آسـيخ توتونـغ»، «چيصويـا توتونـغ». ولقـد انشـغل هـؤلاء بإيجـاد الأدب الأويغـورى[١٧١]. وتـم العثـور فـى طرفـان علـى قطعتيـن مـن الشِـعر ترجـع إلـى «آبرينچـور تكيـن المانـوى»، حيـث أن إحداهمـا عبـارة عـن «مديـح» مكـون مـن ثـلاث قطـع شـعرية مهـداه للإلـه «مانـى». والقطعـة الأخـرى واردة هنـا بلغتهـا الأصليـة وباللغــة الأويغوريــة الحديثــة.

وهنـاك أيضـاً أشـعار تتعلـق بالحـب والعشـق عبـارة عـن ٦ أبيـات شـعرية بلغتهـا الأصليـة وبالأويغوريـة الحديثـة.

وكــل الشعـراء السابـق ذكرهـم كانـوا بوذييـن ماعدا «آبـر ينچـور». وهنـاك شعــر لــ «براتياشـرى» أحـد هـؤلاء الشـعراء، عبـارة عـن ٢٩٣ بيـت شـعرى بعنـوان «فضيلـة الحكمـة»، أمـا «كيكـى» فقـد كتـب شـعراً مكونـا مـن ٩ قطـع و ٢٦٠ بيـت شـعرى.

إن بسـاطة لغـة الأدب الأويغـورى القديـم التـى تتضـح مـن آثـار الشـعراء الذيـن عاشـوا فـى عهـد سـلطنة إديقـوت الأويغوريـة، تبرهـن لنـا عـن تفـوق قـدرة الفكـر لـدى أجدادنـا.

كمـا عثـر أيضـاً على«أوغـوز نامـه» كتبـت بالأبجديـة الأويغوريـة القديمـة فـى طرفـان فـى القـرن الثامـن الميـلادى. ومـع أن «أوغـوز نامـه» تـم تداولهـا

شفهياً من منطقة لأخرى منذ العهود القديمة إلا أنها قد كتبت بالأبجدية الأويغورية فى «سَمَرقَنْد» و«كاشْغَر»، وهما من كبريات مدن القراخانيين فى القرن الحادى عشر. وربما أن «أوغوز نامه» المكتوبة بالخط الأويغورى القديم فى القرن الثامن، كتبت منها تلك النسخة بالأبجدية الحديثة فى عهد القراخانيين فى القرن الحادى عشر. ولتأييد وجهة نظرنا هذه يجب التحقق من وجود أو عدم وجود «أوغوز نامه» بين الكتب المؤلفة فى عهد القراخانيين.

فى الواقع لقد حقق الأدب والعلم قفزة كبيرة فى عهد القراخانيين، فقد ظهرت كتب تاريخية كبيرة مثل«زين الأخبار» للكرديزى، و«تاريخ البيهقى» المكونة من ٣٠ جزء للبيهقى، «تاريخ مُلك تركستان» (تاريخ تركستان) لمجد الدين عدمانى. وكذلك تم تأليف كتب تعليمية مثل «تاريخ بُخارى» لمحمد نار شاهى. و«سياست نامه» لنظام المُلك وتم ترجمته، و«قوتادغو بيليك» ليوسف خاص حاجب، إلى جانب كتب تتعلق بعلم اللغة لمحمود الكاشْغَرى والزمخشرى، و«أوغوزنامه» وغيرها [١٧٢]. ولما كانت هذه الكتب قد كتبت فى القرنين الحادى والثانى عشر الميلادى فيجب ضم «أوغوزنامه» الى قائمة آثار الأدب الأويغورى الذى ظهر فى عهد القراخانيين وعلى أرضهم.

إن قسما من الأدب الأويغورى الذى أنجز فى عهد إمارة إديقوت الأورخونية كانت موضوعاته تتعلق بالبوذية، والقسم الآخر كتب نقلت إلى الأويغورية عن طريق الترجمة، حيث يأتى على رأسها «آلتون ياروغ». حيث أن هذا الكتاب نقل من الصينية إلى الأويغورية فى «بشباليق» على يد شاعر اسمه «سينقوسالى توتونغ».

وقد عثر العالم الروسي «س.مالوف» فى عام ١٩٠٩م على النسخة الأويغورية الكاملة لـ «آلتون ياروغ» فى إقليم «قانصو» حيث توجد المعابد البوذية وفى المكان الذى عاش فيه «أويغور الصفر». ولقد حظى الكتاب بشهرة عالمية بعد أن نشره كل من «مالوف» و«رادولف» فى

أعـوام ١٩١٥ - ١٩١٧م. وبخـلاف النسـخ الأويغوريـة لكتـاب «آلتـون يـاروغ» الموجـودة فـى «طرفـان» و«داشـاتا» تحفـظ فـى برليـن وسـان بطرسـبورج الآن نسـخ منـه باللغـات المنغوليـة والصينيـة والتبتيـة.

وشـرح قصـص وحكايـات «بـوذا» الموجـودة فـى «آلتـون يـاروغ» المكـون مـن ٧٣٠ صفحـة، فمسـاهمة مهمـة جـداً لتطـور الأدب الأويغـورى المكتـوب. إن الترجمـة التـى قـام بهـا المترجـم البـوذى الماهـر» سنقوسـالى توتونـغ» الـذى عـاش فـى القـرن السـابع الميـلادى لـ«سـيرة شـونجانغ» الراهـب البوذي مـن الصينيـة، ترجمـه بلغـة فصيحـة جـدا.

الفنون

لـم يـرق الأدب فقـط فـى عهـد سـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة بـل ارتقـت أيضـا فنـون أخـرى مثـل فـن النحـت والنقـش والرسـم علـى النمـط البـوذى، وتأثـرت أيضـا بالفـن الصينـي واليونانـى القديـم (عـن طريـق البوذيـة الهنديـة) والفارسـى(عن طريـق المانوية).

إن بـروزات المعابـد البوذيـة ورسـوم الحائـط وفـن المعمـار المسـمى «ألـف مغـارة» الـذى يحتـل موقعـاً علـى أراضـى سـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة، أظهـر تأثـر فـن أويغـور إديقـوت كثيـرا بالفـن الصينـي والهنـدى واليونانـى والفارسـى.

كانـت العقيـدة البوذيـة هـى الأكثـر إنتشـاراً فـى سـلطنة «إديقـوت» الأويغوريـة، ولكـن «النسـطورية» و«المانويـة» لـم تكـن قويـة. إن أويغـور الشـرق الذيـن هربـوا للغـرب فـى عـام ٨٤٠م اعتنقـوا البوذيـة المعتمـدة لـدى الإديقـوت فـى وقـت قصيـر بالرغـم مـن أنهـم كانـوا مانوييـن.

وقـد شـيدت هـؤلاء أويغـور الشـرق المهاجريـن معابـد «مانـى» الموجـودة فـى «طرفـان». وفـى القـرن الثانـى عشـر الميـلادى اعتنـق جـزء صغيـر جـداً منهـم المسـيحية النسـطورية.

● حكام إديقوت الأويغورية

١ ــ پان تكين ٨٥٠ ــ ٩٦٦م
٢ ــ بوكو تكين ٨٦٦ ــ ٨٧١
٣ ــ إردمين ٩٤٠ ــ ٩٤٨
٤ ــ أرسلان خان ٩٤٨ ــ ٩٨٥
٥ ــ بيلكا تكين ١١٢٦ ــ ؟
٦ ــ إيسن تومور (والد آرت تكين) ؟ ؟
٧ ــ باورتشوق آرت تكين ١٢٠٨ ــ ١٢٣٥
٨ ــ كوسماين ١٢٣٥ ــ ١٢٤٥
٩ ــ سالون تكين ١٢٤٦ ــ ١٢٥٥
١٠ ــ أوغرونتش تكين ١٢٥٥ ــ ١٢٦٥
١١ ــ ماموراق تكين ١٢٦٥ ــ ١٢٦٦
١٢ ــ قوچيغار تكين ١٢٦٦ ــ ١٢٧٥
١٣ ــ نولين تكين ١٢٧٥ ــ ١٣١٨
١٤ ــ تومور بوكا ١٣١٨ ــ ١٣٢٧
١٥ ــ سنجى تكين ١٣٢٧ ــ ١٣٣١
١٦ ــ تايبان ١٣٣١ ــ ١٣٣٥

● أميرات المغول اللاتى جئن كعرائس لحكام إديقوت

إسمها	أبوها	زوجها	بتاريخ
آلآلتون[١٧٣]	جنكيزخان	باورتشوق آرتتكين	١٢١٠
باباكار	كويوك	قوجيغارتكين	١٢٧٠
بورقان	حفيدة أوكتاي	نولينتكين	١٢٧٥

باباتشا	حفيدة أوكتاي	نولينتكين	١٣١٠
أوراتشين	آنادار	نولينتكين	١٣١٠
تورجسمان	أميرمغولى	توموربوقا	١٣٠٧

الفصل الخامس والعشرون : إمارة أويغور قانصو

قيام إمارة أويغور قانصو

فـى القـرن الثانـى عشـر كانـت إمـارة التبـت فـى شـرق آسـيا قـد وصلـت إلـى قمـة قوتهـا. وفـي عـام ٦٣٠م ولـد بطـل قومـى بيـن التبتييـن إسـمه «سـونغ زن - كان - بـو». ونجـح فـى توحيـد القبائـل الجبليـة ضمـن القبائـل التـى تقيـم بجـوار «كوكنـور» وأتـم إقامـة دولـة التبـت وتكويـن الجيـش الـذى يضمـن قوتهـا بشـكل واضـح. وأرسـل «سـونغ زن - كان - بـو» الرجـال إلـى أويغـور «خوتـن» وطلـب منهـم مسـاعدة فـى وضـع الأبجديـة التـى اسـتخدموها (محتمـل أن تكـون اللغـة السـنكريتيه). استشـعرت إمبراطوريـة «طانـغ» القلـق مـن قـوة جارتهـا التبـت، فأرسـلت أميـرة تدعـى «ونجنغْ» لتكـون زوجـا لـ«سـونغ زن - كان - بـو» فـى عـام ٦٤١م، وأرسـلتَ أَميـرة أخـرى إسـمها «جنجـغ» فـى عـام ٧١٠م لتكـون زوجـا لحاكـم التبـت.

فـى القـرن الثامـن بـدأت معـارك دمويـة طويلـة بيـن إمبِراطوريـة «طانـغ» ودولـة التبـت. وبالرغـم مـن عقـد إمبراطوريـة «طانـغ» إتفاقـاً مـع إمـارة أويغور الأورخونيـة ضـد التبـت إلا أن «التبتييـن» لـم ينهزمـوا فـى أى معـارك، ولـم تكـن «طانـغ» بنفـس قوتهـا بسـبب حـرب «طـالاس» وثـورات «أونلـوق». فانتهـز التبتيـون الفرصـة واسـتولوا علـى جـزء مهـم مـن إقليـم «سيجـون» وعلـى كل «قانصـو».

بعـد معاهـدة السـلام المبرمـة مـع إمبراطوريـة «طانـغ» فـى عـام ٧٨٣م تحركـت دولـة التبـت صـوب إمـارة أويغـور الأورخونيـة بهـدف احتـلال «وادى تاريـم». وانهـزم الأويغـور فـى البدايـة حتـى أن التبتييـن اسـتولوا

علـى «بشـباليق» أيضـاً، لكـن نجـح الأويغـور فـى اسـتردادها عـام ٨٠٠م. أمـا فـى عـام ٨٠٨م فطـرد الأويغـور التبتيـن مـن منطقـة «ليانـغ ــ جـو» التـى تقـع فـى قانصـو. وبالرغـم مـن محاولـة جيـش التبـت مجـدداً فتـح «كوچـار» و«بشـباليق» غيـر آبهيـن بالهزيمـة التـى لحقـت بـه، إلا أن «آى طانـري خـان» حاكـم الأويغـور أنـزل بـه ضربـة ثقيلـة فـى المنطقتيـن عـام ٨١٢م. وفـى أعقـاب هـذه الهزيمـة عمـل التبتيـون علـى اسـتمرار حكمهـم فـى إقليـم «قانصـو» طوعـاً أو كرهـاً.

وكمـا هـو معـروف فـإن جـزءا مـن أويغـور الشـرق هاجـروا إلـي «قانصـو» عـام ٨٤٠م ويقـول المؤرخـون وهـم بصـدد الحديـث عـن الأويغـور المهاجريـن إلـى ممـر «خشـى»: «إن قسـما مـن الأويغـور ذهـب إلـى التبـت» واضعيـن نصـب أعينهـم سـيطرة جيـش التبـت علـى قانصـو فـى تلـك الأثنـاء.

فـى عـام ٨٦٥م هـزم جيـش إمـارة إديقـوت الأويغوريـة بقيـادة «بوكـو - تكيـن» جيـش التبـت بجـوار بحيـرة «كوكنـور» فـى مـكان يسـمى «ليـدو» بجنـوب مدينـة «شـى - نينـغ». وقطعـت رأس «شـانغ كونـرى» الجنـرال التبتـى الأسـير، واعتبـاراً مـن هـذا التاريـخ انتهـت سـيطرة جيـش التبـت علـى قانصـو. فضـلاً عـن ذلـك كانـت دولـة التبـت فـى ذلـك الوقـت تعيـش فتـرة انهيـار ونزاعـات داخليـة.

إن الهزيمـة الثقيلـة التـى أنزلتهـا إمـارة إديقـوت الأويغوريـة بالتبتييـن عـام ٨٦٥م مهـدت مـن ناحيـة لإنهيـار التبـت، ومـن ناحيـة أخـرى هيـأت لحصـول الأويغـور المقيميـن فـى ممـر «خيشـى» بقانصـو علـى حريتهـم.

فـى عـام ٨٧٠م أسـس الأويغـور المقيمـون فـى ممـر «خيشـى» دولـة عاصمتهـا «جـان - يـى» (قانصـو)، حيـث تذكـر هـذه الدولـة فـى كتابـات المؤرخيـن الصينييـن بإسـم «دولـة قانصـو الأويغوريـة». أمـا نحـن فنطلـق علـى هـذه الدولـة إسـم «دولـة أويغـور قانصـو» (٨٧٠ ــ ١٠٥٥م). وكانـت حـدود هـذه الإمـارة تشـمل» دونخوانـغ التـى تقـع بجـوار مـدن إقليـم «قانصو» اليـوم، و«جانـغ - يـى»، و«أنشـي»، و«جيوجيـون»، و ضواحـى «لَنْجُـو»، و«وادى

إرسـين» فـى مدينـة «نغشـيا» الحاليـة.

وقبـل إقامـة هـذه الدولـة هاجـر جـزء مـن قبيلـة «يغلاقـار» مـن أويغـور الشـرق إلـى «ممـر خيشـى» عـام ٨٤١م.

الفصل السادس والعشرون: قوة سلطنة أويغور قانصو

فـى عـام ٩٠٧م تـم القضـاء علـى إمبراطوريـة «طانـغ» (٦١٨ - ٩٠٧م) التـى اسـتمر وجودهـا ٣٠٠ عـام تقريبـاً. وبعـد ذلـك بـدأت المرحلـة التـى تسـمى فـى التاريـخ بإسـم «الأسـرات الحاكمـة الخمـس، والإمـارات العشـر». وفـى تلـك الفتـرة تأسسـت «الأسـرات الخمـس» فـى الصيـن الشـمالية: «مؤخـر ليانـغ» (٩٠٧ - ٩٢٣م)، «مؤخـر طانـغ» (٩٢٣ - ٩٣٦م) «مؤخـر جـن» (٩٣٦ ـــ ٩٤٦م) «مؤخـر هـان» (٩٤٧ ـــ ٩٥٠م) و«مؤخـر جـو» (٩٥١ ـــ ٩٦٠م).

وفـى نفـس الفتـرة قـد تأسسـت الإمـارات العشـر التاليـة فـى الصيـن الجنوبيـة متضمنـة إقليـم «سـان - سـى»: إمـارة «وو» (٩٠٢ - ٩٣٧م)، و إمـارة «طانـغ الجنوبيـة» (٩٣٧ - ٩٧٥م)، وإمـارة «وُيـو» (٩٠٧ - ٩٧٨م)، وإمـارة «جـو» (٩٠٧ - ٩٥١م)، وإمـارة «ميـن» (٩٤٥ - ٩٧٠م)، وإمـارة» هـان الجنوبيـة» (٩١٧ - ٩٧١م)، وإمـارة «شـو السـابقة» (٩٠٣ ـــ ٩٢٥م)، وإمـارة «مؤخـر شـو» (٩٣٣ ـــ ٩٦٥م)، وإمـارة «نانـغ -فينـغ» (٩٢٤ ـــ ٩٦٣م) وإمـارة «هـان الشـمالية» (٩٥١ – ٩٧٩م).

فـى فتـرة «الأسـرات الحاكمـة الخمـس، والامـارات العشـر» لـم تكـن هنالـك دولـة مركزيـة قويـة فـى الصيـن، ممـا هيـأ المنـاخ المناسـب لتقويـة «إمـارة أويغـور قانصـو». وقـد اسـتمرت العلاقـات بيـن إمـارة أويغـور «قانصـو» والصيـن علـى مبـدأ المسـاواة. والسـبب فـى ذلـك ضعـف» الأسـرات الحاكمـة الخمـس» مقارنـة بالـدول الأخـرى، وكانـوا لا ينقطعـون عـن محاربـة بعضهـم البعـض بهـدف إخضاعهـم لحكمهـم، ولذلـك لـم تكـن حدودهـم مسـتقرة.

فـى عـام ٩٦٠م نجحـت أسـرة «سـونغ» فـى توحيـد الصيـن، لكـن علاقـات

الجوار مع سلطنة أويغور «قانصو» كانت تتسم بالصداقة. وخاضت سلطنة أويغور «قانصو» من يوم قيامها صراعا مسلحا لإخضاع قبائل المنطقة لطا عتها.

وعندما أدرك «جانغ جنفين» وريث «جانغ فياو» الوالى السابق لمنطقة «داشاتا» الواقعة تحت حكم أسرة «طانغ» حتى عام ٨٧٢م؛ أن أسرة طانغ لن يمكنها الإستمرار فى بسط حكمها عليه أكثر من ذلك، حاول فى عام ٩٠٥م تأسيس سلطنة مستقلة تحت اسم «سلطنة الهان آلتون داغ الغربية» ولكن عمر السلطنة كان قصيراً، لأن الأويغور أعلنوا الحرب ضده عام ٩٠٦م وانتهت المعارك بانتصار سلطنة أويغور قانصو عام ٩١١م. حتى أن إتحاد «جانغ جنفين» مع التبتيين للتغلب على الأويغور لم يغير النتيجة. وهكذا ضاع عرش «جانغ جنفين»، وعيّن الأويغور «صاوجين» واليا مكانه.

كانت العلاقات القائمة بين سلطنة أويغور «قانصو» والملكيات الصينية فى عهد «الأسرات الخمس، والامارات العشر» تسير فى مسارها العادى. ولكن الانتصار الذى حققه الأويغور على «جانغ جنفين» عام ٩١١م لم يرض «إمارة مؤخر ليانغ» الموجودة فى «كاى - فنغ»، وتراجعت العلاقات بين الطرفين حتى أن «مؤخر ليانغ» أراد مساعدة «جانغ جنفين» ولكن لم تكفى قدرته لإنقاذه.

فى ظل حكم الحكام المنتسبين لقبيلة ياغلاقار أصبحت عاصمة سلطنة أويغور «قانصو» قوية بشكل لافت للإنتباه لقد امتدت حدودها إلى «ليانغ ـــ جو» فى الشرق وحواف «جبال طاني (حتى قمول)» فى الغرب وسلاسل «جبال جيلنشن» فى الجنوب وحتى «رمال طانرى» فى منطقة نينغشيا فى الشمال. كانت الأراضى التى تقع تحت حكم الإمارة صالحة للزراعة وتربية الحيوان. فضلاً عن ذلك لعبت دوراً مهماً فى التجارة بين الصين والغرب لوقوعها فى ملتقى طريق القوافل الدولى، كما كانت لها علاقاتها التجارية مع بعض الدول.

يجب هنا أن نذكّر بما قاله المؤرخون الصينيون فى العصور الوسطى

حيث أنهم أطلقوا بالخطأ على القوافل التجارية تلك «هيئات السفارة» وعلى البضائع التى يصدرها الأويغور أنها «جزية». لأن فى تلك الفترة لم تكن سلطنة أويغور «قانصو» مرتبطة بالصين بأي شكل من الأشكال. حتى أنه فى الأيام التى وحدت فيها أسرة «طانغ» الصين، احتفظت سلطنة أويغور «قانصو» بإستقلالها. فى الحقيقة لم يكن حكام «سونغ» الشمالية فى وضع يمكنهم من استعمال الضغط السياسى أو العسكرى على سلطنة الأويغور. لأنهم تعرضوا لهجمات سلطنة «كيدان الشرقية» أولاً ومن بعدهم «الطانغوت». ومع ذلك لا يمكن أبدا تصوّر أن سلطنة أويغور «قانصو» تدفع الضرائب لأسرة «سونغ».

وفى فترة «الأسرات الخمس، والإمارات العشر» كانت بعض الإمارات الصينية ـــ بغض النظر عن ضعف أحوالهم ـــ تعتبر أن مهمتها عند تغيير الحكام فى سلطنة أويغور قانصو، أن تمنح الحاكم الجديد لقبا يدل على الاحترام. وذلك يشبه منح الخلفاء العباسيين للحكام القراخانيين وسلاطين الغزنويين والسلاجقة ألقاب مثل «المدافع عن الدين»، و«حاكم الشرق والغرب». لأن حصولهم على مثل هذه الألقاب من الخلفاء العباسيين لا يعنى أنهم تابعين لهم.

الحروب بين سلطنة أويغور قانصو والطانغوت

فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى تأسست فى المناطق المجاورة لحدود إمبراطورية «سونغ»، سلطنة «كيدان الشرقية» أولاً ثم «الطانغوت» وبعدهم دولة «الجورجت». وقام «الجورجت» و«الكيدانيون الشرقيون» - بغية توسيع أراضيهم - بالهجوم على أسرة «سونغ» و«إمارات الصين» التى أصابها الضعف، أما «الطانغوت» فقد سعوا أولا للقضاء على «سلطنة أويغور قانصو» بالقيام بهجمات مستمرة.

كان «الطانغوت» الذين يرون أنفسهم من أصل تبتى يعيشون منذ القدم على الحواف الغربية لجبل «جوغاى» وكانوا تابعين للأويغور فى عهد سلطنة «أويغور الأورخونية».

ساعدت الأحداث التي وقعت في شرق آسيا في القرن العاشر الميلادي على نمو قوة «الطانغوت»، لأن الأويغور الشرقيون هاجروا إلى الغرب في عام ٨٤٠م، ودولة التبت القوية ضعفت في عام ٨٦٠م، وقضى على «أسرة طانغ» عام ٩٠٧م، وتأسست في الصين عشر دول ضعيفة، ووقعت الحروب بين أسرة «سونغ» و«الجورجت» و«الكيدانيين الشرقيين»، وقد مهد ذلك كل الأرضية لتقوية قبائل «الطانغوت» وإقامة دولة قوية.

لقد أقدم زعيم الطانغوت «لِيَنْخاو» على إقامة دولة الطانغوت عام ١٠٣٠م، وأعلن نفسه حاكماً عليها. وعاصمتها مدينة «يَنْجُوَون» الواقعة في نينغشيا حالياً. إن منطقة «نينغشيا» والقسم الشمالي لمقاطعة «جِنخه - ي»، ومناطق شمال غرب «قانصو»، وجزءا من منغوليا الداخلية؛ كانت كلها داخل حدود الدولة. وكان الشعب يتكون من الطانغوت والأويغور والصينيين والتبتيين.

كان الطانغوت في حالة حرب مستمرة مع جيرانهم (الأويغور، الكيدانيون الشرقيون، أسرة سونغ، والجورجت) ولم تكن علاقاتهم مع سلطنة أويغور قانصو ــ خاصة ــ ودية في أي وقت من الأوقات.

ويمكن تقسيم الحروب بين الأويغور و«الطانغوت» إلى فترتين. الفترة الأولى حوالي ستين عاماً خلال أعوام ٩٢٠-٩٨٢م. أما الفترة الثانية فقد استمرت خمسين عاما من ٩٨٢ حتى ١٠٣٢م. وسنورد فيما يلي الأحداث المهمة التي وقعت في هاتين الفترتين.

كان «الطانغوت» في القرون الأولى من الميلاد يعيشون حياة بدوية في المنطقة القريبة للجزء الشرقي من إقليم «قانصو» وفي أراضي «نينغشيا». وفي تلك الأثناء كان «الطانغوت» يشكلون إتحادا قبليا، ويشنون الهجمات بإستمرار على السفارات التي ترسلها سلطنة أويغور قانصو إلى الدولة القائمة في واحة الصين الكبيرة عام ٩٠٢م وعلى قوافل التجارة، ولكن الأويغور كانوا بالاشتراك مع دولة «مؤخرة طانغ» يواجهون تلك الهجمات بمقاومة شديدة «إذ تم تقوية وحدات حماية القوافل وخصصت الجيوش لمرافقتهم ونظمت الحملات ضد الطانغوت» [١٧٤].

لقد تزايدت قوة الطانغوت فى أواخر القرن العاشر الميلادى بقدر لافت للإنتباه ثم أقدموا على بناء دولتهم. وعلى مدي خمسين عاما من ٩٨٢م حتى ١٠٣٢م نظموا هجمات متواصلة على «سلطنة أويغور قانصو»، وفى النهاية قضوا عليها. والمرحلة الثانية للحروب بين «الطانغوت» والأويغور إنتهت بكارثة لسلطنة «أويغور قانصو».

ولقد أرسل «لى ديمين» حاكم الطانغوت(١٠٠٤ - ١٠٣٢م) سفيراً إلى «سونغ جنزونغ» إمبراطور «سونغ» عام ١٠٠٦م، وعقد معه معاهدة سلام ثم قام بالهجوم على سلطنة أويغور قانصو عام ١٠٠٨م، ولكنه تلقى هزيمة ثقيلة من الأويغور. وهرب قائد جيش الطانغوت «وانغ - زى» إلى إمبراطورية «سونغ» خوفاً من عقاب الحاكم.

وبعد عام هجم الطانغوت على الأويغور مرة أخرى بجيش قوامه ٢٠ ألف، وبمساعدة «الكيدانيين الشرقيين» حاصروا «سانديبل» عاصمة «سلطنة أويغور قانصو»، واستمر الحصار لمدة عشر أيام. ولكن «يغلاقار» حاكم الأويغور «نظم غارة ليلية على العدو، وأنزل بهم ضربة ثقيلة، وإضطر الطانغوت للهرب فى النهاية»[١٧٥]. ولم ينجح الطانغوت أيضا فى الهجوم الذى شنه على سلطنة أويغور قانصو عام ١٠١٠م.

ونستطيع القول ـ إستناداً على المعطيات التاريخية ـ أن كل الهجمات التى نظمها «الطانغوت» ضد الأويغور بين أعوام ١٠٠٨– ١٠١٠م قد باءت بالفشل.

إستمرت المعارك بلا انقطاع بين «الطانغوت» و«سلطنة أويغور قانصو» فيما بين أعوام ١٠١٠ - ١٠٢٦م. وكانت معظمها معارك صغيرة، ولكنها كانت دموية إلى حد ما. وفى المعارك التى وقعت حتى عام ١٠٢٦م قدم الأويغور المساعدة لإمارة التبت الواقعة فى منطقة «لَانْجُو» وتشتت الطانغوت. وفى تلك الأيام حاصر «الكيدانيون الشرقيون» مدينة «سانديبل» عاصمة الأويغور، لكنهم خسروا النزاع وانسحبوا.

ومع ذلك فإن الهجمة التى نظمها «الطانغوت» ضد الأويغور عام

١٠٢٦م كانت أكثر تنظيماً. ونجح «الطانغوت» في الإستيلاء على «سانديبل» عاصمة الأويغور عام ١٠٢٨م، وانتحر «يغلاقار» حاكم الأويغور، لكن أبناءه وأقاربه وقعوا فى الأسر. ونجح «الطانغوت» عام ١٠٣٦م فى الاستيلاء على مدن هامة «سوجو»، و«كاجو»، و«شاجو»، و«جيوجون»، و«يُومِن»، و«دونغ - خوانغ».

وهكذا فقدت «سلطنة الأويغور قانصو» آخر نقاط الدعم والمساندة، وهرب جزء من الأويغور باتجاه الغرب، والجزء الآخر إتجه للجنوب نحو المناطق التى يعيش فيها التبتيون[١٧٦].

ويمكن القول؛ إن جزءا من الأويغور أنقذوا حياتهم بالهرب إلى المنطقة التى يقطنها التبتيون (بجوار كوكنور) والجزء الآخر هرب إلى هضبة «إديقوت» فى الغرب (بجوار قومول)، إلا أن الصارى أويغور [أى الأويغور الصُفر] وهم أحفاد الأويغور ظلوا فى أراضيهم لم يهربوا إلى الجنوب أو الغرب بعد الهزيمة التى تلقوها أمام «الطانغوت».

هناك الكثير جداً من الوثائق والمعلومات الواردة فى كتب مؤرخى الصين فى العصور الوسطى تتعلق بالحرب بين «الطانغوت» و«سلطنة أويغور كانصو». وحتى إن لم توجد كلها، فيوجد أجزاء من بعض المعلومات فى «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشْغَرى. مثال ذلك:

زحفوا على جيش طانغوت فى زمهرير البرد
وأهانوا نساءهم وبناتهم
وأسروا رجالهم وغنموا جيادهم
ووقع طانغوت ذليلا فى الأسر.[١٧٧]
وخدع حاكم «الطانغوت» سلطان الأويغور «قاطون سني»
وضربهم حتى الموت
ولامه أصحابه
فلقى الموت وساء وجهه[١٧٨]

والرباعية الأولى تشير إلى انتصار الأويغور على «الطانغوت»، بينما تشير الرباعية الثانية انهم انهزموا. ولإلقاء مزيد من الضوء على هذا الموضوع، ينبغى لنا أن نوضح ما يعني بـ«قاطون سينى» الذى ورد فى قوله «وخدع «الطانغوت» سلطانهم».

لقد كان «وادى إرسين» الذى يقع فى منطقة «ننغشيا» داخل حدود سلطنة أويغور «قانصو». وكانت توجد مدينة فى «وادى إرسين» هذا اسمها «قاطون باليق» فى عهد سلطنة أويغور «قانصو». وعندما كتب محمود الكاشْغَرى عن «حاكم قاتون سينى» كان يشير إلى رئيس أويغور «قاطون باليق» التابعة لسلطنة أويغور «قانصو». و«قاطون سينى» مدينة صغيرة تقع بين الصين والطانغوت، وعندما كتب أن «هزم الطانغوت شعب «قاطون سينى»[١٧٩] يفهم منه أن «قاطون سينى» قصبة صغيرة.

ويزعم بعض المؤرخين الغربيين حالياً أن «سانديبل» عاصمة سلطنة أويغور قانصو ليست «قانصو» التى نقول عنها، بل ربما تكون «قاطون سينى» (قاطون باليق). وأعتقد أن البحث مازال مستمرا فى هذا الموضوع.

وهكذا يثار تساؤل فى ذهننا فيما يتعلق بالقضاء على سلطنة أويغور «قانصو» على يد «الطانغوت»: تُرى لماذا هاجم «الطانغوت» سلطنة أويغور «قانصو» وقضوا عليها؟

إن السبب الأساس فى هذا هو ضعف الأويغور فى تلك الأثناء، ووجود قبائل تمت بصلة قرابة للطانغوت يعيشون فى الأراضى الواقعة تحت حكمهم. ولكن بالنسبة لنا فإن السبب الآخر الأكثر أهمية هو السيطرة على طريق القوافل الوحيد الذى يربط الشرق بالغرب والاحتلال على أراض خصبة فى «ممر خيشي».

أما موضوع لماذا لم يقدم أويغور «إديقوت» و«القراخانيين» وهم من الدول القريبة الدعم والمساعدة لسلطنة أويغور «قانصو» فى فترة إنهيارها؛ فهو بالقطع موقف غير مفهوم. بالإضافة إلى ذلك لم ترغب

إمبراطوريـة «سـونغ» أيضـاً فـى تقديـم أى نـوعٍ مـن المسـاعدة العسـكرية لأويغـور «قانصـو». ولذلـك أرسـل الأويغـور سـفيراً إلـى «كاى - فنـغ» عاصمـة «سـونغ» عـام ٩٩٦م وإقترحـوا التعـاون ضـد «الطانغـوت»، ولكـن لـم تسـفر المباحثـات عـن نتيجـة، حتـى أنـه كـرر طلـب المسـاعدة نفسـها مـرة أخـرىٍ فـى عـام ١٠٠٨م مـن «أسـرة سـونغ»، ولكـن لـم يقـدم سـونغ جنزونـغ» رداً إيجابيـاً. وعندئـذ يلغـت الحـرب الدائـرة بيـن «الكيدانييـن الشـرقيين» و«أسـرة سـونغ» نهايتهـا، ووافقـت الأطـراف المتحاربـة علـى الجلـوس علـى طاولـة المباحثـات. وبالرغـم مـن أن أسـرة «سـونغ» كانـت تملـك كل الإمكانيـات إلا أنهـا لـم تقـدم المسـاعدة العسـكرية لسـلطنة أويغـور «قانصـو» سـوى إرسـال عـدة هدايـا وإصـدار وعـود جوفـاء. والخلاصـة أن أسـرة «سـونغ» طبقـت علـى مـدى سـنوات طويلـة مبـدأ «إقضـى علـى البربـر بيـد البربـر».

علاقات التجارة الخارجية لسلطنة أويغور قانصو

لقـد احتلـت أراضـى سـلطنة أويغـور «قانصـو» مكانـة لكونهـا نقطـة إلتقـاء طـرق مهمـة بيـن الشـرق والغـرب، ولعـب هـذا الموقـع دوراً مهمـاً جـداً فـى علاقـات التجـارة الخارجيـة للسـلطنة.

كانـت سـلطنة أويغـور قانصـو فـى فتـرة «الأسـرات الخمـس» تمـلأ فراغـاً غايـة فـى الأهميـة فـى تلبيـة إحتيـاج دول الواحـة الوسـطى مـن جيـاد الحـرب وأطقـم الجيـاد، خاصـة «جـن اللاحقـة» و«طانـغ اللاحقـة» فكانـوا باسـتمرارعند الحـرب مـع الكيدانييـن الشـرقيين ـــ يشـترون الجيـاد مـن الأويغـور. كمـا كانـت «سـونغ الشـمالية» تلبـى إحتياجهـا للجيـاد مـن الأويغـور.

فـى عـام ٩٦٥م كانـت هنـاك قافلـة مرسـلة مـن سـلطنة أويغـور قانصـو إلـى إمبراطوريـة «سـونغ» تنقـل ١٠٠٠ جـواد و٥٠٠ جمـل وأكثـر مـن ٥٠٠ حجـر ملـون لامـع و٥٠٠ تشـين (التشـين الواحـد = ٥٠٠ جـرام) و٤٠ نشـادر وألـف قطعـة مـن الجلـود المدبوغـة والأحزمـة المرصعـة والسـروج ولوازمهـا.

وإسـتناداً إلـى تلـك المعلومـات يمكـن القـول بـأن الجيـاد كانـت أهـم البضائـع المرسـلة إلـى إمبراطوريـة «سـونغ». إن العلاقـات التجاريـة بيـن

إمبراطورية «سونغ» وسلطنة أويغور «قانصو» توضح إرتباط الأويغور بعلاقات تجارية قوية ومثمرة مع جيرانهم. ومثال على ذلك فقد أرسل «سونغ جنزونغ» إمبراطور «سونغ» إلى «يغلاقار» حاكم أويغور قانصو عام ١٠١١م ٥٠٠ طقم من الملابس، و٥٠٠ إناء فضى، وسراويل قطيفة، وحزام ذهبى، فضلا عن ذلك ٤٠٠ طقم ملابس و٣٠٠ إناء من الفضة المختلفة المصنوعة من ٣٠٠ مثقال لزوجة الحاكم، كما أهدى للسفير الأويغورى أيضاً كأس فضى ومشغولات ذهبية لغطاء الرأس.

لقد أورد «مالياوكين» قائمة البضائع المتجهة من سلطنة أويغور» قانصو» إلى الصين على النحو التالى: مرجان، آلماس، عطور، جمال، جمال بسنم واحد، لؤلؤ، عسل، زجاج زئبق الصقور البيضاء، السرطان البحرى، الدواء، المواد الخام للأدوية، الجياد، جلود الجياد المدبوغة، لوازم الجياد، محاصيل محلية، السيوف الفولاذية، النشادر، الأحجار الملونة، الحلى المرصعة بالأحجار الكريمة، الملابس الجلدية، الأحذية، السرج، قرون الغزال، أطقم الحيوانات، جلود السمور، والخز الأبيض والخز الأسود، الملح، الجلود، الأقمشة الملونة، أقمشة فارس، الأقمشة الجلدية، النسيج القطنى، حلى العروس المزينة بالأحجار الكريمة، الآنية الزجاجية، الحلى، القطن، شحم الثور التبتى... إلخ.

قسم من هذه البضائع كان يتم إنتاجه فى سلطنة أويغور قانصو، أما الباقى فكانت بضائع مستوردة من دول الغرب ومن سلطنة إديقوت والقراخانيين.

● المصادروالمراجع

١ - المصادر الأساس لتاريخنا القومى، ص١.
٢ - اوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، تاشكند ١٣/١.
3 - Ma Ch'ang - shou, Turkler ve Turk Kaganligi,Cince, s.5.
4 - Pan Ku, Han –shu, Hunlar Bolumu.
5 - Cen Zhongmain, Turk Tarihi, Cince,s,663.
٦ - لى، مقياس طول قديم كان مستخدما فى الصين ويعادل ٥٥٩ مترا.
7 - Yu - Huan,Wei Hanedaninin Kisa Tarihi,Bati Runglar bolumu.
٨ - مقالات عن الثغر الغربى، دار نشر شعب سينكيانج، باللغة الصينية، ج١، ص ٥ - ٦.
٩ - نفس المرجع السابق، ص ٦.
١٠ - حولية جى الجنوبية، المجلد ٥٩، الجزء الخاص بالآوار
١١ - حولية سلالة سوى، قسم التورالر
12 Hsün Tsang Büyük Tang Zamanında Batı Ülkelerine Seyahat Notları Çınce 12 cilt s 294.296
13 G.Grjimaylo,Zapadniye Mongoliya i Uranxayski kray, Leningrad 1926,1/11. **:
١٤ - محمود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، ١/٤٤٥ (باللغة الأويغورية).
١٥ - نفس المرجع السابق، ٨٠/١.
١٦ - محمود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، ج١، المدخل، ص٤ (باللغة الأويغورية).
١٧ - نفس المرجع السابق، ٥٩/١.
١٨ - نفس المرجع السابق، ٢٥٤/١ - ٢٥٥.
١٩ - اوزبكستان، تاريخ اتجاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، ٤٨/١.
20 - Si - ma Ch'ien,Tarih Notlari,221.cilt.
٢١ - محمود الكاشغرى، ١/١٥١.
22 - Milli Tarihimizin Ana Kaynaklari,s.21.
23 - Wei Sulalesi Yilligi," Yuksek Tekerlekli Arabalilar"bolumu.
24 - Chou Sulalesi Yilligi,"Turkler«bolumu.
٢٥ - نفس الموضع.
26 - Wei - shu,Wei Sulalesi Yilligi,"Yuksek Tekerlekli Arabalilar«bolumu.
27 - Lian - shu,Kuzey Sulaleleri Tarihi,"Bati elleri"bolumu.
28 - Lui Sung,Erken Tang Sulalesi Yilligi,"Uygurlar«bolumu.
29 - Ou Yang - Hsiu,Muahhar Tang Sulalesi Yilligi" Uygurlar«bolumu.
30 - Wei - Jing,Sui Sulalesi Yilligi," Turalar«bolumu.
31 - Bilge Kagan Kitabesi, dogu yuzu,29 - 30. Satirlar.
32 Pan Ku,Han - shu,"Jing Min - ti«bolumunden.
* - سنكيانغ وتعنى المستعمرة الجديدة، وهو الإسم الذى أطلق الصينيون على تركستان الشرقية.
33 - Ou Yang - Hsiu,Muahhar T'ang Sulalesi Yilligi,"kirgzlar"bolumu.
٣٤ - نوع أبيض اللون من حجر اليشم موجود فى الأنهار التى فى ولاية خوتن بتركستان الشرقية.
35 - Xinjiang Sanati, 1985,4.sayi,s.103 - 104.

36 - هـذا الرقـم هـو رقـم صحيـح وفقـاً للأعـوام التـي كُتبـت فيهـا هـذا الكتـاب، أمـا عـدد الأتـراك فـي جميـع أنحـاء العالـم الآن يبلـغ حوالـي ٢٢٠ مليـون نسـمة (المترجـم التركـى)

37 - موجز تاريخ الشعوب التى عاشت فى شمال الصين فى الزمن القديم، باللغة الصينية، ص ٣.

٣٨ - لمـاذا الاهتمـام بعمـل التصنيـف هنـا بـدءاً مـن «اليسـار» وليـس «اليميـن»، ذلـك نظـراً لأهميـة اتجـاه اليسـار بالنسـبة للهـون، اماالكوكتـورك فـإن اتجـاه اليميـن هـو الـذي يحظـى بالأهميـة. فقـد كان يابيـو الهـون يُجلسـون الشـخصيات الهامـة فـي المجلـس علـى «اليسـار»، أماسـلاطين الكوكتـورك فكانـوا يجلسـون كبـار الشـخصيات علـى» اليميـن». واعتبـاراً مـن الكوكتـورك صـار موضـع «اليميـن»، مـن الناحيـة البروتوكوليـة، أهـم موضـع، واسـتمر هـذا العـرف حتـى مجـيء العثمانييـن، ولـم يتغيـر (داخـل العثمانييـن). (المترجـم التركـى)

٣٩ - علـى سـبيل المثـال عـرف اللقـب لـدى هـان شـو چنـج لـى – قـوت علـى أنـه چـان يـو وتطلـق أقـوام هيونـج نـو علـى السـماء چنـج لـى كمـا كانـوا يسـتخدمون كلمـة «قـو تـو» مقابـل كلمـة ابـن ونظـرا لأن الأتـراك كانـوا يطلقـون علـى السـماء طانـرى منـذ القـدم فيبـدو أن المؤرخيـن الصينيـن عبـروا بكلمـة چنـج لـى بكلمـة تنگـرى فـى كتابتهـم الهيروغليفيـة وحـل المؤلـف لكلمـة منـه بــ طانـرى قـوت محـق علـى أبعـد الحدود.

لمـاذا يبـدأ هنـا باليسـار وليـس اليميـن هـذا مصـدر قلـق، لأن أكثـر الوجهـات احترامـا لـدى الهـون اليسـار أمـا عنـد الگـوك التـرك فاليميـن، وكذلـك وزراء الهـدف العظـام كانـوا يجلسـون أعظـم الشـخصيات إلـى اليسـار أمـا الگوكالتـرك فإلـى اليميـن، واعتبـارا مـن الگـوك تـورك اسـتمرت عـادة قبـول الناحيـة اليمنـى حتـى العثمانيين.(طورغـون المـاس)

٤٠ - مصادر تاريخ المغول، باللغة الصينية، تموز ١٩٨١، ج١٩، ص١٤.

٤١ - *****

42 - Hun Tarihiyle ilgili Materyallar Mecmuasi, Cince,s.20.

43 - انطلاقا من نقطة أنه لم تتبق هناك وثيقة مكتوبة من قبائل الهون على وجه الخصوص فإنه من المستخلص تلك النظرات المغرضة للمؤرخين الغربيين على وحه الخصوص ذلك أن الذين لا يعرفون القراءة والكتابة لديهم هم شعب جاهل لا أبجدية له حيث يقول المؤرخ الروسى ل. ن جوسيليف فى كتابه المسمى «أقوام الهون"، ذى الحجم الكبير المترجم والمنشور من قبلنا : «يُذكر على سبيل المثال فى «تاريخ ثلاث حكومات" أنه كان يقينى سفرا ء فى كلا الجانبين بين الصين وفونان وهى الحكومة الكمبودية القديمة لقد زل غير الصين فى كمبوديا بين عامى 245 - 250م. ولقد أمدنا كانج طاى الذى كان يرافقه بمعلومات عن فونان بعد عودته إلى وطنه حيث قال: «توجد لديه كتب ما ويخبئ مذكراته فى الأرشيفات وأشكال كتابته تشبه كتابات الهون. (طورغون الماس)

٤٤ لدينـا بعـض الأدلـة التـى توضـح أن الهـون اسـتخدموا الكتابـة الأورخونيـة ببنيسـى اعتبـارا ممـا قبـل الميـلاد بعـدة قـرون، وقبـل فتـرة وجيـزة اكتشـف الأثريـون الـروس مقبـرة أميـر تركـى يحـوز منطقـة ايصيـق گـول، وكان يوجـد طبـق فضـى بيـن مكتشـفات مسـتخرجة مـن المقبـرة وقـد كتـب علـى الطبـق كتابـات بأبجديـة أورخـون ينيسـى المبكـرة. وقـد أثبـت أن هـذه المقبـرة تعـود إلـى القـرن الخامـس قبـل الميـلاد، وخـلاف ذلـك فقـد أرسـل سـلطان الهـون وسـائل عـدة مـرات إلـى حاكـم أسـرة هـان وأنـا مقتنـع بـأن هـذه الخطابـات قـد كتبـت بأبجديـة أورخـون ينيسـى.(طورغون المـاس)

45 - Pan Ku, Han - shu,"Hunlar«bolumunden.

٤٦ - نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

٤٧ - لين قان، تاريخ العون (باللغة الصينية، ص ٥٣.

٤٨ - نفس الموضع.

***

49 - Pan ku, han - shu,» hunlar«bolumu.

٥٠ - يو – هانج، أميرات الأسرة الحاكمة اللاتى ذهبن عرائس إإلى أسرة فو سون(باللغة الصينية) ص ٧١.

٥١ - تلـك هـى الكلمـات التـى نقلهـا ل.ن جـو مليـوف معتمـداً علـى بيجوريـن : ليـس هنـاك مـن يتفـوق علينـا فـى ركـوب الخيـل فـى الحـرب. ولهـذا السـبب فـكل الشـعوب تخشـانا. إننـا لـم نسـحق فـى ميادیـن القتـال والآن يتصـارع أخـوان مـن نفـس القبيلـة مـع بعضهمـا مـن أجـل العـرش. فإمـا أن يأتـى كبيرهمـا ويجلـس، أو صغيرهمـا – والعيـش أو المـوت يجلنبهمـا يكـون مشـرفاً. إن أحفادنـا دائمـاً يصبحـون حكامـاً علـى الشـعوب الأخـرى وإذا لـم تكـن الصيـن قويـة فإنهـا لـن تأخـذ فـى يدهـا حكـم الهـون، لمـاذا نفسـد مـا صنعـه أجدادنـا ؟، نصبـح VASSAL لأسـرة هـان الحاكمـة

معنـاه أن نحضـر حكامنـا الماضييـن ومعنـاه السـقوط فـى بئـر النسـيان.

52 - Rene Grousset, Bozkır İmparatorluğu, s. 62
53 - Feng Wen - Lien, Çin'in Umumi Tarihi. باللغة الصينية s. 192
54 - Hou - Han - shu." Siyenpiler«bölümü
55 - Ma Ch'ang - shou, Wu - huanlar ve Siyenpiler, باللغة الصينيةs. 173
56 - المرجع السابق ص ١٨٣
57 - Lin Kan, Hun Tarihi, s. 181 باللغة الصينية
58 - Wei Sülalesi Yıllığı. Yüksek Tekerlekli Arabalilar.
59 - Rasonyi, Tuna Köprüleri
60 - Yang Wei – Yan. Kuzey Sülaleler Dönemindeki Hu'ların Soyadları Hakkında Görüşler. s. 182باللغـة الصينية
61 - Mutasar Xinjiang Tarihi, s.85.باللغة الصينية
62 - المرجع السابق ص ٨٨
63 - Liang Sülalesi Yıllığı, Eftalitler bölümü
64 - Özbekistan SSSR Tarihi, 1/135 ,باللغة الأوزبكية
65 - Age., s. 88
66 - Xinjiang Enstitüsü Jurnali, 1982,n. 1,s.33
67 - Kamusname, 10. cilt
68 - المرجع السابق
69 - Kuzey Chou Sülalesi yıllığı, Türkler Bölümü
70 - Sui Sülalesi yıllığı, 84. cilt
71 - Sui Sülalesi yıllığı, Ch'ang Sung - sheng biyografisi

:***

72 - المرجع السابق
73 - Yang Zhi - chou, Sui, T'ang ve Beş Hanedan Tarihi Uzerine Tezler, ,باللغـة الصينيـة s. 16
74 - Sih - ma Kuang, Tzu - chih t'ung - chien,s.195
75 - Feng Wen - lien, Umumi Cin Tarihi,3/1, Cince,s.125 - 126.
76 - لقب يُطلق علي الحاكم الذي يُدير المنطقة الغربية للدولة التركية القديمة. بمعنى الوالى[المترجم]
77 - المرجع السابق ص ٢٧٥.
78 - محمود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.
79 - T'ang Sülalesi Yıllığı, Uygurlar bölümü
80 - Feng Wen – lien, Umumi Çin Tarihi, 3/1, s. 154
81 - Aynı yerde
82 - ★فـي وسـط أسـيا تُسـمى السـيدة التـي تقـوم بتجهيـز العروسـة قبـل الزفـاف وتعليمهـا بعـض الأصـول والقواعـد، وتقـدم لهـا النصـح بــ «ينغـه» (المترجـم التركـى)
83 - - T'ang Sülalesi Yıllığı, Uygurlar bölümü
84 - Age. , s. 195
85 - Muahhar T'ang Sülalesi Yıllığı. Koşunlar (ordula) blm.
86 - T'ang Dönemi Yadigarları Külliyatı. 72. blm
87 - Sih - ma Kuang, Tzu - chih t'ung - chien,blm.227

88 - Xinjiang Tarihiyle İlgili Araştırmalar. 1985, no. 1, s. 28(باللغة الصينية)

89 - T'ang Dönemi Yarlıkları Külliyatı, blm. 72

90 - Muahhar T'ang Sülalesi Yıllığı, Tibetliler blm., bab 196

91 - يُقصد بكلمة «خو» هنا الأويغور

92 - Xinjiang Tarihiyle İlgili Araştırmalar,1985, n. 1, s.32 باللغة الصينية

٩٣ - •باليق تعني "مدينة " في اللغة التركية القديمة

94 - Sih - ma Kuang, Tzu - shih t'ung - chien, blm. 226

95 - Wei Sülalesi Yıllığı, Yüksek Arabalılar blm.

٩٦ - المرجع السابق

٩٧ - المرجع السابق

98 - Xinjiang Gazetesi, 24 Şubat 1981 باللغة الأويغورية

99 - Özbekistan SSS Tarihi, 1/47b

100 - نفس المصدر

101 - Gafurov B.G. İstoriya Tadjikov Srednem Azii, çast 2, glava 3,s. 36 ترجمة عن الصينية)

102 - Özbekistan SSSR Tarihi, 85/1

103 - المرجع السابق

104 - Pan Ku, Han Sülalesi Yıllığı, Hunlar blm

105 - Özbekistan SSSR Tarihi, 105/1

106 - المصدر السابق، ص ١٠٩

107 - المصدر السابق ص ١١٤

108 - المصدر السابق ص ١١٦

109 - المصدر السابق ص ١١٨

110 - المصدر السابق ص ١٢١

111 - نفس المصدر

112 - نفس المصدر

113 - Lian Sülalesi Yıllığı. Eftalitler blm

114 - Özbekistan SSSR Tarihi, 1/120

115 - اوزبكستان، تاريخ جمهوريات الاتحاد السوفيتي ج1، ص293.

116 - A.Dilcar,'Kutatgu Bilik Arastirnalari",s. 15

١١٧ - وتعنى اله القمر (المترجم العربى)

١١٨ - وتعنى اله الشمس (المترجم العربى)

١١٩ - أوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، ١/٢٦٦

١٢٠ - يوشى لياوتى، البوذية والغرب، ص ٢٨٣.

١٢١ - مدخل لتاريخ الترك العام، ص ٧٣.

١٢٢ - نفس المرجع ص ٥٢

123 - Zeki Velidi Togan, Türk - Tatar Tarihi, s. 17

124 - Mahmut Kaşgari, Divanu Lügat - it - Türk,(باللغةالأويغورية) 324/111)

١٢٥ - المصدر السابق ص ٥٦٥/١

١٢٦ - المرجع اللسابق، ١/٤٤٨.

127 - Yu - şi Liao - ti, Garbda Buddizm, s. 219 - 218
128 - Özbekistan SSSR Tarihi, 271/1
129 - Bartold,Ocerki istorii Semirecya,s.(بالأويغورية) 25
130 - Özbekistan SSSR Tarihi, 277 - 276/1

١٣١ - المرجع السابق ص٢٧٣-٢٧٤.

132 - Kaşgarlı, Duvanu Lügat - it - Türk,1/196
133 - Age.,11l/489
134 - Age.,426/1
135 - Age.,254/111
136 - Yilmaz Oztuna,Buyuk Turkiye Tarihi,382/1.
137 - Sykes, Afganistan Tarihi, s. 396.
138 - Sykes, afganistan tarihi,s. 342

١٣٩ - الأثر الذى يتحدث عنه الكاتب هو الكتاب المسمى ب» ملحقات الصحاح«، وهو عبارة عن إضافات التى أضافها جمال القارشى إلى الترجمة الفارسية لقاموس أبى نصر اسماعيل الجوهرى المسمى «الصحاح». وهذا الكتاب يتضمن معلومات مفصلة عن شيوخ المغول وعلمائهم وملوكهم، وأيضا عن الأسر التركية الحاكمة القديمة التى كانت فى تركستان، ومعلومات عن آسيا الوسطى وثقافتها. والنسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة فى المكتبة الوطنية فى لننجراد. (المترجم التركى).

١٤٠ - قيلان تعني باللغة الفارسية كبير*

141 - Bartold, Yedisu Tarihi üzerine Tedkikler , s.(باللغة الأيغورية) 39
142 - Gafurov B.,Tacikler, s. "الصينية باللغة" «236
143 - Cen Zhonmian,Türk Tarihi,s."الصينية باللغة"1048
144 - Divanu Lüğat - it - Türk s. 122
145 - Yusuf Has Hacip, Kutadgu Bilik,s.1009
146 - Mahmut Kaşgari, Divanu Luğat - it - Türk, 195/1
147 - Reşat Genç, Karahanlı Devleti Teşkilatı, s. 291

١٤٨ - ديوان لغات الترك ٣١٤/١١١ - ٣١٥

١٤٩ - كلمة «توتكاك» تعنى بالأيغورية القديمة مكافحة التجسس

١٥٠ - كلمة «يازاك» تعنى بالأيغورية القديمة جاسوس

١٥١ - ديوان لغات الترك ٥٤/١

١٥٢ - المرجع السابق ٥٦/١

١٥٣ - المرجع السابق ٤٧٧/١

١٥٤ - المرجع السابق ٢/١.

١٥٥ - هذه المنارة واسمها (خوجا كالان) تقع فى مدينة بخارى. (المترجم العربى)

١٥٦ - اوزبكستان، تاريخ الاتحاد السوفيتى الروسى، ج١، ص ٥٦٧.

١٥٧ - الكاشغرى، ديوان لغات الترك، ½.

١٥٨ - اليشم: هو نوع من الأحجار النفيسة المعروفة فى تركستان.(المترجم العربي)

١٥٩ - كانت كلمة إدى بمعنى الإله، اما كلمة إديقوت فتعنى الشخص الذى باركه الإله. (المترجم التركى)

160 - Karayev U, Istorya Gosudarsiva Karahaidov,s.167.
161 - Rene Grousst,Bozkir Imparatorlugu,s.224

١٦٢ - اوزبكستان، تاريخ اتحاد الجهوريات السوفيتية الروسية، ٣٠٨/١.

١٦٣ - المولى ميرصالح الكاشغرى، جنكيزنامه، ص.٢٤ - ٢٥ باللغة الأويغورية.
١٦٤ - المرجع السابق، ص ٢٥٩.
١٦٥ - تاريخ المغول قصة متعلقة ببورتجوق ارت تكين.
١٦٦ - بحوث شينجيانج (تركستان الشرقية) للعلوم الاجتماعية، ١٩٨٥، ١، ص ١٠٩ - ١١١.
١٦٧ - المرجع السابق.
١٦٨ - معلومات عامة عن الثغر الغربى، ٩/١
١٦٩ - الكاشغرى، ديوان لغات الترك ١٥٢/١
١٧٠ - موجز تاريخ الأدب الأويغورى، قازاقستان، ص ١١.
١٧١ - المرجع نفسه ص.٩.
١٧٢ - اوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية، ٢٩٣/١.
١٧٤ -
١٧٥ - نفس المرجع السابق، ص٧٣.
١٧٦ - نفس المرجع السابق، ص٧٤.
١٧٧ - محود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، الطبعة التركية ٣٠٧/١.
١٧٨ - نفس المرجع، ٣٢٧/٣.
١٧٩ - نفس المرجع السابق ٤٤٣/٣.